HENRY KESSINGER

هنري كيسنجر

مذكّرات

ترجمة : عاطف أحمد عمران

1







الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمّان / الأردن
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : ٨٢٤٢٠٣ / ٠١ ـ مقسم ١٩

مذكّرات ـ الجزء الأوّل
هنري كيسنجر
ترجمة :
عاطف أحمد عمران / الأردنّ

الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٥

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب** / الأردن

الصفّ الضوئي :
علي الحسيني ، عمّان ، هاتف ٠٧٩/٥٣٥٦٤٩٩

هنري كيسنجر

مذكّرات

ترجمـــة : عاطف أحمـــد عمـــران

1



الفهرس

الموضوع	الصفحة

القسم الثالث: عام ١٩٧٠ / الركون إلى الأمن والاستقرار

القسم الرابع: خريف الأزمات

المقدمة

يعد هنري. أ. كيسنجر، أحد أهم المفكرين السياسيين الأمريكيين، الذين مزجوا النظرية بالتطبيق، كما أنه أحد الرموز الذي أستحق بكل جدارة أن يوصف بأنه سيد الدبلوماسية الأمريكية، دون أن ينازعه أحد على ذلك. كما قد بلغ حداً من القوة والنفوذ مما يصعب على المتابع أن يجد له مثيلاً خلال قرنين من التاريخ الأمريكي، وإستحق أن يكون إلى جانب أبرز الشخصيات في التاريخ والدبلوماسية الأوروبية، مثل ريشيليو ومترنيخ وبسمارك.

تتميز حياة كيسنجر عبر مراحلها المختلفة بلحظات فريدة من التحول، وبالأحداث والأشخاص الذين إشتركوا إلى حد كبير في توجيه حياته الفكرية والعملية، ومع ذلك فإن العنصر الهام والحاسم في تشكيل وتوجيه حياته كان قدراته الذهنية والفكرية الخاصة، والتي إستطاع من خلالهما الوصول إلى ما وصل إليه.

وشخصية كيسنجر متعددة الزوايا، كما حياته متعددة المراحل، فهو رجل مثقف أمضى الجزء الأكبر من حياته في الجامعة، وأعطى معظم شبابه للدراسة والتحصيل وراح يتأمل ويكتب في التاريخ والسياسة الدولية، وينتقد الذين يمارسون سياسة الولايات المتحدة، ويقدم البدائل لما يراه صواباً.

وهو إستاذ جامعي لم يكتف بأن يعيش حياته كلها في إطار الجامعة وحياتها وقواعدها، ولكنه مد اهتماماته ونشاطه إلى خارج حدودها، معتقداً أن ثمة خيرات وحياة أغنى، وفرصاً أوسع لممارسة وتحقيق قدرات الإنسان التي تقع خارجها، ومن الخطأ تجاهلها. وهو أيضاً رجل أوروبي لديه حساسية فائقة تجاه التاريخ والتقاليد الأوروبية.

ورغم كل ما أحاط بكيسنجر من إهتمام وأضواء وبشكل خاص منذ دخوله للبيت الأبيض، إلاّ أن القليلين هم الذين أهتموا بالجانب الفكري والثقافي لهنري كيسنجر، فواقعاً أنه شق طريقه في الحياة وإلى سلم المناصب والسلطة من خلال ما يتميز به من ذكاء وسحر الكلمة، وهو أمر تبدو أهميته أعظم في مجتمع مثل الولايات المتحدة، لايرتقي فيه الآخرون إلا بالتطاحن والمؤامرات.

فبعد حقبتين من إنتهائه من رسالة الدكتوراه التي درس فيها دبلوماسية القرن التاسع عشر وسياسته، اصبح كيسنجر وزيراً لخارجية أمريكا. والذين درسوا بعمق رسالته، ثم تابعوا أعماله السياسية والدبلوماسية لا بد أنهم لاحظوا أن دبلوماسيته، تكمن في أعماق تاريخه الأكاديمي، وتمثل إلتحاماً ملحوظاً بين شخصيته وتكوينه الأكاديمي، وبين شخصيته كسياسي ورجل دولة. ومن هنا فإنه يختلف عن معظم الساسة الأمريكيين، وعن الخمسة و الأربعين وزيراً للخارجية الأمريكية الذين سبقوه في أن سياسته إنما تتأسس على نظرية محددة، وليست على مجرد الإستجابة اليومية للأحداث. وهذه النظرية ترتكز على ثلاثة دعائم، وهي:

أولاً: أنه لكي يكون ثمة سلام، فلا بد أن تكون هناك تسوية قائمة على التفاوض يخرج منها الجميع في حالة توازن ، يقوم على أن يحصل كل طرف على قدر من الرضا، وألا يخرج منه احد وهو ساخط تماماً، وهكذا فإن أحداً لن يعمد إلى الإطاحة بهذه التسوية من خلال حرب أخرى.

ثانيا: إن القوة المنتصرة لا يجب أن تعمد إلى الإبادة التامة للمنهزم ، وإنما يجب أن تمنحه قدراً ومنفذاً لسلام مشرف.

ثالثاً: أفضل ضمان للسلام هو التوازن، وما لا يقل عنه أهمية هو من يقوم بتحقيق عملية التوازن، فهو لا يجب إطلاقاً أن يسأل من هو المخطئ، ومن هو المصيب، ومن هو الضعيف، ومن هو القوي، ولكن يجب أن يلقي بثقله إلى جانب الضعيف حتى يبدو أن التوازن سوف يختل، بغض النظر عن أي إعتبارات أخرى وهو بذلك يستعيد التوازن ويحفظ السلام.

ولد هينز الفرد كيسنجر (الذي أصبح إسمه هنري حين هاجر إلى الولايات المتحدة) في مدينة فورت بإقليم بافاريا في ألمانيا في ٢٧ مايو ١٩٢٣. وقد كان هذا العام وسيظل ذا دلالة بالنسبة لألمانيا وبالنسبة (لهنري) حيث شهد أول محاولة قام بها هتلر (ومنيت بالفشل)، للإستيلاء على الحكم في المانيا. وكان أبواه قد تزوجا قبل هذا التاريخ بعام، وكان والده يعمل مدرسا في مدرسة عليا للبنات، وكان جده كذلك مدرسا. وقد احترمت الأسرة أبا عن جد التقاليد اليهودية في الاحتفال بيوم السبت والعام المقدس ويوم كيبور. أما أمه فكانت إبنة لعائلة يهودية متوسطة الحال. وقد سكنت الأسرة الصغيرة في طابق من منزل يتكون من خمس حجرات، وكان جانب من الشقة يحفل بالعديد من الكتب وجانب آخر يتصدره بيانو. وقد قرأ الصغير الكتب وتجنب البيانو. وحين بلغ هنري السابعة كانت شوارع مدينته يتردد فيها طلقات رصاص شباب هتلر. وكان اليهود أيامها عرضة لهذه الطلقات وحين يسترجع هنرى هذه الفترة يقول أنه بعد أن رحل إلى نيويورك كان يعبر الشارع جريا كلما رأى مجموعة من الأطفال تقبل عليه أو يسيرون في إتجاهه. وكان لهنري أخ آخر يصغره بعام وقد عاش الشقيقان حياة طبيعية حيث إلتحقا مع أقرانهما بالمدرسة، وأشتركا في فرقها الرياضية ، وحين يستذكر كيسنجر أيام طفولته هو وأخوه نراه يقول: «كان

بيننا كأطفال القدر الطبيعي من المنافسة ولكنها كانت خالية من العنف أو الشجار». ومع نمو كيسنجر، كانت الحركة النازية تنمو وتتفشى. وكان إقليم بافاريا من الأقاليم التي تتعاطف بشكل كبير مع النازية، أما مدينة فورت فقد كان يسكنها ثلاثة آلاف يهودي من مجموع سكانها البالغ عددهم ثمانية آلاف، وهكذا كانت بالنسبة لهتلر وبما تمثله من تاريخ متسامح مع اليهود تحدياً لا يتقبله النقاء الآري ولهذا فقد كان يحمل إحتقاراً كبيراً لهذه المدينة. وما لبث والد كيسنجر أن طرد من وظيفته عام ١٩٣٣. وأخيراً أضطر آل كيسنجر إلى الهجرة حيث سافروا في أغسطس عام ١٩٣٨ أولاً إلى لندن حيث أقاموا أسبوعاً لدى أقارب للأم، ثم إلى الولايات المتحدة.

كان كيسنجر وقتها في الخامسة عشر من عمره، وهو عمر كاف لكي يتذكر فيه هذه التجربة ولكي تترك بصماتها على فكره وسلوكه من ناحية أخرى، ولكنه سيظل دائما يقلل من أثرها على حياته. يقول لأحد الصحفيين: « يبدو أن حياتي في فورت قد مرت دون أن تترك أي إنطباعات دائمة....» ويقول لمراسل آخر «هذا الجزء من طفولتي ليس مفتاحا لأي شيء. فلم أكن أشعر بالتعاسة ولم أكن على وعي جاد لما يجري، وبالنسبة للأطفال فإن مثل هذه الأمور ليست خطيرة ولا يتوقفون عندها. أعلم أنه من الشائع الآن تفسير الظواهر وسلوك الناس بل وإتجاهاتهم الفكرية تفسيراً نفسياً قائما على التحليل النفسي، ولكن دعني أقول لك أن الإضطهادات السياسية خلال طفولتي ليست هي التي تحكم حياتي». وقد وصف البعض هذا الإتجاه والإنكار لأي أثر تركته تجربته في موطنه الأصلي بأنه نوع من الهروب أو فقدان الذاكرة، ووصفه غيره من المهاجرين الألمان بأنه ضرب من المبالغة في الإتجاه العكسي يريد بها كيسنجر أن يعفي نفسه من الإصابات النفسية التي تعرض لها في هذه الفترة من أجل أن تبدو آراؤه الدبلوماسية ومواقفه بإعتبارها مواقف موضوعية أكثر منها شخصية.

وحين حط آل كيسنجر الرحال في الولايات المتحدة سكنوا في مستعمرة للاجئين الألمان من اليهود تقع في الطرف الشمالي من مانهاتن، وكانت هذه المستعمرة تضم مهاجرين يهوداً من روسيا، ورغم تشابه الديانة، فقد بدا آل كيسنجر بينهم كالغرباء لاختلاف الثقافات والأصول الإجتماعية حيث كان المهاجرون الروس من الطبقة العاملة ولغتهم اليهودية بينما كان آل كيسنجر، وكل المهاجرين الألمان، يفاخرون بثقافتهم العالمية.

ولم يكن إكتساب كيسنجر للطابع وأسلوب الحياة الأمريكية بالأمر السهل، فقد بدا كل شئ له جديداً يحمل طابع التحدي في اللغة ، والعمل، والمدرسة، بل أن الأب قد إكتشف أن مؤهلاته الجامعية الألمانية ليست مطلوبة، وكانوا قد إنتقلوا بعد ذلك إلى نيويورك ولذلك إضطر إلى قبول وظيفة كتابية وأسهمت الأم بقدراتها ومهاراتها في الطهي وأكتسبت في ذلك شهرة واسعة.

إلتحق هنري في سبتمبر عام ١٩٣٨ بمدرسة جورج واشنطن، وسجلت عنه مدرسته عند إلتحاقه قصوراً في اللغة وهو القصور الذي أسهم في خجله خلال أيامه في جورج واشنطن وفي تغذية إحساسه بالوحدة، ولكن ذلك الذي عانى مشكلة اللغة سيصبح بعد ذلك واحداً من الذين يمتلكون ناصيتها وستصبح لغة كتاباته تستعصي على الكثيرين.

وبدأ هنري يسجل قدراته الأكاديمية منذ إلتحاقه بالمدرسة العليا، وكان ترتيبه دائما في المقدمة بين أقرانه وحين إضطر إلى أن يتحول الى مدرسة ليلية لكي يعمل في النهار ويسهم في نفقات الأسرة لم تهتز درجاته التي كانت دائما في أعلى مستوياتها وخاصة في مادة الرياضيات. كما أظهر قدرة في الجبر والحساب بحيث صمم على أن يصبح محاسباً، وقال في هذا «بالنسبة للاجئ مثلي فإنها كانت أيسر مهنة يمكن

الحصول عليها». أما وظيفته التي حصل عليها خلال أيام دراسته فكانت في مصنع لفرش الحلاقة. يقول (هنري) عن هذه التجربة «أن أناساً كثيرين يعتبرون أن شق طريقي إلى المدرسة العليا كان تجربة ومشقة بالغة القسوة. لقد نشأت لكيلا أجد فراغاً كبيراً وليس هذا بالشيء المخجل». وحين تسلم شهادته من المدرسة العليا كان شغوفاً لكي يصبح محاسباً وكانت عندئذ «أعلى درجات طموحي» ، ومكنته درجاته من الإلتحاق بمدرسة للمحاسبة في نيويورك.

وخلال إلتحاقه بالجيش إلتقى بمهاجر ألماني آخر وإن كان مسيحياً إسمه (كرايمر) ترك عائلته وهاجر إحتجاجاً على الحكم النازي وكان قد حصل على درجة الدكتوراه في القانون من جامعة فرانكفورت وأضاف إليها بعد ذلك درجة ثانية في العلوم السياسية من جامعة روما، وقد لفت الإثنان نظر أحدهما للآخر حين كان كرايمر يتحدث إلى فرقته عن الضرورة الاخلاقية لمحاربة النازية وكان لحديثه وقع غريب على كيسنجر دفعه إلى أن يكتب له خطابا يقول فيه «عزيزي كرايمر... إستمعت إليك تتحدث أمس، وهكذا يجب أن يكون الحديث. هل أستطيع أن أساعد بشكل ما». وقد تأثر كرايمر بلهجة الخطاب الخالية من المبالغات والعبارات الخطابية وكان الإنطباع الذي تركه كاتبه فيه بأنه «رجل نظام ومبادرة» . وبعد أن توثقت علاقتهما قال كرايمر عن لقائهما الأول «بعد عشرين دقيقة من الحديث مع هنري أحسست أنني أمام تجربة غريبة، أمام شاب في العشرين من عمره رغم أنه لا يعرف شيئاً ولكنه يفهم كل شيء، وكانت مميزاته واضحة ورؤيته ظاهرة طبيعية وقلت لنفسي هذا ليس بالنموذج العادي، إن له حاسة سادسة موسيقية ولكنها الموسيقى التاريخية».

وحين تحركت فرقته الى كرفلة وهي مدينة محطمة يبلغ سكانها عشرين ألفاً وتقع في إقليم وستفاليا، عهد إلى كيسنجر أن يحل فيها النظام وقدمه كرايمر إلى

الجنرال الأمريكي الحاكم «بالذكاء غير العادي والموضوعية التي لا تجارى» فضلاً عن طلاقته في الألمانية. وحين يتذكر كيسنجر هذه الفترة من حياته نراه يقول «لا أملك إلاّ أن أعجب بالطريقة التي أدى فيها هذا الشاب ذو الواحد والعشرين عاماً مهمته، ففي خلال أيام كانت إدارة هذه المدينة تعمل من جديد بطريقة رائعة، كان لديه حاسة كامنة قوية في أن يجد طريقه وسط أكثر المواقف صعوبة» وقد دفعه نجاحه في هذا الموقع وذكاؤه لأن يتولى مهام أكبر في إدارة المناطق المختلفة في ألمانيا، وقد وصف كرايمر تناول كيسنجر لعمله في هذه المناطق بالقول.. «بالنسبة للنازية فقد أظهر تفهما إنسانياً وتحلى بضبط النفس وعدم التحيز والقبضة القوية ولكن بغير إثارة أو إغاظة لأحد، أما دليله في حياته اليومية خلال هذه الفترة فأعتقد أنه كان إيمانه الذي لم يهتز بأن القيم الأخلاقية هي قيم مطلقة.

ورغم ما عرف عنه خلال تجنيده من خجل وحياء وصف بأنه «جندي متوحد لا يتكلم بشكل طبيعي مع الناس أو يقيم معهم علاقات إنسانية» ، فقد أثبت كفاءة مشهودة في عمله الجديد حين نقل الى مدرسة القيادة الأوروبية للمخابرات، وفي مايو عام ١٩٤٦ حين سرح من الجيش إستبقته المدرسة كمدرس للتاريخ الألماني، وفي هذه الفترة كانت سمعته قد سبقته حيث منح نجمة برونزية وسلم خطاب شكر من قيادته. وبدأ حياته الجديدة برتبة كابتن وبراتب قدره ١٠ آلاف دولار سنوياً، وبالنسبة لشاب لا يحمل إلاّ مجرد دبلوم فقد كان هذا مركزاً وراتباً كبيراً وخاصة في ألمانيا في ذلك الوقت. غير أن هذا لم يقنع كيسنجر حيث كان يتطلع الى العودة الى الولايات المتحدة لكي يستكمل تعليمه ويحصل على شهادة عليا وقد أسر لكرايمر بهذا وهو من شجعه ودفعه إليه.

عاد كيسنجر إلى الولايات المتحدة في ربيع عام ١٩٤٧ حيث قدم طلبات إلتحاق لعدة كليات ومن معظمها تسلم الرد بأن باب القبول قد أقفل. ولكنه تسلم رداً آخر من جامعة هارفارد بقبوله وتقديم منحة دراسية له.

وكما وجد كيسنجر خلال فترة تجنيده الشخصية التي تفهمته وتبنته ودفتعه، فقد وجد في هارفارد كذلك من تبناه، كان هذا هو وليم بانيل اليوت أسطورة هارفارد في زمانه. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت هارفارد في تلك الأيام تشهد توسعاً كبيراً في إنشاءاتها والمعاهد الجديدة ومراكز البحث التي تقيمها وفي التسهيلات الأكاديمية التي تقدمها وهو الأمر الذي أتاح له مجالاً واسعاً لإستثمار قدراته ومد آفاقه الأكاديمية. ويصف بعض معاصري كيسنجر وزملائه في تلك الفترة سلوكه «كان يهدف دائما لإن يقيم علاقات مع من هم أعلى منه أكثر مما يقيم علاقات مع أقرانه، وكان كل شخص يعتقد عنه أنه ذو قدرة غير عادية ولكنه لم يكن يهتم إلاّ بذاته التي يتركز حولها كل إهتماماته ونشاطه، إنني أذكره رفيقاً جامد المظهر، حليق الشعر له هيئة عسكرية واضحة، وكان دائماً ملتصقا باليوت الذي كان من الواضح أنه يعامله بطريقة خاصة». ورغم هذا الإرتباط باليوت إلاّ أن كيسنجر إستطاع أن يحقق تلك المهمة الشاقة بأن يكتسب في نفس الوقت تشجيع وتأييد منافسي اليوت وهو البروفسور كارل فردريك، وكان الإعتقاد السائد في محيط هارفارد بأنك إما أن تكون تابعاً لإليوت أو فردريك ولكن كيسنجر نجح في أن يقيم علاقات ممتازة مع كليهما.

وقد وجد كيسنجر في اليوت أكثر من إستاذ جامعي، وجد فيه صديقاً وملهماً، وقال عنه كيسنجر حين وقف يكرمه عام ١٩٦٣ عندما أعتزل الأستاذية «.. لقد جعلني اليوت أكتشف دوستوفيسكي وهيغل وسبينوزا وهومر، وفي كثير من أيام الآحاد كنا نسير مسافات طويلة كان يتحدث خلالها عن قوة الحب، ويقول أن

الخطيئة الوحيدة التي لا تغتفر هي أن تستخدم الناس وكأنهم رعايا لك، وكان يقدر العظمة والإمتياز. ورغم أني لم أكن دائما أتابع كلماته، إلاّ أني كنت واثقا أني في حضور إنسان عظيم». وحين وقف اليوت يرد على كلمته وصفه بأنه «ذو عقل أصيل غير عادي، ولم يكن كغيره من الأغبياء الذين يحولون كل شيء إلى أبيض وأسود، وكان على وعي بالطبيعة البطولية للتاريخ كما لم يكن غافلاً عن روح الإنجيل وكان يفهم أسس التاريخ». والواقع أن كلمات اليوت كانت كلمات مختارة ومنتقاة وتشير بشكل واضح إلى الإضافات التي قدمها اليوت إلى البناء الفكري والثقافي لكيسنجر وخاصة في تلك المرحلة المبكرة من نموه الفكري.

وخارج نطاق الجامعة كان ثمة عالم آخر يموج بالتغير والغليان، كانت الحرب الباردة بين الشرق والغرب قد بدأت تأخذ شكلها الحاد ووقعها الضيق على الحياة الأمريكية. وفي الأوساط الجامعية ربما كان المجرى الذي تأخذه هذه الحرب وما إرتبط بها من إنقلابات شيوعية في شرق أوروبا وفي آسيا وفي فيتنام والصين لا يمثل خطراً مباشراً بالنسبة لعدد كبير من الأكاديميين الذين أعتبروا هذا التطور بعيداً عنهم. وأما كيسنجر فإن تاريخه وتجربته الشخصية مع الحكم النازي جعلت من كل توتر وغليان أياً كان موقعه وبعده، له معنى التهديد الشخصي، ولهذا فقد ثارت مخاوفه وشكوكه التي نماها ما لديه من ثقة ضئيلة في قدرة الخير على الإنتصار على الشر أو عبارات مطلقة مثل العائلة الإنسانية، فمن تجربته الشخصية ومن ملاحظته المبدئية للتاريخ أعتقد أن القوة هي العنصر الفعال في التاريخ وأن مجرد الرغبة في السلام لا تعني القدرة على تحقيقه، إلاّ أن السؤال الذي بدأ يتشكل أمامه هو كيف تستعمل هذه القوة لتحقيق السلام، وسيصبح هذا السؤال هو مركز تفكيره الإستراتيجي فيما بعد. وهذه الأفكار الأولية هي التي شكلت نتاجه الأكاديمي ورسالة تخرجه الأولى التي قدمها عام ١٩٥٠ و قضى في الإعداد لها ثلاث سنوات وجاءت تحت عنوان «معنى التاريخ :

تأملات حول سبنجلر، توينبي و كانت». وقد خرجت هذه الرسالة لكي تعكس نظرة كيسنجر إلى العالم كتجربة منقوصة غير كاملة.

والمفكرون الثلاثة الذين جمع كيسنجر بينهم وإختار أن يكتب عنهم كانوا - أو على الأقل إثنين منهم - موضع شك وتباعد عن الأوساط الأكاديمية عن تناولهم، ولهذا فقد جاء إختياره وإعادة قراءته و دراسته لهم تحدياً لعدد من المسلمات الأكاديمية الجامدة، وهو في هذا الإختيار لم يكن يعنيه أن شخصيات دراسته تقع موضع الإحترام الأكاديمي التقليدي، وإنما تركز إهتمامه حول ما وجده من أنها تخدم أهدافه العلمية وأنه كان على يقين أنه أنجز عملاً ضخماً لم يكن كل إنسان على إستعداد لقرائته بأكمله. وتتكون رسالة كيسنجر من ثلاثة أقسام رئيسية: «سبنجلر: التاريخ كحدس» «توينبي: التاريخ كعلم» «كانت وخبرة الإنسان الأخلاقية» ثم فصل ختامي عنوانه «الإحساس بالمسؤولية». وقد خرج العمل على درجة كبيرة من التركيب الذهني، وكانت عناصر الجدل ووجهات النظر فيه شخصية الى حد كبير أخضع فيها كيسنجر المفكرين الثلاثة لفحصه الذهني الخاص فيما يتعلق برؤواهم وحكمهم عليه.

يقول في مقدمة رسالته «إن الحياة معاناة، وحادثة الميلاد تتضمن في ذاتها واقعة الموت، وكما أن الإنتقال والتغير هو مصير الوجود، كذلك ليس هناك حضارة دائمة. ولا شوق يتحقق بشكل كامل».

وقد يفسر البعض إهتمامه بمشكلة الموت والحياة كإنعكاس بسيط لما حدث له ولعائلته، ولكن في الواقع أن إنشغاله بهذه المشكلة هو نتيجة لإنشغاله العام بمجرى التغير لا في حياة الفرد وإنما في حياة الأمم والشعوب والحضارات. ومن هنا كان سعيه لتلمس عناصر الضمان والتأكد في مواجهة عناصر التحلل والتغير الذي أعتبر القرن العشرين رمزاً عليها وتعبيراً عنها، لذلك سعى لإيجاد الحلول التكنيكية

لمشكلات الوجود الإنساني بالغة التعقيد. وقد رفض كيسنجر أن يضع نفسه سواء في معسكر الحتميين أو في معسكر هؤلاء الذين صمموا على الحرية الكاملة للإرداة، فقد تقبل قوانين الضرورة بالقدر الذي صمم فيه على الحاجة الى الفعل وأبدى إرتباطه الشديد بالفلسفة التي تجعل من الفرد العامل المسؤول الرئيسي عن حياته وأعماله ومن ثم عند حركة الحياة من حوله «فالعقل يكشف عن الضرورة الموضوعية وعن قوانين السببية التي لا ترحم كما يكشف عن الروابط والقدرات التي تمكن الإنسان من أن يسود بيئته..».

ويكتب أيضاً: «أن الفعل ينشأ في النهاية من ضرورة داخلية في الفرد، فإذا كان العقل يساعدنا على فهم العالم الذي نعيش فيه، والتحليل العقلي يمكن أن يساعدنا على تطوير المؤسسات التي نعمل بها، فإنه لا شيء يستطيع أن يعفي الإنسان من مسؤوليته النهائية في أن يقدم معناه الخاص في الحياة وأن يرفع نفسه فوق الضرورة».

حصل كيسنجر برسالته هذه على درجة Summa Cuma Lauda، وهي درجة لا تمنح إلا لقلائل معدودين، ورغم إغتباطه بهذا التفوق إلاّ أنه كان يمثل مشكلة بالنسبة له وذلك فيما يتعلق بالإتجاه الذي تأخذه دراسته وإعداده لشهادة الدكتوراه، فهل يستمر في دراسة من نفس نوع رسالته يعالج فيها مشكلات فلسفية أو في محيط النظرية السياسية أو أنه يجب أن يتجه إتجاهاً مختلفاً يعالج مشكلات مختلفة. كان كيسنجر يدرك أن موضوع رسالته قد أدى الهدف منه من حيث أنه ساهم في أن يسد عدداً من جوانب النقص في تكوينه الثقافي والفكري. وكان كيسنجر حين أنتهى من إعداد رسالة تخرجه، مهيأ تماماً لأن يعد للمرحلة الأخيرة لمهنته التي وطن نفسه لها وهي أن يصبح أستاذاً في الجامعة. وبإعتبار الدرجة التي حصل عليها في رسالته

فليس عليه أن يتقدم إلى ما يعرف بالإمتحانات العامة قبل الشروع في إعداد رسالته للدكتوراه ولم يكن أمامه إلاّ التفكير والإجتهاد في الحال في إختيار موضوع رسالته. وقد عرف القسم الذي سيدرس فيه بالتحرر فيما يتعلق بالسماح لطلابه أن يختاروا موضوعاتهم، وبينما أتجه الكثيرون إلى مشكلات معاصرة فإن كيسنجر لم يخضع لهذا الإغراء، فبدلاً من أن يقبل على معالجة المشكلات الدولية المعاصرة أو حتى مشكلات القرن العشرين، إتجه إتجاهاً آخر تماماً حيث إختار أن يحلل النظام الأوروبي في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد إستمد تفكيره في هذا الموضوع من تخطئة للإتجاه الذي يعتبر أن القنبلة الذرية منذ أن سقطت على هيروشيما والعلاقات الدولية تشهد عصراً مغايراً تماماً بنسخ ما شهدته العصور السابقة من أشكال العلاقات بين الدول وأساليب معالجة تلك العلاقات وأنه بهذا المعنى فإن السياسة والدبلوماسية في القرن التاسع عشر ومن ثم ساسته ومن أداروا دبلوماسيته قد أصبحوا شكلاً من أشكال الماضي فقط. وقد اعتقد كيسنجر بعكس هذا فهو لم ينكر أهمية الأسلحة الذرية وما أحدثته وستحدثه في أساليب إدارة السياسة إلاّ أنه أكد على الأهمية المستمرة للتاريخ، ومثله مثل تشيدس، فقد آمن بأن الحاضر وإن كان لا يمكن أن يحل محل الماضي أو يكرره إلا أنه لا بد أن يحمل وجه الشبه معه وكذلك الحال مع المستقبل ومن هنا تنشأ مهمة المؤرخ وهي أن يحدد أوجه التشابه وأوجه الخلاف، وسيبقى هذا ما يشغل كيسنجر عبر مراحل حياته الأكاديمية.

أكمل كيسنجر رسالته للدكتوراه عام ١٩٥٤ وجاءت تحت عنوان A World restored, Mettenich, Castlereagh, and the problems of peace 1811-1822.

ولم يكن إهتمام كيسنجر منصباً في الواقع على دراسة شخصيتي مترنيخ مستشار الإمبراطورية النمساوية، وكاسترله وزير خارجية بريطانيا بقدر ما كان

إهتمامه بمشكلات عصرهما ولأمر ما إعتقد أن ثمة شبهاً بين ما واجهته هذه الفترة وما يواجهه العصر الذي يعيش فيه. فالدراسة هي دراسة عن السلام والحرب وعن صناعة السلام والحفاظ عليه في ظروف متشابكة بالغة التعقيد. كما إهتم كيسنجر بهذه الموضوعات لأنها شجعته على أن يتأمل في العلاقة بين السياسة الخارجية والبناء السياسي الداخلي وعن دور الأيديولوجيات في العلاقات الدولية خلال فترة ثورية، وهو حين درس علاقات وسلوك دول مثل النمسا وبريطانيا وروسيا وبروسيا وفرنسا في النصف الأول من القرن التاسع عشر فإن عينيه في الواقع كانتا على ما تقدمه هذه الفترة من نموذج لنظام دولي غير مستقر يعينه على فهم نظام دولي آخر في منتصف القرن العشرين يشمل الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا وألمانيا.

وقد جاءت رسالة كيسنجر عملا فكريا وتاريخيا وثقافيا، عمل يمكن قراءته على عدة مستويات. ورغم أن الرسالة تقدم نفسها منذ اللحظة الأولى على أنها تحليل لدبلوماسية القرن التاسع عشر إلا أنها كانت في معناها الأساسي دراسة مطولة عن طبيعة رجل الدولة. فقد إهتم كيسنجر بهذا المفهوم إهتماماً بالغاً وأعتبر أن إختيار رجل الدولة إنما هو في قدرته على بيان العلاقة بين القوى وأن يتعامل معها على هذا الأساس، ورجل الدولة ليس بذلك فيلسوفاً يكفي الحكم عليه من خلال نوعيه تصوراته ولكن رجل الدولة يجب أن يكون قادراً على تطبيق تصوراته، وإعتقد أن رجل الدولة إنما يشارك دائما الأنبياء في مصيرهم حيث تتنكر لهم مجتمعاتهم في حياتهم ولا يلقون التقدير والإعجاب إلا بعد أجيال قادمة. وقد تصور كيسنجر رجل الدولة كمعلم واجبه أن يعبر الهوة بين تجربة الشعب وبين رؤيته تجاهه، بين تقاليد الأمة ومستقبلها.

حصلت رسالة كيسنجر للدكتوراه على جائزة لمستواها الأكاديمي الرفيع، وبدأ بعد حصوله عليها يبدو، في الأوساط الجامعية كعنصر يبشر بالكثير وإن كان التقدير الذي لقيه لم يرق الى الظن ـ كما قال أحد زملائه عندئذ ـ «أنه سيكون عملاقاً في ميدانه». أما علاقته بواشنطن فرغم أنها كانت في مهدها إلا أنها كانت تنبئ بأشياء كبيرة قادمة. غير أن أول الصدمات التي تلقاها كيسنجر في هارفارد كانت رفض الجامعة أن تمنحه وظيفة بها. وكان هذا بالنسبة له خيبة أمل وإحباط لم يتوقعه. أما لماذا رفضت الجامعة ذلك فإن هذا سيظل من الأسرار الأكاديمية التي لم يكشف عنها، غير أن عدداً من زملائه الذين يعرفونه أبدوا عددا من المبررات، فقد وصف بأنه صعب، وعدواني يركز على التودد وكسب ود الأساتذة ذوي النفوذ، وزيادة على هذا فإن إهتماماته المتسعة خارج هارفارد أقنعت عددا من أساتذتها أنه أكثر إهتماما بخدمة الحكومة من إهتمامه بالتدريس أو الحياة الجامعية، ولهذا فإن الإعتراض قد بني لا لإنه ليس كفئاً وإنما «لأنه لن يخدم هارفارد وإنما سيستعملها»، ورغم أن هذا الرفض كان ضربة قاصمة له، ورغم أنه حين شاع هذا في الأوساط الأكاديمية عرضت عليه جامعة شيكاغو مكاناً بين هيئة تدريسها، إلا أنه رفض هذا وظل متمسكا بهارفارد مستعينا بما أسماه صديقه كرايمر.

بدأ كيسنجر أول إتصال له من الإدارة السياسية في واشنطن عندما إحتاجت مجلة «الشؤون الدولية» الدورية التي يصدرها مجلس العلاقات الخارجية، وهو ذو نفوذ كبير، وكثيراً ما كان يوصف بأنه وزارة الخارجية الحقيقية، الى مدير تحرير، وأتجهت أنظار رئيس تحريرها هاملتون آن مسترونج إلى هارفارد، وأسرع أصدقاء كيسنجر في كتابة خطابات توصية له، ومع هذا لم يحصل على هذه الوظيفة حيث وجده آن مسترونج، الذي يكتب عن الشؤون الدولية منذ عدة حقب، وجد أسلوبه ثقيلاً، ومع هذا فإن كيسنجر لم يترك مبنى مجلس العلاقات الخارجية دون أن يترك

أثراً فيه، فقد وجد فيه آن مسترونج كمقرر لدراسة يتولاها مجموعة من ثلاثة وأربعين رجلا حول إستكشاف الوسائل - فيما عدا الحرب - لمواجهة التحدي الشيوعي وحين وقع الإختيار عليه ، قال أنه إذا كان سيقبل بهذا العمل فإن عليهم أن يعلموا «أنه سيؤديه بالشكل الذي إرتآه»، وقد أيد هذا في خطابه الى المجلس الذي حمل طابعه وشخصيته الواثقة، فقد قبل هذه الوظيفة «.. لا لأنها تبدو موجهة الى نفس خط تفكيري، ولكن لأن المجلس يبدو أنه يقدم البيئة الإنسانية التي تجتذبني». وإنتقل هنري كيسنجر وزوجته للإقامة في نيويورك وأستوعبته الدراسة التي ستحدث تحولاً كبيراً في حياته، وأصبح مجلس الشؤون الخارجية هو مدخل كيسنجر إلى السياسة والحياة الأمريكية العملية، ففي ندواته عن الشؤون الخارجية وفي حفلات العشاء التي يقيمها للزائرين من وزراء الخارجية، قدم كيسنجر الى شخصيات ذوي سلطة واسعة في الدبلوماسية والحكم والحرب والصناعة والصحافة.

وكانت السياسة التي تحظى بالإقتناع والقبول في تلك الفترة هي أن هدف السياسة الأمريكية هو إحتواء الاتحاد السوفيتي من خلال نظام عالمي من الأحلاف المعادية للشيوعية بقيادة الناتو، ومع هذا فقد كان هناك من أعضاء المجلس من يشك في السياسة التي كان يتولاها فوستر دالاس القائمة على الإنتقام الشامل، وهو الشك الذي دفع المجلس الى تكليف مجموعة من الباحثين الى تقديم بدائل لهذه السياسة وكان أعضاء هذه المجموعة يتراوحون في تخصصاتهم ما بين إنتاج الأسلحة حتى السياسة والدبلوماسية. ولم يكن كيسنجر الوحيد بين أعضاء المجموعة الذي رفض سياسة الإدارة الأمريكية، ولكنه كان الأول في أن يصيغ ويوضح هذه الشكوك. وأن ينادي بتغيير جذري في الإستراتيجية وذلك في بحث نشره في مجلة الشؤون الدولية في أبريل عام ١٩٥٥ عن «السياسة العسكرية والدفاع عن المناطق

الرمادية» ورغم أنه كان أصغر وأحدث قادم الى المجلس فإنه لم يستشعر أي تردد في التطويح بأفكار أفضل استراتيجية للسياسة الأمريكية. أما إسهامه الرئيسي في هذا الموضوع فقد ضمنه كتابه الهام عن «الأسلحة الذرية والسياسة الخارجية» والذي نشر تحت إشراف المجلس عام ١٩٥٧ وقد إستغرق منه الكتاب ثمانية عشر شهراً كرس له فيه كل وقته وذاته وعزل نفسه عن كل المصادر التي قد تعيق عمله حتى تجاه زوجته التي كان يطلب منها أن لا تحادثه وحين كان بعض الأصدقاء يذكرونه بأن هذا ليس أسلوباً إنسانياً لم يكن يبدي أي إهتمام بملاحظتهم.

وقد ظل الكتاب لمدة ١٤ إسبوعاً بين قائمة أفضل الكتب المباعة، وإن كان قد علق على ذلك أحد أصدقائه «بأنه أحسن الكتب غير المقروءة بعد توينبي»، كما حصل على جائزة ودرو ويلسون ووصفته الواشنطن بوست بأنه من غير شك أكثر الكتب أهمية عام ١٩٥٧ وربما منذ عدة أعوام، كما دفع نائب الرئيس نيكسون أن يبعث له بخطاب تهنئة وحتى دالاس الذي كان الكتاب يتحدى نظريته في الردع الشامل فقد قبل الخط الأساسي للكتاب وهو الحرب الذرية المحدودة، كما درسته دوائر البنتاغون وبه انتقل كيسنجر الى المقدمة من الأكاديميين الذي يعالجون الإستراتيجية الذرية والوطنية.

غير أنه في الوقت الذي إستقبل به الكتاب بمثل هذا الحماس من كل هذه الدوائر، فإن الصدى كان مختلفاً لدى بعض زملائه في الجامعة وخاصة بين المختصين في الشؤون الإستراتيجية والدفاعية والذين ربما رأوا معالجة كيسنجر لهذا الموضوع تطفلاً على ميدانهم، فقد قوبل الكتاب من جانبهم بالتعليق الناقد بل ووصف بالتبسيط والشعبية وقد وجد كيسنجر أن هذه الإنتقادات لا تحمل طابع النقد الأكاديمي أكثر مما تظهره من إحساس بالعداء لصاحب الكتاب. قال أحد الذين تعرضوا للكتاب بالنقد «.. إن أحدى المتناقضات في كتاب السياسة الخارجية

والأسلحة الذرية هي أنه بينما يهاجمنا صاحبه بأننا إعتمدنا بشكل كبير على التكنولوجيا وبقدر ضئيل على النظرية لحل مشاكلنا، إلا أنه حين وصل الى الحرب المحدودة فإننا نجد كيسنجر نفسه يعتمد إلى حد غير معقول وبشكل خاص على التكنولوجيا لكي تنقذه من كل المشكلات التي خلقتها الأسلحة الذرية والنتيجة أن مناقشته لهذا الموضوع تترك الانطباع بأنه إستهدف منها الدعاية والكسب الشخصي أكثر مما إستهدفه من تحليل منتظم ..».

لم تمنع هذه الإنتقادات كيسنجر من إكمال سيره العلمي، وحين عاد في صيف عام ١٩٥٧ إلى هارفارد لم يكن مجرد حامل لشهادة الدكتوراه وإنما كان إستراتيجياً في شؤون الدفاع ذا شهرة عالمية، وقد أثبت غيابه عن هارفارد أنه كان في رحلة الى الشهرة حيث منحه العالم خارج هارفارد شيئاً أنكرته هارفارد عليه وهو تأكيد تقديره لقدراته. كان عندئذ في الرابعة والثلاثين من عمره.. وكان من الواضح أن هارفارد سعيدة بعودته، فقد منحته لقب محاضر في علم الحكومات وعينته عام ١٩٥٩ أستاذاً مساعداً ثم أستاذاً عام ١٩٦٢.

وقد إستمر كيسنجر بعد عودته إلى هارفارد على صداقة بالعالم خارجها حيث عين مستشاراً لعائلة روكفلر وكان قد قابل نيلسون روكفلر في أوائل الخمسينات في مؤتمر الإستراتيجيات العسكرية ثم التقاه ثانية في مجلس الشؤون الخارجية، وحين ظهر كتاب كيسنجر عن الأسلحة الذرية طلب منه نيلسون روكفلر أن يقبل وظيفة تشغل بعض وقته كمدير لمشروع دراسات خاصة عن السياسة الخارجية والدفاعية للولايات المتحدة وبعدها بدأت العلاقات تتطور وتتعمق بينهما، والواقع أنه كان من الصعب تصور قدر كبير من العلاقة الشخصية في هذه الرابطة حيث لم يجمعهما سوى العمل ومقتضياته، لإختلاف طبائعهما، فروكفلر نموذج للإنسان القلق الكثير الحركة وهو ليس بالمفكر العميق ولكنه نشيط بدرجة لا تحتمل وأهم من هذا فإن طلب

السلطة يلح عليه وعلى سلوكه، أما كيسنجر فكان على النقيض من ذلك، فقد كان يتفادى التجمعات مثقفاً إلى حد كبير ويسيطر التفكير المنهجي عليه وهو يعلن عن نفوره وربما خوفه من الغوغاء.

وفي محيط الجامعة ظل النظر إلى كيسنجر يتزايد كأستاذ لامع وكانت محاضراته عن «مبادئ السياسة الدولية» من أوسع المحاضرات في الجامعة حيث كان يعرض أفكاره بشكل جذاب مثير للنقاش والتفكير، وبالنسبة لزملائه فما زالوا يذكرون كيسنجر هارفارد رغم أنهم يعترفون أنهم يجدون صعوبة في أن يجدوا كيسنجر هارفارد في كيسنجر واشنطن (السياسي)، ويقولون عنه أنه كان حساساً جداً حول ما كان يعتقده عنه زملاؤه وبدأت تعرف عنه صلاته الخارجية غير العادية وأنه يعمل على أساس أن البقاء في هارفارد فقط لا يمثل شيئا بمن يهتم بالسلطة، كما عرف عنه في اوساط طلبته أنه يهتم بطلبته المبتدئين الذين كان يشعر أنهم يهتمون ويقبلون عليه لأفكاره ذاتها وأنهم يجدون فيها شيئا يجتذبهم، ولهذا كان يهتم بهم ويجمعهم حوله بل ويتناول معهم العشاء من وقت لآخر أما الطلبة الذين تخرجوا فقد كان يعتقد أنهم لا يهتمون به إلا من أجل مصلحتهم وأنهم يريدون إستخدامه لهذا الهدف.

وفي هارفارد أدخل كيسنجر تجديداً في الحياة الجامعية حين تجاوز حدودها الجغرافية بدعوته لشخصيات رسمية كبيرة من واشنطن تعمل في ميدان السياسة والدبلوماسية والدفاع لعقد ندوات في هارفارد، كانوا يرون فيها تجديداً لفكرهم وسبيلاً للخروج من النطاق البيروقراطي والتعرف على أفكارالحياة الأكاديمية، أما بالنسبة لكيسنجر فقد كان يرى فيها تقديما لرجال الحكم والسياسة إلى طلابه، وبطبيعة الحال كان على وعي أنه بدعوته لهذه الشخصيات البارزة إنما

يوسع روابطه وصلاته برجال الحكم والسلطة في واشنطن، الأمر الذي أثار شكوك زملائه في هارفارد.

أما التجديد الهام الآخر الذي أدخله كيسنجر على هارفارد فهو ما عرف بندوة هارفارد الدولية. ففي مطلع عام ١٩٥١ بدأ هو ووليم اليوت يخططان لشيء جديد يدخلانه على هارفارد، وهو المشروع الذي تطور حتى أصبح يعرف في الأوساط الأكاديمية وغيرها في العالم المهتمة بالشؤون الخارجية بندوة هارفارد الدولية.

وفي أوائل عام ١٩٦١ خاض كيسنجر تجربته الأولى مع دوائر النفوذ وأجهزة السلطة في البيت الأبيض، عندما دعاه زميله ماك جورج بندى الذي ترك هارفارد ليصبح مساعد الرئيس كينيدي الخاص، للعمل كمستشار في البيت الأبيض لشؤون السياسة الدفاعية والأمن. وقد إعتبر كيسنجر هذا التعيين ضربة حظ بالنسبة له فقد أعطته الفرصة لكي يجتمع مراراً مع قادة أوروبا الغربية وأن يقف في الدوائر السياسية كشخصية مرموقة من شخصيات البيت الأبيض، ومع هذا فإنه قد شهد أوقاتا عصيبية مع صناع السياسة الفعليين وكذا مع من يحيطون بهم في البيت الأبيض. فحقيقة أنه قد أصبح له مكتب في أحد أبنية البيت الأبيض وكان يستشار بشكل منتظم ربما مرة كل أسبوع، وخلال أزمة برلين عام ١٩٦١ تخلى عن واجباته في الجامعة لكي يتمكن من العمل كل الوقت في واشنطن، إلا أنه مع هذا فنادرا ما كان في مركز النشاط وكان دائما يرى وهو يروح هنا وهناك يبحث بشغف عن باب يفتح له ولم يكن يطلع على البرقيات المشفرة الحساسة، كما لم يكن عضوا في مجموعة العمل التي شكلت حول الأزمة، وبالنسبة لموظفي البيت الأبيض الذين لم يكونوا أصدقاء شخصيين له سرعان ما تشكلت بينه وبينهم علاقة من النفور والتباعد المتبادل.

من الدروس التي استخلصها كيسنجر من تلك الفترة أنه كمستشار فإن نفوذه على السياسة لا يمكن الا أن يكون محدودا حيث تبين له أنه نادرا ما يكون موجودا حين تتخذ القرارات. ثم ـ وما هو أكثر أهمية ـ فإنه نادرا ما يتصل بالرئيس، وقد وصل به الأمر أن رجا ماك جورج بندى أن يسمح له بأن يرى كينيدي بشكل أكثر إنتظاما ولكن بندى ـ الذي يعلم جيدا أن كيسنجر ليس مستعدا للتخلي عن مكانه في هارفارد ـ طلب منه الخيار بين أن يعمل كل الوقت وبين أن لا يعمل على الإطلاق، وفي هذه المواجهة عانى كيسنجر إحساسا بعدم السلطة وهو الشعور الذي لن ينساه في السنوات القادمة، كما أن ما أثر فيه بشكل بالغ وترك فيه جرحا عميقا، أن يصدر هذا عن زميل وصديق قديم مثل بندى، إلا أنه من السخريات أن كيسنجر بعد ثمانية أعوام من إخراجه من البيت الأبيض وإبعاده عن الرئيس سوف لن يسمح تقريبا لأي من هيئة مجلس الأمن القومي من أن يكون له أي إتصال ثابت ودائم «برئيسه».

أما الدرس الثاني الذي استخلصه من هذه التجربة وكما رواه لأحد أصدقائه «أن الطريق الوحيد في أن يتعامل بشكل فعال مع الناس في مثل هذا المستوى هو أن تنتظرهم يدعونك وأن يخبروك ماذا يريدون أن يسمعوا منك أو تقول لهم» ـ وقد وعى كيسنجر هذا الدرس وراح ينتظر من يدعوه.

سعت كلير بوث لوسي، عضوة الكونغرس وسفيرة الولايات المتحدة في روما، لترتيب لقاء بين ريتشارد نيكسون وكيسنجر، وبعد محاولات عديدة نجحت بالفعل في ذلك، ففي إحدى إحتفالات أعياد الميلاد في عام ١٩٦٧، سارعت لوسي إلى جمعهما معاً في غرفة مكتبها. ولم يتحدث الرجلان إلا بضع دقائق، وجاء لقاؤهما في الواقع في لحظة هامة في تاريخ كل منهما، نيكسون الذي خسر الإنتخابات عام ١٩٦٠ أمام كينيدى، وفاز عليه جولد ووتر عام ١٩٦٤ في إنتخابات الحزب الجمهوري لمرشحه،

يحـاول مـرة أخـرى أن يفـوز بترشـيح حزبـه في الصـيف المقبـل، وكيسـنجر أسـتاذ الحكومات في هارفارد ذو القدرة الواسعة المعترف بها ومستشار السياسة الخارجية لأكثر منافسـي نيكسـون وأكثـرهم تصـميماً نيلسـون روكفلـر حـاكم ولايـة نيويورك، في هـذه اللحظات التي إلتقوا فيها لم يتعرض الرجلان لموضـوع الإنتخابـات الحسـاس وتحدثا بدلا من هذا عن كتابات كيسنجر وتذكر نائب الرئيس السـابق إعجابه بكتـاب كيسنجر الأول عن الأسلحة الذرية والسياسـة الخـارجية . وعلـى هـذا لم يكـن اللقـاء حاراً بأي حال من الأحـوال علق عليه كيسـنجر فيمـا بعـد بـأن «كلانـا لم يكـن يصـلح للحديث والمناقشة في حفل عام» ووصـف نيكسون بأنه كان جامدا ووصـف نفسـه بأنـه كان متباعدا عن محدثه، ولكن كان ثمة رجل آخر يقف بينهما خـلال هـذا اللقـاء وهـو روكفلر، أو أن كيسنجر، رغم أنه لم يكن قد قابل نيكسون من قبل، إنمـا كـان يشـارك الأكاديميين تحيزهم ولم يبدي نيكسون خلال حديثه القصير معه أي شـيء يشير إلى هذا التحيز بل ربما على العكس كان يمكن أن يصحح صـورته عن الرجل حيث لمس أن نيكسون يتكلم «بطريقة رقيقة وأكثر تفكيراً» عما توقع. أما بالنسبة لنيكسـون فقد غادر حفل لوسي بإنطباع أنه إستمتع بلقائه الشخصي الأول مع كيسـنجر.

ولم يلتـق الـرجلان بعـد هـذا الا في نـوفمبر عـام ١٩٦٨، ورغـم أن لقائهمـا الأول لم يكن شـيئا فـإن كيسـنجر مثـل غيره من الكثيرين من المثقفين، ظل مهمومـا بفكـره أن يصبح نيكسون رئيساً، حيث كان بالنسبة لهم يبـدو ضـحلا، محبـا للسـلطة، غير حـذر ومعاد للشيوعية بشكل واضح وبدرجة قد تؤدي بالولايات المتحدة الى مواجهـة ذريـة مـع موسكو وبكين، وكان هذا يجعل كيسنجر يقول لأصدقائه المقربين «هذا الرجل لا يصـلح لأن يكون رئيسـاً» . ويقـول: «إن ريتشـارد نيكسـون أكثـر النـاس خطـراً بـين المتنافسـين لكي يصبح رئيساً». وكـان كيسـنجر يعتقد أن أمريكا عـام ١٩٦٨ انمـا تبحـث عن قائـد يوحدها، يمتلك احساسا بالأولويات الوطنية ويميز بين التحديات الدوليـة القائمـة. وكـان

كيسنجر يعتبر أن روكفلر هو أفضل المرشحين ليملأ هذا الدور. وحين وقف منافسا لنيكسون حول مرشح الحزب وضع كيسنجر كل طاقاته الجسمانية والذهنية في خدمة حملة روكفلر. وخصص لها أياما طويلة كان يصحب خلالها روكفلر في ندوة عن السياسة الخارجية في الصباح، والى جلسة مع طلابه بعد الظهر ثم يعود معه الى نيويورك في المساء وقد لعب كيسنجر دورا فريدا في هذه الحملة حين كان المراسلون يسألون روكفلر عن مواقفه من فيتنام أو البانتو أو الأسلحة الذرية كان يحيلهم إلى كيسنجر «فهو الوحيد الذي يستطيع أن يوضح موقفنا ويجعله يبدو صحيحا».

وفي أغسطس عام ١٩٦٨ صحب روكفلر كيسنجر الى مؤتمر الحزب في ميامي، وكانت هيئة روكفلر ما زالت تأمل أن يفوز رجلها بترشيح الحزب نتيجة ضربة حظ مفاجئة حيث كان واضحا أن كل الأوراق قد أعطيت لنيكسون - وشغل كيسنجر جناحا واسعا في الدور الأربعين من الفندق الذي يقيم فيه روكفلر. وبدا كيسنجر مسحورا بما يجرى أمامه من عناصر اللعبة السياسية من مضاربة، وتسريب للأنباء، وبالأحاديث الخاصة والعامة بين المرشحين وأنصارهم، وبين هؤلاء ورجال المال ، وبين رجال المال والصحفيين، وبدهاليز الفندق وغرفه الخلفية وما يجري فيها وداخلها وعلى شاشات التلفزيون. كان هذا كله بالنسبة لأستاذ جامعي ندوة غير مألوفة ودرسا في الحكومات لا نتيجة الكتب ولا المراجع ولن يتكرر في هارفارد. وقد وصف روكفلر بعد ذلك سلوك كيسنجر وأحساسه في تلك الفترة بقوله «كان يبدو فعلا أنه يحب هذا الجو، وكان من الواضح أنه يتألق في جو المؤامرات، ولكنه كان دائما يتعرف على ما هو جوهري وما هو تافه خلال مساومات ساعات الإفطار ومضاربات منتصف الليل».

وبقدر ما سحق نيكسون روكفلر في انتخابات الحزب، بقدر ما سحقت تلك الهزيمة كيسنجر، وطبقا لبعض الروايات أن كيسنجر قد بكى وعاد ليلتها الى شقته

ونام حتى الصباح، وروى أحد المراسلين الذين تحدثوا اليه تليفونيا في الصباح «أنه كان يبدو مهزوزا خائب الأمل وأكثر حزنا من أي وقت» ، وفي اليوم التالي للإنتخابات وفيما يروي بعض أصدقائه كرر كيسنجر موقفه «من هذا الرجل نيكسون الذي ليس له الحق في أن يحكم».

غير انه اذا كان كيسنجر معاديا لنيكسون، فان نيكسون لم يكن كذلك، فبعد أن انتهى كل شيء في انتخابات الحزب، دق جرس التليفون يوما في منزل كيسنجر وكان المتكلم أحد مساعدي نيكسون يستفسر عما اذا كان كيسنجر مستعدا للعمل مع نيكسون مرشح الرئاسة، كانت اجابة كيسنجر معلقة ومشروطة. فهو باعتباره خبيرا فسيكون مستعدا لأن يجيب على أي أسئلة حول السياسة الخارجية ولكنه لن يشارك في اجتماعات رسمية ولن يكتب تقريرا لموقف، وبمعنى آخر فهو ليس مستعدا لأن يشارك فريق نيكسون ولكن اذا أرادوا دعوته من وقت لآخر فان خبرته ستكون تحت تصرفهم.

وقد توقف الكثيرون عند هذه النقلة غير العادية بعد يوم وليلة من العداء السافر الى التقارب المتحفظ. فسره البعض بأنه أعلى درجات الانتهازية ، وقال آخرون ممن يعجبون به انه كان دائما يشعر أن الواجب العام يعلو على الاعتبارات والتحيزات الشخصية. وقد سبق له أن قدم فكرة عن السياسة الخارجية للولايات المتحدة لأثنين من الرؤساء، فاذا كان اليوم يبدو مستعدا لتقديم خبرته لمرشح الرئاسة فان هذا ليس الا امتدادا مرنا لقضيته في السياسة الخارجية، بالاضافة الى هذا فقد اطلقت اشاعات كثيرة عن احتمال أن يتولى روكفلر منصباً في إدارة نيكسون، على أية حال فان كيسنجر في هذه المرحلة ما كان يمارسه على المستوى الشخصي، سيمارسه فيما بعد في السياسة الدولية وعلى المستوى العالمي وهو ترك كل الاحتمالات مفتوحة وقائمة.

التعين
و
التنظيم

الفصل الأول

استلام الحكم

جواباً على مخابرة مكتب الرئيس المنتخب ريتشارد نيكسون، حضرت في تمام الساعة العاشرة من صباح الاثنين المصادف ٢٥ تشرين الثاني إلى جناح نيكسون المؤقت، الكائن في الطابق التاسع والثلاثين من فندق بيير، دون معرفة ما يُراد بي، غير منتظر في الواقع مباحثة ستغير مجرى حياتي، كنت أفكر فقط في أن الرئيس المنتخب كان يريد معرفة رأيي حول المشاكل السياسية التي ستجابهه.

في صالة الاستقبال، التقيت بدوايت شابين، الذي قادني بأدب وثبات إلى قاعة كبيرة في نهاية الصالة، وأعلمني أن الرئيس المنتخب سيكون عندي بعد لحظات. كان الرئيس وحسب عادته يمكث في غرفة مجاورة لتهدئة أعصابه وللتفكير بما سيبديه من الملاحظات المسجلة في مذكرته الفخمة التي لم يكن يظهرها لزائريه.

عندما دخل القاعة، كان يُظهر هيئة مرحة لم تكن لتخفي عصبيته الزائدة، جلس على أريكة مديراً ظهره إلى نافذة كانت تطل على الشارع، وأشار عليّ بالجلوس

على كرسي مقابله. كان يظهر عليه التردد، مع حركات مختلفة لا علاقة بها مع طروحاته، كما لو أنه عرضة لعاطفتين متعارضتين. وكان يتحدث بصوت هادئ ولطيف، محتسياً بجرعات صغيرة فناجين القهوة التي كانوا يحضرونها له الواحدة تلو الأخرى دون طلب.

حدثني عن الحكومة الجديدة التي سيشكلها، مبدياً صعوبة هذه المهمة، كما أكد أن الأعمال السياسية أتعبته حين كان نائباً لرئيس يجهل تصريف أموره. كان ينتظر إذاً تسيير السياسة الخارجية بدءاً من البيـ ت الأبيض، وحسب رأيه، فإن حكومة جونسون لم تأخذ العسكريين بعين الاعتبار، وطريقة اتخاذ قراراتها ما كانت لتترك للرئيس الاختيار الحقيقي، إذ كانت صاحبة الأمر بإبعاد مصلحة الاستخبارات الأمريكية (C.I.A) عن الاشتراك في السياسة، فكانت (C.I.A) ملأى بالمتحررين، خريجي المدارس الكبرى، الذين بحجة الموضوعية التحليلية، كانوا يجتهدون فرض نظرياتهم الخاصة. أضف إلى ذلك فإن رجال (C.I.A) كانوا دائماً أعداء السياسيين.

عرض عليّ نيكسون خطوطاً عريضة حول كيفية رسم السياسة الخارجية، انذهلت من بعد نظره وسعة إطلاعه، التي كانت تتعارض مع الفكرة التي كنت أكونها عنه. وسألني عن رأيي فيمن يكون أهلاً لسياسته الخارجية؟ فأجبت أن المشكلة العظمى تكمن في تحرير سياستنا الخارجية من الركون إلى القرارات المرتبطة بأفكار ومواقف الذين يصدرونها. أما بالنسبة لي فإن هذه السياسة يجب أن تتركز على بعض المبادئ الأساسية ذات نفع قومي يسمح لها بالبقاء عبر التغيرات الحكومية.

وبدءاً من ذلك أخذت المحادثة تتعقد، لأن خوف عدم الرضى كان يؤدّي بنيكسون لطرح مقترحاته بطريقة ملتوية يصبح من الصعب معها معرفة قصده وحتى أي اقتراح دقيق يريد تنفيذه. وبعد لقاءات عدّة، توصلت أخيراً إلى فهم ما يرمي إليه. واعتبرت أن الكلمات بالنسبة لنيكسون كانت ككرات البلياردو، وما يحسب منها

ليس ما يُطرح بل ما يُحدث تأثيرات. غير أني خلال أول لقاء لم أستطع إدراك ما يبغيه مني.

وللدلالة على أن المحادثة أشرفت على نهايتها، ضغط نيكسون على زر، فظهر رجل شعره واقف، مثبت بأربعة دبابيس بهيئة نشيطة فقدمه لي، وكان يدعي بوب هالدمان، وطلب إليه تمديد خط هاتفي مباشر مع مكتبي في هارفارد للتمكن من متابعة هذا الحديث في المستقبل. سجل هالدمان هذا الطلب الغريب دون اعتراض أبداً على مذكرة صفراء.

بعد وداع الرئيس المنتخب لم تتكون لديّ فكرة واضحة عمّا كان ينتظرني منه. وتبعاً للحديث الذي أجريناه كان من الصعب معرفة ما إذا كان نيكسون يريد نصحاً أو ارتباطات، وفي هذه الحال في أي أمر؟ وفيما أنا خارج، طلب مني هالدمان مرافقته إلى مكتبه، الملاصق لمكتب نيكسون. وكل ما قاله لم يوضح لي أي شيء حول الفكرة التي كانت تجول في خاطري، ولم أفاتحه بها. بل بالعكس فقد رأيته مسرعاً في وصف عمله لي. وشرح لي بابتذال أن مهمته الرئيسية كانت تقوم على منع كل حركة تجاوز. وسيحرص على ألاّ يقدّم للرئيس أي عرض دون التعليق عليه من قبل أحد العاملين في البيت الأبيض، ويحسن بأحدهم حضور كل محادثة تجري مع الرئيس. وبيَّن لي أنه غيَّر عناوين أهم ذوي العلاقة المختصين بالبيت الأبيض، بالرغم من أن ليس هناك من يعرف ما يقصد بالمختصين. وبدلاً استعمال لفظة مساعدي الرئيس الخاصيّن، وسيدعون من الآن فصاعداً معاوني الرئيس. وبعد إيضاح ذلك بهيئة مرضية، توادعنا.

بعد ظهر هذا اليوم، عدت إلى هارفارد في الوقت المحدد لألقي درسي في الساعة السادسة عشرة حول سياسة الأمن القومي. كانت زيارتي للرئيس المنتخب، موضوع

كل الأحاديث. ولم يدرك أحد بأن منصباً في الحكومة الجديدة سيقدَّم لي. كما أن أية صحيفة لم تعلّق على هذا اللقاء، وقليلون هم الأصدقاء الذين أظهروا اهتماماً. تلقيت في اليوم التالي مخابرة هاتفية من نلسون روكفلر الذي كان قد التقى الرئيس المنتخب، وبين له أنه يؤدي خدمة أكبر للوطن كحاكم لولاية نيويورك أكثر من أن يكون عضواً في الحكومة، وأضاف نيكسون أنه بسبب أهمية الانتخابات القادمة في عام ١٩٧٠ كان لزاماً على روكفلر أن يكمل الإشراف على قائمة ولاية نيويورك. كما أن نيكسون كان قد طرح عليه أسئلة كثيرة حولي ولا سيما عن تصرفاتي في الأزمات. وأكد لي روكفلر أنه طمأن الرئيس تماماً حول هذا الموضوع. وقصَّ علي حديثه بصورة مجردة دون تعليق، ولم يعلق أبداً حول معرفة ما إذا كنت أريد الالتحاق في خدمة نيكسون.

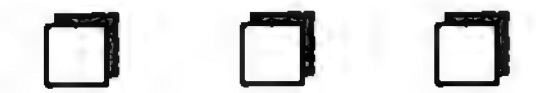
وبعد هذا بساعة، تلقيت مخابرة من مكتب جون ميتشيل الذي كان يقترح عليٌ لقاءً في الغد للتباحث حول المنصب الذي سأشغله في الحكومة الجديدة. ذهبت مساءً إلى نيويورك لزيارة ماك جورج بوندي، الذي بعد مغادرته البيت الأبيض أصبح مديراً لمؤسسة فورد. كان يعجبني فيه فكره النيرّ، حتى في أحلك الأوقات، إذ كان يستعمله في خدمة أمور مغرية موضوعية أكثر مما جعلت له أصلاً. لقد كان بالنسبة لي حساساً لطيفاً أكثر مما يكون في تصرفاته اليومية العادية والتي لم تكن تسمح له بالتريث. كان عنده ميل لمعاملتي بهذا المزيج من الأدب والتسامح الغريزي أكثر من مواطني الطبقات العليا في بوستون الذين يحتفظون للناس حسب مقاييس انكلترا الجديدة، لهم ماضٍ غريب وأسلوب خاص مميّز جداً.

في الواقع، كنت أحمل لبوندي احتراماً كبيراً. فلو عايش زمناً أقل قسوة، لكانت سلوكيته تضاهي سلوكية مثيله هنري ستمسون الذي كتب ترجمة حياته. ولكان ارتقى المناصب الحكومية ليصل إلى أعلاها. وأن تجربته تتساوى مع كفاءاته الفكرية

الباهرة ومحاكمته العقلية تتساوى مع ثقته بنفسه. ومن سوء حظه أنه بدأ بخدمة الحكومة في عهد الانقلاب ضمن المؤسسات. ورفاقه أنفسهم كادوا يسببّون له نقاط تساؤل ثابتة، بحيث أنه كان مشهوراً دوماً في المعسكر السياسي، لكن في الوقت ذاته أخذت هذه الشهرة بالانحدار. كان نصير سياسة القوة بالنسبة لفيتنام، فاصطدم بفساد الفئات القائدة، التي عايشت الحرب فقط بمبادئها. وفي أعماق نفسه كان محافظاً، وارتباطاته السابقة سعت به للقتال في ساحة سببت له الفشل. وبين التنازع بين اعتقاداته وغريزته، وبين ذكائه وحاجة موالاته العاطفية، خسر بوندي الأنصار الذين كان من الممكن أن يجعلوا منه مستشاراً عاماً دائماً لهم، مثل جون كلوي أو دافيد بروس. وكان يملك دون شك المزايا العلمية العليا، والأخلاق والتهذيب التي تسمح له أن يؤدي للأمة خدمات أكبر من التي سمح له قدره بتأديتها حتى الآن.

كنت أكن له اعتباراً كبيراً، إذ كان الوحيد الذي استمزجت رأيه قبل اللقاء بميتشيل، فحدثته عن المنصب المنتظر تقديمه لي في وزارة الشؤون الخارجية. والرأي الذي أبداه لي كان يظهر جيداً على أي مستوى كان، وصرّح لي بوجوب معالجة تسميتي، وسيكون من سوء طالعي إذا أراد الرئيس المنتخب تسمية معاوني وزارة قبل تعيين وزير شؤون الخارجية وأضاف بأن تاريخ حكومة كينيدي كان ليدلّنا أن نوعاً من هذا التصرّف قوض سلطة الوزير دون توسيع نفوذ الرئيس. ونصحني بقوّة، فيما لو خيّرت باختيار منصب مدير فريق العمل والتعاون السياسي (هيئة التوجيه السياسي. Policy Peanning Staff) شريطة أن يكون وزير الشؤون الخارجية واحداً ممن أعرفهم وأثق بهم.

وحول اشتراكي في حكومة نيكسون فلم يُبد أية ملاحظة.



كان جون ميتشيل جالساً وراء مكتبه عندما دخلت، وكان قد هيأ للتو غليونه، كان رجلاً واثقاً من نفسه ومقتصداً في الكلام، فكان إن دخل مباشرة وسريعاً في صلب الموضوع:

- ماذا عرفت حول موضوع المنصب الذي عرض عليك في الأمن القومي؟

- لا أعلم فيما إذا كان قد عرض عليّ.

- آه يا إلهي، أردف قائلا: لقد أضعت كل شيء ...

نهض عن كرسيه متطاولا وترك الغرفة بتأنٍ عاد بعد خمس دقائق وأعلمني أن الرئيس المنتخب يريد مقابلتي، ثم رافقني حتى القاعة.

أزاح نيكسون هذه المرة الستار عن نواياه، وعرض عليّ منصب مستشار لشؤون الأمن. وبالإجمال فقد أعاد الرئيس الأفكار ذاتها التي أظهرها قبل يومين، مشيراً بأكثر مدلولية أن مصلحة الاستخبارات المركزية (C.I.A) حسب رأيه كانت دون كفاءة ولا يمكن الثقة بوزارة الشؤون الخارجية. كان منصبي إذاً على جانب كبير من الأهمية والحيوية بالنسبة له وللطريقة التي كان يفكر فيها بإدارة السياسة الخارجية بدءاً من البيت الأبيض. تكلمنا باختصار عن المهمة الواجب علي إكمالها. وُضعت النقاط على الحروف وبيّنت له أني عندما كنت أشغل سابقاً وظيفة مستشار كنت أرفض مقابلة الصحفيين. قبل الرئيس المنتخب باهتمام أن أكمل تصرفي هذا وكان على المستقبل أن يظهر أن كلاً منا لم يتصرف ببعد نظر في هذا الموضوع.

قلت للرئيس المنتخب أنني سأكون بلا نفع دون مؤازرة أصدقائي وشركائي المعنوية (رأي ظهر مغلوطاً) ورجوته منحي أسبوعاً لأخذ رأيهم.

بدأت حالاً بعد هذه المقابلة في جسّ نبض أصدقائي وزملائي، استعجلني جميعهم في القبول ودون ريب أن رغبتهم في معرفة شخصية ذات تأثير في واشنطن

قادرة أن تفتح لهم منافذ السلطة ـ الشيء الذي تذوقه عدة أساتذة في السنوات التي تلت عهد كينيدي ـ فرغبتهم هذه كان لها تأثير في نصائحهم. ومنهم من كان يخشى أهمية سوء التفاهم. وفي الواقع يمكن أن بعض أصدقائي وزملائي رأوا في علاقاتنا، ليس فقط ضمانة في منافذ موارد السلطة، بل أيضاً في تنفيذ نواياهم، وهذا كان مستحيلاً لسببين: المنافسة القوية الموجودة بين نيكسون والمثقفين التي كان لها أصل عميق حقاً سواء من وجهة النظر الفلسفية أو من حيث شخصيته وفي الحقيقة أن نيكسون لم يكن يقدم لهم ثقة لا يستحقونها، وكانوا يستطيعون أحياناً معايشة الوضع، لكن المشاركة العملية أبداً. أضف إلى ذلك بالرغم من أني أبديت احتراماً لزملائي ودماثة خلق لكثير منهم، لا سيما في شغلي وظيفة مستشار الرئيس، إذ كان يجب عليّ أن أكون أميناً جداً لرئيسي، واجتهد في المساهمة بقدر كبير في سياسته. مع الوقت تبيّن أن اختلاف النظر هذا كان سبب تنافر كبير بالنسبة لي ولهم.

ومع نيلسون روكفلر جرت المحادثة الحاسمة. فأكّد لي أنه لم يكن لديّ خيار وكان يجب عليّ قبول العرض الذي قدم لي، ورفضي يكون برهاناً على الأنانية بكل وضوح. وإذا رفضت عرض الرئيس المنتخب سألوم نفسي عن كل إخفاق في سياستنا الخارجية. في نهاية بعد ظهر يوم الجمعة الموافق ٢٩ تشرين ثاني، استدعيت مستشار نيكسون ـ برايس هارلو ـ وطلبت منه إعلام الرئيس المنتخب أني أتشرف بقبول عرضه.

كان يجب أن يعلن تعييني في تمام الساعة العاشرة من يوم الاثنين الموافق ٢ كانون الأول، وهكذا صعدت على منصّة قاعة الرقص في فندق بيير برفقة الرئيس المنتخب للبدء بأول مؤتمر صحفي. كان نيكسون عصبياً كالعادة، وكان يتهيأ لإحباط الانتقادات الداهمة التي أعلن عنها برنامجاً مختلفاً تماماً عمّا كلفني به بصورة غير

علنية. فأعلن أن معاونه مكلف بقضايا الأمن القومي وسيكلّف قبل أي شيء بمهمة التنظيم. وكانت نيّته تعيين وزير نشيط للشؤون الخارجية. والمعاون صاحب العلاقة سوف لا يتدخل بين الرئيس ووزير الشؤون الخارجية. وسيهتم فقط بالقضايا ذات المدى البعيد وليس بالأمور العاجلة. كنت متأكداً أن هذا يوافق تطلعاتي الخاصة وزد على ذلك أنه لم تكن لديّ أية نيّة بالاهتمام العلني بأمور السياسة الخارجية.

وللأسف فإن وعود حكومة جديدة هي كأوراق تطفو فوق بحر مضطرب، لم يُتَح لـي ولا لأي منتخب ولا لأي من مستشاريه معرفة الجهة التي ستدفعهم إليها في النهاية عاصفة اللقاءات مع التاريخ، معلومات مبهمة، اختيارات مؤثرة وضغوط من كل نوع تتزاحم على قادة أمّة كبيرة.



إن مشكلة من سيشغل منصباً جديداً في هذه الحال هي دقة تأمين الاستلام والتسليم مع أسلافه. سلمني "وولت روستوف"، مستشار الرئيس جونسون للقضايا الأمنية مكتباً في بناية الوسط الإداري، على بعد خطوتين من البيت الأبيض، ونصحني بالبدء بتحليل رموز البرقيات الواردة كل يوم ـ الشيء الذي رأيته مبكراً ـ علماً أنه لم يكن هناك من يساعدني في تحليل ما كان يرد. كنت التقيت الرئيس جونسون مرات عدة، لكني لم أعمل مباشرة معه. ففي عام ١٩٦٧ كنت قد أجريت مباحثات باسمه في فيتنام الشمالية بواسطة الفرنسيين. وحضرت بهذه المناسبة اجتماعاً كان يديره مع مستشاريه الخاصين في قاعة الاجتماعات. تأثرت جداً بهذا الرجل الكبير الغليظ العنيف، الذي كانت تبدو منه مثل هذه الإرادة والقوة، ومع ذلك كان قليل الثقة بنفسه وسريع التأثر. كان حظ الرئيس جونسون تعيساً لاشتراكه المباشر بمغامرة كانت الولايات المتحدة رمت نفسها فيها قبل انتخابه.

لم يستطع ليندون جونسون أبداً العمل في السياسة الدولية، والحصول على مساندة غير مشروطة، سواء من حزبه أو من بلده. كان غير واثق بمواهبه، فاستعان بنصح أشخاص كان يعتقد أنهم قديرون، وانتهى إلى إبعاد منتخبيه ومحو ماضيه العميق.

عندما زرته في مكتبه البيضوي الشكل، كان الرئيس جونسون فريسة الألم. وكما علمت ذلك متأخراً فإن فترة الانتقال بالنسبة لرئيس خاسر هي فترة مظلمة، والدلائل الخارجية للسلطة لا تزال بادية. والبيروقراطية ما تزال تنقل الأوامر للتنفيذ. لكن النفوذ يفلت منها. والموظفون يؤجلون تطبيق الواجبات التي تطلب منهم.

والحكومات الأجنبية ما تزال تلعب دوراً دبلوماسياً، لكنها تحتفظ بكل تفكيرها وانتباهها للحكومة الجديدة. ومع ذلك فإن ممارسة السلطة أصبح شيئاً عادياً لا يشعر بفقدانه إلاّ سطحياً وأحياناً. الأيام تمر ويكمل الإنسان شوطه في إكمال مهماته العادية كما لو كان لها بعض الأهمية.

هذا الوضع الذي كان عليه الرئيس جونسون، كان مكتبه البيضوي الشكل غارقاً بأجهزة التلفزيون والأجهزة الابراقية باثة أخبارها بنشاط. أي منظر غريب لرئيس الدولة هذا، أقدر رئيس في العالم، له اتصال مباشر بكل المعلومات التي تعطيها مصلحة استخباراتنا ويجتهد من وقت لآخر للإطلاع على آخر الأخبار.

رمى بنفسه في حوار طويل حول حرب فيتنام طالباً تحديد القوى الحربية ومكملاً مباحثات رسمية، لكنه لم يعد يتيقّن ممّا كان يجابه في الحالين وأرشدني للتأكد من نبل الهيئة الإدارية، إذ كان يعتقد أن قسماً من الهزائم النظامية ألحق به الضرر.

قال: إذا كان لدي نصح أسديك إياه يا أستاذ "فانحنيت إلى الأمام حتى لا

يضيع عليّ شيء من هذه الحكمة وليدة عشرات السنين قُضيت في خدمة الوطن. نصحني في قراءة الزوايا اليومية للأسماء الكبيرة المنشورة في الصحافة.

إذ أنها تصف أحد أعضاء جهازك الإداري وهي تستعمل الصفات "ذكي" "متفانٍ" أو أية صفة أخرى كاذبة، فأبعد هذا حالاً، إنه هو يعطيها ذلك!". غادرت المكتب عازماً على بذل الجهد لأجنب الحكومة الجديدة حزن ووحدة جونسون عند عزله.

❒ ❒ ❒

فترة الانتقال لا تترك مجالاً للتفكير، مهمتي المستعجلة كانت بطابع عملي. كان يجب عليّ من جهة أخرى معرفة الذين كانوا على جوانب نيكسون مدة رئاسته ومن جهة ثانية تشكيل جهازي الإداري.

اكتشفت سريعاً وجوب إهمال إحدى أفكاري الأولى، إذ كنت أظن أنني أستطيع التوفيق بين التدريس في هارفارد والمنصب الجديد، فظهر أن هذا مستحيل.

وفي الحقيقة كان عليّ أن أتعايش مع واجباتي. ووجب عليّ البدء بتأسيس التحليل والتخطيط اللذين وعد بهما الرئيس في حملته الانتخابية. حصلت على قسم من معلوماتي بأخذ رأي الكثير من الرجال والنساء الذين لعبوا دوراً هاماً خلال حكم ايزنهاور، وكينيدي وجونسون. يجب القول أن السياسة الخارجية بعد الحرب قام بها بنشاط رجال ذوو اعتبار. خصصوا أنفسهم لوطنهم مثل: دين أشيسون، دافيد ك.أ. بروس، اللزوورت بونكر، أفريك هاريمان، جون ماك كلوي، روبرت لوفق، دوغلاس ديللون، كانوا رجال موهبة فريدة، ينتمون لنوع من الأرستقراطية، التي جعلت نفسها في خدمة الأمة تحت اسم مبادئ أرفع من التناصر الحزبي.

لما بدأت وظيفتي، كانوا دوماً على استعداد لتقديم النصح لي دون مقابل. وكذلك لم تكن هناك خشية من إعطائهم معلومات رسمية في سبيل مصلحتهم الشخصية أو السياسية.

لسوء الحظ، لدى قدومي كان جميعهم قد وصلوا السبعين عاماً ـ بعض الرجال من أجيالي كانوا يوازونهم في الذكاء، ولكن لم يكن أحدهم قد قام بتجارب كافية ولا اكتسب التجرد والنزاهة اللذين كان يتحلّى بهما أسلافه ـ عندما يترك القدماء خدمة الأمة، فإن المبادئ الثابتة وتوجيه السياسة الخارجية تزول معهم.

ومن ضمن هذا الفريق، كان جان ماك كلوي الذي طالما شاهدته خلال فترة الانتقال. وعندما أقمت في واشنطن، أصبح دين أشيسون ودافيد بروس أفضل أصدقائي ومستشاريّ. وكان جان ماك كلوي يشبه كثيراً بمظهره من برأسه قنبلة، عفريتاً مرحاً أكثر من رجل قانون نيويوركي لامع، وقد كان مستشاراً لعدة أجيال من الرؤساء ووزراء الشؤون الخارجية. لأول وهلة لم يكن يُدرك أبداً من أين يأتيه نفوذه، إذ لم يكن قد مارس أبداً وظيفة وزارية، والمناصب التي شغلها كانت هامة دون أن تكون رئيسيه. حبه للفكاهة كان سبيلاً لهدر وقت كثير، وذكاؤه كان مرتبطاً بعقله السليم أكثر من حدة ذهنه.

أما ذوو المناصب العليا فيجدون أنفسهم دوماً تجاه مسائل شائكة. وعدد من الرؤساء ووزراء الشؤون الخارجية وجدوا في جون ماك كلوي مرشداً أميناً في الشدائد. لما كان يقترح حلا لمسألة شائكة، وما كان يفوته أبدا إعادة الثقة المعنوية والنفسية التي كانت تجعل الحلول ممكنة.

وفي عام ١٩٧٥ لدى عودتي من الشرق الأوسط والمفاوضات غير المثمرة التي قمت بها هناك، رجوت جون ماك كلوي أن يقابلني، فلبى الدعوة في الحال. ولم

أعلم إلا فيما بعد أنه كان يحتفل في ذلك اليوم بعيد ميلاده الثمانين، وأنه تخلى عن اجتماع عائلي دون التفكير لحظة بتأجيل لقاءنا إلى الغد. وكان دوما جاهزاً وكله حكمة وتعقل.

عندما بدأت بتشكيل جهازي الإداري ظهر حالا الخلاف مع جهاز نيكسون. وبموجب التقاليد يقع الاهتمام باستمالة أعضاء مجلس الأمن القومي على مستشار الرئيس. وأنا أول من عينه نيكسون للشؤون الخارجية إذ كنت أملك أفضلية تمكنني من استمالة الملاك بسرعة. أضف إلى ذلك فإني بصفتي ملحقاً بالبيت الأبيض، لم أجد نفسي مقيداً بأية إجراءات إدارية. ولأجل هذا، ما دمت حراً من أي ضغط بيروقراطي وبالضوء الأخضر من الرئيس المنتخب، لتجديد كل إدارتي، كنت عازما على دعوة رجال أكثر جدارة وأكثر ثقة ممكن توظيفهم. إذ أني أنا نفسي كانت لدي آراء محددة، ورأيت تبادلها مع آراء الرجال والنساء من ذوي الذكاء والخلق الحسن، وكل من خالفني في آرائي نال احترامي، وأصبح غالباً أقرب مساعدي. ولكي يقوم جهازي الإداري بدور حاسم ويتمكن من فرض هيمنته على مصالح الحكومة المختلفة، كان من الممكن التعويض عن قلة عدده بنوعية أعضائه. وفي الواقع فإن هذا العدد القليل من الممكن أن يعطي أفضليته في حدود تجنب المناقشات التي لا تنتهي وتشل حركة المؤسسات الأكثر أهمية، بحثت عن رجال ونساء في سن الشباب وأعطيتهم حالا ترقيات، منطلقاً من المبدأ القائل: مع سلك خارجي يتمكن الإنسان من إعطاء أحسن ما لديه، وتصبح لديه فرص أقل لتقديم الكثير ضمن جهاز إداري.

ارتبطت أيضاً بموظفين مارسوا المهنة في الشؤون الخارجية والدفاع الوطني، ومصلحة الاستخبارات، للاستفادة سواء من تجربتهم أو مساعدتهم حيال المواربات والمشاكل البيروقراطية.

استدعيت شخصيات جامعية لامعة، وأخيراً لضمان توازن ما، بذلت جهدي في جمع مساعدين لديهم آفاق مستقبلية واسعة.

قررت أخذ الاعتراضات الصادرة عن الأمن بعين الاعتبار، وجعل قيمتها طابعي الوحيد في الاختيار. أرسل لي بيتر فلانيغان مرافق نيكسون، المكلف بتعيين المسؤولين السياسيين (الذي أصبح فيما بعد أحد أصدقائي) أسماء ستة أشخاص كانوا قد وعدوا بمناصب. قابلت بعضهم ورفضتهم مباشرة. كانت هناك حالتان، اعترض فيهما هالدمان باسم الأمن على اختياري. وهذه القضية كانت ترتبط بنوع خاص بالآراء التحررية التي يمارسها هؤلاء الرجال، كما كانت مرتبطة أيضاً برغبة إعطاء تصاريح للصحافة، وفي الحالتين تجاوزت تحفظات هالدمان.

كان نيكسون يدعمني باستمرار. وكانت لديه ظنون خاصة، وعندما أخذ الرأي العام بالتحرك أثر ذلك، توصل إلى الشك بجهازي الإداري. وكان يظن أن بعض زملائي لا يحبونه - وما كان مخطئاً بذلك - ويغذون الانتقادات بإفشاء أسرار، لم تثبت صحتها أبداً. وبالرغم من كل ذلك، وافق نيكسون على قراراتي خلال فترة الانتقال. وبفعله ذلك، لم يكن لديه نفس الموقف تجاه السياسة الخارجية والداخلية.

إذ كان قد تبنى في السياسة الداخلية فلسفة عملية غير مبنية على سوابق. ومنح ثقته لجهاز غريب في تركيبته. وهنا لابد من تبيان ما يلي: بقي نيكسون حتى نهاية المطاف مقتنعاً باقتفائه التقليد في هذه السياسة. وإذ رأى نفسه بالتالي متهماً بسبب ذلك، وهذا يعود لتملق الطبقات الحاكمة التي مارست في هذه الحالة الموازين والمكاييل الأخلاقية، وبالمقابل فإن السياسة الخارجية بالنسبة له كانت تشكل مجالاً خاصاً. عندما كانت المصلحة القومية والأمن وتطور العالم الحر موضع رهان، وكان نيكسون يؤكد على إجراء العدل دون الالتجاء إلى ذرائع مهما كانت الممارسات

التطبيقية التقليدية، وعند الاقتضاء عكس الفكر الكلاسيكي. وفي الحالات الخاصة فقط ترك مصالحه تعلو على القرارات المتخذة في السياسة الخارجية.

ظهرت بعض اختباراتي في نهاية المطاف قليلة الفطنة، لكن تفاني ومؤهلات جهازي ساهمت بصورة رئيسية في النجاحات التي حازت عليها أول حكومة لنيكسون في الحقل الدبلوماسي. ومن شكل منهم النواة: (ونستون لورد، لورنس ايفل برغر، هلموت سانانفليد، وليم هيلاند، هارولد ساندوز، بيتر رودمان، والكسندر هيغ) الذي جابه بجانبي كل الصعوبات وأصبح كذلك صديقاً لي. إن القيمة العليا لهذا الجهاز تفسر بقسم كبير النفوذ المتزايد لمستشار الرئيس في القضايا الأمنية. لقد أصبح تطور جهاز خدماتي رئيساً لأن ريتشارد نيكسون شكل حكومة رجال أكفاء. دهاة وخدومين. غير أنهم ما استطاعوا في الواقع العمل جماعياً.

□ □ □

تحادثنا أنا ونيكسون مطولاً حول موضوع اختيار وزير جديد للشؤون الخارجية. فقال لي أنه يسعى لإيجاد مفاوض لبق أكثر من رجل يوجه دفة السياسة، الوظيفة التي كان يحتفظ بها هكذا لمجلس أمنه. إذ أنه لم يكن يثق في موظفي الخدمات السياسية. كان نيكسون يريد رجلّ ثقل يضمن لسياسة الرئيس دعم وزارة الشؤون الخارجية. تمكنت من أن أفهم، أن اختياره الأول سيقع على السفير روبرت مورفي، السياسي البارز المتقاعد والذي كان في هذه الفترة رئيس مجلس إدارة كورنينغ غلاس وكان مورفي قد قام بخدمات فريدة في عدة مناصب هامة، وكنت قد اعتدت على احترام حكمه وفكره. وبعد بضعة سنوات، أسرّ لي نيكسون أن مورفي كان قد رفض المنصب.

بعد تعييني بعدة أيام، تعرفت على وليم روجرز، في غرفة طعام أحد الأجنحة التي كان يشغلها نيكسون في فندق بيير. كان الرئيس قد طلب مني مفاتحة روجرز وأن أنقل إليه انطباعه. بينّ لي فقط أن روجرز يمكن أن يعيّن في منصب خطير. فلا روجرز ولا أنا كنا نعلم الغاية الحقيقية من لقائنا، وكان حديثنا مفككاً ومصطنعاً. لم أخذ أي انطباع خاص، وكل ما في الأمر، أني وجدت روجرز أنيساً لطيفاً.

فاجأني نيكسون بعد هذا اللقاء بيوم واحد، ودون أن يسألني عن انطباعي حول الموضوع، بأنه قرر تعيين روجرز وزيراً للشؤون الخارجية. قال لي أن روجرز وهو كانا متفاهمين جداً إبآن حكم ايزنهاور، في الوقت الذي كان فيه روجرز وزيراً للعدل، لكن صداقتهما فترت عندما تركا منصبيهما، كان نيكسون يرى أن روجرز هو الرجل المناسب لهذا المنصب. ولو أن معرفة روجرز قليلة في هذا المضمار فهي بالنسبة لنيكسون كل شيء. سيكون على ثقة أن الإدارة السياسية ستبقى في أيدي البيت الأبيض. وحسب رأي نيكسون فروجرز في الوقت ذاته، أحد الرجال صلبي العقيدة، الصلفين، الأنانيّن، الطموحين الذين صادفهم. وبقدر ما كان لبقاً في مباحثاته كان يجعل من السوفيت مرضى. وموظفو وزارة الشؤون الخارجية الصغار، ليس عليهم سوى حسن التصرّف. لأن روجرز لا يقبل أن يكون احدوثة.

قلّة من وزراء الشؤون الخارجية انتخبوا بهذه الصورة. أعني بسبب تأكيدهم أن رئيسهم كان يجهل السياسة الخارجية.

بانتخاب وزير صاحب خبرة قليلة، أضاف نيكسون بشكل معقّد، نفوذ العنصرين اللذين كانا يخشاهما كثيراً، الشؤون الخارجية والصحافة. وفي الواقع لم يكن لدى الوزير سوى إمكانيتين، تلقيه الأوامر من البيت الأبيض، فيصبح محامي السياسة الرئاسية، لدى وزارته، والكونغرس والأمة. أو أن يكون لسان حال أتباعه.

وفي أوقات أقل اضطراباً، فإن الوزير روجرز سيجد نفسه قادراً على إيجاد توازن عادل حيال الضغوط الممارسة ضدّه. أماّ وسط العاصفة التي هبّت في البلاد بسبب قضيّة فيتنام. كان لابد له من الثبات وحسن التصرف التي لم تكن متوقعة بحق، من قِبَلِه. حاول وبشكل طبيعي تجنب الهجمات المثارة ضد سلفه "دين راسك". وكان لديه ميل لاستخراج رأي الأمريكيين والكونغرس حول آراء أهم صحف الساحل الشرقي، التي بدورها كان لها تأثير فعال على أتباعه، لذا أظهر روجرز في المواقف الحرجة قليلاً من الاهتمام في الدفاع عن الرئيس وتوصل أخيراً إلى اتخاذ مواقف معارضة له.

من المحتمل وبشكل متناقض أن هذا الميل يكون قد تقوّى لديه بذكرى صداقته لينكسون في أعوام ١٩٥٠. "كان روجرز نفسياً آنذاك في وضع متعالٍ بالنسبة لنيكسون. وكان من الصعب عليه إذاً أن يدرك أن أدوار اليوم قد انعكست. وبالأكثر أن يتخيل بصورة تقريبية أن المقصود كان مناورة طوعية من قبل صديقه القديم، وكان قلقاً من إثبات أن نيكسون يدير الآن زمام الأمور. مستفيداً من مكانته الإدارية ومن تجربته.

نجم عن هذا التنافس الغريب بين الرجلين تقوية وضعي الخاص، وفي الواقع أن أهمية دوزي لم يكن السبب، بل نتيجة واضحة لهذه الوقائع. كان نيكسون قد عزم منذ البداية السيطرة على المباحثات الأكثر أهمية. لذا وضع على حدة وزيره للشؤون الخارجية لدى لقائه الأول بسفير اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية "أناتولي دوبرينين" في ١٧ شباط ١٩٦٩. وجرى ذلك بعد أربعة أسابيع من استلام الرئيس سلطته وكان غير موافق أن أثير هذه الفكرة في ذلك الحين، إذ أن التصرف الذي قام به الرئيس قبل تثبيت وضعي أصبح عادة لديه وطيلة تسلط نيكسون كنت الأمريكي الوحيد الذي يحضر اللقاءات الطويلة التي كانت تجري في المكتب البيضوي بين نيكسون والمسؤولين الأجانب.

برزت المنازعات حول المسؤولية السياسية بشكل سريع. فأكد الوزير روجرز من جهة بأنه سيطبق الأوامر التي لم يكن يقرها شريطة أن تصدر عن الرئيس شخصياً. إذا كان هذا الشيء غير ممكن قبوله نفسياً لدى نيكسون. وكان عليه أن يفعل أي شيء تجنباً لمعارضة شخصيته. كان يبعث رسائل ومبعوثين لشرح مقاصده. لكن روجرز كان يفكر بحق أن هذه الرسائل ينشئها جهازي أو أنا بنفسي، وبالرغم من توقيع الرئيس عليها كان يرفض منحها رصيداً هاماً. وبالنسبة للمبعوث الذي هو عادة جون ميتشيل كان يعارضه مستوحياً صداقته القديمة مع الرئيس ومؤكداً أنه يعرف نيكسون أكثر من أياً كان. ما كانت هذه المناقشات لتنتهي والموقف كان يرى معقداً جزئياً، لأن الرجلين كانا يلقيان المسؤولية على طرف ثالث. أمر نيكسون عبثاً أن تمرّ على البيت الأبيض كل البرقيات المرسلة، ولم تنفذ أوامره غالباً. وعلى كل حال، فإن الوسائل التي بحوزة وزير الشؤون الخارجية للاتصال بمرؤوسيه هي عديدة، بحيث يصعب مراقبتها بموجب الأوامر.

بغية تجنب هذه المجابهات غير المحدودة، قامت مع الوقت الاتصالات التي أجريناها أنا والرئيس مع أهم القادة الأجانب، بواسطة خطوط ربطت مباشرة غرفة العمليات في البيت الأبيض بالبلاد الأجنبية دون مرورها بوزارة الشؤون الخارجية، أعني بما ندعوه الطرق الرسمية. هذا الإجراء أتبع منذ اليوم التالي لدخول نيكسون البيت الأبيض. كان الرئيس الجديد يتمنى فعلا تعديل التعليمات المتعلقة بالمباحثات حول فيتنام التي كانت الشؤون الخارجية قد أنشأتها وكانت تعكس وجهة نظر الحكومة الماضية. ولما كان نيكسون راغباً أيضاً بتجنب الخلافات، طلب مني الاتصال هاتفياً بالسفير "هنري كابوت لودج" مفاوضنا في باريس، لأرجوه أن ينقل بالطرق العادية تعليمات الرئيس الجديد وكأنها من قبله. قبل لودج ذلك دون صعوبة، لكن طرقاً كهذه كانت معقدة وتبدو غير فعالة في معظم الحالات. وهكذا جرت

المفاوضات الدقيقة في البيت الأبيض متيحة لنيكسون إدارتها شخصياً، ناسباً لنفسه الفضل، ومتجنباً الارتباك أو الوطأة الإدارية التي كان يراها شاقة.

كما أن الرئيس لم يمتنع أبداً من التنصل عن مبادرات تقوم بها الشؤون الخارجية. ففي آذار عام ١٩٦٩، مثلاً، بعد المحادثة الأولى الرسمية بين روجرز والسفير "دوبرينين" حول فيتنام، طلب إلي نيكسون أن أبلغ سرياً الموظف الروسي الكبير، أن الاقتراحات المطروحة في ذلك اللقاء من قبَل وزير الشؤون الخارجية، كانت قد تجاوزت ما يريده الرئيس. لم أقم بشيء أولاً، مفضلاً التريث بانتظار معطيات أوضح، وقف السوفيت على مجرى مفارقاتنا الداخلية وأخذوا يعملون ما يحلو لهم لاستغلال الواقع. وبالطريقة نفسها، فإن نيكسون لم يبلغ روجرز عن اللقاءات الشخصية التي أجراها مع رئيس فيتنام الشمالية "هوشي منه Ho Chi minh" في شهري تموز وآب، إلا قبل إعلانها في التلفزيون بثمانٍ وأربعين ساعة في تشرين الثاني ١٩٦٩.

منذ بداية ١٩٧٠، كلف نيكسون معاونه "ليونار غارمان" ووزير العدل "جون ميتشيل" لإبلاغ الجمعية اليهودية أن خطة روجرز حول الشرق الأوسط، كانت تحمل حقاً اسمه لكنها ليست من نتاج البيت الأبيض. وفي آيار ١٩٧١، عند مباشرة البيت الأبيض والكرملين بالمفاوضات التي انتهت إلى المحادثات الأولى حول تحديد الأسلحة الاستراتيجية، لم يعلم روجرز بذلك إلا باثنتين وسبعين ساعة قبل الجماهير. وفي تموز ١٩٧١ لم يعلم روجرز أيضاً بزيارتي السرية إلى الصين إلا بعد سفري. وفي تموز أيضاً عام ١٩٧٢ أفضى إليه الرئيس بشرح غامض جداً حول سفري إلى موسكو (كان قد اتفق عليه سرياً واعترض عليه روجرز عند علمه به في اللحظة الأخيرة) وأن المفاوضات كانت جدّ معقّدة. وأمثال من هذا النوع يمكن سردها إلى مالا نهاية.

أعترف أني لم أعمل شيئاً لتلطيف وضع الرئيس بالنسبة لمكانة عضو مهم في حكومته، فحضوري أولاً كان يجعله ممكناً وفنياً، ومن ثم أني كنت أشجعه. وفي الواقع، على غرار غالبية أعلى الموظفين، كانت لدي أفكار محددة، لم أكن أفوت أية فرصة لتبيانها. والتصرف عن اقتناع في المشاركة لأحداث عالم افضل، يمكن أن يجعل المسؤوليات والألقاب المتعلقة بتنفيذ متطلبات المناصب العليا، ممكنة الاحتمال ومبهجة حقاً. لا أعرف ماذا أقول اليوم عن الظروف التي تتوصل فيها أجسام متحركة أقل نبلاً - متعجرفة ومتعطشة للسلطة - ولكنها بالرغم من ذلك أصبحت لها أهمية، أبقى على الأقل مقتنعاً أن حكومة في ظلال أمثال نيكسون، لا يجوز لسياستها الخارجية إلا المرور تحت مراقبة البيت الأبيض، مهما كانت التصرفات الإدارية أو الأشخاص القائمون عليها.

منذ اللحظة التي يختار فيها نيكسون مستشاراً صاحب شخصية قوية، خبيراً في السياسة الخارجية، لابد من حدوث مواجهة بين هذا الأخير ووزير الشؤون الخارجية. وهذا الذي لم أحسب له حساباً الآن. وحسب طبيعتهما فإن المنصبين يقومان على أساس المواجهة إذا كان القائمان عليهما يسعيان في لعب دور سياسي هام. وكل شيء يسهم في خلق مضادة ما بينهما، إذ لو توصلا يوماً لاتفاق كامل، لما بقي لزوم لوجود أحدهما. ولو كنت غير واثق بهذا العهد، فإني اليوم على ثقة أن الرئيس يجب عليه جعل وزير الشؤون الخارجية مستشاراً خاصاً له، ويحتفظ لمستشاره في موضوع الأمن بدور هام في الإدارة والتنسيق، فتتكون عندئذ لديه الثقة في أن كل وجهات النظر الهامة أخذت في الحسبان. وإذا أصبح المستشار جزءاً رئيسياً في تهيئة وتنسيق الأمور السياسية، فإن أهمية وزير الشؤون الخارجية تتضاءل كثيراً. والحكومات الأجنبية لا تعرف بعد أين تتوجه، وليس الخطر بأقل

شأناً، إذ لديها الإمكانية لإثارة جهاز ضد الآخر، في الحكومة، وبالنسبة لوزارة الشؤون الخارجية، يُحَطّ من شأنها مباشرة وتنحاز إلى الأمور الحزبية. إذا لم تكن لدى الرئيس ثقة بوزير الشؤون الخارجية، يحسن استبداله، أكثر من تجميده من قبل أحد معاونيه. في عهد نيكسون، أصبح الدور الهام لوزير الشؤون الخارجية مستحيلاً، بسبب ارتياب نيكسون من إدارة الوزارة، وارتباطاتها بروجرز، وقلة خبرة هذا الأخير، وبقوة قناعتي الخاصة، ساهم إصرار نيكسون الجلي بنفسه حول الامتيازات المتعلقة بوظائفه، في إضعاف مكانة روجرز. وفي الواقع، إذ لم يستطع صاحب قضية سوى تأليب المجموع إلى صفة للدفاع عن حقه، تتجمع لديه كل الأسباب لخسارته. فالرؤساء يصغون لما يقوله مستشاروهم الذين لا غنى لهم عنهم، ولا يهتمون لمن يلقون محاضرة مبينين حقهم.

وغير هذه العوامل فإن الضغوط التي كانت ترهق إدارة نيكسون، وجدت لها أسباباً في الفارق الجلي لإدراك الأمور الكائنة بين وزير الشؤون الخارجية وبيني. كان روجرز في الحقيقة قديراً أكثر مما كان يوصف، إذ كان يملك فكراً تحليلياً دقيقاً جداً وإحساساً عظيماً. ومع ذلك، بالرغم من ثقافته القضائية، فإن طريقته في حل المشاكل كانت أكثر واقعية، بينما أن طريقتي كانت استراتيجية وجغراسياسية. كنت أجهد نفسي لربط الأحداث ببعضها، بأن أوجد وأسهّل أوضاعاً في بعض البلدان، تكون قادرة على التأثير في مجري أحداث أجزاء أخرى من العالم. ولما كان روجرز يتبارى في ضغوط ترتبط بمفاوضات خاصة. كنت أتمنى بالعكس إيجاد المناخ الملائم لاستراتيجية إجمالية. ولما كان روجرز يهتم بتعديل سريع في الكونغرس والجماهير (الأمر الذي كان يتعلق بقسم من مسؤولياته كناطق بلسان الشؤون الخارجية) كنت أقلق بزيادة من الحلول الوسطية. كان روجرز يعتبرني بكل تأكيد مماحكاً أنانياً، عطل جهوده لدى الرئيس. وكنت أراه حديث العهد قاسياً يعرض للخطر تحقيق

السياسة الخارجية التي أسسناها بعناية. فلن يكتب لعلاقاتنا سوى التضعضع. لو كنا أعقل أنا وهو، كنا فهمنا أننا لا نستطيع خدمة بلدنا بصورة أحسن إلا بتوحيد مرامينا وأهدافنا وتعاضدنا. ولذلك نكون قد استطعنا تقليص تجاوزات نيكسون وخففنا من الضغوط التي كان يحيكها ويشجعها. ولسوء الحظ فإن كل الجهود المبذولة لالتقائنا أخفقت. كان روجرز متعجرفاً جداً. وكنت أنا متعاظماً بثقافتي، وكانت تنقصنا الثقة، لاتخاذ وضع يجنبنا الكثير من الألم والتنافر غير المفيد في الأمور الإدارية.

مع ذلك لم يكن أحد هذه الفوارق نهائياً بالحقيقة، فيما لو كان نيكسون وروجرز متقاربين جداً الواحد من الآخر كما كانا يعتقدان. لا يتمكن وزير الشؤون الخارجية من الاستغناء عن ثقة رئيسه العامة. والوزراء الذين أكملوا مهمتهم بشرف مثل: دين اشيسون - جون فوستر دالاس - كانوا يعملون بتعاون وثيق مع رؤسائهم. أما الذين حاولوا معارضة رؤسائهم، كما كانت الحال مع كل من: روربرت لا نسيتغ - جيمس برنس - فقد فقدا حالا ليس فقط نفوذهما بل وظائفهما. وكما كان يؤكد أشيسون غالباً، أن كانت لديه أسباب حقيقية لمعارضة الرئيس ترومان، لكنه لم يسمح أبداً بتعريض سلطته للخطر، أو الاشتراك بمكيدة يحيكها أعضاء آخرون من الحكومة للضغط على الرئيس. لأن الرئيس ليس بحاجة فقط لإرشاد عملي بل لتعاضد معنوي أيضاً، فيما إذا رغب الوثوق من تعاضد وحسن التفكير في مستشاريه، كما أنه بحاجة أيضاً أن يشعر بفهمهم للمواقف الصعبة ومسؤوليات مهمته، وأنهم لا يثقلون كاهله أيضاً. وهذا العنصر الهام كان يتعذر وجوده بحق في العلاقات بين الرئيس نيكسون ووزير الشؤون الخارجية، وكان قسم منه يعود لأسباب سابقة لتولية نيكسون. أن الوضع الوثيق لعلاقاتهما القديمة، كان يمنع روجرز من أخذ هذه الميزة بعين الاعتبار، ويمنع أيضاً نيكسون من الرضوخ لواقعها.

وبالنسبة لوزارة الشؤون الداخلية، ظننت ولعدة أيام أنها ستُسنَد لرجل آخر، وتحديداً إلى عضو في مجلس الشيوخ "هنري م. جاكسون" الذي حسب رأيي، كان يرضى بقبولها، ومع ذلك فقد رفضها. وعلمت عندئذ أن اختيار نيكسون كان قد وقع على "ميل ليرد" دون استشارتي.

كان "ليرد" يعتبر أن الدستور، يعطيه الحق للسعي أن يكون أدهى وأمهر من كل الذين تدعوهم وظائفهم للاختلاط به. كان يلهو أحياناً، ويهتم أحياناً أخرى بحنكة سياسية بالدفاع عن أوضاعه واستغلالها ما أمكن. أضف إلى ذلك فإن "ليرد" كان اختصاصياً بإفشاء الأسرار الخاصة. وعرفت بعد ذلك أنه كان هو نفسه سبب شائعات الصحف، التي كان يأتي إليّ شاكياً منها في صباح اليوم التالي، وكانت عادة "اليوت ريتشارد سون" القول دون جفاء، عندما يتكلم ليرد "تسمعون ما أريد قوله ..." أحد التعابير المحببّة، وكان مستحيلاً في الحقيقة فهم ما كان يريد قوله ...

لم يكن "ليرد" يرى ما يستحق اللوم في حضور اجتماعات البيت الأبيض وهيئة الأركان المشتركة، والدفاع عن أمور هذه الأخيرة، ثم اطلاع الرئيس على حصيلة أخباره واطلاعي أنا في الخفية، ليهيئ أخيراً طريقة ثالثة مع صديقه الرئيس "ماهون" لمجابهة القضيّة. والطريقة التي نظّمها كل من نيكسون وليرد، ليسندا لنفسيهما فضل جميع إنسحابات الجيوش في فيتنام، كانت أشبه بمشهد "كابوكي Kabuki" أو "إحدى مكائد مجلس فلورنسا في القرن الخامس عشر. لن تكفي ترجمة حياة لوصف المماحكات الغريبة التي جرت بين هذين الموظفين المحنّكين، إذ كان كل منهما يفتّش حالاً على هدم نوايا الآخر وإشاعة غموض فكره. وكان يجب أن تخصص رواية أو فصل من تمثيلية، للعبة التي كان نيكسون يخسر فيها نادراً. لأنه كان قليل المقامرة، وأكثر عناداً وبيده كل مقاليد الرئاسة.

عندما وصل نيكسون إلى الرئاسة، كان "ايرل ويلر" يكمل سنته الأخيرة كرئيس للأركان العامة المشتركة بين الأسلحة. وكانت رئاسته يجب أن تنتهي في تموز عام ١٩٦٨ لكّن جونسون كان قد تكرم فمددها سنة أخرى ليتيح لخلفه حرية تعيين بديل "لويلر". وقد أظهر الأخير سلامة رأي وخبرة. أوصلتنا إلى قناعة أنه لا يمكن الاستغناء عنه، وهو مما حدا بنيكسون الاحتفاظ به في منصبه سنة أخرى.

عظيم، ذو أصل وصافي الذهن، هذا وصف عميق "لويلر"، العينان داكنتان، المنظر جذاب، وكان يشبه إلى حد ما تلك الكلاب المتنبهة المتربصة لمعرفة مصدر الضربة القادمة. كان قد شاهد في السنوات ١٩٦٠ إلى ١٩٧٠ وصول شباب "محللي مناهج" إلى البنتاغون كانوا يقصدون هدم المؤسسات العسكرية طارحين للبحث منجزات راسخة قديمة، وفي معظم الأحيان كان هؤلاء المحللون على حق في المجال الثقافي، لكنهم عرفوا سريعاً أن صياغة قضية تؤدي غالباً إلى حل محدود، والجهود المبذولة باسم الموضوعية المقدسة غالباً ما ينجم عنها نتيجة تشجيع أفكاراً شخصية مسبقة التصوّر.

خلف "ويلر" الأميرال "توماس موورير" وكان ذا شخصيّة أقل تعقيداً، ومنصب القيادة الذي شغله أعوام ١٩٦٠ لم يكن بالحقيقة مريحاً، لكنه لا يوصل إلى الإضناء الطبيعي والنفسي المرتبط بالقيام بوظائف عليا في واشنطن. وبعد أن اجتاز "موورير" على المناصب الإدارية بفضل مهارته، لم يكن يدّعي أبداً بذكاء خارق، بل كان يشدّد .وماً على وضعه الريفي البريء الذي تغمره أفكار أكثر ذكاء. وإذا كانت أفكاره قد حببتّ الناس به، فإنها في الوقت نفسه كانت تزيده وضوحاً. حال دخوله الوظيفة، لم تكن حرب فيتنام سوى قتال في المؤخرة. فتمكن من تصفية وضعها المؤلم بكل جدارة. وبذا لم يحظَ أي رئيس بمستشار عسكري أوثق منه.

"ريتشارد هلمز" الذي أبقاه نيكسون في إدارة مصلحة الاستخبارات الأمريكية C.I.A. كان أيضاً من الفريق المعينّ في الأمن القومي. وكنت التقيته عام ١٩٦١، في ظل رئاسة كينيدي، وبناء على طلب البيت الأبيض، أجريت معه عدة محادثات حول أزمة برلين. في هذه الفترة وما تلاها، أعجبني جداً في قدرته على إدارة وظيفته، ولم نَرَ بعضنا إلاّ بعد تعييني. فشرح لي في غرفة عمليات البيت الأبيض كيف كانت ترتيباته وانتظام عمله الوظيفي. كان وضع هلمز دقيقاً في حينه وبالحقيقة فإن نيكسون كان يرى مصلحة الاستخبارات الأمريكية (C.I.A) وكذلك وزارة الشؤون الخارجية وكأنها عرين مثقفين خريجي مدارس كبرى يعملون ضدّه. أضف إلى ذلك أنه كان يشعر بعدم الرضى في نفسه عن هلمز، إذ كان يعتقد أن هذا الأخير محبوب من قبل النخبة التحرريّة في "جورج تاون" التي كان يعزو إليها مسؤولية الجزء الأكبر من مضايقاته.

بالنسبة لي لم أكن أحمل أية فكرة سيّئة عن هلمز، وكنت أعارض إقالته من وظائفه. وكان يبدو لي خطيراً أن نجعل من مصلحة الاستخبارات الأمريكية (C.I.A) هيئة سياسية يُغيَّر مديرها مع كل رئيس جديد.

وافق نيكسون وقبل بإبقاء هلمز. غير أنه ألحّ على إبعاده من اجتماعات "مجلس الأمن القومي. C.N.S. وهنا تقدم "ليرد" بملاحظة هامّة تؤكد بحق، أنه إذا اتخذ المجلس قرارات هامة في غياب مدير مصلحة الاستخبارات الأمريكية C.I.A، يتعرّض الرئيس لتهجمّات الكونغرس والرأي العام، عاد نيكسون مرة أخرى فعدل عن قراره، وقبل بحضور هلمز اجتماعات مجلس الأمن القومي، فقط عند عرض أمور تخص الوضع الحاضر. فلم يكن هلمز إذا مفوّضاً بإيراد اقتراحاته، وعليه مغادرة الاجتماع حال إنهائه تقريره.

دام هذا الوضع غير الطبيعي ستة أسابيع، وأصبح عقبها مربكاً جداً مصطنعاً،

متناقضاً، ويبقى مع ذلك مستمراً. وبالحقيقة فإن المعلومات الصادرة عن هلمز كانت لها أهميّة المناقشة التي تعقب التقرير الرسمي.

وبعد كل هذا فإن الطريقة التي كانت تقوم بها نتائج الخيارات المختلفة الممكنة كانت رئيسية. وانتهى هلمز إلى إكمال الدور الذي يحقّ له ضمن مجلس الأمن القومي بالرغم من عدم ثقة الرئيس الدائمة.

هؤلاء هم الرجال الذين جمعهم الرئيس الجديد، لتأسيس استراتيجية على مستوى العالم، ومحاولة إنقاذ وطنهم من حرب فرضت بسبب أسلافه.

اجتمعت الحكومة في الثاني عشر من كانون الأول عام ١٩٦٨ لأول جلسة تعارف في فندق "سوريهام" في واشنطن. والقضايا المعروضة على الحكومة الجديدة، طرحت في اليوم ذاته، ليس من قبل أعضاء الحكومة (الذين عيّنوا الليلة الماضية فقط) لكن من قبل معاوني الرئيس، بما فيهم أنا - الذين كان تعيين معظمهم يعود إلى أكثر من أسبوع - تجسيد مسبق لتقارير نيكسون المستقبلية مع معاونيه.

هؤلاء الرجال الأكفاء ذوو الفطنة المتفانون في خدمتهم، هل تمكنوا في ظروف أخرى، من تشكيل فريق متجانس؟ شيء لن يدرك!. هذا الرئيس الصعب المراس الذي كان رئيسهم، اختارهم للاتكال على مستشارين متنافرين، كان باستطاعته نقلهم، فيما كان يجعل من نفسه زعيماً لتركيز السلطة في البيت الأبيض.

الفصل الثاني

آفاق مؤرخ

إن فترة ممارسة المسؤوليات كانت مخيبّة للآمال جداً، لا سيما لمن كان مهيأ لمجرى حياة أكاديمية. ومرغم على تجاوز التفكير إلى التقرير، ومن كان يجب عليه تعلمّ الفرق بين المنطق وسياسته. لن يكتفي بعد بوجود حجج صحيحة، لكن يجب الإقناع بالعمل وإنهاء المشاكل النظرية.

كل رجل مسجون جزئيا بالضرورة. في مواجهة بيئة لم يوجدها، وتأدّب بتاريخ شخصي لا يستطيع تبديله. والتصديق بأن الحكام يكسبون كثيراً عندما يعملون عن تجربة هو وهمّ، وكما قلت أن التصرفات التي اكتسبها هؤلاء قبل شغل منصب خطير هي رأس مالهم الثقافي، الذي يجب أن يعيشوه طويلاً طالما هم يشغلون منصبهم. ليس لدى زعمائنا وقت كافٍ للتفكير، إنهم في عراك دائم من حيث أن العاجل له دوماً الأفضلية على المهم، وحياتهم العامة هي معركة لا حدّ لها لإبعاد مبدأ خيار من ضغط الظروف.

عندما بدأت الوظيفة كنت أحمل معي فلسفة أُعِدَّت خلال عقدين خُصصا

لدراسة التاريخ. وهذه ليست بالحقيقة كتاب وصفات عجائبية. إنها تثقيف بالمماثلة لا بالحكمة. يمكنها إشهار نتائج الأعمال المكملة في أوضاع مماثلة، وحق لكل جيل من الكشف عن الأوضاع المشابهة حقاً. ولن يخفّف عنّا أبداً أي نظام جامعي وطأة الخيار الصعب.

كنت أصدرت كتاباً وكتبت عدة مقالات حول السياسة في القرن التاسع عشر، وكنت أرغب في حينه أن أفهم كيف أن أوروبا التي أنجبتها حروب نابليون قد نجحت في بناء سلام كان يجب أن يدوم قرناً. ولماذا تبدّد هذا السلام عام ١٩١٤. لم أكن لأتخيَّل أبداً أن مخططات واستراتيجيات الفترات السابقة استطاعت أن تطبّق في الوقت الحاضر.

لو كنت مقتنعاً أن الماضي زاخر بالخبرة والإرشاد، كنت عرفت أننا على أبواب عهد دون سوابق، سواء بقدرة أسلحته الفتاكة، وبسرعة سيولة أفكاره وبالصدام العالمي للسياسة الأجنبية، أو الوسائل التقنية، التي استطاع الإنسان تجهيزها لتحقيق حلمه القديم لتحسين شروط الحياة البشرية.

إذا كان التاريخ يعلمنا شيئاً. فهو عدم وجود سلام دون توازن، ولا عدالة دون اعتدال، وأعتقد كذلك أن ليس هناك أية أمة تتمكن من مواجهة أو تحديد خياراتها دون تقدير خلفي من خلال حقائق غامضة وليعطي معنى لتضحياتها، والعزم على السير بموجب هذا الطريق الضيق، يدل على الاختلاف بين التمييز أكثر من التعليم الجامعي - أو أي تعليم آخر - أو الأخلاق أو ما يتحلى به رجل الدولة. إن التعليم الدنيوي ينظر في اللا محدود، والخير والشر بالنسبة له محددان بوضوح. والزعيم السياسي لا يستطيع عرض هذا الفخار على نفسه. ونادراً ما يصل إلى غايته على مراحل، وكل خطوة في هذا السبيل ناقصة معنوياً. ومع ذلك يجب عليه التقرب من

الغاية المعنوية. بالنسبة للفيلسوف فإن معياره الأساسي في تفكيره هو الذي يضم مبادئه الأساسية.

وبالنسبة لرجل دولة، ليس معياره فقط عظمة أهدافه، بل أيضاً الكوارث الممكن تجنبها. والبشرية لن تعرف أبداً مما تخلصت، لأن هناك رجالاً يعرفون أية أخطار وكوارث جنبوها، وهذه الأخطار تظهر عديمة الوجود حال اعتزالهم السياسة، والحديث بين رجل جامعي ورجل دولة تتوفر له كل أسباب الدوام.

وبالحقيقة فإن السياسة ليس لها نقاط استدلال دون الفلسفة، لكن الإنسان إذا لم يجازف في حال الشدة ولم يجرؤ على اجتياز بعض الخطوات الفاشلة فإن البشرية لن تعرف أبداً السلام.

إن التاريخ لا يعرف وقتاً للراحة ولا التوازن، وكل المجتمعات التي يصفها مرت بمراحل انحطاط، وزال معظمها. لكن رجل الدولة، بين الصدفة والحقيقة يتصرف بحدود قيادية تسمح له، بصبر ووضوح بإجراء خيارات وصنع مستقبل شعبه. وعدم التعرف على الأهداف الموضوعية خطر، والتحول عنها إلى المزايا التاريخية المحتمة يقابل اعتزالاً خلقياً، وهذا يعني إغفال القوة، والأمل والإبداع، التي حمت البشرية طوال الأجيال. أن مسؤولية رجل الدول هي محاربة الأشياء الوقتية، دون البحث في الحصول على ربح أبدي. ولو عرف أن التاريخ عدو الاستمرار، فليس من حق الزعيم السياسي الاستسلام وشعبه ينتظر منه أن يقاتل، وينشئ، ويعارك ضد التأخر الذي يهدد كافة المؤسسات البشرية.

❐ ❐ ❐

عندما استلمت وظيفتي، كانت حرب فيتنام تهدد بإحداث كره جديد وشديد للشؤون الدولية، يدفع بأمريكا إلى الانعزال لتضميد جراحها ومناهضة زعمائها. هذا خطر جداً، بل أكثر من مسرحية فيتنام، كدنا نسقط مجدداً في هذه الحلقة الجهنمية من نمو دخل قومي مفرح وانعزالية كئيبة تصنع تاريخنا. وسنتخلى هذه المرة عن عالم أكثر تعقيداً، وأكثر خطراً، وأكثر صلات بأمريكا من عالم أعوام ١٩٣٠. ركزت حكومة نيكسون همها على وضع أسس سياسة خارجية عامة، مع وضع حدود للتدخل في فيتنام. فلن نكتفي فقط بمواجهة الأزمات، كما كان عليه الأمر في سنوات ١٩٦٠، لأن هذه الأزمات، كانت تتكشف عن مشاكل أكثر عمقاً، وخطأ عدم حلها السريع جعلها لا تقاوم.

دفعنا تفاؤلنا المفرط إلى فك ارتباطاتنا وعزلتنا، وكنت أعتقد أن رؤية صحيحة لمصالحنا القومية ستكون بمثابة حاجز وضمان لإكمال سياستنا. وعظمة أهدافنا لم تكن لتسمح لنا بعدم المسؤولية، وكان عليها بالعكس، تشجعينا وتقويتنا وبيان الطريقة الصحيحة الواجب اتباعها.

حينئذ فقط كنا قادرين على المساهمة في خلق أسلوب منظومة دولية أخطارها، تعهداتها وأهميتها، كلها كانت دون سابقة في التاريخ. كان للقلق الذي يضنينا أصول أعمق من فيتنام، وكانت تنبع من الفلسفة أكثر مما هي من مهارة سياسية. وهذا ما كنت قد كتبته في بحث نشر قبل بضعة أسابيع من انتخابات عام ١٩٦٨، وكنت إذ ذاك بعيداً مائة ميل عن التفكير، أنه سيطلب مني وضع أفكاري موضع التنفيذ.

"إن القلق المعاصر مصدره دون شك من بعض الذين، لم تكن غاياتهم واضحة (صريحة). وما دام هناك قلق حاصل فهذا يدل أنه ينبع عن عدم اكتفاء جذري تجاه دولة حديثة لا تقيم وزناً إلاّ للإدارة والاستهلاك، وتجاه عالم قاصر بسبّب الأزمات، وبالرغم من اتساع وسائلها، فإن الدولة البيروقراطية الحديثة، تهدم غالباً حتى

أساساتها بحوادث تظهر قليلة الأهمية. إن ثبات وتحرك الدول الغنية في العالم ـ لا سيما في البلدان الصناعية وبين الطبقات الميسورة نسبياً ـ يكشف عن فراغ روحاني، وسأم ميتافيزيقي في وسط سياسي مغمور بالبيروقراطية، ولا يسعى إلاّ نحو عون مادي ...

وفي أحسن الحالات، يجب على الحكومة الجديدة مجابهة الأزمات لأننا عشنا وفي كافة أقطار العالم تقريباً بخبرتنا المواكبة ومجابهتنا النادرة للقضايا التحتية. ستتضاعف طبعاً هذه الصعوبات، عندما يصبح حتمياً على الأمريكان الذين لم يرثوا من حرب فيتنام سوى تردد عميق من التدخّل عبر البحار.

سيكون من حق الحكومة القادمة التساهل وتفهم أمور الشعب الأمريكي، لكنها لن تنصفه بالاكتفاء بتطبيق حلول تقنية للقضايا الصعبة. ويجب عليها قبل كل شيء عرض المشاكل الطارئة، وللتمكن من تحديد سياستها الأجنبية، يجدر بها أن تعرف أن الوسيلة الوحيدة للمساهمة في خلق عالم مستقر وفعّال هي في تكوين فكرة كاملة عنه".

أخطر تغيير في عصرنا هو طبيعة السلطة. وحتى بدء العهد النووي لم يكن ليعقل أن دولة تستطيع وضع أكبر قوّتها العسكرية لاستخدامها المباشر على الصعيد السياسي، وإحضار قوة إضافية كان نافعاً سياسياً على الأقل، على الصعيد النظري. وظهور السلاح النووي كان يجب أن يضع حداً لهذه المبادئ التقليدية. يمكن لبلد قوي، من الآن وصاعداً تدمير عدوه، ومع ذلك فهو لا يكون على مستوى حماية شعبه ضد هجوم متوقع. ومن سخرية التاريخ، أن ازدياداً عظيماً في القدرة يبدد ارتباط القوة السياسية. ومن الآن فصاعداً فإن القدرة النووية الكبرى تتمكن بالتبادل من تخريب بلدها. وتجد من المتعب استعمال قدرتها لتسوية المشاكل

المحتملة الوقوع. وسيكون لديها وسيلة إحباط التهديد المباشر ضدّ وجودها، ومن غير الضروري استخدام هذه القدرة لفرض إرادتها. ويصبح صعباً استخدام القدرة كتهديد مُجدٍ، حتى ضد البلدان غير القادرة على الثأر. وقد ازدادت القدرة المتعاظمة ضد الدول المحمية من القنبلة النووية، لكن الخوف الناتج عن قدرتها كان قد قوّى كبتها. والرعب المتعاظم الذي توحيه هذه القدرة غيرّها إلى تصوّر مجرّد، لا يُمَسّ، ولا يُحجز.

كانت سياستنا العسكرية تقوم على ردع ذلك. إلا أن هذه نظرية بسيكولوجية، تتعلّق تحديداً في أن الهجوم المتوقع يعتبر خطراً غير مقبول. تؤخذ الخدعة بالاعتبار في عهد النواة، واعتبار التهديد أيضاً خدعة، يمكن أن يكون له نتائج مفجعة. وبقدر ما يكون الردع فعالاً، بقدر تعاظم الرغبة في دوام السلام خوفاً من اندلاع حرب، وليس بدعاً أن تتضاعف التحركات السلمية عندما يظهر السلام متوطداً. لكن إذا كان الردع فعالاً بحق، فمن الخطر علينا تبديد القوى والمعطيات التي يرتكز عليها هذا السلام.

إن الأسلحة النووية أكدّت القوة السياسية لعالم منقسم إلى مجموعتين، ومحافظو التوازن في القرن التاسع عشر كانوا على استعداد لتبني هذا الرأي مع الأوصاف المستحدثة لبنيان القدرة. أما مسؤولو القدرات العظمى للنصف الثاني من القرن العشرين، قلما يعتقدون في تنظيم هذا التوازن السياسي. أما اليوم وقد دخل التوازن بين القوى المتعاظمة. وبعد أن أصبح العالم ثنائي القطب، فإنه (العالم) خسر أيضاً معنى فروق الآراء. وكل تقدم يحصل عليه أحد القطبين هو بمثابة خسارة حتمية للقطب الآخر. وكل قضيّة تظهر موصلة إلى مشكلة حياة أو موت، تصبح معها السياسة صلبة وتؤسس العلاقات على عدم الثقة.

في الوقت ذاته، وبنوع غريب جداً، شجعت ثنائية القطب، ولم تقلّل من انتشار القدرة السياسية في المستوى العالمي. أمّا البلدان الصغرى فقسّمت بين حاجة الحماية ورغبة الإفلات من تسلّط القدرات الكبيرة.

وفي حال ارتياب هذه الدول في نيّة أخوتها الكبار في التضحية بأمنها في سبيل دوام عيشها، فإن هذه البلدان الصغيرة، رغم تحالفها تمكنت من إيجاد الوسائل التلقائية للدفاع، وإذا لم يخالجها الريب في هذا العون فإنها مدعّوة لسلوك سياسة أجنبية مستقلّة، حتى لو استهانت بأماني شركائها.

وهكذا فإن تحدّي شارل دي غول الجرئ للولايات المتحدة، يعكس حتمية اعتقاده بأن الولايات المتحدة ستجبر على الدفاع عن فرنسا في حال هجوم سوفيتي، أكثر من خوفه العكسي الذي كان يتصوره قبلاً. وهكذا فإن الشعوب الحديثة، أظهرت مهارة فائقة في تحدّي القوى العظمى، بالرغم من تسلط هذه الأخيرة المتزايد.

البدء بالسفر



الفصل الثالث

السفر لبناء الثقة

بدأ ريتشارد نيكسون أول رحلة رئاسية له إلى خارج الولايات المتحدة الأمريكية في الثالث والعشرين من شباط عام ١٩٦٩، من قاعدة "أندروز" العسكرية قرب واشنطن. وكان ذلك صباح يوم أحد. كان الرذاذ ينهمر على الجمع الذي جاء من قلب مدينة تبعد نصف ساعة من هناك، ليتمنى له سفراً ميموناً، وأعضاء الحكومة، والأعضاء البارزين في الكونغرس من كلا الحزبين، حضروا كذلك للوداع، بالإضافة إلى فريق من المصورين كانوا يتدافعون خلف حاجز فولاذي ليأخذوا مكاناً مناسباً.

كان هذا "شهر العسل". ولأول مرة في حياته، كان نيكسون يتمتع بدعم جماهيري وبتعاطف يكاد يكون جماعياً. وكان يبدي غبطة وانفراج مسافر، يستكين إلى واحة بعد اجتيازه قفراً غير مضياف. وكان مع ذلك ثاقب الفكر لكي لا يرى ما كان عليه الوضع، كان يمتدح صفات منها المصالحة، الأمر الذي يكذّبه ماضيه كرجل سياسي. وكان يعرف أكثر من غيره أن التهليل يمكن أن ينقلب يوماً إلى صراخ.

أما الآن فقد كان غارقاً بجو مفرح من الرضا، جديد بالنسبة له.

تبادل نيكسون والأعيان بعض النكات المصطنعة على مدرج المطار، ثم اتجه نحو المكرفون ليلقي كلمة الوداع أول مشهد لنيكسون" وخطتُهُ حول السياسة الخارجية، كانت رشيدة ودون تكلّف. وسوف يذهب إلى أوروبا لإجراء مباحثات حقيقة مع أصدقائه، كونه، كما قال: (لا أسعى فقط لمساندتهم بل لمعرفة آرائهم، في مختلف أوضاع العالم). وكان هذا مجابهة موجهه لأسلافه وتلميحاً لتفكك العلاقات في الحلف الأطلسي، الذي كان موضع انتقاده أثناء حملته الانتخابية، وملاحظاته الأخرى كانت مؤشراً لهذه الواقعية الغريبة المضايقة، التي كانت توصله غالباً إلى تخييب الأمل في الهمّة والإرادة الخيّرة. كان يخشى منذ أسابيع، إعادة صور تلك المظاهرات التي تقلّل من شعبيته داخل أمريكا وكان يعتقد أن استباقه الأحداث المزعجة، سينقذه من جزء كبير من سمومها. وإذا كان يظهر أحياناً توقّع صعوبات، فلكي يتمكن من اتقائها.

خصص نصف خطابه في توقع مظاهرات معارضة، وقلّل من أهميتها مصرحاً بأنها لن تأتي إلاّ من فئة ضئيلة من العامّة ولن تثبط عزيمته في سعيه نحو السلام أما القسم الآخر من الخطاب فقد كان مهيجاً ومجرداً من السلطة بصورة غريبة، لأن تصريحه لم يكن يعطي في الواقع مادّة للتفكير، بل عكس بصورة أكيدة، الشخصية المعّقدة لرجل بلا شعبية، كان عليه أن يتحكم في مقدرات دولة مثل أمريكا مدة ست سنوات من القلق تقريباً.

لم أستمع لنهاية خطابه، إذ قبل انتهائه، أخذني المرافقون مع آخرين من الوفد المرافق إلى جانب الطائرة الرئاسية. كان هناك سببان لهذا التصرّف، والأمر ذاته يجري عند كل سفر رئاسي. إذ على الطائرة أن تتحرك مباشرة بعد صعود الرئيس

إليها وإغلاق الباب خلفه مباشرة، ولا سيما أن المرافقين كانوا يريدون أن يظهر نيكسون وحده أمام المصورين عندما يكون على سلم الطائرة مودعاً الجمهور.

كل هذا، وغيره من الأمور، كان منوطاً بجون أهرليكمان. وفرقة استطلاعه، ودُعوا هكذا لأن فرقة الاستطلاع كانت تسبق الرئيس ببضعة أيام، في كل مرحلة من مراحل السفر، لتضع وتدرس أقل تحركاته. وكان أهرليكمان هذا، رئيس فرقة استطلاع نيكسون خلال حملته الانتخابية لعام ١٩٦٨. ودخل منذ عام ١٩٦٢ في ملاك موظفيه حينما كان حظ نيكسون بالنجاح ضئيلاً والعمل العنيف وحده القادر على إنجاح هذه المحاولة الدونكيشوتية. هذه السفرة الأوروبية أطلعتني على عادة المسلك الرئاسي، وعلى دعابة فرقة الاستطلاع. كان هؤلاء أشخاصاً بهندام مرتّب، ذوي تأثير، ومنظّمين، صنفهم هالدمان في وكالات عامة وأنقذهم من وظائفهم البسيطة في ملاكاتهم.

بعضهم كان يعمل طوال الوقت، والآخرون كانوا متطوعين، لهم وضع مستقل في القطاع الخاص. وكانوا يعوّضون عن نقص تصورهم وثقافتهم، بملازمة عملهم. وسيظهر المستقبل أن توظيف مثل هؤلاء الرجال كان عملاً قليل العمق. والذين يهتمون قبل كل شيء بترقياتهم لا يسلكون عدة طرق عندما يكون وضعهم في خطر. خلال فترة حادثة (واترغيت) حضرت مشهداً غير مستحب أبداً، إذ أن كل هؤلاء السادة الصغار هجموا على مخارج النجاة، ساعين للتخلص بجلودهم، متدافعين فوق أخوة لهم بالدم.

وفي عام ١٩٦٥، ومع اننا لم نكن بعيدين كثيراً من فضيحة واترغيت، وتصرفات فريق الاستطلاع الفظة، كانت قد بلغت ذروتها، وكانوا قد لقنوهم أنهم غير مسؤولين إلا أمام الرئيس، ومنذئذ لم نعد نشاهد هؤلاء الناس الذين كانوا يستقبلوننا في كل مراحل السفر، اما اعتبار وتقدير الغرباء فقد كان خارج الموضوع.

لم يكونوا مسؤولين إلا عن شيء واحد، وهو الاطمئنان أن كل الأمور تسير بصورة حسنة بالنسبة لنيكسون ، وإبعاده عن مجابهة الأمور التي يتوقع أن يكرهها جداً. وكان عملهم يتركز حول إيجاد أطول فترات الراحة لهم. وعندما رشحوا للمحادثة مع المعاونين حول النشرات الصحفية، التي كان يحتاجها نيكسون ليفكر ملياً ويتهيأ للمقابلات الشخصية الهامة. كان على فرقة الاستطلاع تدبر أمورها بحيث لا يُرى نيكسون من قبل العالم الخارجي إلا في اليوم الذي يرغبه، مما كان يبدو في أحيان كثيرة أنه شيء أقرب إلى الرعب.

لدى زيارة رسمية لأوتاوا عام ١٩٧٢، تخيل أحد أعضاء فريق الأستطلاع أن أثاث مكتب (بير ثرودو) المصنوع من الجلد، لا يجعل نيكسون في وضع مقبول أمام عدسات التلفزيون فأخذ على عاتقه زخرفة وترتيب مكتب رئيس الوزراء الخاص، بمقاعد من القماش الأزرق، لكنه مُنع من ذلك في آخر لحظة من قبل أحد معاوني ثرودو الذي إستشاط غضباً، ولم يصدق ماتراه عينيه.

لدى السفر الى أوروبا، واجهوا العالم السياسي لأول مرة، فأخذت فرقة الاستطلاع تتصرف وكأنها تنظم رحلة انتخابية في مدينة ديه موان، ولم تُعر أي إنتباه لسفرائنا، الذين كانوا يعتبرونهم ديمقراطيين بالشكل فقط. ولم تبد هذه الفرقة أدنى إهتمام بالسلطات الحاكمة التي كنا بضيافتها. عندما عزم اهرليكمان على تنظيم لائحة باسماء المدعوين على الغداء في (١٠ داو نينغ ستريت)، فإن سفيرنا في لندن «دافيد بروس»، والذي طالما حضر مثل هذه المناسبات خلال وظيفته السياسية الطويلة، وجد نفسه مُهمل من قبل الحكومة الجديدة، فأبرق قائلاً: «إني أرى عدم الفائدة في بيان كم من غير اللائق أن يقال لرئيس وزراء بريطاني من يجب عليه أن يدعو؟».

حالما جلس نيكسون في طائرته الرئاسية، كرّس وقته وبثبات لملفاته المفصّلة بصورة دقيقة، معالجاً العديد من المواضيع، وبالطبع كانت الخطابات قد دُبّجت، ومهما قيل في هذا السبيل، ليس لدى أي رئيس وقت لإنشاء خطاباته. وخطابات نيكسون المتعلقة بالسياسة الخارجية كان لها اتجاه واحد فقط. كان فريق مجلس الأمن القومي يُعد بإشرافي بياناً مفصلاً بذلك، وكان نيكسون يعيد النظر فيه، ويجري عليه ربما بعض التعديلات قبل إحالته إلى المحرر المختص. عندما يكون لديه خطاب خاص، يكتب هو بنفسه بعض مقاطعه ولا سيما المقدمة والخاتمة حيث كان يعطي أهمية كبرى للتورّط السياسي. وإذا اعتقد بقدرتي على إجراء تعديلاته الخطابية، كان حظّي كبيراً أن أرى النصّ النهائي، وإلاّ فإني لا أطّلع عليه. وفي سفر غير منتظم، كالذي كنا نقوم به في أوروبا، لم يكن لدينا وقت لعمل تعليقات طويلة عليه، ومحررو الخطابات كانوا يستعيدون حقوقهم.

بالإضافة إلى ملف الخطابات، كان لدى نيكسون مجلدات ضخمة وثائقية كان يعدها له مساعدوه ووزير الشؤون الخارجية الذين كانوا يتفهمون عرضاً لتصور عام، يفسر أهدافنا، واستراتيجية الوصول إليها، وعلاقاتها بسياستنا الخارجية العامة. ويضيفون إليها مواضيع نقاش حول كل بلد، تعالج قضايا من الممكن أن تثار، ومذكرات عن سلوك رؤساء الدول الذين يجب على الرئيس اللقاء بهم، ونقاط المناقشة كانت تميل إلى تحويل كل حوار بقدر الإمكان إلى تمثيلية مخرجة سلفاً، مراعين توجيهات نيكسون. وكانوا يحللون التساؤلات التي يمكن أن يطرحها رؤساء الدول، ويصنفون الإجابات المقترحة، مشيرين إلى المواضيع الدقيقة الواجب تجنبها.

حانت لي مناسبة عرفت فيها أهمية هذه الاستعدادات بالنسبة لنيكسون. وكل لقاء جديد كان يسبب له هلعاً غير محدود. وكان يخشى مجابهته بسؤال غير منتظر،

ومشكلة غير متوقعة، أو ادخاله في محاجة لم يكن مستعداً لها، ويخاف أن تغير صورته كرجل سيد الأحداث. كان يلح على أن تعرض مستنداتنا بصورة دقيقة وبالتفصيل، التغيرات المتوقعة التي كان يجريها في محادثاته. رافضاً في الوقت نفسه الإقرار بأنه كان بحاجة للمساعدة. وكان يفرض على نفسه نظاماً غريباً بحفظ كل هذه المذكرات غيباً. ولإظهار حسن حاله وللتسلية كانت هذه الأمور تملؤه غبطة، وكان يلعب بالنار عند ملامسته المواضيع التي نصح بتجنبها. كان يمس أحياناً الكارثة أمام مستشاريه بمرارة، لكنه لم يكن ليتمادى بها أبداً.

بينما كانت الطائرة الرئاسية متجهة نحو أوروبا، فإن الرئيس، بالإضافة إلى إعادة تذكر وترتيب وسائل عمله نقطة فنقطة، كان مهتماً أيضاً بقراءة دراسة عن ديغول، مأخوذة من كتاب كنت ألفته حول: "حلف شمال الأطلسي" «O.T.A.N» الذي كان عنوانه (الشراكة المزعجة).

بعد ذلك أصبحت الاستقبالات في المطارات أشبه بأعمال مرهقة، وسيكون من الصعب إظهار أي تأثر أكثر من ذلك الذي حل بنا عندما وصلت الطائرة الرئاسية إلى بروكسل عند هبوط الليل. وما كاد باب الطائرة يفتح، حتى فاجأتنا أنوار التلفزيون الكاشفة. وسجادة حمراء كانت تمتد أمام فرقة مكلفة بتأدية التحية. والملك "بودوين".، الرجل اللطيف الرقيق، كان يقف عند سلم الطائرة لاستقبال الرئيس. أعلن نيكسون في خطاب قدومه القصير، بأن هذه الرحلة ستكون بداية حقيقية لعهد جديد يتصف بالسلام. وجاء على ذكر "وودرو ويلسون" الذي كان أحد أبطال السلام. وكانت لجنة الاستقبال تشمل ممثلين عن حلف شمال الأطلسي وموظفين بلجيكيين. وفي الواقع كنا قادمين إلى بروكسل لزيارة مركز قيادة حلف شمال الأطلسي. لكن البلجيكيين أصروا على ضيافتنا، وذهبوا بنا إلى القصر الملكي الفخم في قلب المدينة. بعد تبادل عبارات الضيافة اعتذر الملك بودوين وترك الرئيس بضيافة رئيس الوزراء غاستون

أيسكنس، ووزير بلجيكا للشؤون الخارجية بيير هارمل، وروجرز وزير خارجيتنا للشؤون الخارجية وأنا، وحضوري شوّش البلجيكيين، لأن بروتوكولهم لم يكن شاملاً معاوني الرئيس، وشوّهت هذا البرنامج العددي الدقيق المقدَّر عند السياسيين، الذين لم يكونوا ليعرفوا كيفية التخلّص مني، فأضافوا عضواً من مكتب رئيس الوزراء إلى وفدهم.

الوزراء البلجيكيون لم يخرجوا عن القاعدة، وككل الشخصيات السياسية التي سوف نراها، كانت غايتهم الرئيسية، إقامة علاقات وطيدة وشخصيّة بالرئيس نيكسون، وشيء آخر أكثر أهمية هو التعرف عليه عن كثب. وبالرغم من العنف الذي أبداه نيكسون، والذي سوف يظهره بعدئذ، في الولايات المتحدة وأوروبا، كأنه ورقة سياسية رابحة، والحصول على علاقات حسنة مع رئيس الولايات المتحدة ورقة سياسية رابحة، أضف إلى ذلك، فإن الذين كانوا قد التقوا نيكسون قبل أن يكون رئيساً، كانوا يفكرون به خيراً وخصوصاً اهتمامه بالشؤون العالمية، ونما هذا الاحترام لكفاءته في الأمور الخارجية تدريجياً خلال حكمه.

كان نيكسون خلال المحادثات يعطي كامل اهتمامه ليظهر بأنه مهتم بإنشاء عهد سلام جديد وأكدّ بأنه لن يؤسس إلاّ على عالم غربي مسلّح بسلاح قوي. وأوضح أنه كان يعلّق أهمية كبرى على الوحدة الأطلسية وهو مزمع على استشارة حلفاء أمريكا قبل أخذ مبادئ تحدّد مصير الحلف.

وفي اليوم التالي صباحاً، ألقى نيكسون خطاباً هاماً أمام مجلس حلف الأطلسي الشمالي (مجموعة السفراء الدائمين في الحلف)، تساءَل فيه حول عدة قضايا، سيجيب عليها الحلف خلال العشرين السنة القادمة. "وُجد حلف شمال الأطلسي لمجابهة التهديدات السوفيتية. فكيف يمثل هذا التهديد اليوم ؟......

"عند تأسيس حلف شمال الأطلسي، لم تكن الاقتصاديات الأوروبية سالمة من التلف الذي سببّته الحرب. وهي حالياً مزدهرة، فكيف يجب أن يؤثر هذا التغيير على علاقات أعضاء حلف شمال الأطلسي بين بعضهم؟

نحن كلنا نواجه مشاكل بيئة حديثة، ناتجة عن تقنيّتنا المتقدمة ـ تلوّث الهواء والماء وازدحام مدننا ـ. ونستطيع معاً تحقيق تقدم عظيم في السيطرة على هذه المشاكل. فما هي الوسائل التي يمكن أن نتعاون فيها وبطريقة أفضل للوصول إلى هذه الغاية؟"

وأكد نيكسون أن أمريكا عازمة بثبات، وبعد المقدمات اللازمة، على بدء مفاوضات مع الاتحاد السوفيتي، حول أمور عدّة. لكن اهتمامه الرئيسي كان في إنعاش حلف الأطلسي.

"إن العلاقة التي توحد بين أوروبا وأمريكا ليست مبنيّة على الخوف من الخطر ـ بل هي علاقة قابلة للانفراج والتضيّق بدرجة ما يتهدّدها من الخوف.

إن العلاقات التي توحد بين أقطارنا هي من تقاليدنا العامة نحو الحرية، ورغبة جماعية نحو التقدم، واندفاع جماعي نحو السلام.

وبهذه الروح العالية التثقيف، لننظر إلى الأوضاع المستحدثة بعيون جديدة، وبعد التمكّن من ذلك لنعطِ للعالم مثالاً".

كانت زيارة بروكسل نقطة اللقاء حول قضايا العلاقات الأمريكية الأوروبية عام ١٩٦٩ ومستقبل أوروبا كان مبهماً. وكان وضع الدفاع المشترك مزيجاً غريباً من عدم الرغبة في تنمية القدرة الأوروبية والخوف من سحب الجيوش الأمريكية. كان يدفع الحكام الأوروبيون نحو الانفراج السياسي مع الشرق. ولدينا إطلاع غير حسن في أن تحركاتهم الرئيسية كانت ترمي إلى إزاحة مسؤولية القرارات الصعبة عن كاهل

أوروبا. وفيتنام كانت تضع الحكومات الأوروبية أمام مأزق في حال أن هذه الحكومات كانت تشعر بالحاجة إلى الردّ على ضغوطها الداخلية، وبالنسبة لأمنها هي فكانت تخشى إذلال أمريكا أو هزيمتها. فأخذت تتراجع أمام أي أمر يمكن الاشتراك فيه. وكان واضحاً أن كل أفكارنا ومخططاتنا ستوضع على المحكّ، وعلينا أن نذكر هنا، كيف كنا نرى العلاقات الأطلسية، وقلقنا وعدم اتفاق آرائنا بينما أن الفلسفة كانت تُهزم أمام السياسة.

❒ ❒ ❒

توجّه نيكسون من بروكسل إلى لندن، وكانت سهولة المواصلات وحرارة الاستقبال تخفيان واقع عاصفة كبيرة حدثت، فقد وقع نزاع خطير بين بريطانيا العظمى وفرنسا، حول مستقبل أوروبا، كشف النقّاب عمّا كان ينتظرنا.

في الرابع من شهر شباط ١٩٦٩، تحادث الرئيس دي غول والسفير سومس في قصر الأليزية عن مستقبل أوروبا. ودار بينهما حديث حول ذات الموضوع في الرابع عشر من شهر شباط نفسه.

أكد الجنرال دي غول خلال تلك المحادثات: أن على الأوروبيين التخلّص أولاً من عبء "حلف شمال الأطلسي O.T.A.N" ومن تسلّطه وجهازه الأمريكي، في سبيل خلق أوروبا مستقلّة، وقادرة وحدها على اتخاذ قرارات حول مسائل عالمية هامة. وتشكيل تعاون سياسي مناسب، يجب أن يرتكز على وفاق بين السلطات الأوروبية الرئيسية، فرنسا، إنكلترا، ألمانيا وإيطاليا. ونواة هذه العلاقات ستكون في التعاون الفرنسي الإنكليزي، بالإضافة إلى وجوب تغيير بنية السوق المشتركة. وعلى أي حال فإن ديغول لم يكن على ثقة من مستقبل هذه السوق. وكان يفكر باستبدالها، بنوع يماثل

المنطقة الحرة الكبرى. لا سيما للحاصلات الزراعية. وخاصة أن العلاقات الفرنسية الإنكليزية ستكون محور هذا التعاون، والجنرال على استعداد لإجراء محادثات ثنائية خاصّة مع بريطانيا العظمى، حول القضايا الاقتصادية، النقدية، السياسية والاقتصادية. وسيتقبلّ كل مبادرة بريطانية إيجابية حول هذا الموضوع.

كانت إجابة الإنكليز (لدي غول): أن المملكة المتحدة ترغب دائماً في الانضمام إلى السوق المشتركة وترجو عودة المفاوضات قريباً. وبالرغم من وجهة نظر الجنرال حول "حلف شمال الأطلسي O.T.A.N" فإن العلاقات مع الولايات المتحدة الموثقة من قبل إدارة أربع سلطات في أوروبا، هي جدّ مختلفة عمّا رآه دي غول، أمّا بريطانيا العظمى فقد رأت أن اقتراحات الجنرال كانت على جانب عظيم من الأهمية، وهي مستعدّة لإكمال المحادثة، شريطة إطلاع بقيّة أعضاء الحلف عليها.

أبلغ سومس دي غول، خلال مقابلتهما الثانية، أن رئيس الوزراء البريطاني هارولد ويلسون، رأى أن من واجبه إطلاع المستشار الألماني كايسنجر، عندما التقيا في بون في الثالث عشر والرابع عشر من شهر شباط، وهكذا انتشر الخبر في دول حلف شمال الأطلسي (O.T.A.N) كنثار البارود.

في السابع عشر والثامن عشر من شهر شباط، سعى السفراء الفرنسيون في مختلف العواصم الأوروبية، إلى تقويم ما كانوا يعرفون عن هذه المحادثات، وإعطاء تأكيداتهم أن الجنرال دي غول لم تكن نيّته أبداً تحطيم حلف شمال الأطلسي. ومن تصريحاته لسومس أن اتساع السوق المشتركة يغيِّر بكل تأكيد بنيته، ويجب بالنتيجة إعادة النظر وبدقة في تنظيمه.

في الحادي والعشرين من شهر شباط، أخذ النزاع أبعاداً كبيرةً، من قال هذا؟ ولمن قيل؟ وبدأت الصحف تنشر مقالات وأخبار حول هذا الموضوع، أخذة النزاع إلى

أبعاد أكثر حدة، فقد تطرَّق معلق في صحيفة "لندن تايمس" للموضوع فأعطى ترجمة قريبة جداً من التي نقلها لنا الإنكليز عند المغادرة. وظهر كذلك مقال حماسي في صحيفة الفيغارو أعاد إلى الأذهان أن دي غول لم يعمل سوى تلخيص موضوع "أوروبا المستقلة". وإمكانية تحقيق ذلك، دون إبداء أي أثر لمفهوم حلف شمال الأطلسي. ولم تقف الفيغارو عند هذا الحد بل هاجمت شخص السفير سومس لأنه أذاع في أوروبا ترجمة حساسة لملاحظات الجنرال، الأمر الذي كان يبعث الشك في حسن نيته.

وفي الثاني والعشرين من شهر شباط، عشية سفرنا إلى أوروبا أرسلت إلى نيكسون تقريراً موجزاً حول هذا الموضوع، ألخّصه في ما يلي:

"أعتقد أن دي غول عرض في الواقع فكرته عن مستقبل أوروبا على سومس، وتقريباً بنفس التعابير التي أوردها الإنكليز. وعلى كل حال، فإن الأمل بإيجاد أوروبا مستقلة عن التسلط الأمريكي، تحت إدارة موحدة أو متفق عليها من قبل السلطات الرئيسية الأوروبية، يتفق تماماً مع رغبته في رؤية حكم مرتكز على اتفاق فرنسي إنكليزي، وطبعاً بشرط تخلي إنكلترا عن كل علاقة ذات امتياز مع الولايات المتحدة.

سيطلب منك إعطاء تعليقات حول ذلك

وأوصيك:

١ـ بالتأكيد على التزامنا بحلف شمال الأطلسي.

٢ـ والتأكيد على مساندتنا للوحدة الأوروبية، بما فيها انضمام بريطانيا العظمى إلى السوق المشتركة.

٣ـ تحديد أننا لن نتدخّل أبداً في المباحثات الأوروبية الداخلية، حول الإشكال.

حافظ نيكسون بدقة واعتناء على هذه الخطّة في محادثاته الخاصّة، كما تقيدّت أنا بها أيضاً في مؤتمراتي الصحفيّة الرسميّة قبل وبعد السفر إلى أوروبا.

وصل نيكسون إلى لندن مساء الاثنين، وكانت السماء لا تزال ماطرة، فاستقبله في مطار هايثرو كل من رئيس الوزراء هارولد ويلسون ووزير الشؤون الخارجية ميشيل ستيورات. أختصر الاحتفال المقرَّر لأن نيكسون كان يخشى اتهّامه بطلب حفلات لهو، وكانت إذ ذاك الحرب يستعر أوارها في فيتنام ورغب أيضاً في اختصار البروتوكول على أقل شيء ممكن. وهذا بالنسبة له تضحية عظيمة وشاقّة.

استقبل نيكسون من قبل هارولد ويلسون، بعطف صادر عن ولد بكر، رئيس عائلة عريقة، عرف فيها أمجاداً، ويتذكر الآن الحكمة والكرامة والسلطة التي حافظت على سمعة هذه العائلة ثم انقلب الحديث عن دي غول، فأعلن هارولد ويلسون: أنه يرفض الأوضاع الفردية في الشؤون الخارجية، مقارناً إيّاها بفكرة عالم أوسع التي تقدّم بها نيكسون. لكن الذي كان يشغل ويلسون كثيراً، بل وبصورة دائمة ومنذ أمد طويل، أوروبا الغربية بكاملها بحيث أنه كان يجب على الحلف بالإضافة إلى المحافظة على الأمن، التوجّه نحو أهداف أكثر إيجابية "كالتعاون والسلام" لأن هدف الحلف في أواخر ١٩٦٠ لم يكن الدفاع عن الحلف أقلّه على مستوى الخطابات، بل إيجاد تأييد رئيسي من الآن فصاعداً لتخفيف الضغوط.

ولم يسمح نيكسون لنفسه أن تتفوّق عليه الهتافات الرنّانة في استقباله، فتكلم لمستقبليه بعبارات كان يجب عليه استعمالها صميمياً وبصورة دائمة في حملته الانتخابية لعام ١٩٧٢، بتحدّيه تضخماً مالياً يتوقع حدوثه نتيجة الانفراج السياسي، ثم أردف قائلاً: "إني اعتقد جازماً أننا سنتمكن من الوصول إلى سلم وأمن دائمين في هذا العهد". وكان يبدو كثير الحيوية. وأخذ أيضاً في الكلام عن مشكلة العدول

عن العلاقات ذات الامتياز بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، موضوع المباحثات الكثيرة التي تجري في حكومتنا، وتصدّى لها مرّتين بجلاء ووضوح وعبارات شديدة الإيجابيّة.

وكان نيكسون قد أخذ برأيي حول عدم التدخل في مشادّة سومس ـ دي غول، لأنها مهما طال أمدها، وما دامت في حيّز الشائعات وتفكير البيروقراطية، لذا فهي لن تهمنا أبداً. وكونه معتقداً بالعلاقة ذات الامتياز فقد أوضح ذلك في خطابه حال وصوله.

كان تصرّف نيكسون لائقاً ومتفقاً تماماً مع آراء مضيفينا، لهجته رقيقة وثيقة ومرغبة، وتمكنت بريطانيا العظمى من إرضائنا، دون أن تطلب لنفسها أي شيء مهما كان وتوصلت إلى قبول تبادل وجهات النظر دون انتظار أي عمل أمريكي محدَّد بالمقابل.

توجهنا من المطار إلى شيكرز، مقر رئيس الوزراء الريفي، وهو مقر هادئ ومريح، وذو أثاث غير مبالغ فيه، إلى جانب العديد من التذكارات التاريخية التي تمجدّ تراث بريطانيا العظمى المجيد.

وعلى منوال ساكنيه، فإن التأثير الذي يبديه والانطباع الذي يعطيه كانا خفييّن وغير مباشرين.

جرت المحادثات الأولى، خلال عشاء خاص، دُعي إليه كل من: نيكسون وويلسون، روجرز وستيورات، وسير بارك ترويند، السكرتير الأول في الحكومة البريطانية وأنا.

كان عشاء شيكرز أشبه بسهرة عائلية، فدارت فيه الأحاديث حول المشاكل العالمية. بدأ في غرفة طعام مائلة السطح وانتهى حول مشروب من الكونياك في القاعة الشهيرة: "لونغ غاليري lóng Gallery" وهؤلاء الرجال الذين يعّول عليهم في تصميم

مستقبل بلادهم لسنوات مقبلة، تبادلوا نظرات الرضا، وبعد إعادة ما جرى درسه من مباحثات، كان الجميع راضين عن النتائج.

بعد انتهاء العشاء ذهبنا أنا ونيكسون إلى شقّته في كلاريدج لتلخيص أحداث النهار التي بدأت في مجلس حلف شمال الأطلسي في بروكسل وانتهت عند رئيس الوزراء البريطاني في مقرّه الريفي الذي كان ينسبه نيكسون لعّدة أجيال، ولم أجرؤ على مصارحته أن تاريخ الشيكرز يعود فقط إلى الحرب العالمية الأولى.

كان فرحه لا يقدَّر، وسروره عظيماً بالحفلات التي أقيمت له على الطراز القديم. فقد كان تسلّمه الوظيفة حديث جداً، والأحداث المتلاحقة رفعته إلى القمّة، فالهبوط بطائرة رئاسية في أرض غريبة، وملك يستقبله، ورئيس وزراء، واستعراض حرس، وزيارة الشيكرز، كان هذا كله قمة أحلام شبابه، وتصوّره الوصول إلى مسؤولية عظمى كانت تبدو متعذّرة البلوغ على فتى فقير ذليل مثله، مولود في إحدى المدن الصغيرة في كاليفورنيا. وهذه إحدى المرّات النادرة، خلال علاقاتي الطويل مع نيكسون، كنت شاهداً فيها على فرح هذا الرجل المفاجئ ذي الطبع الكتوم والطموح.

ومع أن مناقشات النهار، لم تحل أية مشكلة عظمى، فقد أحب نيكسون هذه المحادثات الفلسفية، التي لم يجر فيها أي تفصيل أو توقّف. وكان يرغب بإلحاح أن يقال له إلى أي مدى طيّب توصّل في أحاديثه، ولقد طلب إليّ مراراً وتكرارً أن أبيِّن له عن دوره العظيم في أحداث النهار، ومثلما كان يحدث له أحياناً حال تعرّضه لتأثير شديد، كان متمدداً على سريره، مغمغماً مهتاجاً، متلفظاً بكلمات غير مفهومة، سهلت عليّ تهدئته، وأخذ يتصرّف بهدوء وقدرة وكأن أي حادث لم يطرأ.

في اليوم التالي وفي قاعة "ـ ١٠ ـ داونينغ ستريت" (مقر ومكتب رئيس الوزراء) تصدّى فريق كثير الأهميّة مؤلف من أعضاء الحزبين لقضايا الليلة الماضية، وأهم

المباحثات التي دارت في هذا الاجتماع كان: قرار بريطانيا العظمى في تجديد طلبها بالانضمام إلى السوق المشتركة، ومستقبل حلف شمال الأطلسي، وعلاقات الشرق والغرب.

أخذ نيكسون بهذه الفكرة، لكنّه لفت الانتباه إلى أنها ربّما تؤدّي إلى عداوة أمريكية لـ (دي غول). وسيحاول تحسين العلاقات الفرنسية الأمريكية، إذا وجد تبدلاً في وجهة نظر دي غول الأساسية، وأصبح لديه مجال لقبول تسويات على المستوى العملي. فأعلن الوزراء البريطانيون، أن هذا ما يسعون إليه، كما لو أن مشادّة سومس ـ دي غول لم تكن.

أظهرت المحادثات المتعلّقة بحلف شمال الأطلسي ازدواجية الحلف الأطلسي مرّة أخرى. وأيّد المجتمعون نيكسون عندما أكّد أن الاتحاد السوفيتي في طريقه إلى تفوّق نووي، وعلينا بالرغم من ضغوط الكونغرس، متابعة برامج دفاعنا الجديدة التي بدأنا بها. فلم يأخذ أحد نتيجة إيجابية من حديثه في دعم الدفاع الأوروبي.

وهكذا انتهى السفر إلى لندن بنقطة انطلاق صداقة متبادلة خاصة، رغم وجود مشاكل معقدة لم تحل، ومع ذلك وصلنا في مباحثاتنا في لندن إلى وضع أسس تعاون عتيد ومثمر.

❒ ❒ ❒

توجه نيكسون بعد زيارة لندن إلى بون، وكان في انتظارنا وضع أكثر تأثيراً مما عشناه في زيارتنا إلى لندن، فقد كان وضع جمهورية ألمانيا الاتحادية في غاية التعقيد، خاصة وأن تلك الفترة كانت تسبق الانتخابات الرئاسية، وجاء وصولنا في بداية أزمة برلين.

ينتخب رئيس ألمانيا الغربية من قبل مجلس البوند ستاغ ومن قبل ممثلين عن الولايات "لاندر Lander" ومنصب الرئاسة في ألمانيا الغربية وظيفة فخرية. وقد اتخذ هذا المجلس حتى الآن، مقراً له في مبنى الريختساغ القديم في برلين الغربية. وحكومة بون هذه كانت تظهر أنها ترمي إلى تجسيد ديمومة شرعية ألمانيا. ويتجاهل السوفيت وشركاؤهم الألمان الشرقيون حتى الآن هذا التحدي الضمني. إذ شعروا عام ١٩٦٩ أنهم أصبحوا على جانب عظيم من القدرة لرفع هذا الحيف. فاعترضوا على إجراء الانتخابات في برلين، بحجة أن برلين الغربية لا تشكلّ شرعياً، جزءاً من الجمهورية الاتحادية، وبدؤوا بوضع حواجز تمنع الوصول إلى الهدف، لأول مرة عام ١٩٦٢.

سيُحدث هذا قلقاً كثيراً في بون. وقابليّة تقسيم برلين أصبحت مضرب المثل. ولم يكن يُعرف موقف الحكومة الأمريكية الجديدة حيال ذلك. والعالم يسوده قلق عظيم تجاه وضع ألمانيا الخطير. والمشاحنات السياسية التي حدثت مع الحكومتين الأمريكيتين السابقتين. جعلت بون ترفض ما قدمه مكنمارا حول دفاع إقليمي غير نووي خوفاً من عدوان سوفيتي. كما كانت ترى في معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية مثالاً أعلى في التمييز بالنسبة لها بشأن المجال النووي. كما كانت حكومة بون مغتاظة جداً من الضغوط التي تمارسها عليها الولايات المتحدة لدفع تكاليف مرابطة القوات الأمريكية على الأرض الألمانية. والمستشاران كونراد اديناور ولودفيغ اردهارد تأكدا أن ترك وظائفها المفاجئ كان بسبب الخلاف مع حكومتي كينيدي وجونسون.

كل هذا كان يعكس عدم الاستقرار النفسي لدولة ألمانيا الجديدة التي تظهر بمظهر القدرة. والمهزومة في حربين، حاملة آثار جروح الحزب النازي، ممزّقة ومجزّأة، لذا كانت ألمانيا الغربية مدّخراً لمصائب السياسة. ولم يكن لدى بون تلك الثقة وخاصة ببريطانيا، وهي وليدة قرون من التطور السياسي والمجد الإمبراطوري البائدين.

كان مأزق السياسة الألمانية أكثر وضوحاً بعد الحرب العالمية.وألمانيا الإتحادية وحدها بين الدول الأوروبية، كان لها طموحات قومية غير محققة. وكانت رغبتها في توحيد ألمانيا تبدو واضحة في رفض التعامل مع نظام ألمانيا الشرقية، وإجراء إتصالات سياسية مع كل دولة أرتبطت بها (وهذا ما يسمى بالمذهب الهلستيني)، ولم تشاركها بهذه الطموحات أية دولة أوروبية أخرى.

وفكرة ألمانيا موحدة كانت تحيي شبح التسلط الألماني، وفي هذا المجال كان الكل مجمعين على راي كليمنصو، الذي قال يوماً مازحاً أنه يحب ألمانيا كثيراً حتى أنه يريدها إثنتين. بالإضافة ألى أنهم كانوا يعلمون أن ثمن توحيد ألمانيا، باهظ وكبير، هذا الثمن مؤداه مجابهة قاسية مع الإتحاد السوفيتي. كانت توجد إذاً ورطة عظيمة لا يمكن تجنبها، بين الهدف الذي تدعو إليه ألمانيا الإتحادية وهو توحيد ألمانيا، وبين الأعمال الممكن الإقدام عليها للوصول إلى ذلك. وهذه الإشكالية بين ما يمكن أن يسمى (الهدف، والوسيلة) سمحت للإتحاد السوفيتي أن يفرض على ألمانيا الغربية إختبار قوة بشأن برلين، مخصصاً جزءاً منها على الأقل لجّر ألمانيا الغربية للقبول بالوضع الراهن، وإرغام حلفائها في حلف شمال الاطلسي على الإبتعاد عن طموحاتها القومية.

على الرغم من كل ذلك كان القادة الألمانيين الغربيين يرون أن علاقاتهم مع الولايات المتحدة، مرسى لنجاتهم، ولم يكونوا يطمحون للقيام بدور في الشؤون الدولية، إذ كانت تنقصهم الثقة بأنفسهم للسعي في التأثير على سياستنا بمستوى عالمي. وكان هدفهم أكثر تواضعاً، إذ كانوا يطمحون إلى إمكانية الإتكال علينا للدفاع عنهم والحصول على تأكيد بعدم تغيير سياستنا الأساسية نحو الحكومات الشرقية، الأمر الذي يجعل ألمانيا تتعرض لتبديل طبيعي أو نفسي.

ولأجل هذا فإن طرقنا السياسية الصاخبة أقلقت الألمان الغربيين. والتصريحات المتتالية التي تعلنها أطراف الحكومة الجديدة بصورة جدية وقوية عن التصدي للمشاكل بطريقة مختلفة، محبطة وكانت تبعث لدى الألمان الخوف والقلق الكبير من أن تكون إحدى مراحل العمل القادمة هي نقض التعهد الأمريكي لأوروبا.

إن مهمة نيكسون ـ إعادة الثقة والطمأنينة إلى بون ـ كانت ملائمة جداً في هذا الجو المشحون. وبالرغم من أزمة برلين، فإن السياسة الألمانية كانت تجتاز مرحلة انتقال. ففي تشرين الأول عام ١٩٦٣، خلف لودنيغ ايرهارد المستشار اديناور (باعث نهضة ألمانيا). وكان يتمتع ايرهارد حينذاك بشعبية كبيرة، لكن كما سبق وقال عنه اديناور: كان ايرهارد بعيداً عن الإلمام بالسياسة، أكثر من الاقتصاد.

إنهار الإئتلاف الحكومي المؤلف من المسيحيين ـ الديمقراطيين والليبراليين، وشُكّل عام ١٩٦٦ إئتلاف جديد من الإشتراكيين ـ الديمقراطيين، والمسيحيين ـ الديمقراطيين، سمّي بالإئتلاف الكبير، كما سميّ كورت جورج كايسنجر، مستشاراً، وويللي براندت مستشاراً ووزيراً للشؤون الخارجية.

ظهر هذا القرار خطيراً بالنسبة للمسيحيين ـ الديمقراطيين، الذين حكموا فترة ما بعد الحرب العالمية كمحافظين معتدلين، في حين أن الإشتراكيين ـ الديمقراطيين كانوا يمارسون معارضة، كادت تصبح دائمة.

وضع الإئتلاف الكبير موضع العمل من قبل المنظم اللامع الإشتراكي ـ الديمقراطي هربرت وهنر، وأظهر أن الإشتراكيين ـ الديمقراطيين كانوا جديرين بالحكم، وإشتراكهم الفعلي بالحكومة جلب لهم عدداً من الأصوات الإضافية التي كانوا بحاجتها لكسب الإنتخابات أواخر عام ١٩٦٩.

إن التقدير الخاطيء الذي أوصل إلى الإئتلاف الكبير كان مؤلماً بالنسبة

للمسيحيين ـ الديمقراطيين، وفي الوقت نفسه كان مكسباً للديمقراطية الألمانية، وقد برهن الإشتراكيون ـ الديمقراطيون أنهم كانوا في الحقيقة حزباً ديمقراطياً مسؤولاً. وهذا ما جعل حياتها السياسية المستقرة راديكالية، أو إستقطابية في كثير من البلدان الأوروبية الأخرى.

الأمر لم يقف عند هذه الحدود، فالحكومة التي إستقبلتنا في بون، كانت في حالة إنقسام عظيم على نفسها، وكاد أهم ممثليها يتجابهون في الإنتخابات التي جرت فيما بعد ببضعة أشهر، وكل ما قيل خلال زيارتنا، عكس مساومة حكيمة، حيث كان يسعى كل واحد منهم لتمكين أوضاعه، والمستشار كايسنجر، اللطيف، الرصين، ورابط الجأش أعلن عن الأشياء العادية بتحفظ كبير، إذ كان يرى نفسه سياسياً واقعاً في الشرك، وإن كل يوم يمر على الحكومة كان يقوي من وضع خصمه الرئيسي، الذي يعتبر نفسه مساوياً لنائب المستشار ويللي براندت.

الحاكمان الألمانيان رغم إنقسامهما، إلا أنهما يجتمعان في نقطة واحدة وهي البرهنة على الثبات بالنسبة لبرلين. كان كايسنجر يراعي وضعاً قاسياً تجاه البلدان الشرقية، أما براندت فكان يحمل فكرة عن وضع أكثر غموضاً، إذ أنه كان على إستعداد للإقرار بفضل ألمانيا الشرقية دون تفكير، وكان كايسنجر يعلق أهمية كبرى على العلاقات مع فرنسا، ويؤكد براندت على إنضمام بريطانيا العظمى للسوق المشتركة. كانت أفكار كايسنجر قريبة جداً من أفكار نيكسون وتطلعات براندت كانت تتجاوب فعلاً مع تصرفات وزارتنا للشؤون الخارجية، ان المحادثات التي أجريناها في بون، دلت بوضوح على أن السياسة الألمانية ستكون مسوّفة حتى يحين موعد الإنتخابات في الخريف.

انتهت زيارتنا الرسمية إلى ألمانيا الغربية بزيارة برلين. حيا جمع غفير الموكب

الرسمي عند مروره، لكن نيكسون كان مستاءً، إذ كان يخشى أن يكون إستقباله في برلين أقل أهمية وحماساً من الإستقبال الذي جرى لكينيدي عام ١٩٦٢ ولم تنفرج أساريره إلاّ بعد أن أكدّوا له مرات عديدة أن استقباله كان أفضل. (ولاحظت أن مسيرة الموكب الرسمي كانت على شكل S لتسمح للجمع بالمرور بسهولة من شارع إلى آخر. وكما قيل لي، فإن هذه الطريقة استعملت كذلك عند زيارة كينيدي). كان نيكسون يريد إثارة أزمة أخرى لبرلين محددا ذلك دون مواربة، منذ بداية حكمه، واضعاً هيبة الرئاسة في الميزان، وهذا ما أثبته فعلاً بخطاب واضح ألقاه في معمل سيمنس قائلاً: «بقي أربعة رؤوساء قبلي مرتبطين بهذا المبدأ، وأقول لكم الآن وفي هذا المكان، أني أنا أيضاً أحافظ عليه بثبات. يجب أن تبقى برلين حرة. ولا أقول هذا عن تبجح أو مزاودة، بل أعلن فقط عن رأيي النهائي بالنسبة للحياة الدولية».



كانت إيطاليا المرحلة التالية لسفرنا، وفوضى مطار روما المفرطة معاكسة تماماً لاحتفال برلين المنظّم. وفي البلبلة التي تلت وصولنا، أُخذ روجرز لاستعراض حرس الشرف المكلّف بتأدية التحيّة، إلاّ أن أحد أفراد فرقة استطلاعنا صُعِق من هذا العمل، فانتفض وذهب فأحضر الرئيس نيكسون وجعله في مقدمّة الموكب. وبعد ذلك سارت الأمور بسهولة، لكننا كنّا نتلمس شفا الكارثة.

كانت هذه إحدى زياراتي العديدة التي أقوم بها الآن لإيطاليا خلال ممارساتي لوظائفي. أحببت كثيراً جمال هذا البلد الأخاّذ ودماثة أخلاق أهله العجيبة. ومع ذلك فقد أثبتت لي كل زيارة أن لإيطاليا نظماً سياسية وتصوراً لدور الدولة تختلف عمّا هي عليه في باقي دول أوروبا الغربيّة. أعتقد أن الإيطاليين أكثر مدنية، وأكثر تقديراً للإنسان في تصرّفاتهم العامة، وتبنّي أهداف سياسية كانت طيلة قرن ونصف سبب

تنافس وطموح البلاد الأوروبيّة الأخرى. ليس هناك مجال للشك أن مشاكل إيطاليا الداخلية كانت تستأثر كلياً بانتباه الحكّام الايطاليين، حتى أن السياسة الخارجية، تأتي في المرتبة الثانية من اهتماماتهم.

وبالحقيقة علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن روما وأن كانت عاصمة، إلاّ أنها مصدر شعور وطني أكثر من تقليد تاريخي، وسيطرت في القديم على إمبراطورية، قبل أن تكون خلال خمسة عشر قرناً عاصمة الدولة البابوية.

وقصر الكيرينال ـ حيث يقيم حالياً الرئيس الايطالي، بقي مقراً صيفياً للبابوات حتى عام ١٨٧١.

وبعكس العواصم الأوروبية الأخرى، لم تبد روما اندفاعاً نحو توحيد إيطاليا، لكنها اندمجت بإيطاليا فعلاً عشر سنوات بعد ولادة الدولة الإيطالية، وجاءت الحكومة الإيطالية لتتمركز في حاضرة البابوات، وبقيت البابوية المؤسسة المسيطرة على روما.

ومهما يكن السبب، فلديّ انطباع أننا بلغنا هدفنا الرئيسي من زيارتنا منذ هبوطنا في المطار. كانت الولايات المتحدة تحترم إيطاليا. وأجهزة التصوير كانت توضح أن القادة الايطاليين قد أُخذ رأيهم، وبعد أخذ الصور التذكارية كالعادة، كان تصرّف الوزراء الايطاليين يدل على أنهم يعرفون كفة الحياة لإعطاء برهان على أن جميع آرائهم في الشؤون الدولية، كان لها بعض الحظ في التأثير العميق على الأحداث.

كانت روما العاصمة الوحيدة التي أحدث فيها وصول نيكسون مشاجرات وأحداثاً ذات مدى واسع. لم يعلن الشيوعيون علانية وجهاراً موقفهم من حلف شمال الأطلسي. (لكنهم أقدموا على ذلك عندما أصبحوا على مشارف الاشتراك بالحكم،

الأمر الذي أعطى دفعاً قوياً في المجال التعبوي) فأعلنوا عن ذلك منذ أن اتخذوا شعاراً لهم: يجب على حلف شمال الأطلسي مغادرة إيطاليا، كما يجب على إيطاليا نبذ حلف شمال الأطلسي.

وبالنسبة لنيكسون فقد أعاد في جميع خطبه، المواضيع الأساسية التي تكلّم عنها خلال المراحل الأخرى من سفره، أي التزامه بأخذ رأي رؤساء الحكومات الصديقة حول كل المواضيع، ونيته في بحث العلاقات مع الاتحاد السوفيتي ورغبته في السلام برؤية تعقلية.

نالت تصريحات نيكسون رضا الحكام الإيطاليين لكنهم جاؤوا بمبادرة ظهروا فيها وكأنهم من سكان كوكب آخر، فقالوا عن هذه التصريحات أنها مفيدة لكنها خيالية وليست ضمن اهتماماتهم الخاصة.

ثم جرت لقاءات غير محدّدة، واشترط الرئيس جيوسيب ساراغات، عدم اشتراك وزرائه في المحادثات، عند اللقاء بالرئيس نيكسون، لأنه يخشى أن يظهر أمامهم ما يخيفهم والذي قد يهدد بإيقاف تلك المحادثات، فكانت اللقاءات خاصة، ظهر ساراغات خلالها حيوياً ومفكراً، ولما كان الدستور الإيطالي لا يعطي الرئيس أية إمكانية لتعاطي الحياة السياسية، لذا كانت آراؤه دون اعتبار.

أقام ساراغات حفل عشاء فاخر في قصر كيرينال، وبما أنه لم يكن يسمح بإجراء محادثات رسمية، ولا يستطيع أحد قادة إيطاليا العديدين، الذين سيقومون بدور خطير خلال سنوات الحكم القادمة، إبداء رأيه في هذه المحادثات. لذا فإن نيكسون استقبل عدداً كبيراً منهم بصورة فردية في جناح صغير من القصر فشاركت هذه المبادرة في تعقيد الأمور أكثر من حلها. إذا لم يكن لأحد من تلك الأحزاب المختلفة، منهج صريح، أو ماذا عليه أن يعمل منذ الآن، في حال وصوله إلى

الحكم، وهل كان منهجه نابعاً من اعتقاداته الشخصية اكثر من استناده على اتصالاته بالقوى المتجمعّة حوله.

كان يهم الإيطاليين إنهاء حرب فيتنام، لحرمان الشيوعيين من أحد مواضيع دعاياتهم المحببة، وتشجع انضمام بريطانيا العظمى إلى السوق المشتركة، وإحداث توازن دي غولي، والمصالحة مع البلدان الشرقية، لإعطاء الحلف الأطلسي هدفاً جديداً.

قدّمت هذه الآراء على شكل نصائح لحليف يوثق به، ولم يرافقها أي رأي محدَّد، وعند ذكر المسائل المتعلّقة بالدفاع، لاذ كل الوزراء الإيطاليين بالصمت.



كانت باريس، آخر مرحلة في رحلة مغامرة نيكسون، استقبلنا في المطار تلك الشخصية العظيمة ـ شارل دي غول ـ رئيس الجمهورية الخامسة الفرنسية. وبعد ذلك بأربعة أسابيع توجه دي غول إلى واشنطن للاشتراك في تشييع جثمان الرئيس ايزنهاور. وحضوره إلى واشنطن كان كاستقباله لنيكسون في باريس، فأصبح محط أنظار جميع الحضور. ورؤساء حكومات أخرى، والعديد من أعضاء مجلس الشيوخ الذين يتعرّضون عادة للقادة ذوي النفوذ.

أصبح دي غول اللسان الناطق للمجتمع الدولي وسيادة القارة الأوروبية أمام الولايات المتحدة. وكان يحمله المنطق الفرنسي مجدداً لتقديم أفكاره جهاراً ودون مواربة، وكانت عدم الثقة المتبادلة التي كانت قد نشأت بينه وبين رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية قد جعلت كل محادثة جادّة غير ممكنة بعد تسلّم حكومة نيكسون السلطة. أمّا بالنسبة لرجال سياستنا أصبح دي غول موضوع طرد من المجتمع.

وكانوا يؤكدون أن التهجّم الذي بادلهم إياه يجب أن يعود عليه. وكان هذا خسارة كبرى، لأن دي غول كان قد أثار موضوعاً هاماً بالنسبة لطبيعة التعاون الدولي.

أن تحكم واشنطن بتنظيم يجعل كل عمل مادي منفرد غير ممكن، مشيرة إلى أن كل شريك مسؤول عن جزء من المهمة الإجمالية المشتركة. أما دي غول فلن يتراجع عن مبدئه ويقول: لا يمكن أن يكون التعاون مثمراً إلاّ إذا كان لكل شريك إمكانية حقيقية للخيار، وعلى كل حليف، ولو نظرياً، أن يكون قادراً على التصرّف بصورة مستقلّة. لكن واشنطن منطلقة من فكرة تشابك المصالح العامة، تعتمد على تبادل الآراء لكي تزيل سوء التفاهم. ووجهة النظر الأمريكية، أن يكون نفوذ كل شريك مقسماً حسب استطاعة كل بلد في المجهود العام، كما هي الحال في أسهم شركة مساهمة مغفّلة.

دي غول وهو وليد قارّة يعلوها الدمار، كان« يثبت بطريقة مفحمة، عن قابلية الخطأ، في التقديرات البشرية ، ولم يكن يقبل أن هذا النوع من التنظيم يتمكن من حل المشاكل. وبنظره، أن ثقة أوروبا بنفسها لم تكن تتطلب فقط أخذ الرأي بل تتعلق كذلك بخيارات تبقى لها في حالة عدم الإتفاق. ومن هذا المنطلق، وبينما كان الناطقون بلسان الأمريكيين يشددون على المشاركة، كان دي غول يؤكد على التوازن. وبالنسبة له، فإن العلاقات السليمة تتوقف على الإرادة الشخصية الطيبة وعلى رغبة التعاون أكثر من تشديد الضغوط وتحديد روابط القوى وكان يؤكد أن «الرجل المحدود بطبيعته، هو إنسان بلا حدود في أمانيه». «فالعالم إذاً مليء بقوى متعارضة والحكمة الإنسانية تتوصل غالباً لمنع المنازعات من التحول إلى قتال مميت». وتنافس القوى شرط الحياة. بلدنا تجد نفسها اليوم في مواجهة قانون بشري كانت تسير بموجبه البلاد منذ ألفي عام». فنّ الحكم بنظر دي غول يقوم على فهم معنى التاريخ، ورجل السياسة الكبير يجب أن يكون ذكياً ، لكنه يجب أن يكون كذلك واضحاً وبعيد النظر. والعظمة بنظره

ليست فقط السلطة المادية، بل القوة التي يرافقها هدف أخلاقي. والتنافس لا يقود دائماً الى نزاع مادي، بل بالعكس فإن دي غول كان يفكر ان مجتمعاً حقيقياً لا يمكن أن ينشأ إلاً من صراع ارادات وهي الطريقة الوحيدة لكي يحافظ كل قسم منه علىكبريائه. «نعم ان الحياة الدولية، صراع، كالحياة العادية، فالذي تسانده بلدنا يميل إلى التوحيد لا إلى التجزئة، إلى الرفعة لا إلى الذل، إلى التحرير لا إلى السيطرة». وهكذا تابع دعوته، التي كانت وستبقى دوماً إنسانية وشاملة.

وبهذه الفلسفة، لم يكن ممكناً لدي غول أن يقبل الآراء التي يطرحها الأمريكان والتي توجب على الشعوب أن تبقى كما كانت في الماضي. لم تكن المشكلة كما يزعم عدد كبير من مناوئيه الأمريكان، في أنه يريد إحياء المنازعات التقليدية بين شعوب أوروبا، بل بعكس ذلك كان يؤكد بشدّة أن غايته توحيد أوروبا. لكن الأمريكان والأوروبيين، المنادين بعملية التكامل، كانوا يؤكدون أن الوحدة الأوروبية يجب أن تمّر في تنظيم جديد اتحادي عالمي يعمّ الشعوب، أما دي غول فكان يؤكد أن الهوية الأوروبية وبالتالي وحدتها، تتعلقان بالحيوية والثقة بين شعوبها هي وكيانها القومي والتقليدي.

قبيل السفر وخلال زيارتنا لباريس، لم نترك فرصة لنظهر أننا عازمون على وضع حد لمشاحناتنا القديمة مع فرنسا. وفي الثامن والعشرين من شهر شباط، أعلنت ما يأتي في مؤتمر صحفي رسمي:

"إن الرئيس يعتقد تماماً أنه من غير الجائز، للولايات المتحدة كما لفرنسا، الإبقاء على علاقات سيئة، يمكن إزالتها. "أوضحت لنا كل البلدان التي زرناها وبصراحة أنها لا تريد أبداً إجراء الخيار بين الولايات المتحدة وفرنسا ..... كما لا أعتقد أنّ علينا إعطاء الإمكانية لكل دولة لإبداء رأيها في واقع المنازعة، إذا لم نكن نحن على نزاع أساسي ثابت ودائم مع فرنسا ....".

وأبدى نيكسون إعجابه الشخصي بدي غول، خلال حفل عشاء فخم رسمي أقيم على شرفه في الإليزيه. فوصف حياة دي غول "بملحمة شجاعة، ملحمة زعامة نادرة في التاريخ، هذه الزعامة التي أعادت الآن لهذه الأمة الكبيرة مكانها الحقيقي الذي تستحقه. وأبرز صورة دي غول الشخصيّة قائلاً: رئيس أصبح جبّاراً بين الرجال لشجاعته، وبعد نظره، وحكمته، التي يحتاجها عالمنا اليوم، لوضع حلول لمشاكل معقدّة لا تزال تهمّه! ردّ له دي غول الشكر على هذا الأنس العظيم المفعم بالاحترام، متقبلاً الدعوة الرمزية (وهذا نادر من جهته) بحضور العشاء الذي أقامه نيكسون في سفارة الولايات المتحدة.

تبادل نيكسون ودي غول الحديث ولمدة طويلة ثلاث مرات. لم أشترك إلاّ بواحدة منها. وقرأت تفاصيل الإثنتين الأخريين بفضل المترجم اللامع الجنرال فرنسون ا. وولترز. كان دي غول يتكلم بسيطرة تامّة على اللغة التي يدين لها بقسم كبير من نفوذه، وسعة إطلاعه تاريخياً كانت تعطيه القوة لإظهار بعد نظره كرجل دولة. كان موضوع الحديث الاول الذي جرى في الأليزيه يدور حول علاقات الشرق بالغرب. كما تحدّث دي غول عن الشعب الصيني، واكد على وجوب منعه عن الإنطواء على فظاظته. وألحّ على وضع حد لحرب فيتنام، وأشار علينا بتحديد تاريخ الإنسحاب للوصول إلى إتفاق سياسي، لكن بعد أن أجمل الهدف المبتغى، ولم يعطنا أيّ توضيح عن الطريقة التي يحسن أن نتصرّف بموجبها. وأرشدنا بحزم إلى فرض حلّ لمشكلة الشرق الأوسط. كان يعتقد أن وسيلة الوصول إلى هذا الحل هي عقد مؤتمر رباعي الأطراف. وعندما إقترح نيكسون إجراء مفاوضات موازية بين الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي أظهر عدم إكتراث عظيم كان يخفي وبلا جدوى تحفظاً قوياً، ولم يكن يريد أبداً أن يوضع موضع الأمتحان حكماً ثنائياً أمريكياً ـ سوفيتياً.

وفيما يخص الإتحاد السوفيتي، ألحّ دي غول على ضرورة إيجاد دفاع قومي قوي، مع الدفاع في الوقت نفسه عن سياسة الإنفراج من خلال بيّنات تاريخية عامة، وأردف أن روسيا شيء والشيوعية شيء آخر. وتضاؤل تقدّم الشيوعيين، لا يعني أن الخطر الشيوعي غير موجود، لكنه لا يستطيع بعد غزو العالم، لقد تأخر في ذلك ، وتحركّه فقد ديناميكيته. إن روسيا بلد عظيم، فتاريخها الماضي الطويل، ومواردها الضخمة، وكبرياؤها، وطموحاتها ليست بالضرورة شيوعية، ولو أن الولايات المتحدة وأوروبا أقدمتا على الحدّ من قدراتهما الدفاعية، فإن القادة السوفيت سيسرّون بلا محالة وينقضوّن ربما على الغرب.وسيكون هذا إعلان حرب عامة وموسكو تعرف تماماً أنها لا تتمكن من الظفر، كما أن الولايات المتحدة لا تقبل بإجتياح أوروبا لأن هذا يعني أيضاً غزو لآسيا وعزل الولايات المتحدة في أرض القارة الأمريكية. ستظفر موسكو دون شك إنتصارات أولية، لكن الولايات المتحدة ستتوصل أخيراً إلى إستخدام كل قواها لتدمير روسيا.

في نهاية العشاء في الأليزيه، وعندما كانوا يقدمون المشروب، جاء من يعلمني أن دي غول يرغب في مقابلتي. ودون إضاعة الوقت في مجاملات غير مجدية دخل حالاً في صلب الموضوع وسألني:

"لماذا لا تنسحبون من فيتنام"؟

ـ أجبته، أن الانسحاب يعرّض أهدافنا للخطر.

ـ وأين ذلك ؟ أراد أن يعرف الجنرال. فنوّهت بالشرق الأقصى.

"كم هذا غريب، أردف الجنرال الذي كانت قامته العالية توحي إليّ أنه إنسان ساذج "وكنت اعتقد تماماً أن أعداءكم في الشرق الأوسط يؤلمهم إبقاء أهدافكم".

دعيت في اليوم التالي لتناول المقبلات مع الرئيسين. خطر لنيكسون على غير عادته، معرفة الفكرة التي كوّنتها حول رؤية دي غول لأوروبا، فأظهرت بلادة بالإجابة على هذا السؤال. وكان السؤال غريباً بالنسبة لدي غول فأبدى عدم الرضا من إجابتي، وانتصب واقفاً بقامته التي ظهرت لي أكثر وقاراً، فأردفت أنا: أن السؤال مذهل، ولكني لا أعرف كيف يستطيع الرئيس أن يمنع ألمانيا من السيطرة على أوروبا التي بيّن وضعها. "وبعد أن تملكه ألم كبير من جرّاء غبائي، ظهر لي أن قامته كانت تنمو وهو يتأملني وأصبحت كأنها ارتفاع طبيعي لإحدى قمم جبال الألب المكسوة بالثلج بالنسبة لكومة تراب مبتذلة، وأجاب بكل بساطة "بالحرب".

وتصدى دي غول لموضوع تاريخي، وكأنه يعطيني فرصة معالجة موضوع حسّاس أمام أستاذ، فتساءل قائلاً: أريد أن أعرف، أي سياسي من القرن التاسع عشر يمكن أن يماثلني.

"فأجبت، بسمارك"

- ولماذا ؟

- بسبب الاعتدال الذي برهن عليه بعد انتصاره في الحرب.

ولو توقفت عند هذا، لكان كل شيء طبيعياً. ولمّا كنت مندفعاً مع المنزلق الخطر، ولسوء حظي أكملت بصراحة: "أنه لم يخدع سوى مرة واحدة عندما أذعن عام ١٨٧١، لفيلق دفاعه، وحسب رغبة رئاسة أركانه، في ضمّ الألزاس واللورين معاً، ولقد أثبت دائماً أنه حصل لألمانيا أكثر ممّا كان يبغي.

فاختصر دي غول الحديث قائلاً: "إني سعيد في أن بسمارك لم يعمل كما كان ينوي، وهذا أعطانا فرصة لاسترجاع كل شيء عام ١٩١٨. ولا اعتقد أني أثّرت كثيراً على رجل الدولة الفرنسية الكبير.

البقاء في باريس كان قمّة أول سفر لنيكسون في أوروبا. واستعاد طريقه نحو روما، قبل العودة إلى الولايات المتحدة، حيث أجرى محادثة قصيرة مع البابا حول نظرة الشيوعية الفلسفيّة وقلق خواطر الشباب.

عند وصولنا إلى قاعة أندروز، كان يظهر نيكسون ارتياحاً من زيارته لأوروبا. والموجز الذي تقدّم به لرؤساء الأغلبية والمعارضة البرلمانية ـ يشكل تقريراً صادقاً. إذ كان قد ذهب لإقامة علاقات ثقة مع الحكام الأوروبيين وقد نجح في ذلك، ضمن الحدود الممكن إكمالها في سفرة واحدة. كان قد سعى لتحرير الولايات المتحدة من الأوروبية الداخلية، فحقّق تقدماً في الحالين، وهدّأ على قدر الإمكان، تصوّرات الأوروبيين حول موضوع تواطؤ أمريكي ـ سوفيتي كانوا يحسبون حسابه. وحذّرهم من أخطار الانفراج للإنفراج، الذي يولّد شعوراً مغلوطاً بالأمن. وأكد في الواقع على أعضاء حلف شمال الأطلسي بوجوب المساهمة المنصفة في نفقات الحلف الأطلسي، ولتبنّي فكرته في حقائق جديدة. وقد اجتهد أن يوحي لأعضاء الحلف بفكرة تشاور جديدة بين الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين.

ومن الثابت أن زيارة بسيطة من الرئيس أو تبادل وجهات النظر مع الحكام الأوروبيين لا تكفي للتغلب على روح المعارضة الكائنة في حلف الأطلسي. وبين الخوف من تسوية أمريكية ـ سوفيتية، والرغبة في الانفراج، وبين الاندفاع في تجهيز جيش قوي، ومحاولة تكريس القوى العسكرية للبرامج الداخلية، وبين الرغبة في رؤية الفرق الأمريكية باقية في أوروبا، ومن خوف رؤية الدفاع في أوروبا تقوم به قوى استراتيجية أمريكية ليست مشتركة في حلف شمال الأطلسي، وكل هذه القضايا قد طُرحت، وكان أمامنا مدة حكم رئاسي طويل لوضع حلول لها وإعطاء الجواب عنها.

الفصل الرابع

علاقات متأزمة

كانت سفارة الاتحاد السوفيتي في الولايات المتحدة مقراً فخماً، عند بنائها في بداية هذا القرن. ولكن منذ زوال منتزهها، أخذت البنايات العصرية المماثلة تنظر بعجرفة إلى هذا البناء المنخفض من الطراز الفكتوري، الذي أصبح اليوم ذا هندسة عادية حرمته جماله، مع الغابات الكثيفة من الهوائيات التي تثقل سطحه، فيعرف الناظر إليه أن ملاك السفارة، يتألم من برامج التلفزيون الأمريكي أو بتعبير أصح، عند إصغائه وبذهول إلى محادثات الأمريكيين الهاتفية.

يمتد ممر طويل على طول مدخل السفارة، ونجد هناك في نهايته، رجل أمن سوفيتياً يحرس شاشات تلفزيونية بدائرة مغلقة. ويتألف الطابق الأول من غرف كبيرة سقفها عالٍ، وكانت قبل دهنها وتجديد زينتها في العام ١٩٧٣ على شرف زيارة ليوند بريجنيف، تثير في النفس رغبات متعددة ومتناقضة، ومالكو هذا البناء القدماء "رأسماليون" كانوا يستخدمونه كقاعات استقبال، أما اليوم فهو لا يستخدم إلاّ لحفلات عشاء، أو للاستقبالات الهامّة.

دُعيت في الرابع عشر من شهر شباط ١٩٦٩ لأول استقبال رسمي في سفارة الاتحاد السوفيتي. وكان الاستقبال على شرف غيورغي أربانوف، مدير معهد الأبحاث السوفيتية، وهو متخصص في دراسة الشؤون الأمريكية. وكنت قد التقيت هذا المدافع المتأهب عن سياسة الكرملين، خلال عدّة مؤتمرات دوليّة كانت تدور حول تحديد التسلّح، في الوقت الذي كنت لا أزال فيه أستاذاً.

كان يظهر أربانوف أنه على إطلاع كبير عن أمريكا، كما كان لبقاً في التوفيق بين نظرياته والأحوال الراهنة، أضف إلى ذلك أنه كان يملك مهارة خاصّة في إقناع فئة من المثقفين الأمريكيين الماسوشيين المتمكّنين، الذين كانوا يعتقدون وبصلابة كصلابة الحديد أن أيّة صعوبة تطرأ على العلاقات ـ الأمريكية السوفيتية ـ تكون بالضرورة صادرة عن غباء وعناد الأمريكيين.

وكان يثبت بوضوح أن رفض الأمريكيين، كان يرغم الحكام المسالمين وحسني النوايا في الكرملين، بالتورّط وعن غير قصد في نزاعات كانت تعاكس تماماً طباعهم الرقيقة.

كانت السفارة ذاك المساء، تستقبل الفريق التقليدي ممنّ يُدعَون إلى مثل هذا الاستقبال ومنهم شخصيات رسميّة من الطبقة الثانية، وممثلي فرق التأثير، وحالياً أعضاء في الكونغرس.

لم يكن الحفل بهيجاً حسب مستويات واشنطن. أما السفير أناتولي دوبرينين الذي كان قد شفى مؤخراً من عارض مرضي طارئ، فقد فضّل البقاء في غرفته وكلّف القائم بالأعمال، يوري تشير نياكوف، باستقبال المدعوين.

حييّت أربانوف، ثم اندمجت مع الجميع. وفيما كنت استعد للخروج، استدعى انتباهي موظف سوفيتي، وسألني عمّا إذا كنت أستطيع محادثة السفير.

وكان هذا أول لقاء بيننا، فاستقبلني دوبرينين، في الغرفة الثانية من شقتّه الصغيرة، التي كانت أصلاً معدّة لتكون طابقاً لغرف النوم. والقاعتان المتوسطتان كانتا متصلتين ببعضهما، وكان تأثيثهما متساوياً، على طراز ثقيل من أوروبا الوسطى. فذكرني كل هذا بشبابي في ألمانيا.

استقبلني دوبرينين مبتسماً، وكان متنبهاً وواثقاً بنفسه وكان يعرف جيداً الموظفين الأمريكيين من الطبقة العليا، بعد أن عاشر عدداً منهم وخالطهم واختبرهم. ونظراً لتعاوننا في المستقبل ألحّ أن نتنادى من دون ألقاب فأصبح منذ ذلك الحين "أناتول" وأصبحت أنا "هنري" أو "كنرى" لأن لفظ "هـ" غير موجود في اللغة الروسية.

وأسرّ لي أنه عائد من الاتحاد السوفيتي حيث تعرّض لصدمة قاسية بدخوله إلى إحدى المؤسسات التي كان يرتادها أيضاً بريجنيف وكوسيغين وبودغورني. ثم أعلمني أنه يحمل رسالة من رؤسائه إلى الرئيس الجديد وعليه أن يوصلها هو بالذات.

ثم بيّن لي أنه في منصبه في واشنطن منذ عام ١٩٦٢ وكان شاهداً على عدّة أزمات. وقد نجح دائماً في أن يكون عند حسن ظن الموظفين الكبار ويرجو أن يبقى كذلك مع أعضاء الحكومة الجديدة بالرغم من تقلّب العلاقات الرسميّة. وهو يعتقد أن هناك أخطاء في تصريف الشؤون السوفيتية الأمريكية، لا سيمّا بين عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٣. وقد أدار مصلحة الشؤون الأمريكية في وزارة الشؤون الخارجية السوفيتية طيلة هذه الفترة، ويؤكد أن خروتشيف كان يرغب دائماً وبصدق التقرب من الولايات المتحدة، وإذ لم تكن هناك إمكانية من الاستفادة من فرص الماضي، يجب الاستفادة من الفرص الحالية عند سنوحها.

أجبت دوبرينين أن نيكسون وحكومته لا همّ لهم سوى تلطيف الأجواء بين بلدينا، إذا كانت لدى موسكو رغب صادقة في ذلك.

أننا نعتقد أن تعكير الأجواء، لا ينتج عن سوء التفاهم، بل عن المشاكل الحقيقية التي يجب البدء بحلّها إذا أردنا السير باتجاه تقرّب صحيح. وأضفت: إذا حسبنا السنوات من ١٩٥٩ إلى ١٩٦٣ نجدها طويلة وفرصها السانحة قد ولّت. وهذا ما يدعو إلى دهشة الشعب الأمريكي.

ألم يصدر في هذه المدّة الإنذار النهائي حول برلين، وموقف خروتشيف القاسي نحو كينيدي في فيينا، وأزمة الصواريخ في كوبا، وعدم التقيّد الأحادي الجانب من قبل السوفيت حول فوائد تأخير التجارب النووية ؟.

فإذا كان الحكام السوفيت يرغبون في الوصول إلى تسوية مع الحكومة الأمريكية الجديدة بالعودة إلى مثل هذه الأزمات، فإن النزاع يتزايد وتفوتنا "المناسبات".

فابتسم دوبرينين وعرف أن الأمريكان لم يكونوا المسؤولين الوحيدين عن أخطاء الماضي.

وعدته في الوقت نفسه أن أحصل له خلال زمن قصير على لقاء مع نيكسون.



على الرغم من حالة عدم الثقة والارتياب الدائم الذي كان يشوب العلاقات بين الكرملين والحكومات الأمريكية المتعاقبة، إلا أن تلك العلاقات كانت أكثر اتزاناً وموضوعية بين الكرملين وحكومة نيكسون، خاصة بعد أن توصل كل من بريجنيف ونيكسون إلى "طريقة تعايش Modus Vivendi" وكان نيكسون قد تردّد إلى الاتحاد السوفيتي خلال مدة عمله، وعندما كان نائباً للرئيس جونسون، أجرى "محادثة مشهورة مع خروتشيف في المطبخ". كان نيكسون يحترم جداً واجبات وظيفته أكثر من المرشحين الآخرين في الانتخابات الرئاسية الأخيرة. وكان يخشى السوفيت من

أن يطرح الرئيس الجديد برامج تسليح أخرى، الأمر الذي يعود على اقتصادهم بالضرر. وكانت موسكو تسعى لمعرفة ثمن تجنّب هذه الحادثة المتوقّعة، مظهرة نفسها أكثر صلابة أمام التهديدات مستعينة بتعبئتها العادية في منع الشعب الأمريكي من مساندة هذه السياسة.

إن الجو السلمي الذي هيمن على علاقات الشرق والغرب، خلال بعض الوقت لم يكن وليد الصدفة، إذ كرّس له الرئيس الجديد الكثير من وقته قبل استلامه الحكم. فكنا نقضي كلانا ساعات بكاملها لتوطيد استراتيجيتنا. وكان لدى نيكسون خبرة في الأمور السياسية أكثر مني، لا سيما وأنه بنى شهرته على عداء مرير للشيوعية، وصل أحياناً إلى العنف.

كان يرغب في المحافظة على مساندة انتخابه في الجو المحافظ تقليدياً. وكان يعتبر أن شهرته في قوّة إرادته، هي المؤهل الأعظم في حسن إدارة سياستنا. وكان على اعتقاد تام أنه كرئيس يجب عليه تقديم بعض التنازلات للنواب ذوي الاتجاه المعتدل. وبتنمية العلاقات بين الشرق والغرب، كان يرجو تثبيت تفوّقه الجديد إلى مدى طويل. ويحاول تخطيط خبراته الوثيقة على محاكمات شخصية جداً. ويخشى أن قمة غلاسبورو تكون سبباً لإعادة نفوذ جونسون معتقداً أن السوفيت قد اتفقوا مع الديمقراطيين على إفشاله في الانتخابات.

في الثاني عشر من كانون الأول لعام ١٩٦٨، طلب مني الرئيس المنتخب إبلاغ الحكومة الجديدة اتجاهاتنا بالنسبة لسياستنا الخارجية. فبينت لزملائي أن لدي انطباعاً، أن سياسة الاتحاد السوفيتي الخارجية في اتجاهين: محاولات مسالمة مع الغرب ناشئة عن رغبة ملحة في الحصول على ثروات استهلاكية، والخوف من اندلاع حرب، وربما أن هذين الاتجاهين ينبعثان أيضاً ممن كانوا يرجون فتوراً في التوتر

الدولي. وفي الوقت نفسه كانت تمارس ضغوط لمتابعة مجابهة الولايات المتحدة، وهذه مجتمعة كانت نتيجة تطبيق الأيديولوجية الشيوعية. وعدم الثقة بالقادة، من جهاز الحزب، ومن الجيش، وممن كانوا يخشون أن المهادنة تدفع وبكل تأكيد الدول التي تدور في فلكنا إلى محاولة قطع علاقاتها مع موسكو مرة أخرى. ومنذ غزو تشيكوسلوفاكيا في آب، كانت سياسة موسكو الخارجية موجهة نحو المشكلتين التاليتين: كيفية تهدئة الانفعال الذي أحدثه غزو تشيكوسلوفاكيا في العالم الشيوعي، وكيفية تحديد آثاره لاسيما على العلاقات مع الولايات المتحدة.

وللسبب الأخير كان السوفيت يحافظون على إبقاء مفاوضات "سالت Salt" ممكنة. ربما كانت هذه طريقة خاصة لاستعادة بعض الكرامة، أو مناورة بقصد تحطيم الحلف مع خشية الوصول إلى إقامة اتفاق ثنائي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. وكان الروس يأخذون في الحسبان أن توازناً استراتيجياً ثابتاً سيصبح لازماً، لذا فهم عازمون على إيقاف مسيرة التسلح وإبقائها في مستواها الحالي - وردّ فعلنا كان يتوقف على طريقتنا في مواجهة هذه القضيّة - تركزّت سياستنا في الماضي على إنشاء جوّ من الثقة، لأننا كنا نعتقد أنه بمقدار ما تتوطّد الثقة بمقدار ما سيزول التوتّر. ولكن لو اعتبرنا أن هذا التوتّر ناشيء عن الاختلاف على قضايا جوهرية، فإن طريقة معالجة المشكلة تبدأ بمحاولة تقليل هذه الاختلافات. وفعلاً كان يتوقف السلام الدائم على تنظيم السياسات المختلفة المتعارضة بين القوتين النوويتين الكبيرتين.

وفي الواقع، وانطلاقاً من هذا المبدأ تقريباً خاطبت ممثل الاتحاد السوفيتي الدائم. في الثامن عشر من كانون الأول عندما التقيته في فندق بيير "بوريس سيدوف، عضو K.G.B" مبيناً له أن الرئيس المنتخب كان جاداً عندما تكلم عن عهد جديد للمفاوضات، وعلى الكرملين أن يثق باستعداد الحكومة الأمريكية لعقد اتفاقات دائمة

مرتكزة على مصالح جوهرية. واعتقد أننا أعطينا أهمية كبرى للتفاصيل لا للأسس. وبرأي حكومتنا الأمريكية الجديدة أن هناك اختلافات عميقة. يجب تقليلها إذا أريد الوصول إلى هدوء في التوتّر الدولي. وأطلعته على رغبتنا في المفاوضات حول تحديد التسلح الاستراتيجي. لكننا لا نريد الأخذ بمحادثات دون تقدير نتائجها. وسنحكم كذلك على نوايا السوفيت من خلال انفتاح سياستهم الخارجية، لا سيما في نظرتهم للشرق الأوسط وفيتنام. وكنا نعتمد على حسن نيتهم في مناطق الأزمات.

كان جواب موسكو مشجعاً، ففي الرسالة التي حملها إليّ سيدوف في الثاني عشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٦٩، أوضح السوفيت أنهم لا يشاركون "بالرأي المتشائم" الذي حسب قولهم كان رائجاً "في أقسام شتّى من العالم". إن اهتمام موسكو الرئيسي لم يكن ماضي موسكو، لكن فهمها للحقائق، ونزع السلاح له الأهمية العظمى. إن الزعماء السوفيت يدركون أن تسوية قضيّة فيتنام، والحل السياسي للنزاع في الشرق الأوسط، والطريقة الصحيحة والناجعة في معالجة القضايا الأوروبية عموماً والألمانية خصوصاً، ستحسن علاقاتنا. وكان الكرملين يشدّد على "مصالح معيّنة" له في أوروبا الشرقية.

حدّد الفريقان إذاً اتجاهاتهما الهامة. وكانت الحكومة الأمريكية تتكل على اهتمام الروس بنيّتنا في دفع الكرملين للمشاركة في محادثات فيتنام. وأكدّنا بالنتيجة على المعالجة السريعة لجميع المشاكل. والقادة السوفيت الذين كانوا يخشون فوق ذلك نتائج سباق جديد للتسلح على اقتصادهم، كانوا يريدون إعطاء الأفضلية لتحديد التسلّح. ومهما كانت نتيجة هذه المحادثات، فقد تعطي تقدماً بالنسبة لهم لأنها ستعرقل وجهات نظر اتخاذ القرارات الأمريكية، خاصة في ميزانية الدفاع القومي، بالرغم من أنها لم تحسب لهذه الفترة حساباً دقيقاً، وتقلق الصينيين كذلك.

طبعاً، لن يكون هناك أي شيء قبل أن تتسلّم الحكومة الجديدة سلطاتها. لكن الرئيس المنتخب وأنا بذاتي، كنّا قد حدّدنا خلال محادثاتنا في فندق "بيير" عدداً من المبادئ تصلح لاتخاذها أساساً لطريقتنا في معالجة القضايا الأمريكية السوفيتية، إبّان مدة استلامنا للحكم.

وهذه المبادئ هي التالية:

■ مبدأ الواقعية:

كان علينا في محادثاتنا مع الاتحاد السوفيتي، التطرّق فقط إلى أسباب التوتّر الحقيقية، دون الاقتصار على الاعتبارات العامّة. وإذا كنا نريد أن تكون هناك منفعة من اجتماعات القمّة، يجب الاستعداد لها جيداً والأخذ بعين الاعتبار التقدّم الناتج بالوسائل الدبلوماسية، خلال المفاوضات السابقة وسنحترم التزام القادة السوفيت الأيديولوجي. ولن يغيب عن بالنا أن لهم مصالح متضاربة في مجالات عدة. ولن يخطر لنا على أن تحسن العلاقات الخاصة أو العواطف الجيدة تضع حداً لتوترات بعد الحرب لكننا مستعدون لتحري المجالات التي لنا فيها مصالح مشتركة، وعقد اتفاقيات واضحة مرتكزة على شروط متبادلة ملزمة.

■ مبدأ التحفظ والاعتدال:

لا تستطيع القوتان الكبيرتان إكمال محادثاتهما حول علاقات لائقة في حال أن إحداها تريد الحصول على أفضليات أحادية الجانب، أو تريد الانسحاب من أزمات مفاجئة في بعض البلدان. ولقد عزمنا على التصدي لكل محاولات السوفيت الطارئة، لكننا على استعداد أيضاً لبحث شروط تخفيف حقيقي للتوتر وساعين لتطبيق مبدأ «الجزرة والعصا»، لاجئين إلى المعاقبة في حال التعدي، أو صنع تقرب في حالة نية صادقة.

■ مبدأ الترابط والارتباط:

كما نتمنى إيضاح واقعنا حول إرادتنا في تقدّم علاقات القوتين الأعظمين بنوع حقيقي وفعّال، ويجب أن يمتد هذا اللقاء إلى جوانب عدّة. وحسب رأينا فإن الحوادث الطارئة في أماكن مختلفة من العالم كانت جميعها مرتبطة ببعضها وعلى مستوى واحد تقريباً من وجهة الاتحاد السوفيتي السياسيّة. والانطلاق من مبدأ تصنيف المشاكل في فئات محددّة يدعو القادة السوفيت إلى الاعتقاد أن باستطاعتهم المشاركة والتعاون في أحد المجالات مكملين سعيهم في الحصول على مغانم أحادية الجانب في مجالات أخرى، كنا نرى أن هذا غير مقبول، وأدركه نيكسون في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٩٦٩، عندما أجرى أول مؤتمر صحفي. وحسب رأيه «إنّ محادثات تحديد الأسلحة الاستراتيجية تكون مثمرة أكثر، فيما إذا جرت، بطريقة وزمن يستطيعان مساعدتنا على إيجاد حل حقيقي لمشاكلنا السياسية الحاليّة».

وحسب وجهة نظري، فإن الترابط كان يمكن أن يكون على شكلين: الأول يرتكز بالنسبة لدبلوماسي على الانحياز وبتروّ إلى ربط ـ في حال إجراء مفاوضات ـ موضوعين مختلفين، مستخدماً الواحد ليضع الآخر موضع المساومة، والثاني: يعكس الحقيقة بلا تعقيد، لأن أفعال أحدى الشعوب الأكثر اقتداراً في عالم مترابط هي أيضاً مترابطة ببعضها حتماً وتسبّب نتائج تفوق المشكلة أو القطر ذا العلاقة المباشرة.

الترابط لا يظهر طبيعياً بالنسبة للأمريكان، الذين اعتبروا دوماً ممارسة السياسة الخارجية كعمل غير دائم.

إن بنية تنظيماتنا الإدارية، المقسمة إلى مكاتب إقليمية، تقويها نزعتنا التقليدية للتخصص، وتسهم في تقسيم المجموع. وتدفعنا ذرائعيتنا إلى اعتبار المشاكل منفصلة، وتدعونا إلى حلها أساساً دون أخذ حقيقة ظروفها ، أو قرائنها، أو حقيقتها

التي هي وحدها تشكل مجموعها. وبالنسبة لتقليدنا القضائي، فإنه يشجع على الأخذ بعين الاعتبار وحصراً الأحداث المتعلّقة بقضيّة، ويُحذّر من الأوهام.

مع ذلك لا يمكن الاستغناء في السياسة الخارجية عن ملاك مفِكرّ. والاتجاهات الجديدة في السياسة الداخلية. يحددها التطوّر التشريعي. والمبادرات الأساسية وحدها يمكن النظر فيها لطرح منهج جديد. والمبادرات الهامّة في السياسة الخارجية تستوجب استعداداً دقيقاً، ولن تظهر نتائجها إلاّ بعد أشهر أو سنين. وللنجاح يجب فهم معنى التاريخ، والإحاطة بالقدرات المتعدّدة التي تتفوّق علينا، والرؤية التامة لتسلسل الأحداث يتوقف بنجاح السياسة الخارجية على تنفيذ القانون، بينما أن نجاح السياسة الخارجية يتوقف على تحسين الفوارق وارتباطات القوى المتبادلة.

بخصوص السياسة الخارجية، صعوبتها في تصنيف أفضلياتها، وللوصول إلى ذلك يجب الرجوع إلى مبدأ الترابط. وغياب الترابط يولّد حتماً عكسيّة حرية العمل ويجبر رجال السياسة على استخدام مصالحهم الخاصّة، وتحمّل ضغوط مختلفة، دون التمكن من إيقافها. ويصبح وزير الشؤون الخارجية تابعاً لمكاتبه المتعددة، ويتأثر الرئيس بتنظيمات حكومته، ويكون الاثنان عرضة لأن يصبحا سجيني الأحداث.

ولهذه الأسباب كان الترابط في نظر الحكومة الجديدة، وسيلة حسنة لتجنب ان تبقى سياستنا الخارجية تدور في حلقة مفرغة من التدخل الدائم في أمور الدول أو الانعزالية، ولتوجيهها بصورة قاطعة نحو السعي للمصلحة القومية.



إن إجراءات مجلس الأمن القومي، التي كان من المفروض أن تعطيني سلطة دكتاتورية، لم تستطع إقامة أي تقارب حقيقي. فطلبتُ تهيئة تقرير حول مختلف

الإمكانيات التي كانت تقوم ببحثها أي: "العلاقات الأمريكية السوفيتية.... وفي أبعد مدى لها ..." فسلمني وزير الشؤون الخارجية ملفاً يتضمن كل الخيارات وقدّمه بنوع يمكن أن يصبح معه تنظيماً، أعني وضع الخيار الوحيد الممكن (علاقات عداء معتدلة) بين خيارين آخرين مصطنعين طبعاً، عداءات وتساهلات حازمة.

والمهم أن الرئيس كان يرفض قطعياً مفاتحة مستشاريه بقضيّة رئيسية. ولم يعقد أي اجتماع لبحث ذلك ليحصل على جواب. لأن نيكسون فوق كل ذلك يريد تجنب كل مجابهة مباشرة مع وزيره للعلاقات الخارجيّة. وبدل ذلك أرسل في الرابع من شهر شباط رسالة إلى روجرز، وليرد، وهلمز، معنونة لروجرز، يؤكد فيها رغبته في التطبيق الرسمي لمفهوم الترابط فقال:

"اعتقد أن لهجة محادثاتنا العامة والخاصّة ضد ومع الاتحاد السوفيتي يجب أن تكون هادئة، متزنة، وتمتنع عن كل حرب كلامية ...." وبرأيي أن يكون اتفاقاً دائماً يرتكز على معرفة مصالحنا الأساسية، فيجب علينا أن نسلّم بأن للاتحاد السوفيتي مصالحه الخاصّة. وفي الظروف الحاضرة، يجب أخذها بعين الاعتبار لنتمكن من تحديد مصالحنا، كما يجب علينا إفهام القادة السوفيت أن يكون هناك تبادل في هذا المجال ... حاولنا كثيراً في الماضي، حلّ المشاكل تحت تأثير الحماس، معتمدين فقط على الدبلوماسيّة الشخصية. لكن الحماس الذي ظهر في عدة لقاءات لم يكن يرتكز على المصلحة المتبادلة. ولأجل هذا فإن كل لقاء قمة ينتهي إلى أزمة خلال الأشهر التي تليه.

"لديّ اعتقاد جازم أن للقضايا الأساسيّة ترابطاً وثيقاً بينها. ولا أقول هذا لخلق ترابط اصطناعي بين المبادئ المختلفة لهذه المشكلة أو تلك أو بين المستويات الاستراتيجية التي نحن على وشك اتخاذها. لكنني أعتقد بعدم إمكانية حدوث أزمة

مفاجئة أو نزاع في مجال، وتعاون حقيقي في مجال آخر. أنا أعرف أن الحكومة التي سبقتنا كانت ترى في كل مرّة، أن قضيّة خاصّة تقدمّ فائدة أكثر للاتحاد السوفيتي ممّا تقدمّه للولايات المتحدة، فيجب حينذاك السعي لعقد اتفاق، وإبعاد الفائدة قدر الإمكان من مشاريع تعارض المصالح. وهذا ممكن الحدوث في كثير من الحالات المعينّة كالتبادل الثقافي أو العلمي. أما فيما يختص بمشاكلنا الأساسية الحالية، يجب علينا أن نظهر حسب اعتقادي، رؤية واسعة صحيحة للأمور. وبالنسبة لنا فإن هناك ترابطاً بين القضايا السياسية وغيرها من القضايا العسكرية. ويجب استدراج الزعماء السوفيت إلى التفهم بأنهم غير قادرين أن يؤمّلوا منفعة من التعاون في مجال وإحداث توترّات أو نزاعات في مجال آخر. وتتضمن هذه السياسة المجازفة التي يستخدمها السوفيت في مفاوضاتهم، حول تحديد الأسلحة الاستراتيجية لتمرير عنادهم وتصلّبهم في جوانب أخرى".

كانت الرسالة توضح في الواقع، كل ما كان نيكسون يكنّه في داخله. وبما أن الرسالة كانت موجهّة فقد أنشأها معاونيّ وأنا بذاتي، وكانت تبدو فيها لهجة نفوذ مشؤوم استخدمها مستشار الرئيس.

اجتهدت الإدارة، طيلة فصل الربيع، في تقويض السياسة الرئاسية، فأخذت تحيي الآمال حول مفاوضات التسلّح. وكنت أقرأ في صحيفة نيويورك تايمس الصادرة بتاريخ الثامن عشر من شهر نيسان: "هناك موظفون يعتبرون الاتفاق على التسلح مع الاتحاد السوفيتي وكأنه الهدف الأساسي لسياسة نيكسون الخارجية. وكانت التايمس تعلن في الثاني والعشرين من نيسان: أن هناك سياسيين يعتقدون أن مفاوضات سالت ستجري في شهر حزيران.

وفي الرابع من شهر أيار كان ليولين تومبسون يصرّح لدوبرينين أن روجرز يريد

أن يتفق وإياه على التاريخ والمكان قبل سفر الأخير إلى آسيا، المتوقع بدؤه في الثاني عشر من شهر أيار.

وفي الثامن من أيار كان روجرز يصرّح لدوبرينين: "إنه يأمل أن التاريخ والمكان وجدول أعمال المفاوضات ستحدّد تماماً بعد عودته من آسيا"، كان يقصد أن بداية فصل الصيف يناسب ذلك. وفي اليوم ذاته التقى جاكوب بيم سفيرنا في موسكو، بفاسيلي ف. كوزنيتزوف، معاون وزير الشؤون الخارجية في الاتحاد السوفيتي، وتقيداً بتعليمات روجرز أعطاه التاريخ المحدد لذلك أي في حزيران وتموز، فأجابه كوزنيتزوف أن القادة السوفيت على استعداد.

وفي الحادي عشر من شهر حزيران، أعلم روجرز السوفيت أننا كنا على استعداد للبدء في المفاوضات، لكنّ هذه العبارة لاقت صمتاً لدى الروس دام أربعة أشهر.

في الرابع عشر من شهر شباط، أجريت أول حديث لي مع السفير السوفيتي في شقته. وكان علينا الالتقاء بانتظام، طيلة السنوات الثماني اللاحقة، لنتبادل وجهات النظر بطريقة ودّية. وبفضل اهتمامنا، فإن الشؤون الدقيقة في علاقات بلدينا توضحت أكثر فأكثر. كنا نلتقي دائماً وبصورة تقريبية في قاعة مصوّرات البيت الأبيض، وهي قاعة جميلة كائنة بالقرب من المدخل الخاص بالسلك الدبلوماسي، وكانت واجهتها مغطاة بنباتات الغار الوردي الكثيفة، المغروسة في البستان. وكان فرنكلين روزفلت قد جعل منها قاعة قراراته الاستراتيجية خلال الحرب العالمية الثانية ومن هنا أخذت أسمها.

دوبرينين وأنا اعتدنا على إجراء محادثات تمهيدية حول المشاكل الهامة، هو على حساب المكتب السياسي وأنا باعتباري مؤتمناً على أسرار نيكسون. كنا نوضح

رسمياً أهداف حكومتنا الأساسية وعندما يتراءى لنا أمل اتفاق في محادثاتنا على نقاط معينّة، عندئذ يبحث الموضوع بالطرق الدبلوماسية. وإذا وقعت بعض محادثاتنا الرسمية في مأزق، فحينذاك كنا نستعين بغيرنا. ولقد اتفقنا مسبقاً على تجنّب هذه الأوضاع التي تصل بنا إلى طريق مسدود، والتي تستند دون شك إلى إظهار القوّة. وبتفويض من الرئيس، كنت أبحث الرأي العام وكأنّه صادر عنّي متظاهراً بعلو التفكير، ودوبرينين من جهته كان يستعمل نفس الأسلوب ليشركني بردّ فعل الكرملين، ويتصرّف أحياناً على عكس ذلك. وكنا قادرين على إثارة قضية رسمية دون الخوف من ردّ فعل معاكٍ من الغير. وعلى أيّة حال، كنا نتجنب المجابهات غير الإرادية. وكانت هذه اللقاءات وسيلة لفحص الوضع وتجنب المآزق.

كان دوبرينين دقيقاً جداً في هذا الدور الخطير. ولم يكن للسفراء الحاليين حريّة العمل المطلقة، كمفاوضين. والمكالمات الهاتفية أو التلكس التي يتلقونها هي عليهم ما يجب أن يعملوا. ويمكنهم تغيير الموقف لفترة ساعة. ولكن، إذا كان السفراء في عهد القذائف، ليسوا سوى سعاة بريد الدبلوماسية، ففي نفس الوقت لا يُستغنى عنهم لإيضاح سياسة ما، لا سيما قبل أن يصبح أيّ وضع مهلهلاً.

وفي شباط عام ١٩٦٩، كنا في بداية المفاوضات، وكان كل مفاوض يحاول معرفة الآخر. فطرح دوبرينين سؤالين على نيكسون، لمعرفة الإجراءات الواجب اتخاذها وموضوعاً آخر أساسياً. بالنسبة للإجراءات الواجب اتخاذها، كان نيكسون يريد السيطرة على المفاوضات مع الاتحاد السوفيتي، ويرى استبعاد روجرز عنها. كونه لا يمانع يوماً من كشف النقاب عن كل تقدم يحصل في تلك المفاوضات. وتكليف هالدمان بالمهمة. وكان الأخير قد صرح لوزير الشؤون الخارجية، أن أحسن وسيلة لعدم خداع أنفسنا هي عدم حضوره المقابلة. ووجوده كان يجلب الظن أننا نريد استعجال الأمور، وهذا مخالف لاستراتيجيتنا، ويدعو أيضاً إلى تفاؤل حذر.

كان نيكسون غير راضٍ عن مجريات هذه الأمور، طالما يتوفّر له من يقوم عنه بهذه الأعمال المضنية. وفي النهاية، لم يحضر روجرز المقابلة ولاعتبارات تنظيمية، دُعي مالكوم توون، المكلّف بالشؤون السوفيتية في وزارة الشؤون الخارجية، ومن ثمّ سفيراً في موسكو. لكن هذا لم يعد علينا بالنفع، لأن نيكسون طلب إلينا ـ توون وأنا ـ الانصراف من المقابلة، وطلب بصورة خاصة من دوبرينين، حلّ جميع الأمور الدقيقة والهامة معي، من الآن فصاعداً.

قبيل اللقاء بدوبرينين، طلب إلى نيكسون تزويده بمذكرّة خطّية حول المواضيع التي سيطرحها السفير دون شك، والوضع والأهداف التي أشير عليه باتخاذها. فأجبته أن دوبرينين سيوقفنا وبصورة تقريبية، على نيّة السوفيت في بدء المفاوضات، لا سيما تلك التي تتعلق بتحديد الأسلحة الاستراتيجية، وأنه يلومنا لعدم اظهارنا الاهتمام اللائق حول الوضع السلمي للقادة السوفيت منذ العشرين من شهر كانون الثاني. ويدعونا إلى عدم ضياع هذه الفرصة المؤاتية، وأنه يجب علينا إقامة علاقات مباشرة بين الرئيس الأمريكي والقادة السوفيت.

ونصحت نيكسون أن يبدو بصدر رحب، في حال تقديم دوبرينين رسالة من القادة السوفيت، متضمنّة آراء واقعية، فلا نُجبرَ تحت وعود غامضة، على إقامة المحادثات المقبلة دون معرفة مؤدّاها. وعلينا أن نؤكد في الواقع، أن تقدم المباحثات يرتكز على اتفاق سلمي لا على الدبلوماسية الشخصية. وكل لقاء قمة يجب أن يكون اختتاماً لاستعدادات دقيقة. ويجب إعلامه أيضاً أن: في حال عودة مشكلة فتح مداخل برلين للبحث، بمناسبة انتخابات رئيس جمهورية لألمانيا الاتحادية، فلا تعود هناك حاجة للسؤال عن إجراء مفاوضات في الشرق الأوسط، حيث على كل فريق أن يظهر نفوذه بالإضافة إلى تحفظّه ضمن سياسة مهادنة، وإننا على استعداد لوضع

حد لحرب فيتنام وأن علاقاتنا مع السوفيت تتوقف على حسن نيتّهم في تسوية هذا النزاع. وأنهيت جاعلاً في الأذهان وبصورة مبهمة جداً في أن الاتحاد السوفيتي إذا لم يظهر تعاوناً صحيحاً فلا نستبعد انضمام أقوام أخرى لها مصالح في هذا الشأن. وهذا تلميح مغطّى عن الصين، لكنه وبكل تأكيد شديد الوضوح بالنسبة لذكاء دوبرينين. ونيكسون كعادته، أكّد باعتناء على تعابير مذكرتي، التي كانت تبدو له كثيرة الأهمية.

وعلقّ على المقطع المتعلّق بالتزامنا المحافظة على سلامة وبقاء برلين، وأكدّ تقريباً على كل الجمل المتعلقّة بالشرق الأوسط وفيتنام، ووضع علامة على تلميحي عن الصين.

خلال لقاءاته برؤساء الدول الأجنبية، كان نيكسون ناجحاً جداً في طرح آرائنا، التي نكون قد درسناها بعناية سلفاً، أضف إلى ذلك أنه كان يفهم طريقة تفكير الأجانب، أكثر من غالبية الأمريكان (وربما لأنه كان يعتبرها أقل توعّداً). وفي المقابل، كان يخشى المفاوضات التي لا تكون لها نتيجة دون مقابل. كما كان يكره كل لقاء لا يهيّأ له بإهتمام. ويتألم من الدخول المباشر في موضوع. وينفذ صبره لدى الإصرار على الإسهاب في الشرح، ولا يتحمل المآزق الطويلة، غير الممكن تجنبها، في السعي لعقد إتفاق. بالرغم من إبداعه في إدارة المباحثات النظرية، كان لديه حب ذات عظيم، يمنعه من الإفصاح لزواره، إن هناك من يساعده، حتى ولو بمذكرة. وكان يجري اللقاءات السياسية بعد ان يكون حفظ عن ظهر قلبه، تفاصيل المحادثة حسبما أُعدت له، والتي، يجب أن نعترف، كانت قد أُنشِئت بموجب آرائه التي أوحى بها لمعاونيه بعد محادثة معهم.

أن اشمئزاز نيكسون من إجراء مفاوضات بنفسه، لم يكن ضعفاً بل قوة. وفي الواقع، كم من أخطاء سياسية سابقة، تعزى الى رؤساء كانوا يعتقدون أنهم يتقنون المفاوضات. من متطلّبات السلطة الرئاسية، تتبّع المفاوضات عن كثب، والإطّلاع على كل دقيقة فيها، الأمر الذي يبدو مع ذلك ضرورياً. بالإضافة إلى ذلك، عندما يكون الرؤساء هم أنفسهم المفاوضين، لا يبقى للدبلوماسية حيلة. ولا يمكنهم العودة عن إلتزام دون تعرّضهم للخذلان. والوصول إلى مأزق يُشرك هيبة رئيس الدولة الشخصية، وكل خطأ يجب أن يُعرف. وبالرغم من أن رؤساء الحكومات لا يبلغون هذه المناصب دون قسط وافر من حبّ الذات، فتوشك المفاوضات أن تتجمّد ثم تتحوّل بسرعة إلى نزاع. والمفاوضات بين شخصيّات من مناصب أدنى، بما فيهم وزراء الشؤون الخارجية، تسمح لرئيس الدولة بالتدخل في الفترات العصيبة، وتقويم الأمور لا يسبّب حينئذ خسارة كبرى. وعندما يشترك رؤساء الدول بالمفاوضات، يجب أن تكون نصوص الإتفاق قد أُنشِئت (وهذا ما كان يجري بصورة دائمة مع الرؤساء الذين عملت في عهدهم) وحتى في حالة إهمال موضوع أو إثنين لإظهار أن تدخل الزعماء كان واجباً للبتّ في الأمر. مهمّة الرؤساء، بلا شك ، إدارة إستراتيجية البلاد، كما عليهم إتخاذ القرارات الهامة، لأنهم مسؤولون عنها. فإليهم يعود كل الفضل، حتى ولو سوعدوا في مهمّتهم. وعندما يحاولون تطبيق إستراتيجياتهم، فإنهم يسارعون الخطا نحو الكارثة. ونيكسون لم يرتكب أبداً هذا الخطأ.

جرى أول لقاء بين دوبرينين ونيكسون في السابع عشر من شهر شباط عام ١٩٦٩. بعد أن كان دوبرينين قد شفي مؤخراً من عارض مرضي طارئ. وصل إلى المكتب البيضوي، فقُدِّم للرئيس وعرض عليه فكرته في تسيير الأمور، مستخدماً تقريباً اللهجة ذاتها التي كنا نتحادث بها قبل بضعة أيام. فُهم من كلامه أن لقاء القمة كان ممكناً، ولم يرفض فكرة الترابط. لقد أثبت بالعكس نيّة السوفيت في

مفاوضات عاجلة حول عدد من الأمور. كما صرّح أيضاً عن استعداد الاتحاد السوفيتي لوضع ثقله في سبيل تسوية نزاع الشرق الأوسط. ثم سألنا عن تصوّرنا في بدء مفاوضات تحديد الأسلحة الاستراتيجية.

أجاب نيكسون بثبات يظهره في المفاجآت: يجب للقاء القمّة استعداد مسبق مدروس بعناية. وأكد على ابتعاد القوتين الأعظمين عن التحفّظ في جميع الأمور وأصرّ على الضرورة القصوى لتهدئة التوتر في الشرق الأوسط وفيتنام، وصرّح أيضاً بوجوب الاستعداد الجيد والدقيق لمحادثات التسلّح، وأن نزع السلاح لا يضمن السلام، أن لم يرافقه الاعتدال في المستوى السياسي. وأكّد أيضاً على الأهمية التي يوليها لحالة برلين، فأجابه عندئذ دوبرينين، أن الاتحاد السوفيتي، سيضع جميع إمكاناته لتهدئة الوضع.

كان نيكسون يستاء من نوع هذه المقابلات، حتى أنه أرسل لي أربع مكالمات هاتفية إلى مكتبي ذلك اليوم لأوكد له أنه تصرف حسناً. لأنه كان يعتقد أن تلك المقابلة كانت صعبة جداً. لديّ انطباع معاكس، علماً أن اللقاء كان عليه طابع رغبة المصالحة، أو على الأقل أنها جرت في الجو ذاته الذي يجري في بداية مباراة شطرنج بين لاعبين ماهرين. كل مفاوض كان يحاول الاحتفاظ بأكبر عدد ممكن من الخيارات، ويسعى للاحتماء من أيّ تحرّك غير متوقّع من الآخر. لم أكن كاذباً عندما أكدّت لنيكسون أنه تصرّف حسناً.

من المبكّر جداً كشف ما كان يُعّده الروس لنا. وكان دوبرينين متوافقاً مع مفهوم كلمة الترابط فقط في المعيار الذي أعلن القادة السوفيت بموجبه استعدادهم لإجراء مفاوضات على مستوى كبير، إذ أنهم لا يريدون أن تتعلّق خطوة مفاوضات بحصيلة مفاوضات أخرى. عرف دوبرينين وبطيبة خاطر، أن أي تحرّك في سبيل الصلح في

فيتنام سيُشارك حتماً في تحسين علاقاتنا بوجه عام. لكن هذا لن يتعارض مع الابتزاز الذي يحاولون ممارسته ضدنا، عند تطبيقهم مبدأ الترابط معكوساً. أن عرض السوفيت في تقديم المساعدة في قضايا الشرق الأوسط ـ لم يكن يعني من جهتهم سوى مساندة أصدقائهم العرب، وهذا ما ظهر واضحاً منذ البداية.

وفي الرابع عشر من شهر أيّار، أرسلنا سلفاً إلى دوبرينين مسوّدة الخطاب الذي كان نيكسون يزمع على القائه حول القضية الفيتنامية. وحسب الاتفاق، كلّمني نيكسون هاتفياً، أثناء محادثتي مع دوبرينين وطلب إلينا اللحاق به إلى قاعة لينكولن، ليتمكن من إقناع السفير السوفيتي أنه عازم على إنهاء الحرب. لكن الروس ظلّوا ثابتين، وهذا وضع حافظوا عليه كذلك إزاء مقترحات السلام التي طرحها سايروس فانس فيما يتعلق بفيتنام. ولهذا وبسبب موقف الروس المتصلّب عزم نيكسون على التوجّه إلى رومانيا في شهر آب، محاولاً بذلك تذكير الكرملين بالتزاماتنا تجاه أوروبا الشرقية، وأيضاً تذكير جمهورية الصين الشعبية بتلك الالتزامات، خاصة وانها كانت تساند رومانيا بصورة ثانوية. أضف إلى ذلك، أننا رفضنا، أثناء الخريف، دعوة أندريه غروميكو للمجيء إلى واشنطن، بسبب موقفه من الرئيس بأخذ دراسات مقتضبة عن الوضع السياسي (وغروميكو عند حضوره كل عام اجتماعات الجمعيّة العامة لهيئة الأمم المتحدة، كان يغتنم هذه الفرصة لزيارة الرئيس والتباحث في الأمور السياسيّة). ولقد أعلمنا غروميكو بنيّة الرئيس عدم مقابلة وزير الشؤون الخارجية إلاّ بناء على طلب الروس، وهذا أمر لن يقدموا عليه.

إن موقف السوفيت لم يتغيّر عام ١٩٦٩، وكانوا يظهرون أنهم عازمون على إظهار تقدّم بالطريقة لا بالمضمون. وفي شهر آذار، بدرت تصريحات عامة ومختلفة عن موظفين ثانويين وأُفشيت أسرار، لم تكن صادرة عن البيت الأبيض، ممّا دعانا للإسراع في إتخاذ موقف حول بداية مفاوضات «سالت» المتوقّع اجراؤها في نهاية

الربيع أو أوائل الصيف، وعندما عزم البيت الأبيض في الحادي عشر من شهر حزيران، على إبلاغ الروس، أننا مستعدون للبدء في المفاوضات، علىأن الإدارة كانت على ثقة، أنها لن تستلم جواباً قبل عدة أسابيع قادمة. بقي السوفيت صامتين طيلة أربعة شهور، وبصورة شبه أكيدة، لأنهم كانوا ينتظرون نتيجة إختلافات مجلس الشيوخ بشأن مضادّات القذائف الصاروخية، إذ لم تكن لديهم النيّة بتبديد دلائل انتقاداتنا، التي كانت تبيّن أن مشروع مضادات القذائف الصاروخية، متناقض مع مفاوضات تحديد التسلّح.

ومهما كانت الأعذار، فإن دوبرينين، لم يذهب لمقابلة الرئيس إلاّ في العشرين من شهر تشرين الأول، حيث أخبره بأن الروس مستعدون لتحديد تاريخ بدء مفاوضات «سالت». واغتنم دوبرينين هذه المناسبة ليشكو بطء تقدم العلاقات بين بلدينا. فأجابه نيكسون أن الاتحاد السوفيتي حر باتخاذ القرارات التي يراها مناسبة له، لكن كل تقدم في العلاقات يتعلّق بموقف بلاده تجاه فيتنام. وسلّمت دوبرينين في اليوم التالي، نسخة مضروبة على الآلة الكاتبة، مما قيل عن فيتنام، خلال محادثته مع الرئيس، وبقصد مني، شددت على بعض مقاطع الحديث التي تتعلّق بموسكو. ودوبرينين حسب عادته، لم يكن قد دوّن ما دار بينهما من حديث، لكنّه استوضح عن تعارض الآراء الحاصل، وسأل عمّا يجب نقله منها بصورة رسميّة إلى موسكو. فاقترحت عليه نقل ما كتب على الآلة الكاتبة.

ومحادثاتنا عن أمن أوروبا، ولا سيما عن برلين، بقيت دون حراك والألمان الشرقيون دعوا إلى اصطناع أزمة لتجميد الدخول في المفاوضات ليتمكنوا من معارضة انتخاب رئيس للجمهورية الاتحادية في برلين الغربية، في حين أن ثلاث انتخابات جرت في السابق دون إعتراض.وفي الثاني والعشرين من شهر شباط، ليلة أول زيارة لأوروبا، كان نيكسون يأمر بإرسال فرق عسكرية إلى برلين الغربية

على جناح السرعة. لم ينتج عن الحادث شيء، لأن دوبرينين، كان وعد نيكسون في السابع عشر من شهر شباط، أن الإتحاد السوفيتي سيضع يده على الوضع. وفي الخامس من شهر آذار، جرى إنتخاب رئيس ألمانيا الإتحادية في ريخستاغ، دون إحداث أزمة أو قلق. وفي شهر تموز من العام ١٩٧١، خلال سفري السرّي إلى الصين، قدّم لي شو ان لاي ما لديه من مطالعات عن الأحداث. وحسب رأيه. إن الإتحاد السوفيتي طلب في شهر آذار عام ١٩٦٩، وعن قصد، إثارة مصادمات على الحدود الصينيّة، لتحويل الأنظار في الوقت الذي كان برلمانيو ألمانيا الإتحادية يتوجهون بحريّة إلى برلين. وبالنسبة لشو ان لاي فإن أحداث الحدود ، كانت قد سمحت للروس «عدم تحمّل مسؤولياتهم تجاه برلين».

ومهما يكن الأمر، أقترح نيكسون خلال إقامته في أوروبا، في السابع والعشرين من شهر شباط، اجراء مفاوضات رسميّة حول برلين في الخطاب الذي القاه في معامل سيمنس في ألمانيا الغربية. وبعد تأكيده عن نيّتنا بالدفاع عن المدينة، أعرب في نفس الوقت عن أمله أن لا تكون برلين موضوع مفاوضات، بل سبب مصالحة.

وفي السادس والعشرين من شهر آذار، بعث الرئيس برسالة إلى كوسيغين، اقترح مناقشة قضيّة برلين. وفي شهر نيسان، لدى اجتماع حلف شمال الأطلسي في واشنطن، حثّت جمهورية ألمانيا الإتحاديّة الحلفاء الثلاثة الغربيّين، القائمين على إحتلال برلين، وهم فرنسا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة، على التفاوض مع السوفيت بخصوص برلين.

بدأت المشاورات خلال الصيف.وفي العاشر من شهر تموز، أكّد غروميكو مجدداً للعموم، ارادة الروّس، بإجراء مباحثات سريّة، حول طريقة تجنب التعقيدات في موضوع برلين، الآن وفي المستقبل. «ومستشار ألمانيا الغربية (كورت كيّسِنجر)

حثّنا على قبول العرض بسرعة، مقدّراً وبكل تأكيد، المزايا الممكن الحصول عليها من إنفراج التوتّر، لدى الإنتخابات الألمانية في شهر أيلول المقبل». وفي السابع من شهر آب، صرّح الحلفاء الغربيّون عن استعدادهم للدخول في مفاوضات . فانتظر السوفيت نهاية شهر أيلول، قبل الإنتخابات الألمانية، لاعطاء جواب غامض، ينحصر في الأخذ بتصريحات غروميكو، ويؤكّد علىأهميّة سيادة تنظيم ألمانيا الغربية (الذي لم تطلع عليه البلاد الغربيّة). وكانوا يرفضون الاشتراك في محادثات تتعلّق بتلطيف التصعيد في برلين الغربية، ويقترحون إجراء مفاوضات تخصّص لتقليل النشاطات الألمانية الغربيّة في برلين.

وبتقديري، ان جواب الروس، لم يحمل «أي تغيير ذي أهمية». وألمحت إلى ذلك بمذكرة للرئيس. وكانوا يحاولون مرّة أخرى، الإفادة من الظروف، ساعين للإشتراك في كل المزايا الناتجة عن المفاوضات حول قضيّة جديدة هامّة، غير مشيرين إلى أية فائدة في تحقيق تقدّم حقيقي. فاستنتجت من تلك الرسالة أن الروس كانوا غير مهتمين، ونحن بدورنا، علينا أن نكون على شاكلتهم، مهما تكن الظروف، دون الأخذ بعين الاعتبار، اننا عندما نظهر رغبتنا الملحّة في إنجاح المفاوضات، يتمكن السوفيت مجدداً من اغتنام هذه المناسبة ليؤكدوا مساندتهم غير المشروطة «لسيادة» ألمانيا الشرقية، بدلاً من مجاراتنا في أهدافنا.

وبالمقابل، حاول القادة الروس ترتيب محادثات ثنائية حول قضيّة برلين مع الولايات المتحدة. وكان كوسيغين قد وافق في رسالته المؤرخة في السابع والعشرين من شهر أيّار، الموجّهة إلى الرئيس الأمريكي، على اجراء محادثات حول هذه القضيّة، وأطلع على ذلك نيكسون رسمياً من قبل دوبرينين، في اليوم العشرين من شهر تشرين الأول. وبما أن السوفيت كانوا يرفضون الالتزام بمحادثات تتعلّق بتسهيل الدخول

إلى برلين الغربيّة، لذا فقد أوصيت نيكسون بعدم الموافقة على محادثة ثنائية محتملة الوقوع. ولن يقدم الروس على ذلك إلا لزرع بذور الشك بين حلفائنا.

قابلنا السوفيت، بالطريقة نفسها بخصوص الشرق الأوسط. وأشركونا بتقديم تنازلات للرومان بخصوص التجارة. وبعد زيارة الرئيس لرومانيا، شجّع البيت الأبيض كثيرا التجارة مع رومانيا، مع الأخذ بالحسبان كل الاعتبارات الموضوعة تحت تصرّفه. وما كدنا نقترب من رومانيا حتى أخذت وزارات مختلفة بالضغط علينا، لتحرير التجارة مع كل بلدان أوروبا الشرقية. الأمر الذي قوّض استراتيجيتنا القائمة على استخدامنا المبادلات التجارية لتشجيع سيادة السياسة، ولزمنا عدة أشهر حتى تمكنا من التفاهم.

وبعد اختلافات طويلة، صوّت الكونغرس على مشروع قانون في شهر كانون الأول، حول «قانون ادارة التصدير» للعام ١٩٦٩. الذي كان يخلف «قانون مراقبة التصدير» القديم، وكان القانون الجديد يتضمن أن تلتزم الولايات المتحدة رسمياً وتأخذ على عاتقها تنمية التبادل التجاري السلمي مع الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية لكن تطبيقه تُرك أساساً لمبادرة من قبل الرئيس. ولزم بعض الوقت لكي يفهم القادة السوفيت، انهم إذا كانوا راغبين في تحرير المبادلات التجارية، فعليهم أن يبرهنوا على ضبط نفس كبير في تعاملهم على المستوى الدولي، والسير في طريق تسوية المشاكل الأساسية للسياسة الخارجية. وبالتالي وتطبيقاً لاستراتيجيتنا، سنقدم تسهيلات للاتحاد السوفيتي، إذا قبل التعاون معنا على المستوى السياسي، وكان علينا أن نجابه تغيّر رأي من قبل أولئك الذين وجّهوا لنا لوماً حينما كنا نسعى لإقامة صلات بين المبادلات التجارية والسياسة الداخلية للاتحاد السوفيتي. وقريباً سنكون عرضة للهجوم بسبب المشكلة الأساسية «المبادلات التجارية بين الشرق والغرب». وبعد دراسة جدّية، يصطنعون «علاقات» تكون بمجموعها تقوية لنا في

مقاومة العدوان السوفيتي. ويمكنها كذلك المساهمة في تقوية قوّتها أيضاً. فعدم تهيئة كافة الإمكانيات يجرّ الويل أكثر من تجاهل الأخطار.

❑ ❑ ❑

كانت حكومة جونسون قد أعدّت سياسة "الالتزام السلمي" والتي تهدف لتحريك المبادلات التجارية والثقافية مع أوروبا الشرقية، لكنها لم تنجح سوى في إظهار هذه الرغبة الجريئة. أما حكومة نيكسون فقد حاولت تبنّي سياسة مختلفة، ترتكز على تشجيع بلدان أوروبا الشرقية على التصرّف بطريقة تضمن لها استقلالها في حدود إمكاناتها. ولم تقم بأي تعهد لا تستطيع الإيفاء به، ولم تدل بتصريح يجرّ إلى ردود فعل مؤسفة. وكنا نكافئ الدولة التي تختط لنفسها سياسة خارجية أكثر استقلالاً، ونمنع أنفسنا من التدخل في شؤون دولة، تقبل برضاها أو بالضرورة سيطرة الاتحاد السوفيتي. وكان نيكسون قد بعث لي بالمذكرة التي يقول فيها "هنري، اعتقد أننا نستطيع استنهاض همم أصدقائنا في موسكو بمضاعفة زيارتنا لدول أوروبا الشرقية. وإني على ثقة، فيما إذا استطاعت شعوب هذه البلاد، فستكون على جانب عظيم من الغبطة عند استقبالها أعضاء حكومتنا وغيرهم من الشخصيات".

بعد بضعة أسابيع، اتخذ نيكسون رأياً أكثر وضوحاً، وهو أن يذهب بنفسه إلى أوروبا الشرقية. وأبدى اقتراحاً بتمكنه من تضمين رومانيا في مخطط سفره حول العالم، وهكذا يصبح نيكسون أول رئيس أمريكي يقوم بزيارة رسمية إلى بلد شيوعي. وتصرفه هذا كان يستند على سببين. السبب الأول أن السلطات الرومانية عاملته بكثير من الاحترام، عند تركه الحكم وزيارته لرومانيا عام ١٩٦٧، الأمر الذي لم يتشابه في غيرها من بلدان أوروبا الشرقية. وكان إحساس نيكسون رقيقاً لهذه المبادلات الودّية. وكان هدفه الرئيسي السوفيت، كما قال: "أنهم سيتأكدون أننا نقوم بدور معقّد".

وفي الحادي والعشرين من شهر حزيران، وتطبيقاً لتعليمات الرئيس نيكسون، استدعيت سفير رومانيا آنذاك، كورنيليو بوغدان، وأعلمته أن الرئيس عازم على القيام بجولة حول العالم، في النصف الثاني من شهر تموز، بعد أن يحضر هبوط "أبوللو الحادية عشرة" في المحيط الهادي. وطلبت إليه، أن يمكث الرئيس في بوخارست يومي الثاني والثالث من شهر آب، إذا كان ذلك ممكناً. وفي الثالث والعشرين من شهر حزيران، أعني بعد ثمانية وأربعين ساعة، وصلنا جواباً رسمياً، يؤكد أن الحكومة الرومانية ترحّب بهذه الزيارة بالرغم من أنها ستكون مجبرة على تأجيل إقامة مؤتمر الحزب الشيوعي الروماني، المحدّد موعده منذ تاريخ طويل مسبق، والذي كان القادة السوفيت مدعوّين للاشتراك به. وليس هناك من دليل أوضح على اهتمام رومانيا على إقامة تقارب منفصل مع واشنطن وزيارة الرئيس الأمريكي.

الفكرة في أن حكومة نيكسون كانت مناوئة أصلا وبشدة للسوفيت انتشرت سريعاً، مفسّرة أن زيارة الرئيس لرومانيا كانت مغامرة. وبعض أعضاء وزارة الشؤون الخارجية، عارضوا هذه الزيارة، التي قام بتنظيمها البيت الأبيض. وكانوا يرون أنها خطرة، كما يخشون أنها ستكون سبباً في قطع مفاوضات سالت والاتفاقات اللاحقة. وكانت الصحف الكبيرة تتبنى هذا الرأي، معتبرة أن هذه الزيارة محفوفة بالمخاطر، بالنسبة لمفاوضات سالت، وحماقة تجلب لنا تهجّمات الاتحاد السوفيتي، وتستدرج الروس إلى التصلّب في موقفهم حول كل القضايا بالنسبة للعلاقات بين الشرق والغرب، وأعطاء فكرة أن أمريكا تؤكد وجود "دكتاتورية شيوعية عنيفة".

تصرّف السوفيت كذلك، ودلّوا بطريقة لا ريب فيها أنهم فهموا فعلاً مغزى زيارتنا هذه. فألغوا زيارة بريجنيف وكوسيغين الذين كانّ عليهما الاشتراك بمؤتمر

الحزب الشيوعي الروماني. وفي الثالث من شهر تموز، سألت بوغدان، عما إذا كانت حكومته قد أعلمت السوفيت سلفاً بزيارة الرئيس الأمريكي. فأجابني أنه يجهل ذلك، وكان يعتقد بوجوب إعلامهم بوقت قليل قبل الإعلان الرسمي عن الزيارة، وأن رومانيا هي حرّة باتخاذ القرارات التي تريد.

وصل الرئيس إلى بوخارست في الثاني من شهر آب، واستقبل كما كتبت النيويورك تايمس بهذا الخصوص ودعته: الاستقبال الأكثر حرارة وأكثر ودّية، استقبل به الرئيس حتى الآن خلال رحلته، رافقه هتاف مئات الآلاف من الرومانيين الملوّحين بالأعلام. وزار نيكسون سوقاً بلدياً، ومدرسة رقص فولكلوري وسمح لنفسه الاشتراك بحلبة رقص مع الرئيس الروماني نيكولا شاوشيسكو. وبعد اقتناع التايمس بصورة قطعية، كتبت في مقالها الافتتاحي بتاريخ الخامس من شهر آب، أن هذا اللقاء المشجّع كان برهاناً على أن أوروبا الشرقية تقرّ بحسن نوايا الولايات المتحدة، وأن أهداف الرئيس، في سبيل السلام، والسيادة القومية، والتعايش السلمي، لم تكن دعاية في نظر بلدان وسكان أوروبا الشرقية الذين ما كادوا ينسون غزو تشيكوسلوفاكيا.

إن الحيوية المدهشة للاستقبال الذي جرى للرئيس نيكسون، كانت بإيحاء الحكومة وتنظيمها. ولكن إذا كانت هذه الحال، فهي برهان أكيد على استقلال رومانيا بالنسبة للاتحاد السوفيتي، إذ أنه من العسير جداً، بل غير الممكن، أن تصطنع الحكومة، التأثر والفرح والإخلاص الذي أظهره الشعب طيلة مدّة الزيارة. ازدحمت شوارع بوخارست بمئات آلاف الأشخاص، الذين كانوا ينتظرون فقط مرور العربة الرئاسية. ولم يكتف كل هؤلاء الناس بتشكيل حاجز عند وصول الرئيس من المطار، والالتفاف حول المقرّ الذي سيمكث فيه خلال الزيارة، بل أخذوا بالانتظار وفي أمكنة مختلفة ولساعات طويلة، ليظهر نيكسون نفسه لهم. وكان من المؤثر جداً، أن

يرى شعب دولة شيوعية مهتماً كثيراً بمناسبة أول استقبال رئيس أمّة كانت تمثل كثيراً، كما هي الحال في القرن التاسع عشر، رمز الديمقراطيّة وحريّة الإنسان.

وفي جميع تصريحاته التي أعلنها للجماهير في بوخارست، حدّد نيكسون مجدداً مبادئ سياسته وهي:

أهمية التعايش، رفض فكرة بريجنيف، ورغبة أمريكا في حلّ جميع القضايا بمفاوضات حقيقة.

وأردف قائلاً:

"لا نرى فائدة من الدخول في حرب كلامية، أو خديعة بعضنا دون جدوى، إننا نسعى نحو انفراج حقيقي، لا إلى جو بسيط من الانفراج".

"إننا نسعى لا إلى سلام يرتكز على السيطرة والانتظام المصطنع، بل نسعى إلى سلام يحترم المصالح الشرعية لكل إنسان ويكفل للجميع أمنهم".

ومن الواضح أيضاً، أن قادة أوروبا الشرقية، على غرار حلفائنا، كانوا يخشون عقد اتفاق أمريكي سوفيتي على حسابهم، ولم يكن هذا هدفنا. والزيارات التي قام بها الرئيس بعدئذ إلى يوغسلافيا وبولونيا، كانت أكبر برهان على ذلك.

الفصل الخامس

السياسة الثلاثية

عندما أكملنا إنشاء الإعلان المتضمن زيارتي السرّية إلى الصين في شهر تموز من عام ١٩٧١، صرّح شو ان لاي أن هذا الخبر سيهز العالم، وكان على حق. لم يكن هذا الخبر مثيراً فقط بالنسبة للعالم، بل هو حدث سيغيّر بين اليوم والآخر بنية السياسة الدولية. وبعد عشرين سنة من الانعزال المر، كان مبعوث أمريكي، يضع رجله على أرض الصين العجيبة، وكان على رئيسه أن يقتفي خطاه حالاً. كل هذا مذهل ومفاجئ، لكنه، مكافأة لثلاثين شهراً من الاستعدادات الصبورة والحكيمة، والتي خلالها، كان كل فريق يتقدم بخطى ثابتة، وباحتراس، جاسّاً الأرض لاجتناب ذل الفشل، ومقدراً تفهمه لكي لا تقل عزيمته، بسبب تصريح قاس، من حلفائه القلقين، ولكي لا يعطي أعداءه نصيباً استراتيجياً جديداً.

دهشنا نحن أنفسنا، لم نكن نعتقد أن المصالحة ممكنة، لأننا كنا على يقين من تعصب وعداوة الصينيين. ومع ذلك، وبالرغم من عدم معرفتنا لاتخاذ

الخطوات الأولى، كنا على اعتقاد ـ نيكسون وأنا ـ بأهمية الانفتاح باتجاه جمهورية الصين الشعبية.

وبالحقيقة، فإن الأحداث كانت مؤاتية لنا، لكنني أشك في قدرة أية حكومة أخرى، على إحداث هذا التقارب بهذه الروح وهذا التصميم. وبالنسبة لنيكسون، فقد كانت لديه موهبة فائقة بإصابة الهدف. وكانت المناورات التعبوية والحجج القوية قلما تهمه، كما كان يكره البحث الطويل في تفصيلات عملية. وحالما يعزم على تطبيق سياسة ما، كان يكلفني بصورة دائمة تقريباً، ضمان تنفيذها، واتخاذ التفصيلات الإدارية اللازمة لها. ومع ذلك، لم أتمكن ـ من جهتي ـ الوصول إلى نفس النتائج التي كان يصل إليها نيكسون، وتهيئة ما يلزم اتباعه من خطوات، إذ لم تكن لدي السلطة السياسية ولا الكفاءة الإدارية، لألقي بنفسي وحيداً في مغامرة سياسية بهذا الاتساع. كان نيكسون متفهماً بدقة أهمية المجازفة، ويدير سفينته بكثير من الحكمة وفي الوقت المناسب. كانت طريقته الإدارية تقوم على سياسة سرية ومنفردة يديرها هو بنفسه. وبالنسبة لنيكسون فإن مجلس الأمن القومي، وطريقة إعداده للخيارات السياسية المختلفة، كانت مفيدة له على الأقل، بإطلاعه على وجهة نظر الإدارة التي لم يكن على ثقة منها، وكانت هذه الأمور مجتمعه تسمح له بالتستر حول أهدافه الشخصية.

إن الانفتاح على الصين سيسمح له بالضغط على الروس للحد من تأييدهم لفيتنام. أما أنا فكنت أهتم كثيراً بأثر هذا الانفتاح الحاسم على بنية العلاقات الدولية. كان نيكسون يميل إلى الاعتقاد أن في وضع حد لعزلة ثمانمائة مليون صيني، يجنب السلام تهديداً خطيراً. وبتقديري أن نشاط الصين في السياسة الخارجية يتطلب منا سياسة دقيقة وتوجيهها في اتجاه معقد ربما أثر على مجموع العلاقات الدولية. لكن هذه الاختلافات في وجهة النظر كانت ترتكز على التفكير الأساسي ذاته:

علاقات ثلاثية بين الاتحاد السوفيتي والصين والولايات المتحدة تكون لمصلحة السعي لإيجاد السلام. وتلاقينا كلانا في النتيجة ذاتها. في تشرين الأول من عام ١٩٦٧، كتب نيكسون مقالاً هاماً نشرته مجلة الشؤون الخارجية:

"على المدى الطويل، لا نتمكن وبكل بساطة من السماح لأنفسنا ترك الصين إلى الأبد غير محسوبة بين الأمم، تكمل آمالها، وتمضغ أحقادها، وتهدد جيرانها. ولا يعُقل ترك مليار من البشر على هذا الكوكب الصغير، يعيش في كآبة وعزلة، مع أنه أكثر قدرة من غيره على الحياة. ولكن سنصل إلى كارثة، عند متابعة هذا الأمر الخطير، إذا لم نُعِر اهتماماً كبيراً لما في التاريخ من عبر ...

وبعبارة مختصرة، يجدر بنا انتهاج سياسة جدّ حكيمة، دون انتظار أية مكافأة، وبضغوط لبقة، سوف تقنع بكين أن مصالحها تتوقفّ منذ الآن على قبولها الأنظمة الأساسية للتمدّن الدولي. وعلى المدى الطويل، يجب أن نعيد للصين مكانتها في المجتمع الدولي، ليس فقط بكونها مركزاً سطحياً في الثورة العالمية، بل لأنها أمّة كبيرة في تقدّم".

وفي مقابلة مع مجلة بتاريخ التاسع من شهر آب عام ١٩٦٩، تماماً بعد تسميته مرشحاً للرئاسة، كان نيكسون يعيد للأذهان تلك الأفكار:

"يجب علينا ألاّ ننسى الصين، وعلينا أيضاً اغتنام جميع الفرص لبدء محادثات معها تماماً كما مع الاتحاد السوفيتي .... ولا نكتفي بالانتباه للتبدلات الحكومية، بل علينا الذهاب إليها ...".

لم أعالج في كتاباتي قضية الصين كثيراً. في عام ١٩٦١، تيقّنت بحصول قطع علاقات بين الصين والسوفيت. "وأكدّت على عدم إهمال توقّعي هذا". "وإذا أصبح هذا التوقع حقيقة، يجب الاستفادة منه". لكننا غير قادرين على إيجاد هذا العداء، ولا

التركيز عليه في سبيل إدارة سياستنا. (نحن على علم الآن أن قطع العلاقات أصبح واقعياً في هذه الفترة). وفي مقال حول مفاوضات فيتنام، كتبته بعد ذلك بثلاثة أشهر، ولم ينشر سوى في شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٩ في مجلة الشؤون الخارجية: "كنت أؤكد على أن الفكرة السوفيتية التي تعطي لموسكو حق التدخل لحماية الأنظمة القومية في البلاد الاشتراكية، ربما أن هذه الفكرة تقرب وقوع حرب بين الصين والسوفيت. لأن الاتهامات التي كانت توجهها موسكو ضد الصين، كانت أشد ضراوة من تلك التي توجه ضد براغ".

وكنت أرى فيها إمكانية إحداث مشكلة خطيرة لهانوي، تدفع بهذه الأخيرة للوصول إلى عقد اتفاق ما. وفي شهر تموز من عام ١٩٦٨، قبل الغزو السوفيتي لتشيكوسلوفاكيا، كنت قد تعاونت مع نلسون روكفلر على تهيئة خطاب ألقاه حول العلاقات الأمريكية ـ السوفيتية، وكان يحدّد في أحد مقاطعه السياسة المستقبلية: "علينا أن نبرهن على قدرتنا في التعامل مع عدة مراكز قوّة شيوعية متنافسة .. وعلينا أيضاً بدء محادثات مع الصين، وعند توفّر مثلث علاقات حسنة بين واشنطن وبكين وموسكو، فإن إمكانية الانفراج مع كل شركائنا ستكون أكبر، ونقوي في الوقت ذاته، اتصالاتنا مع الاثنين".

كنت ابني وجهة نظري على مفهومي العام لوجهة السياسة الخارجية. إذ كنت أعتبر أن علاقاتنا، مع من نتوقع معاداتهم، يجب أن تكون إمكانيات الانفراج مع كل منهم أكبر مما هي عليه بينهم. وإذا توصلنا يوماً إلى إعتاق سياستنا من جمود عشرين سنة، فإن كل قوّة عظمى شيوعية، ستطالب بإقامة علاقات ثقافية معنا.

كان مثقفون عديدون يطالبون بالتقرب من الصين، لكن هذه الطريقة في معالجة الأمر، لم تكن جماعية. ان تحسين العلاقات، برأي بعض علماء الحضارة الصينية،

كان هدفاً بحدّ ذاته، وعلى الولايات المتحدة أن تستعد لتنازلات ضرورية. خلال فترة الإنتقال، أرسل فريق من أساتذة هارفارد، ومعهد ماتا شوسيت اللامعين، بتقرير إلى نيكسون حول السياسة تجاه الصين. وكانوا يلحون في تقريرهم على التقرب من الصين، وقطع العلاقات مع تايوان، ودعوة الصين إلى الإنضمام للامم المتحدة. وتقرير هؤلاء لم يكن يبّين (ولا أذكر أن أحداً من أخصائي الصين عمل ذلك في هذه الفترة) الفائدة الجغرافية السياسية التي نجنيها بعلاقاتنا مع الإتحاد السوفيتي، ولا رغبة الصين في التقرب منّا، حق بأجراء تنازلات من قبلنا، وذلك لسبب بسيط وهو أن الصين كانت بحاجة لإيجاد توازن بينها وبين الإتحاد السوفيتي.

لكن يجدُر بنا القول، أن كل أفكار التقرب هذه، مهما كانت قيمتها، لا تزال بعد غامضة في إستلام الحكومة الجديدة. وفي الواقع فإن عزلة الصين الكاملة، والإيديولوجية العدائية، كانتا مستمرّتين منذ عشرين عاماً، وتقاتل الجنود الأمريكان والصينيّون بضراوة أثناء حرب كوريا. جرت أول إتصالات بين موظفي القنصليات الأمريكية والصينية في جنيف عام ١٩٥٤. وتتابعت هذه الاتصالات عام ١٩٥٥، بين السفراء، ومن ثم أكملت في فرسوفيا. وفي العاشر من شهر أيلول لعام ١٩٥٥، عقد اتفاق حول إعادة بعض الرعايا إلى أوطانهم. وهذا كان كل ما في الأمر، وبين عامي ١٩٥٤ و ١٩٦٩، جرى مائة وأربعة وثلاثون لقاء، دون الوصول إلى أية نتيجة ملموسة.

وفي الثامن والعشرين من شهر أيار عام ١٩٦٨، أحيت بكين المفاوضات مقترحة تاريخين للمفاوضات في شهر تشرين الثاني، بعد الأنتخابات الأمريكية. وأخذ راديو بكين يؤكد «أن ليس هناك ما يمكن بحثه الآن». وظهرت أول بادرة صغيرة من التغيير بعد أحداث الحادي والعشرين من شهر آب عام ١٩٦٨، أعني بعد غزو السوفيت لتشيكوسلوفاكيا. والملاحظ أنه عند حدوث عصيان عام ١٩٥٦ في

بولونيا وهنغاريا، حاول الصينيون القيام بدور المصلحين، أما هذه المرّة فإن ردّ الفعل لديهم كان إدانة الاتحاد السوفيتي بشدّة. وفي السابع عشر من شهر آذار، وصفت صحيفة الشعب اليوميّة ـ صحيفة الحزب الشيوعي الصيني ـ أن الغزو كان «عدواناً مسلّحاً وإحتلالاً عسكرياً، من قبل طغمة سوفيتية مارقة رجعية». وكانت تصف عمل بريجنيف هذا بالتسلّط وأنه «يمثل نظرية فاشستية بحته». وبعد أن تمكنت روسيا من وضعها في تشيكوسلوفاكيا، كانت فكرة بريجنيف تتجه نحو الصين، بقدر ما تتجه إلى أي بلد آخر من بلدان أوروبا الشرقية، وربما أكثر، بما أن الصين كانت تبدي عداوة نحو الاتحاد السوفيتي.

في السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني، أي بعد ثلاثة أشهر من غزو تشيكوسلوفاكيا، وتماماً بعد الانتخابات الأمريكية، اقترحت الصين، موعداً، للقاء بينها وبين الولايات المتحدة في العشرين من شهر شباط في فرسوفيا. وبموجب تقليد صيني قديم بعدم إظهار حاجة العون من أحد، أظهرت بكين لهجة التحدّي، حاثة ومطالبة الولايات المتحدة بقبول "اتفاق بموجب مبادئ التعايش السلمي الخمسة: سحب جميع القوات المسلحة من أراضي تايوان الصينية، ومن مضيق فورموزا، وتدمير كافة منشآتها العسكرية في مقاطعة تايوان ذاتها".

وأصبح الاتحاد السوفيتي وبصراحة، الموضوع الأساسي لاهتمامات السياسة الخارجية الصينية. وكان لهذا العداء الصيني ـ السوفيتي عدة أسباب. فإن الحلف المحدود، كان يرى نفسه مهدداً بضغوط متكاثرة جرت مبدئياً بصمت، ومنها الخلاف الأيديولوجي الذي نمّته الصين، حين أعلنت أنها أقامت مجتمعاً شيوعياً، دون المرور بالمرحلة الاشتراكية (بلاغ ماو تسي ـ تونغ حين أعلن أن بكين تتبع مبدأ أيديولوجي أنقى ممّا هو عليه في موسكو)، والمنافسة القومية بين الدولتين العظميين، وعدم وجود

ثقة كاملة بينهما. وفي نهاية الأعوام ١٩٥٠- رفض خروتشيف التعاون النووي، فردّ الصينيون بوابل من الانتقادات الإيديولوجية. وفي عام ١٩٥٩، سحب الاتحاد السوفيتي مستشاريه التقنييّن من الصين، مع وضع حدّ لعونه الاقتصادي. ونفور شخصي أعلن عن نفسه بين رؤساء الحزبين الشيوعيين، بالرغم من المبادئ الماركسية واللينينية ضد الذاتانية. وأعاد الصينيون إلى الأذهان مماحكات قديمة، مطالبين بإعادة الأراضي الواسعة في سيبريا، التي اختص بها القياصرة أنفسهم. كما كانوا يقولون، طيلة القرون التي كانت يتوسع بها الروس.

وفي عام ١٩٦٩، أخذ النزاع السياسي وجهة عسكرية مقلقة. وحتى عامي ١٩٦٥-١٩٦٦ تقريباً، أقيم توازن على طول الحدود الصينية - السوفيتية، والقوى المتركّزة على هذه الجهة أو تلك، كانت نسبياً ضعيفة. وعلى حدود سينكيان، كانت القوات السوفيتية أكثر عدداً من القوات الصينية. وكان العكس على حدود منشوريا. ولابدّ من القول أن الجيش السوفيتي كان بإعداد أحسن ويتمتع بمساندة أكثر أهمية. بدأت حوادث الحدود نحو عام ١٩٥٩ وأخذت تحتدم. غير أنه لم تحدث أيّة تعبئة هامة مدّة سنوات عدّة، لابد من هذا الجانب أو الآخر. ثم في بداية عام ١٩٦٦، أخذ السوفيت ينقلون من أوروبا الوسطى إلى الشرق الأقصى، وحدات قتال، مدرّبة تدريباً عالياً ومجهزة تجهيزاً حسناً أيضاً. وظهرت للوجود الصواريخ أرض - أرض ذات الرؤوس النووية. حدث مقلق جداً بالنسبة للصين، وفي كانون الثاني من عام ١٩٦٦، وقّع الاتحاد السوفيتي، معاهدة صداقة، وتعاون، متبادل مع منغوليا. كانت مدة هذه المعاهدة عشرين عاماً، وتسمح للاتحاد السوفيتي بإرسال قوات إلى منغوليا، وأن تقيم فيها مراكز عسكرية. كما أن عدد الفرق السوفيتية الموضوعة على طول الحدود الصينية، انتقل من اثنتي عشرة فرقة متخلفة التجهيز في عام ١٩٦٤ إلى ما يقارب أربعين فرقة مجهزة تجهيزاً عصرياً عام ١٩٧٠.

وفي التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٨، قبلت حكومة جونسون، بمباركة ورضى الرئيس المنتخب، ريتشارد نيكسون العودة إلى مفاوضات فرسوفيا التي كانت الصين قد اقترحتها.

❐ ❐ ❐

كل السياسات المثمرة ظهرت وكأنها نُظّمت سلفاً، ويزعم القادة أنهم توقعوا نجاحهم، ويسمّون تخطيطاً ما لم يكن بصورة عامة سوى سلسلة من الارتجالات. وهذا ما جرت عليه الأمور في قضية الصين. إذ كان بنيّة الحكومة الجديدة الوصول إلى مرحلة جديدة، وبنيّة صادقة وعزم مكين، وعليها تحديد الكيفية. كما كان عليها الأخذ بعين الاعتبار المعطيات القومية، والتي هي ربما ليست بجانبها، لا سيما المعارضة الصينية التقليدية المحافظة التي لم تغفر قط لترومان وأشيسون خيانتهما لشيانغ كاي ـ شك.

وطبعاً كان قادة بكين يواجهون المشكلة ذاتها. يمكننا القول أن ماو تسي ـ تونغ، كان عازماً على التقرب من الولايات المتحدة، بعد غزو الروس لتشيكوسلوفاكيا بقليل، لكن بلده كان خارجاً لتوه من الثورة الثقافية. والتي سعى من خلالها لإزالة كل نزعة حتمية في الدول الشيوعية إلى الديون والتجميد، فارضاً ثورة دائمة عليا.

كانت إحدى الإجراءات الهامة التي قامت بها حكومة نيكسون وبشكل متناقض هي عدم عمل أي شيء. أما حكومة جونسون فكانت قد استخدمت شبح شيوعية الصين الأسيوّية، في سبيل تعديل أساسي لحرب فيتنام. ففي السابع من شهر نيسان ١٩٦٥، أكد جونسون، في خطاب ألقاه في جامعة جون هوبكنز، أن زعماء هانوي دفعوا للحرب من قبل بكين. وأن النزاع في فيتنام يشكل جزءاً من مجموعة اعتداءات متعمدة. وفي الاتجاه ذاته، صرّح دين راسك وزير الشؤون الخارجية، أمام

لجنة مجلس الشيوخ للشؤون الخارجية، في الثامن عشر من شهر شباط عام ١٩٦٦، أن بكين كانت المحرّضة على العدوان وبالتواطؤ مع هانوي. وبعكس ذلك، فإن حكومة نيكسون، حرصت منذ البداية، على عدم الإشارة أو التدليل أن التزام أمريكا بفيتنام، لأسباب عدائية صينية. ولم نكن على استعداد للموافقة على تحليل جونسون، الذي لا نتيجة له سوى تكثير أعداء أمريكا.

دللّت الأشهر الأولى، على آراء متناقضة. وصرّح نيكسون في خطاب توليته، وبكلمات مبهمة، أن حكومته الجديدة راغبة في بدء محادثات مع الصين: "لتعلم كل الشعوب جيداً، أن كل الاتصالات ستصبح ممكنة في ظل هذه الحكومة. إننا نريد عالماً منفتحاً، منفتحاً للأفكار، للتجارة، للاتصالات الإنسانية، عالماً لا يعيش فيه أي شعب، كبير أو صغير، في كآبة وانعزال". هاتان الكلمتان الأخيرتان، كانتا تذكران بمقالة لعام ١٩٦٧ في مجلة الشؤون الخارجية. ولم يكن لهما أي ردّ فعل، فليس على الصينيين أن يتأثروا بتلميح بسيط وينقادوا إلى المصالحة.

وفي اليوم التالي، لتسلّم نيكسون منصبه، وصفته وكالة الصين الجديدة، "بأنه دمية على حساب طغمة برجوازية احتكارية، والامبريالية الأمريكية العازمة على متابعة عدوانها التوسعي في العالم". وحسب الوكالة أيضاً: "فإن عدم صراحة نيكسون، والمظاهرات التي قامت ضدّه في واشنطن يوم توليته، تظهر جميعها أن الإمبريالية الأمريكية كانت في حالة احتضار وفي أزمة عارمة.

في الرابع عشر من شهر آذار، أخذنا نطلق أحاديث، ظاهرها العداء للصينيين، عندما أعلن برنامجنا الدفاعي لمضادّات القذائف الصاروخية المسمّى "الواقي"، وكأن الرئيس يوحي بتوجهه العدائي للصين، التي كانت قد وصفت برنامج الرئيس جونسون عام ١٩٦٧ "بالحارس". كان التفكير ذاته في الحالين، وكان من التعقل أن

نحمي أنفسنا من هجوم مفاجئ أو مقصود من قبل قوة صغيرة نووية، دون محاولة تنظيم دفاع عظيم ضد الاتحاد السوفيتي، هذا الدفاع الذي كان يطرح مشكلة ليست فقط على مستوى مراقبة التسلح بل أيضاً في وضع الموازنة. وصرّح نيكسون، علينا ألاّ نهمل تهديد الصين الذي تخيف به شعبنا، كما علينا أن نهتم أيضاً بأي هجوم مفاجئ. وعند أخذنا بهذا المنهج، سنحدّد خسائرنا بأصغر قدر ممكن، تخيل الجميع من كلام نيكسون أن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، كانت مصلحتهما متساوية في احتواء الصين: "أفترض أن الاتحاد السوفيتي يرفض مثلنا أن يجد نفسه أعزلاً أمام تهديد كامن من قبل الصين الشيوعية. ولا أعتقد أن أحد بلدينا يغضّ الطرف عن منهج التسلّح في حال إهماله ، مادام التهديد الصيني موجوداً".

وكما كان منتظراً، فقد أعلنت وكالة الصين الجديدة، في السادس عشر من شهر آذار، أن برنامج مضادّات القذائف الصاروخية، هو تواطؤ من قبل الأمريكيين والرجعيين السوفيت، الغاية منه الإبقاء على التهديد والابتزاز النووي، ضد شعوب العالم كله، ولا سيما ضد الشعب الصيني. وهكذا إذاً، ففي شهر آذار من العام ١٩٦٩، بدت العلاقات الصينية الأمريكية وكأنها مجمدة، في إطار من العداء المملوء بعدم التفاهم وعدم الثقة المتبادلة. كانت نيّة الحكومة الجديدة التقرب من الصين، دون معرفة كيفية الوصول إلى ذلك. وكل سياسة هي وليدة تلاقي الأفكار والمناسبات. وسنحت هذه المناسبة، عندما كانت الفرق السوفيتية، في مجابهة الفرق الصينية، في بعض قطاعات سيبريا، على حافّة نهر أوسوري، ما سمعنا قط أحداً تحدّث عنها. ومنذ هذه اللحظة، أصبحت الأمور واضحة، ولا حاجة بعد للتردّد، فتوجهنا نحو تغيير أساسي في السياسة العالمية.

❐ ❐ ❐

وهكذا، ففي نهاية عام ١٩٦٩، اصبحت علاقات أمريكا مع العالم الشيوعي، تسير ببطء لتصبح علاقات ثلاثية. لم نكن نتخذ انفتاحنا نحو الصين بمثابة عداء أساسي للسوفيت، إذ كانت غايتنا تطهير سياستنا الخارجية من كل العواطفية. ولم يكن لدينا أيّ حق في تحديد اتصالاتنا مع البلدان الشيوعية الكبرى فقط بالاتحاد السوفيتي. وعند مدّ يدنا إلى الصين، فلا نقصد بهذا محو شعور عظيم بالإثم، بسبب سياستنا الصينيّة في السنوات ١٩٤٠ لكي يبقى هدفنا إقامة توازن عالمي. ولا نريد أبداً إقامة تحالف مع الصين ضد الاتحاد السوفيتي، لكن لنعطي كل قوّة شيوعيّة المزايا الحسنة لاتخاذ علاقات معنا. وتوازن كهذا يمكنه إيجاد بعض الاستقرار بين القوى الكبرى، وتعاون محتمل في العقود القادمة.

في الثامن عشر من شهر كانون الأول، وبمناسبة مؤتمر صحفي أقمته آخر العام في القاعة الشرقيّة، حاولت رسم الخطوط الكبرى لسياستنا بالنسبة لأكبر بلدين شيوعيين: "لقد تكلمنا دوماً وبصراحة، أنّ ليس لنا أعداء دائميين، وأننا نحكم على البلدان الأخرى، بما فيها البلدان الشيوعية، ولا سيما الصين الشيوعيّة، على أساس التعامل معها، لا على أساس مبادئها الأيديولوجية في سياستها القوميّة. وهنّأت نفسي على الطريقة الطبيعية، التي كانت عليها علاقاتنا مع الاتحاد السوفيتي، وغياب الدعاية المغرضة التي اتصفت بها صلاتنا حتى هذا اليوم. وإننا على استعداد لبدء مفاوضات رسميّة مع أخذ العلم أننا نستعد لها باعتناء. وبالرغم من ذلك فإننا نلح أن تكون هذه النوايا متبادلة، ونؤكد على لقاء قمة مع القادة السوفيت متمنيّن أن يكون هذا اللقاء برهان تقدّم ملموس لا أن يقف عند ذاته". وتحدّثت عن الصين بصورة مبهمة أكثر، لأنه كان علينا سلوك طريق طويلة قبل إقامة علاقات صحيحة معها.

"طبعاً أن الشعب الصيني شعب كبير. وتاريخه يَمُتّ إلى أقدم المدنيات الموجودة

اليوم، أضف إلى ذلك فإن ثمانمائة مليون نسمة، أعني خمسة وعشرين بالمائة من البشرية، عامل أساسي لا يمكّن إغفاله. أنهم يؤثرون على الشؤون الدولية، بالرغم من عزمنا على إجراء بعض الاتصالات السياسية التي نحن بصددها. هذا البلد حقيقة واقعية، وسياسته سواء كانت لصالح العالم أو لضده، فإنها لا بد منتجة سلاماً وتقدماً. وهذا بمعزل عما سوف نقوم به.

... وإذا كان من الصواب أن أكبر مشكلة واجهت الجميع بعد الحرب، كانت تجنب وقوع الفوضى والبلبلة، ومشكلة عشرين السنة القادمة هي بناء سلم دائم، فيبدو لنا مستحيلاً توطيد هذا السلم، إذا لم يكن سوى اجتناب كارثة، بإبعادنا ثمانمائة مليون نسمة عن المسرح السياسي.

لكننا لا نقدر أبداً أننا نستطيع ذلك ونحققه بعمل أحادي الجانب. سيتخذ الصينيون قراراتهم من خلال أيديولوجيتهم، ومن خلال ما يرون أنه في مصلحتهم. لكننا بقدر ما نستطيع التأثير على أعمالهم، بقدر ذلك نحن على استعداد لبدء محادثات معهم.

وفي الثاني والعشرين من شهر كانون الأول، عمل كل من دوبرينين وأنا كل على حدة، جولة مراجعة في أفق نهاية العام. وكنت على ثقة تامة أنه سيتكلم عن الصين. وقد أعددت أجوبتي سلفاً ونلت موافقة الرئيس عليها:

"إنني أكرر أننا:

- لا نقبل أن يكون العداء الدائم عنوان العلاقات الصينية الأمريكية.
- سياستنا غير موجّهة ضد الاتحاد السوفيتي.
- لن نكون طرفاً في النزاع الصيني السوفيتي".

لم يذهب انتظاري سدى، فقد عالج دوبرينين الموضوع الصيني وسألني أين صرنا في الموضوع، وماذا كانت ردود فعل الصينيين، تجنّبت الإجابة مكتفياً بإعطاء تأكيدات عامة كنت قد حضّرتها.

وفي أواخر عام ١٩٦٩، كان يبدو جلياً، أن الصين هي أيضاً، عزمت على التقارب منّا، واضعة الاتحاد السوفيتي على الحياد، فيما هي تستعيد مفاوضات متفرّقة حول قضايا حدوديّة. وفي بداية عام ١٩٧٠، وافق الصينيون على إجراء لقاء آخر غير رسمي، كان على مندوبنا أن يقترح خلاله استئناف مفاوضات رسميّة بين السفراء في فرسوفيا. وكان يجب أن يجري هذا اللقاء، في الثامن عشر من شهر كانون الثاني في سفارة الولايات المتحدة. وسبّب الاستعداد لهذا اللقاء خلافاً بسيطاً مع وزارة الشؤون الخارجية. وفي الواقع، كان على الرئيس وعليّ الاستفادة من هذه المناسبة لأن نبرهن للصينيين، أن لن يكون هناك اشتراك في السيادة الأمريكية ـ السوفيتية، لا في آسيا ولا في أيّة جهة من العالم أبداً. كنّا نريد أن يعلم الصينيون وبكل صراحة، أنهم لم يسمعوا حتى الآن إلاّ عن طريق شخص ثالث. أضف إلى ذلك، أننا كنّا نوشك على فقد ثقة وسطائنا إذا لم يؤكد الدبلوماسيون الأمريكان، ما كان الرئيس وأنا قد كلفنا هؤلاء الوسطاء بنقله.

اعترض على مشروعنا، مارشال غرين، معاون وزير الشؤون الخارجية. لشؤون آسيا الشرقية والمحيط الهادي، مؤكداً وجوب اجتناب القضايا الحسّاسة عند اجتماع معيّن لتنظيم أمور إجرائية كان هناك وبكل تأكيد أسباب أعمق أدّت إلى هذا الاعتراض:

- سخط تجاه تدخلات البيت الأبيض.
- انطباع سائد بين أخصائي آسيا الشرقية، في أن إدخال اعتبارات جغرافية سياسية تمسّ بالاتحاد السوفيتي، هو عمل غير جائز.

■ وربّما ما كان عالقاً في أذهان هؤلاء الأخصائيين، من تهديدات خطيرة كانت تبدر من الصين، أو أنه لم يغب عن بالهم تلك النتائج المؤسفة لسلوكيّة ماك آرثي المتهوّرة.

وفي الواقع فإن لقاء فرسوفيا في الثامن من شهر كانون الثاني، جرى على أفضل ما يكون. فقد وصل القائم بالأعمال الصيني بأبّهة عظيمة إلى سفارة الولايات المتحدة، في عربة يخفق عليها العلم الصيني. سُويت وبصورة ودّية الإجراءات الأولية، واتفق على إجراء المفاوضات الرسميّة بين السفراء في فرسوفيا. ونقلت رسالة الرئيس بدقّة، حول حكم ثنائي. وقبل الصينيون مبدأ الاجتماعات بالتناوب في السفارتين. وثبّت تاريخ اللقاء القادم في العشرين من شهر كانون الثاني، في سفارة الصين، واقترح لاي يانغ إعلان ذلك.

وهكذا إذاً، وبعد تولية الرئيس بعام كنا ننتظر ولأول مرّة، انطلاق المفاوضات الحقيقية بين جمهورية الصين الشعبية، والولايات المتحدة، والتي حتماً ستكون مختلفة تماماً، عن المائة والأربعة والثلاثين لقاء في وقت سابق. كلّف الاستعداد لها عناءً كبيراً، طيلة شهور عدّة، برسائل غير مباشرة أولاً، ثم أصبحت واضحة أكثر فأكثر، منوهّة بإرادتنا ايجاد تغيير أساسي في طبيعة علاقاتنا. لا يزال أمامنا طريق طويل يجب أن نسلكه، لكننا أخيراً وجدنا أنفسنا أمام قمم سلسلة جبال، يجب علينا اجتيازها بعد ثمانية عشر شهراً.

كان يتخلل هذه المدة فترة أمل عجيبة. وبالإضافة إلى تقدمّ دبلوماسيتنا الثلاثية، كانت هناك أسباب أخرى، تدعو نفوسنا إلى البهجة، وانفتاحنا على الصين كان يضع في نفوسنا الأمل بالانتهاء من حرب فيتنام المؤلمة. إن تصريح كويان تاي المفاجئ في الثاني والعشرين من شهر آذار، أظهر بكل وضوح، قلق هانوي من الكراهية المتزايدة

من قبل حليفيها الاثنين. وكان النزاع الصيني السوفيتي يجعل فيتنام الشمالية في موقف دقيق، لأسباب تنظيمية عملية، ومن بينها: أن جزء من العون العسكري السوفيتي، كان يُرسَل بالقطارات من خلال الصين، الأمر الذي ينذر بتعاون ولو قليل بين الاتحاد السوفيتي والصين. وكانت هانوي قد فهمت طبعاً، المدى الذي يقدّمه لنا النزاع الصيني ـ السوفيتي، كما كان يجب أن يظهر عام ١٩٧٢.

لكن الصدمة التي تعرّضت لها سياستنا نحو الصين كان وقعها عظيماً. إن حرب فيتنام كانت تبدو وكأنها تزيل كل أمل لسياسة خلاقّة وتولّد نفوراً من كل التزام نحو الأجنبي، يرافق هذا النفور اشمئزازاً من أنفسنا. وآخر مشهد من المسرحيّة التي كانت تتمثّل في خلافنا مع هذا الشعب الكبير، أهميته في المستوى الإنساني، وعونه في إيجاد سلام في العالم، كل هذا كان يحمل في طيّاته نفحة ريح باردة، معيدة إلى الأذهان، أن أمريكا كانت قادرة على تحقيق ما تصبو إليه لكونها سيدة العالم. أضف إلى ذلك فيما لو كنّا قادرين على ذلك، في وسط حرب قسمتنا على أنفسنا، ولا زالت تؤكد لنا، أننا لا نزال نمتلك الجرأة، وقادرين على تحقيق أهدافنا وتأمين رفاهية كل من يثق بنا، في بقية أنحاء العالم الذي كنا نقوم فيه بدور رئيسي.

الفصل السادس

السياسة الدفاعية والتوازن الاستراتيجي

على مدى التاريخ، يمكن القول أن النفوذ السياسي لدى الشعوب كان مرادفاً لقوتها العسكرية. وإذا كانت القيمة المعنوية وعظمة المنشآت تقدر على التمييز بين الدول، فإن المهارة الدبلوماسية لا تستطيع سوى تنمية القدرة العسكرية، لا أن تحلّ محلها. وفي آخر المطاف فإن الضعف يدعو دوماً إلى التعدّي، والنقص في القوّة يؤدي دوماً إلى التنازل عن القدرة السياسيّة. لعبت بعض البلدان الصغيرة، أدواراً هامّة، وخلال فترات قصيرة، في المستوى العالمي، لكنّها كانت تتصرف ضمن اطار أمين من توازن دولي. وتوازن القدرة، هذا التصور غير المأخوذ به غالباً في المراسلات السياسية الأمريكية، والذي يندر استعماله، دون إضافة الصفة "غير المسلّم به" أصبح في الحقيقة الشرط الأول للسلام.

وانطلاقاً من هذا يمكن القول أن البحث عن القدرة ليس سوى بداية السياسة ولا يمكن أن يكون غاية بذاته. وإذا لم تكن القوّة بجانبها، فإن جميع الأهداف، مهما كانت شريفة بحد ذاتها، توشك أن تسحق من قبل الأنظمة لدى الآخرين.

كنا نعتقد طيلة أكثر من قرن، أن لا حاجة بنا للاهتمام بالمشاكل الاستراتيجية، ما دام مجيطان يحميان حدودنا. وتخيّلنا لقاء ذلك من قدرات كبيرة أخرى، كنا نلزم أنفسنا بها، بفضل سلامة تحرّكاتنا، وبما أن أهميتنا في العالم كانت مستقلّة عن قدرتنا المادّية. وكان لدينا الميل إلى ترك عزلتنا، والانخراط في التزامات مفاجئة، كانت غاية جميعها أدبيّة. حتى أن جهودنا العسكرية كانت معنوية وكانت ترتكز كثيراً على المنطق الرمزي أكثر ممّا هو على الجغرافية السياسية. وعندما كنا نخوض حروباً، كان علينا بوجه عام كسب الانتصار في وسائلنا أكثر مما يكون سبب الغلبة من جرأتنا أو مهارتنا الاستراتيجية.

نحو أواخر أعوام ١٩٦٠، دخلنا في حالة من الانعزال وتثبيط العزائم بسبب تداعيات الحرب الطويلة الامد، كان يدعو البعض منّا لتفسير مشاكلنا بالتزام مفرط نحو العالم كله. وكانت الانتقادات بادى ذي بدء، مصوّبة نحو نزاع فيتنام، لكنها سرعان ما امتدّت الى جميع مناهجنا الداخلية والتزاماتنا العسكرية. والأوساط وثيقة الاطلاع، التي كانت ركّزت التزاماتنا الحكيمة بعد الحرب، اخذت تشجبها بشدّة.

وكان هذا يهدد بوضع بلدنا وأقوام حرّة أخرى في حالة من الضعف كسياسة أوروبا الثابتة واليابان، أضف إليها مستقبل بلدان أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا التي هي في طريق التنمية كانت كلها منوطة بموقف الولايات المتحدة. فهل كان يملك هؤلاء القدرة اللازمة للوصول إلى أهدافهم؟ هل كان يمكنها الظهور بمظهر المقتدر على الدفاع عن مصالحها ومصالح أصدقائها؟ وإذا قلّصت حرب فيتنام قدرتنا عن الدفاع عن أمن الشعوب الحرّة، فإن ملايين الكائنات الحيّة ستكون في خطر.

ولسوء الحظ، وفي الوقت الذي كان فيه تقدمنا التكنولوجي، ترافقه جهود سياسية حكيمة وحقيقية، يؤديان إلى توازن استراتيجي وجدنا أنفسنا منشغلين بأعقد مشاكلنا الداخلية. وتمتع الاتحاد السوفيتي، طيلة فترة بعد الحرب، بأعظم تقدّم في مجال الأسلحة التقليدية. ومع ذلك فإن القدرات العسكرية السوفيتية، كانت تشكو من عائقين:

- مجال عملها كان مقيّداً نسبياً، لأنه كان محدداً بالمناطق المجاورة للاتحاد السوفيتي.
- والتفوّق الأمريكي في مجال الأسلحة الاستراتيجية النووية كان ساحقاً لم يكن باستطاعة الاتحاد السوفيتي، استغلال تقدمه المحليّ، خوفاً من أن يجد نفسه مجابهاً بتفوق الولايات المتحدة النووي. ولأجل هذا، فإن الاتحاد السوفيتي، ما خلا بعض انفجارات غضب شديد لم يستعمل قط أسلحته التقليدية ضد البلدان المتحالفة مع الولايات المتحدة. وزد على ذلك، فإن إحدى المفارقات الكبرى في عهدنا، أن الجيش الأحمر لم يتدخل منذ عام ١٩٤٥، إلاّ ضد حلفاء الاتحاد السوفيتي ذاته: (في برلين الشرقية عام ١٩٥٣، وفي المجر عام ١٩٥٦، وفي تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، وعلى الحدود الصينية عام ١٩٦٩).

في أواخر أعوام ١٩٦٠، كادت القوتان الاستراتيجيتان النوويتان لدى الفريقين تتوازيان، ومع أن هذه البيّنة كان عليها تعديل سياستنا الاستراتيجية فيما بعد الحرب تعديلاً أساسياً، للأسف ففي الوقت المحدّد، الذي كان علينا أن نركزّ جهودنا فيه، حول تعقّدات الحالة الجديدة، وجدنا أن برامجنا الدفاعية كانت موضوع انتقاد قاس. كانت لدى المتقدمين، مفرطة. وكانوا يعزون إلى إيجادها تهوّر القادة موجديها، ويجعلونهم مسؤولين عن الأزمات والنزاعات.

واقعاً أن التساوي في التسلّح أو التفوق البسيط، يحتم على الحكومة الجديدة الانغماس في مشكلة دون سابقة. إن استراتيجية الدفاع التي أعدّت في زمن تفوقنا، كان يجب إعادة النظر فيها، في ضوء الحقائق الجديدة. وأن نزاعاً نووياً، مهما بدا صغيراً، يتمكن من قتل عشرات الملايين من البشر في الولايات المتحدة وغيرها. وكان يجري الاستعداد للقوى المدمّرة إذاً. وبالرغم من أن قدرتنا القتالية كانت تفوق قدرة خصومنا، كنا ننفر من الالتجاء إلى حرب نووية، ليس لها سوى زيادة التدمير والخراب. وكان الشك أخذ بمراودة نفوس الأمريكيين، في إيصال العالم إلى نهايته عند عزمهم على الدفاع عن حلفائهم. فكانت الأسئلة التالية تطرح نفسها: كيف نستطيع ضمان استقلال وثقة البلدان المتحالفة المهدّدة من قبل أسلحة الاتحاد السوفيتي الأرضية. (الأخذة بالنمو أيضاً) ومخزن أسلحتها النووية المتكاثرة ؟ وأي استراتيجية يجب علينا اتخاذها لاستخدام أسلحتنا الذرية ؟ وإذا حرب نووية ـ حرارية إبادية أصبحت واقعة لا محال، فهل استخدام الأسلحة النووية يكون ممكناً ؟

❑ ❑ ❑

إن الإجابة على الأسئلة السابقة، صعبة جداً في ضوء أحسن الظروف. ولسوء الحظ، فإن نهاية الأعوام ١٩٦٠ وبداية أعوام ١٩٧٠، لم تكن لتتحمل إجراء تحليل دقيق وتقليدي للقضايا الاستراتيجية. إن الانفعالات العاصفة، ضد حرب فيتنام كانت تتحول إلى جدل حقيقي حول مجموعة التنظيم الدفاعي. وفي الحقيقة، لقد رأى بعضهم، في التهجم الحاصل ضد الموازنة المخصصة للدفاع، وسيلة لوضع حد ولو بالقوة للحرب الدائرة في جنوب أسيا الشرقية. "إعادة تحديد الأفضليات القومية" كان هذا شعار العهد، وكان ذلك تلميحاً في إنقاص حقيقي في موازنة الدفاع. والمثقفون، الذين سخروا من فكر ايزنهاور وطريقة حكمه، أخذوا يدركون حالياً، عظمة حكمة

نصائحه، عندما كان يحذّر أمريكا ضد كل نفوذ وسيطرة مفرطة من التعقيد العسكري ـ الصناعي، على الحياة الأمريكية. أن الأسلحة كانت تتحول إلى سبب لا إلى عرض لإحداث الضغوط، لأن الاعتقاد كان سائداً في أن برامجنا هي التي تثير ردود الفعل لدى السوفيت لا العكس. وعندما كانت الحكومة تؤكد أن تنمية السوفيت العسكرية، هي التي تفرض علينا مشكلة دفاع حقيقية، كان هذا ينقلب إلى سخرية واتهام بنشر دعاية للبنتاغون، التي كانت تعود كل عام إلى المسرح، لتقوية تنفيذ قرارات موازنة الكونغرس. وإذا استبقنا الحوادث بكل تعقّل، فإن هذا السباق في التسلّح الاستراتيجي، مختلف تماماً، عن كل تسلّح سابق، لأن كل فريق يخزن أسلحة كافية لتدمير كوكبنا عدة مرات. والتفكير الذي كان يسود في هذا العهد، أوضحه مؤتمر أقيم في شهر آذار من عام ١٩٦٩، في واشنطن، اشترك فيه فريق من عشرة أعضاء من مجلس الشيوخ ونحو أربعين ممثلاً، جمهورياً وديمقراطياً. تناول بالبحث موضوع "الموازنة العسكرية والأفضليات القومية" كما أن مثقفين لامعين، وعلماء، وموظفين قدامى في الحكومة، وأعضاء من مجلسي الكونغرس، شاركوا فيه. وقد خلص هذا المؤتمر إلى القول: "أن الولايات المتحدة، توشك أن تصبح مهووسة بقضية الأمن القومي". وفي شهر تموز، قدّم فريق من ثمانين عضواً من الكونغرس من كلا الحزبين، وكان هدفهم "السلام من خلال القانون". تقريراً، هاجم ستة أنظمة دفاعية هامة، وكان بينها مضادات القذائف الصاروخية. فاتخذت نيويورك تايمس من هذه المبادرة، دافعاً، يجعل من الجدل الدائر حول القذائف المضادة للصواريخ، حملة عامة، ضد الموازنة الحربية". ونشرت الصحافة إعلاناً ملء صفحة تحت عنوان تهكمي: "هديّة من الذين أرادوا موازنة قضية فيتنام، بمنهج مضادات الصواريخ". بعد أن اتهمت مسبقاً الاستعدادات المتخذة بشأنها. وخلص الجدل الدائر إلى القول، أن تخفيض الموازنة الحربية، يحمل الحكومة على تحديد التزاماتها في

الخارج. بالإضافة إلى أن ذلك سيعطينا فرصة للإفراج عن أموالنا في سبيل برامج تنمية قومية.

وهكذا إذاً، عندما أصبح التكافؤ النووي متحققاً تقريباً، توصلت الانتقادات إلى نتيجة مذهلة، وهي وجوب تخفيض قواتنا التقليدية، المجال الذي أصبح فيه تدنيّنا واضحاً. وكانوا يرون في نهاية حرب فيتنام ليس فقط، فرصة تنمية تسلّحنا المهمل منذ مدة طويلة، بل مناسبة لإنقاص موازنة الدفاع. وهذا التخفيض لا يمكن تحقيقه طبعاً إلاّ في حال نقص التهديد الخارجي، أو إذا كانت القوات التي نستخدمها زائدة فعلاً. وهذان البرهانان، تقدّم بهما بوضوح في كانون الثاني لعام ١٩٧٠، ثلاثة أساتذة من هارفارد:

"يصعب القول، إذا كانت القوات التقليدية، تشارك في إحباط النزاعات الهامة غير النووية، أو إذا كانت الإمكانيات لحصول هذه النزاعات كافية وتسبّب تعبئة القوى المنوّه بها. لم يبق لدينا اليوم سوى استراتيجية، احترافها يدعو إلى الأسوأ، للتمكن من تصديق غزو مفاجئ لشمال ألمانيا من قبل السوفيت، أو هجوم مباغت من قبل الجيش الأحمر ضد شاطئ البحر الأبيض المتوسط لحلف شمال الأطلسي، أو هجمة غير منتظرة من الصين الشيوعية في برمانيا أو تايلند. ومن الصعب القول كذلك، أي دور تستطيع القوات الأمريكية غير النووية القيام به، في أسباب النزاعات الدنيا التي توشك بالظهور".

ان هذا المقال لم يكن يطرح السؤال لمعرفة المستوى الذي تتوقف عليه أهمية القوى المقابلة ، في حال حدوث هجوم مفاجئ من قبل القوات التقليدية السوفيتية. بل كان يفترض وبكل بساطة أنه طالما لم يحدث اعتداء في الماضي، فلن يحدث في المستقبل، واننا نستخدم بالنتيجة قوى دون نفع.

إن منع وقوع الأحداث عرف وبصورة خاصة، أنه لا يمكن التأكيد عما وقى

البلاد من هجوم مفاجئ، هل كان ذلك بفضل تنظيمنا الدفاعي، أو لأن خصمنا نفسه لم تكن لديه نيّة الهجوم؟ وبشكل متناقض تماماً، بقدرما تملك قوة عسكرية أسباباً دفاعية، فبقدر ذلك تخلي بعض جوانبها لمن يريد تدميرها. وكان الأساتذة الثلاثة يؤكدون، ان تخفيض القوى التقليدية يسمح بانقاص الموازنة ثلاثين مليار دولار، وهذا يعني تخصيص الدفاع مبلغ سبعة عشر مليار دولار، وهو واقعاً أقل من البرنامج الذي يطالب به البنتاغون لما بعد حرب فيتنام. وأقل بعشرة مليارات، مما كان يرصده الرئيس نيكسون في أول موازنه تعدّها حكومته.

وفي شهر نيسان من عام ١٩٦٩، صرّح ميك مانسفيلد عضو مجلس الشيوخ ورئيس أغلبية أعضائه، أنه سيخوض حرباً ليحصل على تخفيض أقلّه خمسة مليارات من الدولارات من الأرصدة التي كانت تتمنى حكومة نيكسون تخصيصها للدفاع. وكانت تصل هذه الأرصدة إلى (٧٧،٦) مليار دولاراً، الرصيد الذي كان أقل من الموازنة التي كانت تقترحها الحكومة التي انتهت ولايتها. كان اهتمام مانسفيلد ينحصر في خمسة عشر برنامجاً مختلفاً. وكان ينتقد مثلاً، المشروع البحري، ويطلب تشكيل أسطول سفن للانتشار السريع: "والقبول به. كما ردّد مانسفيلد، وضع الإصبع في التدخل الذي نرمي وبكل تأكيد إلى اجتنابه". وفي شهر أيار، أوردت النيويورك تايمس "أن عدداً متزايداً من أعضاء الكونغرس، مدفوعين بمناهضة الروح العسكرية، التي أوجدتها حرب فيتنام، يسعون وراء وسيلة مجدية لتعطيل الزيادة المستديمة في النفقات الحربية" وهذه الحركة حول "إيقاف النفقات الحربية" كانت تضم فيما بينها أعضاء من الحزبين الجمهوري والديمقراطي.

❐ ❐ ❐

إن الحملة التي شُنّت عام ١٩٦٩، ضد مجموعة القذائف المضادة، والصواريخ

الموجهة، انقلبت وبصورة عاجلة إلى تهجم ضد موازنة الدفاع بكاملها. ففي الثاني من شهر شباط ١٩٧٠، تقدم نيكسون بمشروع أولي للموازنة العامة. وحاول إزالة حقد المعارضة، متكلماً ببلاغة، مبيّناً ضرورة استعادة التفوق القومي. وفي خطابه عن حالة الأمة، كان يقترح في بيان موازنته، بوجوب زيادة الأرصدة المخصصة لمساعدة العائلات، ومحاربة التلوث، وتحسين وسائل النقل. وكان مشروع موازنته يقدر بمبلغ ٧٣،٥ مليار دولار، وهو أدنى بخمسة مليارات دولار، عما كان مخصصاً في العام السابق. وفي الواقع، أنها المرة الأولى، منذ خمسة وعشرين عاماً، يقترح فيها رئيس بتخصيص أرصدة للدفاع، أقل مما هي عليه في الضرورات الحياتية ومن خلال الموازنة العامة، هناك سبعة وثلاثون في المائة، للقوات المسلحة، وواحد وأربعون في المائة للبرامج الاجتماعية (وفي موازنة السنة السابقة، التي أقرها الرئيس جونسون، كان قد تم تخصيص أربعة وأربعون في المائة للدفاع، وأربعة وثلاثون في المائة للبرامج الاجتماعية). ولقد أكد ريتشارد نيكسون أخيراً على استعادة التفوق في الولايات المتحدة، هذا التفوق الذي كان ينادي به بعنف مناوؤه منذ سنوات.

وفي الرابع عشر من شهر كانون الثاني من عام ١٩٧٠، أطلعت جون أهرليخمان على تحفظاتي حول هذا الموضوع، بصفته مسؤولاً عن البرامج القوميّة، وكان بدوره يدافع طبعاً عن التفوق والأولويّات القوميّة قائلاً: كل العالم يعرف أن الدفاع رصد حتى الآن أموالاً طائلة وتصرف بها، فأجبته، وعلى ماذا صُرِفت هذه الأموال؟ دون علم منّي إلى أي مدى يكون معي حقّ في هذا التساؤل - طالما أن ليس هناك من يعرف كيفيّة صرفه، لا سيّما في عام ١٩٧٣، عندما تفجّر الوضع في الشرق الأوسط. وبعد مضي وقت قليل من اليوم نفسه، وبالرغم من أن هلدمان أكد لي أن الرئيس كان متعباً من كل العقبات التي اعترضته بخصوص الموازنة، فقد ذهبت إليه ونقلت له ما

كنت أفكر به وقلت له: "إذا كنت ترى أن من الواجب معالجة هذه الحالة المستعجلة، فربما اعترضتك خلال عامين أو أكثر مشكلة خطيرة تمنع من تجهيز القوى اللازمة.

كان نيكسون يفهم وجهة نظري، لكنه كان يقدّر في الوقت ذاته، أنه إذا لم يقترح هو بنفسه ويوصي بالتخفيضات في أرصدة الموازنة، فإن المعارضة ستتكلف بعمل ذلك، وتدمّر البرامج العسكريّة بكاملها. كان له الحق بالقلق، لأن الإجراءات التي اتخذها لم تكمم أفواه المعارضة، التي كانت لا تعترف بها بحجة أنها غير كافية. وقواتنا المتفق عليها كانت بتزايد ولا تتعارض مع الالتزامات المخفّضة التي فرضها المبدأ الذي اتخذه الرئيس في غام "Guam"، ومن جهة كان بالإمكان أيضاً إنقاص موازنة قدراتنا الاستراتيجية، دون أن تتعرّض لفقد قوتها الرّادعة. إن موازنة عام ١٩٧١، كانت تأخذ بالحسبان برامج ذات أمد طويل، لا فائدة منها سوى تضخيم الموازنات القادمة، حاملات طائرات، قوى تعبئة جوية، وأسلحة استراتيجية جديدة مدمّرة وفتّاكة.

وفي السابع عشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٧٠، كانت النيويورك تايمس تشكو الموازنة الجديدة المخصصة للدفاع التي اقترحها نيكسون، والتي تكتفي فقط بانقاص المخصصات التي تسمح بأجراء عمليات في فيتنام، ولم تقدم اي تغير في الاستراتيجية الأساسية، أو خطط استعادة تفوقنا وأفضلياتنا. وفي الثامن عشر من شهر كانون الثاني، كتب جيمس رستون: ان موازنة الدفاع، كان يمكن رفع سقفها وبدون خطر إلى ما بين ثمانية وخمسين وثلاثة وستين مليار دولار، مستنداً بذلك إلى تصريحات ماك نمارا وزير الدفاع السابق، ومعاونه روزوويل غيلبا تريسك. وفي السابع والعشرين من شهر كانون الثاني ، كان ا. أرنست فيتزجيرالد، المحلّل القديم لسلاح الجو، الذي سُرّح على أثر إعتراضه على قرار صرف أموال إضافية لتصنيع

C5A وهو في الوقت نفسه الناطق بلسان الأحزاب المناهضة للروح العسكرية، قد صرّح: ان بالامكان انقاص موازنة الدفاع عشرين ملياراً من الدولارات، خمسة منها مخصّصة لتصنيع وتنمية التسلّح. ويومان بعد ذلك، كانت النيويورك تايمس تنشر في صفحتها الأولى ما يلي: من الممكن اقتطاع اكثر من ثمانية مليارات من الدولارات، إثنان منها باتخاذ قرار حول مجموعتي، القذائف المضادة والصواريخ الموجهة، ومليار ونصف بتعجيل الانسحاب من فيتنام، وأكثر من اربعة مليارات بتخفيض القوّات.

كان الكونغرس يشارك في وجهة النظر الأخيرة. وفي شهر شباط، وبمناسبة عقد اجتماع لجنة لدراسة الأفضليّة والتفوق القومي في المجلس الديمقراطي، إتهم يوبرت هامفري الرئيس نيكسون لتخصيصه مليارات الدولارات لأهداف عسكرية،على حساب خسارة الاحتياجات التعليمية والصحية. وخلال عقد الاجتماع، اقترح عضو مجلس الشيوخ ادوار كيندي زيادة التخفيضات مع مجالات آخرى، مثل برنامج تصنيع وإنشاء قاذفات قنابل (B1) ومجموعة القذائف المضادة "Sauvegarde" والقوى التقليدية الأمريكية المتركزة في أوروبا.

«لن نعود إلى إرتكاب أخطاء الأعوام ١٩٥٠ و١٩٦٠، اذ كناً نتصّف بخشية مفرطة من حدوث حرب باردة، والتي أثرناها بإسراعنا نحو سباق التسلّح...

ولما كانت موازنتنا الاتحادية، مجزّأة اجبارياً إلى عدّة مجالات، يجب الاّ تفلت أية نفقة عسكرية دون تدقيقها.... وأعتقد اني بيّنت فيما سلف، أن الموازنة التي يتمنّى الرئيس تخصيصها لا تزال تتمتّع بأهميتها، ويمكن اجراء تخفيضات، دون خوف أوخطر على الأمن القومي».

وفي الثاني من شهر أيار، أعلن فريق من أثني عشر عضواً من مجلس الشيوخ ومن كلا الحزبين، مشروعاً صارماً لإعادة النظر في مشروع موازنة الدفاع، بنيّة اعادة تنظيم الأفضليات المتعلّقة بين الاحتياجات العسكريّة والقومية، مؤكدين ان تدقيقاً كهذا، يؤدي بنا إلى تخفيض عام في النفقات، وإلى أمن حقيقي كبير للولايات المتحدة. وفي آخر شهر حزيران، قدّم فريق من النواب وأعضاء مجلس الشيوخ الليبراليين تقريراً غير رسمي، يطالبون فيه بتخفيضات إضافية بحدود اربعة مليارات وخمسة وستين مليون دولار لتنفيذ برنامج تجارب وإقامة الصواريخ الموجّهة، وانشاء الطائرة المطاردة (F-14) وقاذفة القنابل (F111) وعلى مجموعة مضادات القذائف "Sauvegarde".

وأخيراً، عندما جاء دور التصويت النهائي على موازنة الدفاع، في شهر كانون الأول من عام ١٩٧٠، كان الكونغرس عازماً على تخفيضها بمقدار مليارين ومليون دولاراً، في حال أن الرئيس نيكسون كان قد خفّضها بمبلغ خمسة مليارات من الدولارات، فأصبح مجموع التخفيض أكثر من سبعة مليارات بالنسبة للسنة السابعة. وفي الوقت ذاته، فإن كل هذا لم يكن يعطي سوى فكرة بسيطة عن مناهضة الروح العسكرية التي كانت تعم الولايات المتحدة، ومعارضة نفقات التسلّح، والصراع الشديد الذي يسببّه حتماً كل برنامج عسكري جديد، والشكوك التي كانت تهيمن على جميع أجواء دفاعنا وأمننا، على المدى الطويل وحتى نهاية أعوام ١٩٦٠.

❒ ❒ ❒

في غمرة هذا الاضطراب، عزمت أنا وفريق معاونيّ، استناداً إلى تأييد تام، من قبل الرئيس، على إعادة النظر في العقيدة العسكرية. وكانت غايتنا، جعل أنفسنا قادرين على

التصميم والدفاع عن أهدافنا العسكرية، ضمن مبادئ معقولة، وتعديل استراتيجيتنا بموجب حقائق جديدة، ومحاولة تخليص النزاع العام من كل ردّ فعل حسّاس.

وكان أول أهدافنا تحديد استراتيجيتنا حال اندلاع حرب نووية عامة، بموجب مبدأ "التدمير الحقيقي" الذي كانت اتخذته الحكومة السابقة وبهذا نردع السوفيت عن الهجوم، محتفظين بقدرات هجومية، قادرة على الحصول على نسبة مئوية من الإفناء البشري والتدمير الصناعي. إن الاستراتيجية لم تكن تهدف إلى تدمير صواريخ أو قاذفات قنابل العدو، وهدف كهذا كان يربط بنية قدرتنا العسكرية بدرجة تنمية القدرة المعادية. وهذا ما كان يريد أنصار "التدمير الحقيقي" تجنبه. إذ أنهم كانوا يفضّلون في الواقع تأكيداً ظاهرياً يحصل من مبدأ تكافؤ مهدّم يحدّد اقتصادياً (وتحديد مثل هذا البرنامج يعود بعد كل شيء إلى التقنية الاقتصادية) التي كانت تعتقنا من إلزامية مجابهة القوّة السوفيتية المتزايدة. وفي الحقيقة، فإن عدد الأسلحة النووية المطلوبة للوصول إلى ذاك التدمير العظيم، كان ثابتاً وقليل الأهمية.

وبكل استغراب فان مبدأ «التدمير الحقيقي» الذي اتخذه شعاراً الأنصار الليبراليون لتحديد التسلّح، ولأسباب تدعو إلى خير البشرية، كانت هذه الأسباب تفرض إستراتيجية حربيّة بعيدة عن الإنسانيّة. والبرهان على ذلك هو التالي: بقدر ما تكون نتائج الحرب مخيفة، فبقدر ذلك نبتعد عن محاولة الالتجاء إليها، وبقد ما ستكون قابلة للسيطرة عليها، فبقدر ذلك يكون الخوف من إندلاعها. وبالنتيجة، يكون من الأفضل للولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي، أن يقوما بتهديد شعوبهما أفضل من تقوية مراكز إطلاق صواريخهما . وإذا أصبح الإفناء المتبادل أمراً لا مفرّ منه، فلا أعتقد أن أحد الفريقين يجزم على استعمال الأسلحة النوويّة وسيكشف المستقبل عمّا يحدث من خطأ في التقدير. ولم يُطرح بعد السؤال عن كيفيّة تمكننا من الدفاع عن حلفائنا في مثل هذه الظروف.

لم يكن من الجائز اجراء تهديد متبادل بالتدمير، لغايات ردعيّة ولا سيما في حالة تهديد مباشر لبقاء أمّة. ولم يعرف أي رئيس ان يجعل تهديده قابلاً للتصديق إلاّ باتباعه دبلوماسيّة تتطلب حالة عامّة، مخالفة للمنطق. وهذا كان في المقابل ناتجاً عن منهجنا السياسي، الذي كان يتطّلب منا ان نظهر للعالم صورة اعتدال وحكمة هادفة. اذا لم ينجح الردع، ووجد الرئيس نفسه مجبراً على الإقتصاص، فمن يتحّمل حينذاك المسؤولية الاخلاقية من استخدام إستراتيجية تتركّز على الإفناء الجماعي للبشرية؟؟ وكيف تتمكن الولايات المتحدة من المحافظة على تماسك حلفائها في حين أن تصديق إستراتيجيتها كان يتداعى. وكيف نتمكن من مجابهة القوات الروسيّة، إذا كان هؤلاء (أي الروس) يعتقدون أننا نؤسس إستراتيجيتنا على إفناء البشرية.

وبعد أن خطونا خطوة إلى الأمام، فإن استراتيجية "التدمير الحقيقي" كانت تصل بنا إلى النتيجة الغريبة التالية: لقد أصبح لدينا إفناء شعبنا ورقة رابحة. وفي الحقيقة، فإن ذلك سيطمئن الاتحاد السوفيتي ويضمن له بالتالي احتياطه في حالة الخطر. وهكذا ولأول مرّة في التاريخ، كانت بلاد كبيرة ترى مغنماً لها، عدم اهتمامها في إفناء شعبها!! و"التدمير الحقيقي" هو إحدى النظريات المؤثّرة، عند طرحها في أحد الصفوف الجامعية، ويجب عدم استعمالها من قبل مسؤول سياسي يجابه الحقيقة وفيما لو طبّقت هذه النظريات، لأوصلتنا إلى كارثة.

كان لديّ موضوع آخر يقلقني، أن تقوم قوات الولايات المتحدة الاستراتيجية وكذلك قوات الاتحاد السوفيتي، بنزع أسلحتها إلى أن تصبح متساوية، ويمكن حينئذ استخدامها فقط في هجوم جزئي. ولقد بيّنت للرئيس، في شهر حزيران من عام ١٩٦٩، المعضلة التي تفرض نفسها عليه، في حال بدء السوفيت بهجوم نووي محدود، وكنت أحثّه على الحصول من البنتاغون، على استراتيجية تسمح بمواجهة ظروف أخرى غير

تحدٍّ نووي عام. وافقني الرئيس حالاً على رأيي، وأصدر أوامره حول هذا الموضوع. لكن جهازنا العسكري كان على استعداد لمعارضة كل تعديل في المبدأ الاستراتيجي، وحتّى إذا صدر ذلك عن البيت الأبيض، الذي يسعى دوماً لإظهار نفسه مفيداً.

وعندما تسلمت وظيفتي، أسر لي وزير الدفاع روبيرت ماك نمارا، أنه قد حاول طيلة سبع سنوات، ان يقدم للرئيس مجالاً أوسع للخيار، ورفض ذلك نهائياً، أمام معارضة الإدارة، وعزم منذ ئذ على ارتجال الأمور. وكنت أنا مصمّماً أن يكون عملي أفضل، لكني لم أنجح في ذلك إلاّ جزئياً.

إن مخطّطي الدفاع المدنيين كانوا متردّدين، لأن تغيير سياستنا الإستراتيجية، كان يعني خلق قوى جديدة، الأمر الذي يزيد في تعقيد قرارات الموازنة. وكان رؤساء القوات المسلّحة متردّدين أيضاً، لأنهم كانوا يفضلون تأمين تقدّم تنمية لأسلحتهم الخاصّة بالمساومة بين بعضهم، أفضل من إخضاع ذلك للمحلّلين المدنيّين، الذين دلّت التجربة أنهم يجعلون الأسلحة ضعيفة بدلاً من تقويتها. مع الأخذ بعين الاعتبار أن أعمالنا الحربية، تخطّطها سلطات غير تابعة للأقسام العسكرية، وإن مختلف رؤساء الأركان العامّة هم كذلك مدراء مؤسّسات لتصنيع الأسلحة، اكثر ممّا هم مدراء مؤسسات لتطبيق إستراتيجية. لذا فإنهم يرتابون كثيراً من كل مبدأ قابل للتدخل ولو بعد حين في القرارات التي يكونون قد اتخذوها في مجال تصنيع الأسلحة. ولأجل هذا فقد صدر عن الرئيس توجيه عام ١٩٦٩، يطلب فيه تحقيقاً عن وجود برامج بحريّة. ولم يصله اي جواب مقنع، خلال ثماني سنوات من وظيفتي في واشنطن، وفي الحقيقة فإن ردود الفعل تجاه ذلك كانت بعيدة عن التمرّد، لكنها مع ذلك كانت بعيدة عن الواقع. وبالرغم من التذكير نصف السنوي، فإن المعلومات الواردة ضمن السجّلات كانت دوماً ناقصة، عندما تخلّينا عن الوظيفة. كان الوضع نفسه موجوداً لدى كل الأقسام الحربيّة.

ومع ذلك تحقّق بعض التقدّم، عندما استعملنا إستراتيجيّة أكثر تغيّراً، تجاه حرب شاملة محتملة الوقوع، وكان بعض الفضل في ذلك يعود إلى الضغوط القويّة التي مارسها البيت الأبيض وشارك هذه المرّة رؤساء الأركان العامّة، لأنهم كانوا يعتقدون أن مبدأ «التدمير الحقيقي» سيدعو بالضرورة إلى اتخاذ قرارات سياسيّة، ستوقف أو تهمل تنمية قدراتنا الإستراتيجية، وتنتهي إلى تخفيضها. وفي عام ١٩٦٩ اتخذنا مبادئ جديدة حول «الإكتفاء الإستراتيجي». وكانت أهدافنا الإستراتيجية لا تتجهُ فقط نحو إفناء الشعب البشري، بل إلى أهداف عسكريّة. وحدّدت هذه المبادئ إطاراً يناسب كثيراً لتخطيط عام وتخفيض لقواتنا. وسمحت لنا بمعارضة تقييدات الكونغرس القاسية بدلاً من أن تكوّن وضع محدود للدفاع، وأعطتنا على الأقل القدرة النظرية لاستخدام قواتنا لأهداف غير إفناء الشعوب الجماعي.

أن طرح هذه التجديدات من مجال المبادئ ونقلها إلى المجال العملي، ظهر مع ذلك كثير التعقيد.

بوشر بتخطيط ذلك حالاً، ولم يتحقق شيء قبل استلام جيمس ر. شليسنجر وظيفته كوزير للدفاع (١٩٧٣ ـ ١٩٧٥) وفي هذا الظرف بالذات اقتُرِحَت أهداف جديدة. ولسوء الحظ، عندما أعلنت نهائياً بوضوح، ألغاها التقدم التقني.

وهكذا فإن الخسائر بالأرواح البشرية، التي كنا نخشى أن تسببها حرب نووية قد تضاعفت حتى في الحالة الدنيا من استخدام أسلحة نووية. غير أن هارولد براون، وزير الدفاع، تابع هذه الجهود، حتى في ظل حكومة كارتر. والنجاح في إعداد إستراتيجية نووية أكثر تنويعاً، والإبقاء على بعض الأمل في نجاة بعض آثار المدنية.

هذا ما بقي اليوم كإحدى المهمّات صعبة التحقيق والتي تتطلب تغييراً كلياً في جهازنا العسكري. وفي حال عدم وصولنا إلى حلّ هذه المشكلة، ستنتهي في يوم أو آخر، إلى إحداث شلل في إستراتيجيتنا وسياستنا الخارجية.

□ □ □

طالما أن المشكلة النووية، لم تجد طريقة لحلها، وربما لن تجد سبيلاً إليها، توصلنا عام ١٩٦٧، إلى تكيف حقيقي في فكرتنا الاستراتيجية ظهرت نتائجه سريعاً في سياستنا الخارجية.

عندما استلمت حكومة نيكسون زمام الحكم، كانت الفكرة المسيطرة على القوى التقليدية، هي استراتيجية (حربين ونصف)، والتي بموجبها كانت الولايات المتحدة بحاجة لقوات كافية كالتالي:

١ـ تأمين دفاع مبدئي لمدة تسعين يوماً عن أوروبا الغربية ضد هجوم سوفيتي.

٢ـ تأمين دفاع مستمر ضد هجوم عام من قبل الصين في آسيا الجنوبية الشرقية أو في كوريا.

٣ـ مواجهة أي حدث يطرأ في موضع آخر، في الشرق الأوسط مثلاً.

وتقوم هذه الاستراتيجية واقعاً على ما كانت تخفيه الأحداث السياسية، علماً أننا كنا نجد أنفسنا أمام شيوعية متراصة، وحرب عامة، يمكن ترجمتها بهجوم مفاجئ من قبل الاتحاد السوفيتي والصين ضد مصالحنا الحيوية. وفي الحقيقة، أننا لم نحاول أبداً تحديد القوى التقليدية التي كانت تستلزمها هذه الاستراتيجية الجديدة. أن سياسة (حربين ونصف)، كانت في الواقع، في المجال العسكري، قضية تدريب، خصصت بموجبه بعض فرق لأوروبا والبعض الآخر لآسيا. ومع ذلك كانت

نتيجتها الرئيسية تنظيماً بسيكولوجياً .لا يسمح لنا بتناسي التهديدات السوفيتية والصينية بنوع معقّد جداً، يجعلنا مع أي تحليل لاستخدام محتمل للأسلحة النووية، نعتقد أن الاتحاد السوفيتي والصين لا يشكلان سوى هدف أرضي وحيد. وسياسياً، هذا ما كان يمنعنا من جهتنا، أن نعتقد بتلك الاختلافات التي تظهر بين حين وآخر بين الشيوعيين العملاقين، والفرص التي تبدو ممكنة لدى الولايات المتحدة.

إن أولى الأمور التي قمت بها، عندما كنت أقوم بعمل مستشار أمن، كانت إجراء تحليل للنظريات التي كانت ترتكز عليها فكرة قبول حربين ونصف. فتقدمت لجنة وزارية بخمس استراتيجيات عمل، أنقصتها أنا ومعاونيّ إلى ثلاث. وكل إستراتيجية بديلة، كانت تحلّل من خلال الظروف والملابسات التي تسمح لنا بمواجهتها، وفي ضوء إمكانية تطبيق موازنتها. وكانت استراتيجيات حلف شمال الأطلسي، تتضاعف، حسب التنظيمات المختلفة، لاستراتيجيات آسيا. ثم تنسق هذه التنظيمات مع مشاريع النفقات القومية، والنظريات الاستراتيجية المقترحة هي:

■ النظرية الاستراتيجية الأولى:

الحفاظ على قوى تقليدية في سبيل دفاع مبدئي، (٩٠ تسعين يوماً) عن أوروبا الغربية، ضد هجوم سوفيتي كبير، وفي آن واحد، لمساعدة (بعون منطقي وبقوات قتال أمريكية محدودة) كل بلد متحالف في آسيا، ضد تهديد غزو صيني آخر واسع المدى.

■ النظرية الاستراتيجية الثانية:

الحفاظ على قوى ذات كفاءة، سواء لدفاع مبدئي عن حلف شمال الأطلسي، أو للدفاع ضد هجوم عام من الصين في كوريا أو جنوب شرقي آسيا. وبكلام آخر لن نحتفظ بقوات تتمكن من القتال على مستوى عالٍ في أوروبا وآسيا دفعة واحدة.

■ النظرية الاستراتيجية الثالثة:

الحفاظ على قوى أمريكية، لدفاع مبدئي عن حلف شمال الأطلسي، أضف إليها دفاعاً عن كوريا وجنوب شرق آسيا، ضد هجوم عام من قبل الصين. وكان على هذه القوى أن تكون ذات كفاءة، لمواجهة التهديد الخطير الناجم عن أعضاء حلف وارسو، أو الصين في آن واحد.

وفي الثاني من شهر تشرين الأول، وجّهت كتاباً للرئيس، اختصر له فيه هذه الخيارات مع إمكانيات تطبيقها في الموازنة. وكان للأجهزة الوزارية، وجهات نظر مختلفة، أوردتها فيه أيضاً بدقة. لكن الرئيس، كان يرغب كعادته في معرفة رأيي، عندما تُعرض عليه خيارات عدّة. فأكدت عليه أن يتبع الاستراتيجية الثانية "إذ انني كنت اعتقد بُعد احتمال هجوم تقليدي من حلف وارسو في أوروبا والصين في آسيا في آن واحد. وعلى كل الأحوال، لم أكن أفكر أن هجوماً كهذا إذا حصل، تمكن مقابلته بأسلحة أرضية".

اتبع الرئيس نيكسون نصيحتي، وهذا كان أعظم قرار اتخذه طيلة مدّة ولايته. إن الفكرة والكفاءة كانتا متماثلتين أولاً، ولأننا لم نحدّد ونقدّر أبداً، القوات التي كان يفرضها مبدأ حربين ونصف، والفارق الذي كان موجوداً بين هذه الفكرة وسياستنا الحقيقية، ليس له سوى زرع بذور الارتباك في نفوس المهاجمين، وجرّ أخطار عظيمة إذا حاولنا تطبيقه فعلاً. ولا شيء كان يحملنا على التصديق في أن الصين والسوفيت يقدمان على مهاجمتنا في آن واحد، ولكن إذا تحقّق ذلك واقعياً، يجب علينا حينذاك مواجهة خطر تهديد التوازن العالمي. أضف إلى ذلك، فإننا ضمن ظروف كهذه، سنحدّد موقفنا وعملنا في خوض غمار حرب تقليدية في منطقتين متباعدتين جداً، الواحدة عن الأخرى، مما يضاعف خسائرنا.

إن تطبيقات قرار نيكسون السياسية أكثر أهمية. كان علينا، في الواقع، أن

نتخلص من فكرة ثابتة نحو شيوعية متراصة. وعند جمعنا للأهداف السوفيتية والصينية، نوجد مفترضات تحدّد مرونة سياستنا، ولا تتفق مع فكرة العداء والتنافس الكائنين بين القوتين الشيوعيتين الكبيرتين. وفي تعديلنا لاتجاه استراتيجيتنا، سنظهر لجمهورية الصين الشعبية، إننا نميّز بين أهدافها وأهداف الاتحاد السوفيتي، وأن سياستنا العسكرية لا تعتبر أبداً أن الصين هي بمثابة تهديد رئيسي لنا. لم تظهر بكين أبداً، مهتمة لهذا التغيير في مبدئنا، وغير معقول أن أخصآئييها المهرة في الجغرافيا السياسية، لم ينتبهوا لهذا، وهم الذين يحللون وبدقة، اقل التصريحات العامة الصادرة عن الولايات المتحدة. وليس علينا أيضاً الاكتفاء بالإعلان عن هذا الاتجاه الجديد في إعداد سياستنا العسكرية تجاه حرب نووية وتقليدية في آن واحد. ولتبديد جميع الشكوك من أفكارنا، قمنا بمبادرة غريبة، فوضحنا جميع أفكارنا في الثامن عشر من شهر شباط ١٩٧٠ في أول تقرير حول السياسة الخارجية، أصدره الرئيس للكونغرس. وها هي الجمل التي افتتح بها هذا التقرير:

"من خلال جهودنا للتنسيق بين المبدأ والكفاءة، اخترنا ما يمكن تسميته بل وصفه باستراتيجية "حربين ونصف" بما معناه، أننا سنحتفظ في أيام السلم، بقوات ذات هدف عام قادرة في آن واحد، على مواجهة هجوم شيوعي هام، سواء في أوروبا أو آسيا. ومساعدة حلفائنا في حال تهديد غير صيني في آسيا، والتفوق مع الاستعداد لكل خطر محتمل الوقوع في العالم.

إن هذه السياسة قد اختيرت على أساس الاعتبارات التالية:

- قدرة قواتنا النووية الاستراتيجية والتعبوية على ردع السوفيت عن القيام بهجوم واسع المدى ضد البلاد الأوروبية لحلف شمال الأطلسي، وردع الصين عن مهاجمة حلفائنا في آسيا.

ـ إن هجوماً منسقاً في الصين وروسيا، تقومان به على جبهتين ضد حلفائنا، بعيد الاحتمال، بسبب أخطار حرب نووية، وبسبب لا احتمالية تعاون صيني ـ سوفيتي ......".

أضف إلى ذلك، فإن أوروبا الغربية ـ وليس آسيا ـ حُدّدت هدفاً ممكناً لهجوم محتمل. وبالاختصار، فقد كنا قلقين بزيادة من خطر سوفيتي، أكثر من خطر صيني.

وحول ذلك، كنا أرسلنا للصين إعلاناً هاماً: من الآن وصاعداً لن نشرك تلقائياً جمهورية الصين الشعبية في نزاع ما مع الاتحاد السوفيتي. سنعامل خصومنا، بنتيجة أعمالهم ضدنا، وليس بحسب أيديولوجياتهم. أننا نعرف علناً الاختلافات الكائنة، وعدم إمكانية التنسيق بينهم. وقد مددنا يد المساعدة للصين.



حددت الإستراتيجية الجديدة القوات الواجب إعدادها، وخلافاً لما كان يجري في أعوام ١٩٦٠، فقد وصلنا إلى المستوى المطلوب من حيث تنمية قواتنا، وبقي علينا مع ذلك أن نوفق بين رغباتنا ومصالح حلفائنا وأصدقائنا، لا سيما في آسيا. وعلى عكس آراء بعض من ينتقدونا، فإن الدول المهددة، كانت تعتبر إنسحابنا من فيتنام حدثاً لا عكسيّة له، وتخشى في الوقت ذاته ألاّ يصل الأمر بالولايات المتحدة أن تتخلى عن كل مسؤولياتها ومصالحها في هذا القسم من العالم.

وكانت دول غير متحالفة معنا، تتساءل عن كيفية إتخاذنا للإجراءات الأمنية المستقبلية في المحيط الهادي، وهل ستتخذ ضمن حدود شرعية دقيقة لا علاقة لها إلا بالدول التي لنا معها إلتزامات؟، وماذا سيحدث للدول ذات الإستراتيجية الهامة مثل أندونيسيا والهند؟، وتلك الدول التي كنا مرتبطين وإياها بإلتزامات كانت تتساءل

أيضاً عن كيفية ترجمة هذا الإلتزامات إلى أفعال. وبالرغم من التهجم علينا حول الإرتباطات الأمريكية، ومحاولة إرغامنا على تخفيض إلتزاماتنا حتى مع حلف شمال الأطلسي، فإن كل هذه الأمور كانت بعيدة كل البعد عن أفكارنا، بل تافهة وغير مرغوب فيها. ولو أبدت الولايات المتحدة رغبتها في التخلي عن القيام بدورها في آسيا، فستحدث طبعاً تغيرات سياسية، حتى في التطور القومي للدول الرئيسية في هذه المنطقة ومن جهة أخرى، لا يظهر مجدياً تحديد سياسة دفاع جماعي، لا تتمتع بموافقة قومية.

عندما بدأنا بإتخاذ الإستعدادات اللازمة لسفر نيكسون إلى آسيا صيف عام ١٩٦٩، أخذت في مناقشة الرئيس حول هذه المشكلة ولقد توصلنا إلى النتيجة التالية: من الهام جداً أن نميز بين أسباب ثلاثة تعرّض أمننا للخطر، الاضطراب الداخلي، الهجوم الخارجي من قبل بلد آسيوي مجاور، وعدوان بقوة نووية (من قبل الإتحاد السوفيتي أو جمهورية الصين الشعبية). وفي حال تعرّضنا لتهديد خطير لأمننا، علينا أن نؤكد معارضتنا التي لا تتغير، للأهداف العدوانية، من قبل أكبر قوة في آسيا. وعند تعرّض أمننا لتهديد أدنى، علينا إجتناب أي إلتزام في حروب أهلية. وبخصوص الدول غير المحددة بين الإثنين، فإن صيغة بسيطة من الإجراءات لا تكفيها. وإتجهت نيتنا إلى إعداد خطاب رئاسي، في فترة أو أخرى من هذا الصيف لمعالجة هذه المشاكل. وفي الثالث عشر من تموز، وعندما جرى إجتماع في البيت الأبيض لإستقاء المعلومات، رسمت الخطوط العريضة لموقف الحكومة حيال آسيا وما بعد حرب فيتنام.

«إن تحديد طبيعة الإلتزامات في الولايات المتحدة، يؤدي غالباً إلى مناقشة إلتزامات شرعية. ولكن على مستوى أعمق، أي على المستوى الذي يتعلق بالرئيس مباشرة، فإذا كانت العلاقات بين الولايات المتحدة والدول الأخرى، يتوقف على

العلاقات الشرعية، فإنها مع ذلك أكثر إرتباطاً بما تضمره الولايات المتحدة من قيامها بدورها في العالم، ومن أهمية الدول المرتبطة بها عندما يقصد تأمين الأمن والتقدم للجميع.

وأكّدت على وجوب إجراء دراسة، لمعرفة كيفية مواجهة هذه البلاد لمستقبلها الخاص بها. وفي الحقيقة كان واضحاً أن مستقبل آسيا، والجنوب الشرقي منها، حيث نحن عازمون على الذهاب، يجب أن يتوقف مستقبلها ، لا على الإرشادات التي تُمليها واشنطن لكن على نشاط وحيوية وروح التعاون بين بلدان هذه المنطقة.

سنبقى على إستعداد لتقديم عوننا، لكننا لا نستطيع إيجاد جميع الأفكار وجميع الموارد. وعلى هذه المنطقة أن تظهر جهداً أكثر لتقديم مبادرة ما. ولهذا السبب، يتضح من الأهمية بمكان تحديد الطريقة التي نرى مستقبلها من خلالها».

وفي الخامس والعشرين من شهر تموز، كانت مفاجأتي كبيرة، عندما ناقش نيكسون هذه المشاكل، خلال ماكنت أتوقعها محادثات لا رابط بينها مع الصحافة، وفي مؤتمر للضباط في غام، خلال سفرنا إلى الفيليبيّن، وكان ذلك بعد يوم طويل من السفر، أمتد لمدة ساعات، كما اجتزنا عدّة مناطق زمنية، ومررنا على جزيرة جونستون لمشاهدة هبوط أول رجال مشوا على القمر. وصرّح نيكسون في هذه المناسبة، «اننا شاهدنا أغرب إسبوع في التاريخ منذ خلق العالم». تصريح أذهل دليل الفريق. واليوم أيضاً، اعتقد أن نيكسون لا ينوي الادلاء بتصريح سياسي هام. كان يريد فقط تغذية الفقرة الواردة بعد تغيير التاريخ بأخبار. واذا كان نيكسون لم يفكر بالادلاء بتصريح رسمي، فقد ظهر ذلك في الواقع، عندما ناقش القضية في سياق مؤتمر صحفي رسمي. لكن نيكسون وقد تحمس من تأثر جوّ المؤتمر، أعلن بدقّة وبلاغة، عن إهتمامه وطريقة معالجته للقضية الأسيوية. وحسب وجهة نظره، فإن ما

كان يمثل خطراً عسكرياً عاماً في آسيا هو : بلد كبير (الصين الشيوعية)، ودول نسبياً صغيرة، (كوريا الشمالية وفيتنام الشمالية). وصرّح مع ذلك قائلاً: يجب علينا ألاّ نتبنى نوعا من السياسة، يجعل الدول الآسيوية مرتبطة بنا، حتى لا نجد أنفسنا مجبرين على الدخول في نزاعات تشبة نزاع فيتنام. وكما كان منتظراً فإن مراسلي الصحف وجهوا إليه إستفسارات فأجاب:

«أعتقد أن الساعة قد أزفت بالنسبة للولايات المتحدة، في مجال إرتباطاتها مع كافة أصدقائها في آسيا، أن توضح رأيها في نقطتين: سنحترم أولاً جميع إلتزاماتنا، التي إرتبطنا معها بمعاهدات، كتايلند، ضمن الحلف الآسيوي، ولكن أيضاً في الحدود التي يقصد بها مشاكل الأمن الداخلي، أو مشاكل دفاع عسكري وفي كل مرة باستثناء تهديد تقوم به قوة كبيرة، ويتطلب إستخدام أسلحة نووية. وإن الولايات المتحدة تشجع شعوب أسيا، وتعطي نفسها الحق أن تنتظر منها تسوية مشاكلها، أكثر فأكثر بنفسها وتتحمل مسؤوليتها».

أضف إلى ذلك، فإن هناك ما لا يسمح لنا بإتخاذ إجراءات في حال عدوان لا تقوم به قوة نووية، أو حركات إنقلاب داخلية. واقترح نيكسون بتحميل مسؤولية ذلك لتنظيم أمن جماعي آسيوي يتواجد خلال الخمس أو العشر سنوات القادمة. وفي الوقت الذي يطلب فيه مواجهة تهديد لا تقوم به قوة نووية .... فهذا هو الهدف الذي يجدر أن تصل إليه شعوب آسيا الحرّة والمستقلة، والذي يوجب على الولايات المتحدة تقديم دعمها حين حدوثه. وتجنب الرد على سؤال ظهر فجأة: وما العمل خلال المدّة التي تسبق ظهور هذا التنظيم الأمني؟

وما كان نيكسون ليتوقع أهمية ردود الفعل التي استوجبتها تصريحاته التي أدلى بها مصادفة خلال محادثة غير رسمية. والتي تركت أثراً عميقاً، بل كانت محور

جميع المحادثات التي جرت معه في آسيا. إنذهل نيكسون أولاً من تأثيرها الحاسم. فحولها حالاً إلى نظرية تحمل إسمه ـ وفي الواقع لقد أمضى قسماً كبيراً من وقته ليتأكد من أن السمة الأولى «نظرية غام» إستبدلت حالاً، في المصطلح الصحفي، بعبارة أكثر تأثيراً، تذكّر بشخصيته، أفضل من ذكرها لمكان جغرافي، وأنتهى إلى اتخاذ ثلاث نقاط جوهرية من التصريحات التي أدلى بها في خطابه في فيتنام، بتاريخ الثالث من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٩، وتقريره حول السياسة الخارجية في الثامن عشر من شهر شباط لعام ١٩٧٠:

- ستحترم الولايات المتحدة كل تعهداتها المبرمة بمعاهدات.
- سنكون درعاً، عندما تهدد قوّة نووية حرية شعب حليف لنا، أو أي شعب يكون بقاؤه جوهرياً بالنسبة لأمتنا، أو أمن المنطقة بكاملها.
- في حالة أشكال أخرى من العدوان، سنقدم العون العسكري والإقتصادي المناسبين، حالما يطلبان منا، لكننا ننتظر من الدولة المهددة مباشرة، ان تتحمل المسؤولية الأولى والمهمة وتجهز القوى البشرية المهمة اللازمة للدفاع عن نفسها.

وفي أحد المجالات، فإن نظرية نيكسون لم يتسع مداها، خلافاً لما ظهرت لأول وهلة. وفيما لو كنّا على استعداد لإحترام تعهداتنا المبرمة بمعاهدات، فإن ذلك يشمل اليابان، كوريا الجنوبية، الفيليبين، تايوان، تايلند ، فيتنام الجنوبية. وعندما نعلن عن أنفسنا في الوقت الحاضر، بأننا مستعدون للدفاع وحماية دول غير متحالفة رسمياً معنا، ضد أي هجوم نووي، فإننا بذلك نستجيب للقلق المسيطر على بلدان مثل: أندونيسيا، الهند، وماليزيا، القلقة من هجوم متوقع من الصين. وما نستخلصه من نظرية نيكسون، هو مساهمة الولايات المتحدة التلقائية في كل حرب تحدث بين دول أسيوية. وتقديم كل عون عسكري وإقتصادي عند الضرورة. وفي عام

١٩٦٩، كانت الفكرة الرئيسة السائدة، في أن تمتنع الولايات المتحدة عن كل تدخل في الحروب الأهلية.

ومن جهة أخرى، ولأول مرّة، حدّد تصريح رسمي وبدقّة موقف امريكا، عمّن هم من أصدقائها أو أعدائها. وفي المجال القومي، كان هذا التصريح جواباً مترابطاً مع الإتهامات واسعة الإنتشار، التي كانت تستدعي إنسحاباً، وكانت بالنتيجة تأخذ بعين الإعتبار مدى تطبيق تصريحات نيكسون.

أضف إلى ذلك، فإن شعوب آسيا، حال تفهمها الحقيقي لهذه التصريحات وهي التي كانت تخشى انسحاباً أمريكياً، كانت تجد نفسها مطمئنة تماماً نتيجة تصريحات غام. ومن سخرية القدر، فان الذين هم ضمن الحكومة وخارجها، وكانوا يتمنون إنسحاباً غير مهين، أخذوا يوجهون اللوم والإنتقاد لنيكسون، حتى من خلال النظرية التي جاء بها. مثلا، كان من المسلّي والمغيظ في وقت واحد، أن يسمع خلال المباحثات حول كامبوديا، تصريح يوضح أن المساعدة الأمريكية، كانت ممنوعة، بنظرية تحمل إسم رجل يُبدي إهتماماً بمساعدة بلد مهدد وهو نفسه لا يعرف هذا التعارض.

وهكذا إذاً، في وسط خلاف قومي كبير حول قضية الدفاع، استطعنا حماية قواعد ساهمت في تنميتنا، عندما تغير المزاج القومي ومزاج الكونغرس. وحددنا إستراتيجية عسكرية تتوافق مع قدراتنا وتسمح لنا بل تمكننا من مجابهة الأخطار الأكثر ترقباً. ولقد أعددنا بالإضافة الى ذلك نظرية أمنية في المحيط الهادي، تقدم ضمانات جديدة لحلفائنا وأصدقائنا. ومن كل ما حققه نيكسون خلال ولايته الأولى، فإني أعتبر حماية مراكزنا الحساسة لقدرتنا العسكرية في المقام الأول. وبدونها، فإن كل الجهود المبذولة لتخفيف الضغوط، كانت دون جدوى ولم يكن الإعتدال إلا بفضل هؤلاء الذين تظهر لديهم إمكانية الخيار.

الفصل السابع

جرح يأبى الشفاء

حتى اليوم، لا أتمكن من الكلام عن فيتنام، دون إبداء ألم وحزن عميقين.

في بداية فترة استلامنا الحكم، كان أكثر من نصف مليون أمريكي يقاتلون هناك على بعد ستة عشر ألف كيلو متر من بلادهم، وهذا العدد كان في تعاظم بموجب خطة رسمها أسلافنا. ولم يكن بادياً في الأفق أية فكرة انسحاب لقواتنا، وكانت خسائرنا في ارتفاع حتى وصلت إلى واحد وثلاثين ألف رجل، ومهما كانت غايتنا من هذه الحرب، فإن قابلية تصديقنا لما يجري خارج حدودنا عام ١٩٦٩، وإمكانية قيامنا بتعهداتنا، وتلاحم شعبنا، كانت كلها مهددة بقتال كنا نخوضه، في بلد بعيداً عنا جداً.

ذهب أسلافنا إلى تلك الأرض بنيّة ورغبة صادقين، وهم على اقتناع أن هذه الحرب الأهلية القاسية، كانت تظهر الجهة المرئية من مخطّط تكافؤ عالمي. وقد تبين لهم بعد أربع سنوات من القتال، أنهم كانوا غير قادرين على اختطاط استراتيجية تعطيهم الغلبة، ويمكننا أن نضيف إلى ذلك اليوم، أن الوصول إلى النصر مستحيل.

لقد حاولوا كثيراً البرهنة عن قوة وصدق أمريكا بصورة ملموسة، لكنهم لم يجربوا وضع أي حدّ لمغامرتهم. وخلال السنة الأخيرة من حكم جونسون، كان الشيوعيون قد قاموا بهجوم عام في كل البلد. هناك أخصائيون قليلون بهذا الأمر، ينكرون اليوم أن ذلك كان هزيمة ساحقة، لكن عظمتها والتضحية التي كانت تتطلبها، جعلتا منها نصراً بسيكولوجياً. وفي غمرة التأثير الحاسم لهجوم رأس السنة الفيتنامية، بدأنا بتقليل القصف على الشمال، قبل إيقافه كلياً، دون الحصول على شيء من الجانب الآخر، سوى افتتاح مفاوضات، أصبح خصمنا اللدود من جرائها في مأزق. وأخذ الرأي العام ينكر علينا خوض حرب، ليس فقط لن ننتصر فيها بل أيضاً، لا نستطيع إيقافها.

كانت المعارضة تزداد داخل حدودنا. وكانت عدة تيارات تشترك في تأليفها: المسالمون الصادقون، الذين لم يكونوا ليتحمّلوا رؤية دولتهم ترمي بنفسها في مذابح على بعد آلاف الكيلو مترات من هناك، ويساندهم بذلك الذرائعيون الذين لم يكونوا يتوقعون أية إمكانيّة للخروج منها، والانعزاليون الذين كانوا يتمنّون وضع حد لالتزاماتنا عبر البحار، والإيدياليون الذين كانوا يعتبرون عدم تكافؤ قدرتنا مع أهوال حرب، كان ينقلها لهم التلفزيون حرفياً ولأول مرّة إلى مساكنهم. وكان يتوسط كل هؤلاء الفرقاء، أقلية ضئيلة، كانت تبدي رعبها الشديد من الأعوام ١٩٦٠، بطرق تشكيكية قاسية، مع إظهار حقد على أمريكا، في الطريقة التي تتبّعها والخراب الذي تسبّبه. وكل هؤلاء الفرقاء مجتمعين، كانوا قد وحّدوا جهودهم لإثارة الناس ضدّ إخفاق مؤتمر الحزب الديمقراطي عام ١٩٦٨، ويظهرون غضبهم ضد تحديد وتقليل الطبقات المدبّرة، التي ساندت المبادرات الكبرى الأمريكية، بعد الحرب في السياسة الخارجية.

كان إرث ريتشارد نيكسون من مخزن البارود هذا. إذ كان طبعاً بين أقل

المرشحين للرئاسة قدرةً، على إظهار مبادرة مصالحة، مع فرقاء المعارضة الأكثر تعقلاً. وكان يعتقد بنفسه، مهما كانت الأسباب، أنه الهدف لمؤامرة رئيسية، ترمي إلى إقصائه، وكان من المستحيل عليه، إعتبار القلق الذي سبّبته حرب فيتنام ، شيئاً آخر، سوى أنه متابعة للكفاح المستمر الذي يثار ضد وجوده السياسي. وبالرغم من تعاطف، اكثر الذين كان يظنهم خصومه، ومشاركتهم فيما كانوا يبدونه من قلق، فإنه لم يتوصل إلى تكوين ثقة بنفسه، ولا أن يبرهن عن عزّة نفس للتقرّب منهم.

وعلينا أن نصدق بقولنا، لم يأته عون من أحد. وبعد كل هذا فإن يوبرت هامفري، الذي سعى دوماً لاجراء المصالحة، لم يعامل بصورة جيدة، خلال حملته للإنتخابات الرئاسية. أضف إلى ذلك، عندما استلم نيكسون الحكم، فان الذين كانوا مبدئياً مع التزامنا في فيتنام، أصبحوا في صفوف المحايدين، ثم إلتحقوا بصفوف المعارضة، ناسبين إلى نيكسون مسؤولية حرب ورثها، ويتهمونه بحلول لم يتخذوها أو يطبقوها هم عندما حانت لهم الفرص.

عزم نيكسون منذ بداية توليه الحكم على وضع حد لالتزامنا في فيتنام لكنه اصطدم سريعاً، بالحقيقة التي كانت قد دمّرت سلفه، علماً أنه منذ ما يقرب من جيل، فإن أمن وتقدم الشعوب الحرّة، كانا يتوقفان على الثقة بأمريكا. وكيف السبيل للخلاص من مغامرة. غاصت في مستنقعها حكومتان وخمسة دول متحالفة، وحيث كانت سبب موت واحد وثلاثين ألف رجل؟ ولم يكن أسهل من إدارة زر مذياع لتغيير برنامج! وكان ينصحنا الكثيرون، باتخاذ دي غول مثالاً لنا ونحذو حذوه، لكنهم كانوا يتناسون أن دي غول بالذات، قضى أربعة أعوام حتى تمكن من وضع حلّ للقضية الجزائرية، معتبراً أن من الأهمية بمكان، أن تخرج فرنسا من هذه التجربة، وهي محافظة على تلاحمها الداخلي وبنيتها الدولية كاملين. وكان انسحاب فرنسا مجرّد عمل سياسي، لا انهياراً، ونتيجة قرار قومي لا هزيمة.

كان الشعب الأمريكي يتمنى إنهاء الحرب، لكن كل الاستفتاءات ـ بما فيها انتخابات نيكسون (وتصويت أنصار دالاس) ـ كانت تظهر أن الشعب الأمريكي، يعتبر المبادئ التي اتبعتها بلادهم مشرّفة، ولا يروق لهم أبداً رؤية أمريكا في المدى القريب ذليلة. وكان على الحكومة الجديدة، أن تأخذ بعين الاعتبار، ليس فقط سيادة المعارضة للحرب، بل كذلك عليها أن تعتبر قلق العوائل، التي كان أولادها يتألمون، أو قد فارقوا الحياة في سبيل بلادهم، وأن هذه العوائل ذاتها، لن تقبل أبداً، بعد تلقيٍ ضربة ما، أن تكون تضحياتهم قد ذهبت سدى.

إن الهيجان الشعبي في البلاد، الذي يسببّه الخلاف حول القضيّة الفيتنامية، أتعبني جداً. ولم أوافق على عدد كبير من القرارات التي أوصلتنا إلى مأزق الهند الصينيّة. غير أني، كنت أقدّر أن تعييني في هذا المنصب الخطير، كان يفرض علي واجباً أن أضع حداً للحرب، بطريقة تتماشى مع عظمة أمريكا، ومع الفكرة التي كان يتمتع بها كل الرجال والنساء، أصحاب الإرادة الخيرة، من احترام لقدرة أمريكا والأهداف التي كانت تسير بموجبها. ومن الأمور الجوهرية ألاّ تُذَلّ أمريكا، ولا تتحطّم، لكن يجب عليها مغادرة الأراضي الفيتنامية ضمن شروط، يعتبرها خصومها مستقبلاً خياراً قومياً، أقدمت عليه أمريكا، في ظلال كرامتها واحترامها لنفسها.

❐ ❐ ❐

في بداية ١٩٦٠، لم أعر انتباهاً كبيراً للقضية الفيتنامية، إنما كان انتباهي مركزاً حول القضايا الأوروبية والاستراتيجيات السياسية، ومراقبة التسلح ومن خلال المحاكمة العقلية التي استطعت تكوينها، شاركت الرأي العام المتداول، أن الحرب كانت محاولة من قبل فيتنام الشمالية للاستيلاء على فيتنام الجنوبية بالقوّة.

وهذا بالطبع كان رأيي. وفي هذه الفترة فإن فكرة إرسال فرق قتال أمريكية لم تأخذ حيزاً كبيراً في تفكيري.

وعندما أرسلت حكومة كينيدي ستة عشر ألف مقاتل أمريكي إلى فيتنام معتبرة أياهم أول المستشارين العسكريين. اذكر انني سألت وولت روستوف، الذي كان حينذاك مدير فريق إعداد التوجيه السياسي في وزارة الشؤون الخارجية، عن كيفيّة النجاح بعدد قليل من الرجال؟ كان ردّ روستوف غائماً وكأنه يفرض حلاً، في أن الموظفين المتعَبين، يحتفظون لأمثالهم ممّن لا يعملون، مثالية في أن يعمل كلّ حسب قدرته وضمن اختصاصه.

ومع قدوم شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٣، روّعني الدور المباشر الذي قامت به الولايات المتحدة وبصورة مكشوفة، في إسقاط رئيس فيتنام الجنوبية "نفودين دييم" والتسبب في مقتله. لقد جرنا هذا الطيش إلى الطريق التي لا نعرف أين توصلنا، بتهديمنا الأساس السياسي اللازم لها. والتطهير الذي تبع هذه العملية، كان يُقصد به فعلاً حرمان البلد من إدارته المدنية بكاملها. وبالنسبة لنا، فإن مسألة اعتبارنا شركاء بإسقاط حكومة صديقة، لن تكون حصيلته سوى فقدان ثقة حلفائنا الآخرين في الجنوب الشرقي الأسيوي. وكنت أتنكّر لشرعية الأسباب التي حملتنا على الإقدام على إجراء كهذا !! إن معارضي رئيس فيتنام الجنوبية، بما فيهم القسم الأكبر من الصحافيين المقيمين في سايغون، كانوا قد تمسّكوا بالرأي التالي: كان يجب إسقاط "نفودين دييم"، لأننا لا نستطيع متابعة الحرب ضد الشيوعيين، بنشاط ومساندة الشعب مادام الرئيس دييم باقياً في دفّة الحكم. وفي الواقع فإن أخاه كان يُتهم بتدبير مؤامرة مع الشيوعيين، تماماً كما صدقت الاتهامات هذا الأمر بعد مرور سبع سنوات، وأثارت النفوس على إسقاط حلف دييم ـ نيغوين فان تيو. ولكن التدخل

المباشر في إسقاط الحكومة وبالطريقة التي جرت عليها كان أمراً غير جيد على الإطلاق.

أن المكاسب الحربية بعد إسقاط ديم لا تعادل خسارة النفوذ السياسي، وسنصبح أدبياً أكثر ارتباطاً بالحكومة التي جلبناها للحكم. إننا نعرف اليوم أن هانوي وصلت إلى النتائج نفسها. ومع أننا ساندنا بنشاط حرب العصابات، فإن هذه لم تستخدم القوات النظامية قبل سقوط ديم. وكنت أستعد لكتابة مقال حول هذا الموضوع، أشير فيه إلى تصعيد خطير في وضع فيتنام، ففوجئت بمقتل الرئيس كينيدي، ورأيت أن من المستحسن عدم متابعته.

وفي عام ١٩٦٤، دعوت الحاكم روكفلر لتبني موقف ثابت حول فيتنام إبان حملته للإنتخابات الأولية. لم تكن لديه أو لديّ فكرة واضحة حول إستراتيجية فعّالة، أكثر من ممانعتنا إرسال فرق أمريكية. ومع ذلك ففي عام ١٩٦٥، كنت أحد الملتزمين جانب الصمت، عندما وافقت أغلبية حكومة جونسون على إتخاذ قرار بإرسال فرق لمساندة الإلتزام نحو هانوي المعمول به حالياً.

وفي أول آب من عام ١٩٦٥، تخلّيت عن كوني متفرجاً عادياً، عندما دعاني صديق قديم ـ وهو هنري كابوت لودج ـ الذي كان سفيراً في سايغون آنذاك، لزيارة فيتنام بصفة مستشار تقني. وتجولت فيها ولأول مرة خلال أسبوعين، في شهري تشرين الأول وتشرين الثاني من عام ١٩٦٥، ثم عدت إليها في شهر تموز من عام ١٩٦٦، وقمت بهذه السفرة الأخيرة بناء على طلب أفريل هاريمان. فترك لي لودج المجال حرّاً، لدراسة موضوع خياري، ووضع تحت تصرّفي موظفي السفارة.

لم أبطئ بالأخذ بعين الاعتبار، أننا نخوض غمار حرب، لا نعلم كيفيّة الانتصار فيها، ولا طريقة وضع حد لها. إن القواعد العسكرية المعادية في لاوس وكمبوديا،

كانت تحول بيننا وبين الوصول إلى هدفنا العسكري في حرب تقليدية، أي تدمير القدرة المقاتلة للعدو. ففي فيتنام الشمالية، أثرنا حملة قصف كثيفة جداً، قادرة على إثارة الرأي العام ضدنا، لكنها تتأرجح وغير مضمونة لتكون فاصلة. إن خصومنا، كانوا على مستوى مراقبة نهج العمليات العسكرية، ومقدار الخسائر، سواء كان في جانبنا أو في جانبهم. وكاد يصبح مستوى الخسائر الأمريكية عنصراً حاسماً بالنسبة للرأي العام الأمريكي.

كنت أسير شيئاً فشيئاً إلى الاعتقاد، إن الانتصارات العسكرية في حرب أهلية، ليس لها أي معنى، إذا لم تُترجَم إلى سياسة حقيقية تصمد لانسحاب آخر فريق. ولا يمكن البدء بمفاوضات إلا عندما تتيّقن هانوي، أنه مادامت الحرب باقية، فبقدر ذلك ترى نفسها في خطر فقدان نفوذها السياسي على الشعب المحلّي. ووجدنا أنفسنا عرضة لمهّمة خطيرة. بالنسبة للفيتناميين الشماليين والفيت كونغ الذين يقاتلون على أرض يعرفونها، يكفيهم أن يصمدوا والبقاء أقوياء للسيطرة على الشعب عندما تكون الولايات المتحدة قد تعبت من هذه الحرب، إن الهدف بالنسبة لنا كان معقّداً كثيراً، فكان علينا أن نقاتل، وفي الوقت نفسه إضفاء نفوذ وسلطة الفيتناميين، ليتمكنوا من العيش بدوننا، وبقول آخر، ليستطيعوا الاستغناء عنا. إن المبدأ الأساسي لحرب العصابات يقوم على الانتصار منذ اللحظة الأولى، حيث لا تجوز الخسارة، أما بالنسبة لجيش نظامي، فإن عدم الانتصار يوازي الهزيمة. كنا نخوض حرباً عسكرية ضد عدو لا يقهر. بينما أن خصمنا كان يخوض حرباً سياسية ضد شعب مقيم. وكنت في شك منذ البداية، أن خبراء خططنا الحربية قد فهموا ذلك.

«في الواقع، أصبح لديّ إنطباع، أن ما من أحد جدير حقاً ان يشرح لي كيف ستنتهي حرب فيتنام... ولا أعتقد في الغالب، اننا وجدنا حتى مبدأ الاجابة لقضيّة

أساسية، التي هي في عداد التنظيمات البسيكولوجية. ولديّ انطباع أيضاً ان الفيت كونغ والفيتناميين الشماليين، يجب أن يكونوا على أهبة أن يُسِرّوا لأنفسهم انهم بعد عام من دخول القوات الأمريكية لبلدهم فيما لو فقدوا كل أمل بالنصر، فمن الممكن بل من الطبيعي، اذا استطاعوا تمديد أمد الحرب، سيتمكنون من التغلّب علينا. وفي الواقع، كيف يمكن إقناع شعب، اننا مستعدون للبقاء إلى ما لا نهاية، على بعد ما يقارب عشرين ألف كيلو متر عن بلادنا، لنقاتل خصومنا في بلادهم؟ وإذا فشلت عملياتنا في المحيط الهادي، فلن تكون الخسارة بسبب تقني، بل لصعوبة تزامن الأهداف العسكرية والسياسية، في حالة تكون فيها المكننة العسكرية المعقدّة جداً غير مهيئة».

إن الوحدات النظامية بفيتنام الشمالية، كانت تشكل حسب رأيي، الهدف الرئيسي لعملياتنا العسكرية وتلعب دور الورقة الرابحة، إذ انها كانت تستدرج قواتنا إلى مناطق سياسيّة غير ذات فائدة، بينما ان تنظيمات الفيت كونغ، كانت تهزم حكومة فيتنام الجنوبية في المناطق المأهولة. ولدى عودتي من أحد أسفاري في إحدى مقاطعات فيتنام، في الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول لعام ١٩٦٥، سجّلت في مذكرتي:

من الواضح الجلي، ان هناك حربين متميّزتين:

١- تلك التي تنعكس عليها احصائيات الجيش حول طمأنينة الوحدات العسكرية.

٢- تلك التي تؤثّر بالشعب.

والمعياران لا يتوازيان. فبالنسبة للجيش، الطريق مفتوحة اذا تمكن من متابعتها بمدّه بالقوافل. وبالنسبة للشعب فالطريق أمامهم مسدودة، ما لم يوافقوا عليها دون دفع رسوم. تكون قرية آمنة في نظر الجيش اذا تمكن من تركيز قواته فيها. أمّا أمن

السكان فيتوقف على حمايتهم، ليس فقط من هجمات وحدات الفيت كونغ النظاميّة، بل أيضا من إرهابهم.

وفي حال غياب مقاييس النجاح، يأتي دور التحليل. عندما زرت مقاطعة «فين لونغ» في شهر تشرين الأول من عام ١٩٦٥، سألت حاكم المقاطعة إلى أي حد كانت مقاطعته آمنة، فأجابني بفخر أن أمنها يوازي ٨٠٪. وعندما سافرت ثانية إلى فيتنام في شهر تموز من عام ١٩٦٦، كان إهتمامي موجّهاً نحو زيارة نفس المقاطعات، لأتمكن من تقيّيم التغييرات. ففي فين لونغ أعلمني حاكم المقاطعة نفسه، أن تقدماً عظيماً قد أحرز منذ زيارتي الأخيرة، فسألته عن حدود أمن المقاطعة في هذه الظروف فأجابني أيضاً بإعتزاز مثل المرة الأولى، ان أمنها كان بحدود ٧٠٪.

فأوجزت انطباعاتي في سفرتي الأولى، في كتاب مؤرخ في الثالث من شهر كانون الأول لعام ١٩٦٥، وجّهته إلى هنري كابوت لودج:

«قبل كل شيء، هناك مشكلة اجتماعية بل فلسفيّة، يبدي الفيتناميون احساساً صادقاً ان يكونوا شعباً على حدة، لا أن يشكلّوا أمّة . فيجب أن يكون هدفنا الرئيسي، اكتشاف كيفيّة بناء أمّة، عندما يكون المجتمع فريسة لحرب أهلية، ويجد نفسه ممزّقاً بنزاعات داخلية. كل الدول أخذت على عاتقها حلّ مشاكل وحدتها السياسيّة، ولم يقدم أحد على ذلك، مثل الفيتنام، تحت سيطرة الضغوط الساحقة».

وفي الثامن عشر من شهر آب ١٩٦٦، فيما كنت عائداً من سفرتي الثانية إلى فيتنام، كتبت مجدّدا للودج: «تحملني الصراحة على القول، إني لم أجد أي تغيير هام في المقاطعات....» اذا أردنا كبقية الموظفين الأمريكيين تقدير الأمن من خلال بلد، فإن هذا يعني معرفة خفايا سياستها. وربما أن عدم خبرة مستشارينا في المقاطعات (لا سيما من تكون خدمتهم قصيرة حتى اذا أصبحوا على بعض الخبرة، يطالبون

بالمغادرة). أن جهودنا تعاني من نقص في المنظور السياسي. أضرب على ذلك مثلاً. فان بعض المناطق المحسوبة من المسالمة، لم تصبح كذلك إلا بعد أن رأى الفيت كونغ، عدم تدمير الزراعة، في سبيل تغذيتهم، ولأنهم كانوا يوحّدون الضرائب عليها. وأضفت إلى ذلك بعض التوصيات، على السفارة ان تحاول تقدير الأمور بطريقة أكثر دقّة، عما كانت تجريه في الماضي على الأمن. وعلينا تعزيز الادارة المحلّية وتحديد الأفضليات بوضوح. ويلزمنا كذلك وبسرعة كلية إستراتيجية للمفاوضات التي كانت الحكومة تظهر نفسها جادّة على بدئها، لأن المفاوضات ستكون البداية، لا نهاية مصاعبنا.

كان لديّ بعض الخبرة عن القضيّة، طالما أني كنت أعمل مّدة لدى الفيتناميّن الشماليين.

ومن شهر تموز حتى شهر تشرين الأول من عام ١٩٦٧، طلبت إليّ حكومة جونسون القيام بدور الوسيط، لأقوم ببعض الجهد للبدء بالمفاوضات، فأرسلت رسائل عن طريق مثقفين فرنسيين اثنين من معارفي، كان لاحدهما ارتباطات مع «هوشي مين» في الأعوام ١٩٤٠. وكان في ضيافته عند قدومه إلى باريس لإجراء مفاوضات مع الفرنسيين. ولقد فُوضت بالطلب من اصدقائي الذهاب الى هانوي، واقتراح أسس لوقف القصف الأمريكي تكون بمثابة تمهيد للمفاوضات. فذهبا والتقيا «هوشي مين». وبعد عدة أشهر، قمت برحلة رسمية الى باريس، لنقل مراسلات أو لأخذ أجوبة عن الفيتناميين الشماليين. وأخفقت المحاولة أخيراً، لكنها كانت خطوة على طريق الاتفاق الذي وضع، فتوصلنا بعد عام، إلى وقف إطلاق النار والبدء بمحادثات السلام.

وعندما بُدئ بهذه المفاوضات، أعلنت عن وجهة نظري في نهاية عام ١٩٦٨ في

مقال نشرته مجلة الشؤون الخارجية. كنت قد كتبته قبل تعييني ولم ينشر إلاّ الآن. بينت فيه استنتاجاتي الأساسية. وهي:

- ان استراتيجيتنا العسكرية غير قادرة على الوصول بنا الى النصر.
- يجب علينا توجيه عملياتنا العسكرية نحو أهداف تؤدي الىمفاوضات دقيقة وواضحة.
- لن يكتب البقاء لحكومة فيتنام الجنوبية ، إلاّ اذا قامت بإعداد منهاج سياسي، يتمكن الفيتناميون الجنوبيون غير الشيوعيون من الاشتراك فيه.
- على الولايات المتحدة أن تعهد للفيتناميين الجنوبيين بمسؤوليات مكثفة في ادارة الحرب.
- إذا أبدت هانوي تصلباً بالرأي في المفاوضات، واذا استمرت الحرب، يجب علينا السعي في الوصول - ومن جانب واحد - الى الظفر في أكبر عدد من أهدافنا.
- علينا تركيز جهودنا إبان المفاوضات، حول الأمور العسكرية، ومنها وقف إطلاق النار مثلاً، تاركين للفرقاء الفيتناميين موضوع تقسيم السلطة السياسية.

وإلى حدّ ما ، كنت متفقاً مع المنتقدين السياسيين من أقصى الجانبين. ان حكومة جونسون، من خلال ادارتها للحرب، قطعت الأمل من كل فرصة تسمح لها بانتصار عسكري تقليدي، ووضعت حداً أعلى - لعدد قواتنا المسلحة وقبلت بوقف إطلاق النار. إن إنسحاباً مشرفاً يتوقف على مهارتنا، في إيجاد أسباب سياسية معقولة لحمل هانوي على قبول التسوية، الأمر الذي يصبح معه مستحيلاً الكشف عن موقفنا العسكري، على تلك الأراضي كبنية سياسية ثابتة. وعلى طاولة المفاوضات يجب علينا الاعتماد على مساندة الرأي العام الأمريكي، ليتضح الأمر جيداً لهانوي، إنها لن تربح

شيئاً إذا جرتنا الى محادثات طويلة الأمد. ان الحفاظ على جميع هذه الأسس ثابتة مع السعي لإنهاء مشاكلنا، سيكون عمل كل حكومة مهما كانت.

وبعد هذه الفترة، أي نحو شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٩، أصبحت منهمكاً أكثر فأكثر بأمور الحرب، وكنت أتجنب الكثير من الإنتقادات على عدة جوانب. ولم أكن من أنصار إنسحاب غير مشروط. وفي عام ١٩٦٩ كان القوات الأمريكية أكثر من نصف مليون رجل، وكان تعداد القوات الحليفة أكثر من سبعين ألفاً. وقد ساهم كثيراً الواحد والثلاثون ألف قتيل الذين قتلوا في المعارك، في التعجيل لإيجاد مخرج لقواتنا ولتلك التي تتعلق بنا. ولم أكن إلى جانب العديد من النقاد، الذين يعتقدون ان السلام يتوقف على ابداء ارادة حسنة من قبلنا .وعناد مفاوضي هانوي، الذين كانوا يعايشون دوماً القتال، ولم يكونوا يعتبرون التسوية سوى نوع من العمل الاخلاقي. وهم الذين لا تزال تدغدغ نفوسهم الأساطير المثيرة من التاريخ الفيتنامي، تاريخ صنعته الحروب ضد الصينيين، والفرنسيين واليابانيين ونحن الآن، ولقد احتفظوا خلالها بحماسهم مصاناً لا جدل حوله، حالمين بالانتصار. فلم يكونوا ليقبلوا بالتسوية دون حساب دقيق وضرورة ماسة. ان السلام نتيجة المفاوضات لن يحصل إلا بعد موازنة بين أضرار الجانبين، ولن يكون بقرار عاطفي. وكان هذا الرأي سبباً لا بتعادي والى الأبد عن عدد كبير من المعارضين، حتى لو كنت التقي معهم بفكرة ان الحرب ستضعف قوتنا تدريجياً في المجال القومي، وبالنتيجة يجب ان نضع لها حداً.

❒ ❒ ❒

مع حلول العام ١٩٦٩ كانت الأمور تبدو أنها وصلت إلى طريق مسدود، فقبل أشهر من حلول عام ١٩٦٩، أفشلت القوات العسكرية الأمريكية هجوم رأس السنة

الفيتنامية بنوع حاسم، لكن تأثير الرأي العام الأمريكي على أثر هذه المعركة حملنا على إيقاف القصف وضاعف عدد منا من ضغوطه لأجل انسحاب قواتنا. إن القوات النظامية لحليفنا فيتنام الجنوبي، التي تضاعفت كثيراً منذ العام السابق وارتفعت إلى سبعمائة وثلاثة وأربعين ألف رجل كان دورها يقتصر على حماية الحدود، وإيجاد الأمن للسكان.

وكانت فيتنام الجنوبية على المستوى السياسي، أكثر ثباتاً مما كانت عليه، طيلة أربع سنوات الحرب السابقة، وأن نغوين فان تيو، الذي كان أصله من الشمال وانتخب رئيساً عام ١٩٦٧، أدخل في حكومته، رجالاً كثيرين من الجنوب، وكانوا وطنيين يحترمهم الجميع، ومنهم رئيس الوزراء تران فان هيونغ. غير ان سفارتنا في سايغون كانت تعتبر ان هناك ثمانين في المائة من البلدان لا تزال متمسكة بمبادئ شيوعية. وكانت تقدر أن خمسة وستين في المائة من مجموع السكان وأن واحداً وثمانين في المائة من سكان الأرياف، كانوا خاضعين للنفوذ الشيوعي، بالرغم من أن الشيوعية لم تكن تفسر وتترجم، إلا بعملية دفع للشيوعيين رسوماً على الرز وعلى الحاصلات الزراعية. وبمقولة أخرى، فإن الوضع لم يتطور كثيراً، منذ سفرتي الأخيرة في شهر تشرين الأول من عام ١٩٦٦.

كانت طريقة العدو الحربية، تتوقف على إيجاد أكبر شعور ممكن من عدم الاستقرار، دون البحث في احتلال أية أرض تصبح هدفاً لهجوم أمريكي، وتجرّه بالنتيجة إلى خوض معركة نظامية. وبعكس ذلك تماماً، فإن الفيتناميين الشماليين، كانوا يقومون بهجوم متفرق في كل مكان تقريباً من فيتنام الجنوبية.

وكانت الوحدات النظامية تهاجم القوات الأمريكية، بغية تكبيدها خسائر فادحة، بينما أن عمليات حرب العصابات كانت تهدف إلى زعزعة السكينة والأمان بين

المدنيين. وكان الفيتناميون الشماليون يركزون جهودهم بالتناوب، على تقوية المبادئ الشيوعية السياسية، بنية الإعداد لاستلام الحكم أخيراً.

وفي النصف الثاني من عام ١٩٦٨، عُين الجنرال كرايتسون أبرامز مكان الجنرال وليم وستمورلند في قيادة القوات الأمريكية في فيتنام. كان ابرامز قد درّب فوج عربات اقتحام بإمرة جورج باتون، وكان قائداً للفيلق الذي حرّر باستونيه في معركة الأردين. وكان ابرامز ذاته، قد أدخل تحسينات على الاستراتيجية العسكرية الأمريكية، ورفض هجوماً واسع المدى على مجموعات كبيرة من القوات الشيوعية، وركز عمله على حماية السكان.

وأمر بانتشار القوات الأمريكية انتشاراً واسعاً حول المدن الكبيرة لتأمين الدفاع عنها. واستدعى ابرامز فرقتين أمريكيتين من شمال البلاد، لتوزيعها في الجنوب الأكثر سكاناً. وكانت هذه إحدى النتائج العسكرية التي ساهمت في وقف القصف، الذي التزم به الرئيس جونسون في الأول من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٨، لأن فيتنام الشمالية قد قبلت حينذاك بعدم التعدي على المنطقة المجردة من السلاح وعدم القيام بهجوم طائش ضد المدن الكبيرة.

ساهم إيقاف القصف فوق الدرجة عشرين من خط العرض، الذي أقره الرئيس جونسون في العام ١٩٦٨، في الإسراع في دخول المفاوضات، وبالفعل بدأت المفاوضات في باريس، بين الولايات المتحدة وجمهورية فيتنام الديمقراطية، لكنها أقتصرت على الأمور الإجرائية، وكيفية البدء بالمحادثات؟ وفي أول تشرين الثاني، أبدى الرئيس جونسون موافقته على وقف كامل للقصف، ما عدا الممر الذي يخترق لاوس، والذي يطلق عليه طريق هوشي مين، والذي كان الممر الوحيد لإمدادات الفيتناميين الشماليين. وتلاحقت بشائر الفرح، واتفق على ألا يجري في المستقبل أي

هجوم طائش يوجّه ضد المدن الكبيرة (مثل سايغون ـ دانانغ أو هوّية) ولا إطلاق مدافع، أو صواريخ، أو مدافع هاون، أو تحركات جيوش منذ الآن، بدءاً من المنطقة المجرّدة من السلاح إلى داخلها، أو لاجتيازها. لم تعطِ هانوي موافقة صريحة على هذه الإجراءات، لكنها تقيدت بها حرفياً، الأمر الذي أكده تصريح صادر عن رئيس مجلس الوزراء السوفيتي اليكسيس كوسيغين، في رسالته للرئيس جونسون، بتاريخ الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول لعام ١٩٦٨ التي يؤكد فيها: "أن الشكوك في موقف الفريق الفيتنامي لا أساس لها". أضف إلى ذلك، فإن رئيس المفاوضات من الجانب الأمريكي ـ أفريل هاريمان ـ صرّح للفيتناميين الشماليين في باريس في الرابع من شهر تشرين الثاني، أن كل هجوم طائش على المدن الكبيرة سيخلق وضعاً لا يسمح بمتابعة المحادثات الرسمية. وفي الواقع، فان المحادثات الرسمية، لم تبدأ بالسرعة التي اوحت بها فيتنام. وجرت مساومات خلال ثلاثة شهور، لم تنته حول شكل الطاولة، ولم تكن هذه المساومات الحقيقة سوى خلاف حول وضع التنظيم في هانوي في الجنوب، وجبهة التحرير الوطنية. وسوّيت هذه المشاكل الإجرائية في السادس عشر من شهر كانون الثاني لعام ١٩٦٩، أعني قبل أربعة أيام من إستلامنا الحكم. ويوم الاحتفال بتولية نيكسون، لم تجر أيّة جلسة مفاوضات رسمية.

بعد إستلام الجهاز الحكومي، كانت الضرورة ملحة، لإجراء حساب دقيق حول الوضع. ان رغبتنا في وضع إستراتيجية متلاحمة، اصطدمت حالاً، في حقيقة انه لم يكن لدينا سوى بعض الأسس التي نتمكن من العمل بها، والجهود التي بذلناها محاولين تحسين استخدامها، لقاء الممارسات التقليدية. عند الاجتماع الاول لمجلس الامن القومي في الحادي والعشرين من شهر كانون الثاني، خُطّط لقضية فيتنام، وبُحثت بالتفصيل، في الاجتماع الذي جرى في الخامس والعشرين منه. كان الجهاز

الحكومي لا يزال حديثاً، والموظفون القدامى كانوا مرتبكين، ولم تكن التقارير تطرح أفكاراً جديدة على رئيس جديد راغب في الإطلاع، حتى ولو كانت مقدّمة من قبل عسكريين. منذ سنوات والعسكريون يتذمّرون من أن السلطة المدنيّة كانت تعطيهم حرّيتهم، ولكن عندما طلب اليهم نيكسون ان يطلعوه على إستراتيجية حديثة، كان كل ما خطر لهم في البال، ان يقترحوا عليه العودة إلى قصف الشمال، وكانت التعليمات الوحيدة التي أعطاها نيكسون بناء على هذا التقرير، وضع حدّ للحرب الكلامية المستمرة مع سايغون، فلم تكن نيّته ان يقوم بالدور الذي لعبته هانوي، من تهديم البنية السياسية لفيتنام الجنوبية.

إن تعطشنا للمعلومات، كان مبدئياً بفضل الدراسة الأولى التي قمنا بها بناء على طلب الحكومة الجديدة. والمكتب الذي كان يطلق على نفسه «الوضع في فيتنام» كان يطلب من الوزارات الإجابة على مجموعة من الأسئلة مكتوبة على ست صفحات بأسطر ضيقة، وكانت تتضمن ثمانية وعشرين سؤالاً رئيسياً وخمسين سؤالاً إستطرادياً واحتياطياً، والتمست من كل وزارة ان تجيب على حدة، لتمييز الإختلاف الممكن حصوله في الأجوبة، فيسمح لنا ذلك بدقة حصر الأسئلة المتنازع عليها والوقوف على وجهات النظر المختلفة من خلالها. وكان يجب مع ذلك شرح بعض الأحداث (مثلاً: لماذا جمهورية فيتنام الديمقراطية هي في باريس؟ أو أيضاً: لماذا تركت وحدات من جيش فيتنام الشمالية، فيتنام الجنوبية خلال الصيف والخريف الماضيين؟) وكانت بقية الأسئلة تركز على القطاعات السياسية، التي تستطيع التأثير على المفاوضات، مثل قدرات العدو العسكرية، وقدرات فيتنام الجنوبية، ووضع الأمن في البلاد، الوضع السياسي في سايغون، وأيضاً إستراتيجية العمليات العسكرية الأمريكية. وفي كل مرة كان السؤال المطروح: «اية أدلّة موجودة لدينا». وبصورة أفضل «إلى أي حدود يمكننا ان نثق بمعلوماتنا».

ولسوء الحظ، كانت الأسئلة مثار إرتباكنا، تجاه المشاكل التي نعاني منها، بدل أن تساعدنا على حلها. ولم تردنا الاجوبة على أسئلتنا إلاّ في شهر شباط، وقد وضعها معاونيّ في تقرير من أربع وأربعين صفحة، أعلن في الرابع عشر من شهر آذار أمام أعضاء فريق دراسات مجلس الأمن القومي. وكانت إحدى استنتاجات هذا التقرير التفصيلي: ان هناك انقسامات داخل الادارة، كتلك الانقسامات الموجودة في باقي البلاد. فمن جهة، كانت هناك وجهة تفكير متفائلة نسبياً، يتبعها كل من : سفيرنا في سايغون ايلزوورث بونكر، ورئيسا الأركان العامة، والجنرال ابرامز، والأميرال جون ماك كاين (قائد وحداتنا في المحيط الهادي) وكان يفكر هذا الفريق: اذا قبل الفيتناميون الشماليون الانضمام الى محادثات السلام، فهذا يعني اعتقادهم بتدني قدراتهم في المجال العسكري، وان المناطق المسالمة والتي تتزايد كل يوم، ستبقى كذلك، وتصبح الظروف أكثر ملائمة. وكانت وجهة النظر المعارضة تعكس رأي مدنيي البنتاغون ووكالة المخابرات المركزية، وفي بعض الحدود، رأي وزارة الشؤون الخارجية. ان مصلحة الاستخبارات كانت تعلم ان الفيتناميين الجنوبيين كانت لديهم جميع القدرات للقيام بواجبهم، ولكن حسب رأيهم ، كان كل هذا يوصلهم الى تقييد في موقفهم. أضف الى ذلك، إنهم كانوا يؤكدون ان استباق النتائج التي توصّل اليها في سبيل السلام، هي في نظرهم نجاحات غير كافية في المجال السياسي، وان العدو لم يكن قط في حالة ضعف لا في باريس ولا على أرضه ليجري مفاوضات، وأخيراً فان الوسيلة الوحيدة لانهاء القضية الفيتنامية هي في الإتفاق على تسوية.

كان الجميع متفقين علىان الفيت كونغ والفيتناميين الشماليين هما اللذان يقومان بالمبادرة في العمليات الحربية، وهذا ما كان يحدّد مستوى الخسائر في

المعسكرين، وان العدو كان يتبع دوماً الأهداف ذاتها، وأن هانوي قد اختطّت لنفسها خطة عمل مستقلة تماماً عن بكين وموسكو. غير أن هذه الآراء كانت تختلف بصورة مُربكة جداً حول نقاط أساسية جداً، أكثر من انتشار وأهمية القوات المعادية، أو الدور الذي تقوم به كمبوديا عن طريق ميناء سيهانوكفيل، في تسهيل وصول العتاد والتموين ، وأظهرت الأجوبة بوضوح أنه لم يكن هناك إجماع على الأعمال أو السياسة.

وقبل تمكننا من وضع حلول لخلافنا الداخلي، وضعت هانوي حداً لتقديراتنا، بقيامها بهجوم شامل ضد فيتنام الجنوبية في الثاني والعشرين من شباط عام ١٩٦٩.

تضمن الاتفاق الذي جرى مع الفيتناميين الشماليين في عام ١٩٦٩، إضافة إلى إيقاف القصف، عدم القيام بهجوم ضد المدن الكبيرة، أو تجاوز المناطق المجردة من السلاح، غير أن استلامنا الحكم، وتقدم العدو المتزايد، كان يؤشر بأن العدو كان يخطط لهجوم كبير ومفاجئ.

فلم نجد بداً من إعادة قصف الشمال واتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة. وفي الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٨، أعلن كلارك كليفورد، وزير الدفاع، من خلال إذاعة: (A.B.C)، إذا لم يظهر الأعداء تقديراً لمواقفنا، ويحافظوا على التزاماتهم، فلن يبقى أدنى ريب في أن الرئيس سيعود حتماً إلى استراتيجيتنا الأولى، التي تتوقف على إجراء ضغوط قاسية على العدو، وإعادة القصف حين الضرورة. وفي الرابع من شهر كانون الأول عام ١٩٦٨، كان على افريل هاريمان أن يسير ضمن التفكير ذاته، في اجتماع إعلامي في البيت الأبيض. وبالنسبة لرئيس الأركان العامة للقوات المشتركة، الجنرال ايزل ويلر، فلم يفعل سوى إطلاق التصريحات الرسمية التي أعلنها سلفه، عندما طمأن الرئيس نيكسون، خلال

اجتماع مجلس الأمن القومي بتاريخ الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني لعام ١٩٦٩، في أن الولايات المتحدة تقوم في فيتنام بما كانت تقدر عليه، ما عدا قصف الشمال.

ومع ذلك، فليس هناك أي عضو من أعضاء الحكومة، يستطيع مواجهة إعادة قصف الشمال بفرح وبساطة. وكنا نتذوق آنذاك طعم أيام شهر العسل التي لحقت تولية الرئيس الجديد، علماً أن نيكسون لم يستفد حتى الآن من رضا الرأي العام. وليس بيننا من لديه الشجاعة، لمجابهة موجات الاستنكار، التي من شأنها أن تهيب بالبلاد على المطالبة بإعادة قصف الشمال، ولسوء الحظ، لم يكن سهلاً إيجاد حلول أخرى غير العودة إلى قصف الشمال.

في الثلاثين من كانون الثاني، أجريت محادثة في البنتاغون مع كل من ليرد وويلر للمشاورة في الطريقة التي نتمكن بها من الصمود وردّ هجوم معاد متوقع في فيتنام الجنوبية. فأعاد ويلر إلى ذهني، ان القوات الأمريكية المتركزة في فيتنام الجنوبية، قد تقدمت في ارجائها تماماً، فيصبح والحالة هذه الردّ المجدي والممكن في اجراء عمليات في المنطقة المجردة من السلاح، أو العودة إلى القصف في الشمال. أما ليرد فقد عارض هذا الاقتراح، موضحاً ان إيقاف القصف، أوجد الأمل في الرأي العام حول حلّ قريب للنزاع. فلم أكن بالطبع من انصاره، لأني كنت أرغب جادّاً في اعطاء المفاوضات المجال للوصول الى وضع حلول للقضية. وفي الأول من شهر شباط، بعث لي نيكسون بالكلمة التالية: «إني لا اوّيد أن أقرأ بين سطور البيانات التي تطلقها الصحافة، في أننا نتربص بالشيوعيين حتى يُقدموا على هجوم في فيتنام الجنوبية، فاذا كان ثمة لا بد من هجوم، فيجب ان يكون من قبلنا لا ان يكون ضدّنا». لكنني عندما طلبت الى رئيسي الأركان العامة، إيقافي على اقتراحاتهما، أجاباني كالمعتاد،

عارضين عليّ وبخطوط عريضة ما لديهما من مخططات يرتكزان عليها، لتوجيه هجمات جوية أو بحرية ضد أهداف فيتنام الشمالية، وهذه المرة أيضاً، كنت متفقاً مع ليرد، ولم أستطع استيعاب الحل الذي يريدان.

فاتجهنا عندها إلى قصف مراكز فيتنام الشمالية بما فيها الأهداف الكمبودية، وكان هذا لأسباب مخالفة تماماً لما صُمِّمَ. فلم تكن غايتنا توسيع الحرب بل وضع حدّ على الأقل لهجوم غير متوقع كان يكلفنا أسبوعياً حياة (٤٠٠) أربعمائة أمريكي.

وفي التاسع من شهر شباط، اتّصل الجنرال ابرامز من سايغون بالجنرال ويلر، ليقول له، أن هناك معلومات جاءه بها أحد الفارّين من الجيش، مع صور كانت قد أخذت لتأكيد هذه المعلومات، يستنتج منها أن القيادة العامة الشيوعية لكامل فيتنام الجنوبية، تتواجد تماماً في الجهة الأخرى من الحدود الكمبودية (ولما كنت لا أملك الخبرة الكافية في تلك الفترة، فقد تأثرت كثيراً بهذه البراهين التي لا يمكن الشك فيها، أكثر مما يجب أن أكون عليه بعدئذ، فبعد ثماني سنوات والحالة هذه، كان على القادة الشيوعيين في فنوم بين، أن يؤكدوا كذلك، إن المعلومات التي أدلى بها ذلك المجنّد الفار كانت دقيقة في هذا الموضوع بالذات). فطلب ابرامز تفويضه باستعمال B.53 في هجوم جوي ضد القيادة العامة. وشارك السفير بونكر في هذا الطلب.

وفي الثامن من كانون الثاني لعام ١٩٦٩، خلال فترة الانتقال، أرسل لي الرئيس المنتخب الكلمة التالية: "بمناسبة الدراسة التي تجرونها حول فيتنام أرغب في أن تقدمّوا لي مذكرة واضحة، حول ما يملك العدو في كمبوديا، وهل يملك أكثر ممّا نظن، لنتمكن من تدمير منشآته. واعتقد أن في حال تسلّمنا الحكم، فإن إحدى المهام التي لها الأفضلية، يجب أن تكون تغييراً أساسياً في سياستنا تجاه كمبوديا". وقدم الجنرال غود باستر تقريراً فيه معلومات مفصّلة عن مراكز فيتنام الشمالية المتواجدة

على امتداد الحدود الكمبودية. وكان يذكر فيه كذلك أن قيادتنا على أرض فيتنام الجنوبية على ثقة أن معظم التجهيزات والأغذية التي تدخل إلى كمبوديا تمر بسيهانوكفيل وإننا لا نقوم بشيء لردع مثل هذا العمل ...... ولقد طلبت القيادة عدة مّرات تفوضيها بدخول كمبوديا للقيام بعمليات وقائية وملاحقة القوات التي هاجمتها وتلتجئ إليها. ورُفِضت كل هذه الطلبات، أو لم يُتوصل إلى اتخاذ قرار بها.

أن الدور الذي تلعبه سيهانوكفيل كان احدى النقاط المتنازع عليها في دراستنا الأولى. وان القيادة العسكرية الأمريكية في سايغون كانت على إعتقاد، أن في شهر تشرين الأول من عام ١٩٦٧ إلى شهر أيلول من عام ١٩٦٨، فان عشرات الآلاف من أطنان الأسلحة قد أدخلت عن طريق سيهانوكفيل، الأمر الذي أنكرته وكالة المخابرات المركزيّة ووزارة الشؤون الخارجية. لان هذين الاخيرين يعتبران في الواقع ان كمية المؤن والذخائر كانت تصل فعلاً إلى فيتنام عن طريق لاوس مقدّرين ان الاستعانة بطريق هوشي مين كانت تغطّي تماماً الطلبات التي تطلبها من الخارج مجموعة القوات الشيوعية، المتواجدة في فيتنام الجنوبية. ان الغرض من مناقشة الخبراء، هي معرفة حقيقة الواقع، فيما اذا كانت المعاقل الكمبودية، تشكّل هدفاً هاماً يستحق المهاجمة، وكما يحدث غالباً، فان مصالح الاستخبارات، تستوحي وجهات النظر السياسية من الوكالة، اكثر ممّا تستقصيه هي بنفسها والذين كانوا من أنصار مهاجمة المراكز العدوة، كانوا يغالون كثيراً بدور سيهانوكفيل، بينما أن الذين كانوا يعارضون كانوا يقلّلون من أهميته. وعندما دخلت القوات الأمريكية والفيتنامية الجنوبية، إلى كمبوديا في شهر نيسان من عام ١٩٧٠ عُلِم، بفضل وثائق وُجدت في مخازن أسلحة الشيوعيين، ان حجمها كان يفوق كثيراً مما كان عليه لدى العسكرين.

وأياً كان الطريق الذي يمر من خلاله العتاد والأسلحة، (سيهانوكفيل أو طريق

هوشي مين)، فلم يكن أحد قادراً على إنكار التهديد الذي تسبّبه مراكز الفيتناميين الشماليين في كمبوديا، للقوات الأمريكية والفيتنامية الجنوبيّة.

وفي الثامن عشر من شهر شباط، تلقيّت كما تلقى في الوقت نفسه كل من ليرد، وباكارد الوزير المعاون، والجنرال ويلّر، والمساعد العسكري لليرد، والكولونيل روبيرت بورسلي، تقريراً موجزاً كتبه معاً رجلان من سايغون. فأبلغت الرئيس ما كان يعتقده الجنرال ابرامز في أن ليس هناك أيّ مدني يعيش في هذه المنطقة. أضف إلى ذلك إني حذّرته من العدوان الذي يسببّه قصف هذه المراكز. وكنت على اعتقاد أن يُترك مجال للمفاوضات للوصول إلى حلّ، وأن نعمل بصورة أن الرأي العام يكمل مساندته لنا في سياستنا. وكنت اقترح عليه العودة إلى دراسة الوضع مجدداً في نهاية شهر آذار، محتفظاً إلى جانبي بتقنيّة المماطلة التقليدية، التي تتّبعها الإدارة، في وضع بلسم لقلوب الذين لم يأخذوا الاقتراحات بعين الاعتبار. وافق نيكسون على هذا الاقتراح في الثاني والعشرين من شهر شباط، ليلة سفره إلى أوروبا.

وفي اليوم ذاته، الذي عزم فيه نيكسون على تأجيل الهجوم على كمبوديا إلى أجل غير مسمّى، أرسل إلينا الفيتناميون الشماليون مشاريع غامضة، ووعيد بالاحتراس من مواجهة أزمة. وبعد أسابيع من الاستعدادات المسبقة لقدوم الحكومة الجديدة، قامت هانوي بهجوم واسع. وكان عدد القتلى من الأمريكان، خلال معارك الأسبوع الأول يربو على (٤٥٣) قتيل، و (٣٣٦) قتيل في الأسبوع الثاني، و (٣٥١) قتيل في الأسبوع الثالث. وخسائر الجانب الفيتنامي الجنوبي كانت أكثر، إذ أنها كانت بمعدل (٥٠٠) قتيل في الأسبوع الواحد. وكانت العملية تحمل طابعاً وقحاً غريباً. وفي الواقع، لم تجرِ أية جلسة مفاوضات رسميّة في باريس مع وفدنا الجديد، الذي يرأسه هنري كابوت لودج، وكانت الحكومة الجديدة تسيّر سياستها بعسر. وسواء كان ذلك

موقوتاً أو وقع مصادفة، فقد بدأ الهجوم ليلة سفر الرئيس إلى أوروبا، وقد حرمنا هذا الهجوم كل إمكانية للصمود، وأقلق الرئيس الجديد.

ذهبت كافة الاتصالات التي كان نيكسون قد أجراها خلال فترة الإنتقال مع الفيتناميين الشماليّن، دون جدوى تذكر، ودون معرفة القصد من هذه التصريحات، وقصد هانوي الأول، كان قتل أكبر عدد من الجنود الأمريكيين، ولقد بيّنت في تقرير موجه للرئيس: «ان الفيتناميين الشماليين، سببوا خسائر فادحة بالنسبة للقوات الأمريكية وفيتنام الجنوبية دون ان نستوضح بعد وحداتهم الأساسية».

وتلقى نيكسون في مكتبه البيضوي، التقرير العسكري عن الهجوم المعادي، ضمن كومة من الكتب والوثائق المتفرّقة، التي جمعها له كل من وزارة الشؤون الخارجية ومساعديّ حول كل بلد سيزورها. (وعلى اثر ذلك، كان على نيكسون ان يحتفظ فعلاً بمكتبه البيضوي للمناسبات الكبرى، مفضلاً عادة العمل، في مكتب بسيط في وسط الادارة). كان نيكسون يتصفّح الكتب بسرعة، ليستظهرها ومدمدماً ان عليه بذل مجهود كبير. وكان بادياً عليه الاضطراب. وهمته تدفعه للصمود وبقوّة لمناورة هانوي الوقحة. ولم ينقطع منذ سنوات عن توجيه اللوم لأسلافه لأنهم كانوا يتصرّفون بفتور تجاه العمليات التي يشنّها الشيوعيون. وكان يتمنى بالإضافة إلى ذلك، وبكل جوارحه، ان يكون أول سفر له إلى الخارج بصفته رئيسا، ناجحاً. وكاد الهجوم الأمريكي المعاكس يسبّب مظاهرات عنيفة في أوروبا، بينما ان وضعاً سلبياً يوشك على تشجيع العدو. فلم يتمكن من حلّ هذه المعضلة. وكان رد الفعل الوحيد في البيت الأبيض، في اليوم الأول للهجوم، اتصال هاتفي، لدوبرينين سفير الإتحاد السوفيتي. قلت له، ان الرئيس راغب في إعلام موسكو جيداً، ان في حال تتابع الهجوم الفيتنامي الشمالي سيكون هناك أخذ بالثأر.

وفي الثالث والعشرين من شهر شباط، وعندما كنا نطير متجهين نحو بروكسل، صمّم نيكسون، على قصف كمبوديا ومع ذلك كنت أجد صعوبة في إبلاغ واشنطن وسايغون أمراً في مثل هذه الأهمية من الطائرة الرئاسية الأولى، دون أخذ رأي مسبق من المسؤولين ذوي العلاقة، ودون مخطّط يقدّر النتائج، فنصحت نيكسون أن يؤجل أمر التنفيذ النهائي بثمان وأربعين ساعة. وأرسلت برقيّة مستعجلة للكولونيل الكسندر هيغ، الذي كان حينئذ مستشاري العسكري في واشنطن، ليلتحق بي في بروكسل بصحبة خبير من البنتاغون. إذ كنت راغباً في إعادة النظر بأمر العمليات الحربية، وانظّم حالاً مخططاً دبلوماسياً.

وفي اليوم ذاته،اتصل ليرد من واشنطن مبدياً تحفظاته، إذ أنه كان يعتقد استحالة إبقاء القصف أمراً سرّياً. كما أنه يصعب على الصحافة معالجة هذا الموضوع، ومساندة الرأي العام ليست بجانبنا. وكان يطلب بإلحاح الانتظار حتى تصبح الإثارة أكثر وضوحاً. وكان موقفه يعكس جيداً جو التردد الذي كنا نعيشه في ذلك الوقت، والخوف من تنبيه المناوئين، الذين أخمدت أنفاسهم المنازعات. وكان يظهر لي التأخير مخّيباً لكل اهتماماتنا الأولية، التي كناً نسعى أن نعرف من خلالها وجهة النظر الشرعيّة في تصرفاتنا، إذ كان هناك خرق لالتزاماتنا التي كنا مرتبطين بها، في حال أن أربعمائة أمريكي كانوا يقتلون أسبوعيا، وفيما كان يحاول الفيتناميون الشماليون تثبيط همتنا بهذه الوسيلة قبل التمكن من رسم أية خطة مهما كانت قليلة في سبيل الصمود أمامهم بل ردهّم. وما يدهش أيضاً عدم إجراء أية دراسة رسمية حول إمكانية العودة لقصف فيتنام الشمالية. كان إيقاف القصف ، قد قرّر مبدئيا، لإمكانية تنظيم تسوية سريعة للنزاع، لكن هذا الإيقاف كان دون نتيجة.

كنت اشارك ليرد في استخلاصاته حول قصف المراكز الكمبودية، ولو لم أتبعه

في تفكيره. وحسب رأيي، ان عدم ردّ فعل من قبلنا على القرار الرهيب الذي اتخذته هانوي، يوشك على تدمير كل أمل بالوصول إلى مفاوضات.وهانوي ترى من خلال عدم ردّ الفعل من قبلنا برهاناً علىعدم قدرة نيكسون على الصمود للضغوط الممارسة ضدّه في الولايات المتحدة، وهذا يشجّع طبعاً الفيتناميين الشماليين على القيام بتحرّيات عسكرية أخرى، لإقلاق وإرباك وضع نيكسون كما أربكوا جونسون قبله. واختيارهم لهذا الوقت بالذات كان يقلقني. ولا أجد من الحكمة القيام بعملية عسكرية جديدة، في حال ان الرئيس كان يزور أوروبا، ويمكن ان يكون بالنتيجة عرضة لمظاهرات معارضة، دون التمكن من لقاء حكومته ولّم شعثها. أضف إلى ذلك، فان نظريّة جعل قضيّة فيتنام الشمالية، مدار كل تصريحاتنا للصحافة الأوروبيّة أو لإظهار صلابة موقفنا لدى الحكومات المتحالفة معنا، والتي كانت غير قادرة على التوفيق بين موقِفَيها لمساندتها لنا في قضيّة فيتنام، ومن جهة أخرى، موقفها الرسمي الذي كان يتوقف على التخلّي عنها أيضاً)، فكل هذه الأمور مجتمعة لم تكن لتروق لي أبداً. أسررتُ بكل هذه الأفكار للرئيس نيكسون، في بون فما كان منه إلاّ أن ألغى مخطّطة في اليوم التالي.

ان الهجوم النصفي، كما دعوه، أوضح عدم ثبات وضعنا في المجال الداخلي، ان هذا الهجوم المعادي أعدّ وبكل تأكيد منذ شهور، وعند حدوثه كانت الحكومة الجديدة في سدة الحكم، قبل أربعة أسابيع بكل تدقيق. والعدو نفسه غير قادر على معرفة نوايانا، طالما أننا أنفسنا لا نعرفها. ومع ذلك، ففي التاسع من شهر آذار، اتّهمت نيويورك تايمس الحكومة الجديدة بإثارة هانوي «ألم نمض شهراً، في دراسة الحلول المختلفة، التي تنكشف لنا، من خلال حرب، زجّت بها حملة عسكرية تتجاوز خمسمائة الف رجل؟» وكان ممكناً متابعة قراءة ما كتبت «ان الحقيقة المحزنة هي ان

محادثات باريس هي حالياً في جمود، بينما أن السفير لودج ينتظر الضوء الأخضر من البيت الأبيض، لتقديم إقتراحات جديدة للسلام أو للبدء بمفاوضات خاصّة، التي هي وحدها طبعاً، توحي بالتقدّم الحقيقي. لقد أوقف كل شيء، لإفساح المجال أمام حكومة نيكسون لتدرس بعناية الوضعين العسكري والسياسي. وعلى الكونغرس ان يردّد قريبا صدى وجهة النظر هذه».

اتخذ الرئيس موقفاً معتدلاً عموماً، فيما كان يكظم غيظه على انفراد. وكان يُعلن خلال اجتماع جرى في الرابع من شهر آذار:

«لم نتصّرف بتهوّر وتسرّع، ولكن لا يجب ان يؤخذ صبرنا وتساهلنا اللذين أبديناهما، أو عدم صدور ردّ فعل من قبلنا، مأخذ الضعف. اننا لن نتساهل أبداً في متابعة خرق الاتفاقيات التي أجريت. ولن نتحملّ بعد هجوماً يُترجَم إلى خسارة في الرجال أكثر من ذي قبل. في حين اننا نجهد أنفسنا بكل صدق، في باريس، لإيجاد تسوية صلح على طاولة المفاوضات، وفي حال تتابع هذه الهجمات، سنتخذ الاجراءات التي تسمح لنا بالردّ عليها».

وفي الرابع من شهر آذار، نقلت للرئيس، دون مقدّمات ولا تعليق، مذكرة من ليرد، كان يوضح فيها سبب معارضته لاقتراح رئاسة الأركان المشتركة بمهاجمة فيتنام الشمالية . كان ليرد بعيداً ان يكون حمامة للسلام، ففي الظروف العاديّة ، كان يميل دائماً لإختيار القتال. وكان يفّضل اختيار طريق النصر. لكنه مع ذلك كان يختبر مدى موافقة الرأي العام والكونغرس. وبصفته رجلاً سياسياً، فلم تكن تنقصه الفطنة، وكان على دراية من أن الذين يقيمون الحواجز هم في خطر المجازفة بمستقبلهم السياسي، ومن جهته، لم تكن نيّته الإقدام على هذه التضحية. ولهذا السبب، كان يسير بحكمة من خلال تجاربه التي تشير عليه بإجراء هجوم عسكري

معاكس، أما طبعه السياسي، فكان يحمله على الاعتدال. وبمعارضته لقصف فيتنام الشمالية، أصبح نصيراً قوياً لمهاجمة مراكز كمبوديا (ونقطة عدم اتفاقه الوحيدة كانت تتوقف على الخطة الواجب اتخاذها نحو الصحافة، التي حسب رأيه وفي الواقع، لم تكن ممكنة ، لاسباب عمليّة وليست أخلاقية ان يبقى القصف سرّياً). والرئيس الذي اعتبر هذا الرأي صحيحاً، أمر بمهاجمة المراكز المعادية في كمبوديا في التاسع من شهر آذار. وكان روجرز قد أعلن عدم موافقته في السابع منه، ودعى لانتظار نتائج المحادثات الخاصّة في باريس.

وللمرة الثانية، يلغي نيكسون رأيه. لكن غيظه وعدم صبره، كانا يتزايدان ،كلّ مرة، يرى نفسه مجبراً على التراجع عن قراره. كان يردد أنه لم يكن يريد أن يهاجم الشمال، لكنّه يريد الإقدام على أمر ما. وفي الرابع عشر من شهر آذار، اثناء مؤتمر صحفي، سُئِل عمّا اذا ما نفذ صبره إزاء الواقع في فيتنام، فأجاب نيكسون:

«تلاوة صحف هذا الصباح، المبيّنة أن خسائرنا في الأسبوع المنصرم، تضاءلت من أربعمائة إلى ثلاثمائة رجل، فهذا لم يشجّعني أبداً. وهذا الرقم مرتفع جداً. ولكن يجب علينا تقدير ردود فعلنا من خلال نتيجة المفاوضات الجارية في باريس. وسأجيبكم في حينه، كما عملت في ظروف مشابهة... لقد وجّهنا انذاراً، ولن نعود إليه مرّة ثانية. واذا رأينا مستوى خسائرنا تجاوز مدى احتمالنا، سنتخذ الاجراءات التي يمليها علينا الموقف».

وفي اليوم التالي، أُقدم على خطوة أخرى في خرق اتفاقاتنا، إذ قذف الفيتناميون الشماليون خمسة صواريخ على سايغون وخلال الأسبوعين ألاولين من شهر آذار، أقدم العدو على اثنين وثلاثين هجوماً ضد المدن الكبيرة في فيتنام الجنوبية. وفي اليوم ذاته، الذي سقطت فيه الصواريخ على سايغون، تلقيت في الساعة الخامسة عشرة

وخمس وثلاثين دقيقة. أتصالاً من الرئيس، وكان يأمر بإجراء هجوم سريع بقاذفات B52 على مراكز كمبوديا. أن نيكسون الذي لمس معارضة جميع مخطّطاته طيلة شهر، أصبح حازماً أن وزارة الشؤون الخارجية لن تأخذ علما بذلك إلاّ في حال أن النكوص عن القرار يصبح معدوماً..... فلا مجال لمناقشة هذا الأمر .... وجملة لا مجال للمناقشة كانت إحدى الجمل المحببة إلى نيكسون وبالنسبة لمن يعرفه، فإن هذه العبارة، كانت تعكس في الواقع، تردّداً كبيراً، ممّا يدل أن لها في الواقع مفعولاً على متابعة المحادثات وليس على إيقافها.

وصارحت الرئيس، في أنّه لا يستطيع اتخاذ قرار بهذه الأهمية. دون إعطاء مسبق لأقرب مستشاريه، فرصة لإبداء وجهات نظرهم، وليس هذا سوى الدفاع عن أنفسنا في حال إثارة هذا القرار لردود فعل صاخبة في البلاد. ليس هناك ما يدعو إلى ضياع الوقت. يجب وضع مخطط تفصيلي، للتغلب على كل أمر متوقع الحدوث. وإعداد التعليمات بهذا الشأن يتطلب على الأقل أربعاً وعشرين ساعة. حدّد اجتماع يعقد في اليوم التالي في المكتب البيضوي. فأخذت رأي ليرد الذي كان موافقاً تماماً على قرار الرئيس. وكتبت بناء على رغبة الرئيس، مذكرة أوجزت فيها ما هو بصالحنا وما هو ضدّنا،أن الخطر كان ينطلق من حدوث احتجاج ولو صورياً من قبل كمبوديا، على ردّ الفعل الشديد الذي بدر من قبل السوفيت، ومن مقاومة قوية في كمبوديا، لهجوم معاكس مباشر من قبل فيتنام الشمالية، بالرغم من صعوبة فهم ما ستتخذه هانوي، أكثر ممّا كانت تفعل . وأخيراً، كان يخشى من عودة النزاعات داخل البلاد، وقيام مظاهرات جديدة معارضة للحرب. كنت اعتقد أنه سيكون من الأنسب أن يقترح وفدنا المفاوض في باريس عقد اجتماع خاص يوم القصف، كي نؤكد أننا نفضّل حلاً يصدر نتيجة مفاوضات. وكنت أطلب دوماً من الرئيس أن يؤكد على شركائه كي لا يشكل القصف الذي نحن بصدده أيّة سابقة مهما كانت.

وقد شارك في الاجتماع الذي جرى في المكتب البيضوي، بعد ظهر يوم الأحد الموافق للسادس عشر من شهر آذار، كلّ من روجرز وليرد وويلّر وأنا. وكانت المرة الأولى لنيكسون، منذ استلامه زمام الحكم، يجبر فيها على اتخاذ قرار واقعي، خلال أزمة دوليّة صارخة. انها المرّة الأولى أيضاً، كان عليه معارضة المشتركين معه في خطة عمل كان هو قد اختطّها. فواجه نيكسون الصعوبة بطريقة ستصبح في المستقبل ظاهرته المميّزة. من جهة، ان قراره كان قد اتّخذ، ولم تكن نيّته الرجوع عنه. أضف إلى ذلك انه كان أعطاني تعليمات لأوقف وزارة الدفاع على واقع الأمر، بأربع وعشرين ساعة قبل الاجتماع. وكان يفكّر من جهة أخرى، ان يعمل كما لو ان القرار لم يكن بعد نهائياً. وجرّنا ذلك إلى إجراء محادثات لا نهاية لها، وجدها كريهة، قوّت ميله إلى إخراج المعارضين من المداولات اللاحقة.

كان توجّه المكتب البيضوي ضمن التسلسل المتوقّع. وكان ليرد وويلر نصيرين حازمين للهجوم. أما بالنسبة لروجرز فان اهدافه لم تكن تستند إلى أسباب سياسة خارجية، لكن إلى أسباب وضع داخلي. فلم يحرّك ساكناً في مسألة تنظيم كمبوديا البلد المحايد، فمن المقبول ولمرّة واحدة ويحق ان نرد بهجوم معاكس على الخرق الفاضح لحياد كمبوديا من قبل فيتنام الشمالية، لأن كمبوديا غير راغبة في الدفاع عن هذا الحياد أو انها غير قادرة. وكان روجرز يخشى المثول أمام الكونغرس في حين ان الإضطرابات الاجتماعية تكون قد بدأت، مع العلم انه يقال ان الامور أخذت تهدأ. ودامت المناقشة عدة ساعات، وكاد ليرد وويلر يقنعان نيكسون أن يُقدم على اكمال ما أمر به. اما بالنسبة لي، بعد ان بيّنت وجة نظري في المذكّرة التي قدمتها لنيكسون لم اتدخل في الموضوع. وعند الختام، قبل روجرز بمبدأ هجوم B52 يوجه نحو المنطقة، التي يظن ان قيادة الشيوعيين العامةّ تعسكر فيها. ان هذا النوع من المداولات معبّر. فبعد شهر من اعتداء فيتنام الشمالية الذي تسبّب بأكثر من ألف قتيل

من الجانب الأمريكي، كنّا نقوم وبعد عدّة أسابيع من المناقشات الحادّة، بغارة جويّة أمريكية واحدة، علىعمق ثلاثة كيلو مترات داخل الحدود الكمبودية، في منطقة يشغلها منذ اكثر من أربع سنوات فيتناميون شماليون. وهذا ما سوف يسجّلة التاريخ مثالاً على عمل غير متكافئ وبلا مبّرر.

وبعد الاجتماع، فان رئاسة الأركان المشتركة، أكدت الانضمام إلى ما كنّا عزمنا عليه من شن عدة غارات توجه ضد تجمعات القوات الفيتنامية الشمالية، التي تخرق المنطقة المجردة من السلاح. وكنا نفكر ليرد وأنا، أنه من المهم جداً الاحتفاظ بروجرز الى جانبنا ورفض الاقتراح.

جرى هجوم B52 في الثامن عشر من شهر آذار ضد القاعدة (٣٥٣)، على عمق خمسة كيلو مترات داخل الحدود. وفي سبيل هذه العملية، راح البنتاغون يبحث في محفوظاته التي لا تنضب عن اسم رمزي لها فأعطيت "الفطور" اسم مجرد من كل طعم وذوق. وعندما تصيب غارة جوية مستودع وقود أو ذخيرة، فتحدث دائماً انفجارات ثانوية، تثبت بنوع عملي أكيد أن الغارة أصابت أهدافها. وكان أول تقدير أرسله إلينا القائمون بالعملية "فطور الثامن عشر من شهر آذار". وكان التقدير يشكل ثلاثة وسبعين انفجاراً فرعياً معظمها كان في المنطقة المحددة، بقوة خمس مرات أعظم من تلك التي تسجل عادة خلال انفجارات فرعية عادية.

وفي شهر أيّار، أمر نيكسون بمهاجمة سلسلة أخرى من القواعد الكمبودية، وكلها مهجورة من السكان ومنتشرة على طول الحدود، على عمق أقل من ثمانية كيلو مترات منها. فالهجوم على القاعدة (٣٥٠) أطلق عليه اسم "تحلية" وأطلق على الهجوم على القاعدة (٣٥١) اسم "عصريّة" وعلى الهجوم على القاعدة (٧٤٠) اسم "عشاء" وعلى الهجوم على القاعدة (٦٠٩) اسم "فطور" وعلى الهجوم الأخير على القاعدة (٣٥٢) اسم "غداء" منطلقاً من المبدأ القائل: من كوّن فكرة عليه اتباعها حتى النهاية،

كما أن مجموع هذه العمليات أطلق عليه اسم "وجبة طعام" وأصبح الهجوم متناوباً من شهر نيسان إلى بداية آب عام ١٩٦٩. وكل هجوم كان يصدق عليه وبنوع خاص من قبل البيت الأبيض.

وأعطى نيكسون بعدئذ تفويضاً عاماً، وجرت الغارات الجويّة حسب الأصول.

ويكفينا النظر إلى الخريطة التي تبيّن بدقة، طول الحدود، وشريط الأرض الضيّق الممتد لبعض كيلو مترات فقط، حيث كانت تتواجد عليها القواعد. لنتمكن من الأخذ بعين الاعتبار، أن اتهامنا بسبب القصف المكثّف لكمبوديا المحايدة، كان مجّرداً عن كل أساس.

كانت التقارير العسكرية تتوالى لإطلاع نيكسون عما تحدثه عمليات "وجبة طعام". وكتب في شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٩ على أحد هذه التقارير: "أكملوا الغارات". وفي شهري كانون الأول من عام ١٩٦٩، وشهر شباط ١٩٧٠، طلب تقويم جدوى مفعولها. فأجاب ليرد، أن بالنسبة للجنرال ابرامز والسفير بونكر، فإن عمليات "وجبة طعام" كانت إحدى العمليات الأكثر جدوى في كل هذه الحرب. ثم أكد الجنرال ابرامز أن "وجبة طعام" كانت قد قلبت منطق العدو رأساً على عقب وأبطلت الكثير من هجماته، وأنقصت بصورة كبيرة التهديد الذي كان يمارسه على منطقة سايغون. أما ليرد فأخذ على مسؤوليته رأي رئاسة الأركان المشتركة والجنرال أبرامز، الذي كانت بموجبه عملية "وجبة طعام" أكثر جدوى وستبقى كذلك، مسببة أضراراً مقبولة. كانت نيّتنا في المرحلة الأولى، التعرّف على عملية "الفطور" وعمّا إذا كان الكمبوديون أو الفيتناميون الشماليّون، يقومون برد فعل، الأمر الذي كنا ننتظره بفارغ الصبر. وهكذا فإن وكالة الاستخبارات المركزية كانت ترى من خلال المذكرتين اللتين تقدمت بهما في العشرين من شهر شباط والسادس من شهر آذار، أنه كان حقيقياً أو شبه حقيقي، أن هانوي كانت تسعى للاستفادة من هذا الوضع،

لغايات دعائية، متهمة أمريكا بإطالة أمد النزاع. أما وزارة الدفاع فكانت تشك في إمكانية إبقاء الهجوم سرياً. وبالنسبة لي، كنت أعتقد أن ليس هناك ما يحملنا على معرفة ذلك.

وأثناء محادثة أجريتها مع نيكسون في الثامن من آذار صارحته بما يلي:

«إني متفق بالرأي مع باكارد، وفي حال القيام بهجوم، يجب ان نفكر هل يفيدنا كتمانه، وإلاّ علينا التحلّي بالجرأة للإعلان عمّا نكون قد أقدمنا عليه». فوافق الرئيس على ذلك. وقمنا بالإستعدادات اللازمة للردّ على كمبوديا في حال إعتراضها.

إذا أردنا البقاء متكتمين في البداية، على هذه المجابهات، فهو لاجتناب إرغام الفيتناميين الشماليين، وسيهانوك أمير كمبوديا، والسوفيت والصينيين، للإحتجاج رسمياً، الأمر الذي ربما لن يقدموا عليه. وتصريح مفاجئ من قبل أمريكا، يُلزم هانوي على اعلان ردّ فعلها علانية، الذي يمكن ترجمته بهجوم معاكس عسكري أو بقطع محادثات السلام. وتستطيع كذلك إرغام سيهانوك على إتخاذ موقف رسمي، منحاز إلى جانب هانوي، في الوقت الذي كان يجتهد البقاء على توازن تام مع موقف الحياد القاسي. وتستطيع في النهاية تحريض الاتحاد السوفيتي والصين على ابداء ردود فعل تعطل الجهود الحقيقية التي نقوم بها لإعداد دبلوماسية بين بلداننا الثلاث.

لكن هانوي لم تحتج، خلافاً لكل توقع. وقبل وفدها في باريس الإقتراح الذي تقدم به لودج في الثاني والعشرين من شهر آذار، حول بدء محادثات منفردة، باقل من أثنتين وسبعين ساعة بعد أن أشرنا إليه بذلك. وبالنسبة لسيهانوك، فانه ليس فقط لم يحتج، بل أيضاً، اعتبر القصف شيئاً لا علاقة له به، لأنه كان يتساقط على مناطق مشغولة كلها بفرق فيتنامية شمالية، ولم تصب أياً كان من الكمبوديين، وبالتالي، فان القصف كان خارج حدود نفوذه، وكان الأمير يتجاهل حتى معرفة حدوثه.

وفي الواقع، فان علاقتنا مع كمبوديا، قد تحسنت وبصورة مذهلة طيلة فترة القيام بالقصف. ان دقة ومهارة دور سيهانوك، سمحتا له بايجاد توازن بين الضغوط الداخلية والخارجية، وكانتا منذ عشر سنوات موضوع دهشة الجميع. ان نوردوم سيهانوك، الأمير وريث التاج، الذي تصرّف بطريقة تضمن له مساندة كبرى من معظم السكان، كان يبدو الآن قويّ الجانب. ولقد قوّى استقلال بلاده، واكتسب نفوذاً لا يمكن الاستغناء عنه. وعمل كل ما يلزم لابقاء بلاده على الحياد. وهكذا بعد اتفاقية لاوس عام ١٩٦٢، توصل الى الاستنتاج بأن الشيوعيين - الذين كان يبغضهم - ربما نقلوه الى الهند الصينية. ولقد تكيف وفق هذه الحقيقة، موافقاً على ان يركز الفيتناميون الشماليون قواعدهم في بلاده. ووجد عام ١٩٦٥ حجّة لقطع علاقاته الدبلوماسية مع الولايات المتحدة. غير أنه تعاون خلاف رغبته مع الشيوعيين. وكانت هانوي تساند شيوعي كمبوديا الذين كانوا قد بدؤوا القيام بأعمال حرب العصابات، قبل تدخّل أمريكا في كمبوديا. وكان سيهانوك قد حكم آنذاك بالموت غيابياً على القادة الشيوعيين. ولكل هذه الأسباب مجتمعة، عاضدت روجرز بقوة، عندما قام باسداء نصيحة للرئيس في شهر شباط من عام ١٩٦٩، حول القيام بمسعى لدى سيهانوك، بغية تحسين العلاقات بين بلدينا، ان محاولات الانفتاح هذه لاقت ترحيباً حاراً، وعادت سفارتنا في فنوم بين الى فتح أبوابها بإدارة قائم بالأعمال.

ومع ذلك، ما كان واقع القصف الذي قبل به سيهانوك ليفاجئنا. لقد صرّح في الواقع، منذ اليوم العاشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٦٨ إبان الحكم السابق، الى موفد الرئيس شتر بوولز بما يلي:

«لا نريد بقاء أي فيتنامي في كمبوديا... سنكون جدّ سعداء في حال تنظيم هذه المشكلة. ولأجل هذا، لن نعترض على ما تقدمون عليه في هذا السبيل ولو استعملتم

العنف في المناطق غير المأهولة. وعندما تقومون بذلك تخلصوننا من الفيت كونغ. وبالنسبة لي، لا يوجد ما يهمني سوى كمبوديا. واني راغب في ان تجبروا الفيت كونغ على مغادرة كمبوديا. وإذا إقتضى الأمر وبكل وضوح الى الهجوم على المناطق غير المأهولة، حيث لا يتواجد كمبوديون، فلن أبدي اهتماماً».

وفي الثالث عشر من شهر أيار عام ١٩٦٩، أي حوالي شهرين، بعد البدء بالقصف، أجرى سيهانوك مؤتمراً صحفياً، اعترف خلاله بصورة شبه تقريبية بالقصف، لكنه نفى في الوقت نفسه وبحرارة وجود قتلى، وكان يدعونا الى اكمال طريقنا في الاتجاه نفسه، مهما كانت نوايانا الفعلية فقال:

«اذا كنت لم أعترض على قصف مراكز الفيت كونغ، فسبب ذلك اني لم أسمع أحداً يتحدث عن هذا القصف. ولم أكن على علم به، وبكل بساطة لانه لا يوجد كمبوديون في بعض مناطق كمبوديا».

«إن كمبوديا لا تحتج إلاّ عند حدوث أضرار حياتية أو مادية لدى الكمبوديين. وكل ما أستطيع قوله هو: طالما أني لم أعلم بشيء، يعسر عليّ الاحتجاج. ولكني سأقدم على ذلك اذا قتل كمبوديون، أو إذا أصيبت أملاكهم بأضرار».

«وهذا أول تقرير يتعلق بعدة غارات من B52، ومع ذلك لم أعرف عنه شيئاً، لانه لم يسبب لي، لا هدم بيتي، ولا مقتل أحد مواطني، ولا أي ضرر آخر مهما كان نوعه. ولم يتضرر أحد من الغارات التي هوجمت بها المناطق ولا واحد قطعياً، على كل حال ولا كمبودي».

وأنيّ أصرّ على القول، ايها السادة، لو ان كمبودياً واحداً، او جاسوساً قتل، كنت أعلمتُ بذلك حالاً. لكن الموضوع الآن بين الأمريكان والفيت كونغ ـ وهؤلاء

الأخيرون بعيدون عن أي دليل كمبودي - وبما أنه لا يوجد أي دليل كمبودي، فلماذا تطلبون مني أن أحتج. وعلى كل حال، فان هذا لا يعني انـي سأترك هذا المعسكر أو ذاك يتعدّى على أراضيّ وبلادي. واطلب اليكم ان تسجّلوا ذلك جيداً.

وفي الثاني والعشرين من شهر آب عام ١٩٦٩. تحدث سيهانوك وباللهجة نفسها مع مانسفيلد عضو مجلس الشيوخ:

«اذا لم يبدر أي احتجاج من سيهانوك، على أثر القصف الذي جرى في بلاده، هو لأن هذا القصف لم يصب لا قرى ولا كمبوديين مدنيين، لكنه أصاب فقط الفيت كونغ أو قواعدهم. وفعلا لقد أعلمني سيهانوك بكل ما كان يعرفه عن القصف الأمريكي، في المناطق غير المأهولة من كمبوديا، وكان قد أستقى ذلك مما قرأه من تصريحات في الصحافة الأمريكية، ولقد أكد كثيراً على تجنب الحوادث التي تعرّض للخطر حياة الكمبوديين».

وفي الحادي والثلاثين من شهر تموز عام ١٩٦٩، وبعد أربعة أشهر ونصف من قصف قواعد فيتنام الشمالية في داخل كمبوديا، دعا سيهانوك وبحرارة الرئيس نيكسون لزيارة كمبوديا للاحتفاء بتقوية أواصر العلاقات الأمريكية ـ الكمبودية. كانت هذه العلاقات تسير في تحسن مضطرد حتى أطيح بحكومة سيهانوك، دون أي توقع سابق.

لم يكن هناك أي ريب في حقنا، عندما كنا نهاجم مناطق، ينطلق منها الفيتناميون الشماليون، ليقتلوا قوات أمريكية ومتحالفة. وكانت قد طردت من هذه المناطق، كل إدارات الحكومة الكمبودية، والتي لم ينفق فيها، حسبما جاء في كلام سيهانوك نفسه جاموس واحد. لم نكن نرى أيّ نفع في الإعلان أن كمبوديا كانت تشجعنا على متابعة القصف، وأن فيتنام الشمالية، لن تقوم بردود فعل. وأن احتفاظنا بهذا السر، كان

حتى لا تثير هذه القضية أزمة دولية، الأمر الذي يعقّد بالطبع جهودنا، سواء في المجال الدبلوماسي، أو المجال الحربي.

❐ ❐ ❐

إن إحدى المفارقات العديدة في التجربة الفيتنامية، كانت تلك الأبعاد التي سرت سريعاً في تناقضات الرأي العام. كان معارضو الحرب يحثّون الحكومة، على الأخذ بمبادئ المفاوضات التي يقترحون. إذ كانوا يتبنون أفكاراً محدّدة، هي أساسية حسب رأيهم لإيجاد السلام. ولكن هل تتقبلها الحكومة، التي كانت تعلن أنها غير كافية. إن برنامج السلام كان يتغيّر دائماً (لم تكن هانوي تهتّم فعلياً بتلك الاقتراحات التي يقدمها مريدو السلام للوصول إلى اتفاق، لكنها كانت تستخدمها لإثارة الرأي العام ضدنا.

في العشرين من شهر كانون الأول لعام ١٩٦٨، وجهنا مذكرة للفيتناميين الشماليين، مؤكدين في الواقع أننا على استعداد للبدء بمفاوضات جادّة:

١- أن حكومة نيكسون على استعداد لإجراء مباحثات رسميّة.

٢- يجب أن ترتكز هذه المباحثات على عزّة النفس القوميّة والحفاظ على شرف جميع الفرقاء.

٣- أن حكومة نيكسون على استعداد للوصول إلى اتفاق مشرّف، لكنّها لن تضحّي بشيء في هذا السبيل.

٤- وإذا وافقتنا هانوي على رأينا، فإن حكومة نيكسون راغبة في المقام الأول في مناقشة أهداف أساسية.

٥- وإذا رغبت هانوي مشاركتنا بالرأي في بعض هذه الملاحظات قبل اليوم العشرين من شهر كانون الثاني، فسنقوم بدراسة ذلك من خلال منظار بنّاء. وبطريقة سرّية جداً.

وتلقيّنا جواب فيتنام الشمالية في اليوم الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول لعام ١٩٦٨، وكان لا يعير اهتماماً كبيراً لا للشرف ولا للعزّة القوميّة. وكان يتضمن فقط مطلبين أساسيّين: الانسحاب الشامل القطعي لكل القوات الأمريكية، وإبدال ما كانت تسميّه هانوي: "جماعة تيو - كي - هيونغ"، وهذا تعبير ترغب من خلاله تعيين مفاوضين من سايغون، مفروض التفاوض معهم. أما هانوي فكانت تكتفي من جانبها التأكيد على موقفها الرسمي، الذي حدّدته اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطنية (فيت كونغ) في الثالث من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٨ أي قبل يومين فقط من إيقاف القصف الذي أعلن عنه الرئيس جونسون. وبعيداً عن حصول أي عمل متبادل، كما كان يتوخاه البعض، فإن إيقاف القصف، كان قد شجع هانوي على فرض بعض المطالب الرئيسية في المجال السياسي، ممّا ساعدها على البدء في إسقاط الحكومة التي كنا نحن نساندها.

وهكذا جوبهت حكومة نيكسون ولأول مرّة، في المجال السياسي، باجراء مغيظ من قبل فيتنام الشمالية.من المستحيل العثور على جماعتين خلقتا حتى لا تتفاهما على مصيرهما، اكثر من الجماعة الفيتنامية والجماعة الأمريكية. من جهة، فإن تاريخ فيتنام والايديولوجية الشيوعية، كانا مترادفين لايجاد قلّة ثقة شبة سقيمة مع نفاق واضح. بالاضافة إلى التفكير المنهجي والعقلاني الموروث عن الا ستعمار الفرنسي المسؤول عن عادة عُقّدية جداً، كانت لدى الفيتناميين الشماليين، حيث يلجؤون إلى التفكير المنطقي للدفاع عن قضاياهم . فكانوا يقدّمون كل واحد من اقتراحاتهم وكأنها الوحيدة من حيث القبول في المناقشة من وجهة نظر منطقية، ويصيغون كلاً من

متطلباتهم بصيغة الأمر كأن يقولوا «يجب على الولايات المتحدة». وفي عام ١٩٧١، كان الفيتناميون الشماليون يتحكمون فينا، وحين أبدلوا كلمة «يجب» بكلمة «يجدر بهم» اعتبرنا ان هذا كان تقدماً ملموساً. ومن جهة أخرى فأن الصفات الطيّبة التي كان يتحلّى بها الأمريكان كان يقال لها ارادة خيّرة وروح تسامح، وهذه صفات تدعو جميع الأسباب لاحتقارها من قبل لينينيّن عقائديين، كانوا يعتقدون انهم رسل مجتمع لا بدّ آتٍ، وحقيقة مطلقة، وأخلاق عليا.

إن بقاء الفيتناميين الشماليين، كان يتعلّق، على مدى تاريخهم، بمهارتهم الكبرى، في المعالجة الماديّة للغرباء الذين كانوا أقوى منهم، وكان عليهم بأي ثمن ان يجتنبوا إظهار أنفسهم بمظهر الضعفاء، وهكذا، فإنه بالنسبة لهم، قبول امكانية الوصول إلى تسوية، كان يوازي لديهم الإقرار ببعض الشأن لخصومهم، ويشكل في ذاته تفكيراً غير مقبول أو معقول. ولأجل هذا فإن الفيتناميين، كانوا قد اتبعوا طريقة الاتصالات غير المباشرة، وهذه كانت حسب الرأي الأمريكي ملتوية ومحيّرة. ومع علمنا بأنهم يدينون بقدرتهم على دمج رجال ونساء من مختلف الثقافات والعقائد، ومع ذلك فان الولايات المتحدة، كانت قد أختطّت لنفسها مبدأ الحلم، ونحن كأمريكيين، لم تكن عادتنا اجراء تصدّعاتٍ لا تنعكس، بل كان اعتقادنا ان تسوية نزاع ما، كان عليها أن تمرّ في مرحلة تتوسط بين موقفين متضادّين. ولكن بالنسبة للفيتناميين، فهذا كان يعني اننا غير مهتمّين بما طرحناه سابقاً واننا نعالجه سطحياً، وانهم لم يدخلوا في مواجهات عسكرية طيلة أربعين عاماً، بغية الوصول إلى تسوية، وطريقة الاتصالات الغامضة غير المباشرة، التي يسير بموجبها الفيتناميون، كانت تخصّص لإبقاء عدد كبير من السبل مفتوحة أمامهم من جهة، ومن جهة أخرى ليلغُموا وضعنا في المجال الداخلي. أما موقفنا فكان واقعياً ويتوقف على ايجاد وسيلة لمصالحة من لا يريد المصالحة، وهذا ما كانت تعتبره هانوي فخاً يجب ألاّ تقع فيه، أو ضعفاً يجب عليها إستغلاله.

إن موقف فيتنام الشمالية هذا جاء من كونهم يرون أن المفاوضات لا تشكل لهم مبادرة منفصلة عن المعركة بل هي جزء منها. إن محادثات باريس لم تكن الوسيلة المؤدية إلى اتفاق، إنما أداة حرب سياسية، فكانوا يستخدمونها كسلاح لإنهاك أعصابنا، ولإبعادنا عن حليفتنا فيتنام الجنوبية، وتقسيم الرأي العام الأمريكي، عارضين مخططات حلول غامضة، والتي حسب رأيهم لم يعمل بها بسبب الموقف الأحمق الذي تسير بموجبه حكومتنا، وبسبب عنادها. وكان يخشى الفيتناميون الشماليون، أننا نستخدم المفاوضات لنؤكد مساندة الرأي العام لنا. وإذا رفضوا التسوية، فلأنهم يعتقدون أن كل تقدم ولو ظاهرياً يوشك أن يقوي موقفنا. لذا كانوا يفضلوا طريقة المحادثات المنفردة، التي تسمح لهم بمعرفة الوضع دون دفع أي ثمن لأي تقدّم ظاهري. والغاية من كل هذا التأثير على الرأي العام الأمريكي، عند التوصّل لإجراء اتفاق على نقطة معينّة. ولكن ولا واحدة من هذه التفسيرات كانت تثبت أمام تجربة المحادثات على طاولة المفاوضات.

إن نجاح الحملة الدبلوماسيّة، التي استخدمها الفيتناميون الشماليون، للحصول على إيقاف القصف، شجعّ تجربتهم الممكن استعمالها في المفاوضات كأداة حرب بسيكولوجية. لقد استطاعوا تدمير فيتنام الجنوبية، ولاوس وكمبوديا بقوات متعددة. دون أقل مجابهة، وخرقوا بصورة جليّة اتفاقيات جنيف لعام ١٩٦٢ حول لاوس، والتي كنّا شركاء في التوقيع عليها. ومع ذلك، لما سعت الولايات المتحدة، لتوجد إحتراماً للاتفاقيات الدولية، والدفاع عن حرية الشعوب المتحالفة، فان هانوي التي أكدّت على إيقاف القصف، كشرط لقبولها في قاعة المفاوضات، قد ربحت القضيّة.

أما من وجهة نظر المفاوضات، فإن أحسن طريقة كانت بالنسبة لنا تكوين اقتراح ممكن القبول، والتمسك به دون طرح غيره حتى نحصل على مبادلة بالمقابل.

ولكن بمقدار ما كنا نثبت في موقفنا، نرى أنفسنا مجبرين على الخضوع لضغوط الرأي العام والادارة اللتين كانتا تشجعان هانوي بزيادة للتصلّب في عنادها. واستطعنا مع ذلك ابداء دليل علىحسن نيّتنا، إذ أقدمنا على تقديم اشارة أو اثنتين لتهدئة الوضع فقلّصنا من عمليّاتنا العسكرية وسحبنا قسماً من قواتنا، ورفضنا أي اجراء آخر بانتظار أن هانوي بدورها تقدّم تنازلات. لكن هذه الطريقة أيضاً كان وضعنا الداخلي يحرمنا إياها. وكانت هانوي تستخدم كلاً من هذه الاقتراحات سواء تقليص عملياتنا، أو سحب قواتنا، لتظهر للعالم صحة دعواها، ثم تعلن بعد ذلك أنها غير كافية. وما كان على هانوي سوى تحديد ما يبدو لناظريها انه كافٍ. أما بالنسبة لنا، ففي الواقع، صرفنا أكبر قسم من نشاطنا في التفاوض مع أنفسنا.

كانت محادثات باريس تسير بوتيرة ثابتة في قاعة الاجتماعات، كان فيها الفيتناميون تلميذاً مشاكساً. وكان يُحاكَم الطالب على الطريقة التي يجيب بها على أسئلة، لا يستطيع تعديل شكلها، بموجب معايير ثبتّها الأستاذ الوحيد. وخلقوا خارج قاعة الاجتماعات فكرة وهميّة أن المفاوضات كانت تشبه رواية بوليسية. فكانوا يسمعوننا كلاماً ويعطوننا دلائل مبهمة، علينا أن تعيننا لإيجاد حلول صحيحة. وإذا لم نجد مفتاح اللغز، فإن الحرب تستمر، ويتهموننا أننا أضعنا الفرصة. هناك عدد من الذين يغتابوننا رأوا طريقة هذا التصرف عاديّة، وقليل من الناس ناهضوها. أضف إلى ذلك، فإن ما من أحد تساءل فعلاً، لم هانوي لا تصيغ اقتراحات مفهومة وجليّة؟ ولماذا تتصرف بهذه الطريقة غير المباشرة والتلميحيّة. وبكل تأكيد، عندما أشرفت هانوي على الانتهاء (في شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٢) أظهرت نفسها أنها قابلة للتفاوض بصورة واضحة، وقادرة على صياغة اقتراحات واقعية، بعد أن كانت طيلة هذه الفترة ماهرة في تشويش الوضع، كما أظهرت أن صبرها قد نفذ في سبيل الحل وهي التي لم تكن تبدي أقل اهتمام سابقاً.

وقد أصبحنا في ذلك الوقت بين المطرقة والسندان، من قبل هانوي من جهة، ومن معارضي الحرب من جهة أخرى، ولا شيء يدعو للدهشة إذا وجد ضمن الحكومة الجديدة، اختلافات كبرى في الرأي والتقدير. ومضى ما يقارب العام، قبل أن نتمكن من إعداد خطة نسلكها لمتابعة المفاوضات. وكان الرئيس أكثر تشاؤماً منا جميعاً. فلم يكن يعتقد أن المفاوضات تصل إلى نتيجة ما، طالما أن الوضع العسكري لا يتغير أساساً. وحسب رأيه لن تقبل هانوي بأي تسوية، ما لم يكن لديها خيار سواه. وعموماً فهو نصير لاستخدام القوة، ولم يكن كثير الميل لإجراء مفاوضات، طالما أننا لم نتقدم في المجال العسكري.

لم تكن الأمور تسير بالصورة التي حاولنا رسمها، ففي الواقع ناقشنا طوال عدة أشهر مخطط الانسحاب المتبادل، المنصوص عليه في إعلان مانيلا الذي ورثناه. وكنا نناقش أيضاً خلال هذه الفترة، عما إذا كان علينا البدء بسحب قواتنا بعد الانسحاب الكامل لقوات فيتنام الشمالية، أو أن يكون سحب قوات الفريقين في آن واحد. وكانت مناقشة غير معقولة، بالرغم من أن هانوي مبدئياً، لم تكن لديها نيّة بسحب قواتها، وثانياً، كان العالم كله على علم أننا قررنا إجراء انسحاب من جانب واحد خلال بضعة أشهر.

والمشكلة الثانية التي واجهتنا كانت تتعلق بعدد القوات العسكرية الواجب إبقاؤها في أماكنهم التي يتواجدون فيها، بعد الانسحاب المتبادل لقوات المعسكرين.

وكل الفرقاء ذوي العلاقة كانوا يقدرون إبقاء عدد كافٍ، ربما يصل إلى مائة ألف مقاتل بجاهزية كاملة. (وهذا ما كان نوّه به كل من هاريمان وفانس في مذكراتهما السياسية خلال فترة الانتقال). وكانت وزارة الدفاع تناصر كذلك فكرة إبقاء قوات قتالية. لكننا تجاوزنا هذه المشكلة بنتيجة ما جرى في البلاد من أحداث وتنافس.

وحصل خلاف ثالث، يتعلق بتقليص القتال على أرض المعركة. أن وفدنا المفاوض في باريس، الذي كان يعتقد (خطأ) أن هانوي ستثير هذة المسألة، أكد في وقت لاحق أننا سنجبر على إيجاد جواب. وأن وزارة الشؤون الخارجية ووفدنا في باريس، كانا متفقين بالرأي أننا سنطرح للمناقشة مخططاً لتقليص غارات B52 والعمليات الهجومية الأمريكية، وكذلك استعمال المدفعية. وقيادة القوى المحاربة في سايغون وكذلك رئاسة الأركان المشتركة، وكانا يعارضان ذلك بقوة، مشيرين إلى أن إجراءات كهذه ستبقي للعدو ورقة القيام بمفاجأة عسكرية وتسمح له بنتيجة ذلك تركيز قواه في المناطق المأهولة. ومثل القضايا والمشاكل التي مرّت، فإن هذه أيضاً لم تعطِ أية فائدة، إذ أن هانوي لم تبدِ أقل إيماءه حول تقليص العمليات، حتى لو قمنا نحن بهذه المبادرة من جانب واحد. وفي الواقع فإن الفيتناميين الشماليين كانوا يفضلون الانتصار أكثر من إيقاف القتال.

وتجاه عناد هانوي، فقد طرحنا من جانبنا مخططاً حربياً، وضعه موظفون لا خبرة لهم، وحيث أننا في هذه الفترة لم تكن لدينا استراتيجية محدّدة، للسير بالمفاوضات. ومهما كان لون الحكومة السياسي، أو طبيعة المشاكل المطروحة، فإن المفاوضين الأمريكيين كانوا راغبين في العموم إنجاح مهمتهم، ولأجل هذا كانوا يطلقون مقترحات كثيرة في أوقات يرون أنفسهم في مأزق حقيقي، في محاولة منهم للخروج من ذلك المأزق، وكانوا دون علم منا يمارسون ضغوطاً، أقوى من التي يبادرنا بها العدو، تدفعهم إلى ذلك الرغبة الملحة في الوصول إلى تسوية، أو على الأقل إلى حل قريب منها، ويتحملون على مضض المشاكل المتراكمة. أضف إلى ذلك وبالرغم من أن القرارات التي اتخذتها واشنطن هي دائما في موقع خلاف، فإن المفاوضين كانوا يتمكنون دون خوف السير بعيداً في طرح ما يريدون من أفكار،

مدركين أن الوزارات الأخرى، التي تساند وجهة النظر المعاكسة، ستكون مفرطة في طبيعتها الأخرى. وكانت مهمة الرئيس تقوم على السعي إلى إيجاد تسوية وسط ضغوط المعارضة، لا أن يُعد برنامج عمل. وعند رفضه اتباع تفصيلات هذا المخطط، فإنه كان في خطر أن يرى كل واحد من الأحزاب يتبع تماماً الطريق التي تناسبه.

وهذا ما جرت عليه فعلاً المفاوضات في باريس. وطوال شهر شباط، وحتى بداية شهر آذار، فإن الوفد المفاوض في باريس، لم يتوانى عن المطالبة بافتتاح المحادثات الفردية مع الفيتناميين الشماليين، على أساس جميع النظريات الداعية إلى وضع تسوية. وأخيراً عندما جرى أول اجتماع فردي وهام في الثاني والعشرين من شهر آذار، لم ينته إلى مفاوضات بل إلى مطالبات من قبل الفيتناميين الشماليين، الذين كانوا يطالبون بانسحاب غير مشروط لكل القوات الأمريكية، وكذلك مغادرة حكومة تيو - كي - هيونغ.

ولكن بدل التفكير بأصول الاقتراحات المطروحة، فإن الوزارات المختلفة كانت تقترح أفكاراً كثيرة في سبيل تسوية.

وكان روجرز أول من انتهج هذا المسلك. عندما أجرى محادثة في الثامن من شهر آذار مع السفير دوبرينين، ورفض من جانب واحد القرار المتخذ حول معالجة القضايا السياسية والمشاكل العسكرية في مفاوضتين متميزتين. وصرّح روجرز لدوبرينين، ان رغبتنا هي في اجراء المحادثات السياسية والعسكرية في آن واحد. أضف إلى ذلك فقد تجاوز ارادة الرئيس، بعد تنظيم محادثات فردية، طلما ان سايغون ستكون مهاجمة، كما اقترح روجرز افتتاحاً عاجلاً لمحادثات فردية مع هانوي. وبعكس ما كان قد قيل سابقاً، فقد ترك الباب مفتوحاً لإشتراك سايغون وجبهة التحرير الوطنية فيها. ولم يقترح روجرز أيضاً، إيقاف الهجوم الفيتنامي

الشمالي ضد المراكز الكبرى المدنية، كشرط مسبق لذلك. ولم يكنِ جواب دوبرينين يثير الدهشة حيث قال: انه كان يعتبر بعد كل ما سمع ان موقفنا كان قد تبدل تماماً.

كنت أنا يائساً. وحسب رأيي فان روجرز كان قد تهرّب، وبهزيمة حقيقية، من الالتزام بالنقاط الأساسية التي يتطلبها موقفنا، دون الحصول على شيء بالمقابل من الفريق الآخر. وكان بذلك يذهب بجميع جهودنا سدى، ليستطيع تشكيل الصفحة الأولى من الصحف اليومية - على فرض اجراء محادثات -، وكان نيكسون يرى الأمور بطريقة أكثر وضوحاً. ولا شيء أبعد من الحقيقة، إلا التفكير ان نيكسون يحمل أفكاراً امبريالية!!! وذلك عند إصدار اوامره بجفاء الى موظف لينيّني العريكة. وفي الواقع، كان لدى نيكسون خشية من إصدار أوامر مباشرة، وطبعاً إلى الذين كان يخشى انهم لا يوافقونه في الرأي. وكان نادراً ما يوبّخ أحداً، ولم يسعّ قط لتطويع أحد وزرائه. وإذا اصطدم بمعارضة، كان يجتهد في تحقيق برنامجه، دون ان يشعر مضادة بذلك. وهذا كان يسمح له بالتمكن من الوصول إلى غايته. ولم يساهم قط في اخضاع حكومته إلى أفكاره أو يترابط معها. وفي كثير من الأحوال، فإن طريقة العمل هذه لم تكن تصلح إلاّ لإظهار وضعنا للعالم الخارجي. وفقداننا وحدة آرائنا، التي يتمكنون استنتاجها من خلاله. وهذا ما دعا الى تمزيق الحكومة على المدى الطويل، وجعل كلاً من أعضائها عند حدوث أيّ طارئ يسعى للدفاع عن مصالحه الخاصة. ان انطباع العزلة الذي كان يتحسسه نيكسون وفقد روح التماسك والتوافق بين أعضاء حكومته كل هذا كان يبين له ولو بصورة جزئية فضيحة واترغيت. كما ان هذا يسمح كذلك بتفسير الطريقة التي تصرّف بها نيكسون نتيجة رعونة روجرز. انه لم يسترع إنتباه وزير حكومته للشؤون الخارجية بسياسته، وكذلك فانه لم يجمع مستشاريه، ليعرض عليهم مرّة أخرى وجهة نظره، بل فضلّ إرسالي الى دوبرينين في الحادي عشر من شهر آذار لإبلاغه أن الانطباع الذي حصل عليه السوفيت حول

تغيير موقف الولايات المتحدة ،كان سابقاً لأوانه. وفي الرابع عشر من شهر آذار، بيّنت بتحفظ لروجرز، ان الرئيس يتمسك خصوصاً في ألاّ تجري المحادثات الفردية إلاّ مع هانوي. كمفاوض وحيد، قبل توسيعها مع سايغون وجبهة التحرير الوطنية. فاكتفى روجرز بإجابتي انه يتمنى وبحرارة ان تجرى المحادثات بسرعة.

وفي أول شهر نيسان، بعد عدة اجتماعات حول الموضوع، أعلن نيكسون حظر أي اقتراح حول تقليص العمليات العسكرية، إذا لم يكن نتيجة لانسحاب القوات في المعسكرين. وفي اليوم ذاته، كان البنتاغون يعلن رسمياً، أن هناك اعتبارات مالية تحملنا على تقليص أكثر من عشرة في المائة من طلعات B52. وكان على هذا الإجراء أن يأخذ مفعوله في الثلاثين من شهر حزيران. وعندما أبديت تذمرّي من هذا الأمر، لدى ليرد، بيّن لي بحماسة، أن ليس لديه مال يكفي للحفاظ على المستوى الحالي لطلعات B52 إلى ما بعد الثلاثين من شهر حزيران، وفي الواقع فقد تجاوز تاريخ تحديد الطلعات، ثلاثة أشهر، عما كان سلفه قد توقع تقليص عددها. فلا الرئيس ولا أنا، كنا على إطلاع مسبق على هذا المشروع أو الإعلان عنه.

لم تكن لديّ أية فكرة محددة. حول ما يجب ان يكون عليه عدد طلعات B52، لكنني كنت راغباً في المحافظة على العدد القليل نسبياً من المجموع الذي كنا نُعدّ لاستعماله. واذا كان علينا تقليص عدد عملياتنا. فلن يكون هذا إلاّ في إطار مفاوضات. وفي الحقيقة، لا شيء يدعو الى الفشل أكثر من أن تجبر على ذلك ومن طرف واحد لأسباب مالية. ولما كان الرئيس لا يريد مجابهة وزير الدفاع، كتبت أنا وليرد تعليقاً خاصاً بالصحافة كان موضوعه مبهماً تقريباً وهو: «ان الولايات المتحدة تطمح إلى أن يكون تقليص عدد العمليات الحربية، نتيجة انسحاب متبادل وتدريجي للقوات الأجنبية. وسيُعاد النظر دورياً في الغطاء المالي من خلال هذا المجال».

لكن الشرّ كان قد حصل. وبيّن لي أحد الصحفيين قائلاً: «انه يعتبر قرارنا حول تقليص عدد غارات B52 اشارة موجهة الىهانوي وسايغون، بأنه خطوة نحو إنسحاب قواتنا، وتعتبره سايغون تحذيراً، ان للولايات المتحدة حدوداً لإلتزاماتها، لا تتمكن من تجاوزها. وكان محقاً بوجهتي نظره هاتين. وينسب إلينا شرفاً كبيراً مفترضاً اننا تصرفنا حيال هذا الأمر بعزم وتروُ. وغضضنا الطرف أخيراً على هذا البؤس. وفي باريس، تلقى السفير لودج تعليمات للإعلان عن تقليص عدد غارات B52 في البلاغ الرسمي الذي كان قد أعلنه عند الانصراف من المفاوضات. وكذلك فقد ألمح اليه الرئيس في الخطاب الذي ألقاه في الثالث من شهر تشرين الثاني، ان قادة هانوي الواقعيين، لم يعترفوا رسمياً بهذه التنازلات، فلم يكونوا يريدون ان يدفعوا هدية، ما كانوا قد حصلوا عليها قبل هذا الوقت بقليل.

وباتباعنا هذه السياسة، أصبح موقفنا مزعجاً. كنا في خطر أن نخسر مع هانوي، كل مؤهلات النجاح، بتقديمنا عدداً غير قليل من التنازلات دون مقابل. ولدينا في الولايات المتحدة، بقدر ما كنا نسعى لتهدئة المنتقدين، بقدر ذلك كنا نثبط عزائم أولئك الذين كانوا على استعداد لمساندة استراتيجية تهدف إلى الانتصار، لكنهم ما كانوا ليدركوا أننا نرضى بتضحيات مستمرة للوصول إلى مبدأ أكثر إبهاماً من انسحاب مشرّف. أضف إلى ذلك، لم نكن لنحصل على رضى أولئك الذين كانوا يهدفون إلى استخدام الحرب، بغية تبيان ما لدى أمريكا من عيوب، بالرغم من أننا استجبنا إلى آمالهم، فطبقنا برنامجاً كانوا يُساندونه، قبل تسعة أشهر، والذي سبّب نزولهم إلى الشارع للقيام بمظاهرات.

❐ ❐ ❐

انتهى كل هذا إلى إقناعي، أن الزمن يعمل ضدّنا، وعلينا إيجاد وسيلة لتعجيل الأمور. فسعيت لجرّ الاتحاد السوفيتي إلى مناورة معقّدة وأشرت باستدعاء سايروس فانس، وهو الرجل المثالي لهذا النوع من المهمات.

إن المهمة التي كنت أفكر بإسنادها إليه، كانت بمستوى قدراته الأخلاقية. ولم يكن يُقصَد بها سوى إشراك الاتحاد السوفيتي، طالما يكون في هذا الإشراك نتائج إيجابية في الإسراع في تسوية الحرب الفيتنامية.

وكنت أؤكد في جميع محادثاتي مع دوبرينين، على وجوب تحسين العلاقات بين الأمريكان والسوفيت، مؤمّلا من وراء ذلك أن يأتوا لمساعدتنا في الخلاص من هذه الحرب. وكانت أجوبة دوبرينين دوماً غامضة، مدعياً أن ليس لدولته سوى تأثير بسيط ومحدود على هانوي.

التقيت سايروس فانس في الثامن عشر من شهر آذار، ليعطيني رأيه، هل يقبل عند الضرورة تكليفه بمهمة في موسكو. وكانت المهمة المقترحة تقوم على ربط افتتاح محادثات "سالت Salt" بالتسوية الإجمالية في فيتنام. سيرسل فانس إلى موسكو، لبدء مباحثات سالت، ويلتقي سراً، خلال سفره هذا، مندوباً ذا أهمية من فيتنام الشمالية. وسيمنح فانس سلطات مطلقة، لتعجيل الأمور في كل واحد من المجالين، مجتهداً دائماً في السير بها في وقت واحد. (والأمر الذي لم أطلع عليه سايروس فانس، هو أنني كنت قد أشرت على نيكسون القيام باختبار حربي مع هانوي في حال فشل المهمة.) وطرح فانس في اليوم التالي بعض الأسئلة وثيقة الصلة بالموضوع: كيف يمكن الربط بالمفاوضتين الاثنتين معاً في موسكو؟ كيف يكون لديه متّسع من الوقت الكافي للسير إيجابياً بالمهمتين؟ كيف يستطيع إخفاء المحادثات السرية، التي سيجريها بالإضافة إلى مهمته حول قضية فيتنام وكيف يستطيع إخفاء هذا عن الفريق المفاوض في محادثات سالت.

وفي الثالث من شهر نيسان، اقترحت على الرئيس «ارسال فانس في مهمته» وكنت ألفت انتباهه الى الصعوبات المترافقة بالمفاوضات كما كانت عليه الحال في باريس. وكان علينا إقناع الرأي العام الأمريكي، اننا مهتمون بانهائها، ومؤكدين لهانوي اننا لسنا مستعدين للسماح لها بجعلنا ندفع الثمن غالياً. وكان علينا ان نكمل ممارسة الضغط العسكري على هانوي بنوع كاف، لردعها أن تجعل من هذه المفاوضات بانمونجوم جديدة، مجتنبين في كل الأحوال أية إثارة غير مجدية، كي لا نصبح في خطر خوض معركة غير متكافئة. يجب على دولتنا ان تتنظم جيداً لتظهر بمظهر جبهة موحدة. أضف الى ذلك، علينا توثيق علاقاتنا بسايغون، وجعل هانوي تفقد كل أمل لها في استخدام المفاوضات في سبيل إرباك حكومة فيتنام الجنوبية. وكنت في ريبة من القيام بكل هذه المهام. وحسب رأيي، فإن الضغوط المالية والانسحاب العاجل لقسم من قواتنا، ستجبرنا على تقليص عملياتنا الحربية، دون أقل أمل في الحصول على شيء بالمقابل. وبالنسبة للوفد الأمريكي في باريس، لم يكن منتظماً، وان انقساماتنا الداخلية كانت تفرض علينا قلّة احتمال تقديم سياسة متماسكة، او اجتناب التغيير في وجهات نظرنا الثابتة. وأخيراً، ستكون محاولتنا كبيرة في تحميل سايغون تبعة فشلنا. كانت مصلحتنا تدعونا لانهائها بسرعة، لأنني اشكّك في أن كل الأسباب التي بيّنت، سيكون مصيرها خلق وضع يجعل برنامجنا الجزئي المعمول به حالياً أشد قساوة من هنا حتى عام من الوضع الحالي الذي نحن فيه اليوم. والخلاصة ان التدخل السوفيتي كان يتوضح لازماً. ولأجل هذا كانت نيّتي مكالمة دوبرينين، وتنبيهه الى ان العلاقات الأمريكية السوفيتية كانت في منعطف لأن الرئيس كان يرغب في تنمية العلاقات بين بلدينا في مجالات عدّة، لكن حرب فيتنام تحدّ من رغبته تلك. وفي سبيل وضع حلّ للقضية، كان نيكسون على استعداد لارسال وفد رفيع المستوى إلى موسكو، يراسه سايروس فانس، لعقد اتفاقيات عاجلة حول عدد من الأسس لتحديد التسلّح الاستراتيجي. سيكون

لفانس كذلك، طيلة مكوثه في موسكو، صلاحيات مطلقة في لقاء مندوب من فيتنام الشمالية. والاتفاق معه على تسوية للهند الصينية، في المجال العسكري والمجال السياسي. (وبما أن روجرز قد رفض بأسمنا مبدأ الفصل بين المشاكل، كنت أعتقد انه من المفضل وضع برنامج سياسي يتوافق مع طول بقاء سايغون) وسنقترح في المجال العسكري: وقف إطلاق النار، وإنسحاب قوات المعسكرين. وسنقدّم في المجال السياسي، ضمانات لجبهة التحرير الوطني - شريطة تخليها عن العنف - للسماح لها بالإسهام في حياة البلاد السياسية، دون خشية القيام بعدوان. وسيترافق هذا الإجراء باتفاق ينظم سيادة واستقلال فيتنام الجنوبية، مدة خمس سنوات، تجري خلالها مفاوضات في سبيل توحيدها. وسيمنح الرئيس فترة ستة أسابيع ، لفانس في مهمته، ليتمكن من انجازها. وفيما اذا توصلت هذه المهمة الى نتائج حسنة، فإن الرئيس سينظر الى عقد اجتماعات أخرى حتى ولو كانت على مستوى أرفع (أعني على مستوى القمة).

وأخيراً. قلت للرئيس واقترحت عليه، أن يلفت إنتباه دوبرينين، إلى أن هذا المخطط لن يصدّق، إلا في حال أن الرئيس يتعهد باتخاذ اجراءات تصعيد ناشطة في حال الفشل.

إن مخطّط الصلح الذي اقترحته على نيكسون من خلال مذكرة أرسلت بها إليه، كان أبعد بكثير، من كل الاقتراحات التي أعطيت ضمن الحكومة، أو غيرها ممّا قيل في هذا المجال من قبل معظم وفودنا المفاوضة. فقد كان هذا المخطّط يتجاوز اقتراحات البرنامج المعتدل، الذي رفض قبل ثمانية أشهر من قبل المؤتمر الديمقراطي. وكان يتضمن إيقاف إطلاق النار، الذي عارضه البنتاغون بشدة حتى الآن. وكان يشمل كذلك انسحاباً إجمالياً للقوات (دون النظر إلى القوات المتبقيّة) وكان يوافق على السماح لجبهة التحرير الوطنيّة أن تقوم بدور في الحياة السياسيّة

في سايغون. وكنا نعرف القليل عن هانوي في هذه الفترة، لتفهّم ما كان يريده حكامّها، فلم يكن ذلك وقف إطلاق نار بأكثر ممّا هو انتصار، وأن الذي يهّمهم كان الاستيلاء على السلطة لا القيام بدور في انتخابات حرّة.

وفي صباح اليوم الخامس من شهر نيسان، كنت أحادث الرئيس في كاي بسكاين، فبدا لي أنه يشكّك في فرص النجاح من خلال الوقت الذي يهدره فانس، كما كان يدعوه، لكنّه وافقني على القيام بإجراء ما في المجال الدبلوماسي. وفي اليوم الثاني عشر من شهر نيسان من عام ١٩٦٩ وفي سبيل استعجال الأمور، أرسلت إلى الرئيس مذكرة، أعدت فيها طرح النقاط، التي كنت أنوي طرحها، لدى الاجتماع بدوبرينين في الرابع عشر من شهر نيسان. فأقرها نيكسون جميعاً، مضيفاً إليها بعض الحواشي على الهامش، محدداً المدّة بشهرين (بدلاً من ستّة أسابيع محدّدة في الأصل) الفترة الممنوحة للمفاوضين للوصول إلى نتيجة، ومؤكداً أكثر ممّا جاء في مشروعي من نظرية تعاون اقتصادي مع الروس.

واستعنت أثر ذلك بأسلوب كنت أعود إليه في أحوال كثيرة. وأفسحت المجال لدوبرينين لتلاوة برنامج المحادثات، مع التعديلات الطارئة عليه من قبل الرئيس. إن هذه الطريقة التي أتعامل بها كانت لها ميزة تجنب سوء التفاهم، والتأكيد في الوقت نفسه إني كنت أتكلم بلسان الرئيس. فأخذ دوبرينين عدة ملاحظات، متوقفاً من وقت لآخر طالباً بعض التفسيرات حولها. وعندما اقترب من النهاية، سألني عمّا إذا كانت تسوية الحرب في فيتنام شرطاً أولياً للسير بالمفاوضات حول الشرق الأوسط، والعلاقات الاقتصادية والتسلّح الاستراتيجي؟ فأجبته أننا على استعداد لإكمال المباحثات، لكننا سنتقدّم بها أكثر، في حال تسوية قضيّة فيتنام نهائياً. وإذا لم تجرِ أيّة تسوية، فنخشى اتخاذ إجراءات من شأنها تعقيد الوضع.

وأكد لي دوبرينين بذلاقة لسان أن موسكو هي قطعاً عند وعدها بمتابعة المفاوضات، بغض النظر عمّا يحتمل وقوعه في فيتنام. وكان دوبرينين يتوقّع أن الصين سوف تسعى لإثارة مجابهة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. وأضاف قائلاً، أن تصعيد الحرب في فيتنام، لن يخدم سوى مصالح الصين، فقلت له حينئذ، يتوجب على الاتحاد السوفيتي والحالة هذه، كما يتوجب علينا، أن نبذل ما نقدر عليه لتجنب انتكاس الوضع. وكأني بكلمات دوبرينين الأخيرة كانت تدلّ على أن ما جرى بيننا من حديث كان هاماً.

ومع ذلك، لم نتلقى من موسكو أي جواب، لا رفضاً ولا إيجاباً، حتى ولا إشعار بوصول مذكراتنا، لكسب الوقت وعدم التأجيل. وفي شهر حزيران، أشار دوبرينين بكلمة عابرة، أن اقتراحاتنا نقلت إلى هانوي، وآلت إلى الرفض. وبعد ثمانية أشهر، أي في الثاني والعشرين من شهر كانون الأول، كلمني دوبرينين مجدداً، عن الاقتراح الذي أبلغته إياه، وذلك خلال استعراضنا معاً القضايا المعلّقة، وبيّن لي أن موسكو، حاولت مساعدتنا في مساندتها لمهمّة فانس، لكن الفيتناميين الشماليين، لم يقبلوا بإجراء محادثات، طالما أن الولايات المتحدة، لم توافق مسبقاً على إقامة حكومة ائتلافية. عندئذ فضّل الكرملين الصمت على إرسال جواب يتضمن النفي. فأجبته في الحال وبخشونة أن جواباً ومهما كان نوعه، كان أصلح.

إني لا أعلم حتى اليوم، إذا كانت موسكو قد نقلت فعلاً اقتراحاتنا إلى هانوي، وعمّا إذا كانت قد تلقّت جواباً سلبياً، ولم ترد أن تعترف بعدم قدرتها التأثير على هانوي، أو خشيت خطر عدوان من قبل الولايات المتحدة. أو أنها لم تنقل ما كنّا نودعها إياه إلى هانوي، معتبرة أن النتيجة المتوخاة كانت غامضة، وأن الأخطار التي سيتعرّض إليها السوفيت ستكون كبيرة في حال الفشل. ومن جهتي فإني ميّال بطبعي للنظرية الأولى. وبالرغم من تأكيد هانوي المتحمس على المطالبة باستقلالها

والفطنة التي تدير بها دفّة سفينتها، بين موسكو وبكين، فإن اختيار موسكو مكاناً لإجراء محادثات نهائية، كان يتعرّض لكثير من الأخطار. وكانت بكين قادرة على الاعتراض، خشية أن موسكو تغتنم هذه الفرصة فتقدم تساهلات في الهند الصينيّة، لتتمكن من وراء ذلك من توثيق الروابط بين القوّتين الأعظمين. أمّا بالنسبة لموسكو، فإنّها لم تكن تتمسّك كثيراً أن تكون مركزاً للمفاوضات، في حال أن الفريقين يعتبر أنها مسؤولة، ويصبح مستحيلاً عليها توجيه هذه المفاوضات بطريقة حاسمة. وجدّدنا عرضنا عام ١٩٧١، لكنني في هذه المرّة كنت اقترح نفسي مفاوضاً. واصطدمنا بالرفض أيضاً، وطبعاً للأسباب ذاتها. إن المفاوضات حول قضيّة فيتنام، استعادت مجراها الدؤوب، حالما اختفت الضغوط العسكرية والدبلوماسيّة.



أعلن نيكسون في مؤتمره الصحفي في الرابع عشر من شهر آذار، عن ثلاثة مبادئ لانسحاب القوات الأمريكية من فيتنام: كفاءة الفيتناميين الجنوبيين للدفاع عن أنفسهم، وتقدّم المفاوضات في باريس، ومستوى نشاط العدو العسكري. وفي الحقيقية أن استراتيجية نيكسون في الشهور الأولى، كانت ترتكز على محاول إضعاف العدو إلى حدّ كبير، وتعجيل تحديث القوّات السايغونية. ومن ثمّ المباشرة بانسحاب القوّات وكان يعتبر أن هذا سيحدث أكبر حملة دعائية.

وفي السادس من شهر شباط، صرّح تيو علانية عن اعتقاده، أن عدداً هاماً من القوات الأمريكية، يمكنه ودون خطر مغادرة فيتنام عام ١٩٦٩. وفي اجتماع مجلس الأمن القومي بتاريخ الثامن والعشرين من شهر آذار الذين حضره الجنرال غودباستر، وكان وقتها معاون الجنرال ابرامز أبلغنا هذا بدوره، أنه قد لاحظ في المدة

الأخيرة تحسّن واضح في وضع القوات الفيتنامية الجنوبيّة، وحسب رأيه، فإن إلغاء تسمية الحرب الأمريكية أصبح قريباً، ولكن ليس بصورة حاسمة.

وفي العاشر من نيسان، وجهت تعميماً علىجميع المكاتب والوزارات طالباً منهم وضع منهاج لتسمية الحرب بالحرب الفيتنامية. وبعد وقت قليل من القاء خطابة في الرابع عشر من أيار، أكد نيكسون ان جميع الأمور تسير بصورة حسنة، في ذات الوقت الذي قرر فيه إبعاد روجرز خلال تصريحه ، أخذ يسعى لإقناع ليرد بمعالجة إنسحاب القوات.

ولكي نتأكد من مساندة تيو رئيس فيتنام الجنوبيّة، فقد أخذت الاستعدادات لإجراء مقابلة معه في الثامن من شهر حزيران. واتفق أن يَجرى اللقاء في جزيرة "ميدواي" في وسط المحيط الهادي، خشية أن تثير زيارة تيو إلى الولايات المتحدة جدلاً في بلاده. وأبعدت جزيرة هاواي من البرنامج، لأن الرئيس جونسون كان قد أجرى فيها لقاءات مع القادة الفيتناميين. وفي الحقيقية، فإن رئيسنا لا يستطيع لقاء حاكم بلد قُتل في سبيله ثلاثون ألف أمريكي أو أكثر، إلاّ في جزيرة نائية في وسط المحيط الهادي، وهذا اللقاء ذو مغزى عن الوضع المعقّد بسبب الحرب الفيتنامية التي انغمس فيها مجتمعنا.

وفي طريقه نحو ميداوي، عزم الرئيس نيكسون على تنظيم لقاء في هونولولو، بعد ظهر السابع من شهر حزيران، بين روجرز، والجنرال ويلر، والسفير لودج وأنا، في قاعة الاجتماعات في هيلتون كاهالا، التي كانت تشرف على المحيط الهادي. ويحضور أيضاً السفير بونكر والجنرال ابرامز، والأميرال ماك كاين، وكان مقرراً أن يتوصّل الاجتماع إلى اتخاذ قرار نهائي يتعلّق بتنظيم استراتيجية الانسحاب. وطبعاً هذا ما كان يواجهه العسكريون بقلق عظيم. وكانوا يعتقدون في أعماق نفوسهم أن هذا ينافي

كل ما اقتتلوا في سبيله. ومهما كانت الطريقة التي يعلن بها عن الانسحاب، فإنها تجعل النصر مستحيلاً، وتبعد كل أمل بحلّ مشرّف للقضيّة. أضف إلى ذلك فإن فكرة الانسحاب لن تكون إلاّ في اتجاه واحد. ومن الآن فصاعداً، سيكون هناك سباقاً حقيقياً بين تنمية قدرة القوات الفيتنامية الجنوبيّة، وبين تقليص قدرتنا القتالية، سباق ستبقى نتيجته على الأقل غير مؤكدة.

وخلافاً للواقع، فإن العسكريين قلمّا يعارضون قائدهم ولو في الأمور الفرديّة الخاصّة. واذا وُجد هناك تعديل مقبول نسبياً لقرار الرئيس، فإنهم يتجاوزون تذمرهم ويبقون محافظين على مساندته. والجنرال ابرامز، الضابط المثالي لقيادة الجيوش الأرضية، وافق والالم يعتصره، على انسحاب خمسة وعشرين ألف رجل. وكان يعلم ضمنيّاً أنه مجبر على قتال المؤخرة في حال التراجع. كما كان يعلم أيضاً، انه مع مرور الزمن، تحدّد مهمّته في تجميع قواته بمهارة دون التفكير بأي انتصار. فلن تبقى هناك قضيّة ربح معركة مع تجهيزات وقوّات هي في تناقص مستمر، في حال ان هذه الغلبة قد ضاعت من أيدينا عندما كانت قواتنا بتعدادها المتكامل. ولم يبقَ علينا سوى حمل الرئيس تيو على قبول القرار.

لم تنجح كل الجهود التي بذلت لإبقاء اجتماع جزيرة ميداوي سرياً. ففي خلال سبع ساعات، احتلّ هذه الجزيرة المرجانيّة، التي تبلغ أبعادها أقل من أربعة كيلو مترات، الحاشية الرئاسية، المؤلفة من أكثر من خمسمائة موظف، والحرس الرئاسي، وموظفو الإعلام، والصحافيون، وممثلون جهات أخرى كان اشتراكهم ضرورياً. فأعيد حديثاً دهان رواق المطار، كما أن مقر القائد، حيث كان على الرئيس أن يلتقي تيو، دهن مجدداً أيضاً وجُددّ أثاثه، وهكذا فإن ضابط البحريّة، كان الرابح الوحيد من لقاء ميداوي. جرى كل هذا تحت سمع وبصر الطيور الكبيرة التي تعتبر سكان الجزيرة الأصليين، وقد أصبحت هذه الطيور الآن وقحة منذ اعتبارها محميّة من قبل

وزير الداخلية. لم يكتشف أحد بعد العلاقة السريّة التي تربط هذه الجزيرة المنعزلة بهذه الطيور الغريبة، التي تطوف بكبرياء في الأجواء، لكنّها لا تأخذ بالطيران، كطائرات محملّة، إلاّ بعد مسافة كبيرة.

إن موقف الرئيس تيو لم يكن ليحسد عليه. فمنذ عّدة أيام، سرت إشاعة (دون تكذيب من قبل أحد أعضاء حكومتنا) أن الرئيس نيكسون سيعلن عن أول انسحاب لقواتنا الأمريكية وأن هذا الإجراء كان مُعداً، لتنبيه تيو في أن مصلحته الكاملة هي تدبير أموره بنفسه. وكان يفهم عموماً من ذلك، أنه يجب عليه إقامة ديمقراطية من طراز غربي بأسرع ما يمكن في بلاده. عندما لا تكون حكومة ائتلافية. وكيف يمكن توطين حرّيات ديمقراطيَة في بلد تحتله فرق كبيرة من محاربين متطوعين وقوّات معادية، يبلغ مجموعها ثلاثمائة ألف رجل، فكيف يصدّق توطين هذه الحريات؟ وكان تيو مطالباً أن يعمل خلال بضعة شهور، وخلال قيام حرب أهلية مدمرّة، ما لم يقدر على عمله أي حاكم في آسيا الجنوبية الشرقية، خلال عدّة عشرات من سنوات السلام. فكان يطلب منه دفعة واحدة أن يكسب الحرب، وأن يتدبّر أمر الدفاع عن بلاده إثر انسحاب الآلية الأمريكية، وأن يقيم كذلك منشآت ديمقراطية في بلد لم تعرف طعماً للسلام منذ أجيال، ولم تعرف معنى الديمقراطية طيلة كل تاريخها. وكان عليه أيضاً توطيد شرعية بقائه كحاكم وطني من خلال إصلاحات كان هو يطالب بالقيام بها، تحت ضغط قوّة كبرى جعلت نفسها شريكة في إسقاط سلفه، وحرمت بنتيجة ذلك البلاد من حكومتها الأهليّة.

أقيمت خلال اجتماعات جزيرة ميداوي عدة جلسات، أهمها تلك التي عقدت في المقرّ الذي وضع مجدداً تحت تصرّف قائد المنطقة. شارك فيها نيكسون، وتيو ومستشاره الخاص وأنا. كما جرى اجتماع خبراء في نادي الضبّاط، حيث عولجت

الشؤون الاقتصادية، وقد ترأس هذا الاجتماع وزير الشؤون الخارجية. (وهذا نمط كان يجب أن تجري بموجبه، تقريباً كل اللقاءات بين نيكسون وحكّام أجانب) أن تيو لم يستعطف نيكسون، لقد أجرى تلك اللقاءات بثقة، دون التماس أي عطف. كنّا في خشية أن الإعلان عن جلاء قواتنا يخلق لنا وضعاً مربكاً. لكن تيو أخذ زمام المبادرة واقترح بنفسه الانسحاب. كما اقترحنا نحن أيضاً البدء باتصالات منفردة للقاء قمّة مع هانوي. ووافق تيو على ذلك، شريطة إطلاعه على ما يدور من محادثات سياسية. وبما أن اختلاف التوقيت البالغ خمس ساعات بين توقيت الجزيرة وتوقيت الساحل الشرقي، لم يترك سوى وقت قليل للصحافيين ليتمكنوا من إرسال برقياتهم، فبعد ساعة ونصف فقط على بدء المقابلة، ظهر الرئيسان على مدخل بيت القائد، حيث أعلن الرئيس نيكسون أول انسحاب للقوات الأمريكية.

كان نيكسون يبدو فرحاً، إذ كان يعتبر هذا الإعلان انتصاراً سياسياً معتقداً في الوقت نفسه أن هذا سيسمح له كسب الوقت لتنمية إستراتيجيّتنا. وكان يشارك في هذا الانطباع مستشاروه الذين كنت واحداً منهم، وبالرغم من ذلك، فقد كنّا على وهم في المجالين. لقد اجتزنا الخطّ الفاصل الكاشف للغيب. من جهة، فإن سحب القوات، زاد في خذل العائلات التي بقي أولادها حيث هم، معرّضين للأخطار. ومن جهة أخرى، فهو غير كافٍ لتهدئة سورة غضب خصومنا، بل بالعكس، فإن معظمهم كانوا يفكرون أنهم حصلوا على أول انسحاب لقواتنا بسبب الضغوط التي مارسوها ضدّنا، ويستطيعون عند تشديدهم الخناق علينا، التسريع في الانسحاب. ولن يهّمهم كثيراً إذا أحدثت هذه الانسحابات المفاجئة سقوط حكومة فيتنام الجنوبيّة.

وخلال شهر حزيران ذاته، فان وزير الدفاع السابق، كلارك كليفورد، الذي أعلن قبل ستة أشهر، بعدم وجود أي مشروع أمريكي للانسحاب، نشر مقالاً في مجلة الشؤون الخارجيّة، يطالب فيه بانسحاب أحادي الجانب لمائة ألف رجل من الآن

حتى نهاية عام ١٩٦٩، وانسحاب كافة وحدات القتال الأخرى من هناك حتى نهاية عام ١٩٧٠، وعدم إبقاء الوحدات العسكرية والجويّة. نيكسون الذي لم تكن عادته ترك الميدان لمقاومٍ، أجاب بشدّة، في مؤتمر صحفي، كان يؤمّل ان يأخذ مداه، اكثر ممّا كان كليفورد يتوقّع. وبالرغم من كل الجهود التي بذلت لترجمة جملة الرئيس القصيرة، كان الشرّ قد وقع. وكرّرنا المطالبة وبينّا ان المقصود هو انسحاب متبادل، فأصبح تصديقه من الصعوبة بمكان. ليس فقط في الولايات المتحدة بل في الخارج، ولاسيّما في فيتنام، حيث كانوا يعتبرون أننا أصبحنا الآن ملتزمين بطريقة أحاديةً الاتجاه، في طريق سحب قواتنا من جانب واحد. وآخر الشكوك التي كانت تستطيع الثبات، تبخرّت نهائياً، عندما اخذت وزراة الدفاع، بإعداد ميزانيّتها آخذة بعين الاعتبار تخفيض التجهيزات المتوقع اجراؤها، ومن الآن فصاعداً، فان كل انقطاع لمشروع الانسحاب، سيخلق نكسة مالية، توجب علينا شراء أسلحة جديدة.

أضف الى ذلك، فان الفيتناميين الشماليين الذين كانت تهمهم الحقيقة، لا الشعارات، قابلوا الإنسحاب الأمريكي بكل برودة، واضعين في كفّة الميزان الإفادة البسيكولوجية التي يمكن ان يغنموها من واقع طاقاتنا المتزايدة، وانخفاض التأثير الذي يسببه، في المجال العسكري، الانقاص التدريجي للتجهيزات الأمريكية. أكملت هانوي المطالبة وبدون هوادة، بإنسحاب أكبر عدد ممكن من الرجال، في أقصى مدة ممكنة. ولكن بقدر ما يصبح إنسحاب قواتنا تلقائياً، بقدر ذلك يقل أملنا في استخدامها كأداة للمفاوضة. ونكون في وهم اذا طالبنا بانسحاب متبادل، في حال ان برامج انسحاب قواتنا احادية الجانب، كانت في تسارع. وبقدر ما كانت تجري انسحاباتنا بسرعة، بقدر ذلك كنا عرضة لسقوط حكومة فيتنام الجنوبية. ولأجل هذا، فان الفيتناميين الشماليين كانوا يبدون تذمرهم الدائم، حول انسحابات جيوشنا التي

لا تفيد شيئاً، ويقولون انها ليست سوى «نقطة ماء في البحر»، أو أننا لا نعلن بصراحة كافية عن نوايانا الحقيقية. وطال أمد عنادهم في موقفهم هذا. وبالنسبة لهم، فإن هذه الإجراءات الأحادية الجانب، لا تلزمهم بشيء. وبعد أقل من عام، كانوا يطالبون بتحديد تاريخ ثابت غير مشروط.

أثر هذا الواقع في خلافاتنا الداخلية. وكان ليرد قد أعد خمسة مخططات تناوبية، لإنسحاب القوات التي ستبدأ عام ١٩٦٩. وكان التفاوت العددي يتراوح بين خمسين الف رجل على الأقل إلى مائة ألف رجل على اعظم تقدير، وترك بين العددين، مكان لأغراض مختلفة. وكان روجرز نصير الرقم: خمسة وثمانين ألف رجل، أما ليرد الذي كانت تسانده هيئة الأركان العامة المشتركة، كان يطالب رسمياً باقتراح أدنى أي بخمسين ألف رجل، لكنه بينه وبين نفسه، كان يعتبر أن هذا لا يؤثر عليه بشيء اذا لم يؤخذ برأيه. أما فيما يتعلق بالمدى الطويل، فان ليرد كان يقترح تدريج الانسحابات خلال مدة يمكن ان تدوم ثمانية عشر شهراً حتى اثنين وأربعين، وتثبيت الحد الأعلى لأعداد الجنود الأمريكيين، الذين سيبقون في اماكنهم إلى أن تجري هانوي انسحاباً في قواتها بأعداد تتراوح بين مائتين وستين ألفاً وثلاثمائة وستة آلاف. وفي المذكرة التي أرسلها للرئيس، في الثاني من شهر حزيران، كان يقترح ليرد مخطط انسحاب ممكن التحقيق، يتدّرج الى اثنين وأربعين شهراً (أعني حتى نهاية عام ١٩٧١) وحدّد عدد مائتين وستين ألف رجل التعزيزات التي ستبقى في أمكنتها. وكان يسترعي انتباه الرئيس حول عدم وجود ما يوجب المبادلة من جانب الفيتناميين الشماليين، ووضع برنامج معجّل ربما يوصل الى تقهقر في مباحثات الصلح بالرغم من الكفاءة العسكرية المتحالفة، وربما يؤدي الىسقوط حكومة فيتنام الجنوبية.

وفي الإدارة، تكشّف فجأة تياران. وبما ان الفضل كان يعود إلى البنتاغون في تغييراسم الحرب من أمريكية إلى فيتنامية، ولن يكون باستطاعة وزارة الشؤون

الخارجية ان يكون لها نصيب بالمفاخرة بانهاء الحرب إلاّ اذا ضاعفت جهودها. وبنتيجة ذلك فقد تلقى الرئيس السيّء الحظ تيو سيلاً من البرقيات التي تحثّه على التسريع بانشاء اصلاحات سياسية واقتصادية في بلاده. فانطلقت الى تغيير اساسي في تنظيم الملكيات العقارية. وبات ممكناً ان توجيهاتنا له مع ضغوطنا أضعفت موقفه، فبدأ بهذه الإصلاحات الهامة، التي لم تكن نتيجة تزايد قدرته ونفوذه، بل كانت بفضل الضغوط الأمريكية. وفي اليوم الحادي عشر من شهر تموز، اقترح الرئيس تيو، تنظيم انتخابات حرة يمكن للشيوعيين المشاركة فيها، على أن تكون هذه الانتخابات باشراف لجنة انتخابات مشتركة، تشكل من الفيتناميين بما فيهم الشيوعيون، ومن هيئة مراقبين دوليين. وسمح الوزير روجرز بتسلل بعض تفصيلات هذا البرنامج في مؤتمره الصحفي الذي عقده في الثاني من شهر تموز، مما دعا الرئيس تيو الذي جُرِحت كبرياؤه، الى تأجيل ارسال مسودة مخطط عمله الجديد.

في السابع من شهر تموز، عقد اجتماع على اليخت الرئاسي سيكوايا Sequoia حضره إلى جانب نيكسون كل من : روجرز، ليرد، ويلر، وميتشيل وزير العدل، والجنرال روبيرت كوشمان (المدير المساعد للوكالة المركزية للمخابرات الأمريكية) وأنا. وفي الاجتماع طرح تساؤل حول سكون المعارك الذي يشاهد حالياً فهل يدل ذلك على انهيار قوة هانوي، وهل يقصد به إستراتيجية جديدة للمفاوضات، أو محاولة من قبلها لتقليص تدريجي في المجابهات للوصول إلى إتفاق ضمني. وهذا الانفراج الذي كنا نشعر به من خلال سكون المعارك، الذي كان يقلل مستوى خسائرنا، ويخفف من الضغط في البلاد دفعنا للتساؤل، عما اذا كان سكون المعارك هذا دليلاً على ان إستراتيجيتنا بدأت تعطي أُكلها، ويجب السير فيها، وهل هذا يدل على الإضطراب الفكري الي نتخبط به. وبديلاً عن ذلك، وافق الجميع على وجوب تخفيض مشابه في عملياتنا العسكرية تجاوباً مع ما يجري. فقررنا حينذاك تغيير

جميع الأوامر المعطاة للجنرال أبرامز في موضوع اختصاصه. وبرامج أهدافنا الموضوعية، التي تسلمناها من حكومة جونسون، وأعطيناها الى قواتنا الأمريكية في الجنوب الشرقي من آسيا، والتي كنا نعتبرها دوماً بمثابة مرجع لنا، كانت تؤكد طموحنا في الانتصار على العدو وإجباره على التقهقر الى فيتنام الشمالية. والبرنامج التفصيلي الجديد الذي وضع موضع التنفيذ في الخامس عشر من شهر آب كان يؤكد على ان مهمة قواتنا الرئيسية هي في تقديم أكبر مساندة ممكنة للفيتناميين الجنوبيين لتعزيز مواقع فرقهم العسكرية، وتكثيف جهود المصالحة، وإيقاف سيل الكميات الهائلة من الأغذية والمواد الحربية التي كانت ترسل الى العدو، وفي الواقع، فان الرئيس غير رأيه في اللحظة الأخيرة، وألغى التعليمات الجديدة التي أمر بتنفيذها. ولما كان ليرد قد قام بتبليغها الى من يلزم، أبقى عليها. واني لا أعلم فيما اذا كانت هذه التعليمات الجديدة، التي أذيعت أخبارها حالاً، فيها بعض التغييرات الفعلية. ولما كنا قد التزمنا بسحب قواتنا، فانها كانت تعكس كفاءاتنا، مهما كانت نياتنا حيالها.

وفي الثلاثين من شهر تموز، وخلال سفر الرئيس حول العالم، توقّف نيكسون فجأة في سايغون، وهبط فيها خلافاً لرأي المخابرات السرّية، ولأسباب أمنية، فإن هذا التوقف المفاجئ لم يعلن عنه سوى في اللحظة الأخيرة. نقل نيكسون وبسرعة فائقة من المطار إلى القصر الرئاسي، في طائرة مروحية، ارتفعت كما بدا لي إلى أعالي الجو، لتكون بمنأى عن أي إطلاق نار محتمل الوقوع، لتهبط بعد ذلك شبه كتلة في وسط الأشجار الملتفّة التي تكتنف مكاتب الرئيس تيو. لم أعرف مطلقاً، كم مرة كرّر الطيارون حركات مناوراتهم، لتجنيبنا أخطاراً كانت في انتظارنا، وكانت هي أي الطائرة التي توشك أن توقعنا فيها.

وخلال المحادثات صرّح نيكسون للرئيس تيو، أنه بات من الضروري استكمال الانسحابات، إذا كنا نريد الحفاظ على مساندة الرأي العام الأمريكي. وأكد كذلك على اهمية تقليص القوات ضمن برنامج توقيت محدّد وبموجب مبادراتنا، ونحن طبعاً على أهبة إجراء الاستعدادات لمغادرة فيتنام، ونحن نتفاوض بهذه السرعة، وأضاف نيكسون أننا ربما نقرر سحب قواتنا بموجب قرار أحادي الجانب، إذا لم يكن هناك حلّ آخر.

❒ ❒ ❒

دفعت بنفسي في شهر تموز، إلى محاولة الدخول في مفاوضات جديدة، بوساطة صديقي القديم، جان سانتيني، الذي كان مندوباً عاماً لفرنسا في هانوي.

وفي الرابع والعشرين من شهر حزيران، اقترحت على الرئيس دعوة سانتيني للحضور إلى أمريكا، لنتدارس معاً إمكانية مبادرة جديدة. وقلت له، أنني أرى الأمور من خلال الطريقة التالية، بما أن الأوضاع التي تعيشها هانوي في الساعات الحالية، بالنسبة لها جيدة وقوية فإن الخطوات التي ستتخذ قريباً لن تؤثر كثيراً. غير أني أفكر، أنه يستحسن أن نقوم بمحاولة جديدة، سواء للتاريخ، أو بسبب فقد الأمل بأي تقدّم حقيقي في مفاوضات باريس. وفي الخامس عشر من شهر تموز، جرى لقاء بين الرئيس وسانتيني في المكتب البيضوي. وبما أن أحداً لم يعلم بوصوله إلى الولايات المتحدة، لذا قمت بمهمة الترجمة بينهما. بيّن سانتيني خلال اللقاء أنه على استعداد للذهاب إلى هانوي باسمنا حاملاً إليها رسالة من قبلنا، أو لتنظيم موعد لقاء بيني وبين الدوق تو (عضو له أهميته في اللجنة التنفيذية في الحزب الشيوعي في فيتنام الشمالية، الذي كان يحضر غالباً لزيارة باريس واشترك في المباحثات الخاصة والإفرادية مع هاريمان).

حصلنا على موافقة على الرأي الأول. وكتبت رسالة شخصية من نيكسون إلى هو شي مين، وطلبنا من سانتيني إيصالها باليد إلى هانوي. وكانت الرسالة تؤكد رغبتنا في السلام، وتقترح مناقشة برامج هانوي وبرامجنا كذلك في الوقت ذاته، ويمكن تلخيصها في التالي:

"حانت ساعة التوجه، إلى طاولة المباحثات، في سبيل إيجاد حلّ سريع لهذه الحرب المأساوية، ستجدوننا في حالة جاهزية واستعداد لنبيّن وإياكم، من خلال مجهود مشترك منافع الصلح، لشعب فيتنام الشجاع. حتى يستطيع العالم أن يقول بعدئذ، أن الفريقين قد اختارا وفي هذه اللحظة الحرجة، السلام على النزاع والحرب".

وما كان على الفيتناميين الشماليين أن يعارضوا، لكنهم رفضوا حتى إعطاء سمة دخول لسانتيني. وسلمت الرسالة إلى مندوب هانوي في باريس الذي يدعى مي فان بو، ولما كنا مصممين على إيجاد منفذ ما، فقد كلفنا سانتيني، بترتيب لقاء بيني وبين المفاوضين من فيتنام الشمالية.

وفي آخر شهر تموز، كنت أرافق الرئيس في رحلته السياحية حول العالم، التي بدأت بمشاهدة هبوط أبولو في البحر، وشملت بعدئذ زيارة الجنوب الشرقي من آسيا، والهند، وباكستان، وأيضاً رومانيا. فتخليت عن متابعة الرئيس في رحلته لأعود إلى باريس وبروكسيل. بينما عاد هو (أي الرئيس) إلى الولايات المتحدة.

وكان مقرراً أن يجري لقائي السري في الرابع من شهر آب في منزل سانتيني. ولما كان الدوق تو قد غادر باريس، فأصبحت ملزماً على إجراء مباحثاتي مع كسيان توي، مندوب هانوي المطلق الصلاحية في الجلسات العلنية لمحادثات باريس. وهذا ما علمته بعدئذ في أنه كفيل ألاّ ينطق بشيء آخر سوى تلك الصيغ ذاتها التي انتهت إلى

الهيمنة على الجلسات العلنية. وللحقيقة فإن كسيان توي لم يكن مسؤولاً سياسياً، بل موظفاً. وحيث أنه كان يمثل وزارة الشؤون الخارجية وليس الحزب الشيوعي، فإنه كان قد أرسل من قبل هانوي لعرض البرنامج الرسمي في الجلسات العامة. وكان توي صغيراً جداً مع رأس شبيه برأس بوذا، ذا فكر ثاقب، دائم الابتسام، حتى في المحادثات المهينة، ولم يكن مفوّضاً بإجراء محادثات. وكانت مهمته حرباً بسيكولوجية. وعندما كانت هانوي تقصد جدّية المباحثات، كانت توفد المستشار الخاص لوفدها في باريس: الدوق تو. وكان يتوجب لوصف هذا الأخير، فكراً ثاقباً للتمكن من إعطائه صفة رجل مسالم. ولكنه على الأقل يملك سلطة التصرّف وهو ذاته أبرم المفاوضات عند النهاية.

كنت في باريس، وغايتي إطلاع الرئيس جورج بومبيدو ورئيس وزرائه جاك شابان ـ دلماس عن الرحلة التي أنهاها الرئيس نيكسون. وفي ساعة متأخرة من بعد ظهر الرابع من شهر آب، غادرت السفارة الأمريكية، ورأيت أن أتوجّه لزيارة المدينة، يرافقني في هذه الجولة مساعدي الخاص أنتوني لاك، وملحقنا العسكري في باريس الجنرال فرنون وولتر، فذهبت إلى مسكن سانتيني، الذي كان يقطن ليس بعيداً من هناك في شارع ريفولي، وللصدفة فإن الصحافيين، ما كانوا يتبعونني، والدخول إلى مسكن سانتيني لم يكن يتطلب مهارة. واصطحبت الجنرال وولتر، لسبب تمتعه بذكاء ثاقب يسمح له أن يكون مترجمنا الأمين، ومن جهة أخرى، لأنه كان يتمتع بثقة نيكسون وثقتي. دام اللقاء الذين أجريته مع كسيان توي ثلاث ساعات ونصف الساعة، ومن جملة الأسباب التي أدّت على إطالة اللقاء، الترجمة المزدوجة. فأنا كنت أتكلم اللغة الإنكليزية، وكان وولتر يتكلم بالفرنسية، ثم يأتي دور مترجم كسيان توي فيترجم إلى اللغة الفيتنامية وعندما كان يتكلم كسيان توي، كان مترجمه يترجم من اللغة الفيتنامية إلى اللغة الإنكليزية.

كنت أوجس شيئاً من الخيفة من هذا اللقاء. ولأول مرة قمت بنفسي بإجراء مفاوضات. ولأول مرة أيضاً كنت أذهب للقاء هذا الفيتنامي الشمالي المتعذّر إمساكه، والذي تابعته دون جدوى طيلة فصل صيف كامل باسم الرئيس جونسون. وكنت نصف مصدّق، أننا سنحصل على تقدّم فيما إذا استطعنا إقناعه بإخلاصنا. وصلت أنا وزملائي إلى مسكن سانتيني بنصف ساعة أبكر، فأدخلنا سانتيني إلى قاعة الاستقبال، ودلنا على مكان وجود المرطبات. وكانت شقّته تحوي بعض النفائس ذات قيمة، كان قد جلبها خلال إقامته في فيتنام. وأردف "أرجو، إذا كنتم غير متفقين فلا تكسروا الخزف بروؤسكم قال هذا، وانسحب من المكان.

وأصبح كل من كسيان توي ومي فان بو، دقيقين جداً في مواعيدهما. كنا جالسين على مقاعد، بعضنا تجاه الآخر، وكان الفريق الأمريكي يدير ظهره لشارع الريفولي، تاركاً للفريق الفيتنامي فرصة التطلع على حدائق التويلري. وفي جميع اللقاءات التي قمت بها على أثر ذلك، كنت أهتم كثيراً بكرامة المفاوضين واطمئنانهم. وكان يصدف أن يكون بينهم ممن امتهن العنف أو اشترك بحرب العصابات، واتصالهم بالعالم الخارجي كان ثانوياً، ولم يحدث سوى في إطار معاركهم العديدة. غير أنهم عندما يكونون بحضرة مندوب أكبر قوة في العالم، كانوا يظهرون بمظهر بارع، منتظم وحليم جداً. ما عدا مرة واحدة حيث شجعهم أول تقدم حازوا عليه في هجومهم الذي قاموا به في ربيع عام ١٩٧٢ فأصبحوا حينذاك سفهاء، ولم يتصرفوا بعد بأية مجاملة، ولم يكونوا على حلم في أجوبتهم، ولم يقبلوا رأياً يشككون فيه. وبدوا كأنهم اختصاصيون في حرب سياسية، عازمين على التقدم في المفاوضات بموجب طروحاتهم الخاصة، ولا يعطون مجالاً للمناقشة. وكانوا يعتبرون الأفكار والاقتراحات الأمريكية وكأنها مطلب، دون التفكير بتسهيل متبادل. وأية تسوية حسب رأيهم هي إقرار بالضعف وحصروا اهتمامهم في كل ما له علاقة بمصلحة

هانوي. لم يستندوا بكلامهم إلى الريب، ولم يعتقدوا أبداً في داخل نفوسهم بما نطرحه عليهم، وهدفهم الموضوع نصب أعينهم هو: الوصول إلى الاستيلاء الكامل على فيتنام الجنوبية، أو على الأقل الوصول إلى حلّ يبقي خصومهم وقد وهنت عزيمتهم، حيث تصبح عملية سحقهم بسيطة جداً.

في الأول من شهر تشرين الثاني، يكون قد مضى على بدء المفاوضات أثر إيقاف القصف سنة. وخلال هذه الفترة الطويلة، فإن الولايات المتحدة وحدها، كانت قد اتخذت عدداً غير قليل من الإجراءات، لقد انقطعنا عن إرسال النجدات والتعزيزات، وأعلنا عن انسحاب أحادي الجانب لعدد يبلغ خمسة وعشرين ألف رجل، ووعدنا بإجراء انسحابات أخرى في المستقبل القريب. وكنا اقترحنا في الوقت ذاته قبول نتيجة الانتخابات الحرة التي أجريت تحت مراقبة دولية. وليس هناك أي جواب بالمقابل. كنت قد اقترحت إبان وجودي في باريس، على أعلى المستويات الممكنة وبرغبة صادقة ملحة، بذل جهود حقيقية مخلصة لتسوية القضية بمناسبة مرور سنة على المفاوضات في الأول من شهر تشرين الثاني. وكنا على استعداد لمناقشة جبهة التحرير الوطنية حول نقاط عشر، لكننا في الوقت نفسه، كنا نبدي رأينا، أن هذه النقاط العشر، ليست بالوصايا العشر، المنحوتة على حجر، والتي ربما هي ليست موضوع مناقشة أو مفاوضة. وعلى الأمد الطويل، أخذت نفوسنا ترفض أن نعامل كطلّاب، وواجب علينا أن نقدّم امتحاناً عند كل لقاء عن تفهمنا حقيقة وواقع هانوي الحقيقي.

واقترحت أخيراً تحديد نوعية المفاوضات، وبذل جهود كبيرة لإيجاد مجال لمحاولة توحيد النقاط العشر مطلب جبهة التحرير الوطنية، والنقاط الثماني التي أوردها الرئيس نيكسون في الخطاب الذي ألقاه في الرابع عشر من شهر أيار. إن الولايات المتحدة كانت طبعاً على استعداد لسحب جميع قواتها، دون استثناء، ضمن

إطار برنامج انسحاب متبادل. كما كنا على استعداد لقبول نتيجة أي اقتراح سياسي حرّ يطرح علينا. وكنا نقدّر أنه لا يمكن مطالبة هذا أو ذاك بالتخلي عمّا هو على طاولة المفاوضات، ما لم يكن قد حُصل عليه في المجال العسكري. ولأجل هذا إذا أردنا أن يكون تصرفنا نبيلاً، يجب علينا الأخذ بعين الاعتبار تقارير القوات العسكرية والسياسية الموجودة في الظرف الحالي. ولما كنا لا نطالب بتشتيت شمل القوات الشيوعية، فلا نقبل أن نطالب بتشتيت التنظيمات غير الشيوعية. واقترحت باسم الرئيس، البدء بسلسلة خاصة من الاتصالات. فإذا ظهرت المفاوضات مجدية فإن الرئيس على استعداد، لإعادة النظر في عملياتنا العسكرية، لإفساح المجال لإجراء اتفاق. وبالمقابل، إذا لم يحرز أي تقدم حتى الأول من شهر تشرين الثاني، يجب على الولايات المتحدة اتخاذ إجراءات سيئة النتائج.

أصغى إليّ كسيان توي ببرودة أعصاب، دون أن يظهر على نفسه أنه لمس تغيراً ما في الموقف الأمريكي، بالرغم من أني قدّمت أوضح مخطط سلام وضع حتى الآن. وتعمقت فيه إلى أعماق جميع المحاولات السلمية التي يجري بحثها منذ ذلك الوقت ضمن الحكومة، وعرضت انسحاباً شاملاً لكل القوات الأمريكية، دون تحديد لإبقاء بعض القوات، كما اقترحت أيضاً تقليصاً تدريجياً للعمليات العسكرية. فوجّه إلي كسيان توي، حسب عادة الفيتناميين الشماليين، بعض الأسئلة التفصيلية، وطبعاً فيما يتعلق بتحديد نوع المفاوضات وطريقتها، قبل الدخول في حديث طويل. فبدأ بتذكرينا بتاريخ فيتنام القتالي، في سبيل استقلالها خلال الأجيال. وكان عليّ أن استمع إلى إعادة هذا التاريخ على أسماعي مرّات عديدة، طيلة أربعة أعوام متتابعة. وأصبح هذا تلقائياً في سماع البطولات، التي ربما تطلبت وقتاً طويلاً. وسرد هذه الملحمة البطولية، التي كانت تروي الطريقة التي توصل بها الفيتناميون إلى قهر عدوهم المحتل الأجنبي، وهذه الرواية كانت تثير العواطف وتحركها، ولكن لكثرة

تكرارها، أصبحت تقابل ببرود وعدم اهتمام. وعندما دخل في صلب الموضوع، انكر كسيان توي أن العشر نقاط التي ورد تحديدها من قبل لجنة التحرير الشعبية، كانت كما أوردتها أنا، في أنها مشابهة للوصايا العشر. غير أنها كانت تشكل الأساس الوحيد لتسوية قضية حرب منطقية وواقعية، تمييز بارع، ما كان يخطر لي ببال، كمفكّر غربي.

وبالنسبة لكسيان توي، فقد كانت هناك مشكلتان: المشكلة السياسية والمشكلة العسكرية. وحلّ المشكلة العسكرية عليه أن ينتهي بانسحاب جميع القوات الأمريكية، التي كان يدعوها الفيتناميون الشماليون، القوات التابعة (المتحالفة) ثم أردف قائلاً: أن تصريحات الولايات المتحدة الأمريكية، كانت غامضة حول هذا الموضوع. مريداً بذلك، أننا لم نقدّم برنامجاً غير مشروط لانسحاب تلك القوات. أما بالنسبة للحل السياسي، فإنه يتطلب مغادرة كل من: تيو، وكي، وهيونغ وإقامة حكومة ائتلافية مشكلة من حكومة ثورية مؤقتة، ومن أعضاء حكومة سايغون القدماء، شريطة الالتزام بالدفاع عن " السلام والاستقلال والحياد". وبالنسبة لكسيان توي، فإن المشكلتين: العسكرية والسياسية كانتا متلازمتين، وليس هناك أي مجال لوضع حلّ لواحدة دون الأخرى. وبمقولة أخرى: حتى أن الانسحاب للقوات الأمريكية أحادي الجانب، ليس باستطاعته وضع حدّ للحرب. أو الحصول على الإفراج عن الأسرى.

أكملت هانوي خطتها إذاً بالتأكيد على الولايات المتحدة حول إقامة حكومة جديدة، تحت مدلول أن المعسكر غير الشيوعي يصبح مشلولاً إثر انسحاب القوات الأمريكية، وتتضعضع خططه بعد مغادرة قيادته. إذا كانت لدى الولايات المتحدة الجرأة على الانسحاب دون التسبب بهذا الانهيار السياسي فإن الحرب لن تنقطع، ولن يفرج عن الأسرى. وخلال السنوات التي تلت، انتقلنا من موقف إلى آخر، من الانسحاب المتبادل، إلى الانسحاب الأحادي الجانب، ومن القوى المتبقيّة في الميدان إلى

الانسحاب الكامل. وهكذا لم تتزعزع هانوي. فلم نكن قادرين على الحصول على السلام، ولا تحرير أسرانا، طالما أننا لم نتمكن من تحقيق ما يؤكد لهانوي أنها لن تستطيع بعد الظفر بما تريد، أي إسقاط حليفنا. ولم نكن على استعداد لنقدم للشيوعيين شيئاً لم يقدروا هم على تقديمه بأنفسهم، وكان يبدو لنا هذا أمراً غير مشرّف، يجّر وراءه نتائج سيئة في مستقبل الولايات المتحدة في جميع العالم. وهذا الفرض من قبلنا، بعدم قبول إسقاط حليفنا. هو وحده، جمدّ سير المفاوضات جميعها حتى الثامن من شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٢، وفي هذا التاريخ فقط سحبت هانوي شروطها.

حتى ولو لم نتوصل انا وكسيان توي إلى شيء مثمر وجيد، فإننا نجحنا على الأقل بالإعلان عن مواقفنا المستقبلية، وبلهجة أقل عدواناً. ولقد اتفقنا على ان كل فريق متأخر باجراء الاتصالات التي يريدها مع الفريق الآخر، وعلى الفريقين ترتيب الاجراءات اللازمة لاجتماع آخر. كما بيّن لنا كسيان توي، ان هانوي غير راغبة في قبول وساطة بلد ثالث، وتطالبنا بتعيين أمريكي متمّرس وماهر. لتلقي أو تسليم مراسلات بهذه السلسلة المكوكيّة. فعيّنت الجنرال وولتر لهذه المهمة، وارسلت تقريراً بكل ما جرى للسفير بونكر في سايغون، ليُعلم بدوره الرئيس تيو، الذي وافق في اجتماع ميدواي، على اجراء محادثات كهذه. فاطلع الأخير وبصورة دقيقة على مفاوضاتي السريّة منذ بدايتها. ولما كان السفير لودج غائباً عن باريس في هذه الفترة، فلقد أعلمت معاونه فيليب بهذا اللقاء. وبعد يومين أي في اليوم السادس من شهر آب، قام الشيوعيون بهجوم على كام ران باي، والذي يمكن ان نفسّره في الواقع انه مخطّط له قبل اللقاء بكسيان توي، ومع ذلك، ففي الحادي عشر من شهر آب، فان القوى الشيوعية، كررت جرمها، بهجومها علىأكثر من مائة مدينة، وضيعة وقاعدة، منتشرة جميعها في فيتنام الجنوبية، وبعملها هذا وضعت حداً لسكون

المعارك خلال ثمانية اسابيع. ولو كنّا ذوي بال طويل وسعة صدر، فلا نستطيع إبعاد التفكير من أن هانوي لا يفيدها ولا تهتم لمبادرات السلام، والمفاوضات والنيّة الحسنة والمقابلات.

❒ ❒ ❒

كنا في طريقنا لمغادرة فيتنام، ساعين إلى حلّ وسط، بين الاستسلام والوضع الذي يبدو لا نهاية له من تقييد لجيوشنا ورثناه من أسلافنا. وكانت ترتكز فرص نجاحنا على كفاءتنا في تنسيق مجموعة من الأعمال الدقيقة في المجالات الدبلوماسية، والعسكرية والسياسية، مواجهين في الوقت ذاته استياء الرأي العام الشديد عديم الصبر. وكان نيكسون يحاول بنفسه استعادة موقف بلاده الداخلي، بمبادرات مختلفة، بالإضافة إلى موقفنا، خلال المفاوضات وتخفيف المعارك.

وفي شهر آب، بوشر بحملة لصالح أسرى الحرب، ومطالبة فيتنام الشمالية باحترام اتفاقية جنيف، وقبول مراقبة جمعية الصليب الأحمر. وتلا ذلك تصريحات حازمة من الجانب الأمريكي، حال إجراء المفاوضات السلمية في باريس، وانعقاد المؤتمر الدولي لجمعية الصليب الأحمر، في شهر أيلول من عام ١٩٦٩. وفي الثالث عشر من شهر آب، وقع واحد وأربعون عضواً من مجلس الشيوخ على تصريح يندد بوحشية فيتنام الشمالية، تجاه أسرى الحرب الأمريكان. وفي شهر أيلول، وقع مائتا عضو من مجلس النوّاب على تصريح مماثل.

حاول نيكسون حسب عادته أن يقوم بدور في جميع الجهات، فأقدم كما كان يفعل في مثل هذه الأحوال على عمل مدروس بنضج. غير أنه لم يكن ينطبق في الواقع على أية خطّة واضحة ومعينة، ومجمل القول أنه كان مخادعاً. أشرت خلال محادثات

عدّة مع القادة الأجانب في نهاية العام ١٩٦٩، إلى أن نيكسون قد بيّن أن ذكرى إيقاف القصف في الأول من شهر تشرين الثاني، سيكون نوعاً ما موعداً نهائياً. وأثناء قيامه برحلة حول العالم، لم يخف أن صبره أوشك أن ينفد، وإذا لم تصل المفاوضات الجارية في باريس إلى تقدّم ما، في الأول من شهر تشرين الثاني، فإنه سيلجأ إلى استخدام القوة. وحسب رأيي لم يكن لدى نيكسون أية فكرة عما يقصد فعله. وبالرغم من التنويهات المستمرة حول هذا الموعد النهائي، كان نيكسون يقوم في الوقت ذاته، على مبادرات تخفّف من وطأة تلك التهديدات، كإعلانه مثلاً عن انسحابات أخرى للقوات. وفي نهاية شهر أيلول، أسرّ لي أنه مصمم على الإقدام على عمل عظيم قبل الخامس عشر من شهر تشرين الأول، حتى لا ينسب ذلك إلى مظاهرات الموراتوريوم، ناهضته في تصميمه ذلك، لأنه إذا لم يحترم الموعد المحدّد، فإنه سيثير الريبة لدى أعدائنا. وفي الواقع لم يقم بتنفيذ تهديده على الاطلاق. وربما كان يحاول إقناع نفسه أنه كان حاكماً عنيداً، يمنعه مساعدون ضعفاء عن تتميم رغباته.

وفي السابع والعشرين من شهر أيلول، جاء دوبرينين لمقابلتي، لأخذ موعد لأندريه غروميكو، ليلتقي الرئيس، عند حضوره للولايات المتحدة بمناسبة انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة. خلال محادثتي ودوبرينين، كلمني نيكسون هاتفياً، حسبما كنا متفقين عليه، وطلب إليّ أن أنقل لدوبرينين أن فيتنام، كانت تشكّل قضية محرجة في العلاقات الكائنة بين البلدين، وقد غادر القطار وبأقصى سرعة. فنقلت إلى دوبرينين ما كلمني به نيكسون وأردفت أن على هانوي التصرف بالأمر حسناً.

وفي السادس من شهر تشرين الأول، التقى نيكسون بروجرز، ومنعه من تقديم أية مبادرة جديدة دبلوماسية تتعلق بفيتنام، طالما أن هانوي لا تكشف عن أفكارها، وجدّد ولأول مرة الأول من شهر تشرين الثاني تاريخاً نهائياً. واعتبر روجرز التهديد

بصورة رسمية، كما بيّن لي ذلك في الثامن من شهر تشرين الأول، أنه كان على اعتقاد مكين، أن الرئيس سوف يُقدم على أمر هام في الأول من شهر تشرين الثاني، بالرغم من أنه لم يطلّع أكثر مني إلى أي مدى يصل تهديد الرئيس. وفي الثامن من شهر تشرين الأول كنت اقترح على نيكسون أن يعمّم تقريراً ما حول ما يحيط بإعلان الأول من شهر تشرين الثاني، وسيكون هذا بمثابة تحذير لهانوي وموسكو، ويمكن أن يكون لصالحنا في حال أن فيتنام الشمالية ستُقدم على تنازلات غير متوقعة. وفي الثالث عشر من شهر تشرين الأول، كان البيت الأبيض يعلن أن الرئيس سيلقي خطاباً هاماً في الثالث من شهر تشرين الثاني، يتضمن شرحاً موسعاً لسياستنا في فيتنام. ولقد اخترنا هذا التاريخ بالتزامن مع انتخابات الحكومة في مقاطعة نيوجرسي. وبإعلاننا المسبق عن خطاب الرئيس أوقعنا أنفسنا في خطر كبير، فإنه يوقع الريبة والشك لدى البعض، ويشجع في الوقت نفسه ضغوطاً على الرئيس نيكسون لحمله على التراجع عن بعض قرارات ربما كان يريد إعلانها. وفي غضون ذلك، حاول نيكسون الحصول على مساندة السوفيت. وفي التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول، التقى الرئيس نيكسون دوبرينين، فيما كان هذا الأخير عائداً من إحدى زياراته الاستشارية لموسكو. وذكرّه نيكسون، أن إيقاف القصف مضى عليه عام وإذا لم تتوفر نتيجة سريعة، فإن الولايات المتحدة ستلجأ مجدداً إلى طرقها الخاصة لوضع حدّ للحرب. وبالمقابل، إذا ساعد الاتحاد السوفيتي الولايات المتحدة في إحلال صلح مشرّف، فنُقدم على أمر خطير، يتوقف عليه تحسن العلاقات بين بلدينا. وكان دوبرينين يجهل آنذاك ما كان لدى فيتنام الشمالية من اقتراحات، لكني فهمت من خلال حديثه، أن الروس من جهتهم كانوا على استعداد للقيام ببعض التساهلات وبعد انقضاء شهور على القتال، أعلمنا السوفيت في شهر حزيران، أننا

علـى استعداد لإجـراء محادثـات سـريعة حـول تحديـد التسـلّح الاسـتراتيجي. والسوفيت، حسب عادتهم، كانوا يظهرون، ومنذ عدة شهور، أن صبرهم قد نفد حول البدء بمفاوضـات، وبـالرغم من ذلك فقد أجـابوا بصورة غامضـة. وفي العشـرين من شهر تشرين الأول، أبلغنـا دوبرينين، أن الاتحـاد السوفيتي يرى أن تبدأ المفاوضـات نحو نصف شهر تشرين الثاني.

وبالرغم من كل جهود البيت الأبيض، لتأجيل جوابه بشـأن مفاوضـات "سـالت" إلى يوم إلقـاء الخطـاب الرئاسـي في الثالث من شـهر تشـرين الثـاني، ألحّ روجـرز أن نعلن عن موافقتنـا علـى إجراء المفاوضـات في الخـامس والعشـرين من شـهر تشـرين الأول، قبل نيكسـون ذلك علـى مضـض. وكـان يخشـى حـدوث هـزائم خـلال الأسبوع الأخير من شهر تشرين الأول.

وسـعى نيكسـون كعادتـه، ان يجعل توازنـاً بـين تـردّده في مجابهة صـديق قـديم، والإقدام علىمضاعفة تهديده للسوفيت. وطلب إليّ اعـلام دوبـرينين حـالاً، ان الـرئيس كان في وضـع لا رجعة فيه حول قضية فيتنام. وعندما يكون الانسان في خدمـة مـن هـم من أمثال نيكسون، عليه ان يُجري خياراً بين الأوامر التي يعطيها وان يـترك لـه فرصـة العـودة الى تلـك الأوامـر صـعبة وخطـرة في تنفيـذها. وان الأوامـر الـتي أصـدرها إلـيّ كانت من النوع الثاني. وكنت أعلم ان نيكسون لن يُقدم علـى شـيء في الأول من شـهر تشرين الثـاني. واذا تلفظنـا بتهديـد خطـير دون وضـعه موضـع التنفيـذ، فاننـا نوشـك في حمـل النـاس علـى عـدم تصـديقنا. ولـذلك توقّعـت مـن نيكسـون ان يكـرّر تهديـده، فلم يفعل.

وفي غضون ذلك، اعتكف نيكسون في كامب ديفيد، لتهيئة خطابه المزمع إلقاؤه في الثالث من شهر تشرين الثاني. وكنت أنا ومساعديّ قد هيأنا الأمـور الهامـة فيـه، لكن

نيكسون كتب البداية والختام على دفتره الفخم الأصفر، وأضفى عليه بعض نفحات من بلاغته. وكان في الواقع أحد مواقف تدخلات نيكسون العامة. ودون الأخذ في الحسبان توصيات كل أعضاء مجلسه، فقد قصد عدم الإقدام على أية تساهلات مع المعارضة، والفيتناميين الشماليين، فوافقته على رأيه. أوضح نيكسون للشعب الأمريكي نواياه بكل وضوح، محاولاً إبقاء المجال حراً أمامه، لتحقيق ما كان يسميّه "سلاماً مشرّفاً". أحدث الخطاب موجة مفاجآت، إذ أنه كان يسخر به من كل المعارضة، والفيتناميين الشماليين، وكل الآمال التي كانت معلّقة عليه، وذلك بعدم إعلانه عن أيّ تغيير حقيقي في موقفنا تجاه المفاوضات ولا عن أي انسحاب في قواتنا، وكان يطالب "الأغلبية الصامتة" من الأمريكيين، بمساندة القائد العام. ولأول مرة في تصريح رئاسي، أعلن نيكسون وبصراحة، عما كان يقصد بوضع مخطط لإيقاف الحرب، أعني الاستراتيجية ذات الشقّين: فيتنمة الحرب أو المفاوضات. وكان يؤكد أن الفيتنمة تفسح المجال أمام تخلٍّ شريف عن التزاماتنا التي لا تعطي أية مكاسب للفريق الثاني.

عدّد نيكسون الإجراءات المتخذة بشأن انسحاب القوات الأمريكية، وتقليص الغارات الجوية، والتسريع في التدريب العسكري في فيتنام الجنوبية وأكد أن فيتنمة الحرب كانت تفرض: الانسحاب الكامل لكل القوات المقاتلة الأمريكية، وإبدالها بقوات فيتنامية بموجب تنظيم زمني دقيق جداً. وكشف نيكسون، كما كنت قد اقترحت، عن الاتصالات السرّية مع فيتنام الشمالية، التي سبقت توليته، والمباحثات المتكررة مع الاتحاد السوفيتي، لتحريك المفاوضات، والمراسلات المتبادلة مع هو شي مين في شهري تموز وآب. ولم يأتِ على ذكر لقائي السرّي بكسيان توي، لكنه شرح وبصدق، عدم تحقيق أيّ تقدم خارجاً عن الاتفاق على شكل طاولة المفاوضات، وحدّد المشكلة الأساسية:

"في سان فرانسيسكو، ومنذ بضعة أسابيع، شاهدت متظاهرين يحملون لافتات كتب عليها: "هزيمة في فيتنام، وتسريح جنودنا".

وبالحقيقة، فإن إحدى قدرات مجتمعنا الحر في أن كل أمريكي له الحق أن ينتهي إلى هذه النتيجة، ويدافع عن وجهة نظره هذه. ولكني بصفتي رئيساً للولايات المتحدة، لن أكون أميناً نحو اليمين الذي أقسمته، عند قبولي أن توجّه سياسة أمتنا من قبل أقلّية تساند وجهة النظر هذه، وتحاول فرضها بالقيام بمظاهرات في الشارع.

منذ مائتي عام تقريباً، كان يدير سياسة بلادنا، بموجب الدستور، قادة انتخبهم الكونغرس وفي البيت الأبيض من قبل الشعب بكليّته. وإذا كانت هناك أقلية ضاجّة، لأسباب تعتقد أنها بجانبها، وتوصلها إلى التغلب على حكمة وإرادة الغالبية، عندئذ لن يكون لهذه الأمة أيّ مستقبل كمجتمع حرّ .....

كان ردّ الفعل بالنسبة لهذا الخطاب مخيفاً، وما كاد الرئيس يلفظ آخر كلمة منه، حتى أن مبنى البيت الأبيض أخذ يهتزّ من شدّة الأصوات الحماسية. ووصلت عشرات الآلاف من برقيات التأييد، فغطّت حالاً على انتقادات المعلقين في الصحافة والتلفزيون. ودون ريب، أن موجة الحماس هذه حثّ عليها أتباع هالدمان الذين لا يكلون، فطلبوا إلى كل المعلقين السياسيين في طول البلاد وعرضها، إرسال برقيات. لكن تدفق هذه البرقيات فاق كثيراً ما يستطيع تحقيقه اختصاصيو البيت الأبيض في العلاقات العامة. وبكل تأكيد، فإن نيكسون تأثر جداً، وسجلت الاستفتاءات قفزة كبرى في شعبيته. واستسلم الشعب الأمريكي للحرب، لكن نفسيته كانت على غير استعداد لقبول الهزيمة.

شعر نيكسون من جراء ذلك بغبطة كبرى، بالرغم من أنه أظهر عدم مبالاة تجاه الرأي العام، الذي لم يُذقه فترة استقرار. واحتفظ ببرقيات التهنئة مكدسة

فوق مكتبه، بنوعٍ يستحيل العمل معها في مكتبه البيضوي، رافضاً الانفصال عنها عدّة أيام.

وبعد أن هدأ وضع الجماهير، أخذت الضغوط تخف، حتى أن الحكومة ولأول مرة منذ شهر كانون الثاني، أصبح لديها بعض المجال يمكنها من القيام ببعض إجراءاتها. ومع ذلك فقد لزمنا وقت طويل، لإفشال ما يقوم به قادة مشاة وعنيدون في هانوي. وفي عام ١٩٦٩، حاولوا إقناعنا بأنه لا يجوز المطالبة بإجراء مفاوضات، ما لم تكن هناك رغبة صادقة لدى الطرفين، وكانوا يرفضون بحث أو مناقشة أي إقتراح تسوية، أو انتخابات حرة، أو لجان انتخابات مختلطة، أو وقف إطلاق النار. ان الانسحاب الاحادي الجانب لجنودنا وطائراتنا لن يحسن الجو. وأن تخفيف القتال لن يسارع بفكرة اجراء مفاوضات. كانت هانوي عازمة على تحطيم تصميمنا الداخلي، ولكي تقوم بدورها المطلوب في الوقت المحدّد، كان عليها إخفاء أية شرارة أمل وأي مظهر للتقدّم. ولما كان الفيتناميون الشماليون، من بقايا اللينينيّين ذوي العقيدة، فليست لديهم رغبة بتقاسم النفوذ.

وبالعودة إلى الماضي، فان التحليل الذي كان يضّم اقتراحي بالعهدة إلى فانس بمهمة في شهر نيسان، وانتقادي بفيتنمة الحرب في شهر أيلول وتشرين الأول، كل هذه مجتمعة كانت دون ريب صحيحة. ان الزمن لم يكن في صالحنا، والتنازلات الجزئية الصغيرة كانت قسطاً من العناد، لا تشجيعاً إلى إجراء تسوية. وبمقولة منطقيةّ أكثر، يُفضل ابداء اقتراح مقبول قدر الإمكان، وفي حال رفضه، البحث عن تطبيقه عسكرياً. وهذه الطريقة الفضلى لضمان مساعدة السوفيت، الذين عند زوال الأزمات لا يقدمون علىعمل شيء ذي بال.

ولو كنا قمنا بعمليات حربيّة منذ عام ١٩٧٠، كالعمليات التي قمنا بها في الأعوام

١٩٧٠ ـ ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ في كمبوديا، ولاوس، وفيتنام الشمالية لكانت مدة الحرب قد تقلّصت حتماً . انه من العسير طبعاً، وبعد فوات الأوان، أن نعرف أذا كانت سايغون على استعداد لمواجهة هذا الوضع وحدها، بعد تسوية محتملة. وأمام قلقنا الداخلي، والإنقسامات ضمن الحكومة، لم أناضل أبداً في سبيل فرض تحليلي النظري، وضممت نفسي إلى الرأي العام، الذي يعتبر ان كل الأمور مأخوذة بالحسبان وان فيتنمة الحرب أفضل لاستمرار حياتنا الدولية، العسكرية منها والقوميّة. وعند سلوكنا هذا السبيل، فلا عودة عنه. وكنت عالماً ان الطريق ستكون طويلة وشاقّة، وكنت اكدت في مناسبات عدّة أخطار سلوكها في محادثاتي مع الرئيس، وأننا ربّما توصلنا إلى فشل وخطر، كما كنت أعتقد أيضاً، ان الحلّ المطروح كان أفضل بكثيرمن تلك الحلول التي تقترحها المعارضة.

وفي الثامن عشر من شهر شباط من عام ١٩٧٠، قدّم الرئيس للكونغرس أول تقرير عن سياستنا الخارجية، أوجز فيه سياستنا في فيتنام مبيناً أنها علاقات معتدلة تماماً. ومن النادر ان تصريحاً رئاسياً يتطرّق بهذه الصراحة إلى أسباب الريبة التي تساور النفوس، ويطرح أسئلة وقضايا بهذه الصراحة.

«لقد صدرت ايضاحات عدّة منذ دخولنا الحرب في فيتنام، تبيّن اننا حصلنا على تقدّم، وكنّا علىجانب عظيم من التفاؤل. فبالرغم من اهتمامنا الشديد في وضع مخطّطاتنا، وبالاضافة إلى أملنا في تحقيقها، فاننا لانزال أمام عاملين أساسيّن:

- لا نتمكن من محاولة خداع العدو، الذي يعرف حقيقة ما يجري.
- كما اننا لا نستطيع خداع أنفسنا، يجب أن يقف الشعب الأمريكي على الحقيقة، كما أننا لانسمح لأنفسنا أن نفقد ثقته في تصريف أمورنا وفي زعامتنا».

وكان التقرير يبيّن وجود مشاكل لاتزال دون حلّ، وكان يطرح أُسُساً تؤدي إلى تقدّم في المستقبل. وإننا نقول ان الحكومة لاتعلم بعد الأجوبة النهائية علىجميع الأسئلة التي سبّبتها الحرب، ونوايا العدو، ومنظور فيتنمة الحرب، وموقف الشعب الفيتنامي:

- ماهي كفاءة العدو في تنظيم عمليات عدوانية طويلة الأمد؟ وهل تصبح هذه العمليات خطرة علينا؟

- إلى أي مدى جرى تحسين قدرات حليفنا؟ ولا سيما هل استقرّ رأي الفيتناميين على زعيم، وهل أصبحت لديهم قدرات عسكريّة، والمهارة التعبويّة ، ومعرفة عوز شعبهم الذي لا بدّ منه للوصول إلى نجاح دائم؟ وأية مبادرة إستراتيجية نقدمها للعدو في حال حصولنا على تقدّم من قبل حلفائنا؟ واذا اختار عدوّنا خوض غمار حرب طويلة الأمد ومتحفّظة، فهل يتمكن من الانتظار وبكل بساطة انسحاب الولايات المتحدة، وعندئذ بعد أن يستعيد قواه، يقوم بالمبادرة، ويغلب فيتنام الجنوبية؟

وما هو أهم أيضاً: ما هي الرغبات الحقيقية لشعب فيتنام ، الذي نسعى من خلال قتالنا ان نحتفظ له بالخيار الحر؟ فهل هو بالحقيقة على عداء مع الفيت كونغ، أو أنه لا يفرّق بين هذا المعسكر أو ذاك ؟ وماذا تفرض عليه مواقفه الداخلية في حال الوصول إلى نجاح حقيقي في المصالحة؟

لم يكن المقصود من ذلك الحثّ علىمنازعات قوميّة أو الدعوة إلى انتصار عسكري، انما كان تحليلاً جليّاً، لتفكير قادة أصيبوا بخيبة الأمل طوال عشر سنوات، كان همّهم تأسيس سياستهم على الحقيقة، وهم في الوقت ذاته على استعداد لقبول تسوية معقولة.

ولما كان قادة هانوي مصمّمين على الوصول إلى النصر، لذا كانوا يرون الأشياء في عام ١٩٦٩، غير ماهي عليه لم يكن لديهم أدنى شك في إيجاد مخرج للنزاع، ولم تكن لديهم فكرة لتسوية. وكانت هانوي تطمح إلى توحيد السلطة السياسيّة في يدها. وكانت هذه الرغبة تبدو صريحة في وثائق هامة ثابتة، صادرة عن السلطات السياسية والعسكرية الشيوعية، وضعنا عليها أيدينا في نهاية عام ١٩٦٩. فحسب وثيقة اصدرها المكتب المركزي في فيتنام الجنوبية، ان جميع ما تقدمه امريكا من تنازلات ما هو إلاّ برهان حقيقي على فشلها.

«ان تعبويتها لحرب حدّدتها تحوّلت إلى عبء ثقيل عليها، لقد وجدوا أنفسهم مرتبكين في مشاكل إستراتيجية خطيرة، وكانوا مرغمين على تقليص إلتزامهم في النزاع وهكذا لقد أجبروا على تبديل اسم الحرب من حرب أمريكية إلى حرب فيتناميّة، مبتدئين بسحب خمسة وعشرين ألف جندي أمريكي، وانهم يأملون تخليص أنفسهم من حربهم العدوانيّة في بلادنا»..

«وبعد إحراز الغلبة في حملة ربيع عام ١٩٦٩، أعلن جيشنا وشعبنا عن هجوم واسع النطاق، في المجالات العسكرية والسياسيّة والدبلوماسيّة، لقد قمنا بهجومنا الصيفي، في حين اننا كنا نقدّم حلاً سلمياً من عشر نقاط في مؤتمر باريس، وكنا نُحضِر فيه نوّاب الكونغرس القومي الشعبي الذين انتخبوا الحكومة الثورية المؤقّتة. وهكذا، بعد أن ألحقنا بهم الهزيمة بهجماتنا المتكرّرة في حملة ربيع عام ١٩٦٩، كانت حكومة نيكسون تتلقّى ضربات أشدّ عنفاً. وبسبب هذه الهزائم الجديدة، سواء في مجال القتال أو حول طاولة المفاوضات، رأى نيكسون نفسه أمام أسئلة محرجة من قبل الشعب الأمريكي، والرأي العام العالمي، الذي يطلب من الولايات المتحدة وضع حدّ لحربها العدوانيّة في فيتنام...».

«وفي الواقع، ان نيكسون أجبر على تقديم برنامجه ذي النقاط الثمانية، في سبيل تنظيم لقاء مع تيو في ميداوي، والمباشرة بسحب خمسة وعشرين ألف جندي. وكل هذا كان يعكس صلابة واحتيال الامبرياليّة الأمريكية.. ومن جهة أخرى، فإن ذلك يظهر الأزمة والمأزق اللذان يتعاظمان لدى حكومة نيكسون. يجب علينا إغتنام هذا الوضع الجديد، ومضاعفة جهودنا في جميع المجالات لإحراز نصر كبير».

وحسب رأي المكتب المركزي لفيتنام الجنوبيّة، فان إستراتيجيّة عام ١٩٦٩، كانت تستطيع تدمير القوّات الأمريكية، في سبيل مضاعفة الضغوط على الولايات المتحدة، وإضعاف جيش فيتنام الجنوبيّة، وجهود الحلول السلميّة، ومن ثم إجبار الولايات المتحدة على القبول بحكومة إئتلافية تسعى لتوحيد فيتنام:

أ ـ مهاجمة القوات الأمريكيّة بضراوة، وتكبيدها خسائر فادحة، وجعلها في ضيق متزايد في كافة المجالات....

ب ـ الضرب بقسوة على الجيش «الدمية» وإقصاء العناصر القويّة في الجيش والحكومة «الدمية» وشلّ وتجميد حركة العناصر المتبقيّة.

جـ ـ بذل جهود في تنمية قوانا العسكرية والسياسيّة، وتعزيز وضعها الإستراتيجي الهجومي.

د ـ ملاحقة تدمير وإضعاف حكومة «الدمية» على مختلف المستويات، ولا سيما إحالة مخططات العدو السلميّة إلى العدم، والتخلّص من قسم كبير من حكومة «الدمية».... وتصعيد دور الحكومة الثورية المؤقتة....

هـ ـ من ثمّ، احالة ارادة العدو الأمريكي العدوانيّة إلى العدم. وإجباره على القبول بألاّ يكون في موضع القوّة عند نهاية الحرب، وإلزامه كذلك على انهاء الحرب

بسرعة، وسحب قوّاته، ما دام جيش وحكومة «الدمية» في حالة ضعف شديد، والضغط على الأمريكان لقبول تسوية سياسيّة والاعتراف بحكومة فيتنام الجنوبيّة: مستقلّة ، ديمقراطيّة، مسالمة ومحايدة، تقوم علىحكمها حكومة إئتلافية قوميّة وديمقراطيّة، تسعى إلى توحيد فيتنام.

ان الفيتناميين الشماليين، كانوا على معرفة وثيقة بواقعهم، وكان واجبنا ان نبيّن لهم انهم كانوا مغرورين. وبشقّ النفس وخوف كنت اتابع اهتمامي في تطبيق سياستنا التي كانت في آن واحد غامضة ومعقّدة. ولم يكن هناك أي حلّ آخر مقبول. وكان من الواجب معالجته بطريقة يصبح معها مقبولاً ومعقولاً، اذ لم نكن وحدنا أصحاب العلاقة فيه، لأن مستقبل الشعوب الأخرى، كان يتوقف أيضاً على الثقة التي تمنحها للولايات المتحدة. فكان علينا أن نقاتل، وبعناد، إلى أن تأخذ هانوي بإعادة النظر في إمكانياتها. واذا تفوّقنا ، فإن هانوي بلا شك تسعى إلى هدنة، ان لم نقل صلحاً. علينا إزالة جميع العقبات في هذا السبيل، لأن مسؤولية الكارثة ستُعزى إلينا، حتى ولو أوقعتنا فيها وجرّتنا إليها ضغوطنا الداخليّة. ان واجبنا مضن في متابعة قتال خصم عنيد، حتى نتمكن من الوصول إلى تسوية مشرّفة، تتوازى مع إمكانياتنا الخاصّة، ومسؤولياتنا الدولية، وتوقّعات الغالبيّة العظمى من الأمريكان.

الفصل الثامن

الشرق الأوسط والاستراتيجية الأمريكية

لم أكن أعرف الشيء الكثير عن الشرق الأوسط، عند استلامي الوظيفة. ما نعمت بزيارة أي بلد عربي، وما اعتدت أبداً على طريقة المفاوضات في الشرق الأوسط. وخلال حفلة عشاء، أقيمت في شهر شباط من عام ١٩٦٩ في سفارة بريطانيا العظمى، سمعت ولأول مرّة صيغة أساسية للعلاقات الدبلوماسية في هذه المنطقة، حين أعاد أحدهم إلى الأذهان تلك العبارات الخاصة بالقرار ذي الرقم ـ ٢٤٢ ـ الصادر عن مجلس الأمن في الأمم المتحدة، وأتبعها ببعض كلمات حول ضرورة إقامة سلام عادل وثابت بموجب الحدود الآمنة والمعترف بها. فظهر لي ذلك وكأنه كليشه، وتجاسرت فاتهمت قائلها أنه يهزأ بي، وحين سنحت لي الظروف بترك منصبي، أصبحت خبيراً في شؤون الشرق الأوسط. وأضحت الكلمات الحقيقية، صيغتها وكنهها يشكلان وحدة. ووجدت نفسي منهمكاً ومنغمساً في غموض وانفعال وحقد لهذه المنطقة.

وحتى عام ١٩٦٩، فإن اتصالاتي الشخصية الوحيدة، مع هذه المنطقة كانت عبارة عن ثلاث زيارات قصيرة خاصة إلى إسرائيل في عام ١٩٦٠ وأنني لا أزال أذكر جيداً، لا سيما زيارتي لكيبوتز جينوسار حيث كان يعيش إيغال آلون، الذي كان أحد تلامذتي عندما كنت مدير معهد العلاقات الدولية في هارفارد عام ١٩٥٧. وبعد ذلك، تعاونا معاً، عندما عين معاوناً لرئيس وزراء إسرائيل، ومن ثم وزيراً للشؤون الخارجية. إن مزرعته موجودة قرب شواطئ بحيرة طبريا، وكل بوصة من الأرض، المزروعة جيداً، احتلّت بالعقيدة والألم، في محيط معاد وبالرغم من جميع النزاعات. أن السلام في الشرق الأوسط، ليس هو فقط ضرورة طبيعية، بل أيضاً إنجازاً روحياً. ومع ذلك، لم يخطر ببالي أبداً، أن انضمّ يوماً إلى هذا النضال.

ولم أخذ في الحسبان أبداً، أن هناك كلمات إذا استعملت في سبيل تحقيق مطلب، فإنها تعكر الجو أكثر مما تصل بالمرء إلى غايته. وفي وسط هذه الصحارى والجبال المنعزلة، حيث نشأت ثلاثة من أكبر ديانات العالم. جميل بالمرء أن يطلق لنفسه العنان، أفضل من أن يضع منظراً طبيعياً جداً للتخيلات الإنسانية. والأقوياء وحدهم يستطيعون العيش في شروط جغرافية ومناخية معادية كثيراً. ليست الطبيعة، هي التي تبعث القوة، إنما هي العقيدة والعلاقات الإنسانية. ولا يوجد في مكان آخر مجموعة من الزعماء ذوي شخصيات جد مرموقة، وكذلك لا نجد تجارب لرجال الدولة أنفسهم، الذين يقومون بأدوار حاسمة. إن الواحد منهم مرتبط بأمثاله بالعقيدة، كما أن لكلماتهم أهمية فاصلة. وسواء مال العرب إلى تفسيرات إسرائيل لتلمودهم، أو إلى قصائدهم الملحمية، فإن الخطة واضحة، وقد يتخذها الغرب النفعي ذريعة تجريبية، تنشأ في مجال بلاغة مندفعة وإلهام إنساني. ويا لتعاسة الغريب غير اللبق الذي يضع في آخر رسالته فيضاً من الوعود الشفوية ويحاول إيجاد الحلول مطالباً الفرقاء بما يريدونه فعلاً. وأن ما يريده فرقاء النزاع في الشرق الأوسط

موجود في أعماق مزيج من التجارب والأحقاد والأماني، بواقعية متصاعدة، وصعوبة المفاوضات المعقولة لا تقدر على التأثير فيها.

إن نزاع الشرق الأوسط، لا يعود إلى آلاف السنين، كما يزعمون غالباً. أنه حصيلة القرن العشرين حصراً. وبالحقيقة فإن الحركات الصهيونية والعربية القومية، ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر، ولكنها لم تكن موجهّة ضدّ بعضها البعض. ووجب علينا أن ننتظر زوال الاستعمار البريطاني الذي جاء بعد أجيال من التسلط العثماني، حتى أن اليهود والعرب، الذين كانوا حتى هذا التاريخ في تعايش سلمي، يأخذون في عراك مميت حول مستقبل سياسي لهذه الأرض.

لقد جعل العصر الحاضر من هذا النزاع مصدراً لجميع الشرور. وأن ضحايا اليهود التي أقدم عليها الحكم النازي، أضفت طابعاً معنوياً لتشكيل دولة يهودية. ولم تنشأ هذه الدولة وتعترف بها الجمعية العالمية عام ١٩٤٧، إلا بعد أن دافعت عن استقلالها، ضد جيرانها العرب، الذين لم يبالوا بعدد الضحايا التي قدّموها في سبيل قهر البغي الأوروبي. ومن جهة أخرى فإن غلبة إسرائيل في حرب الأعوام ١٩٤٨-١٩٤٩، أذكى نار القومية العربية بقدر ما كانت النظم التقليدية، التي أفقدتها الهزيمة الثقة، تخضع للأيديولوجية الراديكالية حول توحيد العرب والاشتراكية. ثم أصبحت المنطقة أرضاً خصبة لحرب باردة، الأمر الذي هيّج النزاع المحلّي حتى أوشك أن تجري فيه مجابهة عظمى بين القوات الأجنبية.

في العام ١٩٦٩، مضى على وجود إسرائيل نحو عشرين عاماً، دون أن يعترف بها جوارها، وكانت تنهكها حرب العصابات، وتعاب في المجتمعات الدولية، وأن الحصار الاقتصادي العربي الذي مضى عليه عشرون عاماً كاد يخنق أنفاسها. كانت الطريق الرئيسية بين مدينة أورشليم المجزأة وتل أبيب، تمرّ أحياناً على أقل من

ثلاثمائة متر عن النقاط العربية. وأن إسرائيل التي يحيط بها أعداء ألدّاء كانت قد دمجت سياستها الخارجية بسياستها الدفاعية. وقد اتخذت هدفاً أساسياً ونهائياً، كأهداف معظم الشعوب الأخرى، ونقطة انطلاق لسياستها الخارجية: اعتراف جيرانها بها، وحقها في الوجود. وعاشت بصورة طبيعية في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، واطمأنت على أمنها، الذي كانت تسعى إليه دون جدوى، منذ نشأتها وكانت تقاتل في آن واحد في سبيل أراضيها والاعتراف بها، وكانت ترفض قبول أي رأي يعارض هذه الأهداف.

ان الهوّة السحيقة التي كانت تفصل بين نظرية الفريقين، وكل فريق منهما كان يمثل حقيقة، كما هو وارد في جميع المآسي. وهذه الوحدة ذاتها أضفت على النزاع الاسرائيلي العربي هذا الطابع المعقّد والمر. وعند تصادم الحقائق فان التسوية تأخذ نسبة أولية. وينعدم التقدم في المحادثات بعد أن يعرض الفرقاء مسائل معينة. ولقد أصبح ذلك واضحاً منذ تسلمّنا وظائفنا. وفي الواقع، فان الشرق الأوسط، لا يزال بعد متورّطاً في نتائج حرب الأيام الستّة. واصبحت الأوضاع قاسية، وكانت العلاقات الدبلوماسية في حالة جمود. والمعاداة في حالة تزايد.

في الخامس من شهر حزيران من عام ١٩٦٧، تمكنت إسرائيل من إحداث انفجار حقيقي ومدوي خارج حدودها، متوجّة بذلك سلسلة أحداث، كانت خطابات العرب قد سبقت نواياهم. وفي شهر أيار من عام ١٩٦٧، فإن الاتحاد السوفيتي، كان قد حذّر مصر من أن إسرائيل تعدّ هجوماً واسعاً ضد سورية وأظهرت الأيام خطأ هذه المعلومات والتي لم تكن سوى مناورة مقصودة لإثارة التوتر، والحصول على بعض المرابح الرخيصة أو ربما غلطة حقيقية، ولم يبقَ سوى اعتباره فكراً محتوماً.

أرسل الرئيس جمال عبد الناصر وبعنف، جيوشه إلى صحراء سيناء، المجرّدة

فعلاً من كل سلاح منذ عام ١٩٥٦، وأعلن أنه سيغلق مضيق تيران، الذي كان يشكل منفذاً لمرفأ إيلات الإسرائيلي على البحر الأحمر. بالإضافة إلى أنه طلب من الأمين العام للأمم المتحدة يو ثانت أن يسحب قوات طوارئ الأمم المتحدة، التي كانت تفصل الإسرائيليين عن المصريين، على طول الحدود الدولية. وهناك احتمال أن ناصر كان يقصد من وراء ذلك مجابهة عسكرية، ومن الممكن أيضاً أنه يكون قد دهش من سرعة قبول طلبة من قبل يو ثانت.

ويحدث أحياناً أن الأحداث، تعاكس نوايا مسببها، وتفلت من كل مراقبة. وطالما أن الجيش المصري سيقوم مقام قوات الأمم المتحدة على حدوده، فليس على إسرائيل سوى تعبئة جيوشها. ولما كانت أراضي إسرائيل ضيقة جداً فلا تستطيع تلقي ضربات الهجوم الأول. كما أن اقتصادها لن يصمد طويلاً إذا لم تقاتل في الأسابيع التي تلي تعبئة قواتها، ما دام رجالها موضوعين تحت السلاح، ولا تستطيع في الوقت نفسه تسريح جيوشها، طالما أن الجيوش المصرية ترابط على حدودها. حينئذ أخذت الدبلوماسية الدولية بالعمل حسب طريقتها العادية. وأخذت تتلاحق المشاورات، والضمانات الجديدة والاتصالات. وكل رجال دول العالم، كانوا يناقشون طرقاً عديدة لإزالة الحصار المضروب على مضيق تيران. وتتالت هذه المجادلات الفكرية غير المجدية، حتى صباح يوم الخامس من شهر حزيران، حيث قامت إسرائيل بهجوم مفاجئ، دمرت فيه وبضربة واحدة القوة الجوية المصرية. وانتهت الحرب في ستة أيام واحتلت إسرائيل أراضٍ في مصر وفي سورية، وفي الأردن وفي صحراء سيناء، وفي هضبة الجولان، والضفة الغربية من نهر الأردن. وكانت تشكل هذه الأراضي الجديدة، ثلاث مرّات مساحة إسرائيل ذاتها.

نما التطرف العربي وبنوع ملحوظ بعد حرب عام ١٩٦٧، وسياسة مصر، المحور الحقيقي للبلاد العربية، والغالبية العظمى من العالم العربي تأتمر بالسياسة التي

يمليها الرئيس ناصر. إن الوجود المتزايد للمغاوير الفلسطينيين في الأردن، كان يهدد الملك حسين، الهاشمي المعتدل والقريب من الغرب، وإن الاضطرابات التي أثارها هؤلاء المغاوير حرّم وجود حكومة في لبنان تقريباً عام ١٩٦٩ بكامله. وتأصل الاتحاد السوفيتي بصورة أوثق في المنطقة، نتيجة إرساليات ضخمة من المواد العسكرية إلى مصر، والعراق وسورية. وفي عام ١٩٦٧، أخذت الولايات المتحدة تحدّ من المساندة الدبلوماسية والمادية السوفيتية. ومهما يكن الموقف الدبلوماسي للاتحاد السوفيتي، فقد عزّز إرساله للأسلحة، صلابة وعناد السياسة العربية، التي وضحها مؤتمر القمة العربي في الخرطوم، في نهاية شهر آب ١٩٦٧، حيث اتفق بالإجماع على اللاّءات الثلاث: لا للسلام مع إسرائيل ـ لا للمفاوضات مع إسرائيل ولا للاعتراف بإسرائيل.

وشيئاً فشيئاً، أخذت بعض أجزاء العالم العربي، تتفهم أن العناد سيطيل أمد احتلال إسرائيل للأراضي التي احتلتها خلال الحرب. وفي حين كانت سورية ترفض أي نوع من المفاوضات، فإن مصر والأردن كانتا تسعيان - وعلى مضض - إلى مجال للتفاهم. وأنهما بكل تأكيد كانتا تطالبان بالعودة إلى حدود ما قبل الخامس من حزيران عام ١٩٦٧، لكنهما أعلنتا أنهما كانتا على استعداد لاعتبار كل تصريح في عدم التدخل، هو بمثابة حق كل دولة في الوجود، والأمن، والاعتراف بإسرائيل. لكن هذه التصريحات لم تدلّل على تقدمّ يذكر، بالنسبة للمواقف العربية العدائية منذ عشرين عاماً، وكانت بعيدة كل البعد لتتجاوب مع المتطلبات الإسرائيلية: مفاوضات مباشرة، أمن واعتراف بالحدود، وحدود مفتوحة أمام التجارة والسفر، وضمان ملاحة حرة في المسالك المائية الدولية. وفي هذه الحال، فإن العرب الأكثر اعتدالاً، كانوا يطالبون على الأقل بانسحاب كامل، ويرفضون كل محادثات مباشرة، وكان العرب الآخرون يرفضون كل اقتراح في سبيل الصلح. وفي تصريح لمنظمة الفدائيين

الفلسطينيين "فتح" في شهر تشرين الأول من عام ١٩٦٨ رفضت فيه كل تسوية تهدف إلى إنهاء الكفاح المسلح، وكانت تحذر الحكومات العربية من هذا النوع من السياسة وتؤكد موافقتها على أن يكون في فلسطين مجتمع حر، مفتوح أمام الجميع، لا طائفي، ولا عنصري. وبمقولة أخرى: قادر على إزالة دولة إسرائيل نهائياً وبلا قيد أو شرط.

إن القرار (٢٤٢)، لم يتضمن أيّة تسوية إلاّ ظاهرياً. وكان مجلس أمن الأمم المتحدة قد اتخذّ هذا القرار في الثاني والعشرين من شهر كانون الأول عام ١٩٦٧ بموافقة الطرفين المتنازعين. وكان هذا القرار يطالب بسلام عادل وثابت، في حدود آمنة ومعترف بها. كما كان يطالب أيضاً الدول المتحاربة بالتوقف عن التصريحات المعادية، وكذلك انسحاب إسرائيلي من الأراضي التي احتلّتها في النزاع الحالي، والاعتراف بسلطة وسلامة الأراضي والاستقلال السياسي لكل الدول. ولقد غدا من الطبيعي، إذا قبل الطرفان هذه العبارات الغامضة، فهو دليل على أن كلاً منهما يستطيع تفسيرها حسب ما يريد هو. وكانت كل من مصر والأردن تترجم "الانسحاب من الأراضي المحتلة" أنه يعني انسحاباً من جميع الأراضي التي استولت عليها إسرائيل. أما إسرائيل فكانت تعتبر "أن الحدود الآمنة والمعترف بها" كان المقصود بها العودة، إلى الوضع السابق لما قبل حرب الأيام الستة. وبالنسبة للإسرائليين، فإن الانسحاب كان يعني التخلّي عن ضمانات واقعية ويتطلّب تعويضاً. أما بالنسبة للعرب، فإنه كان يعني إعادة ما كانوا يعتبرونه ملكهم الخاص. وهذا يراد به أن الإنسحاب واجب على الإسرائيليين.

إن وجهات النظر هذه المتعارضة، كانت تعمّق نزاع الشرق الأوسط، وكانت تمنع في الوقت نفسه، كل مساومة حقيقية، لأن كل فريق كان يسعى إلى الوصول لأول أهدافه، حتى قبل البدء بالمفاوضات. وتؤكد مصر أن الانسحاب الإسرائيلي يجب أن يسبق أي إنجاز أو مفاوضة للبنود الأخرى. وإسرائيل من جهتها، كانت تطالب ببدء

مفاوضات مباشرة، ستكون لها فائدة كبرى في تسريع الاعتراف بها ولو ضمنياً، وتقليص خطر تدخل قوّة عظمى. وفي عام ١٩٦٧قبل الأردن بالقرار /٢٤٢/ ويعود الفضل في ذلك، إلى وعد قطعه له سفيرنا لدى الأمم المتحدة وكان إذ ذاك أرتور غولدبرغ. وانطلاقاً من هذا القرار وتطبيقاً له، كنا نعمل في سبيل إعادة الضفّة الغربية من نهر الأردن إلى المملكة الأردنية، ضمن تعديل طفيف في الحدود، كما كنا نستخدم نفوذنا لدى إسرائيل ليساهم الأردن بدور ما في أورشليم ذاتها. وكان هذا الوعد باطلاً لأن المفاوضات لم تبدأ.

وبناء على القرار (٢٤٢) كان على الأمين العام يوثانت تعيين ممثل خاص يكلفه إجراء اتصالات مع الفريقين ويسعى للبدء بالمفاوضات. اختار يوثانت لهذه المهمة غونار يارنغ، سفير السويد في موسكو، ولمعرفة ما إذا كانت لدى الفريقين وجهات نظر مشتركة، بدأ يارنغ بانتهاج أساليب استقصائية للوقوف على طبيعة المواقف التي تتخذها الأطراف. وعندما وصل يارنغ إلى الشرق الأوسط، وجد أن مواقف الفريقين لا تزال متعارضة في حقيقتها كما هي في تصريحاتها كذلك.

إن الشعور الذي كان يُهيمن على أفكار كل طرف كان مؤثراً. إسرائيل تطالب "بسلام ثابت ودائم"، وما دامت هي البلد الوحيد الذي لم يعرف السلام، كان يمكنها إضفاء أهمية كبرى على هذه العبارة. وفي الواقع، ماذا يعني "سلام ثابت" بين شعوب ذات سيادة، عندما يكون شعار السيادة هو فعلاً تبديل قرارات؟، إن فرنسا وألمانيا، سلمتا نفسيهما للحرب عدة مرات، وفي نهاية كل من هذه الحروب كانتا توقعان معاهدة سلام "ثابت ودائم"، ولم تتوقعا أبداً حدوث أية حرب بعدها. إن معظم النزاعات في التاريخ، قامت بين بلدان، أكّدت لبعضها على السلام. ومن الغرابة بمكان حدوث حروب في الشرق الأوسط، بين بلدان هي فنياً في حالة حرب. وجمال

عبد الناصر ذاته، كان يؤكد على انسحاب غير مشروط من كل الأراضي التي احتلتّها إسرائيل. ومع ذلك فإنه لم يبيّن أبداً ما تجده إسرائيل منشطّاً في جميع اقتراحاته المعادية للحرب، لأنها كانت جميعها مبهمة، ولم يستطع إعطاء أي مثل لسلام يرتكز فقط على انسحاب غير مشروط لكامل الأراضي المحتلة. أما بالنسبة لناصر، فإن منظوره لمعرفة إسرائيل كان جارحاً، حتى أن الكلام عنها فقط، كان بالنسبة له، إبعاد كل ضرورة من المرور من الكلام إلى الأفعال.

وفي مناطق أخرى من العالم، فإن هذه المعطيات، توصل إلى تجميد الوضع، تتناوبه المعارك، حتى أن الإنهاك الذي تسببّه، يوجد التوازن، الذي لم تستطع الحكمة إيجاده. ولكن في القسم الثاني من القرن العشرين، فإن الشرق الأوسط أصبح محور السياسة العالمية بالرغم من أن البترول لم يظهر حتى نهايات الأعوام ١٩٦٠ شيئاً فشيئاً ونادراً، وأهمية الشرق الأوسط، ملتقى القارات والمدنيات لم تكن واضحة جداً. في نهاية أعوام ١٩٤٠، كما أن الاتحاد السوفيتي، لم يبد اهتماماً بالشرق الأوسط، معتبراً إياه خارجاً عن منطقة نفوذه. وبعد عشرة أعوام، كان يبيعه أسلحة، وبعد عشرين عاماً، كان يوفد آلاف المستشارين العسكريين إلى مصر. كان الوجود السوفيتي يمثّل تبدلاً هاماً، جغرافياً وسياسياً، منذ الحرب العالمية الثانية. وأسهمت طيلة خمسة عشر عاماً بإثارة النزاع في الشرق الأوسط. وعلى مدى الزمن أظهر الروس جرأتهم. ففي عام ١٩٥٦، تدخل الروس من بعيد في أزمة السويس، فهدّدوا وبصورة مبهمة، بالتدخل عسكرياً، عندما سمحت لهم بذلك وبكل سهولة، ضغوطنا على فرنسا وبريطانيا العظمى، وبعد عام ١٩٦٧، فإن عدد المستشارين العسكريين السوفيت، قد تضاعف خمس مرّات في الشرق الأوسط. وعلى مدى الأعوام ١٩٦٠، كان النفوذ السوفيتي يزداد وبصورة جلية في مصر، وسورية، والعراق، والجزائر وأخيراً في ليبيا. أن حرب عام ١٩٦٧، التي اشترك السوفيت في إثارتها، سمحت لهم

ولأول مرة في التاريخ، أن يركزّوا أسطولاً دائماً، من قرابة خمسين سفينة في البحر الأبيض المتوسط.

إن الدور الذي قامت به السلطات الأجنبيّة في قضيّة نزاع الشرق الأوسط، كان أكثر تعقيداً مما قام به أصحاب العلاقة أنفسهم. كان الاتحاد السوفيتي يتعصّب للقضية العربية، ويساند الاقتراحات العربيّة، دون تقديم أي رأي يسمح بأي تسوية. أما البلدان الغربية، فكانت نهباً لعدم قدرتها وشعورها النابع عن خوف من أخطار اقتصادية، يسببّها نزاع آخر. وأنشط بلد فيها كانت فرنسا، التي احتضنت قضيّة العرب، بعد حرب الأيام الستّة. وبعد حرب عام ١٩٦٧، قطعت مصر ومعظم الدول العربية الأخرى علاقاتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة. فلم يبق لنا إذاً أي دبلوماسي له أهميتّه في عاصمة إحدى الدول العربية ذات العلاقة، يطلب مساعدتنا لإجراء مفاوضات. وكان ناصر يحثّنا على الضغط على إسرائيل من قبله، واعداً بإعادة العلاقات الدبلوماسية معنا. كانت الأسباب لدينا قليلة لتلبية رغبته طالما أن سياسته كانت ترتكز دائماً على الاتحاد السوفيتي، وتمدّ نوايا متطرّفي العالم العربي.

كنت أفكر دائما، أنه كان ضروريا، تقليص مدى تغلغل السوفيت في الشرق الأوسط، ولأجل هذا فان موقف الولايات المتحدة في أزمة السويس عام ١٩٥٦، ظهرت لي سلبيّة جداً وكان علينا أن نفهم، ان حجبنا العنيف لدعمنا المالي في بناء السد العالي في أسوان، لا يفيد سوى إثارة الأزمة بدل إنهائها. وحسب رأيي، فإن هذه الأزمة عند نشوبها، لم نتفهّمها جيداً. ومهما كان الاعتقاد في نفع العمليات العسكرية البريطانية والفرنسية، فإني لا أزال مقتنعاً اننا انتهينا إلى دفع ثمن غالٍ لسياسة قصيرة المدى، أديرت وكأنها لمقصورة مسرح. كما اني لا أصدّق أبداً، اننا اذا تخلّينا عن أقرب حلفائنا، سنجلب لأنفسنا معرفة جميل دائم من قبل عبد الناصر أو

المعجبين به، بل بالعكس تماماً، فانه سيجد نفسه طبعاً وقد أصبح أقوى في مجابهة سياسة كانت بالأساس تتعارض مع المصالح الغربيّة.

أن النظم المعتدلة، التي تساندها القوة والنفوذ البريطاني، ولا سيما العراق ستصبح مستضعفة، اذا لم نقل محكوماً عليها بالموت، عند علمها بمساندتنا لمبادئ ناصر المتشددة. وبالنسبة لبريطانيا العظمى وفرنسا، اللتين زال بعض نفوذه ما، والشعور بأهميتهما العالمية، فانهما يسرعان الى التخلي عن كل مسؤولياتهما الدولية. وان ضرورات المقدرة ستجبرنا حينئذ لملء الفراغ في الشرق الأوسط وفي شرق السويس، وتحمّل المسؤولية الأدبية للقرارات الجغرافية السياسية الخطيرة.

عندما استلمت وظيفتي، لم يكن لديّ متّسع، لتطبيق ما أفكّر به عن الشرق الأوسط، ولا الحريّة ذاتها التي أملكها في مجالات أخرى. وعلى العموم فإن نيكسون كان يقرأ أحياناً، تقارير الوزارات، وكان يتصرّف بعدها بدءاً من البيت الأبيض، الأمر الذي كان يلقي عليّ بتبعات متزايدة. وفي وضع الشرق الأوسط، مقابل ذلك، فلقد أطلق نيكسون يدي نظرياً وعملياً. فكان من حقّي، تنظيم مخططات، وإسداء نصائح، وتحديد مهلة، وكنت أتمكن من المطالبة بمداولات في مجلس الأمن القومي. ولم أكن مفوضاً في نهاية عام ١٩٧١، بإدارة أي عمل دبلوماسي، ما عدا أزمات خطيرة نادرة، كتدخل سورية في الأردن في شهر أيلول عام ١٩٧٠.

وأعتقد أن السبب في ذلك التقارير المتناقضة التي كان يتبادلها نيكسون مع روجرز، ومن ردود فعل قوميّة، كان يخشاها في حال القيام بسياسة ناشطة في الشرق الأوسط. ولأن عدم ثقة نيكسون تجاه وزارة الشؤون الخارجية، كانت تدفعني إلى الأمام، وتكون سبباً محتوماً لتعب وكبت روجرز، إذ كان يسعى دائماً إلى تقوية صديقه القديم. ولكن ما كان يعطيه بيد، كان يحاول استرجاعه باليد الأخرى. إن

المجالات التي لا يمانع في إسنادها، هي التي يشك بوجود حلّ لها، مثل مشاكل إفريقيا، أو التي من الممكن أن تثير ردود فعل قومية. وفي هذه الحال، فإن الشرق الأوسط بالنسبة لنيكسون، كان يتجاوب مع هاتين الفكرتين. كان يعتبر أن القيام بسياسة ناشطة آيل حتماً للفشل، ويجلب بالإضافة إلى ذلك غضب مناصري إسرائيل. ولهذا السبب، كان يفضل أن يبقى البيت الأبيض، على قدر الإمكان خارج خط النار.

إضافة الى أن نيكسون كان يخشى، أن أصلي اليهودي، يستميلني نحو إسرائيل. كما أنه، شأنه في ذلك شأن كافة الرؤساء، لم يكن يمانع محاولة القيام بدور في المنافسة الذاتيّة الموجودة بين وزير الشؤون الخارجية، ومستشاره الأمني، ليؤكد نفوذه الخاص.

هناك سبب آخر لمشاركة أكثر فعالية، بالشؤون الخارجية للشرق الأوسط: شخصية معاون الوزير، الذي كُلّف بمكتب أعمال الشرق الأدنى وجنوب آسيا. انه ثاقب الفكر، اجتماعي رائع، ومتحمّس غالباً، فلم يكن لدى جوزيف سيسكو ما يطلب من دبلوماسي تقليدي. انه لم يعمل أبداً في بلد اجنبي، لكن إصرار دين راسك وحده، سمح له ان يصل إلى أعلى منصب في الوظيفة، الذي كانت لجان الإنتخابات قد رفضته منطقياً، لإرتكازها على مبادئ اكثر كلاسيكية، ومنذ ان استلم سيسكو عمله، وأصبح برهاناً حياً، لما يمكن أن يقوم به رئيس مكتب، في وزارة الشؤون الخارجية، بالرغم من وجود رئيس الحكومة الذي ينوي تنفيذ سياسته الخاصّة. أمّا وقد وهبته الطبيعة فكراً عظيماً خلّاقاً، وموهبة حقيقية يواجه بها الصعوبات، وهذه كلها مجتمعة تشكل كفة دبلوماسية الشرق الأوسط، فانه كان يقدم حلولاً أكثر مما يعترضه من مشاكل، ان سيسكو أخذ المبادرة الإدارية ولن يتخلىّ عنها. وكان يحسن التصرف في واشنطن، وأقام سريعاً علاقات شخصية معي، لعلمه جيداً أنه في ظل حكومة

نيكسون، لن تكون الكلمة الأخيرة إلا للسلطة الرئاسية. وفي نهاية المطاف، فقد أمضى طبعاً وقتاً طويلاً بدور الوسيط بين روجرز وبيني، أكثر من الوقت الذي أمضاه في الوساطة بين العرب والإسرائليين. ان معظم المعلومات التي كان يتلقاها البيت الأبيض حول ما ينجز من أعمال تقوم بها الشؤون الخارجية في الشرق الأوسط، كانت هذه تُنقل إلي عن طريق سيسكو الذي كان يقوم بإبلاغها أيضاً إلى هول ساندرز مساعدي الخاص لشؤون الشرق الأوسط. كان سيسكو يتصرّف بنوع يبقيه وفيّاً مع مسؤولا عمله روجرز والرئيس، وكان يخدمهما حسناً. وعندما أصبحت وزيراً للشؤون الخارجية، عيّنته نائب وزير، وهو أعلى منصب مسؤول سياسي في الوزارة، فكان مساعداً لا يستغنى عنه بل صديقاً حميماً.

عندما استلمت الحكومة الجديدة مهامها، لم تهدأ المحاولات لعمل أي شيء. ففي بداية شهر شباط من عام ١٩٦٩، كان الإسرائيليون يأتون على ذكر (١٢٨٨) عملاً تخريبياً وإرهابياً بين حرب الأيام الستّة ونهاية عام ١٩٦٨. منها (٩٢٠) حادثاً على الجبهة الأردنية، و (١٦٦) حادثاً على الحدود المصرية و (٣٧) حادثاً على خط وقف إطلاق النار مع سورية. و (٣٥) حادثاً على الحدود اللبنانية و(١٣٠) حادثاً في غزة. وكانت الخسائر الإسرائيلية تربو على (٢٣٤) قتيلاً و (٧٦٥) جريحاً من الجيش، و(٤٧) قتيلاً و (٣٣٠) جريحاً من المدنييّن. أرقام هائلة بالنسبة لبلد لا يتعدى عدد سكانه ٢.٥ مليون نسمة. وردّت إسرائيل بغارات جويّة، ضد ما كانت تتوهم أنه مركزاً لدعم العمليات المناوئة لها في الأردن. كما قامت بغارة جوية كثيفة، على مطار بيروت الدولي، في الثامن والعشرين من شهر كانون الأول من عام ١٩٦٨. أضف إلى ذلك، فإن طلقات المدافع، عبر قناة السويس كانت متواترة.

لم يخلُ الوضع من حثّ الولايات المتحدة على التزام دبلوماسي، وجرت المحاولة

مرتين، لا سيما بعد استلام الحكومة الجديدة. وفي الثلاثين من شهر كانون الأول، اقترح السوفيت برنامج سلام، بقصد تطبيق القرار (٢٤٢). وكان يعيد إلى الأذهان وجوب الانسحاب الإسرائيلي التام، الذي طالب به العرب، ويحدّد إجراء هذا السلام في مدة محدودة قصيرة، لم تساعد على قبول البرنامج. ومن جهة أخرى، ففي السادس عشر من شهر كانون الثاني لعام ١٩٦٩، اقترحت فرنسا أيضاً، إجراء مداولات رباعية بشأن قضية الشرق الأوسط، بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي، وبريطانيا العظمى وفرنسا.

وعند اجتماع مجلس الأمن القومي في الأول من شهر شباط، كان علينا أن نقرر، أي موقف يجب علينا اتخاذه تجاه هذه المبادرات، ولا سيما، إذا كان علينا أن نتخلّى عن السياسة السلبية التي كان يتبّعها جونسون. فظهر حالاً أن الشؤون الخارجية كانت راغبة في اتخاذ مبادرة أمريكية. وأن المفاوضات كفيلة، بتحديد الهدف أو الاستراتيجية، التي سنسير عليها. وكانت الشؤون الخارجية تؤكد أن هناك واجباً يدعونا إلى تقريب وجهات النظر المتباعدة والمتعارضة، ودفعها إلى إجراء تسوية بواسطة يارنغ. بالإضافة إلى أنه لا يجوز لنا البقاء دون اهتمام، طالما أن المعارك محتدمة. وكل بلدان المنطقة كانت على اقتناع تام أن الولايات المتحدة تملك مفاتيح الصراع، وبنتيجة ذلك كانت تؤكد الشؤون الخارجية وجوب إجراء تحرّك سياسي. وكان العالم يرجو أن تسريعاً بسيطاً لفكرة إجراء مفاوضات، سيوجد مجالاً للتفاهم ليس فقط بين الفرقاء المتعادين بل أيضاً بين السلطات الأجنبية. أما فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتي، فإن الشؤون الخارجية كانت تزعم، إذا كانت موسكو تستفيد من التوتّر الموجود في المنطقة، فإن إحلال السلام لا يكون إلاّ بإفشال مناوراتها. وهذا الأمر يساعدنا على الأقل في الكشف عن نياتها الحقيقية.

كنت أشك كثيراً في فكرة اندفاعنا السريع نحو إجراء مفاوضات، لم نحدّد حتى

الآن أهدافها، كنت أرى من غير المحتمل أن يجد الفرقاء أرضيّة تفاهمية، وفي الوقت ذاته، كنت غير متحمس تماماً لخط سير المفاوضات والتي تحاول الدول الأخرى المتعاطفة مع القضية العربية جرنا إليها.

كما أن المداولات الرباعيّة التي كانت تقترحها فرنسا، كانت توحي كلها بإجراء تحالف ضد الولايات المتحدة. ومن جهة أخرى، فإن المفاوضات بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، قد تكون غير مجدية، فقد يُعزى الفضل إلى الاتحاد السوفيتي، بأنه انتزع منّا تسوية الشرق الأوسط، وعند فشل هذه المفاوضات، يكون نصيبنا اللوم والتقريع.

إن الشرط الأولي والأساسي في دخولنا في هذه المفاوضات، هو أن على الولايات المتحدة أن تحصل على موافقة الاسرائيليين. وهذا كان يعني، أنه يجب علينا إجراء ضغوط على حليفنا، باسم بلدان ـ ما عدا الأردن ـ كانت قد قطعت علاقاتها معنا وكانت سياساتها على وجه العموم، معادية لنا، وكانت تابعة لموسكو. وخلاصة القول، كنت في ريبة أن تسعى الولايات المتحدة إلى إيجاد اتفاق عام، طالما أننا لا نعرف بالتأكيد، ما يقدمه العرب من تنازلات، وطالما أن المستفيدين من هذا الاتفاق هم اتباع السوفيت وليسوا أصدقاء الولايات المتحدة. وكنت أفضل أن تجرى خلال هذه الفترة مفاوضات بين الأردن وإسرائيل ـ فيكون في المشهد أحد أصدقائنا ـ لا أن تجري مفاوضات بين إسرائيل ومصر، حيث يكون علينا عندئذ ضمان من يحميه الاتحاد السوفيتي. وبالاختصار فإني كنت معتقداً أن الشرط الأول لعمل دبلوماسي مثمر في الشرق الأوسط، هو تقليص النفوذ السوفيتي حتى إذا تحقق أي تقدم، فلن يعزى إلى ضغوطه، وتكون الحكومات المعتدلة قد تمتعت بحق الإقدام على المشاركة في ذلك.

وأطلعت الرئيس في اليوم التالي على تحفظاتي، فدعاني إلى مرافقته إلى المستشفى العسكري في وولتر ريد لزيارة الرئيس الأسبق ايزنهاور، والذي كان في وضع خطير مرضياً، أماته بعد سبعة أسابيع. وخلال اللقاء أوضح لنيكسون، أن يكون متيقظاً حيال تكتّم مجلس الأمن القومي تجاه بعض الأمور التي يبحثها، وأطلعه نيكسون من جانبه على ما دار بيننا من حديث حول الشرق الأوسط، فلم يُقّر ايزنهاور أية مشاركة هامة في المفاوضات من قبل الولايات المتحدة. وقد جاء طبعاً على ذكر الصعوبات التي واجهها خلال أزمة قناة السويس. عام ١٩٥٦، وكان يعتقد أن أحسن حلّ هو في إفساح المجال أمام الفرقاء لتسوية أمورهم بأنفسهم. ولو أخذنا بهذا الرأي، لأجبرنا في نهاية المطاف أن نقوم بدور الحكم، ثم نحمل على ضمان كل حلّ نهائي يتوصل إليه الخصوم. وهكذا نُبقي أنفسنا مقيدين وعلى طول المدى بمشاكل الشرق الأوسط.

وما كدت أصل في اليوم التالي إلى مكتبي، حتى كلمني ايزنهاور هاتفياً وبلهجة غاضبة. لقد قرأ في النيويورك تايمس أن مجلس الأمن القومي قد قرر أن تقوم الولايات المتحدة من الآن فصاعداً بدور سياسي ناشط في الشرق الأوسط. ولم يكن هناك توافق بين لهجته القاسية وتصوّري الذي احتفظت به عن رجل ناحل رأيته في الأمس كما أن لهجته الحازمة لم تكن أيضاً تتطابق مع بسماته المشرقة. ولامني ايزنهاور في الوقت ذاته أنني الحقت ضرراً بالرئيس بهذا الشأن ولم يأت على ذكر من كان مشتركاً في مجلس الأمن القومي. وأردف ايزنهاور قائلاً: أنه كان يجب عليّ منع الإدارة على إرغام الرئيس بإفشاء أسرار كهذه. وما جرى يؤكد تماماً ما أتينا على نقده بالأمس، يجب ألاّ ندمج أنفسنا بمشاكل الشرق الأوسط.

وفي اليوم ذاته، كنت أسجلّ جميع ما تتالى عليّ من أفكار لأطلع عليها الرئيس،

وفي داخلي، كنت أعتقد أنه على استعداد للقيام بعمل دبلوماسي، بسبب وخزات وجهّتها إليه وزارة الشؤون الخارجية، ولأنه وعد أن تقدم الولايات المتحدة على مبادرة جديدة إبان حملته الانتخابية. وحاولت بتقريري الذي أعددته حول الموضوع، أن أبينّ الأبعاد السياسية لهذه الخطوة، ومدى نجاحها. وأكدت أن الفرقاء لن يستطيعوا وحدهم الوصول إلى حل في وسط هذا العنف المتزايد ونتيجة لذلك، لا نستطيع نحن أن نعمل شيئاً في هذا السبيل. كما كنت اعتقد أن ناصر لن يقبل بحلول صلح جزئية ترضى بها إسرائيل، وبذل مجهود كبير بشأن اتفاق عام مصيره الفشل حتماً. والخلاصة أننا سنضيع طاقتنا السياسية، ونحرم أنفسنا من التدخل في النزاع، ونضعف جميع رسائل، احتواء هذا النزاع إذا اندلع ثانية. وكان يبدو لي مفضلاً، إجراء اتفاق جانبي مع الأردن، ذوي الماضي الطويل من صداقة مشرفة في الولايات المتحدة. وكنت ألح على الرئيس عند أخذه بفكرتي، أن يطالب الشؤون الخارجية بمخطط عمل، وإجراءات واقعية تصالحية، لأن كل سياسة مستقبلية في الشرق الأوسط تعتمد عليها.

وبعد ظهيرة الثالث من شهر شباط، جرى حديث خاص بيني وبين نيكسون. وكان مغتاظاً. لأنه لم يكن قادراً أن يرفض وبصراحة اقتراحات فرنسا، دون المسّ بجهوده لتحسين العلاقات مع الجنرال دي غول. أضف إلى ذلك، أنه كان يرى في قضية الشرق الأوسط، وسيلة لحمل السوفيت على تقديم بعض المساعدات لقضية فيتنام. وفي الوقت ذاته، لا يريد تجاوز رغبات الشؤون الخارجية، هذه الرغبات التي كان يشدّد عليها كافة أعضاء الوزارة. ولسوء الحظ، لم تكن هذه الأهداف منسجمة. فقلت له: بتقديري أننا سنحصل وبطريقة أيسر على تعاون سوفيتي في فيتنام، إذا تصرفنا بحذر في الشرق الأوسط، حيث اتباع الاتحاد السوفيتي، هم الفريق الأضعف، وعند حل النزاع نتيجة مفاوضات، فإن هذا سيعطي للروس الفرصة

الذهبية التي كانوا يحلمون بها يثبتون بها مساندتهم لأصدقائهم العرب. وإذا أقدمنا على عمل ما تخططه الإدارة فإن هذا لا يغير الأمر، الذي يجب أن نستوضحه أكثر للتمكن من اجتياز الهضبة. وإذا لم نخط بتيقظ وحذر، فسوف نطالب بإنهاء جميع المشاكل، مقترحين علينا تقديم الحلول التي رأيناها، والتي يجب أن نفرضها على الفرقاء المتخاصمين والمعارضين.

لم يكن نيكسون يسعى لتجاوز الشؤون الخارجية، ولا إغضاب دي غول ولا تنفير الاتحاد السوفيتي. ولما كنت مقتنعاً بجميع هذه الأمور، اقترحت خطة عمل، تجنبنا التزاماً نهائياً، أفضل من إجراء الخيار بين المفاوضات مع أربعة فرقاء أو اثنين، وهذه طريقة تحفظ لنا حرّية التحرك في جهتين معا. وعند حصولنا على نتيجة ما من المفاوضات مع أربعة فرقاء. نعزو ذلك الى محادثات الروس. وبهذه الطريقة، نستطيع ربط محادثات الشرق الأوسط الى مصالحنا الكثيرة، بالإضافة الى ذلك، فإننا حينما نجري مفاوضات مع أربعة فرقاء، فإن حلفائنا من الأوروبيين، ومنهم السوفيت، سيمانعون في الاشتراك معنا، حال معرفتهم اننا نجري مفاوضات مع هؤلاء الفرقاء. ولكي نحتفظ بمراقبة الوضع، سنطالب الرئيس بالموافقة على بدء الاتصالات، قبل الدخول في محادثات رسميّة.

قبل الرئيس اقتراحي، وفي الثالث من شباط، أبلغت روجرز وسيسكو بالموافقة وبالافتراضات. وفي الخامس من شهر شباط، أعلن وزير الشؤون الخارجية، كما اتفق عليه، أن الولايات المتحدة، تتقبل بكل رضى اقتراح فرنسا، وأنها ستدخل بمحادثات مع الاتحاد السوفيتي، وبريطانيا العظمى وفرنسا، للوصول إلى اتفاق، يجعل اجتماع الأربعة القادم أكثر فعالية وإنتاجاً.

فشل مخططي لدقته. وكنت قادراً على وضع مخططات، وتوجيه طاقات الإدارة، ولكني عاجز عن السيطرة على برنامج مفاوضات. عالجت الشؤون الخارجية تعبوية

البيت الأبيض، وكأنه عمل سياسي داخلي، وأسرعت كثيراً في إجراء الاتصالات. واكتشفت بعد أقل من أسبوعين أن وزارة الشؤون الخارجية. كانت تضع تصور لتحديد المبادئ الواقعية لسلام في الشرق الأوسط، تماماً كما حاولت عرضه مدة عدة شهور.

وبقدر ما كان يتقدم العمل الدبلوماسي، بقدر ذلك كانت تزداد ردود الفعل القومية. وفي الأسبوع الذي تلا الإعلان عن وضعنا الجديد حيال المفاوضات مع الأربعة، أخذ أنصار إسرائيل يشددون في تصرفاتهم كما اختبرت ذلك في السنوات التالية. لقد كانوا يعكسون قلق إسرائيل ذاتها، التي كانت تخشى قيام العناصر الأجنبية بإعداد برنامج مفاوضات مباشرة مع العرب. وفي الثالث عشر من شهر شباط، جاء ايمانويل سيلّر، على رأس وفد من ستة أعضاء من الكونغرس يمثلون رؤساء حزبي النواب، وبعد مقابلتي، ذهب للقاء الرئيس. إن إجراء مفاوضات مع أربعة، كان يعني حسب تقدير الوفد، إن الولايات المتحدة كانت على استعداد لفرض تسوية للنزاع، وكانوا يرتابون كثيراً من هذه المفاوضات، ويخشون الاقتراب من وجهات نظر الفرنسيين والسوفيت.

أثبتت الأيام اللاحقة صحة اعتقادي، أن الوقت لا يزال باكراً لإجراء مفاوضات ناشطة. والخلاف الذي تبع ذلك، لم ُيحل أبداً. وفي الواقع كانت الإدارة تتمنى الانطلاق بأسرع ما يمكن بمفاوضات صريحة، لأنها كانت تخشى زيادة النفوذ السوفيتي، أثر تشويش يطرأ على الوضع. وكنت أعتقد من جهتي، أن التأجيل هو من مصلحتنا، عند نهاية المطاف، لأن هذا سيسمح لنا بإقناع العرب المتشددين أنفسهم، أن لا تقدم يحقق دون تدخلنا، وأننا لن نخضع لضغوط السوفيت، وكانت وزارة الشؤون الخارجية ترغب في تسريع سير المفاوضات، قابلة على الأقل بعض الأفكار

السوفيتية لتسهيل موضوع التسوية في غضون ذلك، وقع السوفيت سريعاً في الشبكة وعند أول لقاء بيننا، في الرابع عشر من شهر شباط، قال لي دوبرينين، أن السلطات السوفيتية، كانت على استعداد لبدء مفاوضات معنا حول الشرق الأوسط، ولتكن خارج الأمم المتحدة، إذا كان ذلك ممكناً وأعاد تأكيد الأمر ذاته عند لقائه نيكسون في السابع عشر من شهر شباط.

وخلال مفاوضات الرئيس نيكسون مع الدول الأوروبية إبان رحلته التي قام بها في نهاية شباط وبداية آذار من عام ١٩٦٩، طالبه محادثوه بالتزام واضح للولايات المتحدة في مفاوضات الأربعة. وهكذا إذا ازدحمت الضغوط الخارجية والإدارية جميعها بصورة دفعت بالولايات المتحدة وبشكل عنيف للقيام بدور حيوي. وقبل اتخاذ القرار الرئاسي، كان جوزيف سيسكو يتحادث مع دوبرينين عن حسنات المفاوضات الثنائية. ولم يدفعه حماسه إلى ذلك كونه هو الذي سيدير هذه المفاوضات. في حين أن مفاوضات الأربعة كانت تجري برئاسة شارل يوسف، سفيرنا لدى الولايات المتحدة.

في الثالث من شهر آذار، وعندما كنت أتناول الغداء مع دوبرينين، أخذ يسألني عن إيضاحات حول مجريات المفاوضات الثنائية، التي كانت تهمه سرعة بدئها وكذلك مفاوضات الأربعة. وحاول حملي على الكلام، عندما أعلمني أن الاتحاد السوفيتي كان على استعداد، لعقد اتفاق عام، أعني مخططاً يطالب بتنفيذ عاجل لجميع هذه النقاط، في حين ان العرب والسوفيت كانوا حتى الآن، يطالبون ان تبدأ الأمور بإنسحاب اسرائيلي. فكان يريد اذا معرفة الاجتماع الذي يتمكن من خلاله طرح هذا المخطط، وأظهر أنه يفضّل مناقشة بعض هذه المواضيع، كمشكلة الحدود، بتدخل من البيت الأبيض. وليس بعيداً عن تصميمنا استخدام الشرق الأوسط رافعة في سبيل فيتنام، ولما كنت اؤكد ممانعة نيكسون في ندبي لهذه المهمة، كنت أتجنب

الإجابة على هذا الاقتراح، وشجّعت في الوقت ذاته دوبرينين لمتابعة مفاوضاته الثنائية مع سيسكو.

وفي اليوم التالي، المصادف الرابع من شهر آذار، جاء دور سفير اسرائيل لاستطلاع ما نرمي إليه من أهداف. إنه اسحق رابين الذي كان أحد أبطال حرب استقلال اسرائيل، ولما كان هو رئيس الأركان العامة، لقوات جيش الدفاع الاسرائيلي، فقد أسهم في انتصار حرب الأيام الستة وبالرغم من ذكائه وصلابة عوده. فلم يكن لديه ما يؤهله لأن يكون سفيراً، لقد كان قليل الكلام، خجولاً، منطوياً على نفسه، يتأثر تقريباً من المحادثات المبتذلة.

من جهتي كنت أحبه كثيراً بالرغم من أنه لم يبد شيئاً يجلب هذه المودة، ان نزاهته والدقة اللتين كان يذهب بهما الى قلب الأمور كانتا عجيبتين، كان لمحاكمته للأمور تقديرعظيم عندي، حتى في المجالات التي تتعلق بالشرق الأوسط، وكنت أثق كثيرا بنظرته للأمور، حتى عندما يكون موقف بلاده غير مطابق لموقفنا، وأصبحنا صديقين حميمين، وبقينا كذلك بالرغم من كل الضغوط والخلافات التي كانت تسببها لنا الوظيفة.

وعندما تقابلنا ولأول مرّة. لم أستطع الاجابة على سؤاله حول موضوع سياستنا، لاننا في الحقيقة، لم نأتِ على تحديدها بعد. ومع ذلك كان لديّ من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد، ان الرئيس سيعطي جلّ اهتمامه لمحادثات الأربعة والقوتين الأعظمين. وطالبت شخصياً أن تُعِدّ اسرائيل برنامجاً صريحاً يحدّد ماهيّة السلام الذي تراه مقبولاً، وكانت هذه الطريقة الوحيدة لوضع معايير ومبادئ ، يمكن الإنطلاق من خلالها مع أمل الوصول الى تحقيق تقدم.

وكما كنت أتوقع، ان هذا كان جدول الأعمال الذي تجري بموجبه المفاوضات قبل ان يكون إستراتيجية موثوقة، تعطي حلولاً يجب اتباعها. وفي اوائل شهر آذار، أعلن سيسكو عن نجاح وتقدم كنت أرى من الفطنة تأجيلهما. لقد توجّه بتعليماته الأولية، وكان يطالب بما يجب عليه أن يفعل ـ الشيء الذي كان يشغل الوزارة في الواقع منذ اسبوعين ـ حرصاً أن يضيع الرئيس وقته في إعداده. وبمقولة أخرى، ففي أقل من شهر على اتخاذ فكرة البدء بإتصالات دقيقة. وكان يستعد سيسكو وزملاؤه ليقترحوا على نيكسون طرح مبادئ عامة صريحة.

وكانت الشؤون الخارجية، تعرض أفكاراً جدّ مخالفة، لتلك التي حصلت بموجبها من نيكسون الموافقة على البدء بإجراء اتصالات، وكانوا يؤكدون قبل شهر ، ان السير بمحادثات مع اربعة لايوجب اي التزام أساسي. ويدعون حالياً، ان الاتصالات غير الرسمية يجب ان تستند إلىمخطط معين بمثابة مجموعة مبادئ. واذا لم نتقدم بآرائنا سنجد أنفسنا في وضع غير متزن بالنسبة للدول الكبرى الثلاث الأخرى. كان علينا اذاً إعدادها وبسرعة. وكانت وزارة الشؤون الخارجية تلح على الرئيس باتخاذ قرار حتى نصف شهر آذار، التاريخ المتوقع فيه وصول السيد آبا أيبان، وزير شؤون خارجية اسرائيل، فكان يجب إعلام إيبان أننا في صدد وضع مخطط لمفاوضات الأربعة والمحادثة مع السوفيت، وهكذا إذاً، فان الاجراءات التي تخيلتها حول تأجيل الأمور، انتهت خلال أقل من أربعة أسابيع.

بقيت وجة نظري كما هي بالرغم من جميع هذه الأحداث. وكتبت في الخامس من شهر آذار كلمة وجهتها للرئيس وأوجزت له فيها مواضيع الساعة: كأن الكل ينتظرون لنجري ضغوطاً على اسرائيل وفي جميع المحادثات. ويعتقد العرب خطأ، واعتقادهم راسخ ـ أن في استطاعتنا التأثير على اسرائيل ـ. كما يعتقد الفرنسيون والبريطانيون، أننا نتمكن من عمل أكثر مما قمنا به حتى الآن. ولا يوجد سوى

الروس، ليتفهموا حقيقة حدود نفوذنا لدى اورشليم، ومساندتنا لإسرائيل، تفيدهم جداً لنشر هذه الدعاية.

ومع ذلك إتفق الجميع على أن لا تسوية هذا العام، وبكل تأكيد، ان مصاعب إسرائيل بعد موت إشكول، وخلال مشكلة الانتخابات، لا تسمح لها بتحديد تسوية.

ان المحاولات التي قدمت في سبيل تسوية بعيدة الاحتمال هي:

أ ـ ان التجربة مبدأ ثابت في الشرق الأوسط.

ب ـ الوصول الى تسوية هذا العام هو الطريقة الوحيدة للإنتزاع من المقاتلين الفلسطينين ما هم أحق به من غيرهم.

ومع ذلك يمكن أن تمثلت أمامنا الحالة التالية:

أ ـ جرّب وبعناد، يمكن أن يصعّد الأمور، مالم نبذل في سبيل ذلك جهوداً متواضعة.

ب ـ التسوية قادرة في الحقيقة على تعزيز موقف الفلسطينيين، وإضعاف مواقف الدول العربية، التي تكون قد قبلت به.

كنا نضع أنفسنا أمام معضلة. وفي الواقع، لو قمنا بإجراء ضغوط على إسرائيل، فإننا نشجع العرب المتشددين واتباع الإتحاد السوفيتي ، وإتخاذ ذلك كمكافأة لعنادهم، وعلاقاتهم مع الإتحاد السوفيتي. وبالنسبة لإسرائيل، فان الأسباب ذاتها، ستدعوها إلى القيام بأعمال خطرة، او على الأقل الانطواء على نفسها وعدم التفكير بأي تساهل، ومن جهة اخرى، اذا لم نستعمل نفوذنا لدى إسرائيل، علينا ان نتحمل مسؤولية المأساة. وحالما تقبل إسرائيل أية تسوية، فإن الفلسطينيين، سيمتنعون طبعاً عن إجراء اي اتفاق بمساندة سورية والعراق، بالاضافة إلى أن كل دولة عربية معتدلة

تقبل بهذا الاتفاق ستكون عرضة لتهجم المتشددين عليها. ويستطيع حسين وحتى ناصر، ان يصبحا موضوع تهمة، ولكن هذا يكلف ليس فقط مفاوضات غير مثمرة، ولكن أيضاً فوضى متزايدة. بل إندلاع حرب جديدة. وأثبت كلامي بعبارات أخرى: لو سلّمنا بالنفوذ السوفيتي وعناده. وقدرة ناصر وقوة الفدائيين فإن الشرق الأوسط لايزال غير قادر عل تقبل حل شامل من قبل الولايات المتحدة.

وفي العاشر من شهر آذار، قبل نيكسون بتوصيات الشؤون الخارجية لإدارة المفاوضات والذي كان يؤكد على أن الغاية من المفاوضات هي الوصول إلى اتفاق من نوع المعاهدات، وليس بالضرورة أن يكون ذلك معاهدة سلام. أن المفاوضات المباشرة لم تكن أساسية في المرحلة الأولى، لكنها يجب أن تكون كذلك في وقت أو آخر. كانت تلك المبادئ تشير إلى إجراء تعديل طفيف في الحدود الحالية، لكن تعديلات كهذه يجب ألاّ تكون مؤشرّ انتصار للغالب (ومؤشر الانتصار للغالب) كان تلميحاً من وزارة الشؤون الخارجية، للتمكن من المطالبة بانسحاب إسرائيلي شبه عام. وكان جونسون قد استعمل هذا التعبير في خطاب ألقاه في العاشر من شهر أيلول عام ١٩٦٨. وهذه المبادئ كانت تطرح بوضوح النظرية التالية:

إذا وجب على غونار يارنغ إدارة العمليات، التي تدفعها إلى الأمام المفاوضات مع أربعة ومع اثنين، فحسبما جاء في تحليل أعد بهذا الخصوص: أن هذا الجهد لا يثمر إلا إذا رمت الولايات المتحدة بكل ثقلها على إسرائيل. وهناك ترجمة سابقة للمبادئ العامة لوزارة الشؤون الخارجية، كانت تلحّ في عودة إسرائيل إلى حدودها القديمة مع مصر والأردن، ما عدا تعديلات طفيفة في الحدود الأردنية. وعند هذه النقطة، كنت نجحت، خلال جلسة أجريتها مع سيسكو. حول تخفيف مبادئ الوزارة، ولو أن إسرائيل، أبدت ردّ فعل عنيف على أية حال.

وفي العاشر من شهر آذار، قبل نيكسون بتوصيات الشؤون الخارجية، وستعرض هذه المبادئ العامة على إيبان عند زيارته، وستدقق نقطة فنقطة من قبل سيسكو ودوبرينين، وتوضع تحت تصرف الأربعة كأساس للمحادثات. وأسرّ لي نيكسون انه يشاركني في شكوكي بالنسبة لهذه العمليات، ولكن فليشغل هذا وزارة الشؤون الخارجية، بينما يهتم البيت الأبيض بشؤون فيتنام ومفاوضات التسلّح الإستراتيجي وأوروبا والصين (ولا أعتقد أنه تكلم بشيء من هذا الى روجرز).

وفي السابع والعشرين من شهر آذار، أعلن روجرز بفخر خط العمل الجديدة أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ. وصرح لأعضاء مجلس الشيوخ: ان من مصلحة الولايات المتحدة استعمال كامل نفوذها وبجميع الطرق المجدية والفعّالة. مؤكداً على مبدأ حدود آمنة ومعترف بها. وحالة سلام نتيجة معاهدة. واضاف روجرز الجملة الرئيسية: وحسب تقديرنا، فإن التعديلات المطلوب اجراؤها على الحدود الحالية يجب أن تعين بحدود أمن متبادل، وألاّ تكون مؤشّر انتصار.

وامتدّت المحادثات بين سيسكو ودوبرينين إلى تسع جلسات بين الثامن عشر من شهر آذار والثاني والعشرين من شهر نيسان وكانت تسير في حدود الواقع . والموضوع الوحيد الذي احتاج الى جدال هو المبادئ الأمريكية العامة، التي كان دوبرينين يؤكد على سيسكو ان يعطيه إيضاحات اكثر حولها. وفي هذا المجال فإن إعطاء إيضاحات دقيقة، كان يعني اتخاذ موقف اكثر وضوحاً حول قضايا ومنها، الحدود، وهذا كان يمكن أن يثير إستنكاراً عاماً في اسرائيل، لأننا نظهر بذلك تقريباً من الصف المصري السوفيتي حول انسحاب شامل. وفي الرابع والعشرين من شهر آذار، عرضت المبادئ العامة، على اجتماع الأربعة وإقترنت بنفس النتيجة، بالإضافة إلى أن الموقف الأمريكي أصبح في صلب الخلاف، وسعى حلفاؤنا الى دفعنا الى بذل

مجهود أكبر. وكان للفظة «مجهود أكبر» المعنى الفعلي، «لتحديد أكثر» وكنا نتخبط في إتخاذ المواقف، ويلزمنا وضعنا على الإعتدال، لننقذ المفاوضات التي بدأناها نحن، لتخفيف الضغوط الموجهة إلينا.

وفي نهاية شهر آذار، أرسلت للرئيس تقريراً مؤقتاً حول محادثاتنا مع الإتحاد السوفيتي:

لقد اجتنبنا حتى الآن أخطار وضع غير محدّد ولا معروف، وعلينا تحمل ثقل كل المفاوضات، إذ يجب علينا تقديم كافة الاقتراحات الواقعية والتمكن من اقناع الاسرائيليين...ان تحديداً دقيقاً لتسوية مقبولة كفيل ان يرضي المعسكرين. ولأجل هذا يجب ان نجتهد للحصول على عون السوفيت، وهؤلاء يجب أن يشاركونا في مسؤولية حلّ حقيقي ومناسب.

لقد ابتعدنا عن اسرائيل، ولم يقابلنا الروس بمثل ذلك، بإبتعادهم ولو قليلاً عن مساندتهم للعرب. وأردفت، وقبل أن أذهب بعيداً، يجب علينا أن نجبر الأطراف الأخرى على قبول حلولنا في سبيل تسوية نهائية، وعلى الطريقة الواجب اتباعها للوصول الى هذه التسوية، وكيفية ضمّ المفاوضات مع أربعة الى المفاوضات مع أثنين، وكيفيّة جعلها تتعاون مع يارنغ في وساطته، واذا لم نقم بذلك فإن كل الأمور آيلة الى الفشل. غير أن جميع الاجراءات يجب ألا تبعدنا عن استماع ما يريد قوله الفرقاء ومرّة أخرى قد نجد أنفسنا وبمرارة أمام الحقيقة.



كان أبا إيبان الفصيح أول من وصل إلى واشنطن في منتصف شهر آذار، لإجراء محادثات في البيت الأبيض ووزارة الشؤون الخارجية. وكان هذا أول لقاء وظيفي مع إيبان، الذي كنت التقيته بطريقة عابرة في إسرائيل، عندما كان وزيراً للثقافة. وما تكلمت قط مع أحد يحسن اللغة الإنكليزية مثله: أن جمله كانت تجري كالعسل في عبارات مترابطة، لتبرهن عن ذكاء قائلها، ممزوجة كلها بمهارة التركيب. كان كلامه منتظماً، دون تعثر، وبتدفق قوي كساقية صافية منحدرة من جبل. ومقاطعة إيبان، كانت تبدو تقريباً غير واردة، فالكلام الذي يوجّه إليه يظهر قاسياً بالمقارنة مع كلامه. ولم تذكرني أية شخصية أمريكية أو بريطانية، أن اللغة الإنكليزية كانت بالنسبة لي اقتباساً.

ولسوء حظ هؤلاء الذين عليهم أن يتفاوضوا مع إيبان، لأن فصاحته كانت تزدوج مع ذكاء من الطراز الأول، وبمعرفة دبلوماسية تامة. كان على استعداد لكل طارئ، وكان يعرف ما يريد. كان يضفي على محادثاته شعاراً لا يقبل به أحد مائة بالمائة وجهة النظر الإسرائيلية التي تنقصها الموضوعية، والموقف الدقيق بتقدير تسعين في المائة، كان يبدو وكأنه أخذ بالتقطع والضعف والخسارة. وإني على غير ثقة أن زملاء إيبان من الذرائعيين في أورشليم، تأكدوا من فصاحته أكثر منيّ. وكان يظهر أحياناً، أن رئيس وزرائه كان يفضّل الانطلاق بطرق أقل استقامة. ومهما يكن الأمر، فإني لم أكن مؤهلاً للإحاطة بمواقف وزير شؤون خارجية كهذا.

وكان أول ما فعله إيبان، هو انتقاده العنيف لمبدأ المفاوضات مع أربعة واثنين، مؤكداً أن إسرائيل ستكون خاسرة في الحالين. وأشار إلى الحلول الإسرائيلية التي حسب رأيه، لها حظ أكبر. أن تقبل من قبل العرب وهي: مفاوضات مباشرة وتوقيع معاهدة سلام جماعية. وشرح إيبان، كيف أن توقيع معاهدة سلام كان أساسياً،

بسبب الاحترام الخاص الذي يظهره العرب دائماً للوعود المكتوبة. ولم أكن أول من يعكر صفوه في العالم عندما بينّت له: أنه خلال دراستي غير الكاملة للتاريخ العربي، ظهر أن المعاهدات التي يوقعّها العرب، ليس لها احترام قليل أو كثير إلاّ في بقية العالم.

إن الزوار الذين أتوا بعد ذلك كانوا عرباً، ولم يكونوا أكثر تساهلاً.

حيث حضر محمد فوزي مستشار الرئيس جمال عبد الناصر للشؤون الخارجية. كان فوزي لطيفاً مهذباً، لبقاً عن إنسانية ودون تكلّف، تنّم هيئته عن معرفة دقيقة لنقائص الإنسانية. وكنت اعتبر حينذاك مصر بمثابة تابع للاتحاد السوفيتي، ولم اغتنم المناسبة لإجراء محادثات أكثر دقّة مما تسمح به الظروف. وهذا شيء أسفت عليه فيما بعد.

أتت زيارة السيد فوزي بعدما يقرب من خمسة عشر عاماً من انقطاع العلاقات بين مصر والولايات المتحدة. وخلال فترة الانتقال، كان ناصر قد أرسل للرئيس المنتخب، رسالة بلا رابط، يعدّد فيها اعتراضاته ضدّ الولايات المتحدة، لكنه في الوقت نفسه، يفسح مجالاً عندما تسنح الظروف، لإعادة العلاقات معنا. وهذا بالضبط ما أفهمه ناصر، للحاكم سكرانتون، عند زيارة الأخير للقاهرة في أوائل شهر كانون الأول، كرّر ناصر في الشهور الأولى من عام ١٩٦٩ أنه بانتظار إشارة من الأمريكيين لتحطيم الجليد. وكان ينتظر مثلاً إيقاف بيع طائرات الفانتوم (F4) لإسرائيل، الأمر الذي لن ترضى عنه هذه الأخيرة.

كنت أجد أن ناصر يغالي بالمعروف الذي سيسديه إلينا، بإعادة العلاقات الدبلوماسية معنا. غير أني كتبت إلى نيكسون في شهر آذار، أننا قمنا بإعداد ترتيبات عدّة، ربما يتطلبها موقف ناصر ولأسباب مختلفة: لقد قمنا فعلاً بعمل دبلوماسي

حقيقي. واقترحنا مبادئ عامة، كما أن روجرز عرض موقفنا المستقبلي حول موضوع الحدود، أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ. وبذلك أصبحت لدينا مجموعة من الأمور تسهل التقارب بين واشنطن والقاهرة.

وبناء على هذا الأساس، أجريت لقاءين مع فوزي. لإعداد لقائه بنيكسون في الحادي عشر من شهر نيسان. وسرعان ما ظهر أن فوزي لم يكن يملك حق إعادة العلاقات الدبلوماسية. وأنه مكلف بإعلام القاهرة بردود أفعالنا، وأن العلاقات لن تعاد إلا في ضوء جود تقدم ملموس لم يوضح فوزي ما كان يقصد من وراء ذلك. كانت مصر مهتمة في تحقيق بعض التقدم، بسبب أن السوفيت كانوا يحثونها على السلام، كما جاء في أقوال فوزي. وكان يبدو ذلك وكأنه الوسيلة الوحيدة بالنسبة لهم لمساعدة أصدقائهم العرب: وعندما يصبح الوضع حرجاً، فلا بد من حدوث بعض القلق في الموقف السوفيتي في العالم العربي.

وغنيّ عن القول، أن ما تقدم به أخيراً فوزي. كان يوضح فعلاً، الفرصة الاستراتيجية التي كانت تترقبها الولايات المتحدة. وفي الحقيقة، إذا كان الموقف السوفيتي أخذ يضعف في مِصر، مما يدعو إلى تأجيل التسوية، فلا شيء هناك يضطرنا إلى قبول أول عرض سوفيتي أو مصري يقدّم لنا، وحجّتنا قوية في ذلك، إذ أن الاتحاد السوفيتي سيحتفظ بقوات هامة في مصر، وأن مصر ستأخذ من موسكو. وعلى كل حال فإن اقتراحات فوزي لم تكن تحمل على التفاؤل. أن مصر كانت ترفض توقيع اتفاق جماعي مع إسرائيل، وكانت تترك لمجلس الأمن (حيث للاتحاد السوفيتي حق النقض الفيتو) مهمة تحديد التزاماته، كما أن مصر كانت ترفض أيضاً إقامة علاقات دبلوماسية مع إسرائيل أضف إلى ذلك، فإن قوات أمن الأمم المتحدة، يمكن التوصل إلى سحبها خلال فترة ستة أشهر. إن كل هذه المعطيات، لن

تكفي أبداً، لدفع إسرائيل على انسحاب شامل تطلبه مصر. وفي الحادي عشر من شهر نيسان، أكد فوزي لنيكسون وبلباقة أن مصر، لن تطالب بأكثر من تقليص نفقاتها العسكرية، وتخصيص مواردها في سبيل تنمية بلدها. ولم يطلب من الولايات المتحدة إجبار إسرائيل على التصرّف ضدّ مصالحها الخاصة. كما طالب بموقف عادل نحو مصر. وبالنسبة للعلاقات، قال: إن الوقت المناسب لإعادتها لم يحن بعد.

وإني لا أفهم، حتى الساعة الحاضرة، دوافع ناصر. أنه كان قد وجّه طيلة شهور، مذكرات عاجلة لإعادة العلاقات. وأرسل فوزي، المعروف بمواهبه كرجل مصلح، إلى واشنطن. فأظهر فوزي كفاءة تامة، لكنّه في النقطة المطلوبة، ظهرت خيبة أمله، لأن التعليمات المسلّمة إليه، لم تكن لتسمح له بأيّة مبادرة. لقد كان عسيراً على نيكسون أن يفهم ما كان يدور في خلد ناصر، حول التصدي للمعارضة القومية، ورفض إسرائيل، وموقف السوفيت المتشامخ، في مساندة الأهداف الأساسية لبلد ترفض إقامة علاقات دبلوماسية معنا، وسياستها الخارجية معادية جداً لنا. وفي الواقع، كان ناصر يسعى لابتزاز أموالنا، ولم يكن لديه ما يهدّدنا به. ونحو أواخر العام نفسه، عندما طرحت حكومتنا برامج محددة حول مشكلة الحدود المصرية والأردنية، في نفس الاتجاه الذي كان ناصر سابقاً قد أعلن قبوله، ومع ذلك فإنه (أي ناصر) رفض قبولها، كما رفض إعادة العلاقات. وكان يفاخر بعناده الذي يراه أساسياً في سبيل توحيد العرب. ولأجل هذا كان يرى نفسه مجبراً دوماً، على معارضتنا دون حدود في الشرق الأوسط والعالم الثالث، حتى لو أن الأمر يحملنا على السير في نفس اتجاهه.

إني على اعتقاد، أن الولايات المتحدة كانت قادرة على القيام بدور أقوى في سبيل السلام، فيما لو أن ناصر أبدى تساهلاً أكثر. لأن العراقيل الرئيسية لدور

أمريكي ناشط، كانت تغذّيها السياسة الخارجية المعادية لأمريكا من قبل ناصر، ونفوذ الاتحاد السوفيتي المهيمن على القاهرة. لم يكن فوزي يملك الوسيلة التي تؤكد لنا، إن مبادئ السياسة المصرية هذه ليست ثابتة. لكنه بعكس ذلك، وبموجب تعليمات ناصر المعطاة له، وبروعة أسلوبه، كان يطالب وبكل هدوء، قبول كل مطاليبه دون اعتبارها معادية وهي: مساندة الولايات المتحدة لمصر ضد إسرائيل، مساندة الاتحاد السوفيتي لمصر ضد الولايات المتحدة، وتوجيه تحركات العالم الثالث المتشددة. ولسوء الحظ، أن السياسة الخارجية لا تسير على هذا المنوال. إن ناصر لم يعرف أن يوفق بين الطموحات التي كان يمارسها، وحدسه الذي كان يظهر له أن لدى مصر وسائل محدودة في سبيل تحقيقها. ومات دون أن يتمكن من تحقيق بعض هذه الأمور. وخلفه وحده، أنور السادات الكبير، سيحققها.

إن فشل مهمة فوزي شجعت زائراً عربياً آخر وهو الملك حسين، ملك المملكة الأردنية، الذي لم يساوم أبداً على صداقته مع الولايات المتحدة. وكان حسين أحد الزعماء السياسيين الأكثر جاذبية ممن أتيحت لي مقابلتهم. كان الملك يدافع بشجاعة عن القضية العربية، حتى ولو شك أخوته العرب، كثيراً في نزاهته. عندما تعرّفت عليه تماماً، عرفت أيضاً طريقة إثارته، أمام ما كان يدعوه جمود الإدارة وادعاءها، بمزيد من اللياقة الأسطورية، التي كان يدلّل عليها. وكان يستعمل غالباً بل كثيراً "اللقب الفخري سير" ، في حين أنه يتخذ وضعاً عادياً (وهو الذي كان من سلالة ملكية، كان يدعوني "سير" في حين أني لم أكن سوى معاون بسيط للرئيس).

كان شريفاً بقدر ما كان مهذّباً، لقد اصطحبنا يوماً، زوجتي نانسي وأنا، للقيام بجولة في طائرته المروحية، التي كان يقودها، على رؤوس الأشجار، فيقفّ شعرنا رعباً. ولإشعاره بما كنا عليه من وضع مخيف، قالت له نانسي وبكل جرأة وصراحة: أنها لم تكن تعلم أن باستطاعة الطائرات المروحية التحليق على هذا المستوى

المنخفض. فأكد لها الملك أن باستطاعتها أيضاً الطيران على أقل من ذلك، وأمضينا باقي نزهتنا محلّقين على وجه الأرض. ولو أراد حسين استطلاع الموقف، لتمكن من معرفة ما يريد، بأن يعدني التحليق على الارتفاع الذي نريد. كان حسين يسعى بكل كرامة وشجاعة تسهيل مهمته كقومي عربي، وكصديق للولايات المتحدة. كان يحرص على استقلال بلاده وكرامة زعماء المنطقة، الذين ما كانوا قط متحمسين لمبدأ الأسرة المالكة. كان اقتصاده يتعلّق كلياً بالمساعدات الأمريكية، وكان يتحمل مواقفنا المتعبة وأحياناً المذلة، دون ابتعاد عن هدوئه وتحمله، وما كان أبداً ينحدر إلى صفوف الملحين في السؤال. كان أول حاكم عربي، يبدي استعداداً لإجراء مفاوضات حول السلام مع إسرائيل، وبدأ اتصالات فردية، مع أورشليم، وأن كانت غير مثمرة. ومن المؤسف أن قدرة مفاوضات الملك حسين، لم تتناسب مع اعتداله، وأن وسائل عمله لم تتساوى وطيب نيّته. فلم يكن قادراً على المباشرة بعمل مستقل، ولا إجراء تهديدات لابتزاز حق، ما هو أساس لسياسة الشرق الأوسط. وفي عام ١٩٦٩ خلق فدائيو منظمة التحرير الفلسطينية، دولة ضمن دولته، لكنه حافظ على سياسته المعتدلة، وبعد بضعة أشهر، واجه بشجاعة وتصميم، الخطر الذي كانوا يمثّلونه لسلطته.

وعندما التقى نيكسون، في الثامن من شهر نيسان، تكلّم حسين أيضاً بلسان ناصر، وأكد أن كلا الاثنين، سيتقيدان بالقرار (٢٤٢) الصادر عن مجلس الأمن، وأنهما على استعداد لتوقيع أية وثيقة مع إسرائيل. ما عدا معاهدة السلام. وكان حسين يسلّم بضرورة إجراء تعديلات طفيفة في الحدود. إذا تخلّت إسرائيل عن غزّة للسلطات الأردنية، فإن تعديلات في الضفة الغربية ستصبح كافية.

كان حسين يؤكد بأنه وناصر، مستعدان لقبول إنشاء مناطق مجردّة من السلاح، بالإضافة إلى حرية الملاحة في قناة السويس والبحر الأحمر. وبرأيه فإن الضغط الذي كان يمارسه المتشددون من العرب، كان يقرّب الأردن من ناصر. وقد

نفذ صبر الأخير حول إعادة العلاقات مع الولايات المتحدة. ولكني وجدت أن مضمون هذه التصريحات الميالة للتساهل، قد تقلّص وبشكل كبير، نتيجة المحادثات التي أجريتها مع فوزي، ونتيجة لقائه نيكسون المخيّب للآمال، الذي جرى بعد ثلاثة أيام.

□ □ □

إن عدم الانسجام بين فرقاء النزاع في الشرق الأوسط، كان يظهر وبكل وضوح في المفاوضات الرباعية والثنائية. أن المفاوضين من قبلنا كانوا يظنون طبعاً أن الحل الوحيد هو إلقاؤنا في الحلبة، وفرض الصلح. وفي الرابع عشر من شهر نيسان، صارحني دوبرينين، أن المحادثات الثنائية بحاجة لاقتراحات أكثر صراحة، ولا سيما حول موضوع الحدود. كان السوفيت والعرب يؤكدون على تحديد تورّطات كنا ندعوها وبغموض: تعديلات طفيفة، ومؤشّر الانتصار، وهذا يعني أنهم يطالبوننا بوضوح بانسحاب إسرائيلي شامل. ولما كنت متأكداً، أن السوفيت كانوا على استعداد للمساهمة في عقد اتفاق. فقد ولدت خطوات السوفيت في نفسي انطباعاً عاماً أنهم يسعون لإعطاء العرب أفضل ما يمكن أن يوصل إلى سلام نفرضه نحن. وفي اجتماعات الأربعة، كنّا نُدفع إلى الاتجاه ذاته. دي غول الذي كرّم بحضوره مأتم ايزنهارو، كان قد صارح نيكسون في الحادي والثلاثين من شهر آذار. بوجوب تقديم الأربعة جهوداً للاتفاق على شروط عامّة لتسوية في الشرق الأوسط. ومع ذلك كنا نعلم منذ مداولات نيويورك، أن كل واحد من المشتركين في المفاوضات، لديه فكرة خاصّة بما يجب أن تكون عليه هذه الشروط ـ وأن إسرائيل لا تستطيع قبول أياً منها. وكنا نطالب في كل اجتماع أن نفرض سلماً، ولذا رأينا إلاّ حاجة بعد لحضور

الاجتماعات، وهذا حقاً ما عرفته قبل وقوعه. وفي الولايات المتحدة، فإن معظم أعضاء الكونغرس، كانوا منحازين وعلناً إلى جانب إسرائيل: مفاوضات مباشرة، سلام تعاقدي، وليس من ضغوط على إسرائيل في سبيل انسحاب مسبق.

وفي الوقت الذي لم تثمُر به مفاوضات شهري آذار ونيسان عن أي خطوة إيجابية تصاعدت حدة المصادمات العسكرية في ميدان المواجهة، وكان العنف يتصاعد. فأعلن يوثانت في الثاني والعشرين من شهر نيسان، أن حالة حرب حقيقية، موجودة على طول قناة السويس. كما أعلن ناطق بلسان القاهرة، أن وقف إطلاق النار لعام ١٩٦٧، لا يعمل به في هذه الجبهة. وازداد عدد المصادمات، عندما ردّت إسرائيل على مهاجمة الفدائيين من الحدود الأردنية. وكذلك أعلن لبنان حالة التأهب، محاولاً دون جدوى وضع حدّ، لغارات الفدائيين التي يقومون بها من داخل الأراضي اللبنانية ضد إسرائيل. وما كان يجب أن يدعى "حرب استنزاف" أصبح حرباً حقيقية. وبمقولة أخرى، بعد مضي شهرين على عمل أمريكي جادّ، كنا نجد أنفسنا، لا نزال في النقطة التي منها انطلقنا.

إن تعديلاً جديداً لسياستنا كان يفرض نفسه. وقد عزمنا في شهر شباط، على إجراء اتصالات، لمعرفة عمّا إذا كان بالإمكان البدء بالمفاوضات. وكانت الولايات المتحدة تجد نفسها ملزمة في إنقاذ تلك المفاوضات، من خلال طرح أفكار جديدة أكثر وضوحاً. لكن هذا لم يكن ليغيّر شيئاً من الواقع، لأن اقتراحات كل فريق كانت غير مقبولة عند الآخر. لقد كان مستحيلاً علينا، استخدام الحيلة لنحمل هؤلاء الفرقاء، على التخلّي عن مواقف كانوا يحتفظون بها منذ عشرين عاماً، وشنّوا في سبيلها ثلاثة حروب. أن الوسيلة الوحيدة للتوفيق بينهم هي استعمال عبارات شديدة الغموض، تكون بمثابة تكرار مخارج القرار (٢٤٢) الذي اتخذه مجلس الأمن. وهنا

تمثلت أمامنا مشكلة حيويّة، تدور حول قدرتنا في تطبيق الاقتراحات التي سنقدمها للفرقاء. وطالما أننا لم نكوّن جواباً لهذا السؤال، الذي هو من صلب الاقتراحات، فهذا يعني وجوب ممارسة ضغط على إسرائيل، وحينئذ تصل هذه المفاوضات إلى طريق مغلق. وفي الواقع لو بقينا في مواقفنا الغامضة، فإن مفاوضات الأربعة أو الاثنين آيلة إلى الفشل، وعلى الولايات المتحدة تحمّل اللوم. وإذا أعطينا تصريحات أكثر، نغضب إسرائيل علينا ولا نكسب صداقة العرب، والمستفيد الوحيد في هذه الحالة الاتحاد السوفيتي واتباعه من العرب. أضف إلى ذلك، إذا رفضنا الضغط على إسرائيل لأسباب سياسية خارجية أو داخلية، فإن حركة المفاوضات ستتوقف أيضاً. وبتقديري أن هذه هي النتيجة الحتمية لجهود بذلناها للوصول إلى تسوية عامة، في حين أن مواقف الفرقاء لا تزال متباعدة، ولا يزال السوفيت يساندون القضيّة العربية، ولم نتمكن بعد من اتخاذ دور الوسيط.

أطلعت الرئيس على خلاصة ملاحظاتي حول المشروع الذي طرحه روجرز والذي يقوم على التفاوض على حدود ما قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧، واتباعه بفترة قليلة بمشروع تسوية أردني - إسرائيلي، متكهنّا أن مشروعاً كهذا يجلب عدم رضى الجانبين. أن الحدود المقترحة سترفضها إسرائيل، وبالنسبة للعرب، وتطبيقاً لأفكار ناصر، ليسوا على استعداد لإجراء تفاهم حول السلام، ولن يُسهم ذلك بتحسين علاقاتنا معهم. وسيقوّي موقف السوفيت بالمقابل. وينسبون الفضل لأنفسهم وأتباعهم عند لمسهم اندفاعنا، ثم يتهموننا بعدم بذل جهود لائقة وعدم الحصول من إسرائيل على ما وعدنا.

نوقشت هذه النقاط بحضور الرئيس في اجتماع مجلس الأمن القومي في صباح يوم الخامس والعشرين من شهر نيسان. ولما كان الرئيس نهباً للملاحظات الواردة في تقريري، وضغوط الإدارة، تجنب اتخاذ قرار. ولقاء ذلك اقترح عليّ بعد الاجتماع،

أن أعمل وسيسكو على تعديل برنامج وزارة الشؤون الخارجية، لتحاشي مخاطره، فاقترن هذا البرنامج بموافقة الرئيس في الخامس من شهر أيار بعد تعديله. إن التعديلات الطارئة عليه كانت نهائية حتماً. وكان معلوماً حقاً أن الرئيس غير مستعد لتجاوز آراء وزير الشؤون الخارجية فيما يتعلّق بالشرق الأوسط. ولذا بقي نفوذي في هذا المجال ضعيفاً. أن الولايات المتحدة، لن تطرح هذه المرة برنامجاً عاماً لتسوية إسرائيلية ـ مصرية عاجلة، بل يقصد تقديمه نقطة فنقطة، عند محادثات سيسكو ودوبرينين المتتالية. أضف إلى ذلك فإن الولايات المتحدة لن تلتزم منذ البداية في الحصول من الاسرائيليين على انسحاب شامل من سيناء. وستعالج مشكلة الحدود، بطريقة مبهمة، دون ضرورة إيضاح العودة إلى حدود ما قبل الحرب. إن التعديلات آنفة الذكر، لم توقف، بل أدخلت بعض البطء على اندفاع وزارة الشؤون الخارجية وحالما يقرّ الرئيس موقف الولايات المتحدة الأخير، فإن هذه التعديلات ستقدمّ بطريقة أو بأخرى.

وكان حقيقياً أن سيسكو لا يوافق على بطء المفاوضات. وحالما صدّق الرئيس الاستراتيجية الجديدة، بدأ سيسكو، الجولة الثانية من محادثاته مع دوبرينين. ولم يُضع الفرصة: فقد بداها في السادس من شهر آيّار وأنهاها في التاسع من شهر حزيران. وكان لبقاً في كشف موقف الولايات المتحدة تجاه النقاط الحسّاسة. وبادر السوفيت بسرعة إلى عدم قبولها، وأخذوا يطالبون بأكثر منها. إذ أننا نطالب مثلاً بضرورة إجراء مفاوضات مباشرة في وقت ما، بين العرب وإسرائيل. ودوبرينين بدوره، كان يحاول تقليل أهميّة هذه المفاوضات. وبالنسبة للحدود، فقد كنّا نتمسّك بعدم استثناء الحدود القديمة الدولية بين مصر وإسرائيل والأراضي التي تشملها فلسطين. وكان الاتحاد السوفيتي يطالب بحدود ما قبل الحرب، دون أي تعديل. كنّا موافقين على تجريد سيناء من السلاح، بعكس السوفيت. وكنا نطالب بملاحة حرّة في

المسالك المائية الدولية، مثل قناة السويس ومضيق تيران، في حين أن السوفيت كانوا يطالبون بالعودة إلى اتفاقية القسطنطينية، التي لا يمكن تطبيقها في الظروف الحاضرة، كما كان بيننا خلاف بالنسبة للاجئين. وفي الحادي عشر من شهر حزيران، شكا دوبرينين، في حديث معي عن المأزق الجديد، في عدم وضوح تصريحات سيسكو، لا سيّما طريقة طرحها الغامض كما كان يقول بخصوص موضوع الحدود (فهمت من حديثه على الأقل، أن سيسكو كان يتقيّد بما يتلقّاه من تعليمات).

وأثناء كل هذا الوقت. كانت إسرائيل توضح بجلاء وبطريقة فريدة، عن تزايد رفضها للمبادرة الأمريكية، في حين أن دوبرينين كان يهاجم أيضاً طروحاتنا باسم العرب. وفي الثالث عشر من شهر أيار، طلب السفير رابين، تفسيراً لهدف المحادثات الجديدة الأمريكية السوفيتية. وكان يخشى موافقتنا حول مشكلة الحدود، كما انتقد نقاطاً أخرى. ولا تزال إسرائيل تفضل إجراء مفاوضات مباشرة مع العرب. أن غولدا مائير التي أصبحت رئيسة وزراء إسرائيل، أرسلت إلى الرئيس رسالة انفعالية مبدية خشيتها، من إلحاق الولايات المتحدة الضرر بالمفاوضات، عند تحديدها المسبق لنتائجها بخصوص المشاكل الهامّة. ولاجتناب تدهور الأمور، اقترح رابين سرعة دعوة السيدة مائير إلى واشنطن، ولم نكن في عجلة من أمرنا للقاء سريع، فحصلت من الرئيس على موافقة، أن تكون زيارة السيدة مائير في الخريف.

وطغت معارك جديدة على هذه المنافسة الدبلوماسيّة. ففي أشهر أيّار وحزيران وتموز، أصبح الشرق الأوسط يومياً مسرحاً لغارات فدائية من الأردن، ومعارك على الجبهتين المصرية والسوريّة، وتوعدت السيدة مائير، أن الانتقام الإسرائيلي سيكون سريعاً وعنيفاً ويكون العقاب أكثر بسبع مرات.

وأعلن ناصر في شهر أيّار لمجلة تايم، أن التسوية أصبحت ممكنة، إذا قبلت

إسرائيل بانسحاب شامل، وأعطت الفلسطينيين إمكانية العودة إلى أوطانهم، وهذان الشرطان رفضتهما إسرائيل سابقاً. وأكّد في الوقت نفسه، أنه سيعترف بحقيقة وجود إسرائيل، لكنّه أبدى معارضة، عندما أمر بعدم إذاعة هذه العبارة من قبل جمهور القاهرة. ثم في خطاب هام ألقاه في الثالث والعشرين من شهر تموز، غيرّ ناصر آرائه مرّة أخرى، إذ أنه كان يبينّ أن مصر تدين الأمريكان والبريطانيين لمساندتهم إسرائيل. وخلال هذا الوقت، وفي الثالث عشر من شهر حزيران، ختم غروميكو، وزير شؤون خارجية الاتحاد السوفيتي، زيارته للقاهرة بتصريح أكّد فيه أن مصر متمتعّة بمساندة كلية من الاتحاد السوفيتي، لتصفية نتائج العدوان.

وفي السابع عشر من شهر حزيران، تقدم إلينا الاتحاد السوفيتي باقتراح معاكس، يتضمن بعض المبادئ الإيجابية بذل الجهود في سبيل الوصول إلى تسوية تعاهدية، والاعتراف بإسرائيل. ومع ذلك فقد بقي السوفيت يعارضون تقريباً، المشاكل التي تهمنا أكثر. لأجل ذلك، لم يوردوا ذكر مفاوضات مباشرة، وحدود نهائية مُطابقة تماماً لحدود عام ١٩٦٧، وأهمل أمر الملاحة الحرّة، وعبارة "سلام نهائي" لم تتضمن أيّة التزامات للحدّ من حرب العصابات، وأخيراً فإن إسرائيل كانت ترفض حقّ عودة أي فلسطيني إلى أرضه. وبالرغم من كل ذلك، رأى روجرز أن جواب السوفيت كان يدل على تحرّك نحو الأمام، وكافياً لتعديل اقتراح آخر أمريكي. عاد دوبرينين إلى بلاده لتلقيّ الأوامر، فاقترح روجرز حينذاك، إرسال سيسكو إلى موسكو لعرض أفكار جديدة. وبصورة أدق، كان يريد روجرز أن يُكلف سيسكو بطرح تساهلات ويقوم في موسكو بدوره كاملاً، يعني التزاماً واضحاً بتأمين العودة إلى الحدود القديمة، في حال تجاوب السوفيت وبنيّة طيبّة لقضايا السلام، والأمن والمفاوضات المباشرة.

كنت أجد ذلك سابقاً لأوانه. وحسب تقديري، فإن الجواب السوفيتي لم يتضمن

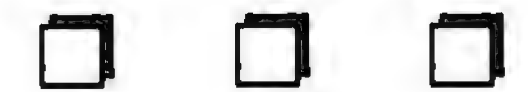
أي تساهل حقيقي. وكأنه يطالبنا في الواقع بكامل البرنامج العربي بالرغم ممّا يحتويه من صيغ غامضة وجوفاء. ولا يظهر نيّة حسنة بالتجاوب معنا بضغوط على العرب مشابهة لضغوطنا على إسرائيل. وكأن هذا الجواب قد صيغ بشكل يوضح لاتباع السوفيت من العرب، أنهم لا غنى لهم عنه. وإذا تعمقنا في فحواه، لا نستطيع اجتناب نزاع مع إسرائيل. غير إني لم أكن أملك وسيلة لإعاقة عمل روجرز. فأشرت على الرئيس، أن يقترن سفر سيسكو بموافقته، وأعطيته رأيي التالي: "لا نعطيه في الوقت الحالي أي تفويض، لحملنا وبطريقة مهما كان نوعها، إلى تقديم تنازلات معينة، لأن هذا يبعدنا كثيراً عن إسرائيل، ويقرّر موقفنا النهائي.

إني اعتقد أن من واجب الروس لا نحن الإقدام باول مبادرة". كما اقترحت الاستراتيجية الآتية: مطالبة الاتحاد السوفيتي، ببذل جهود لدى أصدقائها العرب، بقدر ما نبذل جهوداً لدى إسرائيل. مما يكفل إجراء مفاوضات عادلة، ويخلق في الوقت ذاته توتراً بين مصر والاتحاد السوفيتي. قبل نيكسون هذا الرأي، وسيتوجه سيسكو إلى موسكو، لكنه لن يتساهل في موقفنا بالنسبة للحدود.

وبقي سيسكو في موسكو، من الرابع عشر إلى السابع عشر من شهر تموز. وكانت محادثاته إعادة حقيقيّة، لمحادثات جرت في الأشهر السابقة. وهو نفسه كان متشككاً، سواء لليونه أو نوايا السوفيت. ونقل إلى الرئيس، إن لا شيء يجعله يصدّق أن السوفيت كانوا على استعداد للقيام بضغوط على ناصر، لأنهم كانوا يعتبرون ناصر، أداتهم الرئيسية في الشرق الأوسط، ويرفضون تعريض موقفه السياسي ونفوذه للخطر، بالضغط عليه لإجراء سلام على قواعد واسس تختلف عمّا يراه هو. وبدل الضغط على ناصر، كانت تقوم سياستهم على عدم التخلّي عن بوصة من الأراضي، وعلى إضعافنا، إلى أن نقبل بفرض شروطهم على إسرائيل.

وكان سيسكو يستنتج منها، وأنا أقرّه في ذلك، أنه يجب علينا نحن أيضاً، عدم التخلّي عن الأراضي.

هدّأت مهمّة سيسكو همّة العمل طيلة شهرين كاملين. وفي هذه الظروف بالذات، ويا لغرابة الأمر، فإن البيت الأبيض ووزارة الشؤون الخارجية اتفقا على عدم عمل أي شيء. ومع ذلك، كان ينتظر تجدّد النشاط الدبلوماسي في الخريف، حين وصول الزوار الأجانب، وبعضهم من البلاد المتنازعة في الشرق الأوسط، الذين يقدمون للمشاركة في الجلسات العامة للأمم المتحدة، التي عليها أن تحدّد مجالاً جديداً لمحاولة أخرى.



وصلت غولدا مائير إلى واشنطن في الخامس والعشرين من شهر أيلول. وهذه أول رحلة لها إلى الولايات المتحدة منذ أن أصبحت رئيسة وزراء. كانت لها شخصية فريدة، كانت قد قضت طفولتها في روسيا، عندما كان يُذبح اليهود، كما قضت شبابها في أرض فلسطين المعادية لها. وهذا علّمها أن الحذر يعطي فرصاً للبقاء؛ وأن المعارك وحدها توصل إليه. كانت أحد مؤسسي بلدها. وكل بوصة من الأرض التي حاربت إسرائيل بشأنها، تظهر لها وكأنها رمز بقاء شعبها، الذي ستكون لديه مناعة تامة ضد الأعداء، ولن يتخلّى عن شيء إلاّ لقاء ضمانات أمن حقيقية.

كان لغولدا مائير فكر ثاقب، مع حسّ حقيقي بوقائع الأمور، مع دعابة لاذعة. ولا تعزيها الخطب الرنانة، ولا تهمها تقنية وحجج المفاوضات. كانت تدخل إلى صلب الموضوع، وتجيب بدقة وبموقف تهكمي. وكانت تسيطر على المحادثات سواء بشخصيتها أو حدّة فكرها الثاقب. وكانت تتصرف نحوي كعمة حنون، تجاه ابن أخ

مخصوص بالحب، حتى أن أي خلاف يحدث بيننا، كان يسوّى عائلياً وكأنه إهانة لعواطفنا، بالإضافة إلى أن حسابه كان مقدراً. وحُقّ لامرأتي أن تقول: أن أجمل المشاهد التمثيلية، التي حضرتها، كانت تجري الآن بين غولدا مائير وبيني، عندما لم تكن آراؤنا على وفاق.

وكانت وجهة نظر السيدة مائير، نحو الوزير روجرز، وكأن كل ما سمعته عن أفكاره لم يكن صحيحاً. أنها كانت متأكدة، إذا أراد تبرير موقفه، عليه مسح جميع الأخطاء المتراكمة نتيجة عدم دقة برقيات إعلامه. وبالنسبة لنيكسون فقد صافحته وكأنه صديق قديم وحميم للشعب اليهودي، الأمر الذي كان جديداً علينا نحن الذين كنا نعرف تناقض نيكسون في هذا المجال. لكن هذه التحية أضفت عليه وجهاً، عليه أن يتطابق معه منذ الآن وصاعداً، ويخلص إلى عمل الكثير لإسرائيل، الذي إن لم يكن عن عطف، فهو على الأقل بسبب نظرة حسابية بعيدة المدى لمصلحة قومية.

كانت أجندة مائير تقوم على أشياء بسيطة، كان على الولايات المتحدة منع ناصر من التهرب من مسؤولياته ويثبّت شروط الصلح من قبل ثلاثة. كما كان على الاتحاد السوفيتي أن يعرف أن الولايات المتحدة لن تسمح بتدمير إسرائيل، وكان على العرب أن يعتقدوا أن إسرائيل لم تكن ضعيفة. وضمن هذه الشروط فقط يصبح الصلح ممكناً.

لم يتمكن نيكسون من إعطاءها وعداً بأن الولايات المتحدة ستمتنع من الآن وصاعداً عن طرح مخططات جديدة للسلام وارتبك في تصريحاته، معطياً انطباعاً، أنه يهتم بأمور إسرائيل، كأمور إدارته ـ وهذا كان صحيحاً ـ وأعلن أنه سيقايض الخرداوات بأدوات حرب. وكان يقصد بذلك، انه سيسلّم إلى إسرائيل الأسلحة التي تطلبها، إذا أبقت لنا بعض فجوات نجري فيها مفاوضات ـ والتي كان يرى أنها لن تدوم طويلاً.

وأُجبر على التأكيد أنه كان والسيدة مائير على اتفاق تام. وبدقّة أكثر، وافقت على الاحتفاظ بحقّها في الإعلان عن معركة، إذا أصبح ذلك ضرورياً، وستختار خصمها، بين من هم في مرتبة أدنى من الرئيس.

إن مشادة إدارية كبرى وشيكة الوقوع. ففي السابع والعشرين من شهر أيلول، جاء دوبرينين لمقابلتي، مؤكداً أن الاتحاد السوفيتي، عازم على اتخاذ موقف مشترك للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. فأصبح من المهم إعطاء يارنغ تعليمات توجيهية، وهو الممثل الخاص للأمم المتحدة. رفضت هذه الاقتراحات وأكدت: طالما أن السوفيت لا يبدون أي تعاون معنا في فيتنام، يصعب علينا القيام بعمل مشترك في مجالات أخرى. لم تكن عندي رغبة في التعاون مع الاتحاد السوفيتي، لأنه كان يرفض وبصراحة الإسهام معنا في جهودنا الخاصة. لكن رفضي حمل دوبرينين على اتخاذ مسار آخر، فأكمل محادثاته الموسعة مع سيسكو في شهري أيلول وتشرين الأول، مكرراً معالجة القضايا المثارة خلال زيارة الأخير لموسكو، وأعاد سيسكو ودوبرينين النظر، في نقاط طرحتها أنا بشأن تسوية متوقعة بين إسرائيل ومصر. وفي الرابع عشر من شهر تشرين الأول، بيّن سيسكو أن التقدم الذي تحقق في الإجراءات، يسمح بالانتقال إلى مشكلة الحدود.

لم أفكر أن نحصل على هذه النجاحات بهذه السهولة، فقد كنت أعتقد أن السوفيت كانوا يستخدمون الشرق الأوسط، والمفاوضات حول التسلح الاستراتيجي، لإرجاع نيكسون عن عزمه حول التهديد الذي حدّد موعداً له أول تشرين الثاني، تاريخاً أخيراً لحل قضية فيتنام أن اللقاء الذي جرى في العشرين من شهر تشرين الأول، بين دوبرينين والرئيس لم يهدّئ مخاوفي، إذ أن دوبرينين تلا وثيقة، تحمّل واشنطن وبكل صراحة، المسؤولية الكاملة لأزمة الشرق الأوسط. ردّ

نيكسون بخشونة وأكد أن السوفيت أظهروا عناداً عنيفاً في مشكلة الانسحاب الإسرائيلي، دون تحديد الثمن الذي يريدون منحه لمصر لقاء ذلك، والذي خسر الحرب، وبعضاً من أراضيه، وليس له أن يفرض طلبات. وفي حين أن نيكسون كان يضع النقاط على الحروف في حديثه لدوبرينين، كان سيسكو يسعى لتقويضه، وأن يبلّغ دوبرينين أن الولايات المتحدة عزمت على القبول، عند الاقتضاء، بالعودة إلى حدود عام ١٩٦٧، لقاء ضمانات أمنية، وكان يريد الإفضاء بهذا التصريح، في لقاء يتوقع حدوثه في الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول. حادثت الرئيس حول هذا المشروع، الذي وافقني على رأيي بأنه يجب على الأمريكان الامتناع عن الإقدام على أية مبادرة قبل الأول من شهر تشرين الثاني، التاريخ المحدد لقضية فيتنام. وفي الواقع، فإن نيكسون أعطى أوامره وبصراحة، بتعليق جميع الاتصالات مع السوفيت، إلى أن يلقي خطابه الكبير المرتقب حول فيتنام في الثالث من شهر تشرين الثاني. وأوجدت أحداث أيلول من عام ١٩٦٩، انقلاب في ملكيّة ليبيا، وتنصيبّ القذافي رئيساً للبلاد قلقاً شديداً، لمستقبل المنطقة السياسي وحرمتنا مراكز استناد كنا نتمتّع بها في هذه البلاد. وفي لبنان كانت الحالة تسوء فأصبح الواجب يدعونا لإعادة النظر في مخططاتنا لمواجهة اندلاع حرب أهلية. إن بعض أصدقائنا من الزعماء المعتدلين في الشرق الأوسط ـ كالملك حسين ـ والملك الحسن ملك المغرب ـ والأمير فهد في المملكة العربية السعودية ـ وشاه إيران ـ واللبنانيين، كلهم أوضحوا لنا سواء شخصياً، أو بواسطة موفدين، مدى اليأس الذي يشعرون به تجاه تعقيد قضايا المنطقة.

على طريقة المراهن الذي يستمرّ في لعبة خاسرة، فإن مناصري الدور الأمريكي، كانوا يتدافعون إلى الإبقاء على المبادرة، دون الأخذ في الحسبان الموقف الصريح الإجمالي لكل من الفريقين المتخاصمين، وكانوا يتخيلون انهم اذا استمروا في سلوك

هذا السبيل، سيصلون حتماً إلى تسوية، وكانوا يُثبتون في الوقت ذاته امكانية إخضاع اسرائيل والقبول بالحدود المطروحة، بإجراء بعض التعديلات على شروط الصلح المقترحة. وهكذا نحو أواخر شهر تشرين الثاني، فإن وزارة الشؤون الخارجيّة، طلبت من الرئيس وبصورة رسميّة، إعادة المحادثات الرباعيّة. وإقترحت ان يعرض فيها مخططنا المعد لمصر، المتخذ من مخطط مماثل وُضع للأردن، والمتضمن ذات الأفكار، وكنا غير قادرين على تقديم أكثر من هذا سواء للصديق أو العدو، وعلى كل حال، ألم يَعد الرئيس جونسون المملكة الأردنية، أنه في حال قبولها بالقرار (٢٤٢) سيعيد إليها حدود عام ١٩٦٧؟ كما قطع وعداً أيضاً بتعديل طفيف فيها!!! ان هذا في نظر العالم، سيمنحنا موقفاً معتدلاً يمكن الانتفاع به كنقطة انطلاق لمفاوضات تالية، على فرض فشل المفاوضات الحالية. ولم نوضح أبداً تجاه أي فريق أننا سنحسّن موقفنا، وماهي الفائدة التي نجنيهاعلى المدى البعيد في حال تقديمنا اقتراحات لن تأتي طبعاً بشيء مقبول. ولم يقدّم أحد تفسيراً لماذا كُتب للمشروع الأردني نجاحاً اكثر من المشروع المصري، ولماذا تتلقانا مجموعة هذه الردود الجافّة؟؟

وعندما نقلت إلى الرئيس اقتراح الشؤون الخارجية، أعدت على مسامعه اللازمة السرمدية التي أردّدها: ان كل هذه المبادرات آيلة إلى الفشل. اذ بات من المستحيل تصوّر مخطط يكون كفيلا بحيازة رضى الطرفين. ان مخططاً كهذا يتطلب ممارسة ضغط كبير على اسرائيل وايجاد فرص قويّة في جعل جميع الفرقاء يشعرون بالتساوي، عندئذ يمكن لمثل هذا المخطط سدّ طريق الحرب. وكنت أخشى ان إسرائيل، عند قطعها الأمل من نجاح قضيتها، تشن حرباً وقائية. وان الدول العربية ذاتها ستتخذ موقفاً مناهضاً، اذا لم ننجح بفرض شروطنا، وكل المبادرات الأمريكية، التي فُشلت، كانت من نصيب الإتحاد السوفيتي، وقوّت من بأس المتشددين.

فاستدعى نيكسون مجلس الأمن القومي، لعقد اجتماع في العاشر من شهر كانون الاول، لإعادة النظر في خطّة عملنا. وبدءاً من هذا التاريخ، يجب عدم تقديم أي اقتراح اضافي. إلا أن الوزير روجرز، كان قد اقترح تقديم مجموعة نقاط سياسية تعود للشرق الأوسط في خطاب سيلقيه في التاسع من شهر كانون الأول. ان اختيار هذا التاريخ، لم يحمل على العجب، لان هذا الخطاب سيلقى، قبل اجتماع مجلس الأمن القومي بيوم واحد، الذي كان عازماً على تحديد السياسة الواجب اتباعها. ان روجرز طمأن الرئيس انه لن يتقدّم بمشروع جديد. وانه أي روجرز وسيسكو نجحا في إقناع الرئيس ان هذا الخطاب لن يتعرّض لقرارات ربّما يتخذها الرئيس في اجتماع اليوم العاشر من شهر كانون الأول (والواقع ان المقصود بذلك هو الالتفاف حول مجلس الأمن القومي، وان هذه المناورة مكتوب لها الفشل في أي ظروف أو زمن آخر).

وهكذا ففي مساء التاسع من شهر كانون الأول، توجّه روجرز إلى مؤتمر غالاكسي لتعليم البالغين، حيث كانت قد تجمعت بعض الشخصيّات البارزة لكني لم أفهم حتى الآن، ما الذي كان يدفعهم إلى التكلم رسمياً عن قضايا الشرق الأوسط. واشتهر خطاب روجرز باسم «مشروع روجرز» أكّد روجرز حينذاك ان سياستنا معتدلة، وان على الفريقين المبادرة لتقديم تنازلات. كما أوضح المواقف التي كان سيسكو ويوست، قد عرضاها في المحادثات الرباعية والثنائية، وألح في الواقع، على ان شروط ومتطلبات السلام، يجب أن تقدّم وبصراحة في مجالات عديدة كحرية الملاحة والسيادة.بالإضافة إلى ان ضمانات أمنية غير موثوقة، يجب إيقافها من قبل الفريقين، وبمساعدة السفير يارنغ. ومع ذلك فان ما استوجب الإنتباه، كان عرضه لقضيّة الأراضي: «اذا كان حقيقياً واجب الاعتراف بحدود سياسيّة، معيّنة. ومقبولة

من الفريقين، نعتقد في الوقت ذاته، ان كل تعديل يطرأ على حدود ١٩٦٧ يجب الا يحمل إشارة الإنتصار، ويعيّن بتعديلات طفيفة لا غنى عنها لوجود أمن متبادل. لسنا ميّالين للتوسّع، ونعتقد بوجوب الجلاء عن الأراضي طبقاً لقرار يتّخذ وأخيراً اننا نتمنى أمناً لاسرائيل كما للدول العربية».

وعند تطبيق هذه المبادئ في اتفاق اسرائيلي - مصري، اقترح روجرز انسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية حتى الحدود الدولية بين اسرائيل ومصر.

على الرغم من أن الخطاب كرر بوضوح نقاطاً كانت الأطراف المتصارعة قد رفضتها، إلاّ انه هُوجم من قبل جميع الجهات. والصحافة العربية، ولا سيما المصرية منها، إتّهمته انه مناورة تهدف لجعل العرب يصدّقون أن الولايات المتحدة حياديّة وايقاف العلاقات بين مصر والإتحاد السوفيتي. واخذ السوفيت يعلنون وبطريقة فيها بعض الإرضاء، ان خطاب روجرز جاء متأخراً جداً، ويحسن أن يفهم جيداً اذا كانت الولايات المتحدة عازمة على الضغط على إسرائيل في سبيل الانسحاب، ثم تعاطفت البرافدا مع الموقف المصري وإتّهمت الأمريكان بنيّة إخفاء مناصرتها لإسرائيل. وفي اليوم التالي للخطاب، رفضت الحكومة الإسرائيلية كل مبادرة لتحديد الحدود، تصدر عن عناصر خارجة عن النزاع. كما صرّحت رئيسة الوزراء مائير ان روجرز كان يفسّر خواطره وأن السلطات العظمى لا تستطيع عقد الصلح بدلاً من أصحاب العلاقة. وأعلن مؤتمر رؤساء أهم المنظمات اليهودية في أمريكا، «قلقه الشديد» وإقتدى بذلك اعضاء من الكونغرس. واوفد إيبان على عجل لاجراء محادثات مع المسؤولين الأمريكان.

وفي هذا الجو المشحون، اجتمع مجلس الأمن القومي في العاشر من شهر كانون الأول ، لتدقيق إقتراح الشؤون الخارجية، ولاتخاذ قرار فيما اذا كنّا قادرين

على تقديم مشروع للأردن مشابه للمشروع الذي سيقدّم لمصر. لنترك لاختصاصيّ علم النفس في الإدارة. الاهتمام بإكتشاف ما كان يدفع وزراة الشؤون الخارجيّة، الى السير في طريق. وكل ما يقدّم في سبيلها مكتوب له الفشل. وربما كان سهلاً طمس سياسة أكثر من التخلّي عنها عمداً لا سيما عند اقتربها بعدة دلائل ادارية. صارحت روجرز أنه مهما كانت معطيات خطابه، فإن الولايات المتحدة ليست بحاجة إلى التمادي بسياستها. وكان يجب الاّ يغرب عن بالي، أن ظروفاً طارئة لا يمكن أن تعوق. اذ أن الشؤون الخارجية، طلبت إلى الرئيس تفويضها تقديم مخطط السلام بين إسرائيل والأردن بصورة رسمية إلى الأربعة والذي لم يكن سوى إعادة لما سبقه ولن يتمكن من توطيد الموقف الأمريكي.

ان المناقشات كانت اكثر جدّية. ومن كان يريد تقديم اقتراحات معيّنة كان يظن انها ستحسّن موقفنا لدى العالم العربي، أما أنا فكنت أعتقد أننا إذا لم نفرض هذه الإقتراحات فرضاً، واكتفينا فقط بطرحها، لن يكون أمامنا سوى مهلة أسبوعين او ثلاثة، وفي نهايتها نجبر على تقديم غيرها، أو تحمّل فشل المفاوضات. أما الذين كانوا يقترحون تقديم ما هو أكثر تحديداً، كانوا يعتقدون أن موقفاً كهذا ربما حمل الإتحاد السوفيتي على بعض تعديل في موقفه أيضاً. وكنت من جهتي مقتنعاً أن سيلاً مستديماً من التساهلات الأمريكية يدفعها إلى الأمام لتجعل من نفسها محامياً عن المتشددين العرب. واخيراً فان أنصار السياسة الناشطة، كانوا ينوون تمرير نظمنا المتطرفة، بتقديمهم تساهلات أكثر. أما بالنسبة لي فقد كنت أؤكد أن نظماً كهذه لن تعرض بهذه الصورة، إذ لا تزال لدينا فرص لتعديلها بابدالها بسياسة التزام رسمي من قبل الولايات المتحدة.

عند إجتماع مجلس الأمن القومي ذاته، كنت اعترض على القيمة الأساسيّة لما نقدّمه من نظريات في دبلوماسيّتنا، التي تظن أن وجود مأزق طويل الأمد يقوّي موقف

الاتحاد السوفيتي، لأن كنت أعتقد العكس، فطالما ان المشكلة موجودة، يصبح طبيعياً ان يعتقد الإتحاد السوفيتي بعدم قدرته على تلبية رغبات العرب، وبمرور الزمن، سيستنتج هؤلاء وبالضرورة ان صداقة الإتحاد السوفيتي، ليست الوسلية الأكيدة لايصالهم إلى أهدافهم. آجلاً أو عاجلاً، حافظنا على رباطة جأشنا، فان هذه الحلول، ستدفع بالسياسة المتشددة العربية الى التساؤل.

تلك كانت إستراتيجيتي، وانطلاقاً من عام ١٩٦٩، تحولت سياستنا (لإرتكازها على مخططات سلام مختلفة، قدّمتها وزراة الشؤون الخارجية)، إلى العدم، ليس من قبلي بل بإيحاء الأحزاب. وفي عام ١٩٧٢ وعام ١٩٧٣، أخذت هذه الاستراتيجية تعطي أكلها. وبطريقة ما، فان نتيجة اجتماع مجلس الأمن القومي في العاشر من شهر كانون الأول، لم تتجه نحو المنافسة. ولما كان نيكسون قليل الرغبة في معارضة وزير الشؤون الخارجية، وليس لديه استعداد لمواجهة نتائج خصومه مع إسرائيل. فقد عزم على السماح بطرح مخطط المصالحة على الأردن، بجعل البيت الأبيض قدر الامكان في معزل عن الموضوع. وذهب الى أكثر من هذا، بتوجيه كل انتقاد محتمل الى وزارة الشؤون الخارجية، وراجياً الحصول على ربح دبلوماسي من الطرح الجديد. وفي السابع عشر من شهر كانون الأول، سمح نيكسون بتقديم المشروع للأربعة. وطلب في الوقت نفسه الى لين غارمان إعطاء تأكيدات شخصية للسيدة مائير، لن يطول بنا الوقت، وسنسعى ليؤخذ باقتراحنا.

لو أجلّت الادراة تطبيق التوجيهات التي لا تقرّها، سيكون لديها لقاء ذلك اهتمام كبير بتنفيذ الأوامر التي تقرّها، والتي هي في خشية من تعديلها. ولقد قدّم السفير يوست المخطط الأردني في الثامن عشر من شهر كانون الأول، أعني قبل اربع وعشرين ساعة من اعطاء الرئيس الضوء الأخضر.

وبالرغم من تأكيدات نيكسون. أثار الاسرائيليون عاصفة عامة وفريدة ضد خطاب روجرز، وضد عودة مفاوضات الأربعة، وضد المشروع الأردني. فاستدعت السيدة مائير أعضاء حكومتها الى اجتماع فوق العادة، لإعادة النظر في موضوع العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة. ونقل موظف إسرائيلي الى لين غارمان ان السيدة مائير، خاب ظنها كثيراً، ومتألمة جداً، وترى ان الوضع مريب وخطير. ووزير الشؤون الخارجية إيبان إتّهم علناً الولايات المتحدة، بأنها كتمت عن إسرائيل، بعض تفصيلات المشروع الأردني، قبل طرحه، في حين، أنه (اي إيبان) التقى روجرز في السادس عشر من شهر كانون الأول. فأجابت الشؤون الخارجية ان روجرز، كان قد أوضح لإيبان خطوط المشروع العريضة. وفي الثاني والعشرين من شهر كانون الأول. قدم وفد من زعماء الطائفة اليهودية الأمريكية، احتجاجاً لروجرز. وأصدرت الحكومة الإسرائيلية تصريحاً، رفضت بموجبه بصورة مكشوفة الإقتراحات الأمريكية، وكان يقال ان السيدة مائير إعتبرتها مسايرة كبيرة للعرب.

ولتلطيف المخاوف الإسرائيلية، اهتم سيسكو بتبيان أوضاع حكومة نيكسون، انهامختلفة، عما كانت عليه في الحكومة السابقة، رامياً من وراء ذلك التأكيد على ثبات سياستنا، وما من حكومة تهتم باطراء سياستها إلاّ عندما تكون في خطر. بالإضافة الىان سيسكو طالب بمبادرة سريعة لتلبية العون العسكري والاقتصادي اللذين تطالب بهما إسرائيل، واقترن ذلك بموافقة نيكسون. وهكذا فإن كل مرحلة من المفاوضات لا تقرّها إسرائيل، يُضاعف ويزداد برنامج المعونات لإسرائيل، دون التأكيد علىوحدة في التفكير!!!

❐ ❐ ❐

انتقلنا بأقل من تسعة أشهر، من مناقشة المبادئ العامة، إلى تقديم مخططات أكثر تحديداً، ومع ذلك لم يتحقّق أي تقدم دبلوماسي. وكذلك فإن علاقاتنا مع مصر لم تكن قد طرأ عليها تحسّن، وكانت اتصالاتنا قليلة معها. وكان لدى ناصر أسباب عديدة، تحمله على الاعتقاد، بأنه بقدر ما ينتظر، بقدر ذلك نقدم حلولاً مقبولة أكثر. فلماذا خصّ الاتحاد السوفيتي بعلاقاته، وسياسته الأساسية بالعون الأمريكي، لأن الولايات المتحدة كانت تقدّم بالتناوب اقتراحات جديدة، حتى دون مقابل؟ أن اقتراحنا حول مشكلة الحدود، قد تطوّر تدريجياً، لقد انتقل من "مؤشر الانتصار" إلى "تقويم" ثم إلى "تعديل طفيف". أن العرب المتشددين لم يعترفوا بصنيعنا عند تغييرنا موقفنا تجاه مشكلة الصلح الرئيسية. أضف إلى ذلك، فإن الاتحاد السوفيتي، لم يكن ليفقه بعد، أن إطالة أمد الأزمة، ليست بصالحة، وكان يكتفي بزيادة الانتقاد والاتهام بالإضافة إلى ما كان يبدو من ناصر. وفي الثالث والعشرين من شهر كانون الأول، بعد شهرين من الانتظار، انتهى السوفيت إلى إجابتنا على اقتراحنا، المرسل إليهم في الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول، الذي كنا اقترحنا فيه، العودة إلى حدود عام ١٩٦٧. وجوابهم كان رفض اقتراحنا هذا. وكان دوبرينين يبدي تذمرّه من أن مفاوضات الشرق الأوسط لا تتقدم، ولم تتوصل إلى شيء. وقال لي أن موسكو راغبة حالياً في معالجة قضايا الشرق الأوسط مع البيت الأبيض، إذ قد اتضّح أن قضايا مثل هذه لا يمكن أن تحل "إلا في مستويات عليا". فأجبته: أن ليس لدينا ما نضيفه إلى ما سبق وكعادتهم، فإن الروس أنقذوا موقفنا بتأجيل تعاونهم معنا، لأن المحادثات على مستوى أربعة أو اثنين قد تجمدتّ نهائياً. وكان نيكسون، يشاطرني وجهة نظري: إن الوقت مبكر لإيجاد تسوية.

أجهدت نفسي طيلة فصل الشتاء، بإعداد تقرير للكونغرس، للسياسة الخارجية التي كان ينوي الرئيس انتهاجها ولوضع حدّ لكل مبادرة من الجمهور، فإن أول فقرة

من التقرير، كانت تتضمن وصف النزاع الإسرائيلي العربي وكأنه "غير قابل للحل". فاستنكرت ذلك الشؤون الخارجية استنكاراً شديداً وصرّحت بأن هذا التأكيد التشاؤمي، يحيل كل جهودنا إلى العدم. وكنت أفضلّ اجتناب نزاع، لذلك خفّفت هذه الجملة. وفي المقطع النهائي للتقرير، الذي أذيع في الثامن عشر من شهر شباط، كان متضمناً أن القضية الإسرائيلية العربية فيها أمور هامة غير قابلة للحل. فلطّف هذا جوّ اختصاصي الشرق الأوسط غير أن عدم لباقة هذا التعبير كانت تعكس الصفة غير الطبيعية في التسوية الإدارية. وكنا غير قادرين على توضيح أكثر للمثل القديم الذي بموجبه يصبح الجمل حصاناً رسمه مجلس.

ومع ذلك، وأثناء المأزق الدبلوماسي، فإن المشاكل التحتية أصبحت واضحة، وموقف الأحزاب الرسمية، لم تكن لتمثل سوى قمة جبل جليدي. وأن الدول العربية، باستثناء الأردن. لم تكن على استعداد لعقد صلح حقيقي، تفسرّه علاقات عادية مع إسرائيل، أو ضمانات أمنية حقيقية. ومن جانبها (إسرائيل)، فلم تكن لديها نيّة لإخلاء جميع الأراضي المحتلة، وطبعاً فيما لو قُبلت الشروط التي تراها هي للصلح، فلم يبق والحالة هذه أي ريب، في أن النزاع بين الطرفين غير قابل للحل.

كان ناصر يتكل علينا، لإنقاذه من الحالة المزعجة التي وصل إليها نتيجة مجازفة عام ١٩٦٧. غير أنه كان يرفض تحديد دوره كبطل القومية العربية المتشددة، التي كانت تحمله على اتخاذ موقف واضح بمعاداته لأمريكا أمام معظم المشاكل الدولية. كما كان يرفض التخلّي عن فكرة تبيّن أن الابتزاز السوفيتي هو الطريقة الفضلى لكسب مساندة الولايات المتحدة. وكان يدفعه هذا الاعتقاد إلى إجراء أغلب مفاوضاته بوساطة موسكو، بدلاً من إجرائها معنا مباشرة. ومن جانبهم، سواء عن توهم، أو عن توافق مع دورهم كمدافعين عن القومية المتشددة، فإن السوفيت، كانوا يرضون بجعل أنفسهم مدافعين عنيدين عن متطلبات العرب المتلاحقة. فلأي سبب إذا

نُقدم على إنقاذ ناصر من ورطة؟ ولأجل هذا، ففي عام ١٩٦٩ آلت كافة مشاريع المفاوضات إلى الفشل.

لكن في وسط هذه الفوضى، فإن القوة اللازمة لموقف الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، تكشّفت شيئاً فشيئاً، فليس هناك عقد صلح دون عوننا، نحن وحدنا ـ وليس الاتحاد السوفيتي ـ كنا نستطيع التأثير على إسرائيل، التي كانت قادرة على ردّ ضغط عسكري عربي، كما كانت لدينا القدرة على عدم القيام بنشاط دبلوماسي، طالما أن العرب ليسوا على استعداد لمعرفة جميلنا من جراء التنازلات التي تقدمها إسرائيل. وإذا بقينا على ثباتنا، فإن الطابع الرئيسي لموقفنا سيصبح أكثر فأكثر واضحاً. وكان نيكسون يقوم بدورين معاً: كان يعتقد بقيمة إستراتيجيتي، ويعطي في الوقت ذاته موافقه لخطة الشؤون الخارجية (لإفشالها على الأثر) وفي المناسبة نفسها، وربما مع بعض الخطأ، أخذنا في إتباع سياسة كنت أريد تطبيقها. وكانت نهاية المأزق الإداري، ما كنت أسعى للحصول عليه في المجال السياسي. إن عملاً غير مجدٍ ولو سانده الزمن، كان عليه أن يحمل على الأقل، بعض الحكام العرب إلى التساؤل، هل كان من الأفضل لهم وضع أنفسهم تحت القوة السوفيتية، واتخاذ مواقف متشددة للوصول إلى أهدافهم. وعندما يتضح لسبب أو لآخر، أنهم يبتزون منا تسوية، حينئذ يتفهم الحكام العرب، إن عنادهم والضغوط التي يمارسونها ضدنا بواسطة الروس كانت أسباب الركود. وكنت أعتقد أنهم ينتهون بالاتجاه لنا.

وهكذا ففي عام ١٩٦٩، وليس دون جدال أو تردد، وضعت الأسس التي سمحت بعدئذ بانقلاب في تحالفات الشرق الأوسط. لكن هذه المرحلة تطلّبت أيضاً وقتاً أكثر، وأزمات أخرى، وحرباً مدمّرة.

الفصل التاسع

معضلات النجاح والتحالفات الصعبة

ترافق وصول الإدارات التي جاءت قبل وصولنا إلى الحكم، شعور عارم بأنها (الإدارة) كانت مهملة في علاقاتها مع الأطلسي، وتضع في بداية وصولها إلى الحكم برامج جديدة وجريئة لمعالجة هذه الثغرة، ولكنها تسلم زمام الحكم وهي لم تفعل شيئاً حقيقياً في ردم تلك الثغرة، بل ربما تزيد من حدة المشاكل التي تزيد تلك الثغرة اتساعاً.

لم يكن هذا دون سبب، فإن حنيناً دائماً يعود بالناس إلى مشروع مارشال، الاقتراح الأمريكي الجريء، الذي كان قد أثار حماس أوروبا. أن كتلة من أعضاء الأطلسي والأوروبيين، كانت قد نشأت لتحقيق مشروع عظيم. أن الحلم السرّي للسياسة الخارجية الأمريكية أصبح حقيقة.كانت أمريكا تتمتع أخيراً برضى مفاجئ وحقيقي، وكان التعاون ممكناً دون أقل إكراه، والتسابق نحو المصالح القومية وسياسة القدرة، كانت قد استبعدت.

وفي أوج حماس ما بعد الحرب، ما كان يُظن لحظة، أن وضع أوروبا يمكن أن يكون أكثر أصالة مما كانت تبدو عليه لقد كانت في الواقع منسجمة مع إحساس عارم بالمصالح القومية، وفي المجال العملي، كانت تسمح لقارة منهارة ومدمّرة، الحصول على حماية، وعون اقتصادي وتكنولوجي، دون إعطاء شيء في مقابل ذلك. ومع ذلك، فإن جيلاً عاش مثالية هذه العلاقات الدولية، لم يفكر قط بأن الكرم يجعل التسلّط محتملاً. ولا يسمح للنفوس بقبوله أمداً طويلاً. ستثار المشاكل ليس فقط طيلة سنين، حيث ستجري ارتباطات متينة في العلاقات الأطلسية لكن عند الوصول إلى الأهداف المرجوة. على أوروبا أن تسعى لإيجاد قدرتها الاقتصادية، وأمنها السياسي، وعلى البلدان الأوروبية. أن تكون قادرة على الدفاع عن وجهات نظرها الخاصة.

أن الأعوام ١٩٦٠، أعطت إشارة البدء بحقبة الحقيقة هذه. وفي الواقع ظهر للوجود مؤسسات جديدة هامّة. ولم يسبق لنا أن كانت مشاوراتنا في علاقاتنا الدولية صادقة وطبيعية كما هي عليها الآن. أن دمج اقتصاديات أوروبا كان يحسّن وضع التجارة العالمية. والصادرات الأمريكية. بدلاً من تدميرها كما كان يخشى البعض. كانت أوروبا تسير بثبات نحو وحدة سياسية.حتى لو أنها ما كانت تدلل على ما كنّا نصبو إليه.

لا يمكن في العلاقات الدولية، الشروع بإنشاء منشآت جديدة، خلال فترات متقاربة جداً. ونجاحها نفسه يستثني كل انعكاس في الحالة الحاضرة. وفي الواقع، أن محاولة تغيير تجربة حياة فردية إلى سلوك ثابت جديد،يمكن أن يسبب فشل هذه المحاولة. وفي الحالة الطبيعية، بمقدار ما كانت أوروبا تحاول لملمة نفسها والارتقاء بواقعها بعد الحرب، فإن العلاقات الأطلسية كانت اجتماعية أكثر، والمشاكل أسهل حلاً. وبشكل متناقص، فإن التعاون الأطلسي أخذ يشعر بنجاح كبير، عندما أخذ

يخصص وقتاً لتنظيم بيته، وأخذت الخشونة طريقها منذ أن أصبح الهدف معمارياً. ولم تتغير الحال، خلال أيام حكومة نيكسون. وعلى غرار آخر أسلافه، فإنه، رأى جهوده وقد تتوّجت بالنجاح، في حين أن أهدافه بقيت كما هي بسيطة، أي إيجاد الثقة في النفوس، والتأكيد على الحرية، والمحافظة على المبادئ القومية، في سبيل توزيع قواتنا في أوروبا، وإعطاءها مهمة الاندماج. ومع ذلك فقد اتهمنا في هذه الحقبة بإهمال حلفائنا. وعندما عزمنا على أثر ذلك العمل بالطرق التقليدية، "منح حياة جديدة وعزم جديد". أصبحنا أمام المشكلة ذاتها التي عانى منها أسلافنا وخلفاؤهم وليس بالإمكان، تأسيس سياسة خارجية، على أساس بحوث غامضة في سبيل إنجاز بسيكولوجي.

في السنوات الأولى لحكومة نيكسون، كان الحلف الغربي في حالة حماس شديد، يعود القسم الأكبر منه إلى واقع المبادرات الأوروبية. جهود ويلسون لتأمين انضمام بريطانيا العظمى في السوق المشتركة، وسياسة الداهية براندت. ورغائب دي غول، ومن ثم بومبيدو، واستئناف العلاقات مع أمريكا. أننا لم نقدم على عمل بطولي، لكننا وبتأنٍ شجعنا على انضمام بريطانيا العظمى إلى السوق المشتركة. كما قمنا بدور حاسم لإنجاح سياسة براندت، والبدء بمفاوضات برلين. ووضعنا أخيراً حداً لانتشار القوات الأمريكية في أوروبا، التي كان الكونغرس يسعى بعنف لتقليصها.

أوجزت نشاطنا في أوروبا، بتقرير وجهته إلى الرئيس. أنجز في شهر آذار عام ١٩٧٠، ولكن يُحسن أن أعود فأتكلم عنه هنا: كان نيكسون قد سألني، هل هناك ضرورة في حال إنجاز اندماج أوروبا، أن تبقى الولايات المتحدة الأمريكية، هي المهيمنة على شؤون الأطلسي. وكان يبحث جدياً، للاطمئنان عن هذه الناحية. لقد كان متأثراً منذ طفولته بتجارب جيل أرتور فاندنبرغ. التي يعود الفضل إليها في مساندة

الحزبين الأمريكيين لتحالفنا مع أوروبا دون سابقة. أن سؤال نيكسون كان من ذات الفصيلة لتلك الشكوك التي كانت تراوده، عندما كان ينوي ألا يفكر بولاية ثانية، وكل مرة، كان يقلق فيها على مستقبله السياسي،كان يسعى واقعياً للتأكيد أنه لا يمكن الاستغناء عنه. وأما فيما يتعلق بأوروبا، فقد كان يرغب دوماً في إثبات رأيه في ما عرفه من سياسة، يجب على الولايات المتحدة أن تحافظ على الزعامة.

لم يكن من العسير عليّ الردّ على هذا القرار، لأنه كان خلاصة تجاربي الخاصة، وكنت أؤكد أن ثقل وزعامة الولايات المتحدة ستبقى لا غنى عنها لأنه على الرغم من كل تقدم اقتصادي، فإن الأوروبيين، وببساطة، لم يكونوا بعد قد توصلوا إلى الائتلاف المنشود، والطمأنينة الداخلية، وقوة الإدارة اللازمة للتمكن من مواجهة القدرة السوفيتية. وقد جاء فيما كتبت: أن وحدة الحلف، تتطلب من الولايات المتحدة ثلاثة أشياء:

في المقام الأول، كان علينا أن نبرهن عن تحسين علاقاتنا مع الاتحاد السوفيتي وإذا أبدينا استعجالاً كبيراً، فإن الشعوب الأوروبية، قد ترتابها الخشية من تواطؤنا مع الاتحاد السوفيتي لإلحاق الضرر بهم، وسيحملها هذا على مضاعفة مبادراتها، وربما دون تروٍ، لتأمين حمايتهم ولو في التعامل مع السوفيت. ولكن لقاء ذلك تخفّت الولايات المتحدة في خناق الحرب الباردة، ستكون النتيجة ذاتها. وفي هذا الحال، سيحاول الزعماء الأوروبيون، وضع أنفسهم "وسطاء" بين القوتين الكبيرتين المتحاربتين" يجب إذا على الولايات المتحدة اتخاذ سياسة حكيمة تجاه الاتحاد السوفيتي، سياسة حازمة للمحافظة على وضع يمكّن من دفاع جماعي، وسياسة مرنة لمنع حلفائنا من الارتماء في أحضان موسكو. وفي المقام الثاني، يجب علينا إقناع حلفائنا أن مصالحهم الحيوية، ستؤخذ في الحسبان، في مفاوضات "سالت" وإذا كان سلوكنا الخاص متعذراً لومة، يتعذر علينا انتظار مبادلة من الأوروبيين.

وفي المقام الثالث وأخيراً: علينا اجتناب التقليص الأحادي لقواتنا في أوروبا،ولو فرض علينا هذا التقليص بسبب ضغوط مالية، أو بسبب الاتجاه الجديد الانعزالي في الكونغوس. وهذه مشكلة أساسية بالنسبة لحكومتنا لأن هذه التقليصات الهامة، مهما كان نوعها، ستضعف كثيراً حلف شمال الأطلسي، وتشجع الميل في الخضوع للاتحاد السوفيتي.

تلك هي المبادئ التي حاولنا تطبيقها في علاقتنا مع حلفائنا في حلف شمال الأطلسي. أن جهودنا لم تكلل دائماً بالنجاح، لكن أولى سنوات الحكومة لمست تحقيق تقدّم مشجّع.

❐ ❐ ❐

من الممكن القول أننا نجحنا، في تهدئة معظم توترات الحلف الأطلسي، والتي ورثناها عند مباشرتنا مهامنا. كان نيكسون يجلّ دي غول إجلالاً عظيماً، وكان دي غول يبادله التقدير. لم يكن الجنرال يغيّر وبصورة أكيدة، مبادئه الأساسية، غير أنه كان يبتعد من فرضها وبصراحة. أن الاستقبال،الذي خصّ به نيكسون في فرنسا، وحضور دي غول العشاء الذي أقامته سفارة الولايات المتحدة في باريس، والمجاملة التي أظهرها دي غول عند مشاركته في تشييع إيزنهاور، كل هذه الأسباب مجتمعة ساهمت في تخفيف توتر الأجواء الأوروبية، وبدوره، فإن هذا التحسّن في العلاقات الفرنسية ـ الأمريكية بدا وكأنه يخفف من العوائق التي ظهرت في العلاقات الخاصة بين الإنكليز والأمريكان، عندما دخلت بريطانيا العظمى في السوق المشتركة.

تعدّدت الاتجاهات، حالما قدم الرئيس دي غول استقالته من الحكم بصورة مفاجئة، في السابع والعشرين من شهر نيسان من عام ١٩٦٩،إثر استفتاء لم تكن

نتيجته في صالحه، يتعلّق بمسائل ثانوية، كبنية السلطات المحليّة في فرنسا وإصلاح مجلس الشيوخ. إن استقاله مبعثها مسائل من هذا النوع، أفسحت مجالاً واسعاً للتفكير بأن هذا الاستفتاء كان يهدف وعلى الأقل جزئياً، لإعطاء دي غول، حجّة للتخلّي عن الرئاسة علماً أنه قام بأعمال عظيمة، فرضتها تلك الأزمات، التي أوصلته إلى السلطة وكان قد رسّخ دعائم أنظمة سياسية جديدة، كما كان قد أنجح جيداً فكرة التخلّي عن استعمار أفريقيا الفرنسيّة، محافظاً في الوقت نفسه على ثقة فرنسا بنفسها، والبقاء على نفوذها في مستعمراتها القديمة. وبعد أن جنّب فرنسا حرباً أهلية كادت أن تنشأ فيها، فقد أعاد إليها كبرياءها الوطني، بإعطائها دوراً مركزياً في سياسة أوروبا وسياسة الحلف الغربي وبشكل عام كان يهدف بتحديه الولايات المتحدة إلى إعادة الثقة والطمأنينة للفرنسيين.

لكن الثورات الطلابيّة التي قامت عام ١٩٦٨ زعزعت دي غول. والمسائل التي واجهته بعدئذ، كان ينقصها اتساع الافق قياساً للرؤية التي كان يضعها لنفسه. فتأمين التنمية الاقتصادية، والفصل بين المطالبات في نطاق الموارد المحدودة وتنظيم وإدارة دولة بيروقراطية، هذه المهام كان يدعوها، بشيء من الازدراء، «الادارة، لم تكن من اختصاص الأبطال». لقد منحه استفتاء ١٧ نيسان فرصة الرحيل بشكل رائع، كما جنّبه تدهوراً في السلطة، كان يخشاه كثيراً. حان الوقت لعزلة كولومبية. فدي غول لم يعد يلتقي بأية شخصية سياسية، كما أنه لم يدلي بأي تصريح، بل انكب على كتابة مذكراته فيما كان ينتظر الموت.

عندما استقال دي غول، كتبت إلى الرئيس لأطلعه، حسب رأيي، عما سينجم عن هذه الاستقالة. كنت أتوقع أن يخلفه الجنرال جورج بومبيدو ولكن في ظرف سياسي أكثر تعقيداً. كان دي غول قد نجح في الترفع عن الأحزاب. ضاماً إليه اليمين باعتدال

برنامجه الداخلي، واليسار باستقلالية سياسته الخارجية. وكنت اعتقد بأن الحياة السياسية الفرنسية ستتصف في المستقبل، على الأرجح، بحزب شيوعي هام جيد التنظيم، متخذاً أقصى اليسار، خليط غير ثابت من أحزاب اليسار والوسط واليمين، يحكم بدعامة ضيقة بحيث يصعب كل عمل إيجابي. كنت أتوقع القليل من التغيرات الأساسية في السياسة الفرنسية الخارجية متكهناً بنمط أكثر تساهلاً. وكنت أرى مع ذلك بأن" السياسة الخارجية الفرنسية يمكن مع الوقت، أن تطرح علينا مسائل كثيرة. كما يمكن لليسار، ضمن حكومة أقل تصميماً، أن يناور بطريقة يكون فيها قادراً على رفض كل مبادرة في السياسة الخارجية التي لا تروق له.

إن لم تكن هذه التنبؤات خاطئة كلياً فقد ظهرت سابقة لأوانها على الأقل، فبومبيدو ظهر كرئيس قوي حازم ومعتبر على أي حال حتى عامه الأخير في قصر الاليزية، عندما أخذ يتألم ألماً مبرحاً من ادائه الذي سيقضي علية عام ١٩٧٤.

من الممكن القول أن كل الأسباب التي أوحت بوجود سياسة متحفظة نحو الولايات المتحدة. انتهجها دي غول ضدها أو ضد بريطانيا العظمى، كان يرى أنها آخذة في الزوال، مع استلام حكومة براندت في ألمانيا الغربية، على أثر انتخابات أيلول، وكان المعروف عن براندت أنه يحبّذ انضمام بريطانيا العظمى في السوق المشتركة، وسياسته الجديدة نحو الشرق. أن الداهية السياسي، كان يعلن عن توجّه لألمانيا أكثر استقلالية وأكثر قومية. وكل هذا يجعل مشاركة بريطانيا العظمى تنال استحسان فرنسا. وهكذا ففي الثاني من شهر كانون الأول ١٩٦٩، عند اجتماع رؤساء حكومات البلدان الأعضاء في الجماعة الأوروبية الاقتصادية صدر إعلان بموافقة فرنسا، إن الجماعة كانت على استعداد لمفاوضة بريطانيا العظمى، والبحث في تعاون سياسي بنيّة امتدادها.

وهكذا ففي آخر العام، كانت الولايات المتحدة، تشهد تحقيق أحد الأهداف، التي كانت تسعى إليها منذ زمن بعيد، إيجاد وحدة أوروبية كبرى. وكنا نعتقد طيلة عشرين عاماً، أن هذه الوحدة، ستلطّف العلاقات الأطلسية، وستوصلها طبعاً إلى سياسات ترتبط بعضها ببعض، وستخفّف قسطاً كبيراً عن كاهلنا. وبالنسبة لي، ما اعتقدت أبداً، أن نتائج الاندماج الأوروبي، يحصل بهذه الصورة التلقائية. بالإضافة إلى أن أوروبا الموحّدة سياسياً توشك أن ترفع صوتها في مجالات عالمية أخرى أيضاً.

وفي الحادي عشر من شهر كانون الأول، عند اجتماع وزاري، أبديت ملاحظة، أن علينا الأخذ بعين الاعتبار مواقف أوروبية أكثر تحديداً، حول قضايا هامة كمفاوضات الشرق والغرب، وأيضاً الاتجاهات الائتمانية. ولم يكن مجدياً التعلق بمشاكل كهذه، لأنها كانت تعتبر بمثابة ثمن النجاح. أن موقفنا الحكيم تجاه الوحدة الأوروبية، ساهم جدّيا في امتداد أفق بريطانيا العظمى. وان رفضنا الاشتراك في مشاحنات أوروبا الداخلية، عزّز العلاقات الأوروبية والعلاقات الأطلسية. وغني عن القول أن أنصار دور" الزعيم" الذي كانت تقوم به الولايات المتحدة وبصورة علنيّة سابقاً، لم يكن مرغوباً من قبل ما بقي لنا من أصدقاء. وجواباً على سؤال طرحه نيكسون بهذا الشأن كتبت له في التاسع والعشرين من كانون الأول:

"أن موقفنا المتفهم" نحو أوروبا، انتقد قليلاً من قبل هؤلاء الذين يعتقدون أنه يجب علينا اتباع سياسة الحكومة السابقة، والمساهمة الفعلية بشؤون أوروبا الداخلية، انطلاقاً من المبادئ التي حدّدناها ومن جهة أو أخرى، فإنه لا يزال في الحلف الأطلسي مثقفون، وموظفون قدماء، وصحافيون، يجعلون الناس يصدقون أن في حال عدم دفع العجلة من قبل الولايات المتحدة، فإن حركة الاتحاد الأوروبي ستبطل، ولا سيما الآن حيث الخوف من الروس قد تقلّص للتمكن من إنعاشها.

وفي الواقع، فإن علاقاتنا مع أوروبا، قطعت شوطاً كبيراً من التقدم، خلال

رحلتكم إلى أوروبا، لقد أقمتم أساسات سياسية جديدة، ترتكز على تفهم متزايد في ما يطلبه الأوروبيون لأنفسهم، وتعزيز المحادثات الدائرة حول القضايا التي تهم أوروبا، وهذه السياسة الجديدة ظهرت مجدية وبصورة استثنائية.

❑ ❑ ❑

مع انتهاء عام ١٩٦٩، كانت شعوب منطقة الأطلسي، تتخبط في مشاكل داخلية، تغيير الحكومات وتفاقم الحالة الاقتصادية، ومعوقات الاندماج الأوروبي، إضافة إلى ذلك فإن كافة الدول الأوروبية كانت تتوقع ظهور تحدٍ جديد، وهو الجدل حول الأمن وسياسات الدفاع المشترك عن حلف شمال الأطلسي، وقد دار حوار طويل حول هذا الموضوع أو عقدت محادثات مطولة استندت وبصورة خاصة على ثلاثة مسائل.

أولاً: إعادة اعتبار شرعية إستراتيجية" الجواب المرن"، التي أقرها حلف شمال الأطلسي عام ١٩٦٧، بضغط أمريكي.

ثانياً: المشاركة بمسؤولية الدفاع الجماعي، بين أوروبا والولايات المتحدة وبدقة أكثر، التثبّت عما إذا كانت أوروبا لا تستطيع تقديم مجهود أكبر.

ثالثاً: التأكيد على أهمية القوى الأمريكية التي ستترابط في أوروبا. أن الاستراتيجية الرسمية،" للجواب المرن" كانت قد صححت إثر تحريض من وزير الدفاع، روبرت ماك نمارا، عندما انسحبت فرنسا، من القيادة الاندماجية لحلف شمال الأطلسي. وهي تقوم على اللجوء عند الاقتضاء إلى حرب عامة، إذا وجد ذلك ضرورياً، ولا يوصل إلى هذه النقطة إلا تدريجياً، سنبدأ باستخدام الأسلحة التقليدية لنصل منها إلى الأسلحة النووية بتدريج متميز، وعلى قدر أهمية التهديد وكان حلفاؤنا الأوروبيون قد استقبلوا هذه الاستراتيجية بامتعاض،إذ

أنهم كانوا يرون فيها، دلائل رفض متزايد من قبل الولايات المتحدة في سبيل استخدام أسلحتها النووية. وكانوا يخشون في الوقت ذاته أن هذا الرفض الجلي، في الالتجاء إلى حرب نووية، يدفع السوفيت إلى استغلال عدم توازن القوات التقليدية، وكانوا يخشون في الوقت ذاته أن الاستراتيجية التي تقلص حرباً نووية، هي ذاتها تشجع عدواناً تقليدياً.

وفي السابع عشر من شهر حزيران لعام ١٩٦٩، لفتّ انتباه الرئيس إلى ما يأتي:

"يظهر أن هناك عدداً من أعضاء حكومتنا، يعتقدون جازمين، أن ليس هناك، سوى علاقات غير وثيقة بين قواتنا الاستراتيجية والردع، وبين القدرة على مواجهة حرب تقليدية يبدو أن وجهة النظر هذه تستند إلى نتيجتين هامتين:

أ - أن قواتنا الاستراتيجية لا تستطيع الإسهام في إحباط هجوم تقليدي،إلا إذا كنا نملك قوة ضاربة وهو أمر لا يمكن تحقيقه.

ب ـ أن حرباً نووية تعبوية في أوروبا، ستنتهي حتماً إلى خسارتنا، السبب الذي يجعلنا لا نعتبر الأسلحة النووية التعبوية، كوسيلة توازن يضعف قواتنا التقليدية.

ومع ذلك، إذا كانت وجهات النظر هذه صحيحة، فإننا نجد أنفسنا أمام معضلة عديمة الحل، وإذا أصبح من الخطورة بمكان الالتجاء إلى قواتنا الاستراتيجية، وإذا كانت تعبوية تعني هزيمتنا، نكون قد تخلينا فعلاً عن دفاع صادق في أوروبا وفي الواقع، يمكن أن نؤكد إذا ما تم إضافة شعوب إلى أخرى فإنها حتماً ستماثل ثلاث مرات ما لدى الاتحاد السوفيتي، ويجدر بها أن تكون قادرة على تنظيم دفاع تقليدي ضد حلف وارسو. والمشكلة هي أن ولا واحد من أعضاء الحلف الأطلسي، حتى ولا الولايات المتحدّة، لديه استعداد للقيام ببذل أي جهد حقيقي، أضف إلى ذلك، فإنه لم

يكن هناك شيء يدعو إلى التصديق، أن البلدان الأوروبية على استعداد لبذل جهود خاصة، لتأمين دفاع تقليدي ثابت. أن هذه البلدان، كانت معرضة لضغط قومي يطالب بإلحاح بانفراج سياسي. وكانت عملية زيادة نفقات الدفاع بصورة كبيرة أقرب إلى المستحيل. غير أنهم كانوا على اقتناع، أن كل تنمية في قواهم التقليدية، ستؤدي حتماً إلى تقليص إضافي في التجهيزات الأمريكية. إن هذا حسب وجهة نظرهم، سينتهي إلى حماية نووية أقل، دون زيادة في وسائل الدفاع التقليدية.

هذا الأسلوب في التفكير، أدّى برئيس الوزراء ويلسون إلى التأكيد، عند زيارة نيكسون لأوروبا، أنه يناصر فكرة استراتيجية جديدة، في حال أن هذه الفكرة لا تتطلب زيادة هامة في موازنة الدفاع، وانطلاقاً من وجهة النظر هذه كان دي غول يقول: عدم تصديق توجّه سوفيتي نحو الغرب، أنه كان على اعتقاد أنه في حال ربح السوفيت الجولة الأولى، فإن الولايات المتحدة، ستضطر إلى استخدام كل قدراتها، بما فيها الأسلحة الاستراتيجية، لكي تتجنب خسارة أوروبا. كان يفضل عدم تنمية القوات التقليدية بل إيجاد قوة صغيرة استراتيجية، في حال عدم معرفة الولايات المتحدة أين تكون مصلحتها.

في عام ١٩٦٩، أخذت حكومة الولايات المتحدة على عاتقها إعادة النظر في استراتيجية حلف شمال الأطلسي. فاستنتجنا وبصورة خاصة أربعة حلول ممكنة:

- قوات رمزية أمريكية في أوروبا تكون مهمتها "ناقوس خطر".
- قوات دفاع تقليدية، لديها القدرة على تأمين دفاع غير نووي بحدود تسعين يوماً.
- دفاع ثابت، تقوم به قوات تقليدية، قادرة على الدفاع عن أوروبا بلا نهاية، ضد القوى النظامية في حلف وارسو، دون اللجوء إلى الأسلحة النووية.

■ دفاع تقليدي عام، يسمح لنا بمواجهة هجوم يشنّه حلف وارسو بجيش معبّأ جيداً.

أن تحليل هذه الاستراتيجيات أوضح بلا هواده ما كان علينا من واجبات،فقد رُفضت فكرة" ناقوس الخطر" لأنه يلزمنا وقت طويل لاتخاذ قرار خطير، كقرار إعلان حرب نووية، بالإضافة إلى ما يفرضه هذا القرار من انسحاب شامل للقوات، كان يربك حلفاءنا الأوروبيين، ولقد استبعدت أيضاً فكرة الدفاع الثابت، وقبل اجتماع مجلس الأمن القومي في العاشر من شهر أيلول، ذكْرت الرئيس، أن كافة الأجهزة الوزارية، باستثناء الأركان العامة المشتركة، كانت على اعتقاد أن حلفاءنا في حلف شمال الأطلسي، يعارضون هذه الاستراتيجية كونها كانت أمام نزاع أرضي طويل الأمد في أوروبا، وانه سوف ينقص من تصديق نيتنا، في استخدام قواتنا النووية للدفاع عن أوروبا. وكان هذا مصداقاً للحل الرابع، حول الدفاع العام. أن تحليل كلفة موازنة الحلول الأربعة، حدّد أيضاً خيارنا، ودفاع تقليدي ثابت مثلاً يحملنا على التخلي، سواء عن جميع برامجنا الجديدة القومية، أو فرض ضريبة بمقدار أربعة في المائة، في حال قبول الرئيس بالسير جيداً في حدود برامج التزم بها (إصلاح أسلوب الضمان الاجتماعي - توزيع الريع، النقل العام المدني).

وبسبب حساسية حلفائنا والتزامات الموازنة أجبرنا على الركون إلى استراتيجية الدفاع التقليدي لمدة تسعين يوماً ولقد دلّت أبحاثنا أن الولايات المتحدة ذاتها، فيما هي تطري مبدأ المقاومة والثبات لمدة تسعين يوماً، فهي تعلم أن هذه الفترة لا تسمح بتخزين الأجهزة اللازمة من كافة الأجناس. والحال أن قدرتنا على الثبات تتوقف على تخزين بسيط، وليس على رقم متوسط نظرياً، وعندما حاولنا إيصال هذا القول إلى البنتاغون فهمنا عندئذ وبخجل عظيم أن الأجهزة ستصلنا في أقصر مدة، مع عدة أنواع من العتاد الخاص، حتماً قبل انتهاء الأيام التسعين المحددة. وفي حال عدم وصول هذه الأسلحة. يصبح مستحيلاً أخذ مثيلاتها من

مدّخرات أحد الحلفاء، لإمداد حليف آخر، زد على ذلك، فإن ما من أحد يستطيع تقدير جاهزية الأسلحة، التي يمكن أن يتدّبرها المشتركون في حلف شمال الأطلسي، إذ أن كل حليف كان يحسب على هواه نسبة ما سوف يستهلكه. ومهما تكن الدلائل المثبته، فإن حلف شمال الأطلسي كان بعيداً، عن القدرة للوصول إلى تلك الأهداف التي أقدم هو على تثبيتها وعندها سنكون قد وقعنا في ورطة حقيقية.

حاولنا مثل أسلافنا، حلّ هذه المشاكل، بالتأكيد على حلفائنا لزيادة نفقات الدفاع، وتوقعاً لاجتماع لجنة تخطيط الدفاع في حلف شمال الأطلسي المتوقع انعقادها في الثامن والعشرين من شهر أيار، طالب ميل ليرد تفويضه بالضغط على حلفائنا، بزيادة مساهمتهم في حلف شمال الأطلسي، بمقدار أربعة في المائة كل عام وبصورة وسطية، ابتداء من عام ١٩٧١، حتى نهاية ١٩٧٥ ساندته في خطوته هذه، واقترن اقتراحه بموافقة نيكسون. ومع ذلك رفض حلفاؤنا أية نسبة مئوية ثابتة، كما رفضوا أيضاً الالتزام بإضافة معتدلة، دون تحديد الأساس الذي تحسب بموجبه طبعاً، ودون استراتيجية واقعية، ولا وسائل تطبيقها، فليس هناك حل عملي للمشكلة. ولليوم أيضاً فإنها لا تزال كما هي.

وفي الرابع عشر من شهر تشرين الثاني أبدى مانليو بروسيو، الأمين العام لحلف شمال الأطلسي خلال زيارته إلى واشنطن تشاؤمه، بنسبة زيادة القوات الأوروبية، في نفس الوقت الذي كانت فيه أمريكا تقلل تجهيزاتها. واعلن كذلك أن أعضاء الحلف، يفضلون إجراء مفاوضات حول تقليل تجهيزات متبادلة مع السوفيت. لأن الولايات المتحدة، ستنسحب بأية طريقة كانت، مؤكداً أن حلف شمال الأطلسي، يستطيع مقايضة هذه التخفيضات المبرمجة بتنازلات سوفيتية. وإذا أردنا الحقيقة، يجب أن نؤكد أن ليرد كان قد أصاب هدفه الرئيسي. لقد بعث الرعب في

قلوب فرقاء كثيرين من جماعات الناخبين، حتى أن ميزانيته قد نُزلت عن حدّها الأدنى. وكان لهذا على المدى الطويل تأثير إيجابي قوي على حلف شمال الأطلسي ودفاع الولايات المتحدة. غير أن ذلك، لم يسهّل عام ١٩٦٩، إعداد استراتيجية تقليدية وأوجد لنا الكثير من القلق مع حلفائنا.

كان ليرد قد لفت الانتباه حول مشكلة أساسية، فلم يكن عنده شك أن تقليص الميزانية يهدّد بتفويض سياستنا الخارجية، وفي الواقع، فإن المشاكل ذاتها، برزت للعيان في السنة التالية. ففي شهر حزيران من عام ١٩٧٠، فإن مشروع ميزانية تدريب عام ١٩٧٢ كان في حالة إعداد، وعُدّل اسم مكتب الميزانية إلى: مكتب التنظيم والميزانية، أو (O.M.B) الذي كان يقدّر ميزانية الدفاع بمبلغ ستة وسبعين مليار دولاراً. وبمساندة من قبلي، بدأ ليرد بمناوراته التي كان قد برع بها. وكان يقدّر أن تسعة وسبعين ملياراً كانت تحتل الحد الأدنى. ولو اضطرّ إلى حسم ثلاثة مليارات، كما كتب بذلك للرئيس فإن نتيجة ذلك سيشكل كارثة. أن الطريقة التي كان يستبق بها الحديث عن نتائج مريبة، فيما إذا لم يخصّص له رؤوس الأموال التي كان يطلبها لم يكن ليتراجع عنها، فإن أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه تّمرس بأحداث السنة الماضية. فقدّم لائحة تخفيضات رهيبة كان يطالب بتنفيذها ومن بينها يجب الأخذ بعين الاعتبار: خسارة أربع حاملة طائرات، وتسريح فرقتين من الجيش البرّي، وإهمال مائة وثلاثين إلى مائة وأربعين من أقدم مقاتلاتنا (B52) وإلغاء برامج تسليح هامّة أخرى.

ولإلقاء الضوء على الخيارات المختلفة الممكنة، وعلى نتائجها، دعوت إلى اجتماع للجنة إعادة النظر ببرامج الدفاع.

وجاءت القرارات معقّدة، نتيجة عدم قدرة أقسام الجيش المسلّحة على توحيد طلباتها بصورة متناغمة. ولما كانت ميزانية الدفاع هامة نسبياً، فإن كل قسم من أقسام الجيش، كان يكتفي بتمرير مشروعه المفضّل الذي كان يرتكز على ما هو

ممكن تحقيقه تقنياً. وعندما تقدّم كل رؤساء الأركان العامة بمشاريعهم التي تمّ الاتفاق عليها بينهم، طلبت من معاونيّ قائلاً: أريد تقريراً يوضح للرئيس "أنه إذا أقدم على هذا الأمر، تكون نتيجته كذا، وإذا كنّا لا نستطيع إحالة القدرة العسكرية السوفيتية إلى العدم. فما هو المستوى الذي يجب علينا تثبيته لقدراتنا الاستراتيجية. وما سوف يكون تأثير هذه المعطيات الجديدة، على دفاع البلدان الكائنة على حدود الاتحاد السوفيتي، باتجاه أوروبا، وهل يمكن تأسيس الدفاع عن هذه المناطق المحيطة بالاتحاد السوفيتي، على استراتيجية إفناء شعوبها المدنية؟ ففي الوقت الذي يفقد فيه التهديد الأمريكي بإعلان حرب نووية، قيمة تصديقه، عندئذ ستمارس علينا الضغوط القوية لتخفيض كل قواتنا الأخرى. أننا نخفّض حالياً قواتنا ذات الأهداف العامة، ونتخلّى عن دول مثل كوريا، فما هي الطريقة التي سندافع بها عن هذه الدول؟ أنه سؤال وجيه، يجب طرحه على الرئيس، ويجب عليه أن يعرف إلى أين نحن سائرون!

وفي سبيل إيضاح الأمور، تدبّرت لقاء بين نيكسون وهيئة الأركان المشتركة، في الثامن عشر من شهر آب عام ١٩٧٠. وجرى اللقاء ضمن الحدود التقليدية. فبيّن كل رئيس هيئة، أن الحصّة المخصّصة له في بنود الميزانية كانت تقابل الحد الأدنى المطلوب لتنفيذ مهمّته. وعالج كل رئيس هيئة، طبيعة هذه المهمة، وكأنها صادرة عنه شخصياً ولم يتكلّف بيانها. أما الرئيس فقد أبدى دهشته من هذه التناقضات، وعدم تقديم أي تفصيل تقني حول مطالبيهم، ووقع في حيرة كبرى، من صحّة المعلومات المقدّمة، وهل هي نافعة وتخدم القضيّة.

وفي اليوم التالي، المصادف التاسع عشر من شهر آب، عقد مجلس الأمن القومي جلسة، لتدقيق ميزانية الدفاع. فكانت المحادثات وجيزة، ولم تنته إلى شيء. فأدلى نيكسون بتصريحات، قاسية بمفهومها الفلسفي لكنها لا تمتّ إلى صلب

الميزانية بصلة، كان نيكسون يفكر بضرورة تقديم موازنة، ضعيفة، متحاشياً بذلك إجراء تخفيضات قاسية من قبل الكونغرس. وكانت نتيجة المباحثات فقط تخفيض أربعة مليارات ونصف من الدولارات بدلاً من ستة مليارات. أضف إلى ذلك فإن الكونغرس قلّص أيضاً ثلاثة مليارات.

فبيّنت قلقي من جراء ذلك للرئيس بالتقرير التالي:

"أننا نوشك على الانتهاء من الارتكاز على مبدأ الأخذ بالثأر وبصورة قويّة، بالرغم من غموض هذا المبدأ. في حين أن قواتنا يجب أن تكون محترمة على وجه العموم. يجب علينا تجهيز قوات نستطيع إيلاءها ثقتنا. يجب أن نكون على مستوى إظهار صورة صحيحة لقدرتنا تجاه الغريب، في حال أن حرباً نووية عامة لم تعد الآن ذات بال. أن قواتنا تمثلنا على وجه العموم لدى حلفائنا. أنها نقطة الاتصال والوجود الدائم".

وفي شهر تشرين الثاني، تقدّم ليرد بتقرير، يبيّن فيه قلقه هو أيضاً من التقليل الخطير في عدد قواتنا التقليدية.

إن إعادة النظر في أمر الدفاع، التي اقترحها مانليو بروسيو الأمين العام لحلف شمال الأطلسي، والتي تقوم على إعادة دراسة الحلف لقضية الدفاع بصورة يمكن من خلالها تأجيل انسحاب القوات الأمريكية، بالإضافة إلى تشجيع الأطلسي لإجراء مفاوضات مع الشرق حول تخفيض تبادل في قوات أوروبا الوسطى، والذي عرف بعد ذلك بـ(تخفيض القوات المتبادل والمتوازن) أو (M.B.F.R) شغلت الجزء الأكبر من عام ١٩٧٠. وفي هذا المجال، فإن التجمع الأوروبي كان عليه تحديد معايير جديدة غايتها تجهيز الدفاع. وهذا كان الجواب على انتقادات الكونغرس، في حين أن الأوروبيين ما كانوا ليعملوا شيئاً. ولقد حمّس نيكسون هذا المشروع مجدداً، في

رحلته عبر البحر الأبيض المتوسط عام ١٩٧٠. فالتقى رؤساء حلف شمال الأطلسي في نابولي وبيّن لهم ما يلي: أننا فهمنا من خلال عبارة" المساهمة في الحمل" ان هناك نفقات إضافية تفرضها أوروبا في سبيل الدفاع عن نفسها، لا أن تكون ضرائب مالية تفرضها الولايات المتحدة على نفسها لإنفاقها على القوات الموزعة في أوروبا. وإن الإعلان في أننا لا نريد أن يكون الأمريكان بمثابة إجراء للأوروبيين. كان نبيلاً وصحيحاً". ومع ذلك، فإن هذا لم يساعد ميل ليرد الذي كان يحاول بيأس إيجاد بعض التخفيف عن الموازنة، وكان يجاهد للمحافظة على قواتنا في حلف شمال الأطلسي، في نفس المستوى التي هي عليه، ولاتخاذ الأسس الكفيلة في تحديث ترسانتنا الاستراتيجية. لكن القضيّة لم تكن قضية تحديث حلف شمال الأطلسي، عندما تكون كل جهودنا لا تكفي بالكاد لاقناع الكونغرس بعدم اتخاذ قرار لتقليص قواتنا الموجودة في أوروبا..

ان موضوع الميزانية العسكرية، لم يترك أي مجال للريب، سواء بالنسبة للإدارة، التي كانت تمارس عليها ضغوط للرأي العام، والكونغرس بلا هوادة ولا رحمة. وبالحقيقة فإن الميزانية زادت بصورة جزئية بقيمتها الإسمية، لكن التضخم والمصاريف التي احدثها جيش المتطوعين، كان يخفض كثيراً من قيمتها الحقيقية. أن حلفاءنا لم يكونوا على استعداد لتعويض هذا النقص على أثر إعادة النظر في الدفاع، الذي قرر الأخذ به عام ١٩٧٠. وقرروا اتخاذ كل ما من شأنه إبعادهم عن أي التزام مالي حقيقي. وانتهت إعادة النظر في دفاع حلف شمال الأطلسي في شهر كانون الأول من عام ١٩٧٠، ووضعت نتائج هذه الدراسة تحت تصرف مجلس حلف شمال الأطلسي.

كانت هذه الدراسة توصي بمساهمة جماعية لإقامة منشآت لحلف شمال

الأطلسي (مرائب طائرات ـ ثكنات ـ ومنشآت أخرى عقارية) بمبلغ مائتين وأربعين مليون دولاراً موزعة على خمس سنوات، وتنمية القوى الوطنية، حتى يصل المبلغ إلى خمسمائة مليون دولاراً، وإجراءات مالية أخرى يجب أن تصل إلى تسعة وسبعين مليوناً من الدولارات. وهذه المبالغ مجتمعة تشكل ما يقرب من مليار دولار،يصرف من أصله مائتا مليون طيلة خمس سنوات. يمكن القول أن هذه الإضافات كانت توازي نصف واحد في المائة من ميزانية دفاعنا، وهذا مبلغ بخس جداً لينقذ المشكلة.وما نستطيع قوله، هو أن كل ما وصلنا إليه يقوّي الاتجاه نحو التخفيض.

وبصورة عامة، ان حلفائنا يتطلعون الى حدوث ما ليس بحسبانهم، في أن تصبح هذه التخفيضات متبادلة مع حلف وارسو، فكانوا يلحون علينا بإبقاء القوات الأمريكية في اوروبا، بانتظار نتيجة المفاوضات ويسعون في الوقت نفسه الى اجتناب نفقات جديدة، بحجّة ان اتفاقيات جديدة حول تحديد التسلح تجعلها لاغية. الأمر الذي دعا الى سلسلة من المشاكل. ولم أرى سبباً لاستخدام وسيلة تخفيض قوات متبادلة ومتوازنة. لوضع حد لتخفيضات جديدة أحادية الجانب من قبل الكونغرس. وفي المقابل، كنت قلقاً كما كنت في السنة التي سبقتها، من التعقيدات التي حدثت فيهما وعدم حدوث تقدم جوهري كنت أهدف اليه. فكتبت للرئيس: «لم نكن قادرين على تحديد كيفية اجراء تخفيضات في قوات متبادلة ومتوازنة، تحافظ او تعدّل في موقف حلف شمال الأطلسي العسكري، في حين ان تخفيضات قليلة متبادلة، كان يمكن ان يكون لها تأثير معاكس بسيط. ولم نكن ايضاً قادرين على تحديد أي ضغط إضافي، ممكن التفاوض بشأنه، وقابل لمنع تحريك وتعزيز قوى حلف وارسو، دون الاساءة الى حلف شمال الأطلسي، وعندما تطرّقنا الى مشاكل المراقبة، لم نصل سوى الى سطحها».

وفي ظروف كهذه، فان اجتماع مجلس الأمن القومي في التاسع عشر من شهر

تشرين الثاني لعام ١٩٧٠، الذي كان معداً لاعادة النظر في إستراتيجيّة حلف شمال الأطلسي. كان عليه أيضاً أخذ فكرة عن المعضلة التي تعالج. فأوجزت مجدداً المشكلة الإستراتيجية للرئيس بالمذكرة الإعلامية التالية:

«... يجب علينا نحن وحلفاؤنا، الابقاء على قوى تقليدية كافية، لمواجهة عدوان سوفيتي، أو تهديد تقوم به قوّاته، شريطة عدم اجراء أي تعديل في إستراتيجيّة وقوة حلف شمال الأطلسي، وبطريقة نتمكن بها من الرد علىأي طارئ، ونصبح كذلك نملك القوة على تحييد تدريجي لأوروبا الغربية. واذا أردنا اجتناب ذلك، علينا اتخاذ احتياطات قوية، للإبقاء على قوة حلف شمال الأطلسي التقليدية، ونثابر على إعداد استراتيجية خاصة بهذا الوضع الإستراتيجي الجديد.

إن الهجوم ضد نفقات الدفاع، على أثر حرب فيتنام، أجّل هذه الجهود حتى عام ١٩٧٤. وكان إجتماع مجلس الأمن القومي في التاسع عشر من شهر تشرين الثاني. أكثر دقة على غيرعادته، فلم يحدث فيه مناورات إدارية، وكان أهم مستشاري الرئيس على اتفاق تام، في المواضيع الأساسية. وانتهى الاجتماع الى اتخاذ قرارين هامّين:

١- تثبيت أكيد لإلتزاماتنا العسكرية في أوروبا.

٢- إعادة نظر حقيقية في مشكلة تخفيض متبادل في القوات وهكذا، وبالرغم من عدم احتوائه جميع المشاكل، فإن البرنامج الأوروبي لتنمية الدفاع، وصل الى أولى أهدافه. وفي شهر كانون الأول، عند إجتماع وزراء شؤون خارجية الحلف، تلا روجرز رسالة من قبل نيكسون كان يعلن فيها: انه أمام الجهود الجديدة التي تبذلها أوروبا في سبيل الدفاع عن نفسها، فإن الولايات المتحدة، ستبقى وتعزز قواتها في اوروبا، ولن تخفضها إلاّ في مجال المفاوضات الجارية مع الشرق بنية اجراء تخفيضات متبادلة.

واذا سلمنا في الوضع الحالي، كان يقصد باتخاذ اجراءات عاجلة وكافية، لاجتناب حلول كارثة عاجلة، لكنها غير كافية لمعالجة الوضع على المدى الطويل. اذا اراد الحلف المحافظة على قدرته، وأجبر على المفاوضات في سبيل تخفيض القوات مع عدو يعرف جيداً قيمة الضغوط الجارية لتخفيض احادي الجانب، ولم يصل الى الدور الحيوي الذي يريده، لا سيما اذا كان أساس قدراته غير متساوٍ. ولاعادة نظر عميقة، يجب انتظار نهاية حرب فيتنام، أعني إعادة تنظيم وحدتنا القومية.



كانت فكرة عقد مؤتمر حول الأمن الأوروبي واحدة من المطالبات الدائمة بين الشرق والغرب طيلة عشر سنوات ونصف. فخلال أعوام ١٩٥٠ اقترح الاتحاد السوفيتي إقامة هكذا فكرة أكثر من مرة، إلا أن هذه الاقتراحات كانت في كل مرة ترفض، لا لشيء إلا لأنها كانت تبدو وكأنها مناورة سياسية تهدف إلى منع تسلح ألمانيا وتنمية حلف شمال الأطلسي وأيضاً منع الولايات المتحدة من القيام بأي دور في أوروبا، مهما كان نوعه، لأن الاقتراح كان يستثني هذه باعتبارها غير أوروبية.

عندما استلم نيكسون مهام وظائفهِ، تغيّر هذا الطلب السياسي، ففي شهر تموز من عام ١٩٦٦، أصدرت دول حلف شمال الأطلسي إعلاناً حول مساندة السلام، والأمن في أوروبا وطالبت بعقد مؤتمر يبحث الأمن الأوروبي. وفي نيسان عام ١٩٦٧، تقدم بطلب مماثل مؤتمر الأحزاب الشيوعية الأوروبية. وفي شهر كانون الأول من عام ١٩٦٧، وجدت الحكومات الغربية نفسها تواجه ضغوطاً وطنية لتخفيف المعارضة التي أظهرتها حتى الآن في سبيل هذه الفكرة.

عزّز العناد السوفيتي رغبة قومية في إنهاء الحرب الباردة، وذلك بسبب الخيبة

التي سببها الوضع في فيتنام إضافة إلى أن وجود الولايات المتحدة ضمن الحلف أصبح موضع تساؤل، وأخذ الرأي العام بتوجيه البلدان المتحالفة نحو إيجاد وسائل تضمن أمنهم. ولما كانت الولايات المتحدة تبدي رغبة في الانسحاب من أوروبا، فإن مبدأ التقليص المتبادل أصبح مرغوباً فيه. أن هذه التقليصات كانت في نظر البعض ضرورية في حد ذاتها، وهي الوسيلة الوحيدة في نظر الآخرين سواء لإيقاف أو أحداث توازن في الانسحاب الأحادي الجانب من قبل أمريكا، التي كانت مضطرة لذلك بسبب الاضطرابات الداخلية.

وفي السابع عشر من آذار عام ١٩٦٩، اقترحت دول حلف وارسو المجتمعة في بودابست، وبصورة رسمية، افتتاحاً عاجلاً لمؤتمر أمن أوروبي. وكانوا يطالبون بإجراء اتصالات سياسية، واقتصادية وثقافية أكثر تقدماً، والاعتراف بسلامة الحدود، ولا سيما حدود الأودر ونايس (بين ألمانيا الشرقية وبولونيا) وكذلك الحدود بين الدولتين الألمانيتين، ورفض تمثيل ألمانيا الاتحادية كافة الشعب الألماني، والاعتراف بفصل برلين الغربية عن الجمهورية الاتحادية. وبالاختصار فإن هذا كان البرنامج العام الذي وضعه السوفيت للتنفيذ في أوروبا ممثلاً بشعاره: تعزيز الأمن الأوروبي.

وفي الثالث من شهر نيسان، أوصل دوبرينين اقتراح حلف وارسو إلى البيت الأبيض عن طريق التسلسل، منسّقاً إياه بطريقة لبقة. قال لي ولأول مرة، أن الاتحاد السوفيتي، لا يرى مانعاً في أن الولايات المتحدة، تساهم بفعاليته، فيما كان يسمى الآن" المؤتمر الأوروبي" ولفت انتباهي أيضاً ، إلى أن إعلان بودابست، لم يُعر اهتماماً للمطالبات السابقة، في حلّ برامج تحالف البلدان الأوروبية، وبمقولة أخرى، فإن موسكو تقبل وبطيبة خاطر الاستمرار بحلف شمال الأطلسي.

لم يكن لديّ استعداد لقبول التراجع، فكتبت للرئيس في الرابع من شهر نيسان،

مشيراً إلى أن من يريد التقدّم رسمياً بحلول للمشاكل الأوروبية،عليه أن يعرف أن الولايات المتحدة هي طرف رئيسي، ولن نفسح مجالاً للسوفيت، بالاعتقاد أن قبولهم بحقيقة ثابتة كهذه هو بمثابة فضل ومنّة.

ومع ذلك فان لهجة السوفيت المتساهلة ولو ظاهرياً، أثارت حماساً قوياً ضمن الحلف. خلال مأتم ايزنهاور في واشنطن، فإن ماريانو رومر الذي كان حينذاك رئيس وزراء، صرّح لنيكسون، انه بالرغم من الطبيعة الدعائية للإقتراحات السوفيتية، فإن الوضع السياسي في ايطاليا يستدعي ردّ فعل سريع. وإضفاء تَبِعة هامة وبسرعة الى مناورة دعائية ليس بالأمر اليسير. وتجنّب الإنزلاق في منحدر هو صعب أيضاً. ان براندت كان يحبّذ مؤتمر أمن أوروبي، لسبب غريب، يُضفي عليه الشرعية وجود الولايات المتحدة كما كان يدّعي. اما بومبيدو فكان يرى في ذلك وسيلة تجنّب تساهلات المانية منفردة نحو الشرق، وحصرها في إطار جماعي. أم الزعماء البريطانيون، فكانوا يعتقدون أنها تستطيع تجاوز الحرب الباردة.

أن رفضاً صريحاً للعرض السوفيتي، في ظروف كهذه، يعزلنا حتى ضمن حلف شمال الأطلسي، وهذا ما صارحت به الرئيس. إذ كان علينا على الأقل تعليق موافقتنا المبدئية، على التقدم الممكن تحقيقه في المشاكل الأوروبية الحالية، ولا سيما في موضوع برلين، وفي الثامن من شهر نيسان، تقدمت بتقرير قلت فيه:

"دون هذا التقدّم المطلوب، فإن المؤتمر يجري طبعاً بين بلدان أوروبا الشرقية، المتفقة ضمناً مع الموقف السوفيتي الصلب، وبلدان أوروبا الغربية، التي تبدي كل يقظة ومهارة للخروج من المأزق. أن هذا سيكلّف حتماً، تأجيل قرار يتوقّع اتخاذه لحل المشاكل الواقعية، وعلى ما يمكن الاتفاق عليه ضمن حلف شمال الأطلسي، لنتمكن من تحديد وبصورة مؤتلفة الوضع الغربي لهذه المشاكل".

وهذا ما أصبح، موضوع الولايات المتحدة، الذي اتفق عليه في الاجتماع الوزاري لحلف شمال الأطلسي في شهر نيسان من عام ١٩٦٩.

أن الأمن الأوروبي وضع إذاً بهدوء وبخطوات ثابتة ودقيقة. ولا يمكن اتخاذ أي إجراء خاص، قبل الاجتماع القادم لوزراء حلف شمال الأطلسي، المتوقع في شهر كانون الأول. وارتبط موضوع عقد المؤتمر بمشاكل أخرى، وكانت ضرورة المساهمة الأمريكية من صلب هذه المواضيع. وكان المؤتمر يتطلّب تقدماً مسبقاً للقضية الألمانية.

لكن، بعد أن يعقد المؤتمر، فإن التصريحات الدبلوماسية، لا يمكن اتخاذها بمجرد إصدار تصريحات بسيطة، لا سيما إذا كانت صادرة عن مكتب مستشار الشؤون الأمنية، الكائن في أقبية البيت الأبيض. وتتطلب السياسة السليمة التمييز بين الأدلة المتكاثرة، كما تتطلب اعتناءً كبيراً لتصنيف المبادرات الشخصية في استراتيجية متوافقة. إن المشاكل السياسية، تظهر نادراً بأشكال سوداء أو بيضاء، وغالباً ما يتوقف حلّها، على تعدّد أشكال ترجمة الحلول، وتبدأ المبادرات الهامة بتغييرات طفيفة وبسيطة، لا يظهر تأثيرها إلا عند طرحها ثانية في المستقبل، فلا شيء يدعو للدهشة، أكثر من أن مؤتمر الأمن الأوروبي، أثار نفس مشاكل الترابط، وفلسفة العلاقات بين الشرق والغرب، التي سبّبت انقسام حكومتنا منذ البداية. أن الوضع في البيت الأبيض كان يقوم على جعل ترابط بين مساهمتنا في المؤتمر، وبين تساهلات سوفيتية حول برلين، والمفاوضات الألمانية. كانت وزارة الشؤون الخارجية ترى في عقد مؤتمر أمني، مناسبة اجتماع لا تخرج بأي نتائج هامة حقيقية، سواء في مجال التقليص المتبادل للقوات، أو في مجال مبادىء التعايش. أن هذه الوزارة كانت تعارض بشكل صريح وحسب عادتها، إقامة رباط بين الأمن والمشاكل الأخرى.

وفي غضون ذلك، جاء دوبرينين ليقترح من قبل بلدان حلف وارسو أن مؤتمر

الأمن الأوروبي، سيجتمع في النصف الأول من عام ١٩٧٠ مع توقيت من نقطتين: عدم الخضوع للتهديد، أو استخدام القوة في العلاقات القائمة بين الدول الأوروبية. فاعترضت على التاريخ المحدّد وعلى جدول الأعمال. أننا لا نتمكن من قبول تحديد تاريخ، طالما أن المفاوضات الأخرى لم تبدأ، لا سيما بخصوص برلين. كما أننا لا نتمكن من السماح للسوفيت، بإجبارنا على الاعتراف بالوضع الراهن في أوروبا، طالما أن سياسة بون لم تحدّد بعد. لقد كان من واجب بون وليس من واجبنا القبول بمسؤولية تقسيم ألمانيا. أضف إلى ذلك، فإذه من المستحيل تنمية التبادل التجاري والتقني، ما دامت الضغوط قائمة. فأصدر الرئيس تعليماته بهذا الخصوص.

وبكل إرتياح، تقدّم روجرز الى الرئيس بالتقرير التالي، بمناسبة الاجتماع الوزاري لحلف شمال الأطلسي في شهر كانون الأول:

«فيما يتعلق بمؤتمر الأمن الأوروبي، والعلاقات بين الشرق والغرب، فقد نجحنا في إتخاذ موقف واقعي ولبق بالنسبة لحلف شمال الأطلسي، وطالبنا بالحصول علىمعلومات أوفر، والاستعداد للحصول على نتائج أحسن قبل ذهابنا للاشتراك في المؤتمر، وحصلنا على موافقة الحلف على المبادلات التي سيتخذها حلف شمال الأطلسي تجاه أوروبا الشرقية، ومنها الإستعداد لوضع جماعي حول مشكلة تقليص القوات المتبادل والمتوازن، ومساندة الحلف للمبادرة التي لها علاقة بالمانيا وبرلين. وقد احتوينا الفرح الذي تملكنا حول عقد مؤتمر...».

كان مطلب الروس مؤتمراً حول الأمن الأوروبي. لكنهم لن يحصلوا عليه،إلا في حال اظهارهم تساهلاً اكثر، بالنسبة لبرلين، حيث كنا نملك حق استخدام الفيتو، طالما أننا قوة احتلال. أن دهاء سياسة براندت تميل بالرغم منّا، إلى تثبيت الوضع الحالي، لكن براندت، لن يستطيع إقرار اتفاق مع الاتحاد السوفيتي بواسطة برلمانه،

أو مع ألمانيا الشرقية، إلا إذا كان هذا الاتفاق يحسّن وضع برلين وإمكانية الوصول إليها. فلو حافظنا على رباطة جأشنا، نكون حينئذ قادرين على تشجيع إقامة الانفراج والتحكم بتنظيمه والاستجابة لمطالب حلفائنا الراغبين في تخفيف الضغوط والسير بمفاوضات محدّدة ومتكافئة مع أمننا.

❐ ❐ ❐

شهدت الفترة اللاحقة حضوراً مكثفاً لزعماء أوروبا الغربية في واشنطن، جاءوا تباعاً لرد زيارة الرئيس نيكسون لبلادهم في العام ١٩٦٩. أول الزائرين كان هارولد ويلسون والذي عقد مع نيكسون عدة مباحثات تناولت تداعيات إحداث مقاطعة بيافرا النيجرية، والتي كانت تسعى للانفصال عن الحكومة المركزية.

وخلال زيارة ويلسون، في كانون الثاني من عام ١٩٧٠، فإن الحرب الأهلية النيجرية، كانت تقترب من نهاية دامية. وكانت الحكومة المركزية تتأهب لسحق المقاطعة العاصية، ومصادر عديدة كانت تبرهن، أن هناك مليوناً ونصف من البشر يموتون جوعاً، بسبب نقص الإغاثة العاجلة وكانت الحكومة النيجرية تؤكد على أرسال المؤن عن طريقها. وهكذا استطاعت القوات الاتحادية إخضاع المقاطعة الثائرة وإخماد حركة الاستقلال.

كما شارك ويلسون خلال زيارته في أحدى اجتماعات مجلس الأمن القومي. أن اشتراكه هذا كان من قبيل رد المعروف الذي قام به ويلسون، لدى زيارة نيكسون إلى لندن في شهر شباط عام ١٩٦٩، إذ قد دعاه ويلسون لحضور اجتماع مجلس الوزراء البريطاني، وفعلاً كان هذان الحادثان دون معنى، لأنه لا يمكن إجراء أي نقاش هام بحضور غرباء سواء في أمريكا أو بريطانيا. وهذا شأن نيكسون عندما كان يبدي عدم

الرضا في حال عدم معرفته نتائج محادثات تجري وكان قد اختير ذلك اليوم لبحث السياسة الأوروبية من خلال سياسة الولايات المتحدة. والتحركات الإدارية التي سبقت الاجتماع، ظهرت أكثر إفادة من الاجتماع نفسه.

وطيلة عام، حاولت وجهاز معاونيّ أن نتأكد بواسطة مكتب الشؤون الخارجية للشؤون الأوروبية من الخيارات الماثلة في هذا المجال.إلاّ أن طلبنا رفض بقسوة، لأن الشؤون الخارجية كانت قد جعلت من السياسة الأوروبية مجالها الخاص، رافضة ان تقبل وبكل أسف، تقديم ما يأتيها من خيارات وامكانية تغيير سياستها.

وبعد عدّة شهور من التأجيل، بمناسبة حدوث مشاكل ثانوية، صدر أخيراً تقرير حكومي حول الخيارات الممكن الأخذ بها. ان هذه الخيارات لم تكن لتقدم للرئيس مستجدّات باهرة:

١- متابعة الاتجاه الحالي.

٢- الأخذ برأي تعزيز قدرة أوروبا. (أعني القبول بإنضمام بريطانيا العظمى إلى السوق المشتركة وإندماج أكثر شمولاً.

٣- التخلّي عن الإلتزام الأمريكي.

وكانت تلك المهارة التقليدية لدى الإدارة، بعدم وضع سوى خيار حقيقي أمام المسؤول، وهذا كان يوضع في التقدير الثاني للتمكن من التعرّف عليه بسهولة. فقلت مداعباً، ان احوالاً مشابهة، تجبر المسؤول على إجراء الخيار بين حرب نووية، أومتابعة سيرنا في الاتجاه الحالي، أو الاستسلام في آخر الأمر. إن الإدارة لم تكن توقع نفسها في ورطات في مثل هذه الأحوال. وفي الواقع فإن الخيارين الأول والثاني كانا متطابقين أن إتجاهنا الحالي نحو تعزيز قدرة أوروبا. وكان للتخلّي من الإلتزام الأمريكي، مفهوم منحطّ، فلا حكومتنا ولا أي بلد آخر من الحلفاء كان يحبّذ هذا

الأمر. وهكذا فان الفكرة المسبقة بالموافقة على مبدأ تعزيز قدرة أوروبا يجب ان تنال مجموع الآراء، فأعلن عندئذ نيكسون إعلانه الهام الجديد:

لم اتفق ابداً بالرأي مع هؤلاء الذين يعتقدون ان الولايات المتحدة لها حق مراقبة ما يجري في أوروبا. لقد بات من مصلحة الولايات المتحدة ان يكون لها مجتمع أوروبي قوي في اقتصاده وسياسيته وجيشه، وان يشمل هذا المملكة المتحدة أيضاً. لقد فضّلت دوماً ان تتصرّف أوروبا مستقلّة، متّبعة نفس الطريق الذي تسير بموجبه الولايات المتحدة. ان أوروبا سليمة، قوية ومستقلّة، لازمة ونافعة للتوازن العالمي. أما من جهة الولايات المتحدة فإن قيامها بدور متوازن في أوروبا لا يكون مجدياً، وان ما نريده، دولة تنافس بصداقة الولايات المتحدة.

وأعلن ويلسون بوضوح، للأعضاء الحاضرين في اجتماع مجلس الأمن القومي أن هذا كان نوعاً من البرمجة الحكومية الباهرة. فهل كان ذلك دليل تودّد من ويلسون لكل ما هو أمريكي، أو كان أحد التصاريح البريطانية الصرفة؟ ان كلمة مذهل كانت أقل ما يمكن قوله عن إجراءات تمثّل عدّة خيارات غير هامّة مبدئياً، والتي كانت تؤول بعد عدّة شهور إلى تحديد السياسة، وانضمام بريطانيا العظمى إلى أوروبا أكثر إندماجاً، والتي كانت تبحث منذ وقت طويل.

وقد ظهر سريعاً ان الأمور لم تكن بهذه البساطة. فإن تعزيز قدرة أوروبا، كانت تتطلب حتماً وعوداً سياسيّة. وكان يخشى ان تؤول إلى منافسة اقتصادية قوية معنا. وان تخلق ضغوطاً غير متوقعة، في البرامج الكبرى للسنوات ١٩٦٠. ولكن في هذه الفترة، التي ترك فيها هارولد ويلسون وظائفه. فنادى في شهر حزيران إلى انتخابات. كان يعتقد الفوز فيها، مثل العديد من موظفينا بإستثناء نيكسون، الذي كان سبق فبشّر بانتصار هيث كما أدخل في فكر شركائه على الأثر كم كان حادّ الذهن.

وفي نهاية شهر شباط زارنا جورج بومبيدو، حيث أعطت الزيارة رغم حجم التعقيد الكبير الذي كان يرافقها، والذي يعكس حالة الخصومة التي كانت سائدة بين البلدين إبان حكم دي غول، كامل النجاح الذي كان يقدر لزيارة وارث التقليد الدي غولي، علماً أنه لم يكن هناك قضايا تتطلب حلاً. كانت المحادثات وديّة وكانت رؤى الزعيمان متشابهة حول أوروبا وحلف الأطلسي، إذ لم نقل عن الانفراج السياسي. لقد اتخذت إجراءات عملية، في سبيل مشاورات مباشرة. ميشيل جوبرت، الذراع الأيمن لبومبيدو وأنا بذاتي سنجري هذه الاتصالات، كما عزم الزعيمان على المباشرة بمحادثات ثنائية عسكرية على مستوى هيئات الأركان. أن الأمر الوحيد المزعج كان حادث شيكاغو، حيث تضايق بومبيدو وعقيلته من المتظاهرين الذين كانوا يعارضون بيع طائرات فرنسية إلى ليبيا. وكاد بومبيدو يلغي حينذاك باقي مواعيد سفره. فلم يطمئن باله إلاّ بصعوبة كبرى لا سيما عندما أعلن نيكسون أنه سيحضر حفلة العشاء التي ستقام على شرفه في نيويورك.

أن التاريخ تصنعه أحياناً أشياء جزئية. وهذا الحادث عزّز انطباعات بومبيدو المتناقضة نحو الولايات المتحدة. فبقي في المجال الثقافي مرتبطاً بعلاقات ودية، ولكن في المجال العاطفي فإنه ما فتئ يعتبر حادث شيكاغو بمثابة إهانة لفرنسا، ونقص تهذيب كبير بالنسبة لعقيلته. وخلال آلام سنته الأخيرة (إذ أنه كان على وشك الموت بسبب ما كان يعاني من السرطان)، كان على هذه الشكوى العاطفية أن تقوّي جميع أهدافه الهامة التي كان يحدّدها لعام أوروبا وتحيي المضايقات التي توسّعت كثيراً بتحريض من جوبرت. ومن عضو في الحكومة، أصبح جوبرت وزيراً للشؤون الخارجية، مجتازاً هكذا مرحلة مساعد لا يؤخذ برأيه إلى مقام خطيب مفوّه لسياسة التحالف.

بعد ذلك وفي شهر نيسان من عام ١٩٧٠ قدم إلى واشنطن ويلّي براندت فقدّم له

احترام غير عادي، ووضع نيكسون تحت تصرّفه مسكنه الرئاسي في كامب ديفيد، ليتمكن من الاستجمام قبل البدء بالمحادثات الرسمية. ولما أصبحت لدينا تقاليد جديدة، فقد تناولت الغذاء مع براندت في كامب ديفيد، لإبلاغه مسبقاً موقف الرئيس، ولأتمكن من سبرغور أفكاره.

استقبلني براندت، مرتدياً رداء البحرية الأزرق حاملاً اسمه، وأيضاً الشارة الرئاسية، التي كانت تقدّم عادة إلى زوار البيوت الرئاسية. كان شديد الإعجاب بهذه الدعوة إلى كامب ديفيد وكذلك من كرّم الضيافة في المقر الرئاسي، وكان يبدي ثقة كبرى والكثير من طيبة القلب،لكنه كان قلقاً بوضوح من ردّ فعلنا على سياسته.

فبعثت في نفسه الطمأنينة وبيّنت له أننا لن نحاول التدخل في مبادئه الأساسية، كما أننا لن نشجّع أية إستراتيجية في سبيل مفاوضات خاصّة، وسنمتنع كذلك عن كل تعليق حول نقاط معيّنة من المباحثات التي يجريها. لأجل ذلك، فإن كل مسؤولية محادثاته واقعة عليه، ولن نتدخل بمناقشات قومية ألمانية، لا من هذا الجانب ولا على الجانب الآخر،سنساند أهداف براندت، ونلتزم الصمت حول جميع طرق مفاوضات براندت، وسنشجّعه على أخذ رأي حلفائه ونسدي إليه نصحاً بعدم إثارة آمال مفرطة،أضف إلى ذلك، فإننا نوافقه على آرائه. وهذا أحسن ضمان له ضد الأخطار الكامنة من جرّاء سياسة قوميّة صرفه. فابتهجت نفس براندت كثيراً.

جرى لقاء براندت ـ نيكسون في جوّ ودّي عجيب، ونستطيع القول إذا قدّرنا الأمور حقّ قدرها، أن لا هذا ولا ذاك كان يسعى للقاء الآخر المفاجىء. لو لم يؤتهما القدر حكم شعبين عظيمين. أن نيكسون كان يخشى وبصورة طبيعية كل هؤلاء الذين يعتبرونه مسايراً لليسار، وكان صمت براندت الطويل يزعجه. لقد أصلح نيكسون بعض الشيء من حماقته، عند الانتخابات الألمانية، معلناً وبدعابة، خلال حفل عشاء،

أن جميع مكالماته الهاتفية، ستمرّ من الآن فصاعداً بعمّال هاتف البيت الأبيض، لأنه هو بنفسه قام بتركيب رقم خطأ، مساء الانتخابات، لكن براندت غادر واشنطن حائزاً على توقيع على بياض تجاه سياسته العامة.

فكتب براندت في مذكراته، أن الرئيس وأنا نفسي، لم نتفهم معطيات أحد تصريحاته المهمة، وكان يقصد: أن الاقتراح السوفيتي بإقامة مؤتمر حول الضمان الأوروبي، كان يمثل ارتباطاً جديداً مع أوروبا، غير مرتكز لا على حقوق قانونية، أكسبته أياها الحرب الأخيرة، ولا على الحلف الوحيد لشمال الأطلسي. لقد خدع نفسه، إذ قد فهمنا نحن جيداً. ولم نكن فقط على اقتناع من أهمية هذا الإعلان، وقد رأينا عدم إثارته. أن حدّة المؤتمر حول الأمن الأوروبي، كانت تتوقف على مساهمة الاتحاد السوفيتي حول المشاكل الجوهرية، لكننا كنّا نجدها خطيرة تلك الفكرة التي يوافقون بها، وهذا كان لا غنى عنه لتعديل دورنا في أوروبا. وبالنسبة لنا فإن مؤتمراً للوحدة الأوروبية، يجب أن يتحقق ضمن أسس مختلفة جداً.

أن زيارات الزعماء الأوروبيين الثلاثة إلى واشنطن، أوضحت واقع الخطوط العريضة التقليدية للسياسة الأوروبية، والتي أخذت تتأكد مجدداً. وكان الأنكليز قد بيّنوا لنيكسون استطاعتهم في استعادة دورهم التاريخي في توازن قدرات المنطقة. وكان الفرنسيون يؤيدون قولهم، بضرورة الإبقاء على الطريق مفتوحاً نحو موسكو لمراقبة العلاقات الألمانية ـ السوفيتية. وألمانيا وفرنسا أثر محادثات في واشنطن، كانتا تتقاربان من بريطانيا العظمى، وكل منهما كانت لديها أسباب قومية أساسية وكان ينتج من ذلك موافقة على انضمام بريطانيا العظمى إلى السوق المشتركة. لكن هذه النظرية وشيكة الوقوع. كانتِ تجعلنا ولأول مرة أمام تورّط كنا نحن بأنفسنا سبباً له.

❐ ❐ ❐

في الوقت الذي كانت تنتقل فيه المجموعة الاوروبية الموسعة، من النظرية الى التطبيق، بدا واضحاً ان النظريات كانت أقرب ما يكون إلى المثالية. وإنها قد رسمت الواقع برؤية في غاية البساطة. فواقعاً ان بناء أوروبا موحدة وقوية إقتصادياً، قد يبدو أمراً أوروبياً، ويجب ان تدفع ثمن ذلك الدول المنضوية تحت ذلك الشعار. إلاّ أن الوحدة الجمركية الأوروبية، وتحديد الصادرات الأمريكية، والمنافسة القوية معنا في أقسام مختلفة من العالم، أوجد عندنا حالة من الإضطراب أدت إلى أن يكون ملف العلاقات الأطلسية الشغل الشاغل لمناقشات وحوارات حكومتنا، فأمرت في ربيع عام ١٩٧٠ بإجراء تدقيق وزاري رسمي للعلاقات الأطلسية.

عندما جاء الخريف، كانت المخاوف بسبب توسّع الجماعة الأوروبية قد أخذت تثير معارضين، ولا سيما في مصالحنا الإقتصادية. ان وزارات المالية والتجارة والزراعة، وهي التي تتابع نقطة فنقطة، الطريقة التي نظّمها البنتاغون، قامت بتحقيق سيّء، عرضت فيه نتائج توسيع السوق المشتركة بضم بريطانيا العظمى والنرويج اليها (وهو موضوع كان لا يزال حتى ذلك الوقت قيد الدراسة) وفي الواقع فان تلك الوزارات كانت ترى السوق المشتركة، وكأنها غول إقتصادي، في طريقه إلى السيطرة على التجارة العالمية، والإتفاقات النقدية، بإستثناء المنتجات الزراعية والصناعية الأمريكية. وسيبسط مخالبه تدريجياً نحو العالم الثالث. وتولّد هذا الخوف الأخير بسبب الاتفاقات التمييزية، التي بفضلها يحق للشعوب المشتركة في السوق المشتركة، إقامة علاقات تجارية خاصة واستثنائية مع جيرانها من جوار البحر الأبيض المتوسط، ومستعمراتهم القديمة. وفي حال انضمام جميع المستعمرات البريطانية القديمة، إلى هذه الشبكة الحالية من الاتفاقات التجارية فقد يصبح الخطر كبيراً، وجاء في دراسة أعدت خصيصاً لمجلس الأمن القومي ما يلي:

«سنجد أنفسنا وعلى المدى الطويل، وجهاً لوجه أمام «أوروبا موسعّة» مكوّنة من سوق مشتركة، من عشرة أعضاء على الأقل بحصة كاملة، مع بلاد محايدة من "A.E.L.E." تجمع أوروبي للتبادل الحر، يقيم علاقات تجارية متميزة مع بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، والقسم الأكبر من أفريقيا، سيؤمّن هذا التجمع ، نصف التجارة العالمية، في حين ان مساهمتنا مع هذا التجمع لا تتجاوز ١٥٪. وسيمتلك هذا التجمع احتياطاً نقدياً، يساوي ضعف ما لدينا تقريباً. ويصبح قادراً في الوقت نفسه، على جعلنا وبصورة دائمة في رتبة الأقلية ضمن التنظيمات الاقتصادية الدولية».

وتضاعف سخط المهتمين بالمصالح الاقتصادية أمام فقرة من تقرير رئاسي حول السياسة الخارجية صدر في شهر شباط من عام ١٩٧٠. وبالنسبة للذين لم يشتركوا في كتابة هذا التقرير، كانت هذه الفقرة تعطي الضوء الأخضر للقومية الأوروبية الإقتصادية.

«إن مساندتنا في تقوية وتوسيع الجماعة الأوروربية لم تتضاءَل. اننا نعلم ان مصالحنا ستؤثر بالضرورة على تطور أوروبا، وربما لزمنا تقديم تضحيات في سبيل المصلحة العامة. إننا نعتبر ان العقوبات الاقتصادية، التي سنُجبر على معاناتها من واقع توحيد أوروبا، قد تتكافأ بتجديد حيوية الغرب السياسية، عند النظر إليها مجتمعة».

إن وزارة المالية، وغيرها من المصالح الأخرى، كانت تعتقد أن مقطع هذا التقرير، يشجع الضغوط الإقتصادية الأوروبية ضدّنا. ولكن هذا غير جائز من قبل الحكومة ان تحدد سياسة قابلة لإستقطاب الغضب الأمريكي، هذه الجملة المبهمة، فتحت الباب واسعاً أمام مناقشة وزارية نافعة جداً. وما كانت تتطلبه وتقترحه المصالح الإقتصادية بصورة رسميّة، عند عقد الاجتماع الوزاري في الثالث عشر من

شهر أيار، هو إعادة تفسير رسمي للتقرير الرئاسي. وفي الواقع صدر تصريح ضد مبدأ المفاضلات وربما ضدّ مبدأ الجماعة الأوروبية، ان المصالح الإقتصادية كانت تؤكد علينا الاستفادة من المفاوضات القادمة حول إنضمام بريطانيا العظمى الى السوق المشتركة لفتح باب المناقشات.

إن وزراة الشؤون الخارجية (التي لم يكن عندها شعور قوي للدفاع عن تقرير نظّمه جهاز عملي وانا بنفسي) غير انها تشككت من هذا التطاول على إحدى ميزات السياسة الخارجية الأمريكية. ان توسع وإندماج المجموعة الأوروبية المستقبلي، كان يشغلنا، وكنا نتابع خطاه أحياناً ولا سيما في الأعوام ١٩٦٠، بحرارة تفوق ما لدى الأوروبين أنفسهم. ان السياسة نحو أوروبا كانت المجال المسلّم به بالنسبة للمكتب الأوروبي للشؤون الخارجية، وكانت تستبعد كل حل يهم بريطانيا العظمى ما عدا دخولها في السوق الأوروبية. أما الآن وقد أصبح تحقيق ذلك قريباً، فقد أصبح في الوقت نفسه موضوع تساؤل، لا من قبل فرنسي ذي منصب ولكن من قبل أناس آخرين كانوا يفكرون في ذلك داخل حكومة الولايات المتحدة، والذين كانوا يهدّدون ليس فقط تفوقها السياسي بل أيضاً تفوقها الإداري، لقد دافع المكتب الأوروبي بوسائله القديمة عن التأجيل والمماحكة. وجرت مناقشة طيلة ساعات لمعرفة ما كان يقصدة التقرير الوزاري، حول قبول بريطانيا العظمى، وهل يمكن أن يسبّب مع الإندماج الأوروبي مشاكل جديدة. تجادلت الشؤون الخارجية طويلاً، حول تقدير مجموع النتائج الاقتصادية السلبيّة التي يؤدي إليها توسّع المجموعة. وكانت الشؤون الخارجية تخشى ان المعارضة الأمريكية تجعل من بريطانيا العظمى كبش المحرقة بعدم إنضمامها في حال فشل المفاوضات لسبب أو لآخر.

ومع ذلك، وفي حال اعطائنا بعض الحق لوزارة الشؤون الخارجية في بعض تصرفاتها، فلا يغيب عن بالنا أنها كانت تتناسى حقائق سياسية ولا سيما عام

انتخاب الكونغرس. وكانت هذه الوزارة تخشى كعادتها، ان ترى نفسها متهمة في نهاية المطاف، بالضعف في الدفاع عن المصالح الأمريكية ووجد الكونغرس في اجتهاد قانوني، تعبيراً مميزاً، وخاصاً بأوروبا واليابان، وكان لهذا التعبير مناصر عنيد وذو نفوذ كبير رئيس لجنة ميزانية مجلس النواب ويلبور ميللر.لقد وضع هذا القانون حواجز كبرى احترازية، ضد بعض الواردات، وخصوصاً تلك التي تدخل في نطاق المنسوجات والأحذية. وخلال صيف وخريف عام ١٩٧٠، كانت تهدّدنا حرب تجارية. ان بلدان السوق المشتركة سترّد علينا طبعاً بإغلاق حدودها لصادراتنا من المنتجات الزراعية. وفي الثاني من شهر تموز، حذر بول ماك كراكن الرئيس من الخطر وطلب اليه التوسط لدى ميللر.

وكنت على اتفاق كبير مع ماك كراكن، والشؤون الخارجية، اذ لم يخطر ببالي أبداً، ان أوروبا الموحدة تسارع وبصورة تلقائية الى تخفيف أثقالنا. لقد قمنا، حسب وجهة نظري، بخيار إستراتيجي من جانب واحد، في الأعوام ١٩٥٠ و ١٩٦٠. بترغيبنا للإتحاد الإقتصادي الأوروبي، وفتحنا لأوروبا مجالاً واسعاً يمكّنها ان تصبح منافستنا. وأهملنا تشكيل جماعة أوروبية في مجال الدفاع. على الأقل عند فشل المشروع الأساسي عام ١٩٥٤. لقد أخطأنا بتقدير الأبعاد، التي كان يمكن لمصالحنا الأطلسية ان تتزامن. ومع ذلك كنت أفضل الوحدة الأوروبية، بشكل أو بآخر، من مجموعة مختلفة وشعوب متخاصمة، حتى أن ضعف قدرتها تؤدي بها آجلاً أو عاجلاً إلى عدم الإهتمام بالسياسة الخارجية، وتصبح بالتالي حيادية، وان لم يكن ذلك في الأمور الرسمية، فيكون ذلك علىالأقل في أعمالها. فلم نكن قادرين علىالمغامرة بتخريب الوحدة الأوروبية، دون تهديم نفوذها السياسي، لأن جميع هذه الفرق مجتمعة كانت ساندت في أوروبا فكرة حلف أطلسي قوي. إن الاشتراك في أوروبا الغربية، وأكبر قسم من افريقيا، وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط مثل

إسبانيا والمغرب وتونس، دون المجيء على ذكر إسرائيل، كل هذا هو في مصلحة الغرب الجغراسياسية. ومنع إقامة علاقات بين هذه البلدان ذات الأهمية وأوروبا، يكون ضرباً آخر من الجنون السياسي.

وقدمت في الثلاثين من شهر حزيران تقريراً للرئيس، هاجمت فيه وبوضوح أهداف سياستنا الخارجية. وبفرضنا عقوبات على المنسوجات والأحذية، تتأثر جداً البلدان التي ترى نفسها في وضع داخلي حرج. وبالنسبة لأسبانيا، فإنها ستعطّل المفاوضات معنا حول اقامة قاعدة فيها، أما إيطاليا حيث كان الحزب الشيوعي يأخذ بالانتشار، فقد لا يكفينا الاعتماد على قرار رئاسي، يجب أيضاً إقتراح بديل. وفي المجال الدولي، اقترحت اجراء مفاوضات، نعرض بموجبها للمجموعة الأوروبية، ما ينتابنا من قلق. كما اقترحت في المجال الداخلي اقامة طريقة عمل، تسمح للمصالح الاقتصادية بتقديم وجهة نظرها للرئيس. كما ان لجنة معاوني الوزراء في مجلس الأمن القومي، سيضاف اليها ممثلون من المصالح الاقتصادية من المجموعة. وفي الحقيقة، أن هذا التنظيم سيسمح للمصالح الاقتصادية بالتغلّب على اعادة تفسير التقرير الرئاسي وكذلك القدرة علىمعالجة الاقتصاد، لأن الشؤون الخارجية سترأس اللجنة. أضف الى ذلك، فان الضرورة التي تقضي ببحث المشاكل أمام الرئيس، كان شرطاً تتمسك به المصالح الإقتصادية، التي يقلقها تسلّط الشؤون الخارجية، وهذا الأمر يوفر لي إمكانية التوسّط اذا لم تكن الكلمة النهاية، اذا اعترضتنا اعتبارات تنظيمية تجارية صرفة، وتهدّد بالتغلّب من جهتها على الشؤون الخارجية أيضاً.

أخذت الولايات المتحدة بإجراء مفاوضات مع المجموعة الأوروبية في العاشر من شهر تشرين الأول. وكان يرأس الوفد الأوروبي رالف داهرندورف: الماني غربي

ليبرالي. وفي الخامس عشر من شهر تشرين الأول، لما أجريت لقاء مع داهرندورف، أكد لي عظيم قلقه من بعض الاتجاهات في السياسة التجارية الأمريكية. وتبيّن لي ان تحليله لأبعاد الجماعة، لم يكن مطمئناً. وكان يتوقع داهرندورف إنضمام بريطانيا العظمى، لكن الجماعة حسب رأيه، لم تكن على رغبة في إتحاد سياسي. وسيكون الاندماج الاقتصادي هدفاً خاصاً بحد ذاته. وتبيّن من خلال ذلك، ان هذا ما كنت قد وصفته في الاجتماع الوزاري الذي انعقد في الثالث عشر من شهر أيار، انه أسوأ النتائج التي حصلنا عليها. واذا لم تعوَّض بتقدم في المجال السياسي، فان اندماجاً اقتصادياً مؤدياً الى منافسة قوية، مع رغبة في الأخذ بالثأر من قبل أمريكا، سيولّد الريبة في أفكار مناصري الحلف، من جهة ومن جهة أخرى في الحلف الأطلسي.

ان الضعف والجفاء في العلاقات بين الولايات المتحدة وأوروبا، ظهرت في ملاحظة، كتبت بصورة رديئة من قبل الرئيس على تقرير قدّمته له في الثالث عشر من شهر تشرين الثاني، لاطلاعه على المفاوضات مع المجموعة: «يا كيسنجر، يظهر اننا نعارض، لكننا لا نتقدم في اتصالاتنا مع المجموعة. ولدينا على ذلك مثال حقيقي في مجال الزراعة، بكل تأكيد، ان الكونغرس لن يتسامح أبداً بالموقف الإيجابي الذي يبديه ممثلونا في هذه المفاوضات». كان نيكسون بجانب الحلف الأطلسي، لكي لا يتوسّط في هذه المعركة المهدّمة. ولقد تباحث مع ويلبور ميللر دون نتيجة. ان الاتجاه الاحترازي كان قوياً، ولكن ذلك لم يحمل ميللر على القناعة، والاجراءات التجارية القمعية، بقيت تحت رحمة الكونغرس، طيلة فصل الصيف بكامله وكذلك خريف عام ١٩٧٠. وفي احدى الحالات، فأن الأغلبية الصامتة، كانت جدّ قلقة من الطريقة السيّئة التي تعامل بها أمريكا العالم. ان مفاوضاتنا التجارية مع العالم الأوروبي دامت مدة طويلة دون حصيلة طيلة ما يقارب العام، حتى اللحظة التي انهاها نيكسون ولو

بصورة وقتية، وأبطل هدفها الأساسي، بإقدامه على اتخاذ قرار قاسٍ في الخامس عشر من شهر آب لعام ١٩٧١ بفرض رسم اضافي مقداره ١٠٪ على كل الواردات، والغاء قابلية تبديل الدولار إلى ذهب، ومراقبة الأجور. وعندئذ حان البدء بالاتصالات الأولى، فقد أظهر الحلف الغربي ازدواجية في مجال الدفاع الجماعي، كما أبدى ريبة تامة في علاقاته مع الشرق، ولم يأخذ بأية فكرة اتحادية سوى في توسيع الجماعة الأوروبية، موجهاً اهتمامه نحو منافسة اقتصادية مع الولايات المتحدة ومع ذلك فان الاتصالات بين بلدان الحلف كانت تسمح لهذه البلدان تحديد مصالحها الجماعية بصورة واضحة وجلية. وبدأ الزعماء الغربيون في معالجة المشاكل الأساسية. لقد بدؤوا فعلاً بطرح الأسئلة الحقيقية، حتى ولو وجب عليهم الإنتظار الطويل لأخذ أجوبة موحدة ومحددة. ان الاتفاق بين الديمقراطيات هو في الأصل صعب الحصول عليه، مما لو كانت المحادثات تجري بين دول متسلطة.

الركـون

إلى

الأمن والاستقرار

الفصل العاشر

تداعيات حرب ممتدة

كان التفكير يسير دائماً باتجاه أن الظرف المناسب لإجراء مفاوضات، هو عندما تبدو الأمور وكأنها تسير بصورة جيدة. أن الخضوع والتسليم للضغوط يزيد في اشتدادها، واكتساب شهرة أننا قوة عظيمة في حين أننا على أهبة المغادرة، يدفع الفريق المعادي وبقوّة إلى تأجيل المفاوضات، فبقدر ما نحصل على التساهل برضى، فبقدر ذلك يكون التبادل ممكناً، ويسمح بالإبقاء على النفوذ محلياً، وفي كل المفاوضات التي أجريتها، حاولت دائماً استطلاع المخرج السهل، لأتمكن من الوصول إليه بمبادرتين أو ثلاث. أما الذين يفضّلون معالجة الأمور على مراحل قصيرة، بانتظار النتيجة النهائية، فأني أستطيع القول أن طريقتهم هذه لا تحقق سوى تهدئة خواطر الإدارة وإراحة الضمائر. لكن هذا يعطي انطباعاً للمبتدئين كأمر لا يمكن انتقاصه، لكنّه على العموم فاشل.

إن تقطيع (السجق) إلى شرائح رقيقة، يشجع العدو على البقاء متربّصاً، ليرى ما سوف تكون عليه الشريحة القادمة، لأنه غير متأكد أبداً أن خصمة سيذهب

إلى أبعد من ذلك، ولأجل هذا، فأني في كل مرة كنت أقوم بإجراء مفاوضات ـ وهي عديدة ـ كنت أفضّل البدء بمبادرات كبيرة، في الوقت الذي كانوا يتوقعون فيه القليل وحيث كانت الضغوط أقل، وكان عليّ أن أعطي انطباعاً أننا نتمسّك بموقفنا الجديد. ولقد اجتهدت دائماً إلا اتزحزح من جرّاء التهديد.

في شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٩، بدا موقفنا قوياً على خلاف ما كان عليه منذ بداية حكم نيكسون.لقد ثبتنا أمام هجوم عسكري من هانوي وأمام الموراتوريوم، لقد أوضح الرئيس القضيّة للشعب، وحصل على أثر ذلك مساندة هامّة. وفي شهر تشرين الثاني، ولأسباب شخصيّة، استقال هنري كابوت لودج، من منصبه كسفير في محادثات باريس، فرفض نيكسون تعيين بديل له، ليظهر عدم رضاه من بطء المفاوضات، وكان رأي هانوي في هذا الموضع أنه مؤشر على نيتنا لإعادة القصف، الذي كان إيقافه مرتبطاً ببدء المفاوضات. وهي (هانوي) التي أعاقت طيلة عام محادثات باريس، أخذت تطالب حالياً تسمية مفاوض آخر ذي شخصيّة. واقترحت على نيكسون الاستفادة من هذا الظرف لمحاولة العودة إلى المفاوضات السرية. وإذا رفضوا المحادثات، فإن هذا يرتدّ ضدّهم، عندما نعلن ذلك. وإذا كانت هانوي على استعداد لإجراء اتفاق، وهذا ما كنت أشكك فيه، فإن المفاوضات السرية وحدها كفيلة بتعريفنا به. وعلى أية حال، إذا كانت استعدادتنا جيّدة، سنحصل على ملف يؤكد أن هانوي كانت هي التي تعيق المفاوضات.

ولجملة أسباب معقّدة، فإن نيكسون لم يكن ليثق أبداً بمثل هذه المفاوضات، ولم يكن يخطر بباله ان هانوي تقدم على اجراء اتفاق يرضينا، اذا لم نكبدها سلفاً هزائم عسكرية حقيقيّة. واتضح بعد ذلك ان وجهة نظره كانت صحيح. وبصورة عامة، فأنه لم يكن راغباً في المفاوضات. وكان يكره تعريض نفسه إلى فرضٍ من جهة العدو. ولذلك كان يسعى دائماً للحفاظ على نتيجة عمله في حالة الفشل، وكل مرة كنت أجبر

على أجراء مفاوضات، فان نيكسون كان رفيقي فيها، مشافهة أو كتابة، بالبقاء ثابتاً، وكان يُسِرّ إليّ دائماً انه لا يتوقع نجاحاً، ومع ذلك، وعلى الرغم من جميع التحديّات فإنه كان يتمنّى سلاماً صادقاً. وكان يتظاهر بالاقتناع حين كنت اؤكد له كل مرة، انه يجب علينا ان نسعى بإسم شعبنا، للوصول إلى وفاق مشرّف، فيما لو كان ذلك غير ممكن، ونظهر للأجيال القادمة اننا كنا جادّين بذلك الأمر

طلبنا في نهاية شهر تشرين الثاني من عام ١٩٦٩ من الجنرال فيرنون ولترز، ملحقنا لوزارة الدفاع في باريس الحصول على موعد لقاء مع كسيان توي، فأتفق على ذلك حالاً.

وفي الثاني عشر من شهر كانون الأول. استدعي الجنرال ولترز من قبل الفيتنامين الشماليين. وأعلن مي فان بو، الممثل العام بفيتنام الشمالية، أن هانوي غير راضية عن اللهجة الشرسة لخطاب الرئيس الذي ألقاه في الثالث من شهر تشرين الثاني، وعن رفض الرئيس ابدال هنري كابوت لودج بشخصيّة معتبرة. وذكّر بالاقتراح الذي تقدّمت به هانوي في شهر آب، واصفاً هذا الاقتراح أنه منطقي ومعقول. وإن هانوي لا ترى ضرورة لإجراء محادثات جديدة سرّية ما لم يكن لدينا شيء جديد.

وبعد شهر كامل، من رفض هانوي، حصلت من نيكسون، وبعد كثير من الصعوبة، السماح لي بإجراء محاولة جديدة. وفي الرابع عشر من شهر كانون الثاني، التقى ولترز بكسيان توي، واقترح لقاء خلال العطلة الأسبوعية، شريطة أن يبدي الفريقان استعدادهما تجاوز الإطار الموجود حتى الآن". وكان نيكسون لا يزال متشكّكاً وقال لي: لا أدري ماذا يريد أن يقول هؤلاء المهرّجون. أن موقفنا يتطلب أن يتكلموا أو أن نتخلّى عن هذا الأمر، فليس هذا وقت تقديم تنازلات.

ولم تعطِ هانوي مؤشّر قبول طيلة عدة أسابيع. وفي السادس عشر من شهر

شباط استدعى الفيتناميون ولتر ليبلغوه أنهم وافقوا على لقاء في العشرين أو الحادي والعشرين من شهر شباط، وطالبوا بالإجابة خلال اثنتي عشرة ساعة، في حين أننا كنّا ننتظر منذ أكثر من شهر. ولقد تأسفت كثيراً بقبول الموعد بتاريخ الحادي والعشرين من شهر شباط، اعني الموعد الذي حدّدته هانوي إذ كنت ميالاً لتأجيل الموعد، لأننا بقبولنا أعطينا انطباعاً لهانوي لتسجيل ذلك بين النقاط البسيكولوجية التي تتمسك بها كثيراً. وفي الحقيقة أن الخسارة لا تعوّض وقد سرنا بخطى متعثّرة.

وهكذا فقد بدأت المحادثات السرية بيني وبين الدوق تو، وقد أجرينا منها ثلاثة ما بين العشرين من شهر شباط والرابع من شهر نيسان لعام ١٩٧٠.

كانت العطلة الأسبوعية أفضل تغطية لسفراتي، فغادرت قاعدة اندروز الجوية العسكرية، الكائنة بقرب واشنطن،على متن طائرة بوينغ (٧٠٧) رئاسية، برفقة مترجم وعضو أو اثنين من معاوني. وانطلاق الطائرة كان يدل على سفرات دورية، للتعرف على خط سير رئاسي. وهبطت في افورد، قاعدة جوية قرب بورج في وسط فرنسا، وحيث كان يقيم الفرنسيون قواعد لمطاردات الميراج، وطائرات صهريج K.C-135 التي تشابه تقريباً طائرة البوينغ الرئاسية. ولا تكاد طائرتي تلمس الأرض إلاّ لتعطيني وقتاً لمغادرتها، فلم تكن إذاً لتختفي عن مجال رصد الرادار إلاّ لمدة خمس وعشرين دقيقة. وكانت تتابع بعد ذلك طريقها نحو مطار راين ـ مين في فرانكفورت، حاملة معها أمين سرّي. وفي غضون ذلك، كنت أنا ومساعديّ نصعد طائرة ميستر (٢٠) خاصّة بالرئيس بومبيدو، لتقلّنا إلى فيلاّ كوبلاي، قرب باريس.

فكان يأتي الجنرال ولترز لاستقبالي عند سلّم الطائرة، مفتخراً بما حقّقه من استعدادات. وكنا نذهب إلى شقته في نابيي بسيارة أجرة، وكان ولترز يكلمني عن ذلك لأن الموضوع كان بالنسبة إليه شائكاً. فقد كانت سفارتنا ممنوعة من تغطية هذه

الزيارات لعدم إعلامها بالأمر. وعند وصولنا، نصعد خفية بمصعد من المرائب الأرضية حتى شقته. وبالنسبة لخادمة ولترز، فقد كنت أنا أدعى: هارولد ا. كير شمان، جنرال أمريكي عابر سبيل. وكنا نقضي ليلتنا في هذه الشقة، وكنا نذهب في الغد، وولترز دوماً في المقدمة، إلى بيت كائن في شارع دارته في شوازي ليروا ـ ضاحية قروية موجودة على بعد نصف ساعة من باريس. وهناك دارت المحادثات السرية، طيلة عام ونصف.



في أول لقاء لنا في الحادي والعشرين من شهر شباط عام ١٩٧٠، استقبلني كسيان توي بشعره الشائب وشخصيته الكريمة الوقورة وقادني إلى غرفة الجلوس لالتقي الرجل الذي كان يفاخر بأن يقال له المستشار الخاص لكسيان توي في حين أنه بصفته عضواً في حكومة فيتنام الشمالية، كان رئيسه بعدة درجات تسلسلية.

أن النشاط الذي كان يبديه الدوق تو، والشجاعة التي كان يتحلّى بها، كانا حصيلة ثقة خالصة بالمبادئ اللينينية، وإيمان عميق بالشعب الفيتنامي وهكذا فإن الثقة الشخصية المطلقة التي كان يتحلّى بها تحولّت إلى اعتقاد، أن قَدَر فيتنام، ليس فقط السيطرة على الهند الصينية، بل على الجنوب الشرقي من آسيا. وما دام متأكداً من عظمة وسيادة بلاده، فإن كرهه الشخصي للولايات المتحدة لا يبقى له أهمية. فلم نكن نحن بالنسبة له سوى قوم رحّل، غرباء متوحشين، استهوتنا على مدى الأجيال الهند الصينية، وان مهمّة بلاده هي في طردنا (وجعلنا مجانين قبل ذلك على ما أعتقد).

أن مبدأ اللينينية، الذي كان يدين به الدوق تو، حمله على الاعتقاد أنه يعرف تحركاتي أكثر مني، ومن جملة رواسبه كان مشبعاً بفكرة إمكانية خداعه، واشتبهت

أحياناً أنه يُبدي قلقاً كبيراً ليعطي انطباعاً أنه يعمل كثيراً. بعكس ما هو عليه، وفي نهاية العام الرابع، اتخذت المفاوضات شكلاً رسمياً، فدفعه هذا الاتجاه لنصب شراك لاقتراحاتنا البريئة. وفي البداية، انطلق يقدّم لنا مواعظ، انتهت إلى أن تكون مزعجة، إذ كان يدّعي أنها محصنة تجاه الدهاء الرأسمالي.

كنت على يقين أن الدوق تو، كان يعتبر المفاوضات وكأنها معركة أخرى، وحسب وجهة نظره، فإن أيّة تسوية تحرم هانوي من انتصار حاسم، هي بمثابة مكيدة، فلقد جاء يمتحن صمودي وبما أنه كان يدعي الحقيقة، فلم يتمكن من تقديم أية ترضية، وكان يبيّن في الوقت نفسه أن اقتراحات هانوي، هي القاعدة الوحيدة المنطقية والمعقولة لإجراء مفاوضات.

فعندما كنا نقترح تقليص العداوة بيننا سواء بتخفيف القتال، أو بوقف إطلاق النار، الأمر الذي كان يدعو إليه مفاوضونا،كنا نصطدم بتفكير الدوق تو، أننا ننصب شركاً، أو أننا نزرع بذور الخلاف. أن الوسيلة الوحيدة المعقولة بالنسبة له، بوضع حدّ للاقتتال، هي أن تقبل الولايات المتحدة شروط هانوي، أعني انسحاباً غير مشروط، في مواعيد محدّدة ثابته، وإسقاط حكومة فيتنام الجنوبية. ولما كان الدوق تو، هو الناطق بلسان الحقيقة، فإنه لا يتقبّل الطريقة التي كنا نريد إجراء المفاوضات بموجبها. وأن تقديم تنازلات، كانت تبدو له غير ذات معنى إلا في حالات الضرورة القصوى.

جرى لقائنا الأول في الحادي والعشرين من شباط على مرحلتين: فتباحثنا في الصباح مدة ثلاث ساعات، ثم ذهبت أنا والجنرال ولترز لتناول الغذاء مع الرئيس بومبيدو في مقرّه في جزيرة سانت لويس، حيث تحادثنا، عن رحلته إلى الولايات المتحدة. واستعدنا حديثنا مع الفيتناميين الشماليين في نهاية بعد الظهر. وقد أظهر المفاوضون من هانوي عناداً كبيراً حتى في أقل الأمور. وهو الأمر الذي أرجعته

شخصياً إلى عدم ثقة هانوي في نوايانا، لذلك فقد افتتحت جلسة الصباح مؤكداً على صدق رغبتنا في إجراء محادثات. وأكدت أننا جادّون للوصول إلى تسوية تحلّ جميع المشاكل دفعة واحدة. ونتمنى ألاّ نعود إلى تجارب الماضي التي لم تكن، سوى هدنة تنبىء بحرب لا تنتهي. ودلّلت على أن موقف هانوي لم يطرأ عليه أي تقدّم، منذ لقائي مع كسيان توي في شهر آب.

وأتبعت ذلك بالقول: أن الولايات المتحدة على استعداد لسحب جميع قواتها، وعدم الاحتفاظ بأية قاعدة في فيتنام، أضف إلى ذلك، وفي سبيل تحديد انسحاب متبادل، فإننا لا نطالب بوضع القوات الفيتنامية الشمالية، بنفس التنظيم الذي تكون عليه القوات الأمريكية. سنسعى لإنهاء الحرب بصورة عملية، وليس بصورة نظرية، كما أعلنت أننا لا نطالب هانوي بالإعلان رسمياً عن انسحاب قواتها، إذا كانت ستقوم بذلك حقيقة. وفي سبيل هذه المعطيْات، اقترحت أن نطرح جانباً كل دعاية، وأن نعمل سويّة في تحديد المبادئ التي سنتفق عليها. ويمكن تطوير هذه المبادئ بعدئذ حال عقد الجلسات العامة في شارع كليبر، وأننا على استعداد لاستعجال تعيين مفاوض جديد في باريس ليتم الاتفاق.

ومع العلم أن الدوق تو، لم يكن سوى المستشار الخاص لوفد هانوي، فكان كسيان توي بصفته الرسمية الذي بادر بالكلام. ولم يستطيع تفويت الفرصة ليؤثر على رئيسه بفصاحته. فأكد بإن على الولايات المتحدة تحديد تاريخ لانسحاب أحادي الجانب من قبلها، قبل المباشرة بالمفاوضات. وهكذا فإن المفاوضات بعدئذ تتكفّل بوضع مواصفات الانسحاب. ومقابل ذلك، يتعهد الفيتناميون الشماليون بعدم إطلاق النار على رجالنا عند الإبحار والمغادرة. وسيستمر القتال ضد فيتنام الجنوبية إلى أن تسقط حكومة سايغون. ولم يرد ذكر لإطلاق سراح أسرانا. وكان كسيان توي يرفض

أن يُظهر أقل اهتمام لما يقدّمه الأمريكان، ووصف بكل تعاظم أن الانسحاب القريب لمائة ألف جندي، "أنه انسحاب بأعداد صغيرة"، وعلى الرغم من أننا أنقصنا خمسة وعشرين في المائة من غارات طائراتنا B52، وعلى الرغم من أن أوامر عسكرية قلّصت هجوم القوات الأمريكية، كنا نرى أنفسنا متهمين وبقوة بإذكاء نار الحرب.

وبعد الظهر كان دور الدوق تو، فبدأ بإنكار الحوادث التي جعلت الموقف يتحوّل لصالحنا منذ شهر آب، وقال: طالما أن توازن القوى لم يتطور كثيراً، لا نستطيع إيجاد الحل الصحيح، وأظهر الأهمية التي كانت تضفيها هانوي على الرأي العام لدينا، مخصصاً المقام الأول لهذا الموضوع في خطابه. وأنكر كل تحسن في واقع نيكسون السياسي، وأورد مثلاً نتيجة الاستفتاء الذي جرى بشأن انسحاب عاجل، وكيف أن عدد المستفتين من الأمريكان انتقل من واحد وعشرين إلى خمسة وثلاثين في المائة. وهذا لا يتعلق بغير الرأي العام فقط:" أضف إلى ذلك فقد سمعت عدة مرات، أن لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ ـ الحزب الديمقراطي، وم. كليفورد يطالبون بانسحاب شامل للقوات الأمريكية، ومغادرة زمرة تيو ـ كي ـ كييم، وتعيين خلف للسفير لودج". فأجبت على ذلك بقسوة: أني لن أتسامح بأي تعليق إضافي من قبل هانوي، حول الرأي العام الأمريكي، وأن الدوق تو، هو هنا للتباحث بشأن الموقف الفيتنامي. وكنت أجد خلافنا القومي متعباً جداً، وكنت أعتقد أننا لن نتمكن من الوصول إلى كرامتنا، إلاّ بدفاعنا عنها مع خصمنا، وأجبرت على إجراء عدة لقاءات، لإقناعهم بوجهة نظري هذه، لكني لم أتوصل إلى ذلك تماماً.

بعدها أخذ الدوق تو بتقديرنا للموقف العسكري، فأخذنا نتباحث في حقيقة المعضلة التي تعترضنا وهي فيتنمة الحرب. ثم أكد بعد أن أشغل فكره كثيراً، على أن تقوم إستراتيجيتنا على سحب قوات كافية، ليتمكن الشعب الأمريكي من احتمال أعباء الحرب، وتعزيز قوات سايغون بنوع أنها تكون قادرة على الدفاع عن نفسها،

وبعدئذ طرح سؤالاً أقلقني كثيراً: في السابق، كان لديكم أكثر من مليون جندي أمريكي، ومعهم جنود مرتزقة، وعلى الرغم من كل ذلك فقد فشلتم. فكيف تتمكنون إذاً من الانتصار إذا أبقيتم فقط على الجنود المرتزقة، ليحاربوا وحدهم؟ وكيف تستطيعون الانتصار، مع المساندة الأمريكية فقط؟

إن النتائج التي كان يستخلصها الدوق تو من خلال هذا التحليل كان يجب ان تتبع حتماً. ويجب ان تعالج المشاكل العسكرية والسياسية بطريقة عاجلة، ولقد حافظ على هذا التاكيد حتى شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٢ وحسب رأيه، فان المشكلة العسكرية الوحيدة الممكن معالجتها والتباحث فيها هي تخلّينا غير المشروط تجاه كافة التزاماتنا. ان فترة الستة أشهر، المقترحة من قبل جبهة التحرير الوطنية .F.N.L لم تتغير، ولن يضاف اليها أي اتفاق آخر. ومع ذلك، فيما لو قمنا بالانسحاب، فان هانوي لن تكفّ عن القتال، ما لم تتم تسوية سياسية. وبالنسبة للدوق تو، فانه لا يزال على رأيه من حيث اقتراح انسحاب محبّي الحرب، كالرئيس تيو، ونائب الرئيس كي ورئيس الوزراء كييم، كما كان يقترح تأليف حكومة إئتلافية، مؤلفة من أعضاء جكومة سايغون ما عدا (تيو وكي وكييم) هؤلاء الاعضاء الذين يسعون بحق عن السلام والاستقلال والحياد. والقوى المحايدة كانت تتجاوب مع نفس المبادئ. وكذلك جبهة التحرير الوطنية، على أن تأخذ جبهة التحرير الوطنية على عاتقها تحديد هؤلاء الذين يسعون نحو السلام والاستقلال والحياد. وعلى الرغم من أن هانوي كانت تحبّذ حكومة الإئتلاف هذه، فان هذه الحكومة لم تكن تشكل المرحلة الأخيرة بالنسبة لها. إذ أنها ستكون على الشكل التالي: ثلث من الشيوعيين، والباقون أعضاء يقبلهم الشيوعيون، يتخللها أعضاء من كل الزعماء غير الشيوعيين، ويجب من ثم على هذه الحكومة التفاوض مع حركة التحرير الوطنية، لايجاد حل نهائي، علماً ان حركة التحرير الوطنية جميعها تحت السلاح. وطمأنني تو مؤكداً لي ان هذا المشروع الجيد

سيفتح آفاقاً عريضة من الأمل وأردف قائلاً: اذا اظهرتم ارادة طيبة ونوايا حسنة سنصل عاجلاً إلى إتفاق.

وفي اللقاء الذي جرى في السادس عشر من شهر آذار، حاولت إيجاد تقارباً آخر، فاقترحت على الدوق تو، ألاّ يمارس أحد المعسكرين، ضغوطاً عسكرية على فيتنام، أو على البلدان المتحالفة أثناء المفاوضات، وبعبارة أخرى: إجراء تقليص متبادل في العمليات العسكرية، في كل أراضي الهند الصينية، الأمر الذي رُفض بكل احتقار. ثم شرح لنا وبطريقة مملّة، أن للحرب مرتكزات قوية، لا يجوز الاقتراب منها.

وعند اجتماعنا في الرابع من شهر نيسان، كرّرت اقتراحي الذي رفضه الفيتناميون الشماليون، دون التكلّف بتدقيقه. وفي السادس عشر من شهر آذار، طرحت للتباحث، تنظيماً زمنياً شهرياً محدداً الانسحاب الأمريكي الشامل، موزعاً على ستة عشر شهراً. فأعلن الفيتناميون الشماليون، أن هذا الطرح غير مقبولّ،لأن الرئيس كان قد حدّد اثني عشر شهراً، في خطابه الذي ألقاه في الثالث من شهر تشرين الثاني.

وعندما بيّنت أن هذا التنظيم الزمني ليس هو إلا على سبيل المثال، وأننا سنعمل طبعاً لتوفيق الفترات الزمنية مع تصريحات الرئيس. رفض كلامي أيضاً، لأن هانوي كانت تساند الفترات الزمنية، "الصحيحة والمنطقية" والمقترحة لستة أشهر من قبل جبهة التحرير الوطنية. وحسب رأي الدوق تو، أن تطبيق أي تنظيم زمني لن يعمل به إلاّ بعد إنجاز اتفاق، لأن هانوي ترغب في العمل بتنظيم زمني مستقل عن أية قضية أخرى، وأن يكون الانسحاب غير مشروط.

أضف إلى ذلك، فإن الدوق تو، كان يرفض أية مباحثات سياسية، تضم بين أعضاءها، عضواً من حكومة فيتنام الجنوبية وهزأ من عرضنا تشكيل لجان انتخابية

مشتركة، تتضمن أعضاء من الفيت كونغ، الأمر الذي كان يبدو بالنسبة لنا وسيلة صحيحة لمراقبة انتخابات حرّة. وكانوا يُملون علينا شروط استلام، لا مفاوضات بالمعنى الصحيح.

وعندما جرى اجتماع الرابع من شهر نيسان، أعاد كسيان توي إلى الأذهان، كل انتقادات هانوي نحو مواقفنا. أن الفترات الزمنية، التي كنا نحدّدها، هي غير مقبولة، لأنها تظهر أطول من الأشهر الستّة التي تفرضها هانوي، وكانت متوقفة على تسوية المشاكل الأخرى، والانسحاب المتبادل كان غير مقبول، والتسوية غير ممكنة طالما أن: تيو وكي، وكييم والزعماء الآخرين المعارضين للسلام والاستقلال والحياد، باقون في وظائفهم. وكابوت لودج، لم يبدّل بشخصيّة هامة بالإضافة إلى وفدنا في باريس. وكنت قد اقترحت إيجاد وسيلة لتنظيم نقاش سياسي عادل. فكان الردّ عليّ واحداً لا يتغير، وهو أن انقلاب حكومة سايغون وتغييرها، يحلّ المشكلة السياسية.

وهكذا إذا انتهت الجولة الأولى للمحادثات السرية مع الدوق تو، بهذا الأعلان الذي يقول: «إذا لم تبادروا إلى تغيير موقفكم، فلن يكون هناك شيء للتباحث فيه).

فشلت الجولة الأولى مع الدوق تو، لأن من دأب الدبلوماسية، أن تعكس دائماً بعض توازن القوى، وأن الدوق تو لا ينخدع بسهولة، أنه على إطلاع تام بالرأي العام في أمريكا، ولا سيما مواقف التنظيمات الحاكمة التي جاء على تحديد أوضاعها سابقاً، أن المشاكل التي تطرحها الفيتنمة حقيقية. فان نقص التنظيم ضمن الإدارة الأمريكية يكشف عن الاختلافات الايديولوجية التي تمزق الأداة التنفيذية، فلم يكن ثمة سبب لدى تو في اعادة التفكير من جديد في طلباته المتشددة، والتي تقوم على انسحابنا غير المشروط، وقلب حكومة سايغون وإبدالها. ولزم له عامان ونصف لتغيير رأيه، في حين أن الموقف العسكري لم يترك له خياراً آخر.

كان واضحاً خلال المفاوضات السرية، ومن موقف الدوق تو، أن هانوي ربطت رسمياً كمبوديا بالحرب الفيتنامية. وهو ما أكده الدوق تو، أن في نيّة هانوي إسقاط حكومة فنوم بين، وإبدالها بحكومة تناسبها، وإستخدام كمبوديا كقاعدة لعملياتها في فيتنام. وفي لقاء سري، في السادس عشر من شهر آذار ـ أي قبل إسقاط سيهانوك بيومين، أتهمنا الدوق تو، بأننا وراء الاضطرابات التي جرت في فنوم بين، قبل خمسة أيام. فاعترضت بعنف على هذا الاتهام، ورأيت أن أوجّه كلمة للرئيس بتأكيدات الدوق تو المثيرة والمزعجة:"أن ملاحظاتهم حول كمبوديا تبعث على القلق" ولربما دلت على ضغوط متزايدة تجري هناك".

قويت المخاوف من نوايا هانوي، وعزّزها حدوث هجوم عسكري مفاجئ على فيتنام الجنوبية، الذي قطع حبل السكينة والهدوء اللذين كانا سائدين منذ شهر أيلول. وفي الحادي والثلاثين من شهر آذار، في حين كنا لا نزال نفاوض الدوق تو واقترحنا تخفيف القتال، قام الفيتناميون الشماليون، بعشرات الهجمات على فيتنام الجنوبية، وارتفعت خسائر الأمريكيين خلال أسبوع إلى (١٣٨) قتيلاً، وهذا يقرب من ضعف ما كان عليه في الأسابيع السابقة. وعلى هذا الأساس، جرى آخر لقاء لنا في باريس في الرابع من شهر نيسان. وبالإضافة إلى ما سبق، فإن الدوق تو، قد اتهمنا وحمّلنا مسؤولية قلاقل كمبوديا، وأعلن وبصراحة الحرب ضد الحكومة الكمبودية الجديدة:

" لقد استطعتم استخدام فريق من العسكرين الرجعيين لإسقاط نوردوم سيهانوك، وأن كل شيء سيسوّى، أن هذا لتفكير بسيط. أنها بالحقيقة أعمالكم هناك، التي تدعو الشعب الكمبودي لمقاتلة مشايعي الولايات المتحدة. أن هذا الشعب قد أجاب نداء الأمير سيهانوك، وجبهة كمبوديا الوطنية. أن شعب الخمير، قد جمع كل قواه، للدفاع عن حرّيته وحياده".

رفضت جميع هذه الاتهامات بشدّة وعنف، ولكن دون جدوى." أني في يأس من إقناع المستشار الخاص، أنه لم يكن لنا أيّ رأي في كل ما جرى في فنوم بين، وأني فخور بما يعزوه من رأي كبير لمصالح استخباراتنا، مع أنها لم تتدخل بشيء. ولو علموا بوجودي هنا لأشركتهم في سماع هذا الإطراء.

أضف إلى ذلك البرهان البسيط، المتضمن في الإجابة على السؤال الذي يقول، من له قوات في كمبوديا؟ طبعاً ليست الولايات المتحدة. ومرة أخرى، فإني جدّ متأثر بموهبة تعدّد لغات شعوب شبه جزيرة الهند الصينية، لقد تبيّن لنا أن الباتيت لاو يتكلمون الفيتنامية وها نحن نشهد الظاهرة نفسها في كمبوديا..."

لقد كنا جدّ متساهلين، تجاه القواعد، التي تحتفظون بها في كمبوديا، والتي تنطلقون منها لمهاجمة قواتنا في فيتنام.

وأكدّت للدوق تو، أن الولايات المتحدة، لا تسعى أبداً إلى امتداد الحرب، واقترحت عليه في سبيل هذه الغاية، إجراء مباحثات عاجلة لاتخاذ الإجراءات اللازمة التي تؤكد حياد كمبوديا:

"أننا على استعدد لمناقشة سريعة، في الإجراءات الواقعية، والضامنة لحياد كمبوديا، وأن نؤكد وبصورة مطلقة أنها لن تصبح حجر الشطرنج لنزاع دولي. كما أننا على استعداد في سبيل ذلك، لمعالجة الموضوع معكم وبطريقة ثنائية، أو في وسط دولي.. وأننا نبدي استعدادنا، لقبول أي اقتراح معقول، يسمح بضمان سيادة لاوس وكمبوديا، ولا سيما كمبوديا ذات المشكلة الجديدة، يسمح بضمان بقائهما على الحياد"؟

لكن الدوق تو، رفض كل فكرة حياد، أو مؤتمر دولي" مؤكداً أن النزاعات في الهند الصينية، لا تشكل سوى نزاع واحد، ولقد رفض حتى دراسة جعل الحرب في

فيتنام واحدة فقط. لقد أصبحت كمبوديا مسرحاً للعمليات، ولا يضير هانوي الاشتراك بأية محادثات حول المحافظة على حيادها. وقبل دخولنا في المباحثات بثلاثة أسابيع، أعلن الدوق تو ما يلي:

"أن شعوب الهند الصينية الثلاثة، شعب فيتنام ولاو والخمير، تتحد تقليدياً لمقاتلة الاستعمار، أن هذا رباط لا تتمكنون من فصمه. واليوم، أمام الحرب التي تقوم بها الولايات المتحدة في كمبوديا، فإن هذه الشعوب الثلاثة ستتابع القتال لإحراز النصر، وهي مستعدة لتقديم تضحيات كبرى".

وحسب رأي الدوق تو، فإنه لا يستطيع موافقتنا رسمياً حول حياد كمبوديا. وعلى العكس من ذلك، فإن التنظيم الذي استولى على الحكم في فنوم بين يجب إسقاطه:" أننا لن نعترف بحكومة لون نول ـ ماتاك". أننا مع نوردوم سيهانوك بما وضع من نقاط خمس ونسانده فيها .أننا معتقدون أن المشكلة الكمبودية لن تُحلّ، طالما بقيت حكومة لون نول ـ ماتاك في الحكم.

وبالنسبة لفيتنام، فإنهم يؤكدون لنا حالياً، أن مفتاح السلام الرئيسي والوحيد في كمبوديا هو إسقاط الحكومة القائمة والتي اعترفت بشرعيتها معظم دول العالم بما فيها الاتحاد السوفيتي. وفي السادس من شهر نيسان، صرّح ناطق بلسان الأمين العام للأمم المتّحدة يو ثانت: أن الأمم المتحدة ستعالج ضمن السلطات المخولة إليها موضوع كمبوديا". وكان هذا يعني الاعتراف بحكومة لون نول.

وكما سبق لفيتنام، فإن هانوي رفضت أن تفاوض، وكانت توسّع عن قصد مدى الحرب في جميع أنحاء كمبوديا. ومثل فيتنام، فإن هانوي لم تقبل مناقشة، سوى الاستيلاء العام على السلطة في كمبوديا. وهكذا فإن الوضع في كمبوديا تغير كلياً. فقبل ثلاثة أسابيع فقط، كنا نفضل وبعد دراسة طبعاً، بقاء سيهانوك في الحكم. ولو

عدنا إلى الوضع الحالي، بفضل ضغوط هانوي العسكرية، وطالما أن كمبوديا أصبحت آلة في يدها، فإن كمبوديا ستصبح بكاملها قاعدة عظيمة لها، وأن التعزيزات المرسلة عن طريق سيهانوكفيل، ستكون بالنسبة لنا أشد خطراً. وكما جاء في بلاغ عسكري رسمي صدر في الأول من شهر نيسان، أنه كابوس بالنسبة لنا، أن نرى حكومة سيهانوك المؤتمرة بإمرة الشيوعيين، تقام عندنا وتشكل قاعدة آمنة للجيش الفيتنامي الشمالي والفيت كونغ.

وتقدّمت كمبوديا بأول طلب رسمي لعون عسكري أمريكي، في الوقت الذي تأكدنا منه ورغماً عنا أن حياد كمبوديا أصبح أمراً مستحيلاً، لأن اهتمام هانوي منصب على بسط الهيمنة الشيوعية على كامل كمبوديا. وفي مساء التاسع من شهر نيسان، طلب المقدّم لون نون، الأخ الأصغر للون نول وآمر شرطة فنوم بين، مقابلة أحد موظفي سفارتنا. فتكلم لون نون، حول زيادة الجيش الكامبودي وجعله ستين ألف جندي بدل خمسة وثلاثين ألفاً، فيكون والحالة هذه بحاجة سريعة إلى مائة ألف أو مائة وخمسين ألف قطعة سلاح، ومن ثم من مائتي ألف إلى مائتين وخمسين ألفاً، من الاعتدة والمؤن.

وجد لويد رايفز، القائم بالأعمال الأمريكية في كمبوديا، هذه الأرقام مبالغاً فيها. وأكد استحالة تقدير الاحتياجات الحقيقية، طالما أنه لم يحدد رقم دقيق للأسلحة المطلوبة. وأشار رايفز على واشنطن القيام بدراسة جدّية حول تسليم الأسلحة بوساطة فريق أو عدّة فرقاء، حال التمكن من العثور عليهم. تمت دراسة طلبات لون نون من قبل الأجهزة السرية وكنا لا نزال عازمين على اجتناب كل تدخل مباشر. وإذا قمنا بتسليم الأسلحة سراً، نكون قد تحاشينا إعطاء هانوي، حجّة القيام بهجوم شامل. أضف إلى ذلك، فإن هذا يساعدنا على تحديد كمية السلاح الواجب تقديمها. كنا متفقين على الادعاء بوجوب عدم دخول الأسلحة الأمريكية إلى كمبوديا. أن

مصلحتنا الرئيسية تقتضي بمنع كمبوديا من أن تصبح قاعدة لتعزيز القوات الفيتنامية. وكنا كذلك على استعداد لقبول بعض الترتيبات بين لون نول والفيت كونغ إذا كان ذلك ضرورياً لإطالة بقاء الحكومة الكمبودية. وبناء على مشورة رايفز أخذنا نسعى للقيام بالعون العسكري بوساطة فرقاء أخرين. وقررنا تكليف رايفز إجراء اتصالات منفردة مع الحكومة الكمبودية، وأن يطلب من فرنسا عوناً مكثّفاً لكمبوديا. وأن يسعى لايجاد وسطاء آخرين.

نفّذ رايفز هذه الأوامر بحيوية مفرطة، ولكن انطلاقاً من التوجيه السياسي لمكتب شرق آسيا، الذي كان مرتبطاً وبصورة دقيقة في أن يكون الحياد الكمبودي أكثر دقّة من حياد الحكومة الكمبودية(الذي ترفضه هانوي إجمالاً). واقترح على وزير الشؤون الخارجية الكمبودي أن تكون فرنسا المصدر المنطقي والفعلي للأعتدة العسكرية، ثم أردف برضى تام ناقلاً جواب وزير الشؤون الخارجية: طالما أن الولايات المتحدة ترفض الالتزام المباشر، فلن يكون للحكومة الكمبودية سوى اتصالات بسيطة مع سفارة الولايات المتحدة.

والشيوعيون من جانبهم، لم يكن لديهم نفس التحفّظ. ففي الثالث عشر من شهر نيسان، سقطت طليعة الجنود الكمبوديين بين أيديهم في مقاطعة كمبوت، قرب الحدود مع فيتنام الجنوبية. وفي الثالث عشر والرابع عشر من شهر نيسان، حدث الأمر نفسه لعدة مراكز أمامية كمبودية واقعة في مقاطعة تاكيو إلى الجنوب من فنوم بين. وفي الرابع عشر من شهر نيسان، أعلنت الحكومة الكمبودية عن هجوم قام به عدّة مئات من جنود الفيت كونغ ضد كوه روكار، في مقاطعة براي فانغ، على بعد خمسين كيلو متراً تقريباً من الشمال الشرقي لفنوم بين. وفي الخامس عشر منه، سقط مركز سره كتوم الكمبودي، في مقاطعة موندولكيري، في أيدي الفيتناميين الشماليين، وانقطعت جميع اتصالاته بمدينة أو رانغ، الكائنة إلى الشرق من الطريق (١٣١) وفي

الخامس عشر من شهر نيسان استولى الشيوعيون على مركز أمامي في كريك، في مقاطعة كومبونغ شام، ومنعوا بذلك وصول الكمبوديين إلى ميوت ـ العاصمة، عن الطريق رقم (٧) وفي السادس عشر من شهر نيسان، هوجمت عاصمة مقاطعة تاكيو، من قبل القوات الفيتنامية الشيوعية،ورُدّت على أعقابها. وفي اليوم نفسه، سقطت مدينة توك ماس، في مقاطعة كامبوت، في أيدي الشيوعيين، فيما كانت قوة صغيرة معادية تهاجم مركزاً أمامياً إلى الشمال من كراتيه، وكذلك مدينة شلونغ، إلى الجنوب من العاصمة، ويتضح جلياً، ان الاستراتيجية المعادية، كانت تعمل على عزل فنوم بين عن المقاطعات، وإسقاط حكومة لون نول.

وفي الرابع عشر من شهر نيسان، أعلن لون نول في الأذاعة ما يلي: تجاه خطورة الوضع، أصبح من اللازم علينا من الآن وصاعداً، قبول أي عون أجنبي غير مشروط، مهما كان مصدره،واتهم الشيوعيين أنهم يعملون على تصعيد هجماتهم بصورة منظمة. وعندما أعلمت الرئيس نيكسون بهذه الأمور، صرّح أنه عازم على عدم ترك الحكومة الكمبودية الجديدة. تنهار تحت وطأة الضغوط الشيوعيّة. فطلبت عقد اجتماع لفريق العمل الخاص في واشنطن في الرابع عشر من شهر نيسان. وكان هذا الفريق يضم نفس التشكيل السابق، بالإضافة إلى ممثلين عن هيئة الأركان العامة، وأعطيت التعليمات بالطرق الرسمية. وكان هذا التغيير يظهر أن المشكلة الكمبودية، كانت قد تجاوزت نطاق الأجهزة السرّية، ويقتضي الموقف إصدار قرار سياسي خطير في أقرب فرصة ممكنة.

رفض أعضاء الفريق المجتمع وبكل وضوح، قبول التزام أمريكا تجاه كمبوديا. فرجوت بدوري فريق العمل الخاص تحديد ما هو نوع ودرجة العون العسكري، الذي يهدّىء من روع لون نول بسيكولوجيكياً دون إعطاء حجّة لهانوي للقيام بهجوم أقوى.

وجاء الجواب أن أفضل طريقة هي في تسليم ثلاثة آلاف بندقية، من مستودعات الأسلحة المستولى عليها في فيتنام الجنوبية، والمحافظة على مواقفنا، يجري تسليم هذه الأسلحة عن طريق فيتنام الجنوبية. وكل المجتمعين بما فيهم أنا بالذات، كنا على اتفاق، أنه لا يزال الوقت باكراً على تسليم بنادق أمريكية من طراز MI ولهذا السبب، أبلغت فريق العمل الخاص في واشنطن، أن الرئيس غير مستعد للسماح بتسليم ألف قطعة عتاد أمريكي خاص ولم يكن مجال للتساؤل عن أسلحة أثقل. أما بالنسبة لوزارة الشؤون الخارجية، فقد كانت ترفض تسليم أعتدة طبّية بصورة مكشوفة. وأقر أخيراً أن على الكمبوديين اختيار طريقة التسليم. وبالاختصار فقد مضى على ذلك نحو ثلاثة أسابيع، فغادر الفيتناميون الشماليون قواعدهم، محاولين عزل فنوم بين. وكانت الولايات المتحدة بدورها تجهز وبكل دقّة ثلاثة آلاف بندقية المستولى عليها من الأعداء، وتقوم بتسليمها سرّياً. وهذا هو العون الوحيد الذي قمنا به.

وفي اليوم التالي، طلبت الحكومة الكمبودية عوناً عسكرياً واقتصادياً للتمكن من رفع عدد جيشها إلى مائتي ألف جندي، وتجاوز هذا الطلب ما كنّا نتوقّع، اعتقاداً منا أن هذا أكثر مما تستوعبه كمبوديا.

فاجتمع فريق العمل الخاص في واشنطن مجدداً في الخامس عشر من شهر نيسان، واتخذ القرار التالي: بدلاً من البدء بتسليم كمبوديا أسلحة وبصورة رسمية علينا أن نخصّها بخمسة ملايين دولاراً، تسلّم إليها عن طريق حكومة صديقة. ويصبح لدى كمبوديا المال اللازم لتشتري بنفسها الأسلحة التي تحتاج إليها من السوق الحرّة. أن هذا المبلغ كان بالطبع رمزياً، ولا يتجاوب مع احتياجات كمبوديا ،وهو أقل من طلباتها.

توالي الهجمات كان أمراً طبيعياً، وأخذت القوات الفيتنامية الشمالية بمهاجمة كل كمبوديا، مركّزة على عواصم المقاطعات وعلى خطوط المواصلات مع فنوم بين.

وعلى أساس تهديد فيتنام الشمالية المتزايد لكمبوديا، وبعد أن عيل صبر الرئيس، فقد تدخّل شخصياً لتسريع قضيّة مساعدة كمبوديا. وفي السادس عشر من شهر نيسان، وفي اجتماع مع هلمز وكوشمان، لدراسة إقامة مركز لوكالة المخابرات الأمريكية في فنوم بين، أمر نيكسون بتسليم الألف قطعة عتاد، التي منعت أرسالها بناء على تعليماته، قبل ثمان وأربعين ساعة. وضاعف بعد أيام المساعدة المالية التي أقرها فريق العمل الخاص في واشنطن بحيث أصبحت عشرة ملايين دولاراً. وفي الواقع، قبل تنفيذ أوامره، فإن هانوي، شددّت هجومها، وقرّر نيكسون بعد أسبوعين مهاجمة القواعد الشيوعية.

وفي السادس عشر من شهر نيسان اقترح فان ياكون مالك، الممثل الدائم للإتحاد السوفيتي في الأمم المتحدة إقامة مؤتمر جديد في جنيف ، كونه الوحيد القادر على إيجاد حلّ جديد وتخفيف التوتّر في شبه جزيرة الهند الصينية. ومطالبة الاتحاد السوفيتي بمؤتمر جديد في جنيف، أمر مثير جداً. حيث فسحت هذه المطالبة مجالاً واسعاً لإيجاد حل مماثل لذلك الذي وضع حداً للحرب الكورية. فأخذت حكومة الولايات المتحدة بتحليل هذا الطلب وصدرت حوله تعليقات كثيرة من كافة الأوساط. وكنّا راغبين جداً أن يكون له أثر حسن. وكان يبدو لي مستحيلاً أن يقدم مالك على تصريح كهذا، دون مداولات مسبقة مع هانوي، وزد على ذلك فإن الدوق تو، كان موجوداً في هذا الظرف بالذات في موسكو، فأطلعت الرئيس على التفسيرات التالية التي تمكنت من الحصول عليها:

- أن الوضع الفيتنامي الشمالي هو أضعف مّما تطلعنا عليه وكالة المخابرات. وهانوي تواجه بقلق حرباً طويلة أخرى في كمبوديا وهي بحاجة للراحة. ومن الممكن أنها بعد أخذ قسط من الراحة، تحاول تأجيل المؤتمر.

- بعد فشل جميع محادثات باريس، فإن هانوي تشعر أنها بحاجة إلى بعض الميادين، لتنسّق الأمور معنا. أضف إلى ذلك أنه بالإمكان أن تنسّق مع حكومة فيتنام الجنوبية، الأمر الذي تجده أكثر سهولة وأكثر اتساعاً.
- أن كل مساومة في سبيل عقد مؤتمر في جنيف (ولو لم يتحقّق ذلك) ستحدّ من أخذنا بالثأر، في حالة أن هانوي تُقدم على القيام بإجراءات عسكرية جديدة.

وقبل أن نعطي جواباً، كان مالك قد سحب اقتراحه في الثامن عشر من شهر نيسان، وأقدم على ذلك برباطة جأش الدبلوماسيين السوفيت الذين اعتادوا منذ وقت طويل على تغيير مفاجىء بالرأي، ثم يقدّمونه وكانه من صلب السياسة القومية. وما لبث أن أكّد مالك، ودون إعطاء أي تفسير، على إقامة مؤتمر جنيف، وأن على الأمريكان مغادرة فيتنام سريعاً وقبل إجراء أي شيء. أضف إلى ذلك، فإن باب المفاوضات قد أوصد في وجهنا بعنف، ولن تكون هناك مؤتمرات. ولم يبق سوى الانسحاب الأمريكي الأحادي الجانب من فيتنام هو الشرط الأول لإجراء مفاوضات.

وهكذا في النصف الأول من شهر نيسان، وبعد أكثر من شهر على الانقلاب الذي حدث في كمبوديا، فإن الولايات المتحدة لم تقم بتحريك أي ساكن. ولم تقدم أي عون عسكري، وكانت شبكة استعلاماتنا، واتصالاتنا بالحكومة الجديدة، رسميّة جداً. أن الانقلاب كان غير متوقع، ونتائجه كانت تهدّد ليس فقط حرية كمبوديا، بل أيضاً وضعنا بكامله في فيتنام. وبعد سقوط حكومة لون نول، لن نستطيع مواجهة خط بسيط من القواعد المعزولة على طول الحدود الفيتنامية، حتى أننا لا نستطيع عمل شيء في كمبوديا التي تحوّلت بكاملها إلى قاعدة شيوعية، بالإضافة إلى ما يقرب من ألف ومائتي كيلو متر من الحدود مع فيتنام الجنوبية، وخطوط تموين قصيرة عن طريق البحر. أن برامجنا في فيتنمة الحرب والانسحاب ستنتهي حينئذ. وقليلاً بعد

قليل ومع تردّد وممانعة، نرى أنفسنا مستدرجين إلى مساندة لون نول، مندفعين بتغيّر الوضع في كمبوديا، الذي لانقدر على معرفته ولا السيطرة عليه. فنرى أنفسنا هكذا مجبرين على اتخاذ أنصاف حلول تقتضيها السرعة التي يتغيّر الوضع بموجبها. أن الملفات تظهر بوضوح أن الفيتناميين الشماليين، الذين فوجئوا هم أيضاً بانقلاب آذار، كانوا يتحملون أكبر مسؤولية في أحداث كمبوديا. أن اهتمامهم غير المشروع والبغيض بالأراضي الكمبودية، هدّم الوحدة الهشة لحياد بلاد سيهانوك. وفي الرابع من شهر نيسان، رفض الدوق تو مناقشة ليس فقط وقف اطلاق النار،بل أيضاً كل مشروع خاص بحياد كمبوديا، أنهم الشيوعيون الفيتناميون الشماليون، وليس نحن، الذين صمّموا على قتال دون هوادة، لجسم دامٍ لمملكة صغيرة حيادية، ما كانت تتمنى سوى العيش بسلام.

أن احتضار كمبوديا مضى دون رحمه كمأساة يونانية، وكان الشيوعيون عازمين على انتزاع نصر حاسم، فجُرحَ سيهانوك في كبريائه وأشرك في أموره العامّة أعداءه. أما بالنسبة لنا، فكنّا على أهبة مغادرة الهند الصينيّة وفقدان السيطرة عل الأحداث.

وقبل إلقاء أحجار الشطرنج وبصورة نهائية، حدث فاصل زمني، أجبرنا خلاله للمحافظة على أوضاعنا في فيتنام، الأقدام على خطوة أخرى أحادية الجانب. وقد حان الوقت لسحب قوات أخرى.



كان شعبنا يحثّنا خلال زمن الحرب، وضمن حكومتنا كما في خارجها، على رفض الحل العسكري، والسعي وراء حلّ دبلوماسي. ولسوء الحظ، فإن الحقيقة

الناصعة، أن كل تمييز بين هذا الحل أو ذاك، لم يكن ليس فقط مرفوضاً من قبل خصمنا، بل غير مفهوم، وفي كل مرة كنت ألتقي الدوق تو، كان يترك وجهات نظرنا الصحيحة، والواقعية، ثم ينتقل إلى موضوع آخر ليبيّن لي كم كان موقفنا العسكري في حالة لا يرجى له منها قيام.وهذا هو العامل الموضوعي، حسب اعتقاده، الذي يجبرنا وبصورة طبيعية على الرضوخ لمتطلبات فيتنام الشمالية. ولم يكن هناك حل دبلوماسي بالمعنى الصحيح: ولو أننا لم نقم ببذل جهودنا السياسية والعسكرية بصورة ترادفية، لما كنّا وصلنا إلى شيء. وفي عام ١٩٧٢، لم يترك لنا رجال هانوي أي خيار سياسي. أن المفاوضات كانت تعني بالنسبة لهم، فرض انسحاب أحادي الجانب من قبلنا وخلال أقصر مدة، وإسقاط حكومة سايغون، وكان تصرّفهم بهذه الطريقة، لاعتقادهم أنهم في الطريق إلى ربح المعركة. وكان علينا أن نصل بهم إلى مأزق عسكري لحملهم على قبول تسوية.

كنت أتمنى حلاً سياسياً، كما كنت أفضل مستشاري الرئيس في طرح صيغ المفاوضات. وبصورة أكيدة هذا ما كان يحملني على المطالبة بسياسة عسكرية ترغم هانوي على قبول تسوية وإجراء مفاوضات. أن تحديد فترات وإجراء انسحابات تلقائية، لا تساعدنا إلى وصول سهل لتسوية سياسية. كنا نخسر كل قدراتنا، التي نحن بحاجة إليها للتفاوض. أننا في خطر، على ما أعتقد، إذا أجرينا انسحابات طويلة الأمد، في سبيل إرضاء من يراقبنا، ويجب أن تكون سريعة لصالحنا العسكري والسياسي. لم تكن هذه سياسة بل استسلام. أن الانهيار سيصبح محتوماً ولو كنا راغبين في اجتنابه.

وفي الثامن من شهر نيسان، وصل إلى البيت الأبيض تقويم للوضع من قبل الجنرال ابرامز. كان الجنرال يقدّر، مثله مثل ويلّر مهلة تسعين يوماً للانسحابات. وكان يرفض أي تقليل في العمليات الجوية وطلعات B52 التي اقترحها ليرد. وكان ابرامز يؤكد، أن جيوشنا المنسحبة، تجبرها على البقاء قوات فيتنام الجنوبية بدفاع

لا يجدي. وأن مقاتلات B52 هي موردها الاستراتيجي الوحيد. وفي الخامس عشر من شهر نيسان، أرسلت تقريراً إلى الرئيس أكدت فيه على ما يأتي:

"ما دامت منفعتنا من الفيتنمة سابقة لأوانها، وما دامت القوات الحليفة قد انتشرت تقريباً على حدود مطلوبة، فإن التقليل الكبير في طلعاتنا الجوية، التي تفرضها الموازنة، له مخاطر عظيمة. وأشرت على الرئيس أن يطالب بدراسة، حول الطلعات الجوية الضرورية لمساندة الفيتنمة. وهذا ما حدث فعلاً في السابع عشر من شهر نيسان. فمنع كل انقاص ما دامت الأزمة قائمة،لكنها ستعود دون تحديد في الخريف، وهذا ما شجّعنا على إرسال تعزيزات هامة، عندما أخذ العدو بالهجوم في عام ١٩٧٢.

ولم استخف بطلبات ابرامز وويلّر، في سبيل الحفاظ على قواتنا، ولا سيما تجاه هجمات الفيتناميين الشماليين في لاوس وكمبوديا. وكنت أعرف مع ذلك، أن إيقاف الانسحاب خلال تسعين يوماً سيثير المعارضة، كما جرى ضدنا في الصيف الماضي، ويسبّب بصورة أكيدة العودة إلى اجراء الانسحابات على شكل هزيمة. وأوجزته في أن الخطأ يكمن في الالتزام بتنظيم زمني ثابت.وبعد مرور بضعة أشهر كان العالم ينتظر الاعلان عن إنسحاب جديد، الأمر الذي كان يبشر باندلاع المنازعات ضمن المكتب التنفيذي والساحات العامة. أن فترات الانسحاب التي كنا نفرضها على أنفسنا، كانت تحدّ من صلابتنا وتجعل الناس يشكّكون في نوايانا.

ولذلك اقترحت على نيكسون الإعلان عن انسحاب هام تدوم فترته عاماً كاملاً. وبعد أخذ رأي الجنرال ويلّر، طالبت بانسحاب عام تعداده مائة وخمسون ألف رجل، وكانت نيتّي تخفيف فترات التنظيم الزمني للانسحاب. ولتحاشي هذه العقبة، أشرت بعدم إعادة سوى عدد قليل من الجنود إلى الوطن، خلال تسعين يوماً القادمة، والاحتفاظ بأكبر عدد ممكن من الانسحابات لعام ١٩٧١. فهم نيكسون أن هذا

سيمنحه مجالاً للمناورة، وسيكون له تأثيره المحبّب على الجماهير. في السادس من شهر نيسان ، بعثت لكل من بونكر وابرامز رسالة غير رسمية:

"... إذا أعلنا عن انسحاب تعداده أدنى ممّا جرينا عليه حتى الآن، فإننا نخشى ردود فعل عنيفة من الجمهور، ولذا فقد أعلنّا بالنتيجة انسحاب مائة وخمسين ألف رجل على الأقل، خلال العام القادم، وأننا عازمون في الوقت ذاته على انسحابات رمزية خلال الأشهر القادمة، أو عدم إجراء أي انسحاب نهائياً.وأكون ممتّناً لكما حالما تعلمانني عن رأيكما حول هذا الموضوع."

وفي الثامن من شهر نيسان، أبلغني كل من ابرامز وبونكر، قبولهما بفكرتي وأعتقادهما، أن الرئيس تيو، يقبل كذلك بانسحاب مائة وخمسين ألف رجل، بينما أن الأعداد الأخرى الكبيرة باقية في أمكنتها طيلة عام ١٩٧٠، وكانا يؤكدان على ان تكون طلعات المقاتلات B52 في أعلى مستوى ممكن، لا سيما طوال النصف الأول من عام ١٩٧١، حين تصبح تقليصات قواتنا سريعة وذات أهمية.

وفي الحادي عشر من شهر نيسان، أعلمت ابرامز وبونكر أن الرئيس يحتاج إلى موافقة تيو. وأكدت على حفظ هذا الأمر في " سرّية تامّة"، ولم يكن أحد في واشنطن باستثنائي أنا مطلعاً على ما ينوي الرئيس عمله. وكان على بونكر أن يبيّن للرئيس تيو ضرورة المحافظة على كتمان ذلك. ووجّهت في الوقت نفسه تعليمات إلى بونكر، ترتكز على دراسات خاصّة ومختارة، مفقّطة بأرقام تختلف عن تلك الأرقام التي نوقشت بطرق غير رسميّة. نجح بونكر وابرامز وبشكل غريب في مجابهة سلسلتين من التعليمات. وبالنسبة لتيو، فقد كان من رأي بونكر وابرامز في موضوع التوقيت الزمني للانسحابات والعمليات الجوية.

وفي السابع عشر من شهر نيسان، توجه نيكسون إلى هاوي ليستقبل روّاد

فضاء ابولّو الثالثة عشرة. وللتمكن من متابعة القضيّة الكمبودية، والاجراءات الخاصّة بالانسحابات، ولم أرافقه أنا في رحلته هذه. وفي هونولولو، قدّم الاميرال جون ماك كاين، آمر قواتنا في المحيط الهادي، عرضاً مفصّلاً لنيكسون. مبيّناً أهمية مخاطر الوضع في لاوس وكمبوديا وأكد له وجوب المرونة، في التنظيم الزمني للانسحابات.

ذهبت لاستقبال نيكسون، في سان كليمانت، مساء التاسع عشر من شهر نيسان، أي على ما يقارب خمسة آلاف كيلومتر من مقر الحكومة. فصرح نيكسون للصحافة، أنه سيلقي في مساء اليوم التالي، خطاباً حول الانسحابات من فيتنام، لكنّه رفض الإفصاح عن المضمون.

وفي ساعة متأخرة من بعد ظهر يوم العشرين من شهر نيسان في سان كليمانت، بادرت إلى مكالمة ليرد وروجرز، وصارحتهم في القرار الذي اتخذه الرئيس: أي انسحاب مائة وخمسين الف رجل، من هذا التاريخ وحتى نهاية ربيع عام ١٩٧١. يجري سحب ستين الفاً عام ١٩٧٠ ، والتسعون ألفاً عام ١٩٧١، وسيكون سحب أكبر قسم من عام (١٩٧٠) بعد الأول من شهر آب. وفي العشرين من شهر نيسان أقدم نيكسون على إعلانه المفاجىء". فكان فعلاً عملاً عظيماً يعود إليه الفضل بمساندة ما نقوم به في فيتنام. وفي الواقع كنا في رضى من الإجراءات السياسية، إذ قدّمنا توقيتاً زمنياً للانسحاب، وفي المجال العسكري كنا نساند القوات الرئيسية الممكن ابقاؤها خلال الأشهر الثلاثة القادمة. في حين أن قوات هانوي كانت تهاجم كمبوديا وتتقدم في أراضي لاوس. وعلى الرغم من كل تحركاتنا الإدارية، وتغيير معدّل الانسحاب الشهري.

قمنا خلال عام بإنقاص كلي في الانسحابات يعادل مائتين وخمسة وستين ألفاً

وخمسمائة رجل. من أصل ما كان مقرّراً عند استلامنا الحكم وهو خمسمائة وتسعة وأربعون ألفاً وخمسمائة رجل.

وكان روجرز مع قرار الرئيس، وطالب بعدم إقدام الرئيس على قرارات مثل هذه. أما ليرد، فكانت رغبته ان تكون الانسحابات نظامية، وطالب بمقابلة الرئيس نيكسون. فتدبّرت له هذه المقابلة في اليوم التالي في واشنطن التي سيعود اليها الرئيس بعد إطلاق خطابه. وخلال هذه المقابلة التي جرت في الحادي والعشرين من شهر نسيان، شرح نيكسون لليرد قائلاً: علينا إثبات وجودنا، خلال الشهرين أو الثلاثة القادمة، وكان علينا تأجيل الانسحابات إلى أجل ابعد. فأجاب ليرد بدوره: عليّ أن اذكّركم أن هناك مشكلة مالية ألا تعرفونها؟ (وكانت هذه عبارة يرغب ليرد في ترديدها، ليعرف عن محادثه، هل إنتبه لما كان يقول، لا سيما اذا كان غير مطّلع على ما يقول) فأكد له الرئيس انه يعلم ذلك. فأكّد له ليرد مجّدداً: ان عليه أن يسحب ستين ألفاً حتى شهر تشرين الثاني الذي تجري فيه انتخابات الكونغرس. وإلاّ فسوف يتعرّض لمفاجآت. فأجابه نيكسون: ان الأمر لا يتعلّق بما تبقى من جنود في فيتنام خلال المدة المحدّدة، بل علينا أن نتفهم الطريقة التي نغادر بها فيتنام عند النهاية، وأردف اني سآخذ في الحسبان ما قدّمت من آراء.

وعندما يقول نيكسون لأحد أعضاء حكومته أنه سيفكّر بشيء قيل له، فهذا يعني أنه لم يغيّر في أنه لا يريد منازعة أي منهم، وأنه يستطيع تثبيت قراره السابق، سواء بوساطة هالدمان او بوثيقة مكتوبة: وهذا ما حدث فعلاً. فان الرئيس وقّع في اليوم التالي مذكرة موجزة ووجّهها إلى ليرد:

«مذكرة موجهة الى وزير الدفاع:

لا حقاً لحديث بعد ظهر أمس، اؤكد لكم ثانية، اني قرّرت عدم استعادة أكثر من

ستين ألفَ هذا العام، تفضلوا بموافاتي بمخطّط وافٍ بهذا الغرض قبل الأول من شهر أيّار.

واذا لم أطلع على هذا المخطط، فلن يبرمج أي انسحاب اضافي». فتظاهر ليرد بقبول القرار بنيّة طيّبة. لكنه كان على معرفة تامة ان رئيسه يعود للمهاجمة حالما يكون الظرف مؤاتياً. ولقد استطاع اقناع الرئيس في شهر آب، أن أحسن وسيلة لإظهار تقدّم في القضية الكمبودية، هي في استدعاء تسعين ألفاً، حتى نهاية عام ١٩٧٠، تماماً عكس ما كان قد قرّر الرئيس. فقبل الرئيس، وربح ليرد المعركة. وجزء من قبول الرئيس لأنه كان يكره المشادّات التي لا نهاية لها. والجزء الآخر لأن انتخابات الكونغرس كانت وشيكة الوقوع.

أن معضلات سياستنا الفيتنامية، كانت تنعكُس على الهوّة التي تفصل رؤيتنا الحقيقة، عن طبيعة ما يدور من نقاش عام. وما هو حقيقي بالنسبة لنا، فهو الهجوم المعادي على لاوس وكمبوديا، الهجوم الذي كان يهدّد وضعنا العسكري في فيتنام. ومع ذلك، في حين أن التهديدات الموضوعية كانت تتعاظم، كنا نطالب بمتابعة برنامج انسحاب أحادي الجانب. وبالنسبة للرأي العام، كنا نرى أنفسنا معرّضين للدخول في التزامات مع بلدين آخرين بعيدين. وكنا على اعتقاد بوجوب منع انهيار هذه الدول، إذا أردنا تعزيز قوة الفيتناميين الجنوبيين ومساعدتهم على استعادة كرامتهم، دون أن تأخذ انسحاباتنا شكل الهزيمة، كان مناوؤنا يراقبون جميع تحركاتنا العسكرية، ويدعون أن مجهودنا العسكري دون جدوى، وهو غير مترابط بل يتناقض مع أهدافنا الدبلوماسية. كنا ندرك بيقين، بعد أن رأينا ما قام به الدوق، أننا لا نستطيع القيام بأي عمل دبلوماسي له تأثيره، دون استخدام استراتيجية عسكرية ممكنة.

وبالنسبة لتنظيم حكومة نيكسون، فإنه كان على استعداد لاتخاذ قرارات دون

تفكير بالنتائج المترتبة عليها. وعندما يعتقد أحدهم بأمر، فإنه يغامر فيه بشجاعة، وكان الرئيس يكره مجابهة من يخالفه بالرأي، متهرباً من بذل أي مجهود لإقناعه. كان يتخذ قراراته، داخل الشرنقة التي نسجها حول نفسه، ويرفض أخذ رأي من كان يخالفه. تلك هي مفارقات رئيس قوي حازم في قراراته، غير واضح في ما يصدره من أوامر. أن اتخاذ وتطبيق قرارات كان يترك ندبات لديه ولدى آخرين ممّن ضحّى بهم الائتلاف الحكومي على مذبح اقتضابيّه الرئيس. وكان لهذا تأثير معاكس، فلا يشجع الموهوبين من التابعين له ممن كانت شخصيّاتهم قادرة على الانصياع لتوجيهاته. ولما كان نيكسون لا يحب التعاون مع أجهزة حكومته، ويحتفظ لنفسه بما يهدف إلى عمله، فإن حكومته كانت تحاول أن تستزيد من سيادته الذاتية للابتعاد عنه. وكان هذا الوضع يعزّز لدى نيكسون اعتقاده أن الإدارة تعاكسه. وأنه على ثقة أن الإدارة، لن توافقه على أفكاره ولا تنفّذ ما كان يصدر من أوامر. فأوجد كل هذا حلقة مفرغة، فأصبحت عزلة الرئيس تتزايد، والسلطة المركزية في اتخاذ القرارات، أخذت تتركّز أكثر فأكثر في البيت الأبيض. وقد استدعى ذلك بالمقابل الضغينة وروح العداء لدى أعضاء الحكومة.

سيوضع كل هذا التحرك في التجربة، لدى حدوث أزمات أخرى، سيجد البيت الأبيض نفسه عالقاً هو فيها. واتخاذ قرار فيما يجب عمله في كمبوديا أصبح محتوماً.

❐ ❐ ❐

كان أمامنا منذ الحادي والعشرين من شهر نيسان خيار واضح ليس فيه غموض، وهو ترك فيتنام الشمالية تجتاح كل كمبوديا، وتجعل منها ساحة قتال، وعندئذ نهاجمها جواً وبحراً (وروجرز نفسه قال لي في الحادي والعشرين من شهر نيسان، اذا استولى الشيوعيون على كمبوديا، فلا يبقى حينذاك مانع من قصفها) أو

الصمود أمام ابتلاع كمبوديا، والدفاع عن استقلال حكومة معترف بها من قبل الأمم المتحدة ومعظم الدول الأخرى بما فيها الإتحاد السوفيتي.

ولم يفكر أحد بمهاجمة القواعد قبل الحادي والعشرين من شهر نيسان، واتخذ القرار النهائي في الثامن والعشرين من شهر نيسان، ومهم جداً معرفة تفاصيل اتخاذ القرار، لأكتشاف من يعرف ذلك وفي أي وقت.

ودون أدنى ريب، فان تفصيل الوضع للرئيس نيكسون من قبل الأميرال ماك كاين في الثامن عشر من شهر نيسان، قوّى مخاوف الرئيس تجاه كمبوديا. وكان قلقاً جداً حتى انه استدعى ماك كاين للمجئ الى سان كليمانت لاطلاعي على العرض نفسه في العشرين من شهر نيسان.

وفيما أنا على طريق سان كليمانت قاصداً مقابلته، توصلت الىالنتيجة ذاتها. وما كان يدور بخلدي، كيف نقدرالبقاء مكتوفي الأيدي تجاه انهيار كمبوديا، ولا نقدّر ان هذا سوف يفضي الى تدمير تلقائي لكل ما قمنا به في فيتنام. ولقد أثرت هذا التساؤل خلال محادثتي مع نيكسون فيما كان ماك كاين يسابقني عليه. وأول شيء أقدم عليه نيكسون بعد عودته الى واشنطن، كان تنظيم لقاء معي ومع هلمز الساعة السابعة صباحاً من اليوم الحادي والعشرين من شهر نيسان، للاطلاع على التطورات الأخيرة. فبيّن هلمز في تقريره أن الفيتناميين الشماليين كانوا يقومون بمهاجمة البلد بكامله، وان فنوم بين لن تصمد طويلاً وعند تفحص طبيعة ردود فعلنا (وعموماً مهملة) بيّن نيكسون أن الخمسة ملايين دولاراً المخصصة لشراء أسلحة لكمبوديا، التي اقرّها فريق العمل الخاص في واشنطن، والتي كان قد ضاعفها بعد مدة قليلة، لا تزال محجوزة بسبب بطء واهمال الادارة. ووكالة المخابرات الأمريكية، لم تتسلّم بعد أجهزة المواصلات، التي طالبت بها في الأول من شهر نيسان، وعادت

فألّحت بطلبها في السادس عشر منه. فخرج نيكسون عن طوره، وأصدر أمراً بتحويل عاجل للمال، وطلب عقد اجتماع لمجلس الأمن القومي في اليوم التالي.

ولإعداد هذا الاجتماع، طلبت من الجنرال وستمورلاند ان يعلمني عمّا اذا كان الفيتناميون الجنوبيون قادرين حقاً على القيام بعمليات عسكرية ، فأجابني الجنرال ان عمليات كهذه، يمكن أن يكون لها تأثيرها، لكنها لن تكون حاسمة دون دعم أمريكي، وأرسلت كذلك رسالة، بطرق غير رسمية إلى ايلزورت بونكر، وطلبت إليه موافاتي برأيه الحقيقي، مع رأي ابرامز، حول النتائج العسكرية والسياسية والبسيكولوجية في حال عودة سيهانوك، أو انتصار شيوعي في كمبوديا، وان يبيّنا لي أيضاً عمّا اذا كانت لديهما عروض ممكنة.

منذ شهر شباط، والفيتناميون الجنوبيون يقومون من وقت لآخر بعمليات عسكرية محدودة، فيما بعد الحدود (أي على بعد خمسة كيلو مترات) ضد قواعد فيتنام الشمالية، بمساعدة بعض مواقعنا. وكانت الغاية من هذه العمليات، التي كانت تجري أحياناً بالتعاون مع بعض المدنيين، الكشف عن مخابئ أسلحة الفيتناميين الشماليين. وعلى اثر الزيارة التفتيشية التي قام بها الجنرال هيغ لفيتنام الجنوبية في شهر كانون الثاني، بيّن ان هناك مخابئ معادية، علىبضع كيلومترات من الحدود الكمبودية وقريبة جداً من المناطق المأهولة، ويمكن قصفها بمقاتلات B52 دون خطر. وخلال زيارة ليرد لفيتنام في شهر شباط، سمح للجنرال ابرامز، ان يساعد عسكرياً قوات فيتنام الجنوبية للقيام بغارات قليلة العمق في الأراضي المعادية. فاجريت غارة في السابع والعشرين من شهر آذار، وتحدّثت عنها الصحافة. كما جرت غارة في اليوم التالي ونشرت الصحف أخبارها كذلك. وصرّح رون زيغلر الملحق الصحفي للبيت الأبيض، في الثامن والعشرين من شهر آذار، ان آمري الوحدات الأمريكية، مسموح لهم الآن، إجتياز الحدود الكمبودية، ردّاً على التهديدات الموجّهة للقوات الأمريكية.

وبعد اطلاعي على اخبار الغارة الأولى فيما وراء الحدود، طالبت بوقف مؤقت، ليتاح لنا الوقت لدراستها بعمق في ضوء الوضع الجديد ولكي لا نعطي حجّة لهانوي في توسيع رقعة الحرب. انـي لا أرضـى بسياسة تحدّدها قرارات تعبوية يتخذها الضباط على أرض المعركة. بعد أن أصدرت هذه التعليمات، أخذت عطلة أسبوع كنت أنتظرها منذ وقت طويل. فأرسل هيغ البرقية التالية إلى بونكر في السابع والعشرين من شهر آذار:

«اذا توالت هذه الغارات، فلا بدّ أن يقال أن حكومة فيتنام الجنوبية تدفع بالولايات المتحدة لتوسيع رقعة الحرب».

«وعلى الرغم من علمي الأكيد، أنكم لاتملكون الحرية الكاملة في هذه الأمور، فان السيد كيسنجر، يتمنى ان تشجّعوا تيو على الامتناع عن هذه الغارات، ما عدا الحالات التي يدعونا التزامنا الامريكي أن نقوم بها. ان السيد كيسنجر يرغب في اعلامكم أنه على الرغم من تفهم الرئيس لأوضاع فيتنام الجنوبية، فانه يخشى ان يكون التقدّم العسكري القصير الأمد، الذي كان نتيجة غارات على خطوط العدو، يتلاشى بسبب المخاوف من إحداث وضع لا يتفق مع الرأي العام، حيث نعود فنخسر مساندتنا في سياستنا العامة في فيتنام».

وفي الثلاثين من شهر آذار، ذهب بونكر لمقابلة تيو وشرح له سبب تعليق العمليات والغارات فيما وراء الحدود، وقال له بونكر أيضاً، ان هدفنا هو تجنب توسيع رقعة الحرب. فقبل تيو اقتراحنا. واصدرت النيويورك تايمس تحذيراً في الحادي والثلاثين من شهر آذار، قالت فيه: اذا سمحنا بإجراء غارات ضد القواعد الشيوعية، فان الحكومة الكمبودية ستخاطر بجر الولايات المتحدة إلى الحرب. وبناء على ذلك فان الحكومة الكمبودية المحافظة على سياسة الحياد التام، كذّبت في

الحادي والثلاثين من شهر آذار، من أن الولايات المتحدة وفيتنام الجنوبية سمحت بتكثيف هذه الغارات.

وفي اليوم ذاته، اذ كنت بعد في العطلة، قام ليرد بزيارة للرئيس للاحتجاج ضد وقف الغارات في الاراضي المعادية. وكنت قد كلّفت هيغ هاتفياً لإعداد جواب إلى أن أعود، وعدم السماح على كل حال باجراء عمليات كثيرة في ما وراء الحدود، قبل مقابلتي للدوق تو، المتوقعة بتاريخ الرابع من شهر نيسان، فلم يُعِر الرئيس اهتمامه لتوصياتي. وأمر هيغ أن يسأل بونكر وبطرق غير رسمية، العودة إلى القيام بعمليات في اراضي العدو، شريطة أن تحافظ على المستوى الذي كانت عليه قبل الهدنة، وبالاتفاق على أجرائها مع القوات الكمبودية المسلّحة. وعلى ما أذكره الآن، جرى طيلة الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر آذار، أربع عمليات لا اعتبار لها، وكلها تلت لقائي مع الدوق تو في الرابع من شهر آذار.

وخلال الأسبوعين الاخيرين من شهر نيسان، هاجمت القوات الشيوعية تجمعات كمبودية، كانت إحداها مدينة سينول الحدودية، في الثاني والعشرين من شهر نيسان. طالبت الحكومة الكمبودية الأمم المتحدة مجدداً لمساعدتها في دحر المعتدين. ولم يؤخذ بهذا الطلب كما جرى للطلبات التي سبقته. ومع ذلك فقد كان عسيراً وجود حالة عدوان أكثر تهديداً. فعقد اجتماع هام لمجلس الأمن القومي لدراسة الوضع في كمبوديا، عقد في واشنطن بتاريخ الثاني والعشرين من شهر نيسان. وأرسل لي الرئيس في اليوم ذاته سيلاً من الرسائل، مضروبة على الآلة الكاتبة، تعكس ما كان عليه من انشغال بال.

وفي الرسالة الأولى، التي كتبت الساعة الخامسة صباحاً، كان نيكسون يؤكد على القيام «بضربة جريئة» في كمبوديا. فكان عازماً على عمل شيء ولو رمزياً،

لمساعدة لون نول على البقاء، ويخشى في الوقت نفسه ان يكون حظ لون نول قليلاً. وكان يعتقد أننا «فوّتنا القطار» عندما أسأنا الظن في أن العون الأمريكي يسيء إلى حياد لون نول، ويعطي حجّة للفيتناميين الشماليين، لأن الشيوعيين ما احتاجوا قط إلى أسباب. وأكبر دليل لنا على ذلك: هنغاريا عام ١٩٥٦، وأيضاً تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨. واقترح الرئيس كذلك ارسال السفير روبرت مورفي ليبعث الاطمئنان في نفس لون نول، ولتأكيد عزمه على متابعة السير في هذا الطريق، طلب اليّ اعلام بعض سفرائنا المخلصين في البلاد الصديقة، ان موقفهم من هذه المهمّة يظهر لنا حقيقة من هم أصدقاؤنا.

وصدرت رسالة ثانية في اليوم ذاته، متضمنة نفس التعبير، ويقصد بها ان أوجه نداء إلى السفراء اليابانيين والفرنسيين والانكليز وغيرهم، والتأكيد عليهم اننا نعتمد على حلفائنا لمساندتنا. ومذكرة ثالثة كانت تعليقاً على رسالة حديثة العهد ارسالها سيهانوك إلى عضو مجلس الشيوخ مانسفيلد. كان سيهانوك يشبّه بها حكم لون نول بحكم هتلر، ثم يردف قائلاً: ان الايديولوجية الحقيقية القاسية، طالما هي مرتكزة على العدالة الاجتماعية، فانها أفضل بكثير من حكم يشترك فيه أناس معظمهم فاسدون، ورجعيون معارضون للشعب...» وكان سيهانوك يعلن انه عازم على تخليص بلده، ولو كلّفه ذلك تغيير ايديولوجية كمبوديا. فوجد نيكسون ان سيهانوك يقلّد تماماً موقف الشيوعيين. وطلب إلي ان انقل الرسالة بصورة سرية إلى روجرز وهلمز. وكان يرجوني في الرسالة الرابعة ان استدعي القائم بالأعمال السوفيتي وان احذّره ان الرئيس قد اتخذ القرار النهائي في العودة إلى الأعمال الحربية في حال تقدّم الشيوعيين نحو فنوم بين. ولم يمكنّي توالي الأحداث من تنفيذ هذه التعليمات. وبعد ذلك، في صبيحة اليوم الثاني والعشرين من شهر نيسان، واثناء لقاء مع الرئيس، اعترضت على فكرة ارسال مورفي (أودين اتشيسون، الذي اقترحه بعد ذلك إلى

كمبوديا، لأن هذا القرار سيكون فاتحة نقاش، ويوافق عليه طبعاً مجلس الأمن القومي. فأجاب نيكسون: فليكن من نرسل أياً كان، اني اريد أن اكون على ثقة من أن كمبوديا لن تُسحن بحجر الرحى قبل أن نقوم بعمل ما تجاهها. ثم أردف: كل ما أسمعه ممن يأتون إلى مكتبي «كيف نخسر» ولا أحد بينهم واحداً يبيّن لي «كيف نربح». وأصدر أمراً بتغيير ليّود ريفز القائم بالأعمال في فنوم بين، والاسراع في المساندة الأمريكية للعمليات الحدودية قصيرة المدى. ولا يزال كعادته، عندما يقوم بتسريح بعض الناس، فانما ذلك لإظهار عدم رضاه. ولم يجرِ على ذلك أي تعليق لا سيما على المستوى الوظيفي.

ولقد تلقينا، خلال هذا الوقت، جواباً طويلاً من بونكر وابرامز يبيّنان فيه النتائج المؤسفة التي تؤول إليها عودة سيهانوك إلى السلطة، الذي أصبح دون شك واجهة شيوعية، وما لدى الفيت كونغ والفيتناميين الشماليين من مناقب صارت معزّزة لديه، وستزداد قدرة هانوي على مساندة حرب طويلة الأمد، وستكثر أسباب الصدمات في فيتنام الجنوبية، وسوف يجري تحكيم حول الفيتنمة. وبونكر وابرامز كلاهما كانا يطالبان بتقوية سريعة لعمليات حدودية قصيرة المدى وعمليات مشتركة من الأمريكان والفيتناميين الجنوبيين ضد أهم القواعد الشيوعية. وفي اجتماع مجلس الأمن القومي، عرضت ثلاثة آراء تعبوية:

- عدم الإقدام على أي عمل (حلّ اعتمدته الشؤون الخارجية والدفاع).
- مهاجمة القواعد فقط بقوات فيتنامية جنوبية (وهذا ما اراه أنا).
- واستخدام كافة القوّات اللازمة، لحماية جميع القواعد، بما فيها القوات الأمريكية (وهذا الحل أوصى به كل من بونكر وابرامز وهيئة الأركان العامة المشتركة).

وكانت هناك بوجه خاص قاعدتان هامّتان: «منقار الببّغاء» في مقاطعة سفاي

ريانغ الكمبودية، والتي كانت متقدمة في داخل فيتنام. ولم تكن سوى على بعد خمسين كيلو متراً تقريباً من سايغون. وهذه نفسها كانت قد آوت قوات فيتنام الشمالية التي كانت هاجمت منطقة سايغون، ومزارع الرز في الدلتا طوال مدّة حرب فيتنام. وعلى بعد منها في الشمال، كانت هناك قاعدة ثانية «الصنّارة» . وكان لدى الاختصاصيين في اجهزة مخابراتنا أسباب تحملهم على التصديق ان C.O.S.V.N. الإدارة العامة الشيوعية لكل عمليات الجنوب، كانت متمركزة فيها . وكانت أيضاً منطقة مرور للفرقة السابعة من جيش فيتنام الشمالية، التي كانت تهدّد سايغون بالتوالي، وتنغّص دائماً عيش منطقة فيتنام الجنوبية القريبة منها ان قاعدة «الصنّارة» كان منيعة جداً، ولم نكن معتقدين ان جيش فيتنام الجنوبية تكون لديه القدرة في الصمود في هاتين القاعدتين. فكيف نوصي اذاً بإبقاء المجابهة فقط على قوات فيتنام الجنوبية، فإن هذا يعني مهاجمة احدى القاعدتين.

ان القرارات الحاسمة، نادراً ما تكون نتيجة مناقشات معمّقة. وفي الوقت الذي يصل فيه اقتراح إلى مجلس الأمن القومي، يكون موضوع تحليل من قبل لجان وظيفية، حتى لقد أصبح أعضاء الحكومة وكأنهم ممثلون علىأهبة تقديم أدوارهم. ويكرّرون ما يكون قد أعلنه مرؤوسوهم في اجتماعات أخرى. وفي مجلس الأمن القومي الذي شكّله نيكسون، يجب الأخذ في الحسبان ان على كل مشترك ان يعتقد بينه وبين نفسه أنه لا يمكن ان يكون على اطلاع على كل شيء.وكالعادة، كان يوجد أيضاً تلك الازدواجية، بين نوايا رؤساهم المعقّدة، والخشية من تأثير النتائج على البلاد. وكانوا يعتبرون طاعوناً كل رأي جديد يظهر وكأنه تصعيد للحرب. وحول الطاولة لم يخالج الشك أياً من الحاضرين أن الشيوعيين في النتيجة سيستولون على السلطة في كمبوديا .ولكن مهما كانت صفة القرار الذي سيُتّخذ، يجب أن نهيّئ

انفسنا لقبول سلسلة جديدة من الاعتراضات، والانتقادات المرّة وربّما بعض العنف في البلاد. وفي حال سقوط كمبوديا، سيضيّق علينا الخناق لنقوم بانسحاب احادي الجانب واذا قبلنا بحل آخر، سنُتّهم بتوسيع رقعة الحرب، فليس هناك من حلّ وسط.

اتخذ القرار الأساسي بمهاجمة القواعد عند انفضاض اجتماع تقليدي لمجلس الأمن القومي. واعترض روجرز على كل عملية واسعة النطاق. فيما وراء الحدود، حتى ولو قام بها الفيتناميون الجنوبيون. وبالنسبة له لم يكن لديه أدنى شك، ان قصف كمبوديا قصفاً حاداً سيتبعه دون ريب انهيار نظام فنوم بين. وجعل ليرد من نفسه المدافع الأكبر عن العمليات القليلة العمق في بلد العدو، لكنه لم يكن يتفق بالرأي مع الجنرال ابرامز، الذي كان يوصي بوجوب التدمير الشامل للقواعد. اما هلمز فكان يناصر كل عمل يكون القصد منه تحييد القواعد. وكان نيكسون يشارك في مناقشة قراراته بعد اجتماعات مجلس الأمن القومي، لا اثناءَها وكان يفكّر أولاً، ثم يعطي تعليماته، سواء بالكتابة، أو بالواسطة. ويدلّل بتصرفه هذا على ان مجلس الأمن القومي، كان هيئة استشارية ولا يقدم على اتخاذ قرارات، فيتحاشى بذلك ان تعاد اليه اوامره التي يصدرها. وعدّل نيكسون هذه المرة تصرفه العادي، فصرّح لأعضاء المجلس، انه يُقِرّ مهاجمة القواعد المعادية، من قبل القوات الفيتنامية الجنوبيّة، بمساعدة أمريكية. ولما كان الفيتناميون الجنوبيون لا يستطيعون القيام الا بهجوم واحد، فاقترح عليهم ويلر مهاجمة «منقار الببغاء» وتبعه نقاش حول المشاركة الأمريكية. وكا ليرد وروجرز بدورهما يسعيان إلىتقليصها إلى الحد الأدنى، متحاشييّن بذلك فكرة مستشارين أمريكان، أو عون جوي تعبوي.

وفي هذا الظرف بالذات أخذ سبيرو أغنيو، نائب الرئيس دوره بالكلام، وبيّن عن اعتقاده ان كل هذا النقاش كان دون هدف. وإن علينا أن نقرر هل أن القواعد تشكل خطراً، أم لا. واذا كان هذا الأمر يدعو إلى تدميرها، فانه لا يفهم لماذا هذه القصص

الكثيرة حول دور الأمريكان، ولماذا لا يهاجمون سوى واحدة؟؟ ان مهمتنا تقوم على إنجاح الفيتنمة. وكان يؤكد في حديثه على مهاجمة، دفعة واحدة «الصنارة» و «منقار الببغاء» على ان يساهم بذلك الجيش الأمريكي. وكان أغنيو على حق. واذا كان هناك ثمة شيء يكرهه نيكسون أكثر من تقديم مشروع لم يعدّه حسناً، هو ان يكون فريق أفكاره غر موحّد. وعلى الرغم من أنه ثائر الأعصاب، عرف ان يضع نفسه وبلباقة بين نائب الرئيس، وأعضاء الحكومة، فأصدر أمراً للطيران الأمريكي في مدّ يد العون وبقوّة إلى الفيتناميين الجنوبيّين في عملية «منقار الببغاء»، فقط في حدّ الضرورة. وتحاشى لفظ «عبارة الصنّارة». وبعد ذلك ثبّتت هذه القرارات خطيّاً وبعد الاجتماع، وجّه إليّ نيكسون لوماً شديداً، لأن لم أعلمه مسبقاً، بما كان ينويه أغنيو، والذي بالفعل كنت أجهله، ولا يخالجني أدنى ريب في ان تدخل نائب الرئيس، ساعد على تعجيل نيكسون باتخاذ قراره بمهاجمة كل القواعد بمساعدة الجيش الأمريكي.

وفي اليوم التالي المصادف الثالث والعشرين من شهر نيسان، أخذت مختلف الوزارات، تُظهر عدم الرضى، الذي لن يلبث أن يعم، وتعزو إلى غيرها سبب إصدار هذا القرار. وطالب روجرز السماح له بالاشتراك في اللجان البرلمانية للمساعدات الهامّة العاجلة المخصّصة لكمبوديا. وكان يتخذ من تفكيره هذا ذريعة لإظهار العمليات محدودة بالنسبة للعون العسكري. وكان ليرد يطالب أيضاً بعدم دخول قوات بريّة أمريكية إلى كمبوديا، حتى المراقبين الجويّين المختصّين بالعون التعبوي الذي أقرّه نيكسون. وفي الثالث والعشرين من شهر نيسان، قمت بعقد اجتماعين لفريق العمل الخاص في واشنطن لتحديد شروط بدء العمل بتنفيذ القرارات التي اتخذها نيكسون. ولم تأخذني الدهشة عندما شاهدت أن رأي أعضاء فريق العمل الخاص في واشنطن لا يعكس سوى ما أبداه رؤسائهم. وكانت وزارة الدفاع تطالب

ان يصدر الأمر بكل غارة جويّة من واشنطن. ومن العسير تصوّر الأهداف التي تثبت طويلاً، عند اتّباع اجراءات صعبة مثل هذه. وبعد عقد اجتماعين، اتفق اعضاء فريق العمل الخاص في واشنطن، دون تردّد، ومنحوا الجنرال ابرامز ملء السلطة لاستخدام الطيران الأمريكي في مواكبة الفيتناميين الجنوبيين، فأقرّ نيكسون توصيات فريق العمل الخاص في واشنطن، في الرابع والعشرين من شهر نيسان.

وعلى كل حال، فان الفيتناميين الشماليين أنفسهم لم يهتموا باتخاذ مثل هذه الاحتياطات، وفي الخميس المصادف ٢٣ نيسان، هاجمت القوات الفيتنامية الشمالية والفيت كونغ مدن ميموت وانفتا سوم واستولت على جسر رئيسي، على الطريق (١٣) الذي يربط مدينة سنيول في كراتي العاصمة الأقليمية. واجبر الكمبوديون على التخلّي عن قيادتهم العامة في هونغ لوا، في اقليم الكاندال، في الثالث والعشرين من شهر نيسان، على الرغم من مساعدة طيران فيتنام الجنوبية، وبعد حصار دام عدة أيام.

واستولى العدو كذلك على جسرين إلى الغرب من سفاي ريانغ على الطريق (١). وفي يومي الثالث والعشرين والرابع والعشرين، قامت القوات الشيوعيّة بعمليات هجومية من قبل الكوماندوس على مدينة كيب الساحلية. وتوالى تصعيد الحرب كذلك على المستوى السياسي.

وفي الرابع والعشرين من شهر نيسان وبناءً على مبادرة من قبل سيهانوك، عقد مؤتمر قمة لشعوب الهند الصينية في مكان سري من المنطقة الحدودية، بين لاوس وفيتنام والصين، للسماح للشعوب الثلاثة الثائرة لتوحيد إستراتيجيّتها. وشارك في مؤتمر القمّة هذا: نوردوم سيهانوك، وأمير باتيت لاو سوفانوفونغ، ونغويان هو تو من الفيت كونغ، وفام فان دونغ رئيس مجلس وزراء فيتنام الشمالية، وأصدر سيهانوك إعلاناً عاماً طويلاً جداً في بكين في السابع والعشرين من شهر نيسان، متضمناً وعداً

بعون متبادل، في مقاتلة العدو المشترك وكان يقصد «الامبريالية الامريكية». وحيّا سيهانوك في كلمة الاختتام «كمبوديا الشعب».

وتبعت ذلك فترة توتّر شديدة. وكنت على اعتقاد أنه لن يكتب البقاء لكمبوديا وفيتنام الجنوبية، اذا لم نقم بصدّ الهجمات الشيوعية. وكنت شديد التأثر من الانقلاب السياسي، الذي سيحدث بعد مهاجمة القواعد الكمبودية، والانقسامات التي تتبعه ضمن هيئة الأركان. فوجهت نداء إلى الشباب الذين استطعت لقاءَهم، لأني كنت أعتقد ضرورة الإعتماد على حيويتهم ونشاطهم ومثاليّتهم. وكان يبدو لي، ان معارضة الكثير من أمثالهم ستجد منفذاً لمساعدة الحكومة في الشؤون الواقعية للتمكن من الحفاظ على السلام. ان أقرب مساعديّ إلي كانوا ثلاثة: توني لاك، روجر موريّس، وونستون لورد، ولم تكن لهم مخالطة مع نيكسون. وبالنسبة لميلهم، فانهم كانوا يفضلون رئيساً ديمقراطياً. جهدتُ كثيراً حتى استطعت الاحتفاظ بهم، لأن مشاكل البلد لم تكن لترتكز على سياسة التأييد، ولأني كنت معتقداً ان الأخلاقيات لا توجد في بعض الظروف مع الحركات التمثيلية، ولكن في المكافحة في سبيل عالم أفضل، ولو على مراحل غير متكافئة. وكان قد أعلمني كل من لاك وموريّس منذ شهر شباط ، إنهما ينويان المغادرة، وذلك بسبب ازدواجية عاطفتهما، وحيث انهما غير مستعدين للعمل باستمرار. فاكتفيت بتنظيم عمل لهما أقل قساوة حتى الخريف، وفي هذه الفترة بالذات عاد لاك إلى الجامعة، وانضم موريّس إلى فريق عمل مونديل عضو مجلس الشيوخ. وبقي ونستون لورد وأصبح بالنسبة لي مساعداً لا غنى عنه، ومن ثمّ صديقاً. وقبل الإقدام على اتخاذ قرار نهائي، أمضيت وقتا لا بأس به مع لاك وموريّس ولورد، إتفقنا على أن الحل الوحيد الممكن هو تدمير القواعد الفيتناميّة. وأساساً كنت متفقاً وإياهم في التشخيص. وكانوا يردّدون دائماً ان أحد أهدافهم هو منع عودة سيهانوك:

«لن تكون عودته إلاّ برضا الشيوعيين، ممّا يحملهم على التأكيد وبصورة قطعية، انه على أستعداد للتقيّد بجميع متطلّباتهم.... وما هو أدهى فان عودة سيهانوك كمتواطئ مع الشيوعيين، سيكون له رد فعل بسيكولوجي سيء بالنسبة لفيتنام ولاوس، وتعطي لخصوم تيو حجّة ضدّه، لا سيما بين العناصر الأشدّ عداءً في الجيش».

وعلى الرغم من كل شيء، فانهم كانوا يعارضون العمليات العسكرية الأمريكية ضد القواعد الفيتنامية ويطالبون بما يلي:

حكومة كمبودية يراسها المسؤولون الحاليون أو غيرهم ممّن لا يؤيّدون سيهانوك، لأن هذا قد توصّل إلى التفاهم مع الشيوعيين لاستخدام المناطق الحدودية كالسابق. وهذا كان يعني، ان الحكومة الكمبودية ستتظاهر بعدم رؤية أو معرفة أي شيء، دون الإعتراف به جهاراً، ممّا يؤدي إلى امكانية متابعة القصف السرّي والعمليات الدفاعية فيما وراء الحدود التي تستخدمها حكومة فيتنام الجنوبيّة. دون أن تبدي كمبوديا أي إعتراض فعّال، ضد ما يجري من نشاط عسكري في المنطقة الحدوديّة الضيّقة.

إن القرار المتخذ في اجتماع مجلس الأمن القومي، حول عدم مهاجمة قواعد فيتنام الشمالية إلا بقوات فيتنام الجنوبية (والذي أوصيت أنا به). كان يزيد في تعذيبي. أن أغنيو كان معه حق. فكان علينا تنفيذه أو تحييد مهاجمة جميع القواعد الفيتنامية، أو التخلي عن المشروع .لا نستطيع التفكير في كيفية القدرة على مهاجمة قاعدة واحدة، حيث تكون قوات فيتنام الجنوبية بالتعاون مع الطيران الأمريكي تقوم بعملية ربّما كانت حاسمة؟ اننا نجازف في هذا التوفيق بين عقبات هذين الحلّين. اننا نتعب أنفسنا لنتمكن من التدخل في كمبوديا دون الوصول إلى هدفنا الإستراتيجي.

قبل التمكن من عرض وجهة نظري على نيكسون، فوجئنا بحدث يبدو ظاهرياً دون أهمية. لكنه عجّل خطوات التاريخ. حين كشف وليم بيشر أحد محرري نيويورك تايمس، مضمون برقية سرية جداً، نبلغ فيها القائم بالأعمال في فنوم بين، أننا عازمون على تسليم البنادق التي استولينا عليها من الشيوعيين، إلى الحكومة الكمبودية، فتفجر غضب نيكسون، وجعلته الهزائم يخرج عن طوره. وظهرت له هذه العملية، وكأنها مبادرة طبيعية من قبل الادارة. لتحريك الكونغرس والرأي العام، ضد معاونة كمبوديا. ومما زاد الطين بلّة، وفي الوقت ذاته تقريباً، اكتشاف نيكسون ان تجهيزات الارسال والاشارة، وكذلك أعضاء مصلحة المخابرات الأمريكية، التي أمر بارسالها الى فنوم بين في الاول من شهر نيسان ومجدداً في السادس عشر منه، لم ترسل والأعضاء لم يسافروا.

حنق الرئيس حنقاً شديداً، واستدعاني اكثر من عشر مرّات في ليلة الثالث والعشرين من نيسان، وثلاث مرّات من لدن عضو مجلس الشيوخ فولبرايت، حيث كنت أحضر اجتماعا رسمياً، مع أعضاء لجنة علاقات مجلس الشيوخ الخارجية. وكعادته في حال غضبه، فانه كان يصدر أمرا وهو يصرخ، ثم يقطع صياحة فجأة. كان يجب وبصورة عاجلة تجريد رايفز القائم بالأعمال من جميع مهامه، وطرد مارشال غرين. واذا حَقّ لنا التفكير فان مساعده بيل سوليفان يجب ان يُنقل كذلك. وطائرة حرب جويّة وعلى متنها موظفون من مصلحة المخابرات الأمريكية، كانت على أهبة الإقلاع إلى فنوم بين. وكل شخص له أدنى علاقة بالبرقية يجب أن يكون عرضة لكشف هذه الأكذوبة وكان علينا أن نعجّل في تعيين جنرال ليتسلم ملف تحقيق كمبوديا.

وفي هذه الظروف، كان علينا التحلّي بالحكمة ولا نأخذ في مناقشة الأمور، وعلينا ان ننتظر أيضاً أربعاً وعشرين ساعة قبل تنفيذ ما يصدره من أوامر، لنرى هل

يقدم نيكسون على تثبيتها بعد ان يهدأ غضبه. انه لم يعد الى أي منها، في مجرى هذه الأحداث. (فأرسلت تقارير مصلحة المخابرات الامريكية الى فنوم بين على متن طائرة عسكرية خاصة) ومع ذلك فان انفجار غضبه يوم الثالث والعشرين من شهر نيسان، حدا به الى موافقة أغنيو على رأيه: يجب حالاً مهاجمة «الصنّارة» و «منقار الببّغاء». متعاونين مع الجيش الأمريكي ضد «الصنّارة» ودعا الى اجتماع صباح الرابع من شهر نيسان مع الأميرال موورير وهلمز وكوشمان (عضوين في مصلحة المخابرات الامريكية) لمعرفة عما اذا كنا نستطيع القيام بعملية مشتركة (امريكية ـ فيتنامية جنوبية) ضد (الصنارة) بالتساوي مع عمليّة ضد «منقار الببغاء». ان استثناء ليرد وروجرز من حضور الاجتماع. كان بحجة انه يقصد الحصول فقط على تقرير من قبل العسكريين والاجهزة السريّة وفي الوقت ذاته كان انعكاسا لما في نفسه من سخط تجاه تباطؤ الادارة. وهلمز وموورير بدورهما، كانا يحبذان مهاجمة «الصنّارة» لأن هذا سيحمل الفيتناميين الشماليين على العدول عن حركة تطويق فنوم بين وتسبيب الذعر لها. ان تدمير مخازن الذخيرة سيُكسب الفيتنمة وقتاً ثميناً. لكن نيكسون لم يكن بعد عازماً على اتخاذ قراره. وبدلاً عن ذلك، ذهب في طائرة مروحية الى كامب ديفيد، ليفكر قليلاً من الوقت، وايجاد وسيلة للوصول بوزرائه الى الاتجاه الذي يحسن ان يسلكه. وسمح لي خلال هذا الوقت ، حريّة التصرف مع الادراة.

ان الوضع كان يحمل على الدهشة. وليس باستطاعة الادارة سوى طرح اسئلة حول السماح للطيران الأمريكي لمدّ يد العون في العمليات وضدّ قاعدة واحدة، في حين ان الرئيس، كان يهدف اكثر فأكثر نحو تنسيق عمليات فيتنامية جنوبية وأمريكية ضد القواعد. لا أعتقد انه كان طبيعياً استبعاد وزير الدفاع من الاجتماع الذي جرى بين الرئيس ونائب رئيس هيئة الأركان العامة المشتركة، فالتقيت ليرد وأوضحت له الأمور كعرض للحالة العسكرية مع خياراتها، التي تتضمن فيما بينها قضية الهجوم على

قاعدة «الصنّارة» من قبل الأمريكان. وبعد لقاء مع ليرد، أكد أنه يفضل تحاشي السماح لاجراء أية عملية من قبل القوات الأمريكية، قبل تقديم روجرز تقريره، أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ في السابع والعشرين من شهر نيسان. وهذا سيسمح لروجرز ان يصرّح بصدق، ان ليس هناك أي أمريكي متطوع في كمبوديا. ونقل ليرد أن زعماء مجالس القوات المسلحة غير راضين عن تطوع أمريكي في كمبوديا. وزعم ليرد أيضاً، أن ابرامز وويلر، كانا ضدّ فكرة القيام بعملية ضد قاعدة «الصنّارة». وصححت ما قد قيل لدى الاميرال موورير، الذي أخذ يزمجر أن وزيره واقع في خلاف دبلوماسي فاضح.

عندما يندفع نيكسون في قضيّة، فليس هناك ما يمكن من تحديدها سوى موارده التعبوية التي تدفعها الى الأمام. فعزم على إقرار اقتراح روجرز، بالتهويل على الكونغرس، وإشراكه بطلبات المساعدة العديدة التي تتقدم بها كمبوديا، واستخدامها في سبيل البرهنة على صحّة فكرة اجراء عمليات أمريكية ضد القواعد الفيتنامية. وهذا شيء لم يخطر ببال روجرز ولم يفكر به.

وبناء على طلب نيكسون، رجوت رئيس لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ، عضو مجلس الشيوخ عن المسيسيبي، جون ستينّس، الحضور لمقابلتي. وستينّس هذا كان ينتمي الى فئة من كبار أعضاء مجلس الشيوخ، الذين وصلوا الى مراكزهم الحالية بفضل قدمهم ، وهم في أمان دائم على اعادة انتخابهم واستمرارهم في البقاء في مناصبهم. أما بالنسبة لقضايا البلاد، لاسيما العنصرية منها، فيبقون أغلب الأحيان في مؤخرة التيارات الفكرية التي يفرضها عصرهم، لكنهم في قضايا الأمن القومي والسياسة الخارجية، أناس لا يتعاملون. وكان العديد منهم يجيئون من الجنوب، المنطقة التي عاشت قديماً مأساتها الخاصة ولهذا السبب بعينه، كانوا

يتفهمون، ما كانت غير أقطارهم لا تستطيع فهمه، من امكانيّة حدوث مآسٍ، وان البشرية معرّضة للخطأ، وان الكمال غير موجود في هذا العالم، وان الفضيلة لا تستطيع شيئاً دون السلطة.

قابلت ستينس بعد ظهر يوم الرابع والعشرين من شهر نيسان، وعرضت عليه فكرتنا، حول القيام بغارات في كمبوديا، بعون أمريكي، وبيّنت له ان ذلك ضرورة عسكرية اذا أردنا الوصول الى فيتنمة الحرب. وأوضحت له على الخريطة القواعد التي كانت جزءاً لا يتجزّأ من الحرب في فيتنام. واستدعاني نيكسون، فيما كنا نتحادث، وجرى بيننا اتفاق مسبق حول هذا فأوجزت له بحضور ستينس ما دار بيننا من حديث، وأطلعته على ردّ فعل مقبول لدى ستينس الذي اشترك مباشرة في الحديث وتناول موضوع تنسيق العمليات، وأعلن مساندته الشخصية للرئيس.

ومرّة أخرى، عدت فراجعت مخططاتنا مع ويلّر وهلمز، وطلبت من الأخير اجراء دراسة حول ما يراه قادراً على إفشالها. وأكدت عليه اطلاعي على ما يواجهه من مصاعب أو شكوك، حتى استطيع نقلها الى الرئيس في الحال. فأعاد هلمز على مسامعي ما كان قد فكر به سابقاً، ان المذكرة التي تقدم للجمهور حول عملية هي كالتي تقدّم لاثنتين، وان القيام بهجوم علىجبهتين مقبول إستراتيجياً.

وأمضيت حينئذ نحو ساعة من الزمن مع الأعضاء البارزين من هيئة الأركان العامة: لورد ولاك وموريّس، بالإضافة الى بيل واتس ولاريّ لاين، وكلّهم كانوا يعارضون العمليات المقترحة، ويطلبون اعطاءهم فرصة اخيرة لتقديم ملاحظاتهم. وكان لقاءً شاقاً، لأنهم كانوا علىعلم أكيد بما كنّا على أهبة القيام به. فطلب كل من لاك وموريّس وواتس الاستقالة. ولم يقم بأي اتصال كل من وزير الشؤون الخارجية ووزير الدفاع منذ آخر اجتماع لمجلس الأمن القومي، الذي انعقد قبل يومين. وكانوا مطلعين على ما يتخذ من برامج تتعلق بالقوات الأمريكية. ومنذ البداية كان ليرد قد أبلغ

خطة مهاجمة قاعدة «الصنّارة» التي قام بتنظيمها رئيس هيئة الأركان العامة المشتركة. ولم يخف عليهم قلق الرئيس المتزايد، لكنهم كانوا يأبون تصديق نيكسون في اتخاذ قرار يسمح بموجبه القيام بغارة أمريكية. وكانوا يتصرّفون وكأن القضية ستجد طرقها للحل فيما اذا تظاهروا بجهلها. فلم يتقدموا بصيغة بديلة، ولا باعتراض نظامي.

رجوت نيكسون الاسراع بدعوة مجلس الأمن القومي الى عقد إجتماع لاعطاء فرصة للأحزاب ذات العلاقة لابداء رأيها. وكما بيّنت ذلك لهلمز: أني اطالب بقوة، مناقشة كل قرار يتخذ بحضور كلّ من الوزيرين حتى ولو أوقف مفعول هذا القرار. وكانت الأوامر ملقاة في الدرج، ولا يمكن ادخال القرار في حلوقهم قسراً، دون أعطائهم فرصة للتعبير عن آرائهم. وحدد عقد الاجتماع بعد ظهر يوم الأحد المصادف السادس والعشرين من شهر نيسان. ان نيكسون عازم الآن على السير في القضية الى الأمام. وكان همّه التعجيل في تقليص مجابهة روجرز وليرد الى الحد الأدنى. وعندما كان يجد نفسه محرجاً، فان قريحته الشعرية، كانت ترتفع به فجأة الى الأعلى، ويرى نفسه وكأنه يقاتل كزعيم عسكري على تقاليد «باتون» لكن كل مزاج خاص كان يوضع الى جانب، ويأخذ نيكسون بطرح السؤال الأساسي هل نتمكن وبكل صراحة من متابعة انسحاب تدريجي من فيتنام، إذا عادت سيهانوكفيل، مدينة مفتوحة، وشكلت مجدداً مع ما تبقى من كمبوديا منطقة عمليات واسعة؟ والمترددون في الادارة، كانوا يتظاهرون بالقلق حول الوضع الأمريكي. ولم يعط أي جواب على المعضلة، لمعرفة الطريق الممكن سلوكها في سبيل الفيتنمة، في حال انفتاح كل الحدود الكمبودية أمام تسلّل ضخم وعلى كل حال فان الإحجام عن العمل لن يحلّ مشاكلنا الداخلية. واذا صمدنا في آرائنا نتهم بتصعيد الحرب، ولكن اذا سمحنا لغزو كمبوديا من قبل الشيوعيين وابادة فيتنام، واذا أصبحت خسائرنا اكثر أهمية وأخذت فيتنام بالتحطم، فنتهم حينئذ، باتباع إستراتيجيّة لا نهاية لها.

ويوم السبت المصادف الخامس والعشرين من شهر نيسان، استدعاني نيكسون الى كامب ديفيد، لاعادة النظر في خطّة العمل. ونقلت أقدامي مائة خطوة على حافة المسبح، حيث كان يتم سباحته. فقررّنا عقد اجتماع عام لمجلس الأمن القومي، بعد ظهر اليوم التالي، وكان نيكسون عازماً على الالتزام بعملية قاعدة «الصنّارة». و في الواقع فقد بدأ يظهر رأيه وكأنه خاسر، اذ قال:

ربمّا نجبر على تنسيق هجوم ضد القواعد الفيتنامية مع العودة الى قصف شمال فيتنام ولغم هايفونغ. وستبدأ المعارضة ضدّنا في الحالتين. واني على يقين ان نيكسون لم يتصرّف بهذه الطريقة إلاّ ليظهر عن هوسه ليدلّل انه صعب الشكيمة، ولم تكن لديه أيّة نيّة لتحقيق حلّ ما. مع علمه انه يستطيع تبيان الواقع أمام أصحابه ان هيئة الأركان قد تخلّت عنه. ولم يكن ليخطر ببالي أبداً أن بإمكان الرئيس التغلّب على أزمة مثل هذه عن طريق فريق عمل منقسم على ذاته. ولكل هذه الأسباب مجتمة، كنت أجيب دائماً أن أشياء كثيرة لا تزال بين أيدينا للحلّ والتخلّي عن إستراتيجيّة أعلن عنها حديثاً وبكثير من الإلحاح.

وخلال عشر دقائق أهمل نيكسون الموضوع، ولم يعد إليه بعد. ولا أعتقد أنه اتخذ هذا الرأي بطريقة حقيقية. لكني أظن وبعد فوات الأوان، أننا اضطررنا إلى الالتزام به. ان نقيصة أعمالنا العسكرية في فيتنام كامنة في صفتها المتردّدة. كنّا نجهد أنفسنا دائماً في التقدير الدقيق للمعدّل الأدنى للقوات والوقت اللازمين لنا، ولا نسمح لأي مجال للخطأ أو الغموض، حتى لا نشجّع خصمنا على متابعة تقدمّه وحتى لاتخوّله شكوكنا في أنفسنا وأعمالنا التغلّب على جهودنا.

ربمّا كان الدرس القاسي الذي يستفيده زعيم أمّة، هو العلم ان في مجال الاستعانة بالقوة العسكرية، لا يبقى أمامه سوى خيار واحد الا وهو الإقدام أو

الإحجام. ولا يعفي نفسه من إدانة أدبية، من الاستعانة بالقوة، واستخدامها بطريقة سيّئة أو على مضض. ان إظهار التشكّك في حال التردّد لا يفيد شيئاً. أن زعماء الدولة، لا يربحون شيئاً عند إخفاقهم في أمورهم وهم يتردّدون. وطالما ألزموا أنفسهم بأمر، يجب عليهم تحمّل المسؤولية ولا يعرّضون سيادة بلادهم للخطر. فلا الحكومات المتتابعة، ولا مغتابوها أو منتقدوها، استطاعوا حقيقة فهم ذلك، طيلة حرب فيتنام، وهنا يجب علينا البحث في سبب حدوث معظم هذه المسرحيات.

وعلى كل الأحوال، فان الأسئلة حول إستراتيجيتنا، التي أثيرت على حافة ماء كامب ديفيد، لم تشكل سوى بداية محادثاتنا ذلك اليوم. فعدنا واستقلّينا الطائرة إلى واشنطن، وقرابة نهاية بعد ظهر اليوم نفسه، دعا نيكسون جون ميتشيل إلى الإنضمام إلينا، وكذلك بيبي ريبوزو، إلى نزهة في البوتوماك، على متن «السكوايا» اليخت الرئاسي. أن التوتر الذي أوجدته المحادثات عن خطة عملنا العسكرية، كان يُخلي المكان قليلاً فقليلاً، للمرح والغبطة، تحت تأثير المرطّبات العديدة التي قدمت، ومن ثم تحول الجوّ إلى إظهار وطنيّة فيها بعض الإنتقاد. وبعد هذا كلّه نُبّه ان يكون الجميع على حذر لدى مرور «السكوايا» قبالة مونت فيرنون. ولم يشعر الجميع بنفس الغبطة وحال عودتنا إلى البيت الأبيض، دعا نيكسون مرافقيه إلى رؤية فلم «باتون». وهذه المرة الثانية التي يشملني بها بهذا الشرف. ولما كان الفيلم مثيراً، عزمت على الانزواء في نصف العرض، بغية إعداد اجتماع مجلس الأمن القومي، المنوي عقده في اليوم التالي.

شهد يوم الأحد السادس والعشرين من شهر نيسان، تسارع كبير في سير المداولات بسبب قيام فرق فيتنام الشمالية والفيت كونغ، بمهاجمة الأسطول التجاري لليمكونغ، على طريق فنوم بين. واستولت القوات الشيوعية على مدينة أنفتاسوم. وقطعت السكّة الحديدية في فنوم بين، في عدّة نقاط من مقاطعة تاكيو. وتصريحات

الصحافة الصادرة عن هانوي وبكين، أعادت إلى الأذهان الاقتراح التي تقدمت به أندونيسيا، لعقد مؤتمر تشترك فيه بلدان آسيا في سبيل استعادة حياد كمبوديا، الاقتراح الذي كنا ساندناه سابقاً.

في مساء ذلك اليوم، أيضاً، جمع الرئيس أهم مستشاريه لدى مجلس الأمن القومي، روجرز، ليرد، ويلّر، هلمز وأنا، في مكتبه في المركز الاداري. ولم يشترك أغنيو في هذه الجلسة. وعلى الرغم من اتباع نيكسون نصيحة نائبه. فإنه لم ينس طروحاته غير المنتظرة، وهذه المرّة، أراد ان يظهر نفسه رجل الساعة في هذا الاجتماع. ومنذ البداية، أخذ الإجتماع دوراً غريباً. فنقل هلمز إلى الاجتماع إعلاماً من مصلحة المخابرات مفاده: ان هانوي آخذة بتوسيع قواعدها، جاعلة إيّاها ترتبط ببعضها، محاولة خلق جوّ غير آمن في فنوم بين، يوؤل إلى سقوط الحكومة. وشرح ويلّر العملية التي رفضتها القوات الأمريكية ضد منطقة قاعدة «الصنّارة» وأثار امكانية توسيعها إلى قواعد أخرى. فتحاشى نيكسون مجابهة كل من وزير الشؤون الخارجيّة ووزير الدفاع. زاعماً اننا لسنا مجتمعين هنا إلا للسماع والاطلاع على تقرير عسكري.

لقد هدأ قلق نيكسون كثيراً، واذ لم ينطق بكلمة رضا، فإنه على كل حال، عرف تجنب المجادلات الكلامية وبعد أن انتهى الاجتماع دعاني إلى شقّته الخاصة، وطلب إليّ إصدار أمر، يسمح للقوات الأمريكية، أن تنتقل إلى الهجوم في منطقة قاعدة «الصنّارة» وقّع الأمر بنفسه للتدليل على أهميته.

ان موافقة الرئيس المضاعفة، لم تكن لتكفل تنفيذ الأمر. وترأستُ أنا اجتماعاً لفريق العمل الخاص في واشنطن في قاعة الاجتماعات، في صباح اليوم التالي، لمناقشة طريقة تنفيذ الأمر، فجاء من يعلمني أثناء ذلك أن روجرز يطلبني عل الهاتف. وكان يريد

أن يعرف، عن الأمر الذي كان قد تَبَلغه، فأجبته ان ليس هناك تفسيرا آخر. فقال لي روجرز، ان هذا يعرّضه لوضع دقيق جداً، تجاه لجنة علاقات مجلس الشيوخ الخارجية، لأنه مدعو، بعد ظهر هذا اليوم نفسه، لاداء الشهادة أمام هذا الاجتماع، عن عدم وجود أي التزام أمريكي بكمبوديا. فاقترحت عليه أن يكلم الرئيس.

وماكدت أعود إلى قاعة الاجتماعات، حتى استدعيت من قبل وزير الدفاع، وبلباقته المعتادة، التي تقوم على طرح سؤال هامشي، يتأثر به من يحدّثه، انتقد ليرد الجملة التي وردت في الأمر، التي كانت تعيّن فريق العمل الخاص في واشنطن «سلطة مكلّفة بالتنفيذ»، زاعماً ان هذه الجملة، تخترق حرمة القانون وتخالف التنظيم التسلسلي، وان مثل هذه الأمور يجب ان تنفّذ عن طريقه فاقترحت عليه إبدلها بكلمة «بالتنسيق» أو أية كلمة أخرى يراها موافقة حسب اختياره. وتكلّم لير بعدئذ عما كان يقلقه. وأشار إلى ان العملية إذا نُظّمت ضدّ «منقار الببّغاء والصنّارة» يمكن ان تؤدي بنا خلال أسبوع إلى خسارة ثمانمائة رجل في القتال. وأشار إلى أن ابرامز وويلّر لا يعتقدان امكانية تحقيق هاتين العمليّتين. وعندما تكلّم ويلّر بعد ظهر الاحد عن القيام بالعمليّتين ضد القواعد الفيتنامية، أكد ليرد، ان ويلّر كان يقصد قاعدة «منقار الببّغاء» والقاعدة (٧٠٤)، الكائنة في العمق الجنوبي. فاقترحت أيضاً أن يقوم ليرد بمكالمة الرئيس حيال ذلك.

وماكاد فريق العمل الخاص في واشنطن، يعود إلى اجتماعه ويباشر أعماله، حتى استدعيت مرة أخرى إلى مكالمة هاتفية، وهذه المرّة كان المتكلم هالدمان، الذي أعلمني أن روجرز وليرد كان في طريقهما لمقابلة الرئيس. ودعاني لحضور الاجتماع، وأوصاني في الوقت ذاته أن افسح المجال للرئيس: ليكون هو سيّد الساحة.

ان لقاء الرئيس بأهم وزرائه لم يخلّ من بعض السريالية. فروجرز كان يفكر قبل كل شيء بالادلاء بشهادته أمام لجنة علاقات مجلس الشيوخ الخارجية بعد ظهر اليوم ذاته. وكان يحاول التأكيد ان ليس هناك قوات أمريكية متطوعة في كمبوديا. ولذلك فقد طلب من الرئيس سحب الأمر الذي أصدره. وأظهر ليرد بعض التعقيد في موقفه إذ عاد فبيّن مخاوفه من الخسائر المنتظرة. وحصلت في الاجتماع مغالطات كبرى حول موضوع توصيات ابرامز، المتعلقة بالقاعدة الموجودة في الجنوب التي تغمرها المياه. وجدّد ليرد أيضاً انتقاده لصيغة الأمر.

تكلّم نيكسون قليلاً جداً، وما قاله كان غامضاً. وبالنسبة لكل الذين يعرفون طريقته، فان هذا كان يعني بوضوح ان نيته المحافظة على القرار الذي اتخذه. فرفع الجلسة مبيّناً لوزرائه انه لن يتأخر في الاتصال بهم. وما كاد روجرز وليرد يغادران القاعة، حتى بدأ نيكسون يفضي إليّ بمكنونات صدره، مبيّناً لي انه لا يعرف لماذا لا يقدّم له أهم مستشاريه، بيّنات إستراتيجيّة، وهذا يحمله على إضاعة الوقت في معالجة مشاكلهم السياسية الشخصيّة. وأردف ان مثل هذه المواقف لن تثني عزمه. فاقترحت عليه ان يؤجل تنفيذ أمره أربعاً وعشرين ساعة، وأنه يستطيع أيضاً سحبه بصورة مؤقتة اذا كان هذا يسهّل مهمة روجرز. وأثناء ذلك ، أخذت اسأل بونكر وابرامز بتكليف منه، لمعرفة رأيهما الصحيح، وكان علينا ان نتأكد، من ان توصياتهما وتقديراتهما للخسائر. لن تسبّب بلبلة في الرأي. وسأطلب كذلك من ليرد ان يوافيني بتلك البرقيات، التي أقسم اليمين بموجبها، ان القادة العاميّن ليسوا هم من مؤيدي العمليات المتزامنة ضد قاعدتي «الصنّارة» و «منقار الببّغاء». قبل نيكسون اقتراحي، فسحب الأمر الذي أصدره في وقت سابق، وأبلغت أعضاء الحكومة بالقرار، مؤكداً لهم أن القرار النهائي سيُعلن عنه خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة.

وأرسلت أثناء ذلك رسالة بطريق غير رسمية، إلى السفير بونكر، طالباً منه

وكذلك من الجنرال أبرامز، وجهة نظرهما حول عدد من القضايا راجياً اجابة سريعة حول ما يأتي:

- هل هناك فائدة من هجوم منسّق من القوات الأمريكية والفيتنامية الجنوبية ضد قاعدة «الصنّارة»؟
- هل يجب ان يتزامن هذا الهجوم مع العملية ضد «منقار الببّغاء» أو أن يتلوها؟
- هل بذل جهود مشابهه في فيتنام الجنوبية، يتيح لنا نتائج أفضل؟
- هل القواعد الأخرى، كالقاعدة (٧٠٤)، باستطاعتها ان تقدم لنا فرصاً أحسن؟
- ماهي الخسائر الممكن توقعّها؟

وأرسلت رسالة باسم الرئيس، متضمنة ما يلي وهي موجّهة إلى بونكر: «أريد اعلامي عمّا اذا كان الجنرال ابرامز راغباً في تنفيذ هذه العملية، توخياً للفائدة الحقيقية المتوقعة، أو أنه يؤيدها لأنها تتجاوب مع رغباتي.أرجوك في النتيجة اعطائي وجهة نظرك الحقيقية، وكذلك وجهة نظر الجنرال ابرامز حول الأسئلة السابقة. وسأستلهم معظمها. تفضل بعرض هذه الرسالة على الجنرال ابرامز».

وفي العشيّة، وصلت مذكرة ليرد، وجواب بونكر وابرامز. وكان ليرد يجدّد تأكيده لموقفه السابق.وكان يعارض الاستعانة بالقوات الأمريكية في كمبوديا. والخلاصة انه يؤيد عملية فيتنام الجنوبية ضد قاعدة «منقار الببّغاء»، على أن يتلوها اذا كان ضرورياً هجوم على القاعدة (٧٠٤)، تقوم به حتماً قوات فيتنام الجنوبية. ويجب ان نضيف إلى رصيد ليرد، ان نيكسون عندما أقر تدخلاً أمريكياً، لم يتخلّ عن طريقته، في السماح بتسرّب بعض ما يخفي، في أنه كان يعارض نهائياً وخطياً أيضاً تدخلاً عسكرياً ضخماً في كمبوديا.

أما بالنسبة لابرامز وبونكر، فانهما كانا يطالبان بقوة، بهجوم حليف منسّق ضد قاعدة «الصنّارة» وكأنه الغاية المفضّلة. ويفضلان ان يتزامن مع هجوم ضد قاعدة «منقار الببّغاء» التي كانت تشكل الهدف الثاني الهام. وأكّد ابرامز ان القاعدة (٧٠٤) لا تمثّل شيئاً من الأهمية بالنسبة للقاعدتين الأخريين. وكان بونكر وابرامز يقدّران ان ليس هناك أية عملية تجري في فيتنام الجنوبية تعطي نتائج مماثلة. وحرص أبرامز على اعطاء تقرير للخسائر التي يتوقعها، لكنّه تعهّد ان يقوم بكل جهد لازم لتقليص هذه الخسائر إلى الحد الأدنى.

ولم يرد خبر جديد من روجرز، عدا التعليقات الصحفيّة التي توضح مآل الشهادة التي أدلى بها لدى لجنة علاقات مجلس الشيوخ الخارجيّة وتشير إلى انه لم يتخذ أي قرار حول موضوع استخدام القوات الأمريكية في كمبوديا.

وكمعظم القرارات المتضمّنة توريطاً سياسياً رسمياً، عزم نيكسون على استدعاء جون ميتشيل. وبقينا نحن الثلاثة إلى ما يقارب منتصف الليل، ونحن ندرس تقارير ومذكرات، وتحليل المناسب والمعاكس في كل من الخيارات المقدّمة. وفي نهاية المطاف، عزم نيكسون على الاحتفاظ بقراره الأول، وأبلاغة إلى ليرد وروجرز في الصباح بحضور ميتشيل. وطلب إليّ إعداد أمر جديد، وإبدال الجملة التي انتقدها ليرد لتصبح كالتالي:

«سيكلّف فريق العمل الخاص في واشنطن بالتنسيق لا بالتنفيذ». غير أن الأمر بقي كما كان عليه في الأسابيع السابقة. وأردف الرئيس: أن أمريكا لن تُذَل. اننا لن نسلّم للفوضى. ولن نحسب أنفسنا أبطالاً عند عدم استعمال الرتاج الكبير، فيما كنت أخرج قبل لقائه برفقة روجرز وليرد. وكان يعتقد انه ليس من المرغوب فيه أن أصبح هزأة للوزراء، وأثناء محادثاته مع روجرز التي دامت عشرين دقيقة،

بالاشتراك مع ليرد وميتشيل، عاد الرئيس فأكّد قراره على بدء العمليات من قبل القوات الأمريكية والفيتنامية الجنوبية المنسّقة ضد قاعدة «الصنّارة» وكان عالقاً بذهنه، ان كلاً من وزير الشؤون الخارجية والدفاع، كانا يعارضان استخدام القوات الأمريكية، وان الدكتور كيسنجر كان إلى جانبهما. (وهذا لم يكن حقيقياً أبداً، اذا اني قد غيّرت موقفي قبل اسبوع على الأقل) لأني كنت أعتقد كعادتي، ان ذلك كان نتيجة مزيج من الأسباب المعقّدة، حتى أن نيكسون قد وضعني في نفس التيّار الذي يجري فيه وزيراه. انه كان يقصد بصدق وشرف ان يحميني من انتقام الوزارات. وكان راغباً في الوقت نفسه ان يتظاهر بالعظمة التي يتصورها لذاته. وهي صورة زعيم يقاتل وحده. ويدعم مساعديه خائري القوى. وأكّد لهم نيكسون انه سيسجّل ملخصاً للاحداث، التي حدت به إلى اتخاذ قراره، موضحاً بجلاء معارضة أهم مستشاريه، وان وجهات نظرهم ستسجّل رسمياً، وانه سوف يتحمّل كامل مسؤولية القرار الذي اتخذه.

لم يكن القرار النهائي نتيجة سورة غضب، أو عن غباء، كما كان يدّعي المعارضون ويحملون الجمهور على تصديقه. لقد اتخذ القرار عن حكمة، و بعد كثير من التردّد، من قبل رجل، وجب عليه السيطرة علىأعصابه يومياً لمجابهة مساعديه، والانتصارعلى الإرجائية اللاشعورية، أو الصادرة عن تروّ من قبل وزارته. وتحمّل المسؤولية الكاملة أمر نبيل. لم يتخذ القرار من خلف ظهر أهم مستشاريه كما يزعمون. كما كانت الحال عند اتخاذ غيره من القرارات اللاحقة، ان نيكسون كان يتجاوز وزراءه، ولكنه لم يترك لهم مجالاً في جهل ما يُقدم عليه. تلك هي حيوية الرئاسة، والانفراد بحمل المهمة التي لا يمكن تجنّبها، بالإضافة إلى وضع نيكسون الذي زيد عليه ميل أهم مساعديه في الحكومة ان يحمّلوه ثقل كل المهمة. وان يمكثوا بعيدين عنه تجاه الرأي العام. ان ميله للسرّية وطرقه العملية المتعرّجة تقوّي فعلاً

ميلهم إلى التخلّي عنه ليتصرّف منفرداً. لكن وجهات نظره كان معروفة، وصدفت عدة مناسبات لمناقشتها. وتبقى القضيّة قائمة ما دامت مشكلة كمبوديا موجودة. وكان نيكسون على حق اذ كان هو الرئيس ومن المؤكد ان التأجيل في تنفيذ التوجيهات الرئاسية وتفسير ما ينوي الرئيس عمله ـ لمحاربته ـ كل هذا عزّز فكرة نيكسون في الرغبة الأكيدة لديه بشأن اتخاذ قراراته بصورة سرّية ومنفردة.

ان مجابهة أناس لا يشاطرونه وجهات نظره، كان يؤلمه كثيراً. وبعد المقابلة التي جرت في المكتب البيضوي، انفرد في شقّته في المركز الاداري، الذي لم يخرج منها حتى الثلاثين من شهر نيسان لالقاء خطابه الذي أعلن فيه عن بدء الغارات في كمبوديا. وكنت أقضي معه ساعات يومياً، وأطلعه على آخر مراحل خطة العمل. وأوجز بات بوشمان أول تنفيذ، استناداً إلى المخطّط الأولي الذي وضعه فريق عملي. لكن المهم كان يجب ان يصدر عن نيكسون. فهيّأ البلاغة اللازمة للخطاب واللهجة، وخصّص كل يوم ساعات طوالاً لمتابعة الاحداث.

وأراني ذات صباح، ورقة صفراء من دفتر أوراقه. كان قد كتب عليها دلائل مختلفة. فأخرجت من جيبي ورقة صفراء مماثلة. ولقد توصلنا فعلاً إلى نتائج متشابهة. وربما كان ذلك بسبب تكرارها عند لقاءاتنا المتعدّدة. لكنه في الأيام التي سبقت الاعلان عن هذا القرار الحاسم في بداية حياته الرئاسية، كان ريتشارد نيكسون يقضي وقته وحيداً، جالساً في ظل نور خفيف في مكتبه في المركز الإداري، والموسيقى تصدح ألحاناً هادئة كلاسيكية حديثة، كان يرى متأمّلاً، وثائراً أحياناً، جامعاً أفكاره، ان بلاغة خطابه كانت أقل انعاكساً من أهميّة الخيار الحقيقي، وخيبة الأمل المتوقّعة ممّا سيحدث، وهو كان يعلم، حدوث مشادّات عنيفة إثر قرار كان يعتقد بصحة اعلانه، والذي قد توصّل إليه دون الالتجاء إلى كثير من الحماس، ولا أدنى مساعدة من قبل أعوانه.

كنت أقضي وقتي في مساعدة الرئيس والتنسيق لتنفيذ قراره. وعندما تعلم ادارة وزارة علماً وثيقاً، ان قراراً أصبح محتوماً فلا تتمكن من تغييره في أي حال من الأحوال، مهما يكن تفسيره، ولو أحدث هزائم في الخارج، ولقد يصبح أداة فعّالة ومفيدة. ان اجتماعات فريق العمل الخاص في واشنطن التي كانت في الأسابيع السابقة، أسباب بطء ومراوغة، أصبحت الآن محدّدة وصريحة، ان (ي. الكسيس جونسون)، وكيل وزارة في الشؤون السياسية، الرجل المحنّك، وضع مخططاً متفوقاً في مجموعه، (وحسب العرف الاداري، دُعي سيناريو)، يتلائم مع تنظيم زمني، ساعة بعد ساعة، لكل واحد من الأفراد والفرق ذات العراقة، حتى ساعة «الصفر» وحتى بعد ذلك.

إن عملية «روك كروشر» كما أطلق عليها، أو «النصر التام» بالنسبة للفيتناميين الجنوبيين، شنّت ضد «منقار الببّغاء» في ليل الثامن والعشرين من شهر نيسان. ورافق الهجوم بصورة مبدئية قرابة خمسين مستشاراً أمريكياً، وأتبعوا باثنين وعشرين مستشاراً آخرين، خلال الأيام الأربعة الأولى.

وفي اليوم الحاسم الذي صادف الثلاثين من شهر نيسان، أُلقي خطاب الرئيس في الساعة الحادية والعشرين، فأعلن أمام جمهور قلق أن الأعمال التي قام بها العدو، خلال الأيام العشرة الأخيرة، كانت تعرّض للخطر حياة الأمريكيين المتواجدين في فيتنام، وتشكل في الوقت ذاته خطراً لا نُسلِم به للذين سيتواجدون هناك بعد جلاء دفعة جديدة تعدادها مائة وخمسون ألف رجل.

بدأ خطابه موضحاً على خريطة أمامه، ان الفيتناميين الشماليين بدؤوا بتهديد فنوم بين، ووسّعوا مدى قواعدهم، التي كانت معزولة، في ميدان واسع، ليكون طريقاً لهجماتهم ضد فيتنام الجنوبية على ألف كيلو متر من الحدود، ولا نزال نملك ثلاث امكانيات:

«عدم عمل أي شيء ـ إحضار عون عسكري ضخم إلى كمبوديا ـ وتدمير القواعد.

أن القرار الذي أعلنه، كان يقصد هجوماً منسقاً بين القوات الأمريكية والقوات الفيتنامية الجنوبية ضد القيادة العامة لمجموعة العمليات العسكرية الشيوعية في فيتنام الجنوبية. كانت عملية الهجوم محدودة ومؤقتة وغير موجهة ضد أي بلد آخر. وكانت ضرورية لفيتنمة الحرب، وسبيلاً لتقليص خسائرنا الى الحد الأدنى.

وببلاغة ليس لها علاقة بالموضوع، لكنها كانت تظهر ضغوط الأسابيع السابقة، أكد الرئيس ثانية:

لن تُذَلّ أمريكا ـ لن نُسلِم للفوضى ـ ولن نكون عمالقة مجرّدين من السلاح ويلتمسون الرحمة، ولن نعطي حجّة بسيطة، تقوم على تحميل العبء للحكومات السابقة. «ان انتصار حزبي في انتخابات شهر تشرين الثاني، لا يمكن مقارنتها بحياة أربعمائة ألف أمريكي شجاع، يقاتلون في سبيل بلادنا، وفي سبيل سلام وحرية فيتنام. ان عدم البقاء في الرئاسة، سوى فترة الولاية، هو قليل الأهمية، إذا قدرنا أن الولايات المتحدة، بسبب جمودها تظهر غير كفوءة لدعم قوى الحرية في حقبة دقيقة من تاريخ العالم.

أني أُفضّل عدم البقاء رئيساً، إلا الفترة المحددة لي في ولايتي، وان أقدم على عمل ما أراه حقاً، افضل لديّ من مواجهة فترة ولاية أخرى، وهناك خطر أن أرى امريكا أصبحت قوّة من الدرجة الثانية، وأن أرى أمتنا تقبل أول هزيمة في تاريخها الرائع الطويل الامد منذ مائة وتسعين عاماً.»

ولم يفت النقاد ان يقولوا: ان هذا الخطاب يزرع الفرقة، وانه معقد في تطلعاته، مفرط في ادعاءاته. وليس على نيكسون مواجهة انتخابات جديدة إلاّ بعد سنتين. لقد

شخص القضية كثيراً. ان الخطاب في الحقيقة، لم يرض تلك الفئة من الشعب، التي لا تأمل سوى انتهاء الحرب في فيتنام، نهاية تتضمن وقفا شاملاً وعاجلاً للمعارك، مهما تكن النتائج. كان على نيكسون دون ريب، اظهار تعاطف أكثر، نحو هؤلاء الذين مزّقتهم الاضطرابات، وتقلبات حرب غريبة لا تجربة للشعب فيها . لقد قام بدور منتقديه عندما أظهر أن الحرب عملية دفاعية أساسية، ابعادها الزمنية والأرضية محددة، وكأنها حادث مثير، خصص لاختبار الضمائر، ويعطي الرئيس حسب إدعاء الشعب رصيداً، ويؤكد انه تجاوز سلطته الرئاسية بتوسيع رقعة الحرب. كما انه أضاف جملة، لا علاقة لها مع نص خطابه الأساسي، وظهرت تلك الجملة انها كذب محض، بتأكيده عدم مهاجمة قواعد فيتنام، متناسياً وبكل بساطة القصف السرّي.



شهد عام ١٩٧٠ تطورات متسارعة فيما يتعلق بالقضية الفيتنامية، ففي الأول من شهر آيار ، وفي الساعة السابعة والنصف صباحاً حسب توقيت سايغون دخلت القوات الأمريكية والفيتنامية الجنوبية قاعدة (الصنارة)، والتي كان الرئيس قد أصدر قراراً بقصفها، وفي اليوم ذاته، قام نيكسون بزيارة مفاجئة، لقيادة البنتاغون العسكرية العليا، وهناك أصدر أمراً، طالما فكر فيه كثيراً منذ زمن طويل، بإجراء غارات على كل القواعد الأخرى. فهوجمت اثنتا عشرة قاعدة معادية، خلال الأسابيع الثلاثة الأولى.

وكان يقوم ببعض هذه العمليات الجيش الأمريكي والجيش الفيتنامي الجنوبي معاً، وبعضها كان يقوم بها الفيتناميون الجنوبيون وحدهم بمساعدة الطيران وقوات أمريكية، وكان بعضها قصير الأمد (بين أسبوع وعشرة أيام) وأخرى أطول من حملات أخرى.

سفينتان وطائرتان من دورية البحرية الأمريكية، أخذت مراكزها القتالية، في عرض مرفأ سيهانوكفيل. وكلفت بحراسة المرفأ، وأن تجعل منه حصاراً إذا اقتضت الحال. ودام هذا الأمر حتى الثالث عشر من شهر حزيران. وفي السادس والعشرين من شهر أيار، وضع حد لهذا البرنامج السري من العمليات. أن الغارات التي نفذتها مقاتلات B52 تتابعت رسمياً لمساعدة القوات الأرضية الأمريكية في كمبوديا. أضف إلى ذلك، فقد جرت غارات جوية في فيتنام الشمالية طوال يومين، ضد ثلاث قواعد احتياطية، وكان نيكسون قد بيّن في خطابه حتمية وجود القيادة العامة الشيوعية لكل عمليات الجنوب، في قاعدة "الصنّارة" مدلّلاً بذلك وكأنها أحد أهداف هجومنا.

وفي الثامن عشر من شهر أيار، أبلغت القيادة العامة الشيوعية لعمليات الجنوب، الوحدات التابعة لها، أنها مهددة فعلياً من قبل الهجمات الحليفة وطلبت إلى كل محطات الإرسال المتنقلة أن توالي سمعها وإصغاءها، لأن القيادة العامة، لن تجري بعد أية اتصالات إلا بصورة مختصرة وفقط في حالات الضرورة القصوى. وبقيت القيادة العامة الشيوعية لعمليات الجنوب، مدة طويلة خارج دائرة الضوء، بينما كانت فرقها تحاول ولعدة مرات استعادة الاتصالات الإذاعية. ولما كنا لا نستطيع الكشف عن معلوماتنا السرية، فقد وقفنا حائرين أمام جهل الجمهور الشديد. بخصوص ملاحقتنا بقيادة عامة لحكومة الظل.

وإذا وضعنا جانباً، القيادة العامة الشيوعية لعمليات الجنوب، فلا مجال لإنسان أن يرتاب في النجاح. ونحو آخر الشهر الأول. استولينا على خمسة أطنان ونصف من وثائق العدو، أعطتنا معلومات ذات أهمية حيوية، حول استراتيجية العدو في فيتنام، ومخططات تفصيلية عن الحملة، لقلب حكومة فنوم بين، وتفاصيل عن تزويد نفسها بالسلاح مروراً بمدينة سيهانوكفيل، ولقد تبين أن الذخيرة والتموين كانا أكثر من جميع تقديراتنا

التشاؤمية حول أهمية مدينة سيهانوكفيل. وفي الثاني والعشرين من شهر أيار، اعتبرت وزارة الدفاع أن تسلل اثنى عشر الفاً من الجنود الفيتناميين الشماليين، قد مُنِع نتيجة لعملياتنا. وأوضحت التعليقات الشيوعية عن اختفاء ذخائر مخزونة لاحتياطات تالية، استعداداً لفصل الأمطار، ومن الجانب الشيوعي، فقد ازداد عدد الفارّين كثيراً، وعدّد نيكسون في تقرير ختامي، تقدّم به للأمة، كمْية العتاد المستولى عليه:

- (٢٢٨٩٢) سلاحاً خفيفاً، تكفي لتجهيز قرابة (٧٤) فوجاً كاملاً من المشاة الفيتناميين الشماليين. و (٢٥٠٩) قطعة من المدفعية الثقيلة ذات حمولة ثنائية (كافيه لتجهيز (٢٥) فوجاً كاملاً من المشاه الفيتناميين الشماليين) وذخائر أخرى توفّر ما يقارب خمسة عشر مليوناً من العتاد الخفيف.
- (١٤) مليون ليبرة رز، تكفي لتموين كل الفرق المهاجمة، التي يمكن أن تتواجد في فيتنام الجنوبية، خلال ما يقرب من أربعة أشهر.
- (١٤٣٠٠٠) صاروخ، ومدفع هاون، وأسلحة سريعة الطلقات، تستخدم ضد المدن والقواعد. وبناء على خبرتنا الحديثة، فإن عدد مدافع الهاون، والصواريخ الثقيلة، والأسلحة سريعة الطلقات. يوازي طلقات النار المعادية، خلال قرابة أربعة عشر شهراً على فيتنام الجنوبية.
- أكثر من (١٩٩٥٥٢) طلقة ضد الطائرات. و (٥٤٨٢) لغماً. و (٦٢٠٢٢) رمانة يدوية. و (٨٣٠٠٠) ليبرة من المتفجرات، بينها (١٠٠٢) جعبة خرطوش.
- أكثر من (٤٣٥) آلية. و (١١٦٨٨) معقلاً، ومنشأة عسكرية مهدمة. أن الأثر العسكري الحاسم، كان يمكن أن يكون أثره أكبر، لو لم نأمر وبقوة انكفاء قواتنا بعد مضي شهرين. لأن صخب الرأي العام العنيف كان له الأثر العميق.

بعد فترة من إلقاء خطابه في الثلاثين من شهر نيسان، أخذ نيكسون يطالب

بأدلة، ثم ببراهين مادّية على انسحابنا من القواعد الكمبودية، أن التاريخ المحدد في الثلاثين من شهر حزيران، لم يكن بالنسبة له سوى تاريخ تقريبي عاجل، وضع في المقدّمة لتهدئة زعماء الكونغرس، وإعطائهم مؤشراً على مدة بقاء الحملة. لكنها ما فتئت أن أصبحت مقدسة، وعند عرض وجهة نظره على البرلمانيين، ثبّت نيكسون فجأة حدّاً للتوغّل الأمريكي بثلاثين كيلومتراً، وكان الرئيس يُعدّ نفسه لارتكاب الخطأ الأبدي لسياستنا العسكرية في فيتنام، وهو التصرّف بكثير من القوة لإثارة أمواج من الاحتجاج، ومن ثمّ بعد تردّد وممانعة، نُزْعت عن أعمالنا قوّة التأثير. كما أن تحديد الأزمان والفترات المفروضة على قواتنا، لم تُسهم إلا هامشياً في تهدئة الكونغرس والجماهير لكنها لم تمنعنا في الواقع من جني كل المكاسب التي كنا ننتظرها من تلك العمليات. أن القواعد كانت ممتدة حينذاك على مئات من الكيلومترات المربعة. وفي هذه الحال لا يمكن اكتشاف المخابئ إلاّ بعد بحث تنظيمي، كما يلزم بعض الوقت لنقل القوات لمهاجمتها.

أن تحديد الوقت لم يكن ليسمح بأبحاث دقيقة، والتحديد الجغرافي كان في صالح العدو، فكان كافياً بالنسبة له لنقل قواته ومخابئه. وإني على يقين في أننا أثرنا كثيراً من المعارضة العامة بتحديدنا مدّة الحملة بشهر أو شهرين كانا لازمين لأبحاثنا. وربما قد استطعنا بهذه الطريقة منع العدو من الاحتفاظ بقواعد تسمح له وبصورة نهائية من إحراز تقدم في كمبوديا.

وقدّر الأخصائيون في فريق عملي، أن عملياتنا كانت سبباً في تدمير أو الاستيلاء على ما يقارب أربعين في المائة من مجموع احتياطي العدو في كمبوديا. وتقديراتي الشخصيّة كانت صحيحة. وفي بيانات موجزة أرسلت للصحافة في بدء العمليات، وأثناء المحادثات التي كنت أجريها مع الرئيس، استبقت الأحداث وقلت: أن

التدمير الذي الحق باحتياطي العدو، والعمليات التي شُنّت ضدّه،أعطتنا زخماً من ستة إلى ثمانية أشهر. وبعد رحلة قام بها السير روبرت تومسون، إلى الهند الصينية أكد أن الشيوعيين لن يكونوا قادرين بعد على إعادة احتياطيّهم خلال فصل الأمطار في هذا العام. أو استكمال مخزوناتهم خلال فصل الصيف. ولن يؤمّلوا إمكانية استعادة مخزونهم السابق، إلاّ بعد فصل الأمطار التالي. وبمقولة أخرى أنه كان يعتقد أننا ربحنا زمناً يساوي سنتين على الأقل.

كان تومسون على حق. لأن الحرب في فيتنام، أصبحت بعد عام ١٩٦٩، سباقاً في سبيل الانسحاب، وتحسين وضع الجيش الفيتنامي الجنوبي، وامكانية هانوي على تعديل اوضاعها لتتمكن من القيام بهجمات. ولما كان دور الجيش الأمريكي، اخذ بالتناقص، فان ما يهمّنا هو كل ما من شأنه إضعاف هانوي. وكان على هانوي أن تقاتل بعيدة عن قواعدها. وانقطاع تموينها، وتلف مخزونها وفي هذا الحال أجبرت على التخلّي عن مخططاتها الأساسية. ومهما تكن استنتاجات الاختصاصيين، فلم يجر بعد اقتتال هام، خلال سنتين في مناطق فيتنام الجنوبية، التي كانت معرّضة للهجمات المنطلقة من القواعد. ان دلتا نهر الميكونغ، والمناطق المأهولة بالسكان، أصبحت في حماية كبرى، وعندما قامت هانوي بهجومها العام في ربيع عام ١٩٧٢ وجهت ضغطها على المنطقة المجردة من السلاح، حيث كانت خطوط تموينها قصيرة جداً.

وفي الواقع، بالنسبة للأمريكيين، فإن المؤشر الأساسي كان رصيد الخسائر، فكانت هذه تزّداد قليلاً، خلال مهاجمة القواعد، دون أن تتجاوز في أية حال، ثمانمائة قتيل أسبوعياً. من ثمّ فإن عدد القتلى خلال المعارك، أصبح أقل من مائة أسبوعياً ولأول مرّة منذ أربع سنوات. واستمر الانخفاض في الأشهر اللاحقة. واعتباراً من

شهر حزيران لعام ١٩٧٠، هبط رقم الخسائر على الأقل إلى نصف ما كان عليه في أشهر السنة السابقة. ونحو شهر أيّار من عام ١٩٧١، أي بعد عام، هبط إلى خمسة وثلاثين أسبوعياً. وفي شهر آيار من عام ١٩٧٢، الى عشرة اسبوعياً وفي الواقع، فإن انسحاب قواتنا الأمريكية كان عاملاً رئيسياً، وبقى لنا في فيتنام عدة مئات آلاف من الأمريكيين حتى عام ١٩٧١، ولو امتلكت هانوي الوسيلة لكبدتنا خسائر أكثر ارتفاعاً، وإذا لم تقم بذلك، فإن الفضل يعود إلى عمليات كمبوديا التي سمحت لنا أن نتنفّس الصعداء.

وفي المجال الدولي، لم تتحقّق أية مضاعفات سياسية، أطلقها المناوؤن. ووجّه الاتحاد السوفيتي تهماً، لكنه احترس من إطلاق تهديدات معيّنة. وفي الرابع عشر من شهر أيار، عقد كوسيغين مؤتمراً صحفياً، تحدّث به بقوة وتساءل كيف يمكن للسوفيت أن يصدقوا مبادرات أمريكا الدولية، على الرغم من خرقنا (أي السوفيت) حياد كمبوديا، لكنّه لم يذكر أية علاقة بين هذا التظلّم ومحادثات سالت. ولم يشرك الخلاف السوفيتي مع إعلان قمة" شعوب الهند الصينية". أضف إلى ذلك أنه لم يتنكر لحكومة لون نول. وفي الثامن عشر من شهر أيار، أعلن نيكولاي فيروبين، مساعد وزير الشؤون الخارجية السوفيتية، إلى أحد حلفائنا الأوروبيين، ان نيّة الروس الإبقاء على سفارتهم في فنوم بين، لأنهم لا يتمكنون من عمل شيء آخر. ووصف فيروبين الوضع في كمبوديا أنه غامض،وأن سيهانوك هو بمثابة أسير بكين.

ان الصينيين كانوا كذلك حكماء، على الرغم من بعض التلوين في كلامهم. ففي الرابع من شهر أيار، صدر تعليق من حكومتهم، حذّر الولايات المتحدة رسمياً من التحدّي الذي تقوم به. مذكراً بقول ماو المأثور: ان الولايات المتحدة هي «نمر من ورق». وأكدت الصين أيضاً ان شعوب الهند الصينيّة الثلاثة ستنتصر اذا بقيت

متحدة. ومقال افتتاحي في (صحيفة الشعب اليومية) اعاد نفس التعبير في اليوم التالي مؤيداً الثوار الصينيين في الفكرة القائلة أن: مساحة الصين الفسيحة هي مجال أكيد للتقهقر. وبيّنت ذلك للرئيس بعبارة اخرى «ان الصينيين يعلنون انهم لن يعملوا شيئاً. وفي العشرين من شهر أيّار، نشر اعلان غير منتظر، باسم الرئيس ماو تحت عنوان: يا سكان العالم اتحدوا وقاتلوا الأمريكان المعتدين وكلابهم المتوعّدة». وكان ماو يوافق بكلامه هذا، على حكومة سيهانوك الجديدة في المنفى، وأيضاً على : «إعلان قمة شعوب الهند الصينيّة» وكان يؤكد في الوقت نفسه: «ان الامبريالية الأمريكية، التي ليس وجهها سوى وجه مسخ، ليست سوى نمر من ورق، وفريسة لآخر رجفات على سرير موتها» وضمّنت تحليلي الذي تقدمت به للرئيس في الثالث والعشرين من شهر أيّار: ان هذا لا يفيد هانوي كثيرا، ما عدا أنه يعتبر بمثابة تشجيع شفهي.

وكنا نباعد أنفسنا عن الحاق الضرر بعلاقاتنا مع الجبّارين الشيوعيين اذ ان العمليات في كمبوديا، حسّنت من موقفنا، وأوجدت سبب خلاف بين موسكو وبكين، فلقد اعترفت موسكو بلون نول وبكين بسيهانوك، وهذا الانشقاق الصيني السوفيتي نقل إلى الهند الصينية. وحوالي العاشر من شهر حزيران تابعت أنا ودوبرينين بحث مفاوضات سالت، وموضوع الشرق الأوسط، وكذلك مؤتمر القمة الأمريكي السوفيتي. وان التوتّرات التي تكشّفت خلال الصيف مع موسكو سبّبت اختلاف مصالح في اجزاء اخرى من العالم. ونحو أواخر شهر حزيران، وردتنا من الصينيين دلالات صريحة تبيّن انهم على استعداد لإعادة الاتصال بنا.

ان الأزمة لم تكن قائمة، لا في ساحات القتال ولا في نطاق دبلوماسيّتنا، بل عندنا وفي داخلنا.

أن الأزمة الحقيقة التي كانت قائمة ، لم تكن في ساحات القتال، ولا في استراتيجيتنا الدبلوماسية المتعددة الاتجاه، بل أن الأزمة الحقيقية كانت عندنا في الداخل.

❒ ❒ ❒

ليس من المنطق أبداً أن نعزو مسؤولية الاضطرابات إلى بلاغة نيكسون المطّولة، ولا إلى أحداث "كانت ستيت يونيفرسيتي "Kent State University" وحدهما. لقد انقطعت المحادثات في ديمقراطيتنا. وكانت الانتفاضة ضد الحرب، منذ شهر تشرين الثاني، بانتظار فرصة سانحة لتظهر مجدّداً. حدثت انتفاضات احتجاج ـ في أواسط شهر نيسان، وكانت متمركزة في نحو مائتي مدينة كبيرة وصغيرة، وظهر الحنق شديداً في صحافة يوم الثامن والعشرين من شهر نيسان، بالنسبة للعملية الوحيدة على قاعدة "منقار البّبغاء" وكانت تعطي زخماً للعملية وكانها تصعيد للحرب. وهذا كله كان يحدث قبل بدء عمليات الجنود الأمريكيين بيومين، وقبل أن يلقي نيكسون خطابه.

وفي الواقع، فإن كل الشروط المكنة لانفجار جديد، كانت جميعها موجودة قبل إلقاء الرئيس خطابه. وكنّا في حينه على مشارف خطر عظيم ولا أمل لدينا بنجاح أية عملية عسكرية. والتأكيدات الصادرة عن الحكومة كانت تدعي عكس ذلك. كانوا ينسبون إلينا قليلاً من المسؤولية بسبب اتخاذنا قرارات خاصّة، وإن أقل خطوة نخطوها إلى الأمام، ستؤدّي بنا إلى تطويع أحادي الجانب لمئات الآلاف من الجنود الأمريكيين. لقد أوجدوا خرقاً كبيراً في مصداقيتّنا، حتى بدا لنا أنه من المستحيل الخروج من هذه الحرب بشرف. وتلقّت الصحافة بصورة سلبيّة ما قدّم نيكسون من

اقتراحات في الثلاثين من شهر نيسان: وبكل بساطة أنها لم تصدق ما جاء فيها. ولقد كتبت النيويورك تايمس بما معناه:" أن التوهّم العسكري ظهر مجدّداً"."أن الزمن والتجربة المرّة قد استنفدا سرعة التصديق المفرطة لدى الشعب الأمريكي والكونغرس". وبالنسبة لميامي هيرالد فقد قالت:" أن سيناريو الحوار عن كمبوديا يتشابه حتى ليلتبس الأمر، مع تاريخ فيتنام على زمن كينيدي وجونسون. أننا نعرفه عن ظهر قلب، بعد أن استمعنا إليه مئات المرّات".

وما كادت تهبط ليلة الثلاثين من شهر نيسان، حتى ظهرت نوبة حمّى جديدة، يمكن ترجمتها إلى انتكاسة مرض النداءات إلى الإضراب ومظاهرات زعماء الطلاب الذين أعطوا براهين على مواهبهم. أن تصريحات الرئيس، التي بدأت بالبكاء وانتهت إلى النحيب، ما كانت لتصلح شيئاً في وضع غير مستقر، حيث كل شيء عرضة لتفسيرات خاطئة.

أن حركات إضراب واحتجاجات الطلاب اتّسعت حالاً. والاضطراب والعنف ضد الأكشاك،استقطب الانتباه أكثر من الأضرار التي تسبّبه القضية الكمبودية نفسها، بنظر الرأي العام. وشابهت واشنطن مدينة محاصرة. وأعظم حركة احتجاج من قبل الرأي العام وصلت أوجها في التاسع من شهر أيار، عندما تظاهرت جماعة من خمسة وسبعين إلى مائة ألف شخص، بعد ظهر يوم سبت حار في الإلبس، منتزه كائن إلى الجنوب من البيت الأبيض. فطوّقت الشرطة البيت الأبيض، وتمركزت العربات العسكرية حول المقر الرئاسي لحمايته.

وبعد التاسع من شهر أيار، تظاهرت آلاف أخرى من الطلاب، تقودهم غالباً هيئات تدريسية، جاءت إلى العاصمة مستنكرة تصعيد الحرب وجنون حكومتهم. وألف محامٍ جعلوا من أروقة الكونغرس أندية مطالبة في وضع حد للحرب. ثم تبعهم ثلاثة وثلاثون رئيس جامعة، ومهندسون معماريون، واطبّاء، وموظفون في الصحة

العامة وممرضات ومائة مدير جمعية، جاؤوا جميعهم من نيويورك. وكانت الصحافة تغذّي الرأي العام. وهناك مقالات افتتاحية كانت تعبّر عن شكوك في موضوع التقدم في كمبوديا الذي أعلنه البنتاغون. وفيما وراء هذه المظاهرات في سبيل السلام، كان هناك طلاب مسالمون أعلنوا عن تأييدهم لاستراتيجية الفوضى بالإضافة إلى العنف. وجلس نحو ألفي طالب، من جامعة كولومبيا على الطريق في لحظة ازدحام السير. كما أشعلت نيران على أكشاك عدة جامعات على شكل نيران أفراح تبشّر بالسلام. وفي جامعة سيراكوز، أتلفت النيران شقّة سكنيّة جديدة، بينما كان ألفان وخمسمائة طالب يتظاهرون بالقرب منها. وتظاهر الطلاّب أيضاً أمام إدارة نيويورك الماليّة في يومي السابع والثامن من شهر أيار. وانتقاماً منهم، فإن عمال بناء، يعملون في بناء "المركز الدولي للتجارة "World Trade Center"، تركوا عملهم ونزلوا إلى وول ستريت "Wall Street" وأخذوا يلكمون المتظاهرين بالهراوات وأيّة أداة يصادفونها. وكان للحادث أثر كبير في كشف مخيف عن أن المخليّن بالنظام أوشكوا أن يدوروا بعنف على مسببّي الأحداث.

وقد أظهر استفتاء للرأى العام المساندة الحقيقية العظيمة التي يتمتع بها الرئيس فيما يقوم به من أعمال. وجواباً على السؤال التالي:

"هل تعتقد أن على الولايات المتحدة إرسال أسلحة وعتاد لمساعدة كمبوديا، أم لا؟

فإن ٤٨٪ أجابوا بنعم.

و ٣٥٪ أجابوا بلا.

و ١١٪ لم يدلوا بآرائهم.

و ٦٪ أشاروا بإرسال احتياط وذخائر.

وجواباً على السؤال التالي:

"هل تقرّ أو تشجب الطريقة التي يعالج بها الرئيس القضية الكمبودية؟".

فإن ٥٠٪ أدلوا بموافقتهم.

و ٣٥٪ اظهروا عدم موافقتهم.

و ١٥٪ ، لم يدلوا بآرائهم.

و ٣٥٪ من الأشخاص الذين سُئلوا أعلنوا عن موافقتهم على الطريقة التي يعالج بها الرئيس قضية فيتنام.

بينما أن ٣٧٪ ، دللوا على عدم موافقتهم.

و ١٥٪ ، لم يدلوا بآرائهم.

وأصبح لموجة الاعتراضات الجماهرية، والاعتراضات الطلابية تأثير قوي على الكونغرس. فتجاوز الأمر الانتقاد المرير للرئيس إلى مبادرات لفرض قانون حول الجلاء من كمبوديا، ومنع القوات الأمريكية من العودة إليها. وفي الثالث عشر من شهر أيار، بدأ مجلس الشيوخ مناقشة مشروع قرار تنظيم بيع الأسلحة والاعتدة العسكرية للخارج، الذي كان قد تقدم به كل من: فرانك شيرش وجون شيرمان كوبر العضوين في مجلس الشيوخ، واقترحنا تعديله بطريقة أن يتضمن منع تمديد العون العسكري لكمبوديا إلى ما بعد الثلاثين من شهر حزيران. ومن جهة أخرى، فإن روبرت بايرد، تقدم بتعديل قانون، يمنح الرئيس بموجبه السلطة في اتخاذ التدابير اللازمة لحماية القوات الأمريكية في فيتنام الجنوبية. فرفض هذا التعديل بأغلبية ضعيفة، في الحادي عشر من شهر حزيران باثنين وخمسين صوتاً ضد سبعة وأربعين.

دامت المناقشات في مجلس الشيوخ والمنازعات البرلمانية، سبعة أسابيع، حتى انتهى مجلس الشيوخ في الثلاثين من شهر حزيران الى إقرار تعديل كوبر ـ شيرش بتصويت اسمي فكانت النتيجة: اثنين وخمسين صوتا ضد سبعة وثلاثين. وهذا التصويت أفسح المجال لشيوعيي كمبوديا، في حين أن المكتب التنفيذي كان يرى فيه ادانة لفيتنام الجنوبية. فقدم عندئذ مشروع القرار الى لجنة مشتركة من مجلس النواب ومجلس الشيوخ. فبقي مشروع القانون المنظم لبيع الأسلحة والأعتدة العسكرية إلى الخارج، في مأزق، طيلة ما بقي من عام ١٩٧٠، على اثر رفض النواب إقرار التعديل الذي أجري عليه التصويت في مجلس الشيوخ، لكن الشر قد حصل. ففي وسط غزو فاضح من قبل فيتنام الشمالية كان العدو وكأنه يقول لنفسه بفضل ما أقدم عليه مجلس الشيوخ أن كمبوديا قد سلمت له.

وبينما كان تعديل كوبر ـ شيرس يتمحور حول كمبوديا، كان ماك غافرن ـ وهاتفيلد يتقدمان بتعديل آخر لقانون تموين وزارة الدفاع في سبيل وضع حد لحرب الهند الصينية، وإلغاء جميع الأرصدة في نهاية عام ١٩٧٠، ومدّدت هذه الفترة على أثر ذلك حتى الواحد والثلاثين من شهر كانون الأول لعام ١٩٧١. ورفض هذا الاقتراح نهائياً، من قبل مجلس الشيوخ في الأول من شهر أيلول بخمسة وخمسين صوتاً ضد تسعة وثلاثين.

كان كل هذا يعجّل في فكرة خيبة الأمل السائدة، لقد وهّنت عزيمة المحافظين، بسبب حرب انقلبت إلى إنسحاب. وشُلّت همة الليبراليين، لأنهم هم أنفسهم قد لحق بهم الضيق. فكيف يتمكنون من التناسي، في أن الحكومة التي كانت قد أرسلت نصف مليون أمريكي إلى الهند الصينية، كانت حكومة ليبرالية؟ وفي هذا الحال أنهم غير مستعدين لمجابهة نتائج أعمالهم السابقة. إلاّ بتأدية جهد قوي يحفظ لهم

سلامتهم وهدوءهم. كانوا يتهّربون بيأس أمام مسؤوليتهم. لذلك، ومهما ظهر ذلك صعب التصديق، فإن جميع الفرقاء، المخالفين بالرأي والآخرين، كانوا يلقون بكامل المسؤولية على الرئاسة. وكان مزاحاً خشناً بالنسبة للطلاب، سماع استاذهم يعلن: " إن أحسن طريقة للخروج من فيتنام هي الإبحار في مراكب". أن النتيجة العملية لما قدّمنا من أحداث هي أن: في حال إنعدام الخيار الصحيح، فلا يبقى أمام الحكومة خيار آخر سوى سياستها الخاصة أو الاستسلام.

ان تركيب الحكومة ذاتها أخذ يتفكك، والمكتب التنفيذي قد صُدم، كان اولادهم وأولاد أصدقائهم هم الذين كانوا يشاركون في المظاهرات، هناك ما يقارب مائتين وخمسين موظفاً في الشؤون الخارجية، ومعهم خمسون عضواً من الخدمات الدبلوماسية، كانوا قد رفعوا اعلاناً يرفضون فيه سياسة الحكومة ويشجبونها. ان الخلاف غير الظاهر بين الوزراء، كان يحتم على المكتب التنفيذي ان يكون منقسماً على نفسه مثل بلده. كما أن وزير الداخلية، وولتر هايكل، قد احتج علناً أيضاً. ونشرت النيويورك تايمس، في التاسع من شهر أيّار ان وزير الشؤون الخارجية، منع أي تفسير حول وضعه الخاص، وهذه لم تكن أبداً تدل على إستحسان أعمال الرئيس. وشغل فريق من الموظفين مبنى متطوعي السلام، ورفعوا في أعلاه علم الفيت كونغ. ورفض روبرت فنش، وزير الصحة العامة، ان يعلن عن خلافه مع الرئيس صديقه من مدة طويلة، ولكنه علىكل حال كان يظهر ذلك على انفراد، حتى ان موظفي وزارته، شغلوا قاعة المحاضرات، دلالة على احتجاجهم. وكان الرئيس يرى نفسه وكأنه صخرة في وسط تيّار، وطبعاً فان هذا الإضطراب كان يقلقه هو أيضاً، ومع انه كان يبدي عدم الإكتراث فان حقد خصومه قد جرحه عميقاً. لقد بذل الكثير لينال القليل من رضا الطلاب الذي كانوا يظهرونه لسلفه كينيدي بدهشة وتعجب. لقد أصبح نيكسون ضحية تناقضاته الخاصة، ووصل الى درجة كبيرة من الإنهاك حتى

بدأ مستشاروه يبدون قلقهم عليه. ان زيارته غير اللائقة الى «لينكولن ميموريال» في الساعة الخامسة من صباح اليوم التاسع من شهر أيّار ليقابل طلاباً هناك لم تكن سوى ظاهرة لجموده البسيكولوجي.

أجبرت على مغادرة شقّتي حيث لا يهدأ المعارضون من إزعاجي بمكالماتهم الهاتفية، وذهبت أنشد الاستقرار في أقبية البيت الأبيض، لأخذ قسطاً من الراحة وأتمكن من النوم. وعلى الرغم من ضرورة متابعة مراقبة الأزمة، كنت أقضي أكبر جزء من وقتي برفقة زملاء قلقين ومتعبين في رعب وهلع. وكنت أيضاً اقضي معظم وقتي مع طلاب وزملاء كانوا إلى جانب المتظاهرين، كما تحدّثت طويلاً إلى بريان ماك دونيل، وتوماس ماهويني، وهما شابان محبان للسلام، فأعلماني، إنهما سيقومان بإضراب يضرب فيه الناس عن الأكل في لافايت بارك، حتى يتم انسحاب جميع القوات الأمريكية. وأجريت حديثاً في غرفة العمليات، مع عدّة فرق من الطلاب ومن كليات مختلفة، وتكلمنا طويلاً، عن الأسباب العميقة التي تدعوهم إلى اليأس، على الرغم من أن الحرب حسب رأيي لم تكن السبب الوحيد.

إن اختلافهم تجاه القرار المتخذ بالنسبة لكمبوديا، كان يظهر جيداً أن مغالاة الحكومة ليست وحدها السبب، وأحد الأساتذة المتازين حلّل الوضع الحاضر بقوله: لقد نسينا أن نبيّن للرئيس أن كمبوديا هي أيضاً بلد، وأنه يتناساه بتصرّفاته. فهل كنا على التزام وثيق بكمبوديا؟ فإذا كنا كذلك فهذا يعني أن سياستنا الخارجية تدعو للرثاء. وإذا كنا غير ملتزمين، فلا شيء يوجب تغيير الوضع إلى هذا الحدّ. وكان يعتقد صميمياً أن هذه الأعمال تعرّض انسحاب قواتنا للخطر، في حين أن الواقع كان يعاكس ذلك. لقد توصّل هذا الأستاذ إلى هذا التحليل من خلال تفسيرات للأمور، كانت بعيدة جداً عن الحقيقة. وكان يزعم أن ليرد، وزير الدفاع، لا يطلع هو نفسه على العمليات العسكرية قبل أن يعلنها الرئيس للعموم. ولقد تجاوز حدّه بتأييد فكرة

غريبة في أن ما تقوم به الحكومة هو بمثابة رهان، يجب عدم الدخول فيه، على الرغم من ثقة كسبه.

وطرح أستاذ آخر فكرة مذهلة، وهي ان هناك عملية تدور من ثمانية أسابيع على بعد ثلاثة وثلاثين كيلو متراً، توشك ان تحمل ضباطنا المسؤولين إلى التفكير باستخدام الأسلحة النووية إن أمكن. وادّعى آخر اننا نحن الذين أثرنا العدو إلى القيام بأعماله تلك.

حدّد هذا الاجتماع مسلكي النهائي، بترك الوسط الأكاديمي، إلى العمل بالشؤون الواقعية. ان هؤلاء الناس كانوا أقطاباً في وسطهم، لكن حياتهم المخصّصة للبحث، كان يحسن تعطيهم بعض الفكر عن واقع الحال، علماً انهم كانوا يوماً ما زملائي واصدقائي. ان قلقهم كان واضحاً ومفهوماً. ألم تمّر عليّ أنا فترة طويلة من التردّد، قبل أن اقتنع أنه لم يكن لدينا خيار آخر؟ لكنّ نقصً مثل هذا في الشفقة، وزعماً متعاظماً كهذا في النقمة الأدبية، عزّزا في نفسي إعتقادين راسخين: في سبيل الحصول على سلام داخلي في بلادنا، يجب وضع حدّ للحرب، والإقدام على ذلك في حدود شروط توازي مسؤولياتنا الدولية. ولأجل هذا يجب ألا ننتظر أية مساعدة من هؤلاء الذين قضيت حياتي المهنيّة معهم. وعلى الجراح ان تنتظر نهاية الحرب حتى تلتئِم. ولن يجرى ذلك والحالة هذه.



إن آخر تضحياتنا، بالإضافة الى معاناتنا القومية، كان الكمبوديون أنفسهم عندما سقطت الحكومة الكمبودية التي كنّا نساندها، تحت السيطرة الشيوعية. ان الذين كانوا ينادون للتخلي عن كمبوديا، أصبحوا الآن عرضة لكثير من التوتّر

الفكري، لحمل الناس على التصديق عن عدم مسؤوليتهم تجاه النتائج المريرة، التي كان لمواقفهم نصيب في تسبّبها. وكان بعضهم يؤكدون ان ضغوط كمبوديا الداخلية، هي التي أدّت إلى سقوط سيهانوك، كما كانت في الوقت ذاته نتيجة تحرّك نحو الغرب، ولقد أثارتها حسب قولهم غاراتنا عام ١٩٧٠. أو بسبب القصف الذي تقوم به منذ عام ١٩٦٩. والحقيقة أن تحرك الفيتناميين الشماليين نحو الغرب بدأ في اوائل شهر نيسان، أي قبل تدخّلنا، والذي أثاره فقط سفه الحكومة الكمبودية في مطالبتهم بالجلاء عن أراضيها.

ولولا تدخلنا، لاستولى الشيوعيون على كمبوديا قبل عدّة سنوات. والتأكيد ان هؤلاء الايديولوجييّن المتزمّتين، كادوا يدمّرون كمبوديا، فيما لو لم نتدخل، هو أمر لا يمكّن تصديقه. عندما يكون مستبدّ بعيداً عن شعبه، ولديه القدرة علىتغيير شكل مجتمع، وهو متمسّك بعقيدة ما، فانه طبعاً لا يطبّق المعايير الاخلاقية. ولقد رأينا بروز تلك الأطروحة الرهيبة، عديمة الأساس، في استخدام الخمير الحمر المنتصرين كل قسوتهم، بسبب الصمود القوي الذي أبدته كل من أمريكا وكمبوديا مدة خمسة أعوام، لا يستطيع أحد تصديق كلمة من هذا التفسير سوى محبذي ما يقوم به القتلة من الخمير الحمر. وسيهانوك نفسه لم يصدقّه وهؤلاء هم الذين كان قد طردهم من كمبوديا عام ١٩٦٧. ولقد قال لي في شهر نيسان من عام ١٩٧٠ أن زعماء الخمير الحمر «كانوا دوماً قتلة» وعندما استلم الخمير الحمر السلطة، كانت اعمالهم تنحصر في التطبيق العملي للنظريات الاقتصادية ، المستندة إلى ايديولوجيات متزمتة منذ عشرات السنين. وكان زعيمهم كيو سامفان، يكتب في اطروحة الدكتوراه التي قدّمها في باريس في نهاية أعوام ١٩٥٠: ان الإقتصاد الكمبودي ، والبنية الاجتماعية، يجب تغييرهما بتحريك الطاقة الراكدة لدى الطبقة الفلاحية، في وجه المدن الفاسدة، لقد طّبقت هذه النظرية بعد عشرين عاماً بدقة مذهلة، وقسوة بلغت حدّ القتل الجماعي.

ومن المحتمل ان تكون هانوي قد حافظت على استقلال وحياد سيهانوك في حين انها دمّرت بعدئذ تنظيماً مماثلاً، ليس إلاّ لانه كان يريد ان يكون مستقلاً. مع أن كل تصريحات الدوق تو كانت تناقض ذلك. لقد جرّبنا حظّنا مع سيهانوك حيادي. ولسوء الحظ، فان الأحداث والإطاحة به في نهاية شهر نيسان لعام ١٩٧٠، جعلته في وضع لم يستطع العودة عنه إلاّ عميلاً للشيوعيين. انها هانوي، التي كانت تغذّيها رغبة جامحة في السيطرة على الهند الصينيّة، هي التي اجتاحت كمبوديا في الأعوام ١٩٦٥. وهي التي قامت بانشاء تنظيمات الخمير الحمر، قبل سقوط القنابل الأمريكية على الأرض الكمبودية. ان القوات الفيتنامية الشمالية هي التي حاولت خنق حرّية كمبوديا خلال الشهر الذي سبق هجومنا المحدود. وهذه القوات ذاتها أيضاً هي التي أحدثت إنقلاباً لدى الخمير الحمر في عامي ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩. ان كمبوديا كادت تُلتَهم وتندثر عام ١٩٧٠ بدل ان يجري اندثارها نفسه عام ١٩٧٥، لو لم نبادر نحن إلى تدمير القواعد. وان كان ثمة شيء قد حكم فقضى على الكمبوديين الأحرار، انما هو كُلال الحرب الأمريكية.

مسكينة كمبوديا، التي أصبحت هدف كَبتنا القومي. ان منتقدينا المحليين الذين يراقبون تحركاتنا وسكناتنا، اغاظتهم اختلافاتهم حول إيجاد وسيلة لوضع حدّ لحرب فيتنام، فأصابوا نجاحاً اكبر بفرضهم الاستسلام علىكمبوديا. وفيما لو كان العدو نفسه هو الذي يستخدم كمبوديا قاعدة انطلاق له، وفيما لولم يكن لهانوي قدرة في الاستيلاء على اكثر مما استولت عليه، ولو ان تعزيزات القوات الكمبودية اضعفتها او جعلتها في موقف الدفاع، فعلى كل حال فإن المستشارين الأمريكيين منعوا من دخول كمبوديا، كما أن العون الأمريكي تقلص بشكل هائل. فأوقف الكمبوديون قسماً من قوات هانوي في الجنوب، لكنّ تعزيزاتنا ومعوناتنا لم توزّع بصورة جيدة، علماً انها كانت قد إرتفعت الى مائتي مليون دولار عام ١٩٧٠، ولم يكن

في المقدور استخدامها إلاّ في سبيل المحافظة على إبقاء حكومة لون نول ـ طريقة عجيبة ان نساعد بلداً دون مساعدة حكومته. وما كان هذا إلاّ ليعكس في وقت واحد تخوّفنا من التورّط في كمبوديا، كما حدث معنا في بلدان أخرى من الهند الصينيّة. والتنظيم الذي كان سائداً في تلك الفترة أننا كنّا رهائن تيو، لا رهائن هانوي. ولم يتبادر لذهننا ان نفهم أبداً ، في أن زعزعة وضع حلفائنا في كمبوديا ولاوس، هو نفسه يساعد على التخلّي عن التزاماتنا في فيتنام.

ان قرار الكونغرس بمنع تواجد المستشارين العسكريين في كمبوديا، قد اتخذ بالمعنى الحرفي، من قبل سفيرنا، الذي منع ملحقينا العسكريين من الذهاب لمراقبة وضع الوحدات الكمبودية. ولقد أصبحت كمبوديا منطقة إخلاء، فهنا كانت القوات الفيتنامية الجنوبية تقوم بعملياتها في المنطقة الحدودية، وكانت هناك الطائرات الأمريكية تقصف المواصلات المعادية وبقدر ما كانت القوات الكمبودية تفتر همّتها، والسبب في ذلك كان تقليصنا في مساعدتنا، فانها بقدر ذلك كانت بحاجة إلى عمليات طائراتنا التي تشكل بالنسبة لها فرصة إستراتيجية مؤاتية. وليس هذا وحده التهكّم او الخطأ الذي أثاره ضدّنا منتقدونا بقولهم: استعينوا كثيراً بالطيران. وليس هناك أمر نهائي يؤخذ به. وهذا كان يعطي فرصة للفيتناميين الشماليين، لتعزيز جيش الخمير الحمر، في حين كنّا قادرين على تدميره قبل ذلك بكثير. وكان على الجيش الكمبودي ان يتصرّف حسب مقولة نيكسون «على شكل حمائم» مجتراً آلامه، إلى أن عدوّه الشيوعي الذي لا يكنّ له عطفاً، يكون قد حشد قواه لمهاجمته في كل جهة، بينما أن أمريكا التي تدّعي التمسّك بعقيدة، تخمد قليلاً فقليلاً قدرتها علىالصمود.

وانتهت المعضلة الكمبودية بالتأثير علىعضوين من لجنة علاقات مجلس الشيوخ الخارجية: ريشارد م. مووز، وجيمز ج. لوينستين، اللذين كانت زياراتهما

السنوية إلى جنوب شرقي آسيا تحدث رعباً لدى موظفينا. لأن الأثنين كانا يعارضان الحرب. ومن عادتهما خلال زياراتهما المباغتة ترديد وملاحقة الحماقات الصادرة عن الادارة. وكانت تقاريرهما، كل عام، بمثابة رشقة في الهجوم الذي يثيره الكونغرس ضد سياستنا في فيتنام. ومع ذلك فقد توصل مووز ولوينستين، خلال زيارة لهما إلى كمبوديا، في أواخر عام ١٩٧٠، إلى استنتاجات تختلف قليلاً عمّا لدينا، وكانت لديهما الجرأة على البوح بها. ان الشيء الرئيسي والأساسي في تقريرهما، كان منصباً حول حقيقة ان الولايات المتحدة، كانت تقوم في الواقع بابتزاز القليل في سبيل كمبوديا، في حين ان الحكومة الكمبودية تتمتع بمساندة شعبية كبيرة، وان الولايات المتحدة نفسها هي التي تكف عن الاهتمام بها.

«لقد اتضح لنا ان هناك مساندة قوية للجنرال لون نول، لدى الشباب والمثقفين، الأمر الذي يتناقض مع الوضع في فيتنام الجنوبية وكذلك لدى الموظفين، وأعضاء مجلس الشيوخ والنواب....

يملك الكمبوديون تفهّما خاصاً لهويتهم القومية، وعزماً على الدفاع عن بلادهم دون مساعدة قوات أجنبيّة.....

يصعب على الكمبوديين، تفهّم الأسباب المعقّدة ، للمعضلة الأمريكية الحاليّة في جنوب شرقي آسيا. وعندما يتفحّصون ملياً وضع الأمريكان في آسيا خلال العشرين سنة الماضية، تذهلهم مؤشرات تردّد الأمريكان في تسليحهم، ليدافعوا عن أنفسهم ضد قوّات تسلّحها الصين والإتحاد السوفيتي.

وفي حين ان التقارير الأولى، التي كان يصدرها مووز ولوينستون المتضمنة عرضاً للحالة، كانت تنشر في ملازم صغيرة، وتوزع بصورة واسعة، إلاّ أن التقرير

الحالي، كان على عكس ما سبق، حجز عدّة أيام من قبل اللجنة. ومن ثُم وزّع بضغط من بعض الأعضاء، لكن على نطاق ضيّق بقدر الإمكان. لكن فولبرايت عضو مجلس الشيوخ، نشره في صحيفة الكونغرس الرسميّة بتاريخ السادس عشر من شهر كانون الأول لعام ١٩٧٠، وفي الوقت نفسه في بعض المقالات الإفتتاحية لبعض الصحف، دون جلب الانتباه، ودون ان يقرأ علناً في المجلس.

ودون ريب، ان مهاجمة القواعد، كان خياراً لا يوافق عليه أناس فاضلون وذو شأن. ولكن عندما أخذت قوات فيتنام الشمالية بالانتشار في كل البلد، واوجدت «منطقة محرّرة» تحت اشراف شيوعي كمرحلة أولى نحو إسقاط الحكومة غير الشيوعية في فنوم بين (وجرى كل هذا قبل ان يصدر أي رد فعل أمريكي) ، فإن أحجار النرد قد قذفت. ان مهاجمة القواعد كانت تمنع انهيار كمبوديا العاجل، ولكن دون تجنيبها التهديد إلى أمد طويل. ان المعارضين للقرار الأساسي، كانوا يسعون الآن للعودة إلى الوراء، لحجز كل عون إضافي للحكومة الكمبودية. لكن هذا لم يحدث تغييراً في القرار، ولا في توسيع رقعة الحرب، وكانت نتيجة ذلك في الحقيقة اعطاء هانوي والخمير الحمر مجالاً لاستعادة انفاسهم وتهيئة هجوم نهائي. وهذا أدّى بنا إلى قطع كل أمل بكمبوديا مستقلّة، حرّة وحياديّة. وعلى الرغم من كل المناقشات التي جرت عام ١٩٧٠، يمكن القول وبصورة يمكن تصديقها، ان كمبوديا أصبحت في نهاية المطاف ضحيّة تدهور جهازنا الديمقراطي والسياسي، كان بإمكان الحكومة وخصومها إيقاف سياستهما تدريجياً، فيحجزون بذلك كل إستراتيجيّة مترابطة. جرى كل شيء بهذا المزيج من تصميم فيتنام الشمالية، والمعارضة الكمبودية، والنزاعات الأمريكية الداخليّة، مقترنة بنفس مصيبة المأساة اليونانية، داعية السماء ان تسقط على هذا الشعب المحبوب، متاعب لم يكن هو أهّلاً لها، ويجب على كل منّا عدم نسيانها.

وفي شهر حزيران من عام ١٩٧٠ لم نكن نعتقد ان الأمور ستنتهي بهذا الشكل المأساوي. لقد كنا لانزال نسعى نحو توازن يكفل الصمود والمصالحة، وهذا يشكل أحسن تقدّم نحو اجراء مفاوضات. ولأجل هذا طلبنا إلى الجنرال والتر، اصدار مذكرة في الثامن من شهر أيار لعام ١٩٧٠، مقترحاً لقاء آخر مع الدوق تو. ولم أكن أتوقع أن هانوي ستقبل بسرعة.

ففي السادس من شهر أيار، أجّلت هانوي عقد جلسة المفاوضات العامة، التي كان يجب عقدها في الرابع عشر من شهر أيار في شارع كليبر، وأعلنت عن تصريح جديد في مساندة الخمير الحمر. لكن هذا التأجيل ذاته، كما كان قد أشار اليه فريق عملي، وبطريقة حكيمة، يوضح رغبة هانوي بترك الباب مفتوحاً، ولكي لا تعطينا حجّة لمعاودة القصف. وبقيت هانوي عدة اسابيع، دون إجابتنا علىعرضنا، للعودة إلى المحادثات السرية مع الدوق تو. وفي الخامس من شهر حزيران، رفضت هانوي اقتراحنا حول عقد لقاء جديد ووصفته بأنه ليس سوى هدنة مؤقتة.

ومن الواضح الجلي، ان بعد تصعيد الأمور، سيتوضّح توازن قوى جديد، فسوف نحصل على دورة دبلوماسيّة جديدة. لذلك، طلبت في الخامس والعشرين من شهر أيّار، من الوزارات دراسة المبادرات الدبلوماسيّة، التي تستطيع الولايات المتحدة القيام بها في الهند الصينيّة. وكنت اؤكد في الوقت ذاته على الرئيس، تسمية مفاوض له قدرة ووزن في باريس. وكان الفيتناميون الشماليون قد اكدوا على ذلك أيضاً خلال المحادثات العامة والمنفردة. ولم أعتقد شخصياً ان هذا التعيين سيكون كافياً لاعطاء زخم للمفاوضات. ان ما كانت تنتظره هانوي قبل كل شيء، من مفاوضات باريس، ان تمنعنا عن العودة إلى قصف فيتنام الشمالية، بحجّة عدم اجراء اية محادثة رسميّة. وكنت اعتقد ان تعييناً عالي المستوى سيحرم هانوي من الوسيلة الدعائية. فاقترحت تعيين

دافيد ك . أ. بروس، فأقرّ ذالك نيكسون بحماس. وقبل بروس شعوراً منه بالقيام بالواجب، الذي هو إحدى صفات هذا الدبلوماسي العظيم.

وفي شهر تموز من عام ١٩٧٠،كان دافيد بروس، قد بلغ من العمر اثنين وسبعين عاماً وأصبح جسمه نحيلاً، ومع ذلك فقد خاض غمار مجازفة، مع عمله الأكيد المسبق، ان غاية خصومه الوحيدة هي تحطيمه. لقد كان يعرف ان ليس هناك أية موهبة خطابية يمكنها ملء التقرير الحقيقي للقوى التي يعلّق عليها مخاطبوه آمالاً كبيرة. لم يكن له أي نفع في مهمتّه إلى باريس. ولم يذهب إليها في سبيل ذلك. اذ كان يعلم ان شرف أمّة ليس أمراً تافهاً، وكان يردّد اننا لم نتجاوز بعد الأجيال، لنخون أولئك الذين وثقوا بوعودنا، وعلينا أجتياز طريق طويلة وشاقّة، لكن الحمل يصبح ممكناً حمله على كاهلي دافيد بروس. ومهما تكن المهمة التي يكلّف بها. يمكن الاطمئنان وبكل ثقة ان نتيجتها هي في نفع الأمّة.

الفصل الحادي عشر

العلاقات الأمريكية ـ السوفيتية ...سخونة بعد برود

لا شك أن ما يثير الأزمات في العلاقات الأمريكية ـ السوفيتية، ليس فقط أنهما مستقرتان بين بيروقراطيتين متنافستين، تملك كل منهما اعتقاداتها الخاصة وظنونها. ولديهما مفهوم يعارض كل ما يسمى مفاوضات. أن الأمريكيين يميلون إلى الاعتقاد، أن جميع المفاوضات تتبع منطقياً خاصاً، وإن الخروج من تلك المفاوضات يتوقف بجزئه الكبير على المهارة في المساومة، والإدارة الطيبة، ومرونة المشتركين فيها. ومع ذلك، إذا لم يكن لدى أحد الفرقاء سوى منهاج غامض وتحدوه الرغبة في الوصول إلى اتفاق مهما غلا الثمن، فإن التفاوضية غاية في حد ذاتها. وتكون النتيجة متوقعة سلفاً فالفريق الذي يتمسك دائماً بالمفاوضات عليه العدول عن بعض مواقفه. ونتهم ما بقى عندنا ثابتاً في موقفه أثناء المفاوضات، بالقوة والعناد ونقص في التصوّر. فليس هناك من وضع

نهائي. يطالب منتقدونا أن نكون أكثر مرونة، ومن ثم يؤكدون، أن على الولايات المتحدة تقديم تنازلات للتمكن من الخروج من المأزق. أما الفريق الآخر، الذي يَعى هذا الوقع ينتظر مزيداً من النزاع بيننا، ويزيد من جهته بعناده آملاً في تنازلات أكثر.

كانت صفات المفاوضين الأمريكان هذه قد عقدت مهمتنا في عام ١٩٦٩. وكان الجدل قد وصل أوجه لدينا. كما كان علينا ان نخوض عراكاً ضمن الإدارة، يبدو طويلاً، ضد هؤلاء الذين كانوا يريدون احياء المفاوضات بإجراء مظاهرات مقصودة. أنهم عديدون، مثلا هؤلاء الذين كانوا يؤكدون وجوب التخلي عن تصنيع القذائف الصاروخية والصواريخ الموجّهة اذا كنّا لا نريد فعلاً تعريض تحديد التسلح الإستراتيجي للخطر. وفي الواقع لقد ظهر ان القذائف الصاروخية والصواريخ الموجهة كانت هي الأوراق التي تسمح لنا بالتحرك. وكانو ينبهوننا كذلك، الى ان التمهيد لصداقات مع الصين، سوف يعرّض للخطر علاقتنا مع الإتحاد السوفيتي، وعلى كل حال فإن هذا الموضوع سيوضح عدة مشاكل.

كانت انشقاقاتنا الداخلية، تعطي الزعماء السوفيت فرصة لا تُردْ في تضييق الخناق علينا فالكرملين مثلاً، كان يبدي رغبته بإجراء مفاوضات حول تحديد الأسلحة الاستراتيجية. في حين أن البيت الأبيض كان يحاول إعطاء جواب يدور بمجمله حول سلوكيات السوفيت العامة، أما باقي أعضاء الحكومة فأنهم كانوا يحاولون إيجاد وسائل عديدة، بدءاً من الابتعاد عن أي تلميح، ليدلّوا على شديد رغبتهم، بل تلهفهم للبدء بالمفاوضات. وبفضل إدارة دوبروينين اللبقة، فإن السفارة السوفيتية، كانت تثير ضجة بين الصحافيين، وذوي النفوذ من أعضاء الكونغرس، أن التجارة ستخفف كثيراً من الضغوط، بينما كان يحاول البيت الأبيض، اقناع الناس، أن المبادلات التجارية ترافق ولا تسبق تحسّن العلاقات السياسية، لكن الوزارات

المختلفة الأخرى، وكذلك أعضاء الكونغرس البارزون، كانوا يطالبون بإلحاح برفع الحجز المفروض على التجارة حالاً. وهكذا أمضينا أكبر قسم من سنتنا الأولى، في محاولة إقناع السوفيت وإدارتنا، أن نيّتنا متجهة إلى تركيز مفاوضتنا إلى ما كنّا نعتبره نفعاً قومياً، لا على شعارات مبهمة، وعلى مبادرات واقعية لا على دلائل ومؤشرات. وفي نهاية عام ١٩٦٩. لم يتوصّل أي من الفرقاء إلى أحد أهدافه، ومع ذلك فقد كان يبدو أن دورات السلاح هذه كانت تأتي إلى نهايتها. وخلال مباحثاتي واتصالاتي مع السفير السوفيتي أناتولي دوبرينين، توصلنا إلى إقناع السوفيت، وإدارتنا أننا لا نزال متمسكين بوجهة نظر رئيسنا. ومع ذلك، فإن كل ما نُقل عن طريق اتصالاتنا، في بداية عام ١٩٧٠، كانت الفائدة منه بمثابة افتتاح شوط لعبة شطرنج، إذ أن أي لاعب مشترك فيها، كان عازماً على تلافي الخطأ الذي لا يمكن إصلاحه: أن نقل البيادق كان يجري بحكمة، ويكشف قدر الإمكان عن نوايا الخصوم، ويستدعي الحذر وبعد النظر من كل منهم.

وفي الثاني والعشرين من شهر كانون الأول لعام ١٩٦٩، عندما التقيت دوبرينين، لتبادل وجهات النظر في الوضع العام، أوضح متظاهراً بالابتسام، أن موسكو تتوقع إجراء محادثات مع نيكسون لسبع سنوات قادمة. فلا تستطيع موسكو تسويف الأمور طوال هذه المدة وهانوي كذلك. ولقد أكّد بما يثير العجب فعلاً أن موسكو ليس لها مصالح في جنوب شرقي آسيا، وأنها ارتكبت خطأ عند التزامها بذلك، ولم يشرح ما هو نوع هذا الخطأ. وحسب رأيه فإن الصين وحدها هي المستفيدة من متابعة الحرب.

وعدّد دوبرينين ما كان يثير قلق الاتحاد السوفيتي مورداً الأمثلة التالية:

- تأكيدنا على تصنيع القذائف الصاروخية.

■ مأزق المفاوضات حول الشرق الأوسط.

■ رفض دعوة غروميكو إلى البيت الأبيض، في حين أن نيكسون كان يستقبل معاون وزير شؤون خارجية رومانيا.

■ عنادنا في فصل المفاوضات الواحدة عن الأخرى (الترابط).

وأنهى حديثه متسائلاً عما إذا كان باستطاعتنا استخدام المحادثات المكوكية لمناقشة المواضيع الجوهرية، وعما إذا كنا عازمين على انتظار نهاية حرب فيتنام، لنطبق عملياً كل اتفاق نكون قد توصلنا إليه. فرددت على دوبرينين أن جواباً إيجابياً يبدو ممكناً. وتلاقينا مجدداً في العشرين من شهر كانون الثاني لعام ١٩٧٠، بحجة صدور مذكرة احتجاج سوفيتية، ضد اجتماع لجان البرلمان الألماني الغربي في برلين الغربية. وصلت المذكرة عن طريق الحقيبة الرئاسية ولم يصدر عنها أي إعلان لأن موسكو بكل جلاء لا تريد أية أزمات في أواسط أوروبا.

واغتنم دوبرينين المناسبة لمعرفة نتيجة اتصالاتنا الحديثة مع الصينيين في وارسو وكان يسعى أن يفهمني أن هذه نقطة مثيرة بالنسبة لموسكو. ولم أعلمه أي شيء حول هذا الموضوع. ولم أفهم أبداً لماذا كان السوفيت في قلق دائم من جهة الصين. وبعد ما يقرب من عشر سنوات، أظهروا نفس الاضطراب بمناسبة المعاهدة الصينية ـ اليابانية.

لقد كنت أعارض دوماً إبلاغ موسكو عن إجراء مباحثات مع الصينيين لأن هذا يعطي زخماً للسوفيت، فقد يستطيعون استخدام هذه المعلومات على طريقتهم، في سبيل إذكاء مخاوف بكين من حكم ثنائي أمريكي ـ سوفيتي. فأجبت دوبرينين: إذا كان لدى موسكو بعض التحسّس، فإن رؤساءه لن يصدّقوا، ما سوف أحدثه به. وفي كل الأحوال، حتى بدون إصدار تعليمات من قبلي، يجب أن يكون واضحاً، أننا لم

نكن في وضع يمكّننا من استخدام الصين أداة تهديد عسكري وفي الوقت ذاته، كان على موسكو أن تفهم أن لدينا نحن أيضاً نقطة تحسّس الآ وهي فيتنام.

وخلال هذا الاجتماع، كان يريد دوبرينين في الواقع، إعادة محادثات جرت بيننا، لا سيما تلك التي دارت في الثاني والعشرين من شهر كانون الأول حول استخدام المحادثات المكوكية، فبدأ حديثه، بمرونته العادية، محاولاً معرفة ردود أفعالي، تجاه فكرة عقد اجتماع قمة، وأخذ يسألني عن تأكيدات حول ملاحظة نُسبت إلى سفير اليابان، وعزم نيكسون على أثرها تنظيم لقاء مع الزعماء السوفيت في نهاية الصيف أو بداية الخريف، فأكدت له استعدادنا للقاء قمة، وأننا لن نقوم بذلك بوساطة.

وعند الختام، نقل إلى دوبرينين ردّ فعل موسكو بالنسبة لمحادثتنا السابقة. أن الزعماء السوفيت، كانوا على استعداد تام لإجراء مباحثات مكوكية. واقترح على دوبرينين عدم طرح سوى موضوع واحد كل مرّة. وسيطلعني قريباً على وجهات النظر السوفيتية حول الأمن الأوروبي.

وهكذا ففي نهاية شهر كانون الثاني لعام ١٩٧٠، كنا نجد أنفسنا وكأننا على عتبة محادثات رسمية. وللأسف كما يحدث للروس غالباً، فإنهم غيروا فجأة اتجاههم. ولم تجر أية مباحثات حول الأمن الأوروبي. أن دوبرينين لم يعد يتكلم عنه بذاته، ولم تجر كذلك مبادلة وجهات نظر واقعية حول سالت. وبدلاً من كل هذا، فقد جاء دوبرينين إلى مكتبي في الحادي والثلاثين من شهر كانون الثاني، لينقل إلي تحذيراً من كوسيغين، حول موضوع العمليات العسكرية الإسرائيلية على طول قناة السويس، وإذا تتالت الغارات الجوية الإسرائيلية على مصر، فإن الاتحاد السوفيتي ـ بناء على ما جاء في المذكرة ـ سيرى نفسه مضطراً أن يضع تحت تصرّف البلدان

العربية الوسائل اللازمة لطرد إسرائيل. من جانبه أصدر نيكسون رسالة فيها بعض البرود والكثير من التهذيب، رفض فيها كل هذه المزاعم، ويظهر بكل وضوح مقاومة الولايات المتحدة لكل تصعيد سوفيتي في الشرق الأوسط وفي العاشر من شهر شباط، هدأت أعصاب دوبرينين قليلاً، فأعاد الكرّة وأكّد مرة أخرى أن رسالة كوسيغين، لم يكن يراد بها التهديد، لكن غايتها تحديد مشكلة.

وفي العاشر من شهر آذار، وقبل التاريخ المحدد لبدء المحادثات الرسمية حول سالت، طرح دوبرينين السؤال التالي: هل كان علينا أنا وهو، التركيز على اتفاق "إجمالي" أو على اتفاق "محدود" فأجبته: أن المفروض طبعاً أن نصل إلى شيء واقعي وملموس، وبعد هذه المحادثة، بأسبوع على الأقل، علمنا أن أحدث الصواريخ السوفيتية المضادة للطائرات (S.A3) وصلت توّاً إلى مصر، مع مديريها، ولهذا السبب، وبعد عشرة أيام، التقيت دوبرينين مجدداً، وبينت له بجلاء، أن هذا الأمر يذكرنا بما قاموا به إبان أزمة كوبا، ولم يفُتنا أن نطمئن أنفسنا أن التوازن العسكري لا يزال محافظاً عليه. وفي السابع من شهر نيسان، تكلم دوبرينين أيضاً عن تبادل وجهات نظر محتملة الوقوع بشأن قضية سالت: ولو نوّهت عن موقفنا قبل العرض الرسمي للقضية في فيينا، لأصبح لدى موسكو دليل على حسن نيْتنا وسوف يسمح ذلك للمراتب العليا في الكرملين بالتفكير فيه قبل أن يتخذ الأخصائيون في مختلف الوزارات موقفاً متصلباً جداً.

لم تُتح لنا الظروف متابعة هذه المحادثات إلى مدى بعيد، إذ استدعي دوبرينين إلى موسكو لإجراء مشاورات، وتفجرت أزمة كمبوديا. ومع ذلك فقد أصبح لدينا الكثير ليقنعنا أن ليس للكرملين خطة عمل محدّدة. لأنه كان يحاول فجأة الضغط والمصالحة. وكان يعالج قضايا يتخلّى عنها بعد قليل، دون فهم سبب ذلك، وكان يثير متاعب الشرق الأوسط، فماذا كان يخبئ إذا هذا السلوك المحيّر؟؟.

بيّنت الأشهر القليلة التي تلت المفاوضات، الأسباب الكامنة وراء عدم متابعة دوبرينين للعرض الذي تقدم به في العشرين من كانون الثاني، والمتعلق بوجهات نظر الإتحاد السوفيتي حول الأمن الأوروبي، ان موسكو كانت على اعتقاد انه من الأفضل معالجة هذا الموضوع مباشرة مع بون من دون إشراكنا. وقد تقدّم ويلّي براندت بمبادرة خلال فصل الشتاء من عام ١٩٦٩، أقترح فيها على الإتحاد السوفيتي والمانيا الشرقية، ان يستنكرا استخدام القوة، والقبول بالأمر الواقع في أوروبا الوسطى، وبكل جلاء. فان الزعماء السوفيت والسائرين في ركبهم من الألمان الشرقيين ، كانوا قلقين من احتمال مناقشة حكومة اشتراكية ديمقراطية في المانيا، ولأول مرة منذ عشرين سنة خلت. ولقد قامت موسكو مقابل ذلك باجراء مفاوضات مع الصين، حول النزاع الكامن على الحدود منذ وقت طويل. كان الروس يفكرون طبعاً، أنهم سيتمكنون من تقليص الضغوط على الجبهتين معاً، ولو استطاعوا التأكد من قبول براندت للأمر الواقع في أوروبا. لعملوا على عزل الصين. أضف الى ذلك، فإن اتفاقاً مباشراً بين بون وموسكو، له تأثير إضافي، باستبعاد الولايات المتحدة من حلّ المشكلة الأوروبية الهامة. وهذه سابقة ممكنة لدفع الأوروبين الآخرين، للاتجاه أكثر نحو موسكو، مما هم عليه الآن نحو واشنطن. وسيؤدي هذا مع الزمن إلى إضعاف إرتباطات حلف شمال الأطلسي.

كنت على قناعة تامة، أن القرار الذي اتخذّه براندت، في سبيل تعديل السياسة التي كان يتبعها أسلافه الديمقراطيون المسيحيون والتي كانت لا مفرّ من اتباعها مفيدة حتماً. وكان يستلزم ذلك عدم تمكن السوفيت من التدخل في السياسة الألمانية والأوروبية. واذا لم ننظم أمورنا ونسيطر على الوضع، فإن براندت سيصبح تابعاً للاتحاد السوفيتي. وفي السادس عشر من شهر شباط، فصّلت للرئيس بعض الاستنتاجات الممكنة:

«ان المشاهد الأكثر إقلاقاً من داهية السياسة تتمثل على المدى الطويل. وطالما ان مفاوضاته مع البلاد الشرقية، تدور حول المشاكل القائمة حالياً ـ الاعتراف بجمهورية ألمانيا الديمقراطية، الأودر ـ نايس (Oder-Neisse) والحلول المختلفة الممكنّة حول برلين ـ فلن تعترض براندت صعوبات لإكمال طريقه في اتباع سياسته الأساسية الموالية للغرب...

ولكن دعنا نفترض ان براندت سيصل يوماً الى درجة ما من التسوية، فإنه هو أو خلفه، سيتمكنان من أكتشاف، وقبل فوات الوقت، أن الفوائد المفقودة، يتأخر تحقيقها.

بعد تركيز سياستهم كثيراً نحو الشرق، فإن الألمان في خشية في هذا الظرف بالذات، من وجوب الإقدام على خيارات صعبة. وعلينا الآ ننسى ، ان في الأعوام ١٩٥٠ فان العديد من الألمان ليس فقط الذين كانوا في الحزب الاشتراكي الذي كان يرأسه حينئذ شوماشر، ولكن أيضاً في الأوساط المحافظة تقليدياً. الذين فتنهم الشرق، أو تحمسوا لرؤيتهم المانيا تستخدم كجسر بين الشرق والغرب، كل هؤلاء كانوا يعارضون دمج بون في التنظيمات الغربية، بحجة ان هذا سيرسخ تقسيم المانيا، ويحول دون ان تقوم الأخيرة بدور حيوي في الشرق. ان هذا النوع من المناقشات حول الوضع الأساسي لألمانيا يمكن ان يعود بشكل أقسى. ويثير ليس فقط المشاكل الالمانية الداخلية. ويجعل شركاء المانيا الغربيين يشكون في تقبلها كشريكة لهم.

ومع ذلك، فان السعي لإفشال سياسة براندت لا يجدي نفعاً. ولم يكن لدينا خيار سوى التوجيه البناء. ان ائتلاف براندت كان قد اختير بناء على برنامج أخذ بتطبيقه حالياً. وفي سبيل إسقاط دهاء سياسته، كان يجب التدخل بحزم في سياسة

ألمانيا الداخلية، وإبعاد حلفائنا، (وكما كان يخشى الرئيس بومبيدو) تعديل حلف شمال الأطلسي، الى حلف ألماني ـ امريكي، لتحرير أوروبا الشرقية، أضف الى ذلك، لم يكن لدينا حلّ لتبديل آخر. والسبب في ذلك انهم كانوا يخشون سياسة تحرر ألمانية، أكثر من سياسة براندت التي رضي بها علناً كل من بومبيدو وهارولد ويلسون، وكانا يدفعاننا على انفراد إلى الإقتداء بهما. ان الرأي العام لدينا لم يكن ليفهم أيضاً أننا نؤكد علىتوحيد ألمانيا خلافاً لرغبات الحكومة الألمانية، اننا لا نستطيع أن نكون ألماناً أكثر من الألمان انفسهم. بل بعكس ذلك، فسوف نتّهم بتدميرنا أمالاً عظاماً نحو تلطيف نتائج مؤلمة ومريرية يسبّبها تقسيم ألمانيا.

والخلاصة، اني أكدت على نيكسون ان يسير في اتجاه سياسة براندت ويستخدم نفوذنا لوضعه في إطار أكبر من القومية الألمانية. لم تفتر حركة براندت، فهدّأ القلق، محتفظاً بإتصال بسيط معنا. وبالحقيقة فان الحكومة الألمانية الجديدة، كانت تُبلغ أكثر مما تأخذ الرأي. وكانت ترسل تقارير بما تحققه من تقدم، ولم تكن تطلب نصيحة. وعلى الرغم من كل ذلك، فإن هذا ما كنا نريد، ان مطلبنا مهما غلا الثمن تحاشي إعتبارنا مسؤولين عن مواضيع مفاوضات. كانت موضوع نقاش حاد في ألمانيا الغربية. وصارحت نيكسون بوجوب تحديد مساندتنا لبراندت واتخاذ موقف مقبول تجاه تحسين جمهورية المانيا الاتحادية، علاقتها مع الشرق دون الموافقة سلفاً على ما سوف تتخذّه هذه أو تلك من إجراءات.

ولم تعدم أبداً الوسائل لمنع الإتحاد السوفيتي من استخدام داهية السياسة لفصلنا عن حلفائنا الاوروبيين. ولكي نبدأ فليس هناك أي زعيم ألماني ـ غربي يتمكن من السماح لنفسه باتباع سياسة لا نقرها رسمياً، وعلى المستوى القومي، فإن هذا يسيء الى وضعه، واعتقاداته الخاصة سوف تثنيه عنها. وأخيراً فليس هناك أية مقارنة معقولة لأفضلية سياسة ما، تتمكن من تشجيعه عليها. ومن ثم، بقدر ما يقترب براندت

من الاعتراف بألمانيا الشرقية، فبقدر ذلك يصبح مضطراً الى عقد اتفاق معها. ان برلين كانت في الواقع مفتاح للمشكلة برمتها، لسبب بسيط. ان جميع المعاهدات التي فاوض عليها براندت مع الإتحاد السوفيتي وألمانيا الشرقية، كان يجب ان يصدّق عليها مجلس نواب ألمانيا الغربية، حيث كان إئتلافه يشكل أقل أغلبية، إن اتفاقاً يحسّن وضع أمن برلين، كان أكثر تعقلاً وأكثر إقناعاً من تعديل معاهدات متنازع عليها، يبرمها براندت، متضمنة القبول بتقسيم ألمانيا. وبكل وضوح فإن اتفاقاً واحداً حول برلين سيسمح لبراندت بتصديق جميع تعهداته مع الشرق. ان اتفاقاً حول برلين، كان يتطلب والحالة هذه، إسهام السلطات الأربع. التي كانت اشتركت في الحرب (الولايات المتحدة، بريطانيا العظمى، فرنسا، والإتحاد السوفيتي).

ففي هذا الإطار، ودون تحمّس، ولكن ليس بدون ثقة، افقنا على سياسة براندت الثوريّة. وفي الرابع عشر من شهر كانون الثاني، أصدر براندت اعلاناً سياسياً، طارحاً ستة مبادئ بشأن المفاوضات مع الشرق، تتضمن المحافظة على حقوق السلطات الأربع في برلين، وتحسين شروط الحياة في المدينة. وبعد خمسة أيام، قبل زعيم الحزب الشيوعي في ألمانيا الشرقية وولتر اولبرايخت اجراء مفاوضات دون شروط، حول العلاقات بين كلّ من ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربيّة. وفي الحادي عشر من شهر شباط، أقدم رئيس وزراء المانيا الشرقية، ويلي ستوف، على مفاجأة أخرى مقترحاً إجراء مفاوضات مباشرة. وجرى الاتفاق على التقاء الزعيمين في أرفورت في المانيا الشرقية في التاسع عشر من شهر آذار. وكانت بون قد أجرت خلال هذا الوقت مباحثات مع الاتحاد السوفيتي، بشأن معاهدة لرفض استخدام القوة. وكما كان متوقعاً، فان الاتصالات الأولى التي جرت من قبل سفير ألمانيا الغربية في موسكو وصلت إلى مأزق، لأن السوفيت كانوا يؤكدون على وجوب أعتراف ألمانيا الاتحادية بألمانيا الشرقية أولاً. على اثر ذلك عزم براندت على رفع سويّة المباحثات اذ كلف

ذراعه الأيمن، ايغون باهر، بإجراء الجولة الثانية. فأبلغني باهر بهذه الاجراءات بطريق غير رسميّة. وفي العشرين من شهر شباط، لدى عودة باهر من موسكو، سلك الطريق ذاتها، لإطلاعنا على تفاؤله الكبير، إثرمحادثاته هناك. لقد كان يعتقد ان السوفيت مهتمون جداً بعقد معاهدة ترفض استخدام القوة. وكانوا على أهبة تقديم اقتراحات واقعيّة مصدّقة من قبل المكتب السياسي.

لكن باهركان قد فهم أيضاً ان الارتباط ببرلين كان كل رأسمالنا، وأكد لي انه ألحّ على غروميكو، حول تمكّن المدنيين من التوجّه بكل حريّة إلى برلين، وهذه نقطة أساسية في نظر الرأي العام الألماني. لم يجب غروميكو لكانه سجّل هذه الملاحظة. وكان باهر يُصر على ان تجري المفاوضات حول برلين، في ذات المفاوضات الألمانية. وكانت وجهة نظري تختلف، عندما تنجح المفاوضات الألمانية، نصبح في وضع جيّد نتمكن من خلاله المفاوضة حول برلين، وينفذ صبر السوفيت لتصديق المعاهدات مع الشرق.

بعد وضع عقبات لمفاوضات برلين مدة ستة أشهر، أنتهى السوفيت إلى اتخاذ نفس الفكرة. ففي العاشر من شهر شباط، قدموا دعوة رسميّة للولايات المتحدة، وبريطانيا العظمى وفرنسا، للبدء في مفاوضات برلين في الثامن عشر من شهر شباط. ان فترات قصيرة كهذه تظل غامضة، على الرغم من بطء تكوين الآراء بين الحلفاء. ومع ذلك فقد كانت تكشف عن انتهاء صبر السوفيت، وتؤكد امكانية تحسن وضعنا في برلين مدة أطول. طالما لم نفقد رباطة جأشنا. فأشرت على الرئيس، قبول الاقتراح السوفيتي وتحديد مدة المفاوضات، بطريقة تسد الطريق على السوفيت من إشغال الحلفاء كل ضد الآخر، لاجراء سلسلتين من المفاوضات. وهذا أدّى بالفعل إلى دور دقيق جداً فلم نستطع لا نحن ولا حليفنا الألماني الكشف عن موقفنا الصحيح وبصورة جليّة. ان براندت من جانبه ، كان يريد تسريع المفاوضات حول برلين، ليتمكن من استخدامها كوسيلة اذا اقتضت الحال. وجَعلَنا مسؤولين عن كل فشل

يحدث لدهاء سياسته، وكنا نريد ، مقابل ذلك، اتّباع تنظيم أبطأ، خشية ان يطلب من السلطات الأربع في برلين تقديم بعض التنازلات، لقاء تقدم المفاوضات بين كل من ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية.

وفي الخامس والعشرين من شهر شباط، كتب براندت إلى نيكسون، ليعلمه رسمياً عن زيارة باهر إلى موسكو، وليؤكد عليه بأسلوب لطيف، على افتتاح عاجل للمفاوضات حول برلين. فأجّلنا الإجابة حتى الثاني عشر من شهر آذار. وقبل نيكسون في جوابه ان يكون الموقف الغربي واحداً.

ويقترح بالاضافة إلى ذلك بدء المحادثات بين الأربعة حول برلين في السادس والعشرين من شهر آذار. ان تعقيد مشكلة برلين، وضرورة تحديد موقف غربي جماعي ووجهات النظر المتعاكسة والتي انتظمت خلال السنين، كل هذا كان يُدلّل على بطء المفاوضات حول برلين.

وكان يستطيع براندت اتخاذ موقف أسرع حيال مفاوضاته ثنائية الجانب. وكان هذا ضرورياً ، طالما أن مفاوضه الوحيد ايغون باهر كان يسير على هذا النهج، ونتيجة ذلك سيتعزّز موقفنا. واذا عبّرنا عن الأشياء دبلوماسياً، فان بطء المفاوضات حول برلين كان يبدو لي غير مجحف.

كان لقاء براندت وويلّي ستوف في ارفورت تقدماً باهراً. لقد استقبل براندت من قبل جمهور هائج، أخذ يصرخ «ويلّي ويلّي» وبعد تأكده من أن الرجلين يحملان نفس الأسم، أعاد صراخه: ويلّي براندتّ ولم يتوصل إلى أي اتفاق هام. والشيء الذي يلفت النظر ان حاكمي ألمانيا المقسّمة التقيا لأول مرّة وتحادثا، ان الموقف الغربي العادي - يعني ان كل تنظيم أوروبي كان يفترض توحيد ألمانيا - دخل طيّات التاريخ.

وكانت الأمور لاتزال على وضعها، عندما حضر براندت إلى واشنطن، بعد ثلاثة

أسابيع، ولأول مرّة بعد أن أصبح مستشاراً. وقبل وصوله، أجريت حديثاً خاصاً مع ايغون باهر في مكتبي في البيت الأبيض بتاريخ السابع من شهر نيسان. فقدّم لي تفصيلاً مستفيضاً حول محادثاته في موسكو. كان باهر مقتنعاً ان الروس سيضغطون على المانيا الشرقية، لتلطيف علاقتها مع بون، وانهم سيسهّلون ايجاد منفذ إلى برلين. ومفهوم طبعاً ما كنّا نريده، ليس إيماءة ادارية من قبل السوفيت، يمكن نقضها عند الحاجة، بل تنظيماً شرعياً يكفل حريّة الوصول إلى برلين. كان لقاء براندت ـ نيكسون جيداً. غادر براندت واشنطن مع تأكيد من قبلنا بمساندة اجمالية لسياسته. والمفاوضات بين الألمان والسوفيت استعيدت في الثاني عشر من شهر أيّار، لتنتهي في الثاني والعشرين منه، وتوصّل فيها إلى اتفاق على مبادئ. وفي الاجتماع نصف السنوي لوزراء شؤون خارجية الحلف الأطلسي، الذي عقد في السادس والعشرين والسابع والعشرين من شهر أيار، تلقى براندت مساندة أكيدة من قبل كل حلفائه.

وبعد ان نشط براندت اثر النتائج الايجابية للانتخابات المحلية التي جرت في شهر حزيران، عزم على معالجة آخر مرحلة من مفاوضاته مع الإتحاد السوفيتي وعيّن ولتر شيل، وزير الشؤون الخارجية مفاوضا رئيسياً. وبعد قضاء اثني عشر يوماً في موسكوبدأ شيل، مع وزير الشؤون الخارجية السوفيتية، غروميكو، تنظيم مشروع معاهدة حول رفض استخدام القوة، وبعد خمسة أيام توجّه براندت إلى موسكو، لتوقيع هذه المعاهدة، واغتنام الفرصة للتحدّث طويلاً مع بريجنيف. ان الجمهورية الإتحادية أقدمت على اتخاذ قرارا لا رجوع عنه، فهي تقبل بتقسيم ألمانيا، وتوثّق الوضع الحالي في أوروبا الوسطى.

وبعد يومين كتب براندت إلى نيكسون وأعلمه أنه قد أكّد على كل من كوسيغين وبريجنيف الأهمية الرئيسية، لوضع حل لمشكلة برلين. ولقد كرّرنا لفت نظر السوفيت

رسمياً، ان المعاهدة لن تصبح نافذة ، مالم يتوصّل إلى تسوية مرضية لبرلين. وفي السابع عشر من شهر آب، عاد باهر إلى واشنطن لاطلاعي على مكوث براندت في موسكو. وكان همّه الوحيد ان يؤكد ان براندت يسعى نحو تقدّم سريع لمفاوضات برلين. ولقد بيّنت للرئيس اننا في خطر ان نعوّض عن الأضرار الحاصلة في حال فشل تلك المفاوضات، المرتبطة كل منها بالأخرى. لكن هذا كان بعيد الاحتمال، ولقد أصبحنا فيها العنصر الفعّال، لو اقتضى الأمر للبقاء خمسة أشهر أخرى في موسكو وفي الجمهورية الاتحادية لفهم ذلك.

لقد أقام الروس عوائق تجاه مفاوضات برلين، حتى ظهور نتائج معاهدتهم مع الجمهورية الاتحادية، ولقد قدّروا حتماً ان المانيا الغربية سوف تمارس علينا ضغوطاً، في سبيل قبول اتفاق حول برلين، وهذا ما عملته فعلاً ولكن بفتور. لكنهم أي الروس قد ارتكبوا خطأ، لأن هامش مناورة برلين ضيّق، ومخزون مصالحتها قد نفد، وليست على استعداد ان تفرض علينا شيئاً بعد. والمعاهدة مع الاتحاد السوفيتي . لم تكن مقبولة لدى القسم الأعظم من الرأي العام الألماني. ولقد أنكرت بون وابتعدت عن طموحاتها القومية، حول تصفية الجو وتسهيل الاتصالات بين كل من ألمانيا هذه أوتلك، ولم يكن هناك ما يدعو إلى قطع مثل هذه الاتصالات ابداً. ان المصير الذي يحتفظ به مجلس النواب للمعاهدة، كان يتوقف حالياً على تسهيلات واضحة وصريحة يقدمها السوفيت تجاه برلين.

في غضون ذلك. كان علينا ان نوقف حلفاءنا على كل ما يجري. كان براندت يطالب الحلف باتخاذ اتفاق جماعي حول المعايير التي يجب بموجبها اجراء تقليصات في أعداد القوات المشتركة في اوروبا، للتمكن من إعداد مفاوضات في هذا الخصوص، واجتناب انسحابات أحادية الجانب من قبل الولايات المتحدة. وكانت بريطانيا العظمى تطالب بدورها بتشكيل سريع للجنة دائمة للعلاقات بين الشرق

والغرب. وأحبطنا المبادرة الألمانية، بطرحنا مبادئ عامة حول القوات المشتركة المتوازية اقترحتها كندا. وعارضنا بصراحة الاقتراح البريطاني. اننا لا نريد تنظيمات باستطاعتها اضافة ضغوط اصبحت متلاحقة في سبيل انفراج لا يستند إلى شيء واقعي.

ان الظرف مؤاتٍ لنا، وكنا نجد أنفسنا في موقف قوّة، شريطة ان نحافظ على رباطة جأشنا. ان الروس لم يحسبوا لذلك حساباً سريعاً. فكانوا مصمّمين على الإعتقاد ان عقد اتفاق مع الجمهورية الاتحادية هو ضمان عظيم لإنفراج انتخابي، ويؤكدون على استخدامه في سبيل إضعاف الإئتلاف، بشنّ سلسلة من الأزمات تجاه الولايات المتحدة، فلزِمَنا بضعة أشهر صمود لإفهام الكرملين مع من يجب ان يتعامل.

❐ ❐ ❐

كانت المفاوضات مع موسكو تسير بطريق ثابت وخاص بها، حول تحديد التسلح الاستراتيجي، وكانت تلك المفاوضات تعقد بالتناوب في هلسنكي وفيينا. جرت الاتصالات الأولى في هلسنكي، وعلى المفاوضات أن تستأنف في فيينا في منتصف شهر نيسان من عام ١٩٧٠. كان الروس قد أظهروا رغبة في تحديد برامج القذائف الصاروخية - وهذا أمر يختلف جداً عمّا كان كوسيغين قد أعلن عنه للرئيس جونسون في غلا سبورو. شئ مبهم ويسمع لأول مرّة، تحديد الدفاع بواسطة الصواريخ. فحاولنا أن نستنتج منطقياً،أن ذلك كان قرارنا نحن بتركيز قذائف صاروخية لدينا، ممّا حدا بالسوفيت إلى تغيير رأيهم.وللأسف فإن هذا النوع من التفكير لم يكن رائجاً. وفي الواقع فإن النقاش الجاف الذي جرى حول القذائف الصاروخية عام ١٩٦٩ استؤنف عام ١٩٧٠، ولكن هذه المرة حول مستوى البرنامج

الذي أُقِرّ. وكانت المشكلة تكمن في، هل يجب علينا تحديد قذائفنا الصاروخية إلى الحد الذي كان يدعى بالمرحلة الأولى، وهذا يعني إلى الموقعين اللذين كانا يحميان قواعد صواريخنا التي وافق عليها الكونغرس السابق. أو هل كان علينا أن نتجاوز ذلك إلى المرحلة الثانية، أعني تركيز صواريخ، كما كنا قد أعلنّا، تتمكن من الدفاع عن شعبنا ضد غارات أو هجوم فجائي من قبل بلدان أخرى.

وفي اجتماع مجلس الأمن القومي الذي عقد في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني، استعدت وجهات النظر حول النزاع الحاصل. أنه نقاش دائم. فهل يمكن الحصول بسهولة على تسوية من قبل السوفيت إذا قمنا بتنازلات أحادية الجانب؟ أو أحصينا أمام الكرملين تلك المخاطر التي يرغب في اجتنابها؟

أن مؤيدي المبادرات الأحادية الجانب كانوا يطالبون بقرار حول توسيع نظام القذائف الصاروخية الأمريكية، متذرّعين برغبة السوفيت حول تحديد الأنظمة الدفاعية، وإذا علّقنا برامجنا الدفاعية، نكون قد أعطينا برهاناً حقيقياً على حسن نوايانا، أضف إلى ذلك، فإن هذا الأمر سيهدئ من روع المناوئين للقذائف الصاروخية في الكونغرس، ومن الممكن لنا إلغاء القرار في حال تسويف الروس بمبادلتنا الرأي. تلك كانت وجهة نظر الشؤون الخارجية ووكالة تحديد التسلّح ونزع السّلاح. أن هؤلاء الذين كنت أحدهم، كانوا يريدون العودة إلى المرحلة الثانية معتقدين أن توسيع نظام القذائف الصاروخية، سيلغي حتماً أي أمل بالاتفاق.

أن الموقف السوفيتي تجاه الدفاع بالصواريخ كان قد انقلب عندما بدأنا نحن بالتنظيم. وليس هناك ما يدعوهم بعد إلى التفاوض رسمياً إذا نحن أوقفنا التصنيع، علماً أننا بعد إيقاف عمل المرحلة الثانية، فإن المعارضة في الكونغرس، ستسعى لأن تضرب ضربتها فتلغي نهائياً تصنيع القذائف الصاروخية. كان الروس قادرين على الوصول إلى هدفهم من خلال توقيع قرار يقتضي بإيقاف تصنيع قذائفنا

الصاروخية، مكتفين فقط بمماطلة المفاوضات. ولقد أصبح برأيي من غير ممكن إلغاء قرارنا. مهما ساءت نيّة السوفيت.

لم يتوصل اجتماع مجلس الأمن في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني، إلى اتخاذ قرار، بالإضافة إلى سالت والقذائف الصاروخية، وتحوّل النقاش إلى نقاش قومي حول طبيعة الأمن الحقيقي لبلادنا. أن الشعار الرئيسي لكل مضادّي برنامج الدفاع كان" إعادة توزيع الأولويات القومية"، ولم يكن هذا سوى تورية لتقليص موازنة الدفاع. وهذا كان الرأي المعاكس في النقاش حول فيتنام في المجال الاستراتيجي. أن كثرة التعديلات المقترحة، حول تقليص رؤوس الأموال المخصّصة لفيتنام، امتّدت بسرعة إلى برامج التسلّح المحدّدة. وجاء عضو مجلس الشيوخ جورج ماك غافرن ليقترح إيقاف تصنيع قاذفة القنابل B1، كما طالب عضوا مجلس الشيوخ: وليم بروكسمير وريشارد شويكر، برفض تصنيع طائرة النقل C-5A، حتى نهاية التحقيق حول الشركة التجارية (لوكهيد). وكان عضو مجلس الشيوخ: بايرش باية يطالب بتحديد مجموع قواتنا المسلّحة. أما عضو مجلس الشيوخ ادوارد برووك فقد بدأ بشن حملته السنوية ضد القذائف الصاروخية، والصواريخ المتعدّدة الرؤوس. ولم يتخذ أي قرار ولم يصدر أي خطاب يكشف عن عدم موافقة الموازنة. وبكل وضوح فإن مؤيدي دفاع قوي كانوا يعانون من معركة داخلية في المؤخرة.

ولما كنّا ندور ضمن حلقة مفرغة بالنسبة لفيتنام، فإن نيكسون كان يفكّر بإظهار انطباع بالموافقة تجاه الضغوط، يضمن بعض المساندة تجاه الدفاع الوطني، فيقلّص بعضاً من بنودها، مع نسبة مئوية مخصّصة لأهداف عسكرية من الإجمالي القومي الناتج. فوافقه على ذلك معظم أعضاء الحكومة، باستثناء ليرد وأنا. لأنهم كانوا يخشون عدم موافقة الكونغرس على التخفيضات التعسفيّة التي اقترحها المتحمسون من مناهضي الروح العسكرية، والجماهير والأوساط الجامعية.وكانت لديّ تصورات

هامّة، إذ كنت أخشى أثراً دبلوماسيّاً حاسماً على المدى البعيد، من التقليص المستمر في قواتنا، في حين كنا نفقد تفوقنا الاستراتيجي نسبياً، ونحارب منسحبين في جنوب شرقي آسيا في حين كانت النفقات العسكرية السوفيتية في تزايد منتظم.

أن موازنة الدفاع، التي تقدم بها نيكسون في الثاني من شهر شباط لعام ١٩٧٠ كانت تقترح تخفيض أكثر من خمسة مليارات من الدولارات بالنسبة للسنة السابقة. كانت موازنة الدفاع تقدّم ما يقرب من ٧٪ من الإجمالي القومي الناتج، مقابل ٧, ٨٪ من العام الماضي، و ٦, ٣٤٪ من الموازنة القومية، مقابل ٧, ٣٧٪ لعام ١٩٦٩ وفي الواقع وفي حدود الأرقام الحقيقية، فإن موازنة الدفاع المقترحة،لم تكن لترتفع أكثر من ٧٪ على آخر موازنة في وقت السلم من عام ١٩٦٤، في حين أن حرب فيتنام لا تزال مستمرة. وعلى الرغم من كل هذه الضغوط، فقد حقّق ميل ليرد عجائب في التنظيم والتخطيط. نمى البرامج الاستراتيجية، ولو على مراحل (قاذفة القنابل b1 الغوّاصات - والصواريخ ذوات الرؤوس الثلاثة - الصواريخ البيقارية، مونيتمان (٣) - وبرنامج القذائف الصاروخية الوقائية).

وعلى الرغم من ذلك، كان للتخفيضات آثار سيئة، إذ أنها حالت دون تصرّفنا وبطريقة مترابطة، تجاه فقدان التوازن المتزايد في القوات التقليدية. لقد جمّدت كل تطلّعاتنا الاستراتيجية، ودفعتنا إلى القبول بما كان مقرراً وموجوداً من قبل، كما أنها حملت البنتاغون على التخلّي عن تصنيع القذائف الصاروخية، التي كلّفتنا الكثير في المجال القومي وكانت لا تزال ضمن استراتيجيتنا تجاه سالت، وأن رؤوس الأموال التي كانت مخصّصة لها انتهت إلى التخصّص لأفضليات أخرى. وهكذا فقد أصبحنا على أهبة المفاوضة حول نزع السلاح على جبهات ثلاث: في فيينا وهلسنكي مع الروس، وعندنا، ضمن الحكومة والكونغرس. أضف إلى ذلك، فإن موازنة الدفاع،

على الرغم من التخفيض التي وصلت إليه، كانت تتعرّض دائماً لهجمات من الكونغرس. أن زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ: مايك مانسفيلد كان يعارض المرحلة الثانية من برنامج القاذفات الصاروخية، قبل أن تعرض رسمياً على الكونغرس. وفي الواحد والثلاثين من شهر كانون الثاني، أعلن متوقعاً حدوث نقاش جديد في مجلس الشيوخ:" متى سينتهي هذا؟ ماذا سيصيب الناس؟ من أين يؤتى بالمال؟". أما عضو مجلس الشيوخ ج. وليم فولبرايت، فقد وصف المرحلة الثانية من برنامج القذائف الصاروخية بإنها خطأ فاحش". وعند تقديم الموازنة الجديدة في الثاني من شهر شباط تكرّرت الانتقادات بقوّة أكبر. وصرّح مانسفيلد عضو مجلس الشيوخ أن الموازنة الجديدة لم تكن بأدنى من موازنة السنة السابقة، بل هي أكثر أهمية. وأردف قائلاً أنها تتضمن نثريّات لمشاريع متعدّدة. كان على حق، وهنا لا بدّ من القول، بعد أن أوقفنا بإرادتنا تطوير صواريخنا في العام ١٩٦٠، فهذا هو ما تقرر الحكومة الجديدة على المطالبة به تجاه التنمية القومية في القوات الاستراتيجية السوفيتية.

وفي شهر أيار، أعلن فريق من أعضاء مجلس الشيوخ من كلا الحزبين، يشمل كلاً من جورج ماك غافرين، فيليب هارت، وليم فولبريت، وولتر مونديل، كليفورد كاز ومارك هاتفيلد، أنهم سيتقدمون بموازنة أخرى، تتضمن تخفيضات كبرى. وفي الخامس عشر من شهر حزيران، أشار فريق آخر من أعضاء مجلس الشيوخ، وأعضاء ليبراليون من الكونغرس، إلى تخفيض إضافي، قدره أربعة مليارات ونصف من الدولارات، من الأموال المخصّصة لبرنامج الصواريخ المتعدّدة الرؤوس، والمرحلة الثانية من برنامج القذائف الصاروخية الوقائية، وطائرة المارين المقاتلة F14 وهناك تقرير من" مؤسّسة بروكينغز" قام بإعداده فريق من أهم موظفي الحكومة السابقة يقترحون فيه موازنة دفاع معدّلة بمبلغ قدره تسعة وخمسون ملياراً من الدولارات.أي

أقل بأربعة عشر ملياراً عن الموازنة التي قدّمها الرئيس. فأوجزت صحيفة الواشنطن بوست الصادرة في السابع عشر من شهر آب لعام ١٩٧٠ الوضع باقتضاب:

"إن ما كان سابقاً روتينياً شرعياً ـ أي التصويت على الموازنة العسكرية السنوية ـ انقلب إلى عراك طويل الأمد وعنيف أحياناً، ضد برامج وسياسات عسكرية....

أن المطالب بتخفيض موازنة الدفاع، كانت تُلاحظ أكثر مّما كان السوفيت يسرّعون في بنية قواهم الاستراتيجية والتقليدية. وفي أواسط عام (١٩٦٦) كان يملك الاتحاد السوفيتي (٢٥٠) صاروخاً من طراز I.C.B.M، له علاقة بالعمليات الحربية. وكان يملك من هذا الطراز بعد سنة أخرى (٥٧٠) صاروخاً، و (٩٠٠) صاروخاً، في شهر أيلول من عام ١٩٦٨ وتفوّق علينا في شهر أيلول من عام ١٩٦٩بـ (١٠٦٠) صاروخاً. وفي أواخر عام ١٩٧٠، كانوا يقدّرون أنه سيملك نحو (١٣٠٠) صاروخ من طراز I.C.B.M واكتّشف أنه يملك منها (١٤٤٠) وما من أحد يقدر على تحديد النهاية العظمى، إذ أن تقديرات أجهزة المخابرات، خلال السنوات الخمس الماضية كانت منخفضة جداً. وكان العالم يتوقع أن يكون عدد الصواريخ السوفيتية التي تطلقها الغوّاصات، يتجاوز من (٤٥) صاروخاً عام ١٩٨٦ إلى أكثر من (٩٠٠) صاروخ في عام ١٩٧٥. وفي الوقت ذاته، فإن توسيع وتحديث القوات التقليدية السوفيتية في أوروبا وفي الشرق الأقصى، كانا يتقدمان بسرعة.

وبالنسبة للكونغرس، فلم تكن هذه المعطيات سوى تعبوية تقليدية من البنتاغون، مرتكزة على الخوف، للمحافظة على موازنة الدفاع الضخمة، حتى أن أكثر المؤيدين تحمساً لدفاع قوي. أخذوا بالنكوص. أن عضو مجلس الشيوخ هنري جاكسون، المؤيد الرئيسي لبرنامج تصنيع القاذفات الصاروخية، أضحى لدية شك في إعادة

إنتخابه، فعارض تركيز أية قاعدة من القاذفات الصاروخية في ولايته في واشنطن. كما أن عضو مجلس الشيوخ جون باستور، الرئيس المتنفّذ للجنة المتعادلة التمثيل في الطاقة النووية، اعترض على كل توسيع في تصنيع القاذفات الصاروخية أكثر من القاعدتين اللتين أقرهما الكونغرس. وأردف قائلاً: يتساءل الناس في ولايتي كيف أن صرف المال في سبيل المدارس يؤدي إلى تضخم مالي أما في سبيل القاذفات الصاروخية الوقائية، فلا؟. كما أن ماندل ريغرز أقدر رئيس للجنة الفيالق المسلحة في مجلس النواب، رأى تقليص عدد القاذفات الصاروخية في سبيل تقوية المارين، وأظهر كم أن الضغوط على الموازنة، تتحكم في أولويات البنتاغون. حتى أن الخطيب كارل البرت المؤيد للدفاع من مدة طويلة، أبدى ألمه في كيف أن البرامج القومية، لا سيما ما يختص بالبيئة، تهمل لصالح الدفاع، وأعاد هذا الانتقاد نواب لهم أهميّتهم مثل شيت هوليفيلد وشارل فانيك.

ذلك هو الجو الذي كان على الحكومة أن تعمل وسطه في سبيل إعداد ليس فقط برنامج دفاع طويل الأمد، بل أيضاً إستراتيجية مترابطة لسالت. والذين ينتقدون حالياً سالت، يتناسون إلى أي حد كان صعباً، في بداية الأعوام (١٩٧٠) الاحتفاظ ببرامج إستراتيجية. ويتناسى البعض الآخر أنهم شاركوا في هذه التهجمات. فأصدرت الحكومة نداءً إلى كل قواتها، معطية فرصة للكونغرس أن يفرض وبطريقة أحادية الجانب، ما كنّا نسعى أن نفاوض عليه السوفيت. وكان علينا أيضاً مجابهة تهجمات مستمرة ضد نشر قوات في الخارج، ومثل كل السنين، مجابهة الضغوط في سبيل تقليل قواتنا في أوروبا. وعندما فاوضنا عام ١٩٧٢ حول تحديد قوات متبادلة، كاد الكونغرس أن يحذف القذائف الصاروخية، أو تقليصها إلى حدود لا فائدة منها.

هوجمت قضية الصواريخ الموجّهة المتعدّدة الرؤوس، كثيراً حتى جرى أول اتفاق حول سالت الذي يسمح بتعديلها، فوضع حدّاً للنقاش،ولكي تتمكن الحكومة من المحافظة على برنامج دفاعي مقبول، وجب عليها إدارة أوراق المساومة، حول برامج التسلّح على انفراد، وهذا يعني أن يقال أنها لا تصنّع لغايات إستراتيجية، ولكن كعملة للتبادل في المفاوضات حول تحديد التسلح، وربما أن هذا سمح لنا بإنقاذ برامجنا ولو في درجة واطئة، ولكنه غير قادر أن يسمح لنا بإعداد طريقة إستراتيجية أصولية.

ان النقاش الداخلي حول القذائف الصاروخية، كان يوضح معضلتنا جيداً. وكان يطرح في الوقت ذاته مشاكل ذات أهمية لمبادىء استراتيجية ويؤثر في مفاوضاتنا حول تحديد التسلح مع الروس. وكان لكل وجهة نظر ناطق بها ضمن الإدارة والكونغرس. وأيهما هو الأصلح؟ أن هذا يتوقف على عدة عوامل، بما فيها العوامل المفاجئة، التي يجب التدقيق فيها هل هي مشكلة دفاعية، أو هي مؤهلة للنجاح في مفاوضات سالت وهذا يشرح ولو جزئياً، لماذا أقدمت الحكومة على اتخاذ موقفين متعارضين حول القذائف الصاروخية. أن ما قُدّم في موازنة الدفاع، حيث كان نفوذ البنتاغون مسيطراً، ليس له أقل تأثير مع الوضع المتخذ عند إجراء مفاوضات سالت، كما حُدّد في سياق تطوير معقّد كان يضم الشؤون الخارجية، الدفاع، هيئة الأركان العامة المشتركة، وكالة تحديد التسلح ونزع السلاح ومجلس الأمن القومي. وعلى كل حال فإن تنافر الأصوات في المجادلات العامة أتى على إنهاء كل بحث تنظيمي.

هناك حكومتان كانتا قد أقرّتا تصنيع القذائف الصاروخية وأعلنتا أن هذه القذائف ستحمي شعبنا ضد هجوم يقوم به بلد أجنبي وضد أحداث طارئة. أن الدفاع عن قذائفنا البالستية، كان هدفاً ثانوياً، ومع ذلك فإنه هو بذاته ما كان يهدف

إليه برنامجنا الحالي، فبيّنت حدود معضلتنا للرئيس في السابع من شهر شباط، إذا قامت القذائف الصاروخية بالدور الذي صُنِعَت لأجله، كان علينا إذاً البدء بالمرحلة الثانية، في سبيل الدفاع عن شعبنا ضد هجوم بلد أجنبي، أو ضد هجوم طارئ. أن المرحلة القادمة وهي معقولة أكثر، تقوم على إنشاء قاعدة صواريخ أخرى(قاعدة ويتمان الجوية قرب الميسّوري) وقاعدة أخرى تكون قادرة على حماية شعبنا وتنشأ على ساحل المحيط الهادي الشمالي الغربي. (أن قاعدة ويتمان، التي أنشئت قرب سان لويس، كان الاعتماد عليها ثانوياً، لتأمين الحماية المدنية) ومع ذلك فقد استبعد عضو مجلس الشيوخ جاكسون في حملته الانتخابية، فكرة إنشاء القاعدة في الشمال الغربي من الهادي. وأصبح الحلّ الثاني ممكناً بإنشاء قاعدة ويتمان، بالإضافة إلى قاعدة أخرى لحماية واشنطن.

ولما كنت أعتقد أن الكونغرس لن يقبل شيئاً آخر، ولما كنت أفضل إنشاء قاعدة قذائف صاروخية غير منطقية أفضل من عدم إقامة شيء آخر، فاختار نيكسون ما كان قد أشار به ليرد، أعني قاعدة ويتمان. وهكذا فإن الضغوط العامة، وضغوط الكونغرس حدّدت خلال عام، وبصورة رئيسية الغاية من تصنيع برنامج القذائف الصاروخية.

وكما يحدث غالباً، فإن تراجع الحكومة وتأخرها، أثار الانتقادات أكثر من تهدئتها. ومن هم ضمن الحكومة، فقد اعترضوا على المبدأ ذاته في تصنيع القذائف الصاروخية، وتشجعوا على تأجيل ذلك. ووكالة تحديد التسلح ونزع السلاح، ساندت وبفتور القذائف الصاروخية. وفي العاشر من شهر آذار فإن لجنة البيت الأبيض الاستشارية، حول تحديد التسلح ونزع السلاح،التي كان يرأسها جون ماك كلوي، ترجمت واقع ما يدور في الأوساط العامة. من خلال توصيتها بإلغاء عام لبرنامج تصنيع القذائف الصاروخية، وأيضاً إيقاف تجارب الصواريخ الموجهة ذات

الرؤوس المتعددة. وبعد أسبوع أي في الثامن من شهر آذار، في أول اجتماع للجنة تحقيق مجلس الأمن القومي، أكد جيّري سميث على إصدار أمر لوفد مفاوضات سالت، بالسعي للحصول على إلغاء متبادل لتصنيع القذائف الصاروخية. ومرت الأسابيع، فاقترح كل من سميث، روجرز ـ ايليوت ريشاردسون وبول نايتز، في وفد مفاوضات سالت، وضع برنامج القذائف الصاروخية المحدد وضعه حول واشنطن، في مقدمة ما يراد بحثه في المفاوضات، بحجة أنه يشابه القذائف الصاروخية المركزة حول موسكو. وهكذا فإن المتطلبات الإدارية والدبلوماسية في مفاوضات سالت، دخلت في نزاع مع برامجنا الدفاعية. وهناك فئة من أعلى الموظفين، الذين كانوا قد اقترحوا بل أوصوا بإقامة ثلاثة قواعد، في قلب البلاد، في إطار موازنة الدفاع، عادوا وأخذوا يطالبون فجأة، باسم سالت، انتشاراً مخالفاً أساسياً، مركزاً حول واشنطن. وفي حال قبول السوفيت لهذا الوضع، كان علينا أن نهدم ما كنا على أهبة البدء ببنائه والعودة إلى الصفر.

وهذا كان خالياً من كل ترابط منطقي، وبناء على مطالبتي، فقد قدّمت لي لجنة وزارية مشكلة من أخصائيين، خياراً مدهشاً من تسع نقاط حول تحديد تصنيع القذائف الصاروخية. وعند اجتماع لجنة التحقيق التي كنت أرأسها في الخامس والعشرين من شهر آذار، لم أوافق عن ذلك الخيار لأن التطوير سيصبح مشوشاً. ولإعطاء مجال للرئيس لاتخاذ قرار كان علي أن أقدم له بعض الآراء العامة، التي لها ارتباط باستراتيجيتنا القومية أفضل من أن أقيمه حكماً في اختلافات تقنية شديدة.

وفي الخامس والعشرين من شهر آذار، عقد مجلس الأمن القومي جلسة بكامل الأعضاء، وكما كنت أتوقع، انقلبت المناقشات إلى تفكير تقني عالٍ لا ارتباط بينه.كيف

يمكن تحديد شبكات الرادار في كلا الجانبين؟ وكيف يمكن ضمان صواريخ الأرض ـ جو (S.A.M) المضادة للطيران، من أن تنقلب خفية إلى قذائف مضادة للصواريخ؟ وليس عن تحمّس للقذائف الصاروخية، منع وبعنف كل من ليرد وبكارد والجنرال ويلّر تصنيع الصواريخ الموجّهة ذات الرؤوس المتعدّدة. وكانوا يطالبون بالحصول على تخويل بمراقبة القواعد ضد تصنيع الصواريخ الموجّهة ذات الرؤوس المتعدّدة، دون الحاجة إلى التصريح في كل مرة ما الذي يجب أن يراقب ومن قبل من. أما روجرز وسميث فقد ثبتا على وضعهما السابق في منع القذائف الصاروخية وإيقاف الصواريخ الموجّهة ذات الرؤوس المتعدّدة. ولما كانت هذه المشاكل قد نوقشت في الخفاء، ولم تقلّص إلى خيارات يتفق عليها سرّياً، بالنسبة للمفاوضات، فمن غير المحتمل أن يتخذها قرار رئاسي.

وقد تمكن مؤيدو وجهة نظر الشؤون الخارجية، ووكالة تحديد التسلّح ونزع السلاح، من استصدار قرار من قبل مجلس الشيوخ بـ (٧٢) صوتاً مقابل (٦) أصوات وكان هذا القرار يطالب الرئيس بالاقتراح على الفريقين بإيقاف عاجل" لنشر كل الأسلحة الاستراتيجية الهجومية والدفاعية". وكان القرار قد إتخذ بمبادرة إيد برووك وجون شيرمان كووبر (والاثنان جمهوريان) وكان هنري جاكسون يساندهما. أمّا عضو مجلس الشيوخ أدموند موسكي فقد أعلن عن وقف إستراتيجي مؤقت، شامل إنهاء إطلاق القذائف الصاروخية بتجاربها، مؤكداً أن هذا يتطلب موقفاً تفاوضياً، وبدون ذلك فقد تضيع فرص منع تصنيع القذائف الصاروخية والصواريخ الموجهة المتعدّدة الرؤوس، والزعيم الجمهوري لمجلس الشيوخ: هوغ سكوت، هو نفسه وصف هذا القرار أنه بمثابة منهج نافع، ولا يمكن أن يكون محدّداً بالنسبة للرئيس.

وفي عشية دورة جديدة لمفاوضات سالت في فيينا، والتي جرت في السادس عشر

من شهر نيسان، لم يظهر أي أمل للوصول إلى اتفاق. فلم يكن هناك سوى ضجّة مبهمة لأصوات متعاكسة. ولما كان الرئيس قد أوكل إليّ الاهتمام في تنظيم وترتيب جدول أعمال المفاوضات، رأيت أنه بات من الضروري توحيد الآراء المختلفة في مجموعات متميّزة، ليتمكن الرئيس من اتخاذ قرار في أهداف عامّة، أفضل ممّا يكون في مشاكل تقنية عويصة. لذا أرسلت في السابع والعشرين من شهر آذار توجيهاً للأجهزة الوزارية، طالباً إليهم جمع ما تكوّم لديهم في أربع خيارات لتقديمها إلى الرئيس.

وعند اجتماع مجلس الأمن القومي في الثامن من شهر نيسان لعام ١٩٧٠ كان هناك أربع خيارات مصنّفة من الخاص إلى العام، ومفقّطة بتدقيق كبير وهي مرتبة كالآتي:

- الخيار - أ - تحديد الصواريخ البالستيّة، والصواريخ التي تطلق من الغوّاصات ضمن حدود (١٧١٠). وتجميد عدد قاذفات القنابل (٥٢٧) للولايات المتحدة (١٩٥) للاتحاد السوفيتي وهذا كان يسمح باثنتي عشرة قاعدة للقذائف الصاروخية من المستوى الوقائي. وبمقولة أخرى، أن هذا كان يعني تقليص قوة الروس الصاروخية دون المسّ بقاذفات قنابلنا وقذائفنا الصاروخية.
- الخيار - ب - نفس التحديد الوارد في الخيار - أ - من حيث القوات الهجومية. لكن القذائف الصاروخية، يجب تحديدها من قبل مركز القيادة القومية، أو واشنطن وموسكو، أو وجوب منعها نهائياً.
- الخيار - ج - ذات تحديد القوات الهجومية، وكما ورد في الخيار - ب - يجب تحديد القذائف الصاروخية من قبل مركز القيادة القومية. أو عليها أن تختفي أي منها. ويضيف هذا الخيار منعاً للصواريخ الموجهة ذات الرؤوس المتعدّدة. وهذا

لم يرد في الخيارين (أ وب). شريطة أن يقبل السوفيت بمراقبة قواعدهم الصاروخية.

■ الخيار ـ د ـ ليس فيه اختلاف عن ما سبق. وكان يتضمن اقتراحاً بتقليص مجموع صواريخنا التي تقذف من الغواصات من (١٧١٠ إلى ١٠٠٠) في العام، إلى أن يصل المعسكران إلى مستوى (١٠٠٠) صاروخ في عام ١٩٧٨ ويجب منع القذائف الصاروخية أو تحديدها من قبل مركز القيادة القومية، أما الصواريخ الموجّهة ذات الرؤوس المتعدّدة فلم تكن موضوع أي منع.

أن هذه الخيارات كانت توضح الارتباك الموجود فيه المكتب التنفيذي. أما الأجهزة الوزارية، فيمكن القول انها أمام وضعين للقذائف الصاروخية: مساندة التنظيم الحالي" الوقائي" (الذي نعلم حقاً أن أعضاء مجلس الشيوخ الذين يؤيدونه، أصبحوا الآن لا يساندونه) أو الدفاع عن واشنطن، وهذا كان مخالفاً لتوصيات الرئيس إلى الكونغرس. أضف إلى ذلك فإن كل الاختصاصيين في الكونغرس كانوا على اتفاق في أن الكونغرس لن يقبل أبداً بوضع قذائف من طراز A.B.M حول واشنطن. ومع ذلك، فإن هذا البرنامج غير المقبول، هو البرنامج الوحيد، الممكن ان تتفق عليه جميع الأجهزة الوزارية بشأن مفاوضات سالت.

ومع البطء والتأجيل، يؤلمني أن أبين أن هذا الخيار لم يعالج أبداً، ولذا لم يقبل. والواقع أن التوصّل إلى اتفاق عام، يظهر إلى أية درجة يمكن أن تضيع الاعتبارات الإدارية الحزبية، كل ما هو ضروري. وكان البنتاغون يخشى منعاً عاماً للقذائف الصاروخية. فكان مركز القيادة القوميّة يحبّذ إذاً، ما كان يسمح، على الأقل، الإبقاء على تكنولوجيا القذائف الصاروخية. ووزارة الشؤون الخارجية، مع وكالة تحديد التسلّح ونزع السلاح، كانتا تفضّلان عدم الإنهاء التام للقذائف الصاروخية، وكانتا تقبلان برأي مركز القيادة القومية، لأن الطراز الذي أوصى باستخدامه،يشابه ما

يصنّعه السوفيت، ويكون قابلاً للمفاوضة. بالإضافة إلى ذلك، فإنهما كانتا تفضلان رأي مركز القيادة القوميّة، الذي يقوم على منع تام للقذائف الصاروخية، الأمر الذي كانتا تسعيان للوصول إليه.

غير أن ما رآه مركز القيادة القومية بشأن الدفاع كان هفوة ، لم يكن لها أدنى معنى. وكنا نقترح على السوفيت برنامجاً لم يقره الكونغرس، وفي الوقت ذاته كنا نقترح على الكونغرس برنامجاً يخالف ما كنا نقترح على السوفيت. ولحسن الحظ لم يحدث ذلك أي ضرر. وبفضل جشع السوفيت، استطعنا التخلّص من ضلالنا، قبل الوقوع في مأزق لا تمكن معالجته.

لم تكن المناقشات حول سالت، التي جرت في اجتماع مجلس الأمن القومي المنعقد في الثامن من شهر نيسان تملك صفة حقيقية، بل كانت عبارة عن تمثيلية لرعاة البقر فإن كل وزارة كانت تقدّم بدورها أسساً تقنية معقّدة، والتي إذا انطلقنا من معطياتها، نصل إلى حلول متباينة جداً. وكل واحد من زعماء القضيّة كان يقدم فرضيتين: الأولى كان يؤمن بها، أمّا الأخرى فكانت قاسية، ويضعها في المقدّمة، ليحصل على رفضها من قبل السوفيت وهكذا، فقد كان يبرهن على عنفه، محتفظاً في طيّات قلبه باقتراحه الحقيقي. أن كل هذا التصنّع والمواقف، جرت بحضور رئيس شارد الذهن عنها ومكدّر جداً. أن جموده في موقفه هذا، كان يبرهن أن معظم هذه الحجج كانت بالنسبة له غير حقيقية. وكان يحاول تقدير التأثير السياسي والقيمة التجارية للخيارات المختلفة، التي كانت خطوطها العريضة تهمة فقط.

كان جيّري سميث يدعو للأخذ بالخيار ـ ج ـ القذائف الصاروخية وتحديدها، والصواريخ الموجهة المتعددة الرؤوس الممنوعة، وفي الوقت ذاته يُبدي استعداده لقبول الخيار ـ د ـ أمّا داف باكارد والأميرال موورير، اللذان كانا يمثلان بحق وزارة

الدفاع وهيئة الأركان المشتركة كانا يفضّلان الخيار ـ أ ـ الذي يُحدّد الأسلحة الهجوميّة، لكنه يسمح بالوقائية منها. وهذه تُعد نقطة انطلاق جيّدة.وأقدم باكارد على مفاجأة، مقترحاً كحل وسط، برنامج التقليص الوارد في الخيار ـ د ـ (الذي يجنّب الدفاع المشكلة التي تطرح كل عام وهي تخصيص أموال للدفاع) وأكّد بول نايتز، أن في حال تجميد أعداد الأسلحة، فإن السوفيت سينتهون إلى التمتّع بتقدّم ما، بفضل ما يولونه من اهتمام لصواريخهم، فكان يحبّذ إذاً الخيار ـ د ـ وكان يعارض أيضاً تحريم الصواريخ الموجهة المتعددة الرؤوس، إذ أن هذا يسمح للروس اللحاق بنا، في أحد المجالات النادرة التي تفوقنا بها عليهم. وبالنسبة لجون ماك كلوي، فقد صرّح أن هذه الفكرة كانت مغلوطة، لكنه لم يفسّر كيف توصّل إلى هذا الاستنتاج اللطيف. وروجرز بدوره، كان يحبّذ الذي يشير بالتقليص، لكنه كان مستعداً لقبول الخيار ـ أ ـ .

ووقعت علّي المهمّة الصعبة في استخلاص بعض التوصيات من هذا المزيج، فأجبرت ولسوء الحظ أن أعرف أن هناك اعتبارات إدارية وسياسية تفرض تأثيرها علّي، أكثر من أيّة مرة كلفت بحل مشكلة خلال سنوات خدمتي في الحكومة. ومن الطبيعي أن مستشار الأمن، ليس عليه أن يشارك في هذه المهمّة، أنما واجبه فقط إطلاع الرئيس على أحسن ما يتوصّل إليه من تقدير لهذه الأمور مجتمعة، تاركاً له التقدير النهائي للأمور الإدارية والسياسية. أما بشأن سالت، فكنت أعلم أن توصياتي سيكون لها وزن غير عادي، وكان يستحيل على نيكسون المقارنة بين هذه التفصيلات التقنيّة لاختيار أمر في حين كنت منهمكاً لتجاوز ذلك ومعالجة تردّد الوزارات في مجالات تهمّ الرئيس كثيراً، وبعد أن عدت لنفسي، راودتني فكرة عدم القيام بأي شيء إلا ضمن ما حدّدته الحكومة من خطوط عريضة في سبيل التطوير.

ووجدت أن الخيار ـ ب ـ تجميد الأسلحة الهجومية وتحديد عام للقذائف الصاروخية ـ هو ممكن التحقيق ويفيد مصالحنا. وكان يعطينا هذا الخيار مجالاً واسعاً لتحديث أسلحتنا. ويضع حداً لتنمية التسلح الهجومي السوفيتي، الذي كان على رأس قائمة اهتماماتنا. ويعيّن حداً أعلى، يمكن الانطلاق منه إلى إجراء تخفيضات.

ومع ذلك، فلو كنّا نحن الذين تقدّمنا بالخيار ـ ب ـ لأثيرت بسببه عاصفة في الكونغرس والإدارة. وكنّا اتهمنا أيضاً بعدم معالجة تحريم القذائف الصاروخية، والصواريخ الموجّهة المتعدّدة الرؤوس. لقد قوبل هذا الخيار بفتور من قبل البنتاغون، على الرغم من كونه لا يريد التعجيل بإقامة قواعد للصواريخ الوقائية، فهو غير مستعد لتعديل رأيه حول اقتراح تحديدها. أما وزارة الدفاع فكانت تفضل الخيار ـ أ ـ لأنه يتضمن تحديد الأسلحة الهجومية الروسية،ولا يمس المجالات التي كنا متقدمين فيها ولو تعرّض الخيار ـ أ ـ للفشل، يكون بالإمكان أن نعزو هذا الفشل إلى قلّة انتباه مفاوضينا. وعلى كل حال فإن العوائق القوميّة بالنسبة للخيار ـ أ ـ كانت أكثر أهمية مما كانت عليه بالنسبة للخيار ـ ب ـ.

وبالنسبة للخيارين الإجماليين، فقد كنت معتقداً أن السوفيت لن يوافقوا أبداً على منع الصواريخ الموجهة المتعدّدة الرؤوس، قبل أن يقومّوا بتجربة ما لديهم من صواريخ، كما أنهم لن يقبلوا مراقبة على قواعدهم. أضف إلى ذلك. فإني ما كنت أظن أبداً أن الاتحاد السوفيتي يقبل العمل بالتخفيضات الهامة التي يتطلّبها الخيار ـ د ـ على الصواريخ الهجومية. وسيعتقد حقّاً أننا ساعون إلى وضع حدّ لتنميته، بينما لا نفرض أية حدود على قواتنا لا سيما قاذفات القنابل ومن جهة أخرى، فإن كل واحد من هذه الخيارات، كان متناسباً مع امننا ويمثّل كثيراً من الأفضليات، بالنسبة لنتائج سباق تسلّح متوقّع.

وكنت قد أشرت على الرئيس بالركون إلى الخيارين (ج) و (د)، كبداية لإجراء

المفاوضات، وهذا ما سيرضي حتماً مؤيدي تحريم القذائف الصاروخية والصواريخ الموجهة المتعددة الرؤوس سواءً في الكونغرس أو الإدارة غير أنه يعطي للجماهير انطباعاً إيجابياً، في الاستجابة لتحديدات إجمالية. وإذا قبل السوفيت هذه الخيارات، نكون قد خطونا خطوة إلى الإمام. وإذا رفضوا ذلك وهذا ما كنت أتوقعه، يصبح لدينا مجال لاقتراح الخيار - ب - وحينذاك نجد أنفسنا في وضع أقوى في المستوى القومي والإداري. وإذا فاجأنا الروس بقبول عرضنا، فإن النتيجة ستتفق مع أمتنا. وافقني الرئيس على رأيي، فأعطيت تعليمات بهذا الخصوص في العاشر من شهر نيسان.

وبقيت طوال هذا الوقت، على اتصال عرضي مع دوبرينين ولقد سألني في الثامن عشر من شهر شباط، عن موقفنا تجاه القذائف الصاروخية، وهل نفضل اتفاقاً محدداً أو إجمالياً. واتفقنا على التلاقي في العاشر من شهر آذار. وأصطحبت لارّي لين، الاختصاصي بتحليل نماذج التصنيع، ليشرح فكرتنا حول القذائف الصاروخية بصورة عامّة. فطرح عليّ دوبرينين بعض الأسئلة الشكلية، ثم طلب أن نتكلم على انفراد. وبلهجة فسحت لي المجال ان أشعر بتقديره لي بإعطائي أخباراً هامة، صارحني ان الكرملين عازم على عقد اتفاق معنا سواء كان محدداً أو أجمالياً. ومن الأفضل طبعاً الاهتمام بعقد اتفاق إجمالي، يسمح بدوره حلّ مشاكل أخرى سياسية، كان هذا مغرياً، ولكن بدون معطيات حقيقية، لأن دوبرينين لم يبيّن ما كان السوفيت يقصدون باتفاق إجمالي أو محدّد. فأجبت حينئذ بما كنّا نريده نحن وهذا أمر واقعي.

كان دوبرينين ذا موهبة لا متناهية، يستطيع بها جعل مخاطبه الأمريكي في حالة دفاع دائم. وفي السابع من شهر نيسان، أبدى دوبرينين تذمره من أن الفرقاء مستعدون لإستعادة محادثات سالت، دون تحديد مواقفهم مسبقاً ولا يذكر اي مثال للمفاوضات، يجهل فيها الفرقاء اهدافهم الحقيقية، ولا بد من الاقرار أنه كان على

حق في ما كان يقول. وكان يظهر في كل الأحوال، وكأنه يحمّلنا المسؤولية الكاملة في كل شيء يحدث.

وصارحت دوبرينين في التاسع من شهر نيسان بالاتفاق مع الرئيس أننا سنقدّم عدة اقتراحات عامّة في فيينا (وكنت أقصد الخيارين (ج) و (د) وإذا فضل الروس العمل على الوصول إلى اتفاق محدّد، فنحن سنكون على استعداد لمعالجة ذلك أيضاً. فوعد دوبرينين أن يحضر معه جواب موسكو، التي سيعود إليها لإجراء مشاورات.

وفي الواقع، فقد وصل الجواب من خلال محادثات فييناً التي استعيدت في السادس عشر من شهر نيسان.

وكما كان متوقعاً، فقد تقدّم وفد الولايات المتحدة بالخيار ـ ج ـ أولاً، ثم الخيار ـ د ـ فلم يتوان المفاوضون السوفيت في رفض تحديد الأسلحة الهجومية، التي كان يتضمنها هذان الخياران. وقبلوا مقابل ذلك، تحديد طراز القذائف الصاروخية، لدى العاصمتين وبسرعة فائقة، ودون سابقة مطلقاً، خلال بضعة أيام. كان الروس يدركون جيداً ما هو بصالحهم. وما كانوا في خشية من الاحتفاظ بما كانوا يملكون، ويحرجون موقفنا بأشياء لا يقرّها الكونغرس أبداً.

ولسوء الحظ، فإنهم لم يستطيعوا الصمود امام دفع فرصهم المؤاتية بعيداً، فبدلاً من التخلّص من جزء من البرنامج الاستراتيجي الأمريكي الذي كان يربكهم كثيراً فلقد تقدّموا بمخطط موجّه لمصلحتهم لا يتمكن من قبوله أشد المؤيدين تحمّساً لتحديد الأسلحة. وكانوا يطالبون بحدّ أعلى لتصنيع القذائف البالستية، والصواريخ التي تقذف من الغوّاصات، وقاذفات القنابل الثقيلة الإضافية. ولم يعطوا أرقاماً، لكنهم ألحوا في الأخذ بالحسبان كل الناقلات النووية، القادرة على الوصول إلى الاتحاد السوفيتي، بسبب تمركزها الجغرافي. وبمقولة أخرى، كانوا يقصدون كل

قاذفات قنابلنا في أوروبا، وتلك الموجودة على ناقلات طائرتنا. أن نشر وتصنيع الصواريخ الموجهة المتعددة الرؤوس ستكون ممنوعة، ولكن ليس تجربة إطلاقها، وكان قصدهم في ذلك وبكل تأكيد، مناورة تسمح لهم بمتابعة تنميتهم الخاصّة التجارب، مجمّدين إذا استطاعوا ذلك، نشر قوّتنا، إلى أن يتمكنوا من اللحاق بنا، غير أنه لم يكن هناك أية وسيلة تتمكن من منع الإنتاج والتصنيع.

لم يظهر الروس أية ليونة إلاّ تجاه مصالح حلفائهم. كان الوفد الأمريكي يخشى بصورة عامة أن تعيق الغارات ضد كمبوديا سير المفاوضات ثم ظهر أن هذا الخوف في غير موضعه، واكتفى كوسيغين بالاحتجاج شكلاً في مؤتمر صحفي وبالنسبة للوفد السوفيتي في فيينا، لم يبدِ أقل اهتمام بكمبوديا وبقى مثابراً كالعادة. وهذا ما كان ينذر بتورطنا في مشادات خفيفة. وأصبح واضحاً أن مفاوضات سالت قد تدهورت.

ولقد أضحى مندوبونا أكثر عصبية. لأنهم كانوا راغبين في أن تردهم تعليمات حديثة تخرجهم من مأزقهم، والبعض الآخر لأنهم كانوا في ريبة مما يعملون. وجيّري سميث الذي يرأس وفدنا في فيينا وكان على اتصال دائم معنا في واشنطن ، دُعي الى مفاوضات خاصّة معي فكانت اكثر تعقيداً، مما كنّا نعتقد. واذ كان يطالب أن أترك له الحبل على الغارب، الأمر الذي كنت عازماً على عدم الإقدام عليه. وفي العشرين من شهر أيار، أبلغني سميث، ان وفدنا في فينا يشكو قلّة التعليمات وانه بحاجة قصوى لمبادرات تتجاوز اطار الأوامر الخفيّة. وما كنت مستعداً لضمان التوقيع على بياض. وأخذت في الحسبان ان بعض هؤلاء الأعضاء الأقوياء في الوفد، كانوا يميلون إلى تقديم مشاريع من قبلهم للسوفيت. وعندما كان نظراؤهم من الروس لا يجيبون، سواء لبقائهم دون أصوات أو عدم وصول تعليمات، فكان عضو وفدنا يهتم أن ينقل الى

واشنطن ان الروس لم يرفضوا أو أظهروا تفهماً أكبر، ممّا كان يعني ان موافقة وفدنا والوفد الروسي كانا متماثلين. ولتجنب هذه المبادرات ،طالبت سميث ان يقدّم لي اقتراحاً محدداً، وللأجهزة الوزارية ليطلعوني على ما لديهم من وجهات نظر.

وكما كنت اتوقع، فإن كل الأجهزة أخذت تميل إلى الخيار (ب) (تجميد الصواريخ من طراز A.B.M، التي حدّدها مركز القيادة القومية)، التي لم نُعرها أقل اهتمام، قبل أربعة أسابيع. وكان الكل يطالبون بالقبول بحد أعلى للأسلحة الهجومية بما يقارب (٢٠٠٠) صاروخ مؤهلة لنقل صواريخ متعدّدة الرؤوس. أن اختصاصيّ وزارة الدفاع، كانوا حريصين على الصواريخ الموجهة المتعدّدة الرؤوس القادرة على توازن التفوق العددي المتزايد لدى الروس في مجال القذائف النووية، وإدخال طراز القذائف الصاروخية في الدفاع السوفيتي. وعلى كل حال،كان الكل متفقين على الاقتراح السوفيتي المحرّم انتاج الصواريخ الموجهة المتعدّدة الرؤوس،والذي يسمح بالتجارب عليها، أن هذا الاقتراح لا يقبل قطعاً، أما الشؤون الخارجية ووكالة تحديد التسلّح ونزع السلاح. فكانتا تطالبان بالمنع التام للقذائف الصاروخية، بينما كانت وزارة الدفاع تريد الاحتفاظ بتلك الصواريخ التي أوصى بها مركز القيادة القومية (حتى ولو أدى ذلك عملياً إلى إنهاء دور القذائف الصاروخية). وقد جاء أكثر الاقتراحات فائدة من وزارة الدفاع، إذ أن داف باكارد معاون الوزير كان يؤكد على ضرورة تجميد عاجل للأسلحة الهجومية، لأن تقليص موازنة دفاعنا يجعل من المستحيل تقريباً، المحافظة على قواتنا الاستراتيجية الحالية، وبالأحرى زيادتها، وكان يطالب بعقد اتفاق سريع حول تحديد التسلح الاستراتيجي على أساس الأرقام الحاليّة.

وبعبارة أخرى، فإن ضغوط الكونغرس والجهات الأخرى، كانت تهدّد بحرماننا من كل وسيلة مساومة. كانوا يطالبونا بإيقاف تنمية التسلح السوفيتي، ويهدّدون في نفس الوقت بتخفيض قواتنا الخاصّة، وعندما توصلنا إلى اتفاق عام ١٩٧٢، أصبحت

هذه الظروف في عالم النسيان، وأصبح المنتقدون والمتهمون لا يشكلون أي خطر. وبُدى فجأة بمناقشة الحدود العددية، التي تقابل تقريباً وبصورة دقيقة تلك التي كانت قد اقترحتها وزارات مختلفة عام ١٩٧٠، والتي كان البنتاغون قد نادى بها. إن إيقاف التسلّح السوفيتي بالنسبة لبعضهم، مع الاحتفاظ ببرنامجنا الحالي ـ وهذا أمر لا يقدر عليه تقريباً بسبب تهجمات الكونغرس والعامة ـ كان بمثابة تسوية أحادية الجانب من قبل الولايات المتحدة.

ولقد توضحت مشكلتنا الجديدة، عندما أجري تصويت عليها من قبل لجنة الهيئات المسلحة في مجلس الشيوخ حول القذائف الصاروخية، فأقرَ إقامة قاعدتين كان قد سُمح بهما، ولم يوافق إلاّ على إنشاء قاعدتين أخريين من طراز مونيتمان. وبهذا كانت نهاية القذائف الصاروخية، بصفة أنها برنامج دفاع محلّي. وفي الواقع، كان هناك خوف من استبعاد مجلس الشيوخ للقاعدتين، عندما يعرض عليه مرسوم السماح بإقامتهما. أمامنا الآن برنامج يحتاج للتصديق عليه،وموقف تجاه مفاوضات سالت، الذي كان يفرض علينا تدمير ما كنا بنيناه، وبناء مالم نكن نطالب به.

خلال هذا الوقت، كان سميث في فيينا يلحّ في المطالبة بخيار جديد، بينما كان فلاديمير سيمينوف، المفاوض السوفيتي، يقترح الايقاف. في ذات الوقت طلب نيكسون مني إبلاغ ، دوبرينين بضرورة عقد اتفاق حول سالت، في مؤتمر قمة أو في مكان أخر غير فيينا.

والتقيت دوبرينين في الثالث والعشرين من شهر حزيران، في قاعة خرائط البيت الأبيض. فبينت له: أن بإمكاننا أن نترجم وعلى ثلاثة أشكال الاقتراح الذي كان تقدّم به سيمينوف، بتعليق الجلسات بوقت أبكر ممّا كنا نتوقّع.

أولا : ليس بنيّة الاتحاد السوفيتي الوصول إلى أي اتفاق حول سالت هذا العام.

ثانياً : كانت رغبة الاتحاد السوفيتي في عقد اتفاق في فيينا، مستخدماً ذلك وسيلة لحمل الأمريكيين على تقديم اقتراح جديد.

ثالثاً : نية الاتحاد السوفيتي عقد اتفاق، لكن ليس في فيينا، وتجميد مفاوضاتها، ليتيح الفرصة أمام زعماء البلدين لتسوية المشكلة، وسأكون ممتناً لدوبرينين إذا تفضل ووضح لي هذه الأمور. فأجاب دوبرينين بما يلي: أن أول تفسير كان بالطبع مغلوطاً وكان الاتحاد السوفيتي مصمماً على الوصول إلى اتفاق حول سالت، حتى ولو كانت مواقفنا لا تزال متباعدة جداً، تمكن من تقديم التاريخ، وبالنسبة لفيينا، فإن الاتحاد السوفيتي كان يقدّر أن ليس هناك الوقت الكافي للمفاوضة حول عقد اتفاق يشمل الأسلحة الهجومية والدفاعية. اما فيما يختص بمؤتمر قمة، فليس لدى دوبرينين أية تعليمات بهذا الشأن، يتمكن من الاستطلاع عنها لدى موسكو. ومع ذلك فقد أفهمني بجلاء أن موسكو تفضل عقد اتفاق حول تحديد القذائف الصاروخية فقط، ففهمنا حينذاك ما كان يقصد الروس باتفاق محدّد.

في صباح الخامس والعشرين من شهر حزيران، سافرت مع الرئيس متوجهين إلى سان كليمانت بعد مغادرتنا أرسل دوبرينين مذكرة يقترح فيها فعلاً اتفاقين عاجلين:

يهدف الأول إلى تحديد القذائف الصاروخية في موسكو وواشنطن.

أما الثاني فكان يتعرض للمشكلة المطروحة وهي" تقليص أخطار حرب نووية بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، نتيجة استخدام طارئ أو محرم لأسلحة نووية".

وبعبارة أخرى، فإن السوفيت كانوا يريدون إيقاف متابعة البرنامج الوحيد الاستراتيجي الذي كنا فعلاً في طريق إنتاجه. ويرفضون في الوقت نفسه كل تحديد

للصواريخ الهجومية، التي كانت موضوع اهتمامنا الرئيسي. وحسب رأي دوبرينين، فإن الوفد السوفيتي، قد تلقى التعليمات اللازمة بهذا الخصوص.

أما بالنسبة لاتفاق حول"حرب طارئة" فما هذه سوى خدعة فظة، وإذا كانت الغاية من هذا الاتفاق حماية القوتين الأعظمين ضد اساءة استعمال أسلحتها الخاصة، فكان يكفي إقامة وسائل اتصالات سريعة ويكون هناك اتفاق على طريقة ردود الفعل، أما إذا كان المقصود من كلمة" استخدام سلاح غير مشروع" الأسلحة النووية لدولة أخرى فإننا قد نجد أنفسنا أمام مشكلة سياسة هامة. وسننضم حينذاك إلى الاتحاد السوفيتي ضد حليفين هما المملكة المتحدة وفرنسا، وضد جمهورية الصين الشعبية، التي كنا نسعى لإقامة اتصالات معها. وبدا الآن واضحاً، أن هذا ما كان يدور في أذهان الروس، حتى أخذ سيمينوف قي فيينا، في الثلاثين من شهر حزيران، وعلى حين غرّة في التحدّث عن أخطار إطلاق صواريخ غير مسمّوح بها. وفي الثاني من شهر تموز ، أعلن سيمينوف أيضاً على انفراد. لأحد أعضاء وفدنا أن الواجب يدعو حكومتينا إلى التعهد بإتخاذ الإجراءات الكفيلة لاجتناب إعلان حرب إثر حادث مفاجيء، غير مسموح به أو مثير من قبل أياً كان. وعلينا أن نعلم الدول الأخرى، إننا سنكون موحّدي الرأي في الردّ على كل محاولة إثارة وهذا أمر يخالف طبعاً نظم اتصالاتنا، وربما فُسر هذا أن من الصعوبة بمكان أن يفهم الروس، أن الهيئة التنفيذية نفسها توزّع السلطات في داخلها.

ومهما يكن الأمر، فقد أرسلت في الرابع من شهر تموز، اقتراح دوبرينين إلى سميث وطلبت إليه إعطائي وجهة نظره ووصلني جواب سميث في الخامس من شهر تموز الذي بيّن فيه أن الاقتراح مقتضب جداً ولا يتناسب مع المصالح الأمريكية، وكل تحديد للقذائف الصاروخية الأمريكية، يجب أن يتوافق مع تحديد الأسلحة الهجومية السوفيتية، ويجب إلا تحملنا رغبتنا في الوصول إلى نتيجة في فيينا على التخلّي عن قدراتنا قبل الآوان.

لقد وافقت سميت على رأيه مع بعض التحفظ، فإن التفاوض حول عقد اتفاق على القذائف الصاروخية كان محدوداً جداً، وقد يصبح شاملاً إذا أخذنا بعين الاعتبار التواطؤ المعادي للصين الذي كان الروس يشيرون إليه عندما يأتون على ذكر"حرب مفاجئة" فاستنتجت منه فائدة عودتنا السريعة إلى مفاوضات سالت. وأبلغت سميث بعد موافقة نيكسون أننا نؤكد على ترابط الأسلحة الهجومية السوفيتية، ولأننا لن نتوقف دون تبادل إنتاج الاسلحة الوحيدة الجديدة التي نصنّعها. غير أننا لن نعرّض للخطر الآمال التي نعقدها على سياستنا تجاه الصين، ولا نعطي مجالاً للعالم بالتصديق أن هناك حكماً ثنائياً أمريكياً سوفيتياً عندما نتوصل إلى عقد اتفاقات تخص بلاداً أخرى. وأفضل ما نتفق عليه، هو اقتراح أكثر تحقيقاً من الخيارين (ج) و (د) ونتمكن من الاعتماد عليه مدة طويلة.

قدّمت للرئيس تقريراً مطولاً، أكدت فيه على اقتراح جديد يتضمن جميع النقاط الأساسية من الخيار (ب) ومع ذلك، كان يبدو لي ضرورياً إلغاء اقتراح مركز القيادة القومية للدفاع، الذي كان يعود علينا بمنع القذائف الصاروخية، وفضلت المحافظة على نشر الأسلحة التي كان الفريقان يدعوان إليها فعلاً. إلاّ أنه كان الأفضل لنا منع القذائف الصاروخية من تحديدها في سبيل الدفاع. لأن هذا سيلغي على الأقل القذائف الصاروخية السوفيتية التي كانت حسب رأيي المستفيد الوحيد من مشروع تحديد مركز القيادة القومية. زد على ذلك، فإن تقديم عرض لمنع القذائف الصاروخية، سيكون له نفس النتائج الإدارية الفعلية، التي وردت في الخيار (ج) قبل وقت قليل. وسيرفض هذا العرض حتماً، لا سيما إذا كان متضمناً المطالبة بتجميد الاسلحة الهجومية وانطلاقاً من هذا المبدأ، سوف نتمكن من التأكيد على عدم إلغاء القواعد الجديدة، فأشرت على الرئيس، تفويض وفدنا بإقتراح منع القذائف الصاروخية، لاستبدال تدريجي لما حدّده مركز القيادة القومية. (مع عدم التراجع عن

الاقتراح الأخير) أقرّ الرئيس توصيتي، ووجّهت تعليمات بهذا المعنى في التاسع من شهر تموز، أن هذا الاقتراح الذي بدا معقولاً فيما بعد، هو نفسه الذي تمسك به وفدنا حتى نهاية دورة فيينا، التي أجل انعقادها في الرابع عشر من شهر آب.

كان يمثل هذا الموقف تقدماً ملموساً، إذ أدخل بعض المبادىء التي ساعدت على عقد اتفاقات عام ١٩٧٤. وسمح لنا بمتابعة تنمية تقنية رئيسية (الصواريخ الموجهة المتعددة الرؤوس) والتي سنستخدمها في موازنة النمو العددي في الترسانة السوفيتية (التي نعلم أن السوفيت آخذون في تنفيذها) ولم يشكل موقفنا أية عقبة، تجاه البرامج الهجومية التي سوف نبدأ بمعالجتها. وأن المبادىء التي جاءت نتيجة لموقفنا السابق، كانت تشدّنا كثيراً إلى تحديد الأسلحة الهجومية والدفاعية، ولن تحدد قذائفنا الصاروخية، إذا وافق الكونغرس، إلا بعد أن يضع السوفيت حداً لتسلّحهم الهجومي. وسنرفض السماح لمعاهدة سالت، بتقليص عدد طائراتنا، الموجودة في قواعد متقدمة في أوروبا الغربية وآسيا. واقتراح منع القذائف الصاروخية، يعني أول خطوة في سبيل التخلي عن موقف ضعيف يطالب بالدفاع الذي أشار به مركز القيادة القومية.

وكما كان يحدث غالباً، فلقد أظهر الروس تفهماً كبيراً، فكانوا يعتقدون أنهم قريبون من الحصول على شروط أفضل، عندما تحملنا الضغوط الداخلية على تخفيضات أحادية الجانب، وكانوا يطالبون بإيقاف برامج قذائفنا الصاروخية ولا يظهرون أقل استعداد لقبول تجميد على أسلحتهم الهجومية، وربما كان ذلك لعدم اكتفائهم منها. إلا أنني استبقت القول في اجتماع لجنة جون ماك كلوي الاستشارية في نهاية شهر تموز، أن اتفاقاً شبيهاً باقتراحنا سيُعقد خلال عامين وعُقد فعلاً قبل شهرين مما توقعت.

ساورني القلق في غضون ذلك في أن مفاوضات سالت ربما تحتاج إلى عدة فرقاء.

وكنت أخشى. وظهر ذلك صحيحاً، ان هذه المفاوضات يجب الاّ تكتفي بتركيز علاقاتها على الشرق والغرب فقط. وهذا ما حدا بي أن أرسل للرئيس في الثالث عشر من شهر تموز تقريراً أشير به إلى عدم اعتبار اتفاق نتوقعه بمثابة حادث جيل. وأكدت فيه أن الاتحاد السوفيتي، ولو كان على ارتباط بسالت، يكون قادراً في يوم من الأيام على تهديد صواريخنا المركّزة على الأرض ، مدبّراً هجوماً عليها، فالسوفيت لا يمكن أن يؤمنوا أنهم لن يكونوا أبداً في موقف إستراتيجي أدنى "وكانوا يتوقعون فعلاً أن يجنوا مغانم سياسية كبيرة في حال التصديق على مساواة إستراتيجية. أما بالنسبة للصينيين، فقد كانوا يخشون فعلاً أن يكون اتفاق سالت سبباً لحكم ثنائي أمريكي - سوفيتي. وسيتدبّرون انفراداً عاماً على جبهة الروس الغربية، وكان يخالجهم الشك أيضاً بوجود اتفاق ضمني، تعطي الولايات المتحدة بموجبه الحرية التامة للروس في تحديد علاقاتهم مع الصين". وبالنسبة للعلاقات الأمريكية السوفيتية، فإنها لاتزال متّصفة بهذا المزيج الغامضّ من التهديد والوعود الذي لا بد منه في نزاع ايديولوجي يجري في ظل مشؤوم من أسلحة مدمّرة. ولم يكن أي اتفاق ، ممّا أبرم بعد الحرب مع الاتحاد السوفيتي، حول تحديد التسلّح بالمستوى الذي كان يأمله أنصاره. ومع ذلك، فإن اتفاقاً حول التسلّح الاستراتيجي، حتى ولو كان محدّداً، له طبعاً تأثير أعمق.أن السوفيت حالياً، يهيئون لخطتهم الخمسيّة القادمة، وللمؤتمر الرابع والعشرين للحزب. أضف إلى ذلك، فإن هناك مؤشرات تدل على حدوث تعديل في القمّة. واتفاق في ظروف كهذه يستطيع التأثير على توجيه السياسة العامة للاتحاد السوفيتي.

وفي الوقت ذاته فإن هذا لن يمنع القادة الروس من ان يضعوا كل ثقلهم على أوروبا الشرقية، وفي حال تقديرهم أن تأثير الانفراج ينقص السيطرة السوفيتية في هذه المنطقة. وهذا لن يمنع السوفيت أيضاً عن السعي في استخدام مصالحهم والإساءة إلى مصالحنا في أوروبا الغربية، والشرق الأوسط، والبحر الأبيض المتوسط،

وفي كل مكان آخر، أضف إلى ذلك، فإن الفئة القيادية السوفيتية تخشى دائماً من زيادة التبادل، وتسهيل حرية التنقل بين الأهلين والمفكرين والتي ترى أنها تفسد مجتمعها وسيأخذ السوفيت بعين الاعتبار طبعاً أننا نتمسّك جيداً في المحافظة على الاتفاق، لنكون مستعدين للتساهل في أعمال كهذه، لا سيّما إذا لم يكن هناك ما يثبت خرق الروس لمضمون معاهدة سالت.

لم تكن معاهدة سالت، بالنسبة لي دواء عجيباً. لكني كنت أرى فيها فرصة لإعادة التوازن الاستراتيجي، ووضع بعض الحواجز السياسية بدونها لا يمكننا من اجتناب الأزمات، بمعزل عن سالت، وعلى المستوى العسكري فستؤجل التنمية السوفيتية، ممّا يزيد في تهديد قواتنا الأرضية. وسوف يساعدنا ذلك على حماية مراكزنا الحسّاسة في دفاعنا، ونتفوق على تدنينا العددي، على الرغم من العاصفة التي تثيرها فيتنام.

بقي علّي أن أتكلّم عن آخر مفارقة في تطوير معاهدة سالت وهي تصويت مجلس الشيوخ على القذائف الصاروخية، إذ كنّا نجد أنفسنا في وضع مريب، وكان مجلس الشيوخ مطالباً بالموافقة على إقامة قاعدة إضافية للقذائف الصاروخية، والإعداد للموافقة على إقامة خمس قواعد أخرى، في الوقت الذي كان فيه وفدنا في فيينا، يقترح على السوفيت، سواء بمنع نهائي للقذائف الصاروخية، أو وضع بديل لها وتحديده في واشنطن الذي لم نرصد له بعد مالاً وفي هذه الحالة، نكون قد حصلنا من الروس على اتفاق مبدئي للدفاع عن العواصم بواسطة القذائف الصاروخية ولم تكن فترة خيبة الأمل هذه، تعتبر سعيدة بالنسبة لحكومة نيكسون.

❐ ❐ ❐

منذ روزفلت، فإن كل رئيس، يصل إلى الاعتقاد، آجلاً أو عاجلاً، بوجوب مساهمته الشخصية في العلاقات بين الشرق والغرب،والالتقاء بالقادة السوفيت وجهاً لوجه. وليس هناك من يدرك مخاطر إنهاء العالم المتجسّمة بالتكنولوجيا النووية، اكثر من الرئيس الذي تعود إليه كامل المسؤولية في اتخاذ القرار النهائي، ولقد تعزّزت التجربة لدى الرؤساء من قبل الشعب الأمريكي، الذي يصعب عليه كثيراً بقبول وجود معاداة أو معارضة شبه دائمة، والذي يميل إلى فهم العلاقات الدولية وكانها عبارة عن تعاون بين أشخاص. وفي هذه الحال فإن اي رئيس لا يصل إلى هذا المنصب دون ذاتيّة غير عادية، والفرص قليلة لدى من حوله للكشف عن فضائل ينسبها لنفسه. ونستطيع التأكيد، ان ثقته عظيمة في القدرة على الاقتناع. وبعد كل ما تقدّم، أنه موجود في الرئاسة بفضل هذه القدرة. ولا يتناسى الرؤساء أبداً المغانم السياسية الممكن كسبها من مؤتمر قمة والدعاية له لا سيّما في فترة الانتخابات، فهذه هي فرصة الظهور الأخيرة.

كان نيكسون أقل ميلاً إلى هذه الأهداف من معظم الرؤساء. فكان كثير التشكّك للتصديق أن لقاءً يستطيع تغيير مجرى الأحداث. ويتمتع بخبرة كبرى في السياسة الدولية، ليجهل أن ضغوطاً خلال عشرات السنين ليست حصيلة عداوات شخصيّة.غير أنه كان يكره المفاوضات وجهاً لوجه. وفي وضعه، كان يوجد عادة عنصر هام، وبعد مشاهدته شعبية جونسون ترتفع بسرعة، إثر لقاء غلاسبورو مع كوسيغين، وتهدّمها السريع بعد أن ظهرت النتائج قصيرة الأمد، فقد استولى على نيكسون الخوف، من فشل تلك المطامع الرئاسية وتعرّضها للخطر في غلاسبورو، فعزم على وجوب اجتناب الشرك ذاته. ولكل هذه الأسباب مجتمعة، كان على اعتقاد، عند استلامه مهام الرئاسة، أن النجاح حليف مؤتمرات قمة، تحضّر باعتناء. وغايته الأولى: عدم إقامة مؤتمر قمة ما لم يكن وسيلة لانتزاع تنازلات هامة من الروس.

ومع ذلك ففي عام ١٩٧٠ أشاع نيكسون مخاوفه في كل مكان، وأخذ يسعى لتنظيم لقاء قمة، وبعد أن أنهك قواه هؤلاء الذين يثيرون الاضطرابات، اعتقد باستطاعته تقليص تحرّكهم وإسكاتهم، إذا قام بخطوات كبيرة في سبيل السلام. ولقاء القادة السوفيت. بصورة سريعة، بعد أحداث كمبوديا، سيظهر لَشعب هانوي، أنه سيكون الضحيّة إذا طال الأمر، وهذا ما حدث فعلاً عام ١٩٧٢. وكان نيكسون يقدّر أيضاً مغانم مثل هذه المبادرة لانتخابات الخريف في الكونغرس وهكذا، فبقدر ما تمضى أيام السنة، بقدر ذلك كانت تظهر رغبة نيكسون ملحة لإقامة مؤتمر قمة في موسكو. وما كان في البداية مناورة، أصبح الآن فكرة ثابتة تقريباً، إلى أن حان الوقت ليتخلّى الروس عن جشعهم ويجنّبونا بعض الصعوبات.

انطلقت فكرة عقد مؤتمر قمة وبكل طيبة قلب، في العشرين من شهر كانون الثاني ١٩٧٠، عند إقدام دوبرينين على محاولة مثل هذه، كما كان يفعل ذلك بين فترة وأخرى. وكانت الفكرة قد رفضت في حينها، لكن نيكسون غير موقفه في شهر نيسان. وكان يرى أننا لن نحقّق شيئاً هاماً في عام ١٩٧٠ في مجال السياسة الخارجية، وكان يطمح إلى عقد مؤتمر قمة.

بالنسبة لي، كان لدي صياغة بعض الملاحظات الهامة. ويحق لنا القول أن لدينا شخصيات. كانت تؤدي بنا أحياناً إلى خلافات تكتيكية وإلى توتّرات. وهذا ما حدث فعلاً في إحدى الاجتماعات، حيث وقعت في خلاف تام مع نيكسون حول نقطة هامة من السياسة الخارجيّة. بالنسبة لي، فإن الأسباب التي دعتنا إلى عدم القبول بعقد مؤتمر قمة عام ١٩٦٩ كانت لاتزال ذاتها في عام ١٩٧٠. والروس لم يقدّموا لنا أدنى مساعدة في فيتنام. وكانت مفاوضات سالت لا تزال في مأزق. وكان الروس قد قاموا بإرسال مقاتلين إلى الشرق الأوسط، كأول عمل لهم منذ الحرب. ولم يظهر أي تقدم

كافٍ في المفاوضات مع الروس يضمن النجاح. واتصالاتنا مع الصين لا تزال هشّة، وأي تواطؤ ولو ظاهرياً مع السوفيت، قادر أن يحيل جميع جهودنا إلى العدم، وهكذا فإن عقد مؤتمر قمة يمكنه وبسهولة أن يجنّبنا الفشل، وحينئذ لاجتناب هذا الفشل، نضطر إلى إجراء عقود وقبول وعود، تكون نتيجتها بالنسبة لنا غير إيجابية. كنت على قناعة تامة، وإن كنت لا استطيع الأفصاح، عنها بأن نيكسون لم يكن بمستوى إجراء مفاوضات هامة وجهاً لوجه مع الروس.

وفي أوائل شهر نيسان، كلفني أن أبحث مع دوبرينين خلال لقاءاتنا، إمكانية عقد مؤتمر قمة عام ١٩٧٠، ولم أكن متفقاً معه لأسباب تعبوية، لكن هذا لم يكن موضوع إتهام. ولذلك لُذت بالصمت مع جميع ملاحظاتي. وفي السابع من شهرنيسان، دعاني دوبرينين إلى السفارة السوفيتية، وكان لديه بعض الأفلام حول صيد النمر في سيبيريا، وكان تفكيره خاطئاً لاعتقاده أن ذلك يهمني كثيراً. وخلال تناولنا العشاء، نصب لي شركاً بإعلانه: أنه من خلال تجاربه، يرى أن الحكومات الامريكية تهمل العلاقات الامريكية - السوفيتية في بداياتها، ثم تأخذ هذه الحكومات بالاهتمام الكلي في نهايتها، عندما لا يكون هناك نفع ما حقيقي. وأعطى مثالاً على ذلك، تلك الجهود التي بذلها جونسون في الأشهر الستّة الأخيرة من ولايته، في تنظيم لقاء قمّة، فأجبته بكل فطنه، أن لقاء قمة بالنسبة لنا يجب أن تكون له غاية عملية، لأن كل شيء يتوقف على نتيجته الحسنة الفعلية، أننا لسنا ضد هذه الفكرة، إذا قدرنا أن نتأكد من الوصول إلى نتائج واقعية.

كان دوبرينين يتقن جيداً مهمته، وفهم حالاً ما كنت أقصد. فأجاب: أنه هو ورؤساؤه، لا يصدّقون حتى الآن، أن مؤتمر قمّة يمكن عقده قبل ١٩٧١ ـ ١٩٧٢، فهل كانوا على غير حق؟ فأجبته أيضاً بتعقّل: أن عقد مؤتمر قمّة ممكن، إذ كان بالإمكان التوصل إلى خطورة تقدّم كبرى من المنفعة المتبادلة، كقضيّة فيتنام أو سالت. وعلى

الرغم من كل ذلك، فإني على استعداد لمناقشة مبادئه العامّة منذ الآن. أما دوبرينين، الذي لم يكن لديه تعليمات صريحة حول هذا الموضوع، عزم على وضع رغبتنا موضع الاختبار، وأعلن أن الحلّ الأولي والسهل هو أن يرأس كوسيغين الوفد السوفيتي إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في الخريف القادم، ويلتقي الرئيس بهذه المناسبة. وكنت على ثقة أن نيكسون لن يقبل بلقاء قمة في إطار الأمم المتحدة، كما كانت الحال مع جونسون لكني وعدت دوبرينين أن أفاتح الرئيس بذلك.

والتقينا بعد يومين، وكنت قد أخذت رأي الرئيس، وصارحت دوبرينين رسمياً، تفضيلنا فصل لقاء القمّة عن الأمم المتحدة. وتكون الغاية منه: الوصول إلى اتفاق تام حول التسلح الاستراتيجي، أو إنقاذ المفاوضات من المأزق الذي ارتطمت فيه. وأصبح لدى دوبرينين الآن ما كان يفتقر إليه من معلومات. فوعدنا أن يرّد لنا جواب موسكو حيث كان يتوجه إليها لإجراء مشاورات. وعاد دوبرينين في بداية شهر حزيران في حين أن القواعد الكمبودية، كانت لا تزال تحتلّها القوات الأمريكية. وكان نيكسون راغباً جداً في لقاء قّمة، اكثر من تلك الانتقادات والاتهامات العنيفة التي كانت تدور في الأسابيع الأخيرة. وأي شيء أفضل من إسكات خصومه العنيدين، من الظهور بمظهر صانع السلام، والتفاوض مع السوفيت وكسب انتصارات على حلفائه في الوقت نفسه؟. فعزم أن يحاول بجميع الوسائل تنظيم لقاء قّمة قبل انتخابات الكونغرس. وهكذا فقد دعوت دوبرينين لنتناول العشاء على اليخت الرئاسي سكوايا، ونعيد رؤية جميع العلاقات الأمريكية ـ السوفيتية خلال رحلتنا البحرية في نهر البوتوماك.

وقبل انطلاقنا، انضم إلينا نيكسون مدة قصيرة في قاعة الخرائط، وصرّح لدوبرينين أنه مستعد لتناسي الماضي، فلقد حان الوقت لإقامة علاقات أمريكية ـ

سوفيتية على أسس جديدة، وهو مستعد كذلك للمساهمة الشخصية في هذا المجهود، وفهم دوبرينين أن لا فائدة من النقاش في الماضي، متحاشياً بإعتناء زائد أي تلميح عن القمّة، وانطلق بدفاع طويل في سبيل تعاون أمريكي ـ روسي في الشرق الأوسط، حيث أجرى الروس وبكل تأكيد ضغوطاً لا سبب يوجبها وأرسلوا صواريخ ضد الطائرات حديثة الصنع يديرها فريق سوفيتي. إن موسكو بصراحة كانت تسعى لقبض ثمن القمّة سلفاً، وبقدر ما نسرع نحو إقامتها، بقدر ذلك يرتفع الثمن.

إن اللقاء على متن اليخت سكوايا، لم يعطِ زخماً لهذا الانطباع، فلم يبدِ دوبرينين أية صعوبة في مناقشة مسهبة لكل المواضيع الهامة، ولا سيما تلك التي تهم الاتحاد السوفيتي. تكلم عن مفاوضات التسلح الاستراتيجية، وعن الشرق الأوسط، وعن جنوب شرقي آسيا، لكن كلامه بقي مبهماً في موضوع القمّة. وزعم أن أول ردّ فعل من قبل الكرملين كان مشجّعاً، لكن قضيّة كمبوديا، جعلتهم يفكرون أننا نقصد من وراء ذلك الحصول على ضمان من السوفيت لسياسة أمريكية نشطة في الهند الصينية. أنكرت أنا هذه الفكرة وأكدت أننا نرغب دوماً في لقاء قمة، في حين أن عمليات كمبوديا قاربت على نهايتها. لم ينخدع دوبرينين بهذا الكلام ولا بما كان يردده نيكسون. وأعاد الحديث حول قضايا مفاوضات التسلح الاستراتيجي، وعن الشرق الأوسط. واقترح معالجتها من خلال الأحاديث التي تجري أثناء لقائهما. وبصراحة، لم أكن الوحيد لألقي بنفسي في مفاوضات كهذه.

وجرى لقاؤنا التالي في الثالث والعشرين من شهر حزيران، ولم يدُر بيننا حديث مباشر عن لقاء القمة. وبعد أن تباحثنا في مشكلة الشرق الأوسط، أخذت في التعرّف على النوايا السوفيتية حيال سالت. فزعم دوبرينين أنه لم يتلق تعليمات حول هذا الموضوع، لكنه وعدني أن ينقل إلي جواباً سريعاً، وفعلاً فقد ورد الجواب بسرعة.

وكان هذا موضوع مذكرتي التي تقدمت بها في الخامس والعشرين من شهر حزيران، واقترحت فيها عقد اتفاق عاجل، حول تحديد القذائف الصاروخية، يضاف إليها تنظيم يقلّص أخطار" حرب مفاجئة".

كان نيكسون يخالفني في رأيي التعبوي، بقصد الوصول إلى مؤتمر قمة. فلم يكن بحاجة لنصيحة ما، عندما تكون مصالحنا القومية الأساسية أو استراتيجيتنا العالمية موضوع خلاف. وبعزيمة رجل واحد، عزمنا هو وانا على رفض سريع جداً لعقد اتفاق حول (حرب مفاجئة). وقلت لدوبرينين في التاسع من شهر تموز، ان اقتراح سيمينوف غير مقبول، كما بيّنت له أن لمشكلة (حرب مفاجئة) وجهين. أن وقوع حوادث ممكن جداً، ويتطلب ذلك وسائل حماية تقنية واستعلامات. ومن جهتنا كنا على استعداد لاتخاذ إجراءات بهذا الشأن مع الاتحاد السوفيتي. (ووقع اتفاق حول ذلك في الثلاثين من شهر أيلول لعام ١٩٧١). ولم يكن مطلوباً لقاء ذلك الوصول إلى تعاون سياسي قادر على تصفية الأجواء الدولية، ويحمل بوضوح على البلدان الأخرى.

وزعم دوبرينين ، أنه لم يكن على إطلاع على ما قام به سيمينوف، وهذا أمر لم يكن مقبولاً واهتّم دوبرينين بتغيير الحديث حول الاتفاق على القذائف الصاروخية، وحينئذ أعدت إلى ذاكرته أننا في مجال الحديث عن مؤتمر قمة منذ شهر نيسان، ولم نحصل على جواب، ولقد حان الوقت أن يُنهي كل منا سعيه إلى منفعته بشكل موارب. فتمتم دوبرينين بعض كلمات بالنسبة لكمبوديا، والمصاعب المطروحة أمام مؤتمر الحزب في موسكو. وكعادته زعم قائلاً أنه لم يفهم جيداً ما كنا نرمي إليه في أقوالنا. وهل يتمكن أن ينقل لموسكو:

أ ـ أن الرئيس يقترح لقاء قمة.

ب ـ أن لقاء القمة هذا، سيعمل على إعادة تحديد العلاقات العامة بين أمريكا والسوفيت.

وعندما تلقى دوبرينين تعليمات من موسكو لتأجيل هذه الأمور، أخذ يتخلص منها بمهارة، ولم يخش التظاهر ببعض البلادة. على الرغم من أننا كنا قد أجبناه على أسئلته خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة، وكذلك الرئيس قبل أربعة أسابيع، ولما كنت متأكد تماماً من اهتمام الرئيس بإقامة مؤتمر قمة، أخذت أقوم بدوري، فأعلنت لدوبرينين رسمياً، ان بإمكانه تقديم تقرير في المعنى الذي بيّنه، وعلى الرغم من ذلك بدا مرتبكاً، وكان يريد أن يعرف أي عام نقصد ١٩٧١ أو ١٩٧٢؟ فأجبته على الفور: لا هذا ولا ذاك، أننا نفكر في عام ١٩٧٠ أخذ يفكر كثيراً في هذا الأمر، ثم تساءَل هذا المحلل الشديد التدقيق في سياستنا الديمقراطية: هل قبل أو بعد الانتخابات؟ وكان هذا شرك لا جدوى من الوقوع فيه. فأجبته أني سأعلمه ذلك حالما نطلّع على ردّ فعل موسكو بالنسبة للمشروع في مجموعه.

وفي العشرين من شهر تموز، تقدّم دوبرينين بمذكرة يطلب بها منا التعاون مع الروس لعقد مؤتمر حول الأمن الأوروبي. ويتضح منها أن لدى السلطات السوفيتية لائحة طويلة من المشتريات لتسوّقها، وهي لا تتضمن ما يلبي رغبات نيكسون دون أن يعرف مسبقاً عدد المواد الممكن إنجازها. ولدينا تجاه ذلك استراتيجية محددة، فقمت بعرقلة العمل.

عاد دوبرينين فذهب ثانية إلى موسكو، ودوماً لتبادل الآراء، حول المواضيع ذاتها سواء في نيسان او أيار. وفي بداية شهر آب، نقل إلينا رجل أعمال أمريكي، يزعم أن له اتصالات عليا مع الاتحاد السوفيتي، أن القادة السوفيت مصممون على لقاء الرئيس في الخريف. وفي الثالث عشر من شهر آب، اتخذت هذا الموضوع ذريعة

لسؤال مساعد دوبرينين: يولي فورونستوف، عما كان يعرف حول هذا الموضوع. فصمت كلانا، وأقدمت على ما قام به دوبرينين في شهر كانون الثاني، عندما جعل سفير اليابان موضوع خلاف. ووصلت إلى النتيجة ذاتها، كما كنت أتوقع، فإن فورونستوف لم يتلق تعليمات. لكنه على علم أن الموضوع نوقش بشدّة في موسكو.

وتلقّينا جواباً رسمياً في التاسع عشر من شهر آب. كان القادة السوفيت ينظرون بعين العطف إلى فكرة لقاء قمة، شريطة الإعداد لها باعتناء. وكانوا يدعوننا أيضاً إلى اقتراح جدول الأعمال. وفي الرابع والعشرين من شهر آب، فإن معاوني الكسندر هيغ سلّم من قبلي إلى فورونستوف، جدول أعمال متضمناً اقتراحات مبدئية منها المفاوضات حول التسلح الاستراتيجي، والأمن الأوروبي، والشرق الأوسط، مبادىء في سبيل التعايش، والتجارة، دون إبداء أية دلالة على موقفنا حول كل من هذه النقاط. ودُعي السوفيت كذلك بدورهم إلى تقديم اقتراحات، فلم يتقدموا باقتراح واحد، فلم نستمع لأي صدى من الكرملين حول القمة، حتى عودة دوبرينين إلى واشنطن في شهر أيلول: فأوضح أن الكرملين لا يضادّ لقاء القمةّ، لكنه يقترح في الوقت ذاته القيام بالإجراءات التمهيدية، التي بسبب طول مدتها، سيؤجل اللقاء إلى عام ١٩٧١. فكان من البديهي أن السوفيت كانوا يستخدمون القمة، كوسيلة أخرى للضغط علينا، خلال فصل صيف مليء بالأزمات.

وهذا أفضل شيء يمكن توقعه، لأني عندما أفكر بالطريقة التي سيقام بها مؤتمر قمة في عام ١٩٧٠، تصيبني قشعريرة. ففي المجال الداخلي، فاننا لا نزال، في أسفل درجة، بل على أهبة وضع الأساس محاولين سبر الأرض. لم نحقق بعد المنافذ والجرأة السياسية، التي تؤهلنا بعد عام لتركيز إستراتيجيتنا الكبرى. وستمارس ضدنا ضغوط عنيفة، لنتمكن من إحراز بعض التقدّم، وفي حال الفشل في موقفنا سيكون أكثر

دقّة في المجال القومي، ان العلاقة التي كنا اقمناها بكل تيقّظ، بين المعاهدة الألمانية والمفاوضات حول برلين توشك ان تنقطع، ونخسر بذلك كل تأثير في المفاوضات الأوروبية مع موسكو. ان الضغوط في سبيل اتفاق خاص بالقذائف الصاروخية أصبحت لا تُردّ. وفعلاً ففي الحادي عشر من شهر تموز ، أكد لي نيكسون، انه علىاستعداد لدفع هذا الثمن لالتقاء القادة السوفيت. وانتظرت منه إصدار تعليمات رسمية بهذا الشأن، فلم يُقدم علىذلك، نظراً لأن السوفيت، لم يتيحوا له الفرصة. وعلى كل حال، فاني أصبحت علىاقتناع تقريباً، حتى اذا عقد مؤتمر القمة، فان الكونغرس من جهته سيضرب القذائف الصاروخية، الضربة القاضية. وكادت الأزمات تمتد الى الشرق الأوسط. وبالنسبة لسياستنا في الانفتاح علىالصين ربما لن ترى النور. وعلى الرغم من ان الاتفاقيات لم تحدّد مسبقاً. فإن نيكسون يكون قد تحمل عوائق المساهمة في مفاوضات مطوّلة ومسهبة علماً ان هذا يجعله منزعج الخاطر.

ولحسن حظنا، فإن القادة السوفيت، رموا بكل هذا خارج الساحة، ليقدّموا لنا نقاطاً لا معنى لها. وهذا أمر يجب الاّ يُنسى من قبل كل الذين يعتقدون أن أقل عمل سوفيتي يكون مدروساً بنجاح من قبل الجميع، ان موسكو كانت تعلم جيداً ان الرغبة التي كانت تدفع بنيكسون الى المساهمة في مؤتمر قمة، كانت تمثل بالنسبة لها تقدّماً تعبوياً. ومع ذلك، فان زيارة نيكسون لرومانيا قد أغاظت السوفيت، ومجابهته لغروميكو عام ١٩٦٩، وموقفنا المفكّك تجاه الشرق الأوسط، وكانوا يحاولون بكل قوتهم ان يسلبوا منا الحد الأعلى للتنازلات، واذا مرّروها، فسيكون هذا فرصة إستراتيجيّة بالنسبة لهم. كانوا يطالبون بالثمن مسبقاً ليقبلوا بعقد مؤتمر قمة، وان يُدفع لهم مجدّداً في حال عقد مؤتمر القمة نفسه. وكانوا يحاولون الحصول على تحالف واقعي ضد الصين، ومؤتمر حول الأمن الأوروبي، واتفاق يوفق هواهم حول سالت ـ وكل ما ذكر هو بمثابة ثمن اجازة دخول الى مؤتمر القمة.

لكن نيكسون لم يكن توّاقاً الىمؤتمر القمة الى هذا الحد. أضف إلى ذلك انه غير مختص، فلم يوافق علىأية واحدة من هذه المتطلبات، ولم يتوصّل السوفيت الى شيء.

وإذا كان الروس قد تصرفوا بشيء من الفطنة، فهذا يعود إلى إعتقادهم أنهم جعلونا في عزلة، بفضل مبادراتهم في أوروبا، وهناك سبب آخر يحملهم على الاعتقاد أيضاً أن حرب فيتنام أصابتنا بالشلل. وعند حلول صيف ١٩٧٠ خالجتهم فكرة عدم ضرورة إجراء محادثات معنا، معتبرين أن الضغوط التي حملتنا على طلب مؤتمر قمة عام ١٩٧٠، ستدفعنا هي نفسها إلى التوسل ثانية. إلاّ أنهم كانوا يهيئون أنفسهم لإثارة ضغوط في الشرق الأوسط، ومحاولة نشر قوات عسكرية في جزر الكاريب، مشاريع كانت تبدو لهم ذات فائدة للسنة التالية والسعي وراء إقامة مؤتمر قمة أعطى هذا العدد من ردود الفعل.

عموماً كان علينا أن نواجه خلال الصيف أزمات تحتاج إلى ثبات للتمكن من اجتيازها، وعلى الرغم من أن الأزمات تصقل الحكومات عندما لا تدمّرها، وتظهر على من يمكن الاعتماد، وتحدد توازن القوى على المستوى الدولي وداخل الحكومة. زد على ذلك فإن نيكسون لم يكن ذا فعالية، على الرغم من الوضع المعقّد إبان حكمه. ولا يفعل شيئاً إلا إذا تعرّض لضغوط تعيده إلى نفسه وتجبره على اتخاذ قرارات. وعلى هذه الحال فإن صيف وخريف عام ١٩٧٠ كانا فعلاً إحدى فترات هذه الأزمات. وكما يحدث غالباً، فقد انبعث أصل هذه الأزمة من الشرق الأوسط.



الفصل الثاني عشر

الشرق الأوسط عام ١٩٧٠

في بداية عام ١٩٧٠ أخذت آلهة الحرب باستعراض ترساناتها، لأنه كان يبدو جلياً، حاجتها إليها قريباً. وكانت تقع اشتباكات كل يوم على طول قناة السويس. وقامت إسرائيل في شهر كانون الثاني، بغارات جوية داخل مصر، مع هجوم بالقنابل حول القاهرة، وفي دلتا نهر النيل، خصصت هذه الغارات لإظهار عدم قدرة جمال عبد الناصر، ولوضع حد بالقوة لحرب سمّيت بحرب الاستنزاف وكان يرد ذكر اسم غولدا مائير بصفة رئيسة وزراء إسرائيل، وتؤكد لزائريها، أنه طالما ناصر يرأس مصر، فلا تقدر هي على تحديد امكانية إحلال السلام. وهناك على الجبهة الأردنية، كانت حلقة عنيفة من غارات الفدائيين على إسرائيل، والانتقادات الإسرائيلية تتصاعد. وتجابهت إسرائيل وسورية في مرتفعات الجولان. وأخيراً نحو أواخر شهر كانون الثاني، قام ناصر وبصورة فجائية بزيارة سرية إلى موسكو، وعلى أثر ذلك، تركزت جميع قضايا الشرق الأوسط أكثر فأكثر في علاقات القوتين الأعظمين.

وفي الوقت ذاته، فإن الولايات المتحدة كانت مثقلة باختلافات داخل الحكومة حول طبيعة هذه المشكلة. ولقد بيّنت وزارة الشؤون الخارجية بما يلي: أن سبب متاعبنا نابع من نزاع بين إسرائيل والعرب حول قضية أرض. وإذا حُلّ هذا الإشكال، نتيجة لرأي خبراء، فسوف ينقص نفوذ العرب المتشددين ويضعف معه الدور الذي يقوم به الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط. ووجّهت هذه الفكرة عملنا الدبلوماسي طوال عام ١٩٦٩ وحملتنا على تقديم اقتراحات لتسوية إجمالية أكثر تحديداً.

كانت لديّ شكوك حقيقية حول هذه الفرضيّات وما تفرضه من مواقف. وكنت أقدّر الوضع كالتالي:

للراديكالية العربية خمسة أسباب رئيسية: احتلال إسرائيل لأراضيها، الوجود الإسرائيلي ذاته، الاستياء العام من الوضع الاجتماعي والاقتصادي، معارضه المصالح الغربية، ومعارضة المعتدلين من العرب.

يمكن تسوية أول هذه الأسباب فقط، وستبقى بقية الأسباب دون تغيير، وبالنسبة للمتشددين فأن الرأسمالية الغربية، ستكون دوماً مفروضة، ولن تكون مقبولة إلا من النظم العربية المعتدلة، وستبقى أسباب الاستياء العام الاجتماعي والاقتصادي. أن إسرائيل باقية هناك، وسيبقى العرب المتشددون يسعون لإزالتها عن الخريطة، هذا ما كان يفهمه الإسرائيليون تماماً. والمشكلة طبعاً هي وجود إسرائيل،وليس وضع حدودها، الأمر الذي كانوا يمانعون فيه جداً.

ولم يراود تفكيري أبداً أن تسوية النزاع الإسرائيلي العربي، ستؤدي وبصورة أكيدة إلى تقليص النفوذ السوفيتي، أن أموراً كثيرة تتوقف على طريقة التسوية وما تتضمنه من شروط. والإقدام على حلّ هذه المشكلة بوجه عام،بدعوة جميع الأطراف لتكون ممثّلة فيه،ربما يقبله المتشددون من العرب، لكنه في الوقت ذاته يعطي فرصة

للدول المتشبثة بآرائها لاستعمال الفيتو على كافة ما يكون هناك من احتمالات السلام. وإذا ظهر أن التسوية ستكون حصيلة ابتزاز أو ضغوط سوفيتية، فإن النظم المتشددة، ذات الاتجاه المعادي للغرب والمؤيد للسوفيت، يصبح موقفها معززاً، ويدخل في اعتبارها وجوب إعادة الأراضي إلى السابحين في فلك السوفيت.

وكان علينا أن نعمل، ليس فقط بشأن الوصول إلى حلّ مهما يكن نوعه، بل لنظهر أيضاً أن الطريقة الفضلى للنجاح باتجاه السلام، هي الوقوف إلى جانب أصدقائنا، ويمكننا القول أن المعتدلين يمتلكون مفتاح الحل في الشرق الأوسط. وكنت على اعتقاد ان قوة أوضاعنا تسمح لنا أن نبرهن عنها، أن تقدمنا في حل هذه القضية كما بيّنته لنيكسون في بداية شهر شباط، هو أن يصل العرب إلى ما يريدون من مطاليبهم. وخلال اجتماع فريق الدراسات العليا، في الخامس والعشرين من شهر شباط، أعلنت لهم أن ستأتي فترة، يصبح فيها طبيعياً أن الزمن لا يعمل لصالح السوفيت. فإذا لم يستفد العرب سوى إعادة الأراضي المحتلة، فإن هذا سيساعد في أن يتجه هؤلاء نحونا. والخلاصة يجب إلاّ نخضع للابتزاز. ولا نفاجأ بالإرهاب أمام بلاغة المتشددين، وسيكون سلاحنا الصبر، وانطلاقاً من هذا المبدأ نفسه وعند إحرازنا بعض النجاح، ويكون العرب المعتدلون قد اتجهوا نحونا، حينئذ يجب أن نتصرف بطريقة حكيمة للوصول إلى قفزات دبلوماسية.

ولم أكن أبداً في وضع يمكنني من تطبيق هذه الاستراتيجية. كان نيكسون قد أوكل أمور الشرق الأوسط إلى روجرز، ويرفض التدخل فيها حتى في مواقع الشك. ولم يكن في هذه المرحلة على الأقل، مقتنعاً من صحة تحليلي، وكان مستمراً في اعتقاده أن الاتحاد السوفيتي، كان هو المنتصر السياسي في حرب عام ١٩٦٧. كما أنه لا يزال أيضا يتمسك، ببعض مبادىء غامضة من تبادل مناطق النفوذ، مع

الاتحاد السوفيتي بين الشرق الأوسط وفيتنام. وكان يبدي اهتماماً قليلاً تجاه أهلية الانتخاب اليهودي كبقية جميع أسلافه، ويرغب في إظهار أن ضغوط تلك الانتخابات ليس لها أي تأثير عليه. ويتساءل عمّا إذا كانت يهوديّتي لا تلقي شكاً على محاكماتي، وبصورة طبيعية عملت جاهداً في إعداد خياراته الاستراتيجية، وأسدي للوزارات المختلفة التوجيهات التعبوية اللازمة، وكان مستحيلاً عليّ التدخل في سياسة الشرق الأوسط حتى نهاية عام ١٩٧١.

أن توحيد وجهات النظر، في منهج الأعمال التي يسعى نيكسون إلى تصريفها وأنظمها أنا طبعاً، كان يحدث بعض الأخطاء في سياستنا الشرق أوسطية، كان يترك الأعمال تسير في الحيز المهيأ لها، كونه على ثقة دائمة أن بمساعدتي ستعود الأمور إلى يده قبل خرابها. وأعطى الشؤون الخارجية حرية عمل غير معقولة، في كل المجالات الأخرى. وعندما تقاربنا فكرياً في نهاية المطاف أكثر مما كان عليه مع روجرز، تدخّل في الوقت المطلوب ليمنع تطبيق سياسة الوزارة.

إن الدرس القاسي الذي علينا استخلاصه، هو أن مجريات الأمور لا يمكن أن يسيطر عليها ويتفهمها إلاّ هؤلاء الذين اختطّوا لأنفسهم خططاً يصلون إليها، لا يجوز للأمة أن تنتظر شيئاً من سياسة مرتبكة كامنة تحت قناع الاعتدال. لأن العدو قادر أن يتخذ من الإدارة الطيّبة إذعاناً. ولا يميز بين التحفظ والضعف. ويستطيع كذلك، وبصورة مشروعة أن يعتبر نفسه قد أخذ على حين غرّة، ويشعر بالغدر، وبعد كل هذه الاضطرابات السياسية. إذا أخذنا بالدفاع عن مصالحنا الحقيقية. فإن الناتج أزمة.

إذا استطعت الحكم على ما جرى خلال السنوات العشر التي مرّت، فلا مجال للشك، أن رغبتنا في اجتناب كل مجابهة، شجعّت المكائد السوفيتية وإني معتقد تماماً

أن عزمنا على الصمود في وجه هذه المكائد، هو الذي فتح أمامنا المجال إلى المفاوضات، سواء في الشرق الأوسط أو مع الاتحاد السوفيتي بشكل عام.

❐ ❐ ❐

في الحادي والثلاثين من شهر كانون الثاني لعام ١٩٧٠، سلّم دوبرينين رسالة من رئيس مجلس الاتحاد السوفيتي، اليكسيس كوسيغين، إلى رئيس الولايات المتحدة، سلّمها إلى رجال مكتبي الكائن في أحد أقبية البيت الأبيض. والعادة أن تمرّ مثل هذه الرسالة بالطرق الرسميّة المتبعة. وممّا تتضمنه هذه الرسالة، أن هناك رسائل مشابهة. قد أرسلت إلى رئيس الوزراء ويلسون وإلى الرئيس بومبيدو. ولما كان على البريطانيين والفرنسيين أن يأخذوا رأينا حول هذا الموضوع، فلم يبق أمامنا خيار، إلاّ بتمرير تلك الرسالة بالطريقة النظامية. وعلى كل حال، عندما تصبح رسميّة، فإن مبادلة الرسائل، لا يجوز إلاّ أن يُعلن عنه.

وكانت رسالة كوسيغين تعلمنا عن قيام إسرائيل بعمليات عسكرية جديدة ضد الدول العربية، وكان الاتحاد السوفيتي يحاول توضيح المقدار الذي كانت تستند إليه العمليات الإسرائيلية من عمل دبلوماسي من قبل بعض الدول الكبرى، فكانت طريقة غير لبقة بالافتراء علينا من أن اقتراحاتنا الواضحة في سبيل السلام عام ١٩٦٩، قد استخدمت غطاءً للغارات الإسرائيلية، على الأراضي العربية. واضافت الرسالة، ان في حالة تتابع الهجمات الاسرائيلية، يجبر الاتحاد السوفيتي أن يكون حريصاً على أن تستخدم الدول العربية الوسائل الكفيلة، بردّ عدوها المتغطرس بالطريقة التي يستحقّها. وكان كوسيغين يطالب الدول الأربع العظمى، بإجبار إسرائيل على إنهاء هجماتها، والبدء بسلام طويل الأمد، يبدأ بإنسحاب سريع جداً للقوات الإسرائيلية من جميع الأراضي العربية المحتلّة.

وعندما أوصلت هذه الرسالة إلى نيكسون، بيّنت له أنها تشكّل أول تهديد سوفيتي تجاه الحكومة الجديدة. ولم يتمادّى كوسيغين إلى التهديد بالقيام بعمل محدّد،لكن موقفه الذي حمله على القول بوجوب إنسحاب إسرائيل، قبل أن تجد المشاكل الأخرى حلولها، فهذا يدل على عودة الاتحاد السوفيتي إلى موقفه عام ١٩٦٧، وهذا يعني ولو ظاهرياً، إلغاء القسم الأكبر، من التقدم الذي تم التوصّل إليه خلال محادثات الصيف الماضي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. وفي الوقت ذاته، رأيت في رسالة كوسيغين مؤشراً على أن موقفنا في الشرق الأوسط كان أقوى.

وكنا متفوقين فعلاً على السوفيت في المشكلة التالية: أنهم إذا لم يتقبّلوا اقتراحاتنا، فلن يحصلوا على شيء، وتقع عليهم مسؤولية تصعيد الوضع، وسيخسر من يدور في فلكهم، إذا أدّى التصعيد إلى مجابهة حقيقة. وإذا قبلوا باقتراحاتنا فعليهم تبيان شروطهم لأتباعهم. واقترح ردّاً برفض التهديد كلياً الذي أرسله السوفيت إلينا، شريطة احترام الإسرائيليين لوقف إطلاق النار على أن يحترمه المعسكر الآخر، مؤكدين على السوفيت أعلامنا بوضوح، عمّا سيتعهد به العرب، حسب رأيهم، بعد أن تسحب إسرائيل قواتها.

ولأول مرة، تتفق آراء حكومتنا على مضمون الإجابة.وكان روجرز وسيسكو على رأي متفق، بوجوب الثبات. وأرسل جواب الرئيس في الرابع من شهر شباط، ويتضمن رفضاً قطعياً لكل مزاعم السوفيت، ومؤكداً أن وقف إطلاق النار، قد اخترق من قبل المعسكرين على السواء.

وكان يتخلّل جواب نيكسون تحذيراً: في حال أن الروس ينفذون تهديدهم ويزيدون أرساليات السلاح، فمن المحتمل أن الدول ذات السيادة، تجد نفسها مضطرة للاشتراك في النزاع، أن الولايات المتحدة تراقب عن كثب توازن القوى في

الشرق الأوسط، ولن تتردد عند اقتضاء الحال، عن تزويد الدول الصديقة بالسلاح، وكان ختام الرسالة رفض الموقف السوفيتي، الذي يطالب بانسحاب إسرائيل، حتى يمكن تسوية جميع الأمور.

وفي اليوم ذاته، أطلعت الرئيس على كل ما تنسمته من أفكار تضمنته المذكرة السوفيتية، لقد كنت أرى فيها مناورة خاصة لكنها مربكة:

"لم تكن هناك حاجة ليكون الإنسان عالماً كبيراً، ليقدّر أن الولايات المتحدة على الأقل (هذا أن لم تكن فرنسا والمملكة المتحدة) ستجيب أنها ترحب بتجديد وقف إطلاق النار على أساس متبادل... ستكون نتيجة مسلك السوفيت، أن ينسب فضل هذا التجديد إلى ناصر والعرب وبوساطتهم طبعاً، دون ورود أي ذكر لنا أو للإسرائيليين.

وبعد يومين، من تحليل طويل لاستراتيجيتنا في الشرق الأوسط كرّرت وجهة نظري:" لا يزال ناصر حتى الآن يطالب الروس، بممارسة ضغوط علينا، لنحمل إسرائيل على إيقاف القصف، وكرّر طلباته ليظهر أن الروس غير قادرين على ذلك.

وهذا ما استنتجته لأن رسالة كوسيغين، كانت تبدو مبهمة، ولا تطالب بشيء ممكن التحقيق، حتى أخذت اشكّك أنه إذا لم يكن هناك خطّة خاصّة، فلا بدّ أنها جزء من مشروع أضخم، يتقدّم بكل تأكيد عملاً واسع النطاق في المجال العسكري. وإذا لزم لذلك بعض الوضوح، فما هو سوى محاولة لإفشال كل إجابة ممكنة لإعاقة عمل قرارات اتخذت في السابق. إن السيرة الذاتية لكل من أنور السادات ومحمد هيكل، تدلّنا بالفعل، أن خلال مكوث ناصر في موسكو في نهاية شهر كانون الثاني، كان عازماً على أن يرسل لمصر صواريخ سوفيتية حديثة جداً مضادّة للطيران. وما كانت رسالة كوسيغين سوى تحذير، بل ذرّ رماد في العيون.

وفي أول أسبوع من شهر شباط، ظهرت بعض الإشارات الهامة، حيث أن السوفيت كانوا يستعدون لإرسال أسلحة إلى مصر. وكنت أشكّك كثيراً في أن العتاد الحربي وحده يفيد وفاتحت نيكسون بذلك. فإذا كانت الغاية من جلب هذه الأسلحة الجديدة، زيادة الترسانة الموجودة حالياً فقط،فسيقوم الإسرائيليون بإتلافها، وإذا كان القصد من ذلك جاهزية التسلّح، فلن، يكون المصريون قادرين على استخدامها، وهذا ما يدعو إلى تقدير شيء أكثر إرباكاً، لأن السوفيت إذا كانوا عازمين على رد فعل صحيح ضد الإسرائيليين، فهذا يتطلب بكل تأكيد موظفين روس. وبعد الانتهاء من تلاوة تحليلي، كتب نيكسون على هامشه: "أعتقد أنه قد حان الوقت لمفاتحة السوفيت بذلك مباشرة.

واستجابة لرغبات نيكسون، أخذت أعمل على جبهتين. وتلقّى جاكوب بيم سفيرنا في موسكو تعليمات من الشؤون الخارجية، حول إعلام غروميكو، أن الولايات المتحدة على استعداد للعمل على تجديد وقف إطلاق النار، وإجراء مباحثات حول تحديد التسلّح لدى المعسكرين. وكما كنت اتوقّع، فإن جواب غروميكو إلى بيم. لم يكن ليظهر التزامه لأية نقطة معيّنة، وكان ذلك في الحادي عشر من شهر شباط. ولقد بيّن فيه أن الروس لا يهتمون بمعالجة أمر وقف إطلاق النار، قبل أن توقف إسرائيل ما تقوم به من غارات عميقة. ولم يتعرّض لإجراء محادثات حول تحديد التسلّح، لكنها لن تجري ما دامت إسرائيل تحتل أراض عربية، وبمقولة أخرى، يجب على إسرائيل أن تسحب قواتها من جميع الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ . وهذا ما يمكن تسويته خلال مفاوضات بين بلدينا، والروس على استعداد لاستعادتها.

أن أحد الأسباب الذي دعا غروميكو إلى إظهار نفسه بهذا الغموض، هو دون ريب، أن الاتحاد السوفيتي كان على أهبة التعرّف على موقف أمريكي أكثر قوّة. وفي الواقع، فقد التقيت دوبرينين في العشيّة، وكان اللقاء باسم الرئيس، وفي نفس الوقت

الذي كان يلتقي فيه سفيرنا بيم غروميكو، وأعلمه أن السوفيت لم يتمكنوا بعد من إنهاء تحليل مذكرتي. بينت لدوبرينين أننا نرغب في أن يعلم القادة السوفيت، أن إدخال قوات روسيّة إلى الشرق الأوسط، سيخلق وضعاً دقيقاً جداً ولقد عزمنا على إجراء اتصالات بهذا المعنى، ولا غاية لنا بمجابهات رسميّة. ولما كنت أميناً في تنفيذ تعليمات نيكسون، أعلمت دوبرينين في الوقت ذاته، أننا على استعداد لبدء محادثات ثنائية، حول الشرق الأوسط.

وساد صمت من قبل القادة السوفيت، خلال قرابة شهر.فاجتهدت أن استخدم هذا الانكفاء، في اتخاذ احتياطات معيّنة، لمواجهة جميع الاحتمالات في حال إقدام السوفيت على مبادرة ذات شأن متضمنة بصورة أكيدة إدخال عسكريين إلى الشرق الأوسط. أضف إلى ذلك، فإن اجتماعات متفرقة لفريق العمل الخاص في واشنطن، أظهرت للوجود تلك الانقسامات التي أفسدت النقاش الداخلي في عام ١٩٦٩. فإذا كان السوفيت يرسلون متطوعين إلى الشرق الأوسط، فإني أصر على أنه لم يبق أمامنا أي خيار سوى رفض ذلك، مهما تكن الدوافع التي حملتهم إلى هذه المبادرة. إذ كان مستحيلاً علينا قبول وجود سوفيتي جديد، قبل تأكدنا من أن المتشددين العرب سيستخلصون من ذلك مغانم ربما كانت حاسمة، وكنت راغباً كذلك في العودة إلى استقراء مشاريعنا، في حال تهديد الروس لإسرائيل بالاقتصاص منها. وطالبت كذلك باتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع السلاح الجوي الإسرائيلي من الدخول في حرب استنزاف، إذا ألقت موسكو في المعركة بطائرات حديثة يقودها طيارون روس.

إن رد فعل الوزارات لم يكن مشجعاً. ومعظم أعضاء الحكومة كانوا يرفضون بناءً على العناد الإسرائيلي تحمل مسؤولية المشكلة. والكل (باستثنائي أنا) كانوا على ثقة، أن إرسال إعانات لإسرائيل، في هذا الظرف بالذات المليء بالمشاكل،

سيسبّب حوادث عنيفة. وبالنسبة للمشاريع المستعجلة، فليس هناك بدّ من بذل الجهود ودراسة الفرضيات المختلفة، وإذا لم يكن هناك ميل للعمل بها، علينا تطبيق الإجراءات الكفيلة بمواجهة أية مبادرة سوفيتية في محاولة التوسّع، وعلى الإدارة أيضاً معارضة ذلك بكل قوة. وتقدّمت وزارة الدفاع بمذكرة رسمية، تؤكد فيها على الحلول السياسية، ممّا يوضح بجلاء كما جرى في فيتنام. أن على وزارة أخرى تحمّل المسؤولية واحتمال الأخطار. وكانت هذه الوزارة تحتفظ لنفسها بتفسير المطالبة بانسحاب شامل للقوات الإسرائيلية (وهذه هي الورقة السياسية الوحيدة التي نملكها) وكيف أن هذا الانسحاب، سيُعزى إلى الضغوط التي يقوم بها السوفيت ضدنا، لا سيما إذا وصلت قوات سوفيتية.

ووقع نيكسون تحت تأثير اعتبارات داخلية ودولية، فأصبح موقفه مزدوجاً، فقبل بتحليلي الجغرافي السياسي. وكتب على أحد هوامش مذكراتي: أن الوقوف على الحياد سياسة يحسن إتباعها، ولكن وقبل كل شيء أنها مصالحنا، التي تعطي مجالاً للسوفيت لإرباكنا، ولا يجوز أن النزاع الإسرائيلي - العربي يبعد عن أفكارنا هذه المصالح. وكان في الوقت ذاته، ميّالاً أن يكون إلى جانب رأي وزارة الشؤون الخارجية، التي كانت ترى في السياسة الإسرائيلية السبب الأساسي لكل الصعوبات الحاليّة، وكان الشك يخالجه في أن إظهار عدم قدرة السوفيت على حل الأمور، سيخيّب أمل العرب. كما كتب حاشية أخرى على مذكرة كنت عالجت فيها هذه الفرضيّة: لا أوافق أبداً على هذا الاستنتاج، ان السوفيت يعلمون أن العرب لا يملكون القوة وخاصة بعد خيبة أمل السوفيت في الشرق الأوسط منذ عام ١٩٦٧، وزعمت الشؤون الخارجية وغيرها، أن حرب حزيران كانت هزيمة بالنسبة للروس، وهذا يخالف الواقع، فلقد أصبح الروس أصدقاء العرب، والولايات المتحدة عدوّتهم، وامتداد الزمن يخدم مصالحهم.

والهمّ يكمن طبعاً، في كيفيّة التوفيق بين حاشيتي نيكسون، وبمقولة أخرى، كيف يمكن إيجاد مصاعب للسوفيت، والابقاء عليهم يتظاهرون وكأنهم القوة المسيطرة علىهذه المنطقة من العالم، ونقبل ان يجلبوا اليها قوات عسكريّة؟ ان نيكسون لم يكن يبتّ بهذه المسائل حتى بينه وبين نفسه، وينتظر حدوث الفرصة المؤاتية لاتخاذ قرار. ووقوفاً أمام العودة ثانية إلى أزمات الشرق الأوسط في السياسة الداخلية، فقد اتخذ موقفاً مزدوجاً كعادته عند حدث اختلافات لدى مرؤوسية، فيشجّعهم، ولا يظهر لهم عدم رضاه إلاّ عندما يصل الخلاف حتى مكتبه.

كان الرئيس على اقتناع ان معظم رؤساء المجتمع اليهودي كانوا ضدّه على مدى حياته السياسيّة. وكان يردّد مازحاً: ان القلّة من اليهود الذين صوّتوا إلى جانبه، يجب ان يكونوا على جانب من الجنون اذا ثبتوا على ولائهم له، حتى في حال مهاجمته إسرائيل. وكانت رغبته ملحّة ان يبرهن لحاشيته ووزراءه أن المجلس اليهودي ليس له عليه أي مأخذ!!

ولسوء الحظ، لم تتح الفرص لنيكسون الظهور بمظهره الحقيقي، والذي يثبت حقيقة نظريّته، لأن التحليل الجغرافي السياسي، الذي قام به في جميع المشاكل الواقعيّة، أدى به إلى اتخاذ مواقف، لا تختلف كثيراً عن غيرها والتي يتخذها هؤلاء الواقعون تحت تأثيرات عنصرية. وكان يهدّد على انفراد بإنتقامات عنيفة، لكل أطراف الإنتخابات، والذين حسب اعتقاده، يخالفونه في ما يرمي إليه. وكان يستعين بحركات خصوصية ليبرهن ـ لاسيما لنفسه ـ انه غير خاضع للمؤثرات التقليدية، التي عانى منها غيره من الرؤساء. ولكنه في نهاية المطاف، بعد أن يصطدم بواقع النفوذ في الشرق الأوسط، كأن ينتهي، بعد ارتباك شديد وتفكير قلق، إلى تطبيق السياسة ذاتها، متخذاً ذريعة مصلحة الأمة، تقليص النفوذ السوفيتي وإضعاف موقف المتشددين العرب، وتشجيع العرب المعتدلين، وتأمين سلامة اسرائيل. نيكسون

وأنا كنا نقطع الطريق منفصلين، ولكن عندما يحين وقت اتخاذ قرارات خاصّة بالشرق الأوسط، كنا نلتقي، ونتفق بالرأي، ونساند بعضنا في جميع تصرّفاتنا.

وخلال شهر شباط، أخذت حكومتنا بدراسة لائحة العتاد العسكري التي تطلبها إسرائيل، وارتفعت اللائحة عام ١٩٧٠ إلى خمس وعشرين طائرة مطاردة وقاذفة قنابل نفّاثة ف ـ ٤ فانتوم، ومائة قاذفة قنابل ١ ـ ٤ سكايهوك وعدد كبير من الدبابات والعربات المصفحة لنقل الجنود. على أن يدفع ثمن كل هذا بأوجه مختلفة من عقود تراضٍ من قبل أمريكا. وكان رأي جمع الوزارات متفقاً، على أن إسرائيل ستصبح هكذا في وضع يمكنها من المحافظة على تفوّقها العسكري خلال فترة تمتد من ثلاث إلى خمس سنوات، دون الحاجة إلى متطلبات ضخمة. وكانت هذه النظرية تستند إلى تقدير عام من قبل الأجهزة ومرتكزة على بعد نظر عظيم في تحليل المناهج، والتي كان لديها ميل غريب إلى التقيّد بأفضلية سياسية يكوّنها رؤساء الأجهزة المختلفة (وبالنظر إلى ذلك فإن حرب عام ١٩٧٣ في الشرق الأوسط كفلت أن تظهر كيف أن ميزان القوى في الشرق الأوسط. كان مشكوكاً فيه، خلاف ما ورد في توقعات المحلّلين. رغم الإرساليات الضخمة العسكرية بين عامي ١٩٧٠ ـ ١٩٧٣).

أن مداولات الحكومة، كانت تتجه نحو جواب معتدل، إذا طرأ حادث جديد. ولو لم يكن ذا علاقة مباشرة بالقضية.فقد يستخدم حافزاً. وفي نهاية شهر شباط، قام الرئيس بومبيدو بزيارة رسمية إلى الولايات المتحدة وهي الزيارة التي كان نيكسون يعلق عليها أهمية كبرى. من دون الاهتمام بالمعطيات الداخلية التي ستخلفها هذه الزيارة، خاصة وأن الرئيس بومبيدو كان قد عقد اتفاقاً في شهر كانون الثاني، على تسليم أسلحة موزّعة على أربعة أعوام، مع العقيد معمّر القذافي. رئيس الحكومة الثورية الجديدة.وبموجب هذا العقد كانت فرنسا تبيع إلى ليبيا أكثر من مائة طائرة ميراج. ومنطقياً فإن ليبيا لم تكن بحاجة إلى هذه الكميّة الكبيرة من الطائرات. وفي

الواقع، لم يكن في هذه الفترة في ليبيا سوى عدد ضئيل من الطيّارين القادرين على قيادة هذه الطائرات المطوّرة جداً. وبكل تأكيد فإن هذه الطائرات كانت مخصّصة للاستخدام من قبل دول عربية أخرى. وطبعاً من قبل مصر. وكما يجب أن يتوقّع. فإن مؤيدي إسرائيل في الكونغرس. احتجّوا بشدّة. وكانت هناك مظاهرات في كل مدينة كان يتوجه إليها بومبيدو وعقيلته. وحصل حادث مؤسف في شيكاغو، حيث أقدم متظاهرون وبصورة خاصّة على إهانة عقيلة بومبيدو. فاختصر الرئيس بومبيدو بصورة مفاجئة زيارته لشيكاغو وعاد إلى نيويورك. وخلال بضع ساعات، سرى انطباع أنه ساع إلى إلغاء زيارته والعودة إلى فرنسا.

وبعد إطلاع نيكسون على الخبر، غضب غضباً شديداً، وكان ردّ الفعل لديه بطريقتين مختلفتين: الأولى نبيلة والثانية دنيئة. أن ردّ الفعل النبيل كان أن أقلّته طائرة وبصورة مفاجئة في الثاني من شهر آذار، لحضور عشاء يقام في نيويورك على شرف الرئيس بومبيدو. وألقى خلاله خطاباً بليغاً، دبّجه بعواطف حارة لرئيس الدولة الفرنسية. أما بالنسبة لردّ فعله الانتقامي، فتفسّر بصورة أمر موجّه مباشرة إلى الشؤون الخارجية، الالتزام بتأجيل تسليم أسلحة لإسرائيل إلى أجل غير مسمّى. وفيما لو أخذ رأيي حول الموضوع. كنت أشرت إن هذا تصرّف في غير محلّه، الانتقام من بلد أجنبي بسبب تصرفات أقلية أمريكية. ونحاول في الوقت نفسه إعطاء مجال للاتحاد السوفيتي أن يجد غبطة لنفسه.

❑ ❑ ❑

وصل دوبرينين في العاشر من شهر آذار، إلى البيت الأبيض حاملاً جواب الكرملين، على ما قمت به من مساعٍ في العاشر شباط، لما حذّرت الاتحاد السوفيتي

من مغبة إدخال قوات سوفيتية إلى الشرق الأوسط. ولسبب لا زلت أجهله، فإن قاعة العمليات لم تكن جاهزة، فالتقينا في مكتب مرافق الرئيس.

كانت طيبة قلب دوبرينين بأدبه، وفيما يتعلق بسعي الإدارة الأمريكية باتجاه وقف إطلاق النار، فقد أعلمني أن رؤساءه كانوا على ثقة من أن: إذا أوقف الإسرائيليون قصف الجمهورية العربية المتحدة(مصر) فإن هذه ستقدّم برهاناً على الاعتدال، دون الحاجة طبعاً إلى تصريحات رسمية. وإتمكن من القول، أن دوبرينين على استعداد أن يقترح عليّ وقف إطلاق النار على قناة السويس.

أضف إلى ذلك، فإنه كان مغتبطاً بإعلامي أنه مفوّض باستعادة محادثات ثنائية مع روجرز. وأطلعني على موجز من تلك التنازلات الممكن إجراؤها خلال تلك المحادثات:

أولاً : أن تسوية في الشرق الأوسط، لن تضع حدّاً فقط لحالة الحرب، بل ستوطّد السلام أيضاً.

ثانياً : تتعهد الحكومات العربية بدورها بإيقاف حرب العصابات التي تنطلق من أراضيها .لم تكن هذه التنازلات لتجلب المبادىء الإيجابية التي تتبادر للذهن. والاقتراح بإن عقد صلح يمكنه جلب سلام وتقديم هذه الفكرة بمثابة تنازل. يظهر الجانب المثير والغامض في مساومات الشرق الأوسط السياسية. والطلب إلى إسرائيل سحب جميع قواتها من الأراضي التي احتلتها، دون تقديم لقاء ذلك ما تطلبه معظم الدول وهو السلام، أن هذا يبدو غير معقول. وبالنسبة لوضع حد لحرب العصابات، بعد توقيع صلح، فلا يمكن اعتبار ذلك تضحية ولا يستطيع من لديه بعض اللياقة من تقديم اقتراح معاكس. فلا يبقى والحالة هذه سوى ما يعرضه دوبرينين من وقف إطلاق النار، الأمر الذي يهمني لكنه لا يمنعني من التفكير أن الروس أهملوا الإجابة على نقطة هامة

من محادثاتنا في العاشر من شهر شباط، أعني بذلك تحذيري لهم من إدخال قوات سوفيتية إلى الشرق الأوسط. ولن نتأخر في معرفة سبب هذا الإهمال.

نظراً للانفراج الذي حصل، تقدمت للرئيس بالتقرير التالي:

تقدّم دوبرينين بتنازلات هامة... في مفاوضاتنا حول مصر، ظهرت سياستنا الحازمة مجدية في جميع الأمور المختلف عليها. لقد قام الاتحاد السوفيتي بالخطوة الأولى، وعلى الرغم من أن هذا غير كافٍ، فعلينا الثبات في موقفنا، وعدم تقديم أية تنازلات. وكان رد فعل الرئيس على ما اعتبر تساهلاً في موقف الاتحاد السوفيتي، بأن أجرى تعديلاً على قراره الأساسي حول موضوع العون العسكري لإسرائيل. وأخذاً بعين الاعتبار أننا لا نقدر على مطالبة إسرائيل بوقف إطلاق النار، ورفض طلباتها من العتاد العسكري، فقبل نيكسون في اليوم ذاته اقتراحي بتعويض إسرائيل عن خسارتها في طائراتها في حدود ثماني طائرات فانتوم وعشرين طائرة سكايهوك في عام ١٩٧٠. ورضي بالاقتراح الذي تقدمت به أن تعلن وزارة الشؤون الخارجية عن تعليق إرسال شحنات العتاد العسكري، لكنه أضاف إليها لمسه" نيكسونية" وكلفني إبلاغ سفير إسرائيل "رابين" ودون تأجيل قرار تعويض إسرائيل عن خسائرها.

وفي الثاني عشر من شهر آذار، التقيت رابين لإبلاغه اقتراح دوبرينين حول وقف إطلاق النار، ولأطلعه على القرار الذي اتخذه الرئيس، وطلبت في الوقت ذاته، أن تضع إسرائيل حداً لغاراتها العميقة وتقبل بوقف إطلاق النار بصورة نهائية. وأن مذكرة من قبل الرئيس ستحدد ذلك مع المطلوب عمله من قبل إسرائيل، والضمانات المتعلقة بالتعويض عن الطائرات.

لم يكن من المستغرب أن لا يظهر رابين غبطته عند سماعه التعويض عن الطائرات المفقودة. ولقد سلمني في الواقع رسالتين من السيدة غولدا مائير موجهتين

إلى نيكسون. كانت تبيّن إحداهما الضجة الكبرى التي أحدثناها بتأجيلنا شحنات الأسلحة لإسرائيل بما فيها الطائرات التي كانت قد طلبتها أو تلك التي قد أتينا على إلغاء إرسالها. وكانت السيدة مائير تبيّن أن قرارات كهذه لا عمل لها سوى مضاعفة الخطر العسكري ضد إسرائيل، وتشجع العدوانين السوفيتي والعربي، كانت تخشى بادرة التخلي من إذكاء روح البغضاء ودفع البعض إلى ارتكاب مخاطر دون رويّة.

ظهر رابين على وجه العموم قليل التحمس تجاه وقف إطلاق النار الذي كما قال سينقذ ناصر ولن يسوّي شيئاً. وهذا لا يمنع اعتبار الاقتراح على جانب كبير من الأهمية، ليذاكر به أورشليم شخصياً، أقلته طائرة إلى إسرائيل، وأحضر بعد خمسة أيام جواب مجلس الوزراء الإسرائيلي: أن إسرائيل على استعداد لقبول وقف إطلاق نار رسمي، شريطة إيقاف كل نشاط عسكري حالاً، وأن يضاعف عدد الطائرات التي سترسل إليها، وعلى نيكسون أن يعطي ضمانات علنية، حول المحافظة على قوّة سلاح الجو الإسرائيلي وتوازن القوى في الشرق الأوسط. (وهذه المرة الأولى التي أجد نفسي معرضاً مباشرة للتفاوض بطريقة ما مع الإسرائيليين. ولقد استخدمت مزيجاً من الثبات في موقفي والتكتيك المتعب. لكن الإسرائيليين لا يتركون لمحادثهم سوى بقية أثر من التفكير والترابط العقلي التي يحتاج إليهما لدى توقيعه الوثيقة النهائية).

ومهما يكن الأمر فإننا قبل تسوية المشكلة مع إسرائيل، توصلنا إلى كشف النوايا السوفيتية تجاه مصر، وفي اليوم ذاته المصادف السابع عشر من شهر آذار، أبلغني رابين أن شحنة حقيقية من الأسلحة السوفيتية قد وصلت إلى مصر. تتضمن عتاداً مضاداً للطائرات وصواريخ أرض جو (S.A3) والحادث المقلق في أمر هذه الصواريخ أنها وصلت برفقة (١٥٠٠) جندي سوفيتي. وعلى أية حال فلم يكن المقصود من ذلك سوى المرحلة الأولى من عمل عسكري روسي متسع المدى، يدل على السير في منعطف مثير من قبل السياسة السوفيتية وفي الواقع، لم يسبق أبداً أن

عرّض الروس قواتهم الخاصة إلى خطر كهذا في سبيل نفع بلد غير شيوعي. وكان ما يثيرني حقاً. أن بمقدار ما يزيد الروس في تعزيزاتهم سيجبرون على حمايتها. ثم إحراز نتائج تبّرز موقفهم ووجودهم.

أن الوقائع لم تنقطع عن الإثبات لنا بوجوب الصمود المبكّر والصريح تجاه التعديات العسكرية السوفيتية، التي تجسّ النبض في البداية،بطريقة تسمح للقادة السوفيت بإيجاد الوسيلة لتبرير الانسحاب. وإذا انتظرنا مرور هذه المرحلة، فإن ارتباطهم يصبح قوياً، ولن يتراجعوا عنه إلاّ بعد إحداث أزمة خطيرة جداً.أن ما يدعو إلى القلق هو في صعوبة تنظيم ردّ فعل قوي ما دام التدخل لا يزال في أوله. وربما أن ردّ الفعل يكون غير مثمر في أول الأمر. أن التدخل في مراحله الأولى تحدّده ضرورة إنشاء منشآت عسكرية. ومن ثمّ عكس الرأي الأسطوري الذي يظهرهم وكأنهم مغامرون جريئون. فإن الأجهزة السرّية تميل إلى القيام بعمل ناجح. وحسبما أعلم، فإن كل أزمة تسبّب لنا في بدايتها خلافاً على معرفة ما يجب عمله أو ما يجب الابتعاد عنه، ثم نجد أنفسنا أمام نزاع أقوى. وسرعان ما يمتد النقاش من المكتب التنفيذي إلى الكونغرس، يزعم الذين يعارضون رد الفعل القوي أن الحكومة تقدم على مثله كثيراً، وإذا تصرفت الحكومة في حينه، وأبعدت الخطر، فإن انطباعهم لا يتغير في أن الأحداث تؤكد ما يدّعون. أن الشيء الوحيد الذي لا يرونه، هو في أن الخيار الحقيقي يقوم باختيار ردّ فعل يظهر عنيفاً جداً أو ترك الأحداث تتبع مجراها. وحالما تظهر أبعاد التهديد الحقيقية بكل وضوح ويجبر الجميع على التأكد من انها تمثل خطراً رهيباً، نكون قد تأخرنا عن القيام بما يجب ومهما يكن نوعه. وفي فترة ما، فإن السؤال عن معرفة دواعي التدخل السوفيتي، يكون بلا جدوى. وعلى السياسة الأمريكية مجابهة النتائج لا الأسباب.

أن أول رد فعل لنا كان في العشرين من شهر آذار، عندما استدعيت دوبرينين لأعرض عليه بعض الأمور فبيّنت له أولاً: أننا منحنا اهتماماً كبيراً للمذكرة السوفيتية المؤرخة في العاشر من شهر آذار. وأوعزنا على أثر ذلك إلى إسرائيل بوقف إطلاق النار، فقبلته مبدئياً، وفي الوقت الذي كنت أتهيأ فيه لتحديد تاريخ لوقف إطلاق النار، أخذت علماً بإرسال صواريخ "SA-3" وقوات سوفيتية لقد أرسل هؤلاء الجنود إلى مصر، على الرغم من تحذيري الحازم من مخاطر مثل هذا الإجراء. وقلت له أن هذه الخطوة تذكرنا بإرسال صواريخ إلى كوبا وما تبعها من أزمات، فلا يبقى لدينا مجال سوى وقف جميع مساعينا في سبيل التوصل إلى وقف إطلاق نار وإبلاغ إسرائيل بالنتيجة.

لم يأت دوبرينين على ذكر القضية، حتى السابع من شهر آذار، حيث سألني عما إذا كانت نظرتنا تختلف في أمر إرسال الأسلحة السوفيتية في حال تحديد تواجدها في الإسكندرية، والقاهرة وأسوان. ولم يأت على ذكر ما سوف يقومون به بشأن المجموعة العسكرية، فسألته إذا كان يقصد من وراء ذلك ومن خلال ما قدّم يمكن اعتباره اقتراحاً رسمياً، فأجاب أنه سيعلمني عن ذلك، الشيء الذي لم يفعله أبداً.

عندما توقّفت استعداداتنا المتعلقة بالتحدي المعلن، وجب علينا متابعة ما يلزم. كما يجب الرد السريع والعنيف على إرسال الروس قوات وصواريخ مطوّرة. بمضاعفتنا العون العسكري لإسرائيل، وليس فقط بإعطائها وعوداً بالتعويض عن بعض طائراتها، وهكذا نكون قد أظهرنا أننا قادرون على مجابهة كل تصعيد سوفيتي، وأن الضغوط العسكرية الروسية لن تحلّ قضايا الشرق الأوسط السياسية، الشرط الأولي والأساسي للحثّ على الاعتدال، ولتطبيق ما كان يشكل، حسب وجهة نظري إستراتيجية مثلى.

إن وجهات نظري لا تساوي شيئاً، لأني كنت في بدء استلام وظيفتي مستشاراً

للرئيس، ولا يزال الشرق الأوسط في مجال يحتفظ به للشؤون الخارجية، ومهما يكن الأمر، فأني بحكم وظيفتي في البيت الأبيض. لم أكن أقوم ببعض النفوذ، إلاّ عند اختلاف وجهات نظر الوزارات، وعندما لا يجزم الرئيس برأي ما ولا سيما في موضوع الشرق الأوسط. فلن يكون لآرائي حظّ وافر للأخذ بها. وفي مثل هذه الحال بالذات، فإن وجهة نظر نيكسون تكون أكثر قرباً من وجهات نظر الوزارات. فكان يخصّص الوقت الكثير لقضية كمبوديا ويرغب جاداً بعقد مؤتمر قمّة في موسكو. وكان يرجو أن تزول المشكلة من تلقاء ذاتها، وفي حالة معاكسة، فإنه هو وأنا سنكون قادرين على حلّها.

وفي الواقع، ففي هذا الظرف بالذات، ظهر التأثير السيء المتوقع، لقرار نيكسون السابق، الذي اتخذه في ظروف غير موافقة، حول تأجيل شحنات العتاد العسكري الذي طلبته إسرائيل، أن الشؤون الخارجية كانت قد أصدرت، بمناسبة ردّ الفعل المربك، إعلاناً عاماً له علاقة بالقرار الوزاري. وكانت قد أجرت استشارات مع معظم رؤساء مكاتب الكونغرس، حتى بعد الإعلان عن آخر مبادرة سوفيتية. وهم يرون، أن ردّ فعلنا سيظهر حسن نيّتنا للعرب، ويمنع الانفجار على الأقل، هذا الانفجار الذي تعتقد وزارتنا أنه لا محالة واقع،وربما يحدث حالما نقرر إرسال شحنات عتاد إضافية. وتركت الأمور تجري بعد تيقّني أن الرئيس قد أتخذ قراره، وكانت همّتي قد أُحبطت نتيجة رفض جاف كنت قد ابتعدت عنه سابقاً. وعلى مرور الأيام، أعتقد أني ارتكبت خطأ، لعدم قيامي بنشاط أكبر. وهكذا ففي الثالث والعشرين من شهر آذار (أي أقل من أسبوع بعد أن علمنا بإرسال القوات السوفيتية إلى مصر) أعلن روجرز: "حسب رأينا، أن قدرة إسرائيل الجوية العسكرية تكفي في الوقت الحاضر، وقد عزم الرئيس الآن على تأجيل تنفيذ قراره حول طلبات العتاد، التي تقدمت بها إسرائيل...".

وفي الحقيقة، كان التصريح متسلسلاً متضمناً ما يلي: "وإذا حدثت أعمال قادرة على قلب توازن القوى، أو أننا أخذنا بعين الاعتبار أن التقرير السياسي يسوّغها، فلن يتردّد الرئيس في إعادة النظر في القضية". لقد أتخذ هذا التأكيد الأخير على علاّته واعتبر بمثابة منّوم فقط. أن هذا الكلام المطمئن، لم يستطع إخفاء الواقع سوى أقل من أسبوع بعد وصول القوات السوفيتية إلى الشرق الأوسط، وثلاثة أيام بعد إلغاء المحادثات حول وقف إطلاق النار مع دوبرينين، كما أن الولايات المتحدة كانت قد رفضت علناً إرسال طائرات إضافية إلى إسرائيل،وكان هذا القرار يعني أن القوات والأسلحة السوفيتية الأكثر تطويراً،ليس لها تأثير على توازن القوى، فرضّية ربما كانت بمثابة دعوة لمضاعفتها.

سافر جوسيسكو الى الشرق الأوسط، ضمن خطة أعدّت سابقاً، الغاية منها التشاور مع سفرائنا في الخارج، لكن حقيقتها تقوم على استقصاء امكانيات السلام، فعززت هذه الرحلة الانطباع السائد بعدم مبالاة امريكا بالوجود العسكري السوفيتي. ان مهمة سيسكو التي جاءت بعد فترة قصيرة من التدخل السوفيتي، أكدت على أن وجود القوات الروسية في مصر، لا يشكل أبداً عائقاً، أمام المبادرات الأمريكية في سبيل الوصول الى سلام، وربما ان هذا الوجود ينشط مبادرات السلام. اما الاسرائيليون من جهتهم، فبعد أن زعزعتهم الضربات التي تلقوها من الإتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، أوقفوا غاراتهم وأخذوا يختارون أماكن خاصة لأعمالهم الانتقامية. وهكذا، فان المبادرة التي كانت قبل أسابيع قادرة على إنفراج الجو، أخذت تظهر الآن وكأنها اقتُلِعَت إثر الابتزاز العسكري الروسي، وبالاضافة الى أخطائنا، فلقد اختار نيكسون هذا الظرف بالذات، ليطالب باجتماع قمّة أمريكي - سوفيتي، مبعداً هكذا آخر تردّد يمكن أن يقوم به الروس. ونتمكن من القول ان شهر نيسان من عام ١٩٧٠، لم يكن شهراً رائعاً إبان ولاية نيكسون.

نتيجة لضعف موقفنا، وكما كنا ننتظر، اغتنم الروس هذا الظرف وأخذوا يقومون بتوسيع شؤونهم، فتضاعفت صواريخهم، وتزايد عدد جنودهم بصورة ملحوظة، حتى اقترب من عشرة آلاف، خلال الأسابيع الستّة التي تلت. وفي الرابع والعشرين من شهر نيسان، أعلمني رابين، أن طيّارين سوفيت، قاموا بمهمات دفاعية، فوق الأراضي المصرية، متيحة الفرصة لسلاح الجو المصري بمهاجمة مواقع إسرائيلية على طول قناة السويس وتكثيف هجماتها. وأصبحت المعارك الجوية بين طيارين روس وطيارين إسرائيليين شبه حقيقية.

وتحرّكت أخيراً حكومة الولايات المتحدة، فأعلن البيت الابيض عن إعادة نظر سريعة وشاملة للوضع، وكلفني نيكسون إبلاغ رابين في الثلاثين من شهر نيسان (في اليوم ذاته الذي أعلن فيه عن بدء العمليات في كمبوديا) أنه على الرغم من قراره السابق فسوف يقدّم لإسرائيل طائرات أخرى. ولما كان لا يزال قلقاً من ردّ فعل عربي، طلب إليّ عدم إعلان القرار، مما أدى إلى إضعافه. ولم يقم بأي تلميح بالنسبة لعدد الطائرات الذي كان يفكر فيه. عرّض نفسه طيلة أسابيع كاملة لمساومات وزارية إضافية، مع هؤلاء الذين كانوا يعارضون أي تعويض للطائرات. وإضافة إلى ذلك فإن ظهور طيارين سوفيت لم يعدّل تحليلنا الرسمي. وكانت المعلومات مجمعة على أن المهمة السوفيتية كانت مهمة دفاعية صرفة، غير أن أجهزة الاستخبارات لم تقبل الوقوف عند إعلان أو تصريح دون دليل. وجاء في شرط للتخلّص من الالتزام ما يلي: أن تغييراً في الوضع قادر على تعديل هذه المهمة خلال فترة قصيرة جداً من الوقت ودون سابق أشعار. وهنا تكمن القضية بكاملها.

وفي الثاني عشر من شهر أيار، وفي الوقت الذي كانت فيه هستيريا كمبوديا تصل إلى أوجها، رأيت أن الوضع مربك جداً، فأوجزت الموقف الحرج الذي كان يتخبط فيه نيكسون بما يأتي:

كان عبد الناصر يعتقد أنه قادر على إظهار نفسه صبوراً أكثر من الإسرائيليين، كما أن مائير كانت تظن ان إمكانية الصلح مع ناصر مستحيلة. وكانت مائير مستعدة أيضاً للمقاومة حتى يغيّر العرب موقفهم، وترغب إسرائيل في أن تظهر الولايات المتحدة نفسها أكثر صموداً أمام الروس وتعطيها عدداً من الطائرات أكبر. وسيسكو نفسه على أثر سفره إلى الشرق الأوسط،أخذ يوصي بإعادة النظر في النظريات الرئيسية المتعلقة بالاستراتيجية الأمريكية. وهو على حق لأن مجمل هذه النظريات كان خاطئاً:

- لقد انطلقنا من مبدأ أن المحادثات بين القوّتين الأعظمين، تستطيع إنقاذنا من المأزق الذي نحن فيه، وفي الحقيقة، انها لم تغير حتى موقف الأحزاب.
- لقد انطلقنا من مبدأ أن الروس في سبيل تخفيف وطأة الوضع، ووضع حد لتدّخلهم في مصر، كان يمكنهم الضغط على ناصر لقبول تسوية. لكن موسكو على العكس، عزّزت جهازها العسكري، وبهذا تكون قد شجّعت ناصر على الاستمرار بحرب الاستئناف ضد إسرائيل.
- لقد انطلقنا من مبدأ: أن إسرائيل ستقبل اقتراحاً أمريكياً لكن الإسرائيليين رفضوا وبكل بساطة مشاريعنا المختلفة، وأخذوا يطالبوننا بمساندتهم عسكرياً واقتصادياً، فيما إذا نجحت المفاوضات أولاً.
- لقد انطلقنا من مبدأ: أن الفلسطينيين، في حال الوصول إلى تسوية، سيعتبرون بصورة طبيعيّة لاجئين. ولقد أصبحوا بدلاً من ذلك قوّة شبه مستقلّة، يستخدمون حق الفيتو على سياسة الأردن وربّما على لبنان.

كنت اقترح في مذكرتي إعادة نظر كاملة لسياستنا في الشرق الأوسط، أن الظروف غير مؤاتية لتوحيد الطاقات التي تتطلبها المعركة. أن الصدمة الطبيعية

والنفسية من جرّاء الهجوم على كمبوديا، كانت كبيرة جداً، وما رأيت قط نيكسون اكثر إنهاكاً واكثر زعزعة، إلاّ في ظروف قضيّة واترغيت. فلم يكن على استعداد ليزيد ثقل حمله. ولما اهتممنا مجدّداً بالشرق الأوسط، كنّا نؤمل كثيراً بمبادرة صلح من قبل الشؤون الخارجية، فكانت النتيجة الفعلية للمبادرة، الموافقة على انتشار القوات السوفيتية.

❐ ❐ ❐

إن أزمة الشرق الأوسط ما بدأت إلاّ لتستمر وتكبر. وفي خطاب ألقاه ناصر في الأول من شهر آيّار، وجّه إلى نيكسون مذكرة علنية، كانت لهجتها الحاسمة تؤكد إنحراف موقفنا وممّا جاء فيها: يجب على الولايات المتحدة أن تأمر إسرائيل بالانسحاب من الأراضي العربية التي احتلّتها. وإذا لم نقم بذلك. فإن ناصر كان يطالبنا أيضاً الامتناع عن أية مساندة جديدة لإسرائيل، سواء كانت سياسية، أو عسكرية أو اقتصادية، طالما أن قواتها تحتل الأراضي العربية، وإلاّ سيجبر العرب على الاستنتاج أن الولايات المتحدة تريد أن تستمر إسرائيل في احتلال الأراضي العربية بطريقة تسمح لها بإملاء شروطها في سبيل الانسحاب منها. كما أن عبد الناصر كان قد صرّح لأوجين بلاك، المدير السابق للبنك العالمي، بأنه يفضّل أن تُقدّم الولايات المتحدة مبادرة عن طريق الاتحاد السوفيتي، لأنه لم تكن لديه الثقة الكافية للتعامل المباشر مع أمريكا. وهذا يظهر جيداً أن طيف الهيمنة السوفيتية في الشرق الأوسط. لم يكن ثمرة تخيّل جنوني.

وفي هذا الجو، فإن الوزارات قد عرقلت أيضاً قرار نيكسون حول عدم قطع تزويد إسرائيل، بتأجيل تنفيذه، متذرّعة بعدم تحديد الأرقام الإجمالية، وهكذا ماعت القضيّة وسط نقاش كبير حول السياسة الواجب اتباعها في الشرق الأوسط. وأوجز

النقاش رسمياً بتأجيل القضيّة، حتى يعرف اتجاهنا، هل علينا اتباع إستراتيجية سياسية، أو مجابهة الاتحاد السوفيتي. وحين تأجيل قضيّة مثل هذه وضمن هذه الحدود. يجب على المكلّفين باتخاذ قرارات سياسية خطيرة أن يأخذوا حذرهم. وفي الواقع، ما من إنسان سليم العقل إلاّ ويفضّل حلاً سياسياً، ولا يمكن أن يقبل بالمجابهة هدفاً سياسياً، لكن المشكلة التي واجهتنا عام ١٩٧٠ في الشرق الأوسط، كانت مختلفة جداً. فكان المطلوب معرفة إيجاد حل سياسي دون تعريف مسبق للاتحاد السوفيتي وحلفائه المتشددين، أن الضغوط العسكرية لا تأثير لها. وإذا رفضنا مبدئياً كل مجابهة، في أحوال كهذه، فتصبح عبارة الحل السلمي تلميحاً يؤدي إلى القول أننا نقبل بشروط الخصم. لأجل ذلك أعلنت وليس دون غيظ لفريق الدراسات العليا، في أواخر شهر أيار:" إن ما يثبط عزيمة السوفيت، هو خوفهم من مجابهتنا، فيجب علينا إذاً إيجاد الوسيلة لإفهامهم ذلك".

لكن الظروف لم تكن مؤاتية لتحليل من هذا النوع. أن المكتب التنفيذي بعد أن زعزعته المظاهرات العامة، وانهماكه الشديد بفيتنام، وأمله في بدء مفاوضات مع موسكو، كان نهباً لهواجسه وآماله بين حقيقة التحدي السوفيتي، وأضغاث أحلام لعدة أزمات واقعة في وقت واحد. أما مسلك روجرز في الثاني من شهر حزيران، باستدعائه دوبرينين ليقرأ له التصريح الغريب التالي، دون درايتي(وكما أعرف) دون دراية نيكسون، فإنه يوضح بجلاء غموض موقفنا:

"لقد دلّل الاتحاد السوفيتي، على ان النشاط العسكري السوفيتي في الجمهورية العربية المتحدة، سيبقى ضمن حدود الدفاع، واننا نصرّ على رغبتنا في عدم إدخال جنود سوفيت، سواء كان جوّاً أو على الأرض. في مواقع القتال في قناة السويس، وفيما إذا كان ذلك إجراءً دفاعياً. فإنه لن يخدم سوى السياسة المعلنة من قبل الجمهورية العربية المتحدة، التي ترتكز على خرق قرارات مجلس الأمن، حول وقف

إطلاق النار، أننا نعتقد أن تسيير الفرق العسكرية السوفيتية إلى المنطقة الخطرة من مواقع القتال في قناة السويس، بقطر ثلاثين كيلو متراً من القناة، سيؤدي إلى إثارة تصعيد، خطيرة نتائجه وغير متوقّعة، والتي لا تستطيع الولايات المتحدة البقاء تجاهه في حالة اللامبالاة".

ظهر هذا ولأول وهلة تحذيراً قوياً. وفي الحقيقة، لقد أعطى الروس شيكاً على بياض، لأنه كان يجيز وجود قوات سوفيتية في مصر، ما عدا الأراضي الملاصقة لقناة السويس. وفي الواقع أن ما كان يقوله التحذير للروس، أنه يعطيهم الحرية في تكديس ما يريدون من قوات في مصر، طالما أنهم لا يسيّرونها مباشرة إلى مواقع القتال، وهذا ما أقدموا عليه، وكانت النتيجة بعد شهرين، انهم كانوا على استعداد لجلب وحداتهم إلى مناطق القتال عند اقتضاء الحاجة. فأوجز معاوني: بيلّ هايلاند، الأزمة المتزايدة بما يلي:

"إذا نظرنا إلى الموقف الذي اتخذناه، وإذا لاحظنا كيف أن الإسرائيليين أوقفوا غاراتهم، فيجب أن يستنتج الروس أننا رضينا بتدخلهم المباشر. ولقد استطاعوا فعلاً، ترجمة تصريحنا الأخير (من روجرز إلى دوبرينين) انه تأكيد واقعي لقبولنا العرض السوفيتي بالتزام دفاعي وأن الشيء الوحيد الذي يقلقنا هو أن أقل تحرّك باتجاه القناة لن يعتبر دفاعياً.

ومن المسلّم به عموماً ان الروس لن يتقدموا طبعاً خشية تصادم مع الإسرائيليين. والوقائع تظهر بوضوح أنهم مستعدون تماماً إلى التقدّم خطوة فخطوة. بالإضافة إلى أن ذلك يظهر توسعاً منطقياً للاستراتيجية السوفيتية. أن الهدف السوفيتي في الشرق الأوسط هو تهديم النفوذ الغربي في أقصر مدة ممكنة، ان العدو الرئيسي ليس اسرائيل، بل الغرب، ويجب على الروس أن يتظاهروا أنهم

قادرون ليس فقط على حماية اتباعهم، بل أيضاً تكبيد الخصم خسائر بمقدار ما خسروا هم....

أن التحذير وحده غير كاف. والحق يقال ، أننا قمنا بتوجيه عدة تحذيرات رسميّة، أننا نوجه منها الكثير، ومع ذلك فإن القليل منها يصدّق، أن قطع الاتصالات لا يفيد شيئاً، وإرسال قوات عسكرية سابق لأوانه... وعلى الرغم من إرسالنا طائرات إلى إسرائيل، وقد أصبح الرمز الوحيد الذي يمكن أن يساعدنا في توسيع سياستنا، ومع ذلك يجب ألا نرضى به، لكنه أصبح المخرج الوحيد الممكن استخدامه في الشؤون العاجلة.

أننا غير مستعدين للأخذ بهذا الحل، إلا بعد أن ندلّل على أننا قادرين على إقناع إسرائيل بضرورة تقديم بعض التنازلات السياسية وإقناع الروس والعرب أن ما قاموا به مجدداً من أعمال، لن يثنينا عن عزمنا...

وبكل أسف فإن حكومة الولايات المتحدة. لم تكن بعد على استعداد للسير في هذا المضمار، وبقدر ما تسمح للظروف أن تمرّ، فبقدر ذلك نضطر لدفع الثمن غالياً في نهاية المطاف. وتعلّمنا ذلك ولو على مهل، نتيجة آلام مريرة وفي النهاية، فإن الأحداث ضغطت على يدنا. وأدّت إلى سلسلة مجابهات خلال فصل الخريف، توقف المدّ السوفيتي خلالها ثم أبعد.

❐ ❐ ❐

سعيت خلال الفترة اللاحقة ، وحتى العاشر من شهر حزيران، في سبيل إعادة النظر في سياستنا الاستراتيجية، إلا أن وزارة الشؤون الخارجية كانت قد سبقتني، محولة الموضع بأسره إلى قرار تعبوي. أما روجرز فقد أعدّ حواراً متشعباً متضمناً

مبادرة دبلوماسية أمريكية. تخصص لإستدراج الأحزاب للكف عن المناورات والبدء في المباحثات. والطلب من إسرائيل ومصر قبول وقف إطلاق النار لمدة تسعين يوماً والبدء بمفاوضات غير مباشرة بقيادة ممثل الأمم المتحدة غونار يارنغ. ولتشجيع إسرائيل على القبول، فأن الولايات المتحدة ستتقدم لقاء ذلك وبناء على طلباتها ثلاث طائرات فانتوم في شهري تموز وآب وأربع طائرات فانتوم وسكاي هوك شهرياً تخصص للتعويض عن خسائرها، واتفاقيات التسليم هذه، تبقى مع ذلك خاضعة لإعادة النظر في حال البدء بالمفاوضات وظهور ملامح تقدم فيها.

فوجئت بظهور هذه المبادرة، اذ أن اقتراح الشؤون الخارجية. كان بمثابة تشجيع لإسرائيل لإفشال المفاوضات، طالما أن بيع الطائرات لن يعاد النظر فيها، إلا في حالة ظهور ملامح تقدم في تلك المفاوضات. وبالنسبة للسيناريو المقترح. فإنه لم يتعرض قطعاً لتلك المشكلة الشائكة أكثر من غيرها. ألا وهي وجود القوات السوفيتية في مصر. فأطلعت نيكسون على قلقي. قبل عقد اجتماع مجلس الأمن القومي، وأكّدت في الواقع. على الاّ يغرب عن بالنا عند إجراء مفاوضات. تلك القرائن أي ما يقدم عليه السوفيت من أعمال مفاجئة.

وخلال اجتماع مجلس الأمن القومي في العاشر من شهر حزيران، أوجز هلمز مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية سوء حالة الوضع فقال:

يحشد الروس من اربع إلى خمس بطاريات صواريخ S.A.3 وعددٌ من أسراب الميغ M.I.C-21 يقودها طيارون روس، موزعة بين ثلاثة اسراب إلى خمسة. ولا مجال للشك في موضوع صحّة هذه الأرقام. وبالنسبة للجنود الروس، فإن عددهم يرتفع إلى عشرة آلاف رجل قدموا منذ شهر آذار. وتضاعفت قدرة المصريين على تدمير الطائرات الإسرائيلية. وازدياد الخسارة يؤدي إلى ضغوط ـ بسيكولوجية ضد

إسرائيل، وبعد أن فقد الإسرائيليون حق الشفقة. بقي لديهم حافز لا يقاوم في أن يصبحوا أسياد المنطقة الكائنة عن طول قناة السويس. وكل الأمور كانت تدور حول التساؤل التالي:

هل الروس عازمون على تقديم صواريخهم S.A.3 باتجاه القناة وإتباعها بطائراتهم؟

لم يطل الوقت بروجز حتى تقدّم بمشروع الشؤون الخارجية حول وقف إطلاق نار عاجل، يتبع بمحادثات بقيادة يانغ، وكأن العرض الذي تقدّم به هلمز لم يكن سوى تصديق للوجود السوفيتي في مصر. أي على غرار محادثته مع دوبرينين في الثاني من شهر حزيران.

أما نيكسون فقد انفرد بتصريحات فلسفية غامضة، تدلّل على أنه لم يكن على استعداد، لإجراء محادثات حول النظريات الأساسية. وكان يعود بذاكرته إلى مأزق قناة السويس لعام ١٩٥٦ الذي أرادت أن تجعل منه بريطانيا العظمى سبباً لإظهار قوّة عظمى عالمية. وبالنسبة له، إن عدم الاهتمام بقضية، اللاجئين العرب، يشكل أكبر أخطاء ما بعد الحرب، وفي الوقت الذي كنّا نعالج فيه مبادرة أحادية من قبل أمريكا، كان يتابع مراحل فكرة جماعيّة أمريكية ـ سوفيتية. معتماً دون ريب على ما سوف أجريه من محادثة مع دوبرينين في مساء اليوم نفسه، على متن اليخت الرئاسي سكوايا، لنناقش فكرته حول مؤتمر القمّة المزمع عقده. أن جميع هذه المناورات البيزنطية كانت إلى جانب نيكسون. لتعطيه ما كان يمكنه من عدم اتخاذ موقف رسمي في الوقت الحاضر. لم يكن يعتقد في حقيقة نجاح مشروع الشؤون الخارجية الدبلوماسي، وفي الوقت ذاته، لم تكن لديه الجرأة التي تدفعه إلى التقدم على روجرز. ولقد صارحني وجهاً لوجه. أن الطريق التي نسلكها في الشرق الأوسط ستقودنا إلى كارثة. فأجبته

إني أوافق على ذلك، وأردفت أن أسوأ الحلول يكون بطرح قبضة أسلحة هنا. وقبضة اقتراحات هناك.

لم أصل إلى شيء في حديثي مع دوبرينين على متن سكوايا في مساء العاشر من شهر حزيران. وطلب دوبرينين مجدداً، إجراء مفاوضات حول موضوع الشرق الأوسط بطريق التسلسل. وحرصاً مني على تلبية رغبة نيكسون الملحّة في عقد اجتماع قمة، تحاشيت طرح هذا الموضوع، لعدم إمكانية نجاحه إذا لم يطلب الاتحاد السوفيتي إلى أصدقائه العرب بتقديم تضحيات تجاه الوضع الحالي ونجبر بدورنا إسرائيل على قبولها. أضف إلى ذلك فإن وجود قوات سوفيتية في الشرق الأوسط. كان يقلق الولايات المتحدة كثيراً. فكان حيوياً بالنسبة لنا، أن نعرف إذا كان الاتحاد السوفيتي مستعداً لسحب قواته في إطار نتيجة مفاوضات. فأجاب دوبرينين أنه سيطلب تعليمات حول ذلك.

ان تبادلي الحديث مع دوبرينين، عزّز اعتقادي على أننا نسير على غير هدى وفي الواقع، أن توازن القوى الذي لا يمكن الاستغناء عنه، للتمكن من إدارة مفاوضات مثمرة، غير موجود كلياً. ووجّهت إلى نيكسون في السادس عشر من شهر حزيران، تحليلاً جديداً للوضع. ولفتّ انتباهه إلى تلك المبادرة التي تؤكد على "إيقاف المناورة، وبدء المناقشة"

كانت ترى وزارة الشؤون الخارجية، أن نجبر الإسرائيليين على العودة إلى حدود ما قبل الحرب، مع رفض إعطائهم طائرات جديدة بعد الصيف. ونطالبهم أيضاً بالتخلّي عن عنصري أمنهم في الوقت ذاته، وتعريفنا على أراضيهم التي يعتبرونها حاجزاً مع غيرهم، وما هي إمكانيات حصولهم على طائرات إضافية. وبقدر اقتراب صلح مع حدود غير آمنة، بقدر ذلك ينقص مخزون طائراتهم. ومن جهة أخرى، إذا

اعتقد الإسرائيليون بالحصول على أكبر عدد ممكن من الطائرات في حال فشل المفاوضات، فلن يكون هناك قوة تدفعها إلى التقدّم.

سيرى ناصر ان عملنا كان غير ناجح، وله الحق أن يشكّك في قدرتنا على حمل إسرائيل على الانسحاب، على أساس ست طائرات، وعدد ممكن التحقيق بطائرات إضافية بعد ذلك.

وبالنسبة للروس، تجاه إتّساع نفوذهم المستمر، فقد يعتبرون اقتراح الشؤون الخارجية بمثابة مؤشّر ضعف. وسيكون لصياغته نتائج عسكرية ضئيلة جداً. وسوف يتردّدون في الاقتناع أننا على استعداد لمجابهة تصعيدهم في المنطقة.

كنت اعتبر قبل كل شيء، ان مبادرة ذات مدى واسع. تكون عديمة النفع. إذ لم توجد حلاً مناسباً في اقل تقدير، لمشكلة وجود القوات السوفيتية. وهذا كان يبدو لي أنه لبّ القضية. فقررت البدء بطريقة جديدة لمعالجة القضية: البيان بوضوح لناصر أن الولايات المتحدة وحدها قادرة على حمل الإسرائيليين على الانسحاب، وأن أي مسعى آخر هو ضرب من الوهم. والعمل على تأكيد ذلك. ولا نستطيع في الوقت ذاته التأكيد على الإسرائيليين بالانسحاب، دون توطيد أمنهم، بأن نرسل لهم عتاداً عسكرياً أمريكياً، ودون ان تبدي مصر استعدادها لإجراء مفاوضات سلام ضمن شروط مبيّنة وستتضمن هذه التسوية إنسحاب القوات السوفيتية.

ورأيت أن اتباع مثل هذه الطريقة في معالجة الأمور، سيحث إسرائيل على الدخول إلى المفاوضات، ضمن ضمانات أمن محدّدة، وإجراء صلح ضمن تعهدات، وانسحاب القوات الروسيّة، أضف إلى ذلك، أنها ستتيح لمصر ظروفاً جدّ مؤاتية، لعودة امتلاك سيناء. وبالنسبة للروس، عليهم مجابهة خطر تصعيد تقوم به دولة إسرائيل إثر تسلّح جيّد، والخروج من تسوية مقبولة. ولفتُ انتباه نيكسون إذ قلت له:

أن قبول مشروعي يعني بالنسبة له أضغاث أحلام إدارية. إذ أنه يأتي بعد قضيّة كمبوديا بقليل، وسوف يحمله على إلغاء ما أصدره مستشاروه من تعليمات، وفرض سياسة مختلفة تماماً على الإدارة التي تقاومها مبدئياً لكنها تصبح مكلّفة بتطبيقها.

وربّما لأسباب قاهرة، عزم نيكسون على عدم التعرّض إلى القضية في الوقت الحاضر. قبل أن تحصل توصياتي على موافقته. وفي الثامن عشر من شهر حزيران، اعتمد الرئيس اقتراح الشؤون الخارجية، لإعتقاده أنه سيرفض بأية طريقة كانت، وراغباً في الوصول إلى طريق مسدود، أفضل من الوقوع في مجابهة جديدة مع إدارته. وبعد مضي ثلاثة أشهر على رفض وقف إطلاق النار، بسبب إدخال الروس ألف جندي إلى الشرق الأوسط، قبلنا به نحن على الرغم أنه خلال تلك المدة، وصلت التعزيزات السوفيتية إلى عشرة آلاف رجل. وكان على هذا الإجراء البسيط أن يتبعنا خطوة فخطوة في الشرق الأوسط، إلى أن تقدّم الروس كثيراً في شهر أيلول، بإعطائنا فرصة جديدة لإعادة توازن القوى البسيكولوجي والمادي.

اهتمت الشؤون الخارجية كثيراً بقرار نيكسون. واقترح وقف إطلاق النار، الذي أتبع بمحادثات بقيادة يارنغ، نقل سرّاً إلى إسرائيل وإلى مصر، والاتحاد السوفيتي وأيضاً إلى الأردن، ثم أصبح علنيا في الخامس والعشرين من شهر حزيران.

ووصلنا أول جواب رفض من إسرائيل، بسبب قلقها الشديد من تأخير تسليم العتاد العسكري المطلوب، ومن ضعف ردّ الفعل الأمريكي تجاه تدفق القوات السوفيتية. ويعترض الإسرائيليون حالياً على بعض بنود مشروعنا ولا سيما غموض وعد تسليم الطائرات ولم تستطيع الرسالة التي بعثها نيكسون في العشرين من شهر حزيران من تهدئة مخاوف غولدا مائير، ولأن مضمونها لم يكن واضحاً، في اعتبار

تاريخ بدء المفاوضات منطقياً لتسليم الطائرات، ونتمكن من القول ان الولايات المتحدة تستطيع تأجيل تسليم الطائرات، الذي التزمت به، في حال تقديرها أن هذا يساعد على إنجاح المفاوضات. لم يكن الإسرائيليون مخطئين عندما اعتبروا أن هذا التحفّظ يخفض من قيمة التزامنا. ونيكسون الذي أوصلته سنوات الحملات الانتخابية إلى اعتبار الوعود وسيلة لمعالجة المشاكل القادمة، وجد حلاً نيكسونياً تماماً: فصارحني سرّاً أن باستطاعتي الذهاب للقاء رابين وإبلاغه اعتبار تلك الرسالة خدعة. أننا سنسلّم الطائرات، ما لم يحدث تغيير هام جداً.

ومن ثم جاء دور موسكو، ففي الثالث والعشرين من شهر حزيران، كان تصرّف دوبرينين هادئاً جداً بالنسبة لانفتاحنا على الشرق الأوسط. فسألته عمّا إذا كان قد تلقّى جواباً من موسكو حول موضع طلبي المتضمن انسحاب القوات السوفيتية. فأجابني أنني طرحت عليه في حينه عدة أسئلة، لا يستطيع تذكرها جميعها. ومن الممكن أن قصده تجنّب الإجابة على هذا السؤال،طالما أن البلاغ الرسمي الصادر عن الشؤون الخارجية، لم يأت على ذكر القوات الروسيّة. واظهر استغراباً لأنه كان يزعم ان يكون ذلك محاولة أحادية الجانب من قبل الولايات المتحدة، حول تغيير مجرى دبلوماسيّتها في الشرق الأوسط. وأكد أن المفاوضات هي قضيتنا الحالية، معتقداً بوجوب إعادة الاتصالات بموسكو في الحال، ولم تكن لديه فكرة أبداً بالتنازلات الممكن الحصول عليها في هذا الظرف بالذات. وفي التاسع والعشرين من شهر حزيران، صرّح غروميكو لسفيرنا في موسكو (بيم) أن السوفيت، يهيئون أنفسهم لدراسة اقتراحنا، الذي حسب وجهة نظرهم، لا يقدم شيئاً جديداً وتلّوثه جميع محاولاتنا السابقة.

حيال ذلك عزمنا أن نُفهم العالم أجمع، ان تصرّفات الرئيس لم تكن صادرة عن ضعف، وأن وجود القوات السوفيتية كان خطراً علينا جميعنا. وفي السادس

والعشرين من شهر حزيران، وخلال مؤتمر صحفي رسمي اقيم في سان كليمانت، قمت بالإحتجاج على الوجود العسكري الروسي في مصر. وأردفت قائلاً: لا يهمنا كثيراً معرفة نيّة الاتحاد السوفيتي في إرسال قوات إلى الشرق الأوسط في هذه المرحلة بالذات، وفرضاً أنها أرسلت لمساندة ناصر، فإن وجودها يشكل تهديداً إستراتيجياً يدعو إلى القلق، ونسعى جاهدين إلى الوصول إلى حل، بطريقة تكون معها الأنظمة المعتدلة معزّزة، وليس الأنظمة المتشددة. ونحاول التخلّص من الوجود العسكري السوفيتي، ليس فقط من المستشارين بل من الطيّارين ومجموعة الوحدات المقاتلة، قبل تعميق تركيزهم.

لقد قوبلت بصيحات الاستنكار، ولم تكن لديهم عبارات أكثر لياقة، لوصف تأثير تصريحي. واتهمتني الشؤون الخارجية والرؤوس الكبيرة أنني أحاول عرقلة مبادرة السلام، وتوجيه تهديدات صَلِفة، لا تسمح لنا وسائلنا بتنفيذها. وجاء اللائمون من كل جانب، ما عدا الجانب السوفيتي، ولا يقوم هؤلاء بالتحريض إلا إذا وجدوا أنفسهم في مأمن، وعلى الرغم من انهم سمعوني أنادي بهذا الآراء من ثلاثة أشهر. وفي الثلاثين من شهر حزيران، واثناء مؤتمر صحفي رسمي أقيم لبيان واقع العمليات في كمبوديا، ضغط عليّ الحاضرون بأسئلة عّدة بشأن تهديدي المزعوم، بطرد "الروس" فتملكت رباطة جاشي وقلت: أن الوجود العسكري السوفيتي، يخلق وضعاً جديداً خطيراً، وربما أجبرت على استعمال عبارة أقل وضوحاً (من عبارة طرد) ثم أكدت أني لا أزال على تأكيدي أن وجود القوات المقاتلة السوفيتية، غير مقبول مع السلام، أضف إلى ذلك أنه لن يمضي وقت طويل على الوجود السوفيتي في الشرق الأوسط، حتى تتواجد قوات عربية من أصحاب البلاد، وتعترض على إبدال استعمار بآخر وظهر صدق كلامي هذا بعد ثلاث سنوات.

وفي الأول من شهر تموز، كان نيكسون قد أفاق من صدمة كمبوديا، وعلى الرغم من عدم استعداده للتورّط في القضية الإسرائيلية ـ العربية، فمع ذلك لم يكن بحاجة للفت انتباهه للخطر الجغرافي السياسي، المتمثل بوجود القوات السوفيتية في مصر. ولما كان روجرز في سفر، فقد أقام نيكسون لقاء متلفزاً ليعلن موافقته على القسم الأكبر من تحليلي. وأبدى مخاوفه من أن يرى القوتين الأعظمين تتورّطان في مجابهة بشأن موضوع الشرق الأوسط. ثم أعلن أن الولايات المتحدة لن تتسامح أبداً بقلب توازن القوى الموجود حالياً. وإذا فقد التوازن، ذات يوم، لتصبح إسرائيل أضعف من جيرانها، فهذا يعني الحرب. وبناء على ما تقدم، فإن مصلحة الولايات المتحدة تقتضي بمساندة هذا التوازن. وإذا سلمنا أن الاتحاد السوفيتي، يثبّت خطاه بمساندة الجمهورية العربية المتحدة، يجب على الولايات المتحدة تقويم أعمال الاتحاد السوفيتي. وإذا فقد التوازن السياسي. سنعمل ما يجب للمحافظة على قوة إسرائيل تجاه جيرانها. لم يرغب روجرز في معرفة ما يجري. واحتج بعنف من أوروبا، متهماً إياهم انهم يدأبون لإفشال مبادرته في سبيل السلام. ولقد تمادى أكثر وتوصّل إلى توبيخ سيسكو لمساندته الرئيس خلال اللقاء المتلفز في الثاني عشر من شهر تموز.

والروس من جانبهم، لا تأثير لهذه المواضيع عليهم، لأن حساباتهم ترتكز على تقويم مبدئي لمصالحهم وليس على جو الحالة الحاضرة. ولما كانت موسكو تتهمنا في الوقت الحاضر بتعقيد الأمور، فقد بدا دوبرينين مرحاً جداً، خلال محادثتين أجريتا معه في السابع من شهر تموز، بل أعطى صورة واضحة لدبلوماسيّ على استعداد للتعاون وسيقدّم قريباً تصريح عمل حول قضايا الشرق الأوسط، ولم ترد فيه كلمة عن تحذيرنا، ومع ذلك فقد أكّد أنه جاء في الوقت المناسب. وفي الواقع، وعلى الرغم من التحذير الذي سلّمه روجرز إلى دوبرينين في الثاني من شهر حزيران، فإن أجهزة

الصواريخ السوفيتية، بعد أن تأكدت من حماية القاهرة والإسكندرية وأسوان، أخذت تنهب الأرض متجهة نحو قناة السويس، وفي الثاني والعشرين من شهر تموز، قدّمت لنيكسون موجزاً عن معلومات توصلنا إليها، أن الروس والمصريين آخذون بإقامة مواقع دفاعية جديدة، محاذية تقريباً لقناة السويس، على قرابة عشرين أو ثلاثين ميلاً بحرياً من القناة. ويتضمن هذا الخط الدفاعي ثلاث قواعد لصواريخ SA-3، وإحدى عشرة قاعدة لصواريخ SA-2، وبكل تأكيد أن هذا العدد آخذ في الإزدياد أنها قريبة جداً من قناة السويس لحماية القواعد التي تطلق منها المدفعية المصرية على الشاطئ الآخر. وأقل ما يمكن تقديره، أن مصر ستجد نفسها الآن أقوى تسليحاً وتتمكن من القيام بحرب استنزاف. وإذا سارت الأمور كما هو مقدر لها، فإن هذا التجهيز آخذ في التنمية والتقدم، وسيسمح لمصر بشن هجوم على سيناء.

ومجمل القول، أنها المرة الأولى التي تتعرف فيها حكومة نيكسون على التقنية السوفيتية التي تشكل وجوداً عسكرياً بغية إضفاء نفوذ جغرافي سياسي. وضمن ما يعتبره فلكاً سوفيتياً، فإن الكرملين يستخدم قواته العسكرية بكثرة، وبسرعة ودون رحمة، لكنه عند قيامه بعمليات خارج الخط الفاصل بين الشرق والغرب، فانه يتصرف بحكمة لامتناهية. وعلى العموم فإن تدخله الأول جزئي ويمكن اعتباره لأسباب دفاعية قابلة للمناقشة. وسهل نسبياً في هذه المرحلة إجبار الروس على الانسحاب، مؤكدين معارضتهم في الوقت ذاته، وإذا لم تعترضهم أقل مقاومة فهم ميالون حينذاك لتسريع التصعيد. والذي يعيد التصديق أن مخططاً يتجدّد كل مرة، ويكون في نفس القالب الذي صيغ فيه سابقه، لا يُثير بدءاً من مصر إلى أنغولا مروراً بإثيوبيا، سوى الشك نفسه يرافقه التردّد ذاته، البعيدين عن كل تعديل، واللذين لا يصلحان إلا لضمان التدخل الروسي بأعداد ضخمة.

ولم يكن الموقف أحسن حالاً في الشرق الأوسط في شهر تموز من عام ١٩٧٠

فإن ما كانت بدايته إيجاد حماية ضد الغارات الإسرائيلية العميقة، أصبح الآن قادراً على تغيير المعادلة الاستراتيجية بكاملها. وأخذ يزعم الآن بعض أخصائي التحليل، أن مصلحة إسرائيل تقوم بإمتلاك أجهزة تسمح لها بالصمود أمام غزو وحدات مخترقة قناة السويس، وهذا أفضل من استهلاك سلاحها الجوي، محاولة دون جدوى تدمير الأجهزة المضادة للطيران التي كانت تنتشر في الجانب الآخر من القناة. لم تأخذ هذه الدلائل في حسبانها أن إستراتيجية دفاعية تفرض حرب استنزاف، هي نظرية لا تحتمل إطلاقاً، في بلد يحتله عدو يفوقه عدداً بمعدل ثلاثين لقاء واحد. كانت إسرائيل قد وصلت درجة قصوى من قطع الأمل، وربما كانت تفكر بشنّ حرب وقائية، قبل أن يتعثّر ميزان القوى وبصورة نهائية. ومع أمل ناصر بنجاح أكيد كان ينوي الإقدام على عمل معين. وكانت الولايات المتحدة غير قادرة على كشف طبيعة الخطر، من حيث تعزيز الوضع العسكري السوفيتي في مصر وتحسين التوازن السياسي في المنطقة. لقد صرفنا جهودنا في بدء محادثات ترتكز على أسس غير مقبولة، وكافأنا كل فريق يقبل بمفاوضات سلام أن ينال ما هو بحاجته ومضطر له أكثر منّا. فوعدنا الإسرائيليين بطائرات، ولمّحنا لعبد الناصر أننا سنساعده في استعادة أراضيه. وحيث أننا لم نقدّم سوى القليل لكل معسكر، فإن ذلك أدّى إلى ازدياد التوتّر.

وفي الأول من شهر تموز، وجهت مائير رسالة إلى الرئيس، تؤكد فيها أن بطاريات S.A2, S.A3 ستركّز قريباً لحماية قناة السويس وأردفت قائلة: أن قيام هذه الأحداث، يؤكد لنا إن توازن القوى لم يخدش. وأضافت أنه لم يبق أمام إسرائيل سوى قصف هذه المنشآت. ومع ذلك، إذا هاجم الإسرائيليون مجموعة بطاريات الصواريخ التي يشغل القسم الكبير منها جنود روس، فمن الممكن جداً أن يدافع عنها الروس بطائراتهم الخاصة. ولا نستطيع تجاهل خطر مجابهة مباشرة بين إسرائيل والروس.

فسلمت لوزارات قليلة التحمس لهذا الموضوع، دراسة إجراءات مستعجلة، وكانت هذه الوزارات ما تزال تدمدم بوجوب دعم إسرائيل، لتظهر أكثر تساهلاً في المفاوضات. وفي الثاني والعشرين من شهر تموز، وفي الوقت الذي كانت فيه المجابهة محتومة قبل ناصر وبصورة مفاجئة اقتراحنا حول وقف إطلاق النار والمفاوضات.

❐ ❐ ❐

لم نستطع الوقوف على السبب الحقيقي لقبول عبد الناصر أقتراحنا لإيقاف إطلاق النار والدخول في سلسلة طويلة من المفاوضات. وهناك تقدير أنه خشي هجوماً وقائياً من قبل إسرائيل، أو أنه قد أطلع ومستشاريه من السوفيت علىالتعليقات الصحفية التي يصدرها نيكسون وينشرها البيت الأبيض وأدرك حجم الخطر المتزايد في حال تدخل أمريكي. والشيء الممكن قبوله أكثر،هو أنه في ضوء الأحداث الأخيرة، عزم هو والروس على استخدام عرض وقف إطلاق النار، كما قاموا بتلك المبادرة الفاشلة في شهر آذار، أعني بذلك غطاء يسمح لهم بتقديم بطاريات صواريخهم ضمن أخطار أقل.

كادت تطير الحكومة فرحاً، وكان روجرز ينسب لنفسه مبدأ افتتاح مفاوضات، الأمر الذي كان يعارضه سيسكو على إنفراد، مؤكداً أنه هو صاحب الفكرة. وكان نيكسون على ثقة أن هذا التغيير المفاجئ، كان نتيجة تصريحه الخطير الذي أصدره في الأول من شهر تموز، أما بالنسبة لي، فإذا لم يكن التواضع ملكي، لم اتردّد في أن انسب قسماً من هذا النجاح إلى تلك اللهجة النشيطة في مؤتمراتي الصحفية يومي عشرين وسته وعشرين من شهر حزيران، وإلى المحادثات التي أجريتها مع دوبرينين، ودون ريب كان جميعنا على حق. ومهما يكن من أمر، ظهر فرحنا سابقاً لأوانه.

وشجّع دوبرينين غبطتنا الحقيقية عن تروّ في الثالث والعشرين من شهر تموز، فاستخدم حفل الاستقبال الذي أقيم على شرف رئيس جمهورية فنلندا أورهو كيكّونين والذي كان يحضره بصفة عميد منتدب للسلك السياسي، لكي يعطيني لمحة، عما كان عازماً على تسليمه لوزارة الشؤون الخارجية، بعد ظهر اليوم نفسه، وقد جاء فيه: أن ردّ الفعل الروسي تجاه وقف إطلاق النار المؤقت كان إيجابياً، والاتحاد السوفيتي يقرّ كذلك إعادة مهمّة يارنغ. إلا أن موسكو كانت ترى أن يتلقى يارنغ تعليمات واقعية، تتضمن المقصود من قرارات منظمة الأمم المتحدة، التي يكون مسؤولاً عن تطبيقها. وألح دوبرينين على تعجيل المحادثات الثنائية والرباعية، للتوصل إلى وضع حلول للمشاكل المعلقة. كما انه أحضر لروجرز مذكرة خاصة، إظهاراً منه أن السوفيت غير راغبين في تعقيد الإجراءات. وعند تسليمه رسمياً المذكرة إلى الشؤون الخارجية، قال روجرز، انه نسي إبلاغي أن الروس يقبلون دمج الوضع الراهن العسكري في وقف إطلاق النار. وفي مقابل ذلك، سلمني مذكرة، لم يعلم روجرز عن أمرها شيئاً، يجيبني فيها أخيراً على أسئلتي التي وجهتها إليه في العاشر والثالث والعشرين من شهر حزيران، حول تواجد القوات الروسية الدائم في الشرق الأوسط. وبموجب هذه المذكرة، فإن السوفيت، بعد تسوية سياسة عامة، مستعدون لمعالجة موضوع انسحاب قواتهم، شريطة مقابلته بالتزام متبادل. ولما بينت له وجود قوات لنا في الشرق الأوسط، أجاب دوبرينين أولاً، أن هذا أفضل لنا، وليس التبادل سوى شيء أساسي ننطلق منه لتقويم الأمور، ولم يفتأ بعد قليل أن عدّل موقفه مصرحاً: أن على الولايات المتحدة سحب قواتها من إيران.

لو تفهمنا الوضع جيداً،كنّا أخذنا في الحسبان، اننا لم نجتز سوى العقبة الأولى، وكانت المفاوضات التي نظمت معرضة للفشل، على الرغم من أن مصر لا تزال تطالب بالعودة إلى حدود عام ١٩٦٧. وتلح إسرائيل كثيراً على تصحيح أساسي

للحدود. وكانت مصر تنتظر من أمريكا أن تضغط على إسرائيل، وهذه الأخيرة، بموجب كلمة السر، وما دامت التسوية لم تبحث، كانت نيتها في إطلاق يدها.

ونيكسون لم يقرّر حتى الآن أي موقف يتخذ، بعد أن أصبح من الطبيعي أن تكون المحادثات قد وصلت إلى مأزق. لم يكن في المذكرة السوفيتية ما يطمئن، لأنها لم تتعرض لوقف إطلاق النار وتحدّده، ولا للوضع الراهن، وكانت تكرّر التفسير السوفيتي للأسس التي كانت تستند إليها مهّمة يارنغ، ذاك التفسير المطابق لبرنامج المتشددين العرب حول كل النقاط الهامة. وأن واقع استعدادهم لمناقشة سحب قواتهم، قد ألغي عند استعمالهم كلمة "طبعاً". وبالرأي المعاكس المبهم، الذي طالبونا بموجبه سحب قواتنا من إيران، ومن الممكن أن يكون الروس في طريقهم إلى تجديد مناورتهم في شهر آذار الماضي، وأن عرضهم لوقف إطلاق النار، ليس سوى تغطية، بل حماية لتحريك بطاريات الصواريخ السوفيتية في اتجاه قناة السويس.

في مثل هذه الفترة، لا يمكن معالجة هذه النظريات، إذ أن انتباه الحكومة كان منهمكاً بكامله، برد الفعل الإسرائيلي تجاه انفتاحنا، وقد كان ذلك ظاهراً بوضوح، ضاماً إليه موقفاً أنهكته شدّة التشدّق، التي لا تنطوي على شيء جديد. أن ألفي عام من الآلام حفرا في نفس اليهودي تأثراً عميقاً لمأساة وشيكة الوقوع، والموقف الإسرائيلي كشعب قليل العدد لا يعد أكثر من مليونين ونصف من السكان، يحيط به ما يقرب من مائة مليون من الأعداء ذوي قدرة، في قلب منطقة، رأت امبراطوريات ودولاً وجدت ثم اندثرت، فإن هذا يذكر كل إسرائيلي دون انقطاع أن الوجود التاريخي لأمّة أو شعب ما هو سوى ظاهرة زائلة. أن حظ إسرائيل في البقاء محدود جداً، يدعو قادتها إلى التشكك بالتحركات الكبيرة، والمبادرات الدبلوماسية المحطّمة. أن البقاء بالنسبة لهم يرتكز على حسابات دقيقة، يعتبرها المراقبون الأجانب عناداً ومماحكة، الأمر الذي ينطبق عليهم هم أحياناً، وعند قبول القادة الإسرائيليين اقتراح

سلام، يأخذون بمعارضته بعناد، وغايتهم في ذلك أن يظهروا عدم سذاجتهم في المفاوضات، وسرعتهم في المناورة، وتثبيط طلبات تنازلات إضافية من قبل إسرائيل.ويترافق قبولهم، بطلبات تأكيد جديدة وعديدة، وتفسيرات سرية تخصص لتحديد حرية عمل حليف متلون يبعد ثمانية آلاف كيلو متر، لكنّه يزوّدهم بالأسلحة، ويسند اقتصادهم، ويحمي سياستهم الخارجية،ويبدو عليه الألم من فكرة قسرية سقيمة بطلب اقتراحات سلام جديدة في كل مناسبة.

ويتعزز هذا الاتجاه بتنظيم سياسي، تكون معه الحكومات ائتلافية مضطربه مشكلة من عدة أحزاب وفئات مستقلة. وأن تنظيماً مثل هذا لا يساعد علىاتخاذ قرارات سريعة والسير ضمن سياسة خارجية مرنة. وكل رئيس يقدم تنازلاً ما، يهاجمه زملاؤه ويرفعون أمره إلى الكنيست، هذا إذا لم يُعتبر خائناً أو على الأقل مغفّلاً من قبل هؤلاء الحمقى الأمريكيين. وعندما يجتمع مجلس الوزراء الإسرائيلي، يسهل عليه كثيراً ان يناقش طويلاً ولا ينتهي إلى اتخاذ أي قرار يكون فيه أساس للسلام، ويغير في وضعه عند الإعداد لسياسة ما طويلة الأمد. أن إسرائيل يوافقها في أغلب الأحيان، تحميل حليفها مسؤولية الخيارات الصعبة، قبل أن تتخذ هي القرار حول ذلك. وتتمكن إسرائيل من استخدام الضغط الأمريكي ذريعة لتصرفاتها، هذا على الرغم من أن كثيراً من الزعماء الإسرائيليين يؤيدون ضرورته على أية حال.

فليس من الطبيعي إذاً، أن تتجاوب إسرائيل وبحماس مع اقتراح وقف إطلاق النار ومبدأ المفاوضات. ولذا لزمنا وقت غير قصير من تبادل المذكرات الدبلوماسية والتدخلات الرئاسية، حتى حصلنا وباحتقار على جواب مقبول. وفي الثالث والعشرين من شهر تموز، وجّه نيكسون إلى مائير مذكرة أخرى، يطالب بها الإسرائيليين اغتنام فرصة قبول العرب مبادرة الولايات المتحدة. وفي الوقت نفسه، كان يطمئنها أنه لن يجبر إسرائيل، على قبول الرأي الذي يفسّر به العرب

القرار(٢٤٢) الصادر عن مجلس الأمن، وأنه أي نيكسون دائب على إعداد توجيهات لمهمة يارنغ. ولحسن الحظ فإن هذه المذكرة لم تعمم إلاّ مؤخراً، وعندما قدمت لإسرائيل مبادرة وقف إطلاق النار، أظهروا للعرب انطباعاً معاكساً تماماً.

ورد الفعل لدى إسرائيل كان المطالبة بعون عسكري متزايد، ولا سيما بأسلحة تسمح لها بإزالة الصواريخ أرض ـ جو السوفيتية. فوعدنا بدراسة هذه المطالب بكل دقة.فطالبتنا إسرائيل مجدداً ، أن نبيّن حقيقة موقفنا حول قضية انسحاب القوات واللاجئين. ولما لم يكن للحكومة موقف محدّد، والذين يملكون حلولاً لا يستطيعون الإفصاح عنها بوضوح، خوفاً من عدم قبولها من الجانب الإسرائيلي، لذلك فإن أجوبتنا لم تكن صريحة أبداً. وفي الثلاثين من شهر تموز، وخلال مؤتمر صحفي، أعلن نيكسون بشجاعة، أن إسرائيل تتمكن من المشاركة في المفاوضات بكل ثقة، واشتراكها هذا لن يعرّضها وموقفها للخطر في هذه الفترة وفي الحادي والثلاثين من شهر تموز، أبلغنا أن مجلس الوزراء الإسرائيلي، قد قرّر مبدئياً الإجابة بالإيجاب، والجواب الرسمي في طريقه إلينا. وعند إطلاع الرئيس على هذا النبأ،، أعلن من سان كليمانت أنه مسرور لهذا القرار.

ليس الخوف الذي تبديه إسرائيل خالياً من الأساس. فمن الطبيعي أن يغتنم الروس والمصريون الفترة التي تسبق وقف إطلاق النار، لمضاعفة عدد الصواريخ المركزة على طول قناة السويس، مخترقين بذلك روح وقف العدوان وهذه الصواريخ وضعت لحماية ليس فقط مرابض المدفعية المصرية على الشاطىء الغربي للقناة، بل لإطلاق النار على الأهداف في الشاطىء الآخر، وأيضاً تأمين تفريغ البضائع المصرية وشحناتها المختلفة. أضف إلى ذلك فإن هذه الصواريخ ستكون مع وقف إطلاق النار، في مأمن من الهجوم عليها.

وفي الخامس من شهر آب، فاجأنا رابين برسم لوحة قاتمة عن الوضع،فإن أربعة عشر موقعاً للصواريخ قدّمت فأصبحت على بعد خمسين كيلو متراً من قناة السويس وأن ثلاثة مواقع صواريخ مموهة، قُرّبت من القناة، حتى أصبحت على مسافة تتراوح بين عشرة وعشرين كيلو متراً وفي الخامس والعشرين والسابع والعشرين والثلاثين من شهر تموز، اشتركت طائرات يقودها طيارون روس، في قتال مع طائرات إسرائيلية. وفي الثلاثين من شهر تموز، أسقط سلاح الجو الإسرائيلي أربع طائرات يقودها روس. وأكد رابين مرّة أخرى أن إسرائيل كانت حازمة جداً لعدم التساهل في تقدّم الصواريخ الروسية. وخلال محادثة أجريتها معه مساء الخامس من شهر آب عاد فأكد كثيراً على هذه الناحية، حتى أنه أوجد عندي انطباعاً أن الإسرائيليين في طريقهم إلى مهاجمة مواقع الصواريخ S.A3 القريبة من قناة السويس، قبل وقف إطلاق النار، فأطلعت نيكسون على ذلك، وفي آخر لحظة، لم يوافق مجلس الوزراء الإسرائيلي على هذا الهجوم، ولم أعلم هل كان لرابين يد في ذلك، أو أن هناك تغييراً مفاجئاً حدث في إسرائيل. ومهما يكن الأمر ففي السادس من شهر آب، أبلغتنا إسرائيل رسمياً أنها تقبل بوقف إطلاق النار. فأسرع روجرز وسيسكو بتوقيعه، قبل أن يتمكن اي كان من تغيير رأيه، وفي طريقهما غيّرا بعض نقاط من تعليمات مهمة يارنغ، مما أثار حفيظة إسرائيل.

وفي السابع من شهر آب وضع اتفاق وقف إطلاق النار والذي أوجدته ظروف غامضة حيّز التنفيذ. وكان يتضمن اتفاقاً لوقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل، أخذاً بعين الاعتبار كذلك وضعاً راهناً عسكرياً في منطقة تقدّر بخمسين كيلو متراً عرضاً على كل شاطىء من قناة السويس، ولسوء الحظ، فإن نص الاتفاق المتعلق بالعمليات الممنوعة بتعهد إيقاف الأعمال العداونية، صيغ بعبارات غامضة، ولذلك

فإن اتفاقية خاصة بين إسرائيل والولايات المتحدة، شارحة الخطوط العريضة لوجهات نظرنا المشتركة، حول الإجراءات التي حسب رأينا، ستشكل خرقاً للاتفاق الإسرائيلي المصري، أن هذه الاتفاقية ستضيق الفجوة.

وقام القائم بالأعمال في القاهرة بإبلاغ المصريين أفكاراً عن الاتفاقية الإسرائيلية الأمريكية، وأن يضيف إليها أن هذه الأفكار، لا تفيد إلاّ في إيضاح ما يمكن اعتباره خرقاً للوضع الراهن. ودون الوقوف على ذكر أن هذه الاتفاقية بين إسرائيل والولايات المتحدة، ربما أحدثت توثقاً أكثر بين مصر والروس، فإن عملية خطيرة من تغيير زمني، أضيفت إلى ذلك، وفي الواقع، فقد قبل المصريون رسمياً اقتراحنا في الساعات الأولى من اليوم السابع لشهر آب، ودخل وقف إطلاق النار حيز التنفيذ في اليوم الثامن من شهر آب، في الساعة الواحدة صباحاً، حسب توقيت القاهرة. ولكن على الرغم من المساومة التي التجأت إليها إسرائيل حول شروطها، فإن ممثلي الشؤون الخارجية لم يوصلوا إلى القاهرة اللائحة التأشيرية الممكن اعتبار ما فيها خرقاً لوقف إطلاق النار، إلاّ في التاسع من شهر آب في الساعة الرابعة عشرة والنصف، أي بتأخير ست وثلاثين ساعة. كان لهذا التغيير الزمني أهمية كبرى لأنه كان يجب على الإسرائيليين أن يزعموا على أثر ذلك إن مصر خرقت اتفاق الوضع الراهن في الثامن والتاسع من شهر آب، أعني قبل أن تعرف مصر، ما كنا نقصد بالوضع الراهن.

ولقد سلّمت الوثائق والإيضاحات إلى السوفيت، لكن موسكو لم تكن طرفاً رسمياً، لا في وقف إطلاق النار، ولا في اتفاق الوضع الراهن، وفيما كانت اتهامات الخرق تتزايد، لم يكن أمام الروس سوى التأكيد أكثر فأكثر أن لا علاقة لهم بهذا الاتفاق، على الرغم من موافقتهم العلنية في الثالث والعشرين من تموز.

وانطلاقاً من هذا الأساس المتزعزع،وعلى الرغم من أن الفدائيين الفلسطينيين المتمركزين في الأردن كانوا قد أقسموا بعدم احترام وقف إطلاق النار، فإن أول يوم من تطبيقه كان هادئاً على طول قناة السويس. أقدم الروس على وصف وقف إطلاق النار هذا وبصورة علنية بأنه خطوة هامة. وأخذت حكومة الولايات المتحدة تستعد لمحادثات يارنغ، ودراسة طلبات العون العسكري الإسرائيلي. وكاد سيسكو يعلن لفريق الدراسات العليا في مجلس الأمن القومي، في الثاني عشر من شهر آب، معتبراً أن مستقبل محادثات يارنغ التي بدأ بصياغتها، سوف تؤدي إلى اتفاق كامل يتضمن الاستعدادات النهائية لموضوع وضع الحدود. ونقاشنا الداخلي حول طلبات العون الإسرائيلي، انقلب سريعاً إلى مجادلات، غامضة حول نوع الاستراتيجية الإسرائيلية الواجب علينا مساندتها.

إن المعلومات التي وصلتنا، حول التحركات السوفيتية، كانت مبهمة، كشفت عنها الدعاية الإسرائيلية بنوع يستحق سماعه. أن الأمر مدهش في حدّ ذاته، إذ عندما طُبقّ وقف الأعمال العداونية في منتصف الليل، لم يفسح مجالاً لتحقيق أي شيء لأن طائرات الاستطلاع، لم تستطيع رؤية الشيء الكثير. ثم بعد فترة تقارب ثلاثة أسابيع على قبول مصر الاقتراح الأمريكي، وبدء وقف إطلاق النار، والوضع الراهن، فإن أجهزة المضادات الجوية السوفيتية المصرية، كانت قد تقدّمت كثيراً، ولربّما كان حقيقياً، أن كل ما كان في طور البناء، عند تنفيذ وقف إطلاق النار، أكمل بعد ذلك. ولكن كان على الروس والمصريين أن يبدوا دهشتهم من السرعة غير الطبيعية التي تمكنت بها إداراتنا من الوصول إلى وقف إطلاق النار.

وفي الثالث عشر من شهر آب، كانت صحافتنا ترجع صدى الاتهامات الإسرائيلية حول خرق السوفيت والمصريين وقف إطلاق النار. وفي إسرائيل سحب مناحيم بيغن حزبه من معارضة الائتلاف للأزمة، وهو الذي كان يؤكد عليها منذ عام

١٩٦٧، وهاجم غولدا مائير بعنف، لأنها قبلت بالدرجة الأولى مشروع الولايات المتحدة. وهذا لم يمنع وزارة الشؤون الخارجية من اتخاذ وضع، لم يؤدّ بالولايات المتحدة إلى نتيجة. بالنسبة للاتهامات الإسرائيلية؟. وتلقّى سفيرنا في إسرائيل، والوورث بربور، تعليمات يطالب بموجبها، الحكومة الإسرائيلية، الانقطاع عن مناقشة القضية بصورة علنيّة، ويرجوها في الوقت نفسه، سرعة تسمية ممثليها، الذين ترغب في إرسالهم إلى المحادثات التي يدبرها يارنغ.

وفي الخامس عشر من شهر آب، حضر السفير رابين لمقابلتي، وسلّمني مذكرة من غولدا مائير، تؤكد لي وتؤيد بالبرهان،أن أربعة عشر صاروخاً من طراز S.A-2 مُدعّمة بصواريخ من طراز S.A-3، أحضرت إلى منطقة وقف إطلاق النار، على أثر خسارة إسرائيل خمس طائرات فانتوم. ويمكننا القول، بعد أن كان ردّنا ضعيفاً على تقديم الصواريخ الأولى، الذي جرى تقريباً، في وقت تنفيذ وقف الأعمال العداونية، حيث أن الروس والمصريين كانوا قد نشروا بعض أسلحتهم. وهاهم هذه المرة يخترقون إتفاق وقف إطلاق النار. وطلبت مائير، أن أعرض الأمر شخصياً على الرئيس لكن وزارة الشؤون الخارجية رأت أن هذه الخطوة في غير محلّها، لأنها كانت تتطلّع إلى سرعة بدء المفاوضات بقيادة يارنغ. ولكي أتمكن من تعويض الواقع، أتحت فرصة لرابين، لإطلاع نيكسون على المعلومات الإسرائيلية، فانتهز رابين هذه المناسبة، ليبدي ألمه أمام الرئيس لعدم اهتمام أجهزة استخباراتنا في قبول التأكيدات الإسرائيلية،وصرّح قائلاً: أن هذا الخرق قد جرى حقاً. وكانت النتيجة من هذه المحادثة، أن أقر نيكسون تسليم إسرائيل وبسرعة صواريخ "Shrike" المخصّصة لاستخدامها ضد أجهزة S.A-3 وهو بعد ذلك مستعد لاستقبال مائير في أيلول، عند حضورها إلى الولايات المتحدة، بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس الأمم المتحدة.

عندما تذمّر رابين من أن أجهزة مخابرات الولايات المتحدة ، تبدي قليلاً من الحماس في سبيل التأكد من خرق وقف إطلاق النار، وكان رابين على حق، وقد بيّنت ذلك للرئيس كما يأتي:

"بالنسبة لإسرائيل فإنها تطلب البقاء، فلا يتعلق الأمر بإحداث متاعب... أن الوضع الذي يوجد به الإسرائيليون، سيؤثر حتماً على الطريقة التي يفسّرون بها الأحداث الغامضة، وبالنسبة لنا فإنه من مصلحتنا الانتقاص من عرض براهين هذه المخالفات، إذ أنه بقدر التأكد من صحتّها، تسوء عاقبتها، وتجبرنا على القيام بأعمال أخرى، ونخاطر في تبرير مبادرتنا، دون الوصول إلى نتيجة، فنعود إلى الوعود التي قطعناها لإسرائيل مع خشية إقدامها على عمليات عسكرية. وهذا يوضح أننا نسعى لإعطاء فكرة معاكسة،لاجتناب إمكانية استنتاج بأن العرب يخرقون فعلاً وقف إطلاق النار، شريطة عدم إمكانية دحض البراهين".

ومهما تكن الأسباب، فمن المحتمل أن يكون رد فعلنا الأولي المتردّد، قد شجّع ناصر على تسريع تقدّم صواريخه. كنا نشاهد في الحقيقة إعادة طبع أحداث الربيع: تقدم سوفيتي، بسيط ظاهرياً، متبوع بتوقف، مخصّص لتعزيز مواقفهم، ويسمح لهم بتحليل ردود فعلنا، يلحقه تعزيز ضخم وسريع لأسلحة حربية. وخلال النصف الأول من شهر آب. وفيما يتعلّق بمعرفة إذا كانت الأنشطة، موضوع النزاع، هل كان حدوثها فعلاً قبل أو بعد نفاذ وقف إطلاق النار، إني أوافق على أن البراهين حول ذلك غامضة. إلا أنه ليس هناك ريب، أن كل مرّة تحدث حركة، فهذا يعني احتقاراً للتحذير الذي وجّهته وزارة الشؤون الخارجية إلى دوبرينين، حول موضوع الصواريخ السوفيتية. في حدود قطرٍ ثلاثين كيلو متراً من قناة السويس، ولا يجوز بالتالي اعتبارها دفاعية.

وفي التاسع من شهر آب، وصلتنا تأكيدات جديدة، تثبت أقوال إسرائيل، وقوع

خرق أكيد لوقف إطلاق النار. وهذا شجع الشؤون الخارجية على اتخاذ موقف رسمي، لكن رد فعلها العام، يشكل تصريح من قبل ملحق الوزارة الصحفي، معتدل جداً وكأنه يدعو إلى معالجة الوضع. فأخذنا نفتّش على حجج حتى لا تقوم برود فعل:

"لقد توصلنا إلى الاستنتاج أن صواريخ أرض جو، قد ازدادت في الميدان، وأدخلت المنطقة الكائنة إلى الغرب من قناة السويس، ونشرت فيها تقريباً في نفس الوقت الذي كان يدخل فيه وقف إطلاق النار حيّز التنفيذ. أن بعض هذه الأعمال تحملنا على التفكير أنها أكملت طريقها بعد البدء بوقف إطلاق النار، على الرغم من أن البراهين التي نملكها ليست كافية... ونحن على أهبة تدقيق (المعلومات الإضافية التي وصلتنا من إسرائيل)... وإننا لا نتوقع تصريحات جديدة وعامّة بهذا الشأن...".

في الوقت الذي عُمّم فيه هذا الإعلان، فإن بعض هذه البراهين التي كانت في حوزتنا، قد أبلغت إلى مصر، وعلى الرغم من أن هذه البراهين لم تكن كافية، بيّنا للمصريين أننا لن نوجّه لهم تهماً علنية، وذكّرناهم بالأمور التي تشكل حسب رأينا خرقاً لوقف إطلاق النار، وحذرناهم أنه في حال استمرار أنشطتهم، فإن هذه تعرّض محادثات السلام للخطر. وأبلغ الروس كذلك بهذه المساعي في القاهرة. وأخيراً تحاملنا على أنفسنا كثيراً، لنؤكد على الإسرائيليين التصرّف باعتدال وعدم التسبّب بصعوبات أخرى بتعميمهم ما يجري من أحداث. كما جرت مساع أخرى أمريكية في الثاني والعشرين من شهر آب في القاهرة، عندما قدّمنا براهين يتعذّر ردها حول مخالفات اقترفت من قبلهم.

إذا تقدّمت الولايات المتحدة باحتجاج فيجب أن يكون عنيفاً، مع تحديد أيّة معالجة للوضع تريد، ولهجة نائحة لا تتلاءم أبداً في الحثّ على جواب مَرضٍ، لأنها

تعني أن الاحتجاج لم يكن إلاّ شكلياً،أضف إلى ذلك فإن هذا الاحتجاج يحرم البلد المذنب من ذريعة في سياسته الداخلية تهيء له تغيير موقفه، وهذه نقطة لها أهميتها، عندما يكون الموضوع شائكاً سياسياً وعندما يصبح عسيراً أخذ رأي مناقض في سياسة متّبعة حتى الآن. وفي الرابع والعشرين من شهر آب، اليوم الذي أعلن فيه يارنغ افتتاح محادثات الصلح في الأمم المتحدة، بين المندوبين الرئيسيين لإسرائيل ومصر والأردن، في هذا اليوم نفسه رفضت مصر بكل صراحة إتهاماتنا لها بخرق وقف إطلاق النار وأكدت في الوقت ذاته أن الأعمال التي قامت بها، كانت مطابقة تماماً لتأويلها اتفاق وقف إطلاق النار وأنها لن تستقدم صواريخ إضافية إلى منطقة قناة السويس، لكنّها تحتفظ بحق العودة إلى تأمينها، من خارج إلى داخل المنطقة وبالعكس، ولن تنشىء مواقع جديدة، وتحتفظ بحقّ تعهّد وترميم ما كان منها موجوداً. وأخيراً أن إسرائيل هي التي تخرق وقف إطلاق النار، وإن شحنات الأسلحة لإسرائيل تغاير الضمانات التي قدّمها روجرز، وتخالف اتفاق وقف إطلاق النار.

وفي هذا الظرف الحرج، لفتّ انتباه الرئيس أننا نسير باتجاه فقدان كل رصيدنا لدى إسرائيل، لا سيما في الوصول إلى وقف إطلاق النار، قبل البداية الفعلية للمحادثات، هذه المحادثات التي ستتكشّف عن اختلافات عميقة، أن السوفيت وناصر سيظنّون على الأرجح أننا مستعدّون لقبول مخالفات وقف إطلاق النار، على الرغم من اننا نبّهناهم إلى ذلك مباشرة، وعلى الرغم من الوعود التي قطعناها لإسرائيل، وسيكون لهذا نتائج خطيرة على انفتاحنا على مجريات الشرق الأوسط، وعلى آفاقنا المستقبلية ذات الأمد الطويل في كل المنطقة عموماً، وعلى العلاقات الأمريكية ـ السوفيتية. فإن اتخاذ موقف أكثر ثباتاً حيوي جداً لنا، بالنسبة لمخالفات وقف إطلاق النار، ولوضع الروس تجاه مسؤولياتهم.

أن الطرق الدبلوماسيّة الغربية، التي استخدمت خلال الثمانية عشر شهراً الماضية والمناقشة الشخصيّة بيني وبين روجرز. أدّت تقريباً إلى عدم إمكانية إجراء بحث تقليدي لكل هذه المشاكل مجتمعة، وطالما أن البيت الأبيض أخذ على عاتقه تصريف الأمور، علينا إبداء ارتياحنا ولو جرّ علينا بعض القلق، من حيث اتجاه نيكسون إلى الاستعانة بمعاونيه، أكثر من العودة إلى أعضاء حكومته. ولكن عندما لا يكون البيت الأبيض مسؤولاً عن سير تلك المفاوضات الدقيقة، فإن ضعف التنظيم يبدو واضحاً للجميع. وبكل بساطة فإن وزارة الشؤون الخارجية، لم تكن على إطلاع تام، بما لدى الرئيس من أفكار، لتتمكن بدورها من تطبيق سياستها، وإعطاء توجيهاتها التي تناسب الحال، وتفسير تعليماتها حسب تقديراتها، فكل هذا زاد الحالة خطورة. وكان مستحيلاً أيضاً إصدار تعليمات رئاسية، دون الوثوق من أن مرتكزاتها مفهومة ومطّبقة عملياً.

أن الشرّق الأوسط كان المجال الوحيد، الذي رأى روجرز يتحكم بزمام مسؤوليته ومفوض بتصريف أموره.وكان يبدو أن وقف إطلاق النار يشكّل نصراً كبيراً، وأول أنجاز غير منكر لحكومة نيكسون في السياسة الخارجية. ومن خلال هذه الظروف، يتبيّن أن روجرز واجه على مضض توقّع الفشل.وكان يتأثر من كل تلميح بتدخل البيت الأبيض. ثم اتخذ اتجاهاً لاعتبار جهودي محاولة لحرمانه من شعار فخاره . ووقع سيسكو بين نارين، وحاول بكل تجرّد التوفيق بين وجهات نظر متعارضة، بل غير قابلة للمصالحة، وقرّر البقاء على نبله في تعامله مع وزيره وكذلك مع رئيسه، وكان يجهد نفسه في إزالة الحواجز، لكنّه لم يكن على مستوى تحديد الاتجاه الواجب اتباعه.

أن الرئيس وحده يستطيع ذلك، لكنه بعد أن عزم عدم اللجوء إلى مجلس الأمن القومي، حول *شؤون الشرق الأوسط،* لم يكن يستعمل *الطريقة التي* تسمح له بتطبيق

سياسة حكومية مترابطة. وعند وقوع خلاف مستشاريه، كان يعمد إلى تهدئة الأمور. وفي المجالات ذات العلاقة بالبيت الأبيض، لا يكون لها نتائج سيئة، لأني كنت أسعى إلى حدّ ما في تسوية الأمور، إلا أن الأحداث تجبر الرئيس على اتخاذ قرار، ولكن في الظروف التي تتأثر بقضايا الشرق الأوسط كان يخشى أن تستبق الأحداث هذه الإجراءات، كما أن إقامة نيكسون السنوية في سان كليمانت في شهر آب، تستدعي تأجيل تطبيق القرارات الرئاسية، التي كان على الإدارة تنفيذها، وهذا كان يزيد الأمور خطورة. أضف إلى ذلك فإن نيكسون كان يكمل معالجة الموضوع، وفي حال حصول مؤتمر قمّة مع السوفيت. يستطيع حينذاك موازنة الأحداث شخصياً.

وفي الخامس والعشرين من شهر آب، جرى اجتماع في سان كليمانت، حضرة كل من الرئيس، وروجرز، وسيسكو، وأنا، وانتهى الاجتماع دون التوصّل إلى نتيجة ما، سوى المشاكسة، ولقد اتهمني روجرز بإثارة الأزمات بتشدّدي في الإبلاغ عن خرق وقف اطلاق النار. ولسوء الحظ، لا يمكن اجتناب الازمات بإنكار ظروف مسبّباتها، وتحميل مسؤولية حدوثها على من ينقل اخبارها السيئة، وفي آخر شهر آب أخذ واقع الأحداث بالظهور، وأصبحنا في خطر خسارة مجال المناورة، وبكل تأكيد، إذا اعتقدنا أننا قادرون على توسيع مداه بممارسة بسيطة ومستمرة.

وفي الثامن والعشرين من شهر آب، إنحاز الروس علناً، إلى جانب ناصر، متخذين ذريعة اتصالاً أمريكياً يعود تاريخه إلى الثامن من شهر آب، نبلغهم فيه، أننا سنقوم بالإشراف على تطبيق وقف إطلاق النار، عن طريق طائرات الاستطلاع u-2. (وحسب رأيي أن إجراء اتصال مثل هذا، عمل خاطئ، لأنه يشجّع الروس على اتخاذ موقف ضمن حدود ضرورية للتأكد من احترام الاتفاقيات. وليس من الحكمة، في العمل الدبلوماسي، فتح نزاع، عندما لا تكون هناك قدرة على تحمل النتائج المتوقعة.)

أن الجواب الذي سلم لسيسكو في واشنطن. ولبيم في موسكو قد اتخذ منّا أخصاماً بالنسبة لطائرات الاستطلاع u-2، التي وصفت وكأنها عامل تعقيد. لقد كانت في نظر الروس مغايرة لشروط وقف إطلاق النار، وخرقاً للسيادة المصرية، وتجرّ وراءها تعقيدات خطيرة، أبلغت الرئيس بذلك،وأوضحت له أن السوفيت كانوا طبعاً على حق في إبداء قلقهم من هذا الأمر، إذ أن التأكد من سريان مفعول وقف إطلاق النار، يجب أن يقوم به طيّارون حياديون. وأصبح من السهل طبعاً على الروس وناصر، رفض اتهامات مخالفات وقف إطلاق النار، التي لا تستند إلا على شهادات إسرائيلية....

في التاسع والعشرين من شهر آب، توصل مدير مكتب الاستعلامات والأبحاث في وزارة الشؤون الخارجية، راي كلاين، إلى استنتاج، أن بدل موقع واحد من صواريخ S.A-2 في داخل منطقة الثلاثين كيلو متراً، الذي احتججنا عليه في الأسبوع الماضي، كان يوجد منها الآن سبعة مواقع أو ثمانية، بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة مواقع من صواريخ S.A-3، ولقد أنشيء معظم هذه المواقع بعد نفاذ وقف إطلاق النار. وفي الحادي والثلاثين من شهر آب، أثبتت وكالة المخابرات الأمريكية هذه الاستنتاجات.

في ضوء الأحداث، وخلال اجتماع عقده الرئيس مع مستشاريه الرئيسيين (روجرز، مووربر ليرد، هلمز وأنا) أمر الرئيس بإرسال احتجاج شديد اللهجة إلى القاهرة وكذلك إلى موسكو، ومطالبة إسرائيل بإرسال مندوبها إلى المحادثات التي يديرها يارنغ في نيويورك، وفي الثالث من شهر أيلول، أيّدت وزارة الخارجية بصورة علنيّة مخالفات وقف إطلاق النار، وهذه المرة أيضاً بعبارات أقل غموضاً ولكن بكثير من الاعتدال، ودلّت على أننا لن نسوي المشكلة إلاّ بالطرق الدبلوماسيّة، ومع هذا فقد تابعت وزارة الشؤون الخارجية إلحاحها على بدء المحادثات المهمة المكلف بها يارنغ.

ثابرت مصر والاتحاد السوفيتي على رفض احتجاجاتنا. وكذّبت القاهرة اتهاماتنا في الرابع من شهر أيلول، واغتنمت الفرصة للاعتراض على ما كنّا نقوم به من إرسال عتاد عسكري إلى إسرائيل، الأمر الذي كانت تعتبره مغايراً لضمانات الاعتدال المزعومة. وفي السادس من شهر أيلول، صرّح نائب وزير الشؤون الخارجية، سيرغي فينوغرادوف، لبيم، أن الاتحاد السوفيتي لم يعقد أي اتفاق وقف إطلاق نار مع الولايات المتحدة، وهو بالنتيجة غير مسؤول عن أية مخالفة. وكان فينوغرادوف يدوّن الترتيب الغريب، الذي كانت الولايات المتحدة تشرف بموجبه على وقف إطلاق النار، دون طلب من قبل مصر، مخترقة الأجواء المصرّية، بتحليق طائراتها فوق سيناء. وفي الوقت ذاته تقريباً، كان القائم بالأعمال السوفيتي، يسلّم في واشنطن مذكّرة تنّم عن قلق الروس حول قرب وقوع هجوم إسرائيلي وقائي ضد مواقع الصواريخ. وطالبنّا السوفيت أن تتصرف بطريقة تحول دون حدوث ذلك، ومن جانبنا، لم يكن لدينا إثبات لهذه الخطوة، والتي كما رآها بإنها جزء من جهود سوفيتية مستمرة لإبقاءها في حالة دفاع. فطلبت إلى سيسكو نقل هذا التحذير إلى الإسرائيليين دون تعليق، على ألاّ يُعلم الروس بذلك، ولم يكن هناك ما يدعو أن نتيح لهم فرصة لتسجيل انتصاراتهم في القاهرة. جاعلين من أنفسهم حماة للعرب.

❒ ❒ ❒

على أثر هذا النزاع، وخرق وقف إطلاق النار، فليس هناك ما يدعو إلى الدهشة، أن تعلن إسرائيل في السادس من شهر أيلول، عن عدم قدرتها على متابعة المفاوضات التي يديرها يارنغ. وفي اليوم ذاته اختطف فدائيون فلسطينيون ثلاث طائرات. والذي بدأ قبل شهر وكأنه خطوة إلى السلام، تحوّل بسرعة إلى مجابهة حقيقية. فأخذت بوجهة نظر الأخصائي الرئيسي بالشؤون السوفيتية الذي يعمل مع فريق عملي، هول

سوننفيلدت، والذي أكد في تقرير سلمني اياه في شهر أيلول:"... أن ما يُقلقني كثيراً في الوضع الحالي في الشرق الأوسط، هو أننا أوصلنا الروس وربما دون إرادتنا، إلى الاعتقاد أننا غير مبالين بإحترام وقف إطلاق النار وعدمه وهذا ما حدا بنا إلى الإسهام بإثارة أزمة قوة خطيرة جداً...".

أن طبيعة البدء بوقف إطلاق النار، والظرف الذي اختير له، والطريقة التي توصل إليه بها، وشروط اتفاقياته الغامضة، وقلّة الدقة في تطبيقه، وتردّدنا في معرفة المخالفات موضوع إيجاده، والتصريحات والأعمال التي أقدمنا عليها بعد حدوث المخالفات، كل هذا حدا بالروس إلى الاستنتاج ان كل ما يهّمنا حقّاً، هو الوصول إلى وقف إطلاق نار، في الفترة التي تسبق الانتخابات، والتي نفضّل خلالها عدم مواجهة حرب مفتوحة وما تفرضه من خيارات محزنة. ولربّما أن الروس قد دهشوا حقاً من عدم مبالاتنا التي أظهرناها وتصرّفاتنا على أثر الأحداث التي جرت في أرض المعركة (إذ كنا نعطيهم بين وقت وآخر حرية العمل ليقوموا بمخالفات وقف إطلاق النار، سامحين لهم بإشاعة نفوذهم) ونأمل الاّ يكونوا في خطأ من اعتقادهم أننا نعمل هذا بغية الظهور.

وفي الوقت ذاته، أعلمني اختصاصي الشرق الأوسط، هول سوندرز، أن مخالفات وقف إطلاق النار، من قبل الروس والمصريين، قد ازدادت فعلاً، بعد الاحتجاج الذي تقدّمنا به في أوائل شهر أيلول. وسوندرز هذا محلّل ذو فكر ثاقب ومستشار حيادي. ولم تلاحظ عليه مناهضته للعرب. إلاّ انه كتب لي مبيّناً انه بنتيجة الصور التي التقطتها طائرة الاستطلاع U-2، وبعد المساعي التي قمنا بها في مطلع شهر أيلول لدى موسكو والقاهرة:

"... يبدو طبيعياً، ان المصريين يكملون أنشاء مواقع لصواريخ S.A.M مخترقين

بذلك الوضع الراهن العسكري، في اتفاقيات وقف إطلاق النار. ولم يتخذوا أي إجراء حول استدراك وإعادة الوضع لأربعة وعشرين موقعاً للصواريخ، التي اعترضنا على إقامتها... ولقد لاحظنا ازدياداً لا يقل عن ٥٠٪ في عدد مواقع صواريخ S.A.M منذ العاشر من شهر آب... والنشاط لم يفتر... وأصبح لدينا انطباع أن تعزيز الدفاع بصواريخ موضوعة على طول قناة السويس، يفوق أهميّة لدى المصريين على مفاوضات السلام، على الرغم من أن الإسرائيليين قد أعلنوا أنهم غير مستعدين لمتابعة المفاوضات، إذا لم يصلح الوضع الذي كان سائداً قبل وقف إطلاق النار".

حتى في هذه المرحلة، فان بعض المحلّلين ممّن يصعب انتقاص قدرهم، كانوا راغبين في حدود قدراتهم ، انقاذ افتتاح مفاوضات السلام، محوّرين الأمر والوقائع حسب تخيلّهم. فإن اختصاصياً في الشؤون الخارجية، من ذوي الخيال الخصب، ابتكر نظرية غريبة، وبموجبها لم يخترق ناصر وقف إطلاق النار، في كل الأحداث التي جرت. وأردف قائلاً اننا لانستطيع ان نستثني ان الصواريخ كانت ربما قد خبئت، في منطقة الخمسين كيلو متراً، قبل البدء بتنفيذ وقف اطلاق النار، ولم يكشف عنها النقاب إلاّ بعد نفاذ وقف إطلاق النار، فيتضح من هذا أنها لم تدخل إلى المنطقة المحددة، ولم يخرق الوضع الراهن. هذا التفكير المخادع لم يتطرق إلى تفسير، لماذا خبأ المصريون صواريخهم عندما كان انتشارها مسموحاً به، ولم يكشفوا عنها إلاّ في حال تحريمها. أضف إلى ذلك، فقد كان مستحيلاً التحديد علىالصور الفوتوغرافية الجويّة، لسقائف ومستودعات كبيرة جداً، لإيواء كمية ضخمة من العتاد. وبالنسبة لمواراتها في الرمل فهذا يحتاج لحفر تقدّر بارتفاع الاهرامات.

لقد توضّح الأمر ولم يبق فيه لبس. ففي منتصف شهر أيلول، كان نصيب مبادارتنا التعثّر. وبالإضافة للمساومة، فقد سلّمنا لإسرائيل الأسلحة التي كانت

تطالب بها، والتي كانت محجوزة منذ شهر آذار، وزدنا في حجم ارسالياتها، ليس إلاّ للإبقاء على الإسرائيليين في جوّ المفاوضات، وتفادي هجوم وقائي من قبلهم ضد تقديم الصواريخ المصرية، التي لم نستطيع إبقائها. ولم يعترف الإسرائيليون بفضلنا أبداً، كما أن استياء العرب منّا أخذ بالازدياد كثيراً. لقد ثبّت الروس أقدامهم في مصر، وأصبح وجودهم العسكري يهدّد إسرائيل، وبالتواطؤ مع ناصر يوجّه ضد كل حكومة عربية معتدلة. ولم نسيطر على الأحداث، بل كنا نتابعها بصورة سلبية، وكانت تتجاوزنا غالباً. كان الروس يجهلون ثبات موقفنا، وهنا يكمن الخطر الكبير.

لم تتمكن الحكومة تقريباً، من تحاشي مواجهة بعض الأزمات في شهر أيلول. إذ قد حدثت فجأة حرب أهلية في الأردن، ومحاولة سوفيتية بإنشاء قاعدة غواصات في كوبا، ووصول اللندي إلى السلطة في تشيلي. وتسبّب هذا بمرارة اكثر مما كنا عليه في فترة غزو كمبوديا، على الرغم من الهيستريا التي نتجت عنه، ودعايته الكبرى من قبل العامّة، فكان ذلك أخطر فترة حاسمة بالنسبة للحكومة الجديدة ، وبعد مواجهة هذه العاصفة، التي أثارتها عناصر مختلفة تشكّل دبلوماسيّتنا العالمية، التي تجمعت خلال عام ونصف، وأخذت تستقر الآن.

خريف الازمـات

شهدت الحكومة، خلال ثلاثة أسابيع من شهر أيلول لعام ١٩٧٠، ثلاث أزمات عظمى، في زوايا العالم تفصلها في مكان وقوعها آلاف الكيلومترات. أنها غير مختلفة كثيراً، فالأولى كانت حرباً أهلية في مملكة في البادية - الأردن - بين الحكومة الملكية، وفدائيين مسلّحين، يبحثون عن تأمين قاعدة لهم لمهاجمة بلد مجاور. وكانت الثانية محاولة روسيّة مفاجئة، لإنشاء قاعدة غواصات نووية سيانفوكوس في كوبا، لإعطاء مجال لمجابهة مباشرة بين القوتين العظميين. أما الثالثة فكانت حملة انتخابات في بلد كبير من أمريكا الجنوبية ـ التشيلي، توشك أن توصل للسلطة متطرّفين حلفاء للشيوعيين. أن الأسباب التي دعت إلى هذه الأحداث، كانت في الأساس مختلفة. ككل القلق الذي تسبّبه للسياسة الأمريكية، إلاّ أنها كانت تمثل مجتمعة، الأوجه المختلفة لتحدٍّ شيوعي عالمي، ولم يكن أي حدث منها يتمكن من الظهور إذا لم يشجّعه الروس. إن الانطلاقة العسكرية السوفيتية في مصر، ومساندة الروس للمتشددين، كانتا وراء أزمة الأردن. وما قاعدة كوبا البحرية سوى تحدّ سوفيتي مباشر، والانتخابات في تشيلي على الرغم من غموضها، كادت أن تسمح ولأول مرّة في التاريخ، لشعب أن يدخل في الأسرة الشيوعية بتنظيم ديمقراطي.



الفصل الثالث عشر

أزمـة في الأردن

إن حدود بلدان الشرق الأوسط، تحوّلت خلال الأجيال وأصبحت وكأنها كثبان في البادية، وطيلة الخمسمائة عام التي تلت ظهور الإسلام في عام (٦٢٢) من عصرنا، فإن الأمة العربية برزت من خلال تنظيماتها السياسية. ثم وجدت نفسها، بعد حقبة طويلة جداً، تحت هيمنة أسياد أجانب مختلفين.

ولقد أصبحت فكرة أمّة، تفكيراً رمزياً، ورؤيا شبه نبوية، وحلماً يستلهم المؤمنين الحقيقيين بأعمال بطولية، لكنها نادرة التحقيق، وآخر هذه الامبراطوريات الغربية، الامبراطورية العثمانية، التي طردت خارج المنطقة على أثر الحرب العالمية الأولى. ولم تستبدل ، كما كان يأمل القوميّون العرب، بدولة موحدة. وبدلاً من ذلك، فإن الشرق الأوسط قُسّم من جديد وخلال فترة لا بأس بها من الزمن، إلى دول شبه مستقلة، تحت وصاية السلطات الأوروبية. وحاربت كل دولة من هذه الدول في سبيل استقلالها. وحصلت جميعها على كامل سيادتها، بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها.

وكانت إحدى هذه الدول المملكة الهاشمية الأردنية، وقد دعيت شرق الأردن قبل

عام ١٩٤٩، وشكلت بعد الحرب العالمية الأولى، عندما ندبت عصبة الأمم بريطانيا العظمى لتحكم فلسطين، التي كانت تضم حينذاك جميع الأراضي الكائنة بين العراق والبحر الأبيض المتوسط. وفي عام ١٩٢١، استبعدت بريطانيا العظمى عن انتدابها، تلك البقعة التي لم تكن سوى بادية،لتنشيء فيها مملكة لحلفائها الهاشميين، الذين خابت آمالهم في ممالك أخرى. وعلى هذه الأرض الجرداء أسست دولة الأردن من قبل زعماء ذوي مواهب، وشعب صنّاع، وكانت منذ نشأتها عنصر اعتدال. وتقدم وثبات في الشرق الأوسط. وسمح تقسيم فلسطين للمملكة الهاشمية بالامتداد حتى الشاطىء الغربي لنهر الأردن، فحكمت شعبها بتعقّل. حتى اليوم الذي انخرطت فيه في مخاطرة الرئيس ناصر. تحت لواء تضامن عربي مستمر. وكانت نتيجة ذلك احتلال إسرائيل للضفة الغربية، الخصبة جداً،والآهلة بالسكان.

أن الفدائيين، وهم لاجئون فلسطينيون، نتيجة عدة حروب بين العرب وإسرائيل، استقرّوا في الأردن لا سيما بعد عام ١٩٦٧، في مخيمات جيّدة التنظيم، وأخذوا يقومون بغارات ضد إسرائيل والأراضي التي احتلتها وأكثر من سبعة عشر ألف جندي عراقي، يمثلون أقصى التشدد في الأنظمة العربية، ظلوا في معسكراتهم. التي يعود تاريخها إلى حرب عام ١٩٦٧، في الشرق من الأردن. ولم يكن الملك حسين قادراً على إبعاد لا هذا ولا ذاك من الفريقين، دون اتهامه بالحنث بالتضامن العربي. أن وجود هذه القوات المسلحة المتشددة، كان يبرهن عن تعاظم الراديكالّية العربية في زمن عبد الناصر، وتزيد في ضعف سلطة الحسين لم يتردد العراقيون والفدائيون أبداً، عن استخدام قدرتهم التي يملكونها. وقام الفدائيون بغارات على إسرائيل، دون الاهتمام بما ستجلبه مثل هذه الأعمال من مخاطر على الأردن، ونفذ العراقيون مناورات عسكرية على الأراضي الأردنية.

أن الجيش الأردني، خريج الفيلق العربي الأسطوري، الذي نظّمه الجنرال

البريطاني السيرجون غلوب (غلوب باشا) في العام ١٩٤٠، وكان القسم الأكبر من هذا الجيش من البدو الشديدي التعلق بالملك حسين، وقد وجد هذا الجيش نفسه عام ١٩٧٠ مشدوداً إلى جبهتين: إذ كان عليه من جهة حماية الملك من الفدائيين، ومن جهة أخرى، حماية الأراضي الأردنية ضد الانتقام الإسرائيلي نتيجة هجمات الفدائيين. وفي صيف عام ١٩٧٠، كان الملك الشاب، الشجاع والذكي، يواجه خطراً كبيراً من قبل الفدائيين، الذين امتلؤوا غيظاً ضد الملك، الذي كان يجتهد إلى الوصول إلى اتفاق سياسي مع إسرائيل بشأنهم، قاموا بتحديات عديدة ضدّ جيشه. وحاولوا قتله في التاسع من شهر حزيران. فسرّح حسين بعض زعمائهم من وظائفهم، وتولى بنفسه زمام قيادة الجيش، وكان يرفض الاقتصاص من الفلسطينيين الذين كان يدير أمورهم حتى عام ١٩٦٧، وكان يأمل بضمهم إلى مملكته. وانهار الوضع في عمان. وفي الحادي عشر من شهر حزيران، أعلمت نيكسون أنه بناء على إعلام من القائم بالأعمال (لأن سفيرنا الجديد، دين براون، لم يكن بعد قد وصل) أن فوضى عامة تسود البلد. وكلفت سفارتنا في عمّان بإجلاء العائلات والموظفين الذين لا ضرورة لوجودهم لحسن إدارة السفارة (وكان هؤلاء قرابة أربعمائة شخص، إذا عزم جميعهم على السفر).

ودعوت في اليوم نفسه، إلى عقد اجتماع، لفريق العمل الخاص في واشنطن، وعالجنا في اجتماعنا احتمالين رئيسيين:

أولاً: إجلاء الأمريكيين، بوسائل نقل عسكرية، إذا اقتضت الحال.

وثانياً: أي جواب يجب أن نعطي للملك حسين، إذا طالبنا بعون يساعده في الحفاظ على سلطته، ضد الفدائيين، أو ضد تدخّل خارجي من العراق أو سورية، والدولتان يحكمهما رجال أكثر تشدداً وتأييداً للسوفيت من جمال عبد الناصر.

كانت الآراء متشعبه في اجتماع فريق العمل الخاص في واشنطن، حول ضرورة وإمكانية تدخل عسكري أمريكي، وإذا فقد الجيش الأردني السيطرة على المطارات، ربّما نضطر إلى إنزال عسكري في سبيل إجلاء الأمريكيين، وهذا احتمال لا يتحمّس له أي فرد في إدارتنا. أن المشكلة ستصبح أكثر خطورة حالما يطلب الملك تدخلاً أمريكياً للحفاظ على حكومته، وتردّدنا في تخطيط هذه التدخلات، ان عمليات كمبوديا لم تكن قد انتهت بعد. وكانت قواتنا منتشرة خلال العالم. والمتظاهرون حول البيت الأبيض، يثبتون تفرقاً وخلافات تسود داخل البلاد. وعمل عسكري في الأردن، يبدو صعباً تقنياً، لأن إنزالنا في لبنان عام ١٩٥٨ كان قد افقدنا منذ ذلك الحين قواعد الإنطلاق التي كنا نستخدمها (في ليبيا - واليونان - وتركيا) وحق استخدامها في حالة نزاع في الشرق الأوسط، أن التردّد حول فكرة تدخل عسكري أمريكي تعززت كثيراً باعتقاد عام فإذا نجح التدخل، يفقد حسين سمعته ويقلّل اعتباره، تجاه بقية العالم العربي، وربما يصير إلى توقيع صك موته السياسي.

شعرت أن الجميع يميل إلى مساعدة حسين إذا أمكن ذلك. وكما سعيت سابقاً، لإحباط مشاريع ناصر التي كان ينميها لتوثيق علاقاته مع السوفيت ومساندة كل الأنظمة المتشددة سعيت لتعريف العالم بأفضليات صداقّة الولايات المتحدة، وكان حسين ينادي دوماً بالاعتدال وقاوم تيارات التشدد واجتنب الشعارات المعادية للغرب وفق العادة الجارية. وكان يجد نفسه في عسر بسبب تردّده في أن إرخاء العنان للفدائيين يجعل الشرق الأوسط برمته راديكالياً، وإسرائيل لن تقبل بإقامة قواعد للفدائيين على طول حدودها مع الأردن، مما يؤدي بالتأكيد إلى حرب أخرى في الشرق الأوسط، وحسب تقديري، فأن الأردن تجربة لإمكانية بقائنا أسياد الأحداث في المنطقة وافقني نيكسون على وجهة نظري هذه، في اجتماع مجلس الأمن القومي المنعقد في السابع عشر من شهر حزيران وصرّح قائلاً:

"لنفترض أن يردنا حتى نهاية الصيف طلب عون من لبنان أو الأردن، أو حدوث شيء ما في لبنان، فماذا نستطيع عمله؟... سيأتي ظرف تكون فيه مصداقية الولايات المتحدة موضوع اختبار. ويصبح السؤال الحقيقي أن نعرف قدرتنا على العمل... يجب أن ننظر إلى عملنا من هذا الجانب، كما يجب أن نكون على استعداد... هل القضية مشكلة عسكرية، أو مصداقيتنا هي المقصودة كقوة عظمى في هذه المنطقة؟...

وفي الثاني والعشرين من شهر حزيران، عقدت اجتماعاً مع فريق العمل الخاص في واشنطن محاولين الوصول إلى جواب لتمنيات الرئيس، وأن نخرج مخطط عمل. ومع الأيام، وبعد زوال الخطر المداهم، أظهرت الوزارات استعداداً لوضع مشاريع عمل لأمر تعتقد أنه بعيد الاحتمال. وفيما كنّا على أهبة اتخاذ الإجراءات اللازمة لإجلاء المواطنين الأمريكان، خرج حسين من الأزمة مستضعفاً. وكان تقرير موجهاً للرئيس، صاغه هول سوندرز، أحد مساعديّ، في بداية شهر تموز، يفيض بعبارات الشؤم:" أن سلطة واعتبار النظام الهاشمي آيلان إلى الانحطاط على المستوى الدولي... ومصداقية الأردن الدولية ستتعرض أيضاً للخطر... وحرية عمل الفدائيين الكبيرة ستؤدي وبشكل محتوم إلى خرق هام لوقف إطلاق النار في وادي الأردن. وحسين مجبر على مواجهة مستقبل سياسي غامض....

لم يصدر أي تفسير بنوع كافٍ، لماذا تصرّف الفدائيون كما فعلوا خلال الفترة التي دعوها هم أنفسهم بعدئذ" أيلول الأسود". ففي بداية الشهر، نجح كل من ناصر والروس في تركيز أجهزة صواريخهم، حتى على ضفاف قناة السويس. وكانت الولايات المتحدة تستعد لحمل إسرائيل على الدخول في مفاوضات، يتوقع أن يسهم فيها الأردن، واضعاً نصب عينيه الانسحاب من الضفة الغربية. فهل تتوقف الأمور عند هذا الحد. كان على العرب أن يحصلوا على مغانم كبيرة. فإن السيطرة العسكرية

الإسرائيلية على طول القناة، يجب أن تنتهي. والضغوط على إسرائيل، يجب أن تتضاعف بكل تأكيد، حالما تبتدئ المفاوضات. لكن المتشددين من الفدائيين، كانت انظارهم متجهة إلى أبعد، فلم تكن غايتهم المصالحة مع إسرائيل بل تدميرها. وكان يخشى جانبهم، فيما تعتبرهم إسرائيل مخرّبين ومجرمين. لم يكونوا يتطلّعون إلى تنظيم سياسي، تصبح فيه مطالبهم موضوع تسوية. بل كانوا يسعون إلى السيطرة على قاعدة ينطلقون منها بهجوم حاسم ضد إسرائيل وتدميرها. ونظرتهم من هذه الزاوية هي منطقية في معارضة كل تقدّم دبلوماسي. ومن جهة أخرى فإن الفلسطينيين كانوا في طريقهم إلى الاستيلاء على أراضٍ في الأردن. وكانوا يقتربون من الاستقلال الذاتي، وإذا نظرنا إلى أبعد، نجد أنهم دمّروا بأيديهم فرص نجاحهم، وانتهى بهم الأمر إلى أبعادهم إلى لبنان. ومن سخرية القدر، فأن الأزمة التي أحدثوها، سمحت للولايات المتحدة أن تستعيد معظّم اعتبارها الضائع بسبب التردّد الذي أظهرته خلال الفترة الماضية، وفتحت أمامها مجالاً للدبلوماسيّة في السنوات القادمة.

تفجرّت الأزمة في السادس من شهر أيلول، عندما اختُطفت بعض الطائرات من قبل أعضاء الجبهة الشعبية الماركسيّة لتحرير فلسطين، الجناح الأكثر تشدداً من منظمة الفدائيين. إحدى هذه الطائرات: جامبو جيت (٧٤٧) من شركة بأن أمريكان، واقتيدت إلى مطار القاهرة، وبعد أن أخلي سبيل ركّابها، فجرّت الطائرة بعد هبوطها بقليل. واخرى (٧٠٧) أمريكية من شركة T.W.A وواحدة أيضاً D.C-8 من شركة سويسرية، اختطفهما الفدائيون. واقتادوهما إلى مدرج ترابي، على بعد نحو خمسين كيلو متراً من عمّان وفي التاسع من شهر أيلول، اختطفت أيضاً طائرة بريطانية V.C-10 والحقت بالطائرتين، وقد أفلتت طائرة إسرائيلية من الاختطاف، بفضل رجل الأمن الذي كان على متنها.

وفي السابع من شهر أيلول. اقترحت الجبهة الشعبية الماركسية لتحرير

فلسطين، إخلاء سبيل جميع المسافرين بإستثناء الإسرائيليين والأشخاص الذين يحملون جنسيتين، لقاء تحرير جميع الفدائيين المسجونين في سجون سويسرا، وألمانيا، وبريطانيا. أما الإسرائيليون والمرتزقة أي الذين يحملون جنسيتين. فيجب الاحتفاظ بهم أسرى، لقاء الفدائيين المسجونين في سجون إسرائيل، وحُدد موعد لذلك لا يتجاوز اثنتين وسبعين ساعة.

فوجّه اهتماماً العاجل إلى منع اعتقال مواطنين أمريكيين، وكذلك إسرائيليين بعد إخلاء سبيل الرهائن الآخرين، ولم نتقبل أبداً أن يجعل الأجنبي تفاوتاً بين المواطنين الأمريكيين. وكنا نعرف كذلك أن دولة إسرائيل لا تسمح لها سياستها بالتسليم للمساومة. لأنها كانت تخشى من تسليمها للمساومة تشجيع الإرهاب وبالتالي عدم التمكن من اعتقال أي أرهابي. ونحن بدورنا كانت لدينا نفس الفكرة. وكانت البلدان الأوروبية ذات العلاقة غير قادرة على تكوين موقف ثابت، فطالبناها على الفور ببدء مفاوضات جماعية على الأقل.

وفي صباح الثامن من شهر أيلول، نظّم روجرز اجتماعاً وعقده في مكتبه مع ليرد، وهلمز، والكسيس جونسون، وجون سيسكو وانا. أظهر الاجتماع مرة أخرى الخلافات بين أعضاء إدارتنا، وهو ما بدا واضحاً من الاقتراحات التي قدمت، فكان أن صرف الوقت في التفكير في معالجة هذا الإشكال باستخدام غاز يؤثر على الأعصاب ويشلّ ضحيته دون التأكد منه. وكنا جميعنا نجهل وبكل بساطة، هل كان لدينا في ترساناتنا غاز مشابه، الأمر الذي بلبل المحادثات كثيراً، إذ لم يعرف أحد منا كيفية تدبيره، ولا طريقة تنظيم عمل عسكري والقيام به في الوقت المناسب. أنهى روجرز الاجتماع، متأكداً بصورة مبدئية بعدم إمكانية الوصول إلى شيء، أن الاستعانة بالقوات الأمريكية،غير ممكن عسكرياً. أن حسين لن يهاجم الفلسطينيين والتدخل الإسرائيلي بالنسبة له خطر مميت.

جئنا على كل هذه الأمور، بعد ظهر اليوم نفسه، خلال اجتماع عقد لدى الرئيس. وكان يحضر هذا الاجتماع كل من ليرد، روجرز، وجونسون، سيسكو وأنا أيضاً، بالإضافة إلى ج. ادغار هوفر، وجون ميتشل، اللذين كانا يهتمان ببحث نتائج الأعمال التي يقوم بها (قراصنة الفضاء) على السياسة الداخلية. ولم يتخذ الرئيس أي قرار حول ذلك. أعلمني الرئيس على انفراد قبل الاجتماع، ان اختطاف الطائرات، يجب أن يستخدم أداة لسحق الفدائيين، ولم يجر أي تلميح حول ذلك في الاجتماع. وقرر في نهاية المطاف أنه يفضّل تدخلاً عسكرياً أمريكياً أفضل من كونه إسرائيلياً. وأبدى روجرز ملاحظته، أننا سندفع غالياً، ثمن عملية، معظمها دون جدوى.

واتجه الرئيس نحوي متسائلاً: فأجبت أننا مضطرون إلى مجابهة مشكلتين:

سلامة وحرية الرهائن، ومستقبل الأردن، إذا استطاع الفدائيون ودون اساءة، استخدام الأردن قاعدة انطلاق، ومن تقويض سلطة الملك، أحد زعماء المنطقة النادرين، المعروف بإعتداله، وميوله المؤيدة للغرب، فإن الشرق الأوسط سينقلب رأساً على عقب. وبعد شهرين، فإن مبادرتنا السلمية وتوازن القوى العسكري على طول القناة، يصبحان على وشك التسوية نتيجة حيلة سوفيتية" وفي الوقت ذاته، يكون توازن القوى السياسي على طول الجبهة الأردنية، قد قوّضته القوّة. ولن تستطيع القبول بذلك، مع كل هبّة ريح، وكفّ أيدينا عن العمل، وبالمطالبة الفورية بالعودة إلى محادثات السلام، ومن ثم الإعلان عن عدم كفاءتنا.

ولما لم يكن هناك داعٍ لاستعجال معالجة نتائج هذا التحليل، انتقلنا بمحادثتنا إلى توقّع اختطاف طائرات أخرى. فتكلم حينئذ ميل ليرد عن أجهزة الكترونية، ستستخدم في المستقبل، لتأمين أمن وسلامة المطارات، وأعلن الرئيس موافقته، في الوقت نفسه، على حرس مسلّح لمرافقة الطائرات. وأجهزة الكترونية للمطارات، وطلب مني تنسيق هذا العمل، وطالب ليرد تحمّل مسؤوليته. وأصدر تعليماته إلى روجرز

حول إبداء نشاط في المبادرات الدبلوماسية. ولا تزال الأمور تبدو لي غامضة جداً.
عندما وصل الرئيس في جولته إلى مكتبي، بعد عشر دقائق من الاجتماع، فتأكد حينذاك بنفسه، أن لدينا مشكلة عويصة بيروقراطية، إذ أن أعضاء الحكومة، كان كل منهم يرغب في عمل شيء ما، وكان هو قد سلّم كلاً منهم ما يجب عمله، وعلّي أنا القيام بتصنيف جميع أعمالهم، ولم يُوضح لي كيف، أو ماذا كان يدور في خلده تماماً.

وفي غضون ذلك، كانت تردنا من عمّان تقارير مزعجة، وما كان يعتبره الجيش الأردني إهانة أو إثارة من قبل الفدائيين، قاده إلى تمرد فعلي. ولما كان أميناً لملكه، رفض كل تسوية جديدة، وهدّد الجنود الأردنيون. بإستلام زمام الأمور بأنفسهم في سبيل مصلحة الملك. والتوتر الزائد الذي كان يمارس ضد حسين كانت الغاية منه القيام بعمل حاسم.

وبناء على موافقة الرئيس، ولوضع حد للإرتباك البيروقراطي، أنهيت الأزمة التي جرت في التاسع من شهر أيلول في مجلس الأمن القومي. وكان على فريق العمل الخاص في واشنطن أن يجتمع، خلال السبعة عشر يوماً القادمة، ولو مرّة واحدة في اليوم، لإعادة تدقيق الخيارات، وتهيئة مخططات عمل، وإعداد قرارات عمليّة ومنسّقه. فكان ذلك من مرحلة إجرائية. كما كان بمثابة إنذار للبيروقراطية. ولن نتساهل ولن نتردّد بعد اليوم في مخالفات وقف إطلاق النار، إذا تدهور الوضع في الأردن. أن رئاستي لفريق العمل الخاص في واشنطن ، كانت تتضمن تهديداً ضمنياً: إذ أن كل مشكلة لا تّحل سوف ترفع إلى نيكسون.

طوال المرحلة الأولى للأزمة الأردنية، كنت أقدم للرئيس يومياً على الأقل، تقريرين أو ثلاثة حول الوضع، وأطلعه على توصيات فريق العمل الخاص، وكذلك

احداث عمّان، وعن تقدم المفاوضات حول إخلاء سبيل الرهائن. ولما كانت جميع التنظيمات الحكومية ممثلة في فريق العمل الخاص، فإن التقرير بعد إستكماله يوجّه إلى أعضاء المكتب صاحب العلاقة، الذين هم قادرون على إطلاع الرئيس على خلافاتهم في وجهه نظرهم إذا حصلت. وفي مرحلة الأزمة الدقيقة، ولا سيما في الأيام الثلاثة الأخيرة، كان نيكسون يجمع يومياً المسؤولين، لإعادة النظر في توصيات فريق العمل الخاص.

وفي التاسع من شهر أيلول، كانت المشكلة الأساسية هي في تحديد خطة عملنا: أن السياسة التي تفي بالغرض، يجب أن ترتكز حسب رأيي، على ثلاثة مقومات على الأقل.

- تحليل دقيق يعطي تنسيقاً واقعياً للخيارات
- تهيئة دقيقة التفصيل
- وسرعة في اتخاذ القرارات الفعّالة.

أن السلبية في حال وقوع أزمة، تؤدي إلى عدم كفاءة متزايدة حينذاك يجبر المرء على التصرف حيال المشاكل، في حدود قرائن، ربما تكون في أغلب الأحيان لغير صالحه. وعلى العكس من ذلك، فإن الفريق الذي يأخذ زمام المبادرة يتمكن من أشغال نشاط خصمه ضمن تحليل دقيق. ولما كان الخصم يفترض دوماً الأسوأ، فإن أقل حركة. يمكنها إحداث ردع هام بالنسبة له، مالم تكن الخدعة ظاهرة، فلا تؤدي حينئذ إلاّ إلى الاحتقار، وللحصول على تأثير كبير، يجب الاستمرار في العمل، بحيث يبدو متواصلاً وعنيفاً. أن التردد، وحتى التقدم التدريجي، ليس سوى تحريض على الرد بنفس القوة لموازنة وضع العدو.

وفي التاسع من شهر أيلول أيضاً، في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف، اجتمع فريق العمل الخاص، طيلة ساعة في المكتب البيضوي في البيت الأبيض. وكانت أجهزة المخابرات قد أطلعت على أن موعد إخلاء سبيل الرهائن قد مدّد، ولم نكن على علم بالمدة التي أجل إليها. واتفق رأينا على التوسط لدى البلدان الأوروبية، لإقناعها بالعمل كل على إنفراد، أعني القبول بالواقع وشروط مختطفي الطائرات. وفي هذه الحال فإن الولايات المتحدة تبقى وحيدة، ودون عون لإخلاء سبيل مواطنيها الأصليين. ما لم تقم بضغط على إسرائيل، التي كانت تعتقد مثلنا أنه لا يجوز الخضوع لمساومة المختطفين. وكنا أوكلنا أمر قضيتنا إلى ممثّل جمعية الصليب الأحمر الدولية، أندريه روشات. وهو رجل ذو كفاءة، لإدارة المفاوضات مع الفلسطينيين. فأعلم الحكومات ذات العلاقة: انه في حال عدم تنسيق إخلاء سبيل الفلسطينيين ، ستجبر الجمعية على التخلّي عن المهمة التي أنيطت بها. وحسب رأيي، كان يجب لمنع تطويل أمد المفاوضات، البدء بتحديد كل ماله علاقة بها وممارسة ضغوط لابدّ منها، والإنذارات التي لا تأثير لها تزيد في الامنا. وقرار أمريكي كان ضرورياً بل حيوياً، لمصير الرهائن وبقاء الملك. أن مستقبل الملك في الواقع أخذ يمتزج بصورة غريبة بمستقبل الرهائن. فإذا أعدم مئات من الرهائن في مملكته، فإن انهيار نفوذه في الأردن سيصبح محتوماً في نظر العالم. وتتابع الأزمات المخفقة. كان قد زاد في إضعاف حسين. وقرّرت المجابهة. فإما أن حسين الذين ضيق الخناق عليه وقطع الأمل يهاجم الفدائيين، وإما أن الفدائيين يقلبون عرشه.

طال عمر هذا النزاع، ولم تنجح أية مبادرة سلام، ولن تبحث إسرائيل أية إقامة لحدود جديدة، مع دولة غير قادرة على السيطرة في بلادها. ولما كانت عملية الإنقاذ، هي الحل الأخير الممكن في نظر العالم، فقد قدّرت أن هناك ثلاثة احتمالات يجب أن نُعِدّ لها أنفسنا:

■ هجوم الفدائيين على الرهائن، فيتحتّم بالضرورة إجراء عملية إنقاذ.

■ قلاقل واضطرابات في عمان، تؤدي إلى إلزام إجلاء الأمريكان.

■ مجابهة بين حسين والفدائيين، تسبّب ربما تدخل سورية والعراق.

وبعد تحليل دقيق لوضعنا، تبيّن أن ليس لدينا سوى أربع فرق تتمكن من الوصول بسرعة إلى الأردن، وعملية كهذه تستوجب تعبئة كل احتياطنا الاستراتيجي فكان يلزمنا ثمان وأربعون ساعة، لإحصاء الفرقة المتمركزة في ألمانيا، وإثنتان وسبعون ساعة، لتتمكن الفرقة الثانية، المحمولة جواً، المتمركزة في الولايات المتحدة من الوصول إلى الأردن. وتدخل هذه القوى يوجب بالضرورة الحصول على إذن بالطيران والسماح بالمرور براً في الأراضي المجاورة. فطلبت إلى هيئة الأركان المشتركة. أن تقدم خلال أربع وعشرين ساعة، اقتراحات تعجل في تعبئة القوات المتمركزة في أوروبا، وكذلك دراسة نتائج عمليات التدخل العسكري الأمريكي الطويل الأمد في الأردن، وكذلك عدد الفرق التي تحتاج إليها في كل من هذه الاحتمالات، ونقاط القوات المتعلقة بهذا التدخل، لكي نتمكن من إحباط أي تدّخل سوفيتي.

وفي غضون ذلك، كان ضرورياً أن تأخذ جميع الأطراف علماً بما قررّنا فأمر الرئيس بتوجّه حاملة الطائرات ـ اندباندداس ـ من الأسطول السادس نحو الشرق على محاذاة الساحل اللبناني، ترافقها أربع خافرات، على أن تلحق بها خافرتان أخريان خلال أربع وعشرون ساعة. وست طائرات من طراز (C-130) في قاعدة (انجرليك) الجوية التركية، وتكون مستعدة لإجلاء الأمريكان. وتتخذ هذه الإجراءات دون انذرات وكنت على ثقة أن مصلحة المخابرات السوفيتية يساعدها طبعاً، مسرّبو الأخبار العاديّون في البنتاغون ستتكلف بتعميمها، كما أن صمتنا سيكسبها حق القيام بحملة مزعجة ضدنا.

وزادت المشكلة تعقيداً، عندما أقدم فريق العمل الخاص على تحديد الظروف الممكن استخدام هذه القوات فيها. وما من أحد كان راغباً في تدخل عسكري، في حين أن عدة مئات من آلاف الأمريكيين ، لا يزالون يقاتلون في الجنوب الشرقي من آسيا. فكان علينا سحب كل احتياطنا الاستراتيجي وتعزيزه بالطيران. ومن الصعب علينا في الوقت ذاته مساندة هذه العمليات، أن خطوط تموينا دقيقة وعليها اجتياز عدة بلدان أجنبية. وإذا طال أمد الحرب، فإن وضعنا سيتعقد. وإذا تدخلت إسرائيل من تلقاء نفسها، في الأردن سنجد أنفسنا ندير عمليات مشابهة في سبيل أهداف مختلفة، وهذا يسيء إلى وضعنا في العالم العربي، ويقلل من اعتبارنا، وإذا تضايقنا، ربّما نجبر على الطلب من إسرائيل لإنقاذنا.

ولكل هذه الأسباب مجتمعه، فضلت كثيراً من زاوية طويلة المدى، فصل عملياتنا العسكرية عن الأعمال التي تقوم بها إسرائيل. إذ انه يجب استخدام القوات الأمريكية لإجلاء الأمريكان فقط. وهذا معقول وينبثق عن مصلحة أمريكية مباشرة. وحالما يتفاقم النزاع بسبب هجوم عراقي أو إسرائيلي، فمن المفضل أن تترك البلدان ذات العلاقة المباشرة، تتحمل مسؤولياتها الأساسية. وحسن لنا أن نستخدم قوتنا في إحباط تدخل سوفيتي ضد إسرائيل. وأجمعت الآراء حول هذه الاستنتاجات.

أطلعت نيكسون على ذلك، وكان يفكر دائماً أن تكون العمليات العسكرية أمريكية فقط. وعلينا أن نتصرف وحدنا ضد أي تدخل من قبل العراق أو سوريّة، أو ثورة يقوم بها الفدائيون، وتترك إسرائيل بعيدة عن المعركة.

وفي التاسع من شهر أيلول، أبلغنا القائم بالأعمال السوفيتي، بولي . م . فورونستوف (بواسطة سيسكو) أن السوفيت وجّهوا إنذاراً للأردن والعراق لضبط النفس، على الرغم من أن لهجة اللوم السوفيتي، لم تكن لتؤخذ على محمل تهدئة

النفوس. وكانت موسكو تطالب العرب بالاعتدال، لأن تنازعهم بينهم لا يفيد سوى أعدائهم، لا سيما إسرائيل المعتدية، والقوات الأمبريالية من ورائها، وهذا تهجّم مستتر ضدّنا، ان الكرملين حسب رأيي، كان يتخّذ من الأزمة الأردنية ورقة رابحة، كما عمل في وقف إطلاق النار، فكان يصدر تصريحات رسمية مجلجلة، لكنها لا تقوم بدور حاسم لمنع التوجّه نحو الأزمة.

اجتمع فريق العمل الخاص مجدداً، بعد ظهر العاشر من شهر أيلول. وفي غضون ذلك، كان الفلسطينيون قد اعتدلوا في مطالبهم بسبب توحيد الجبهة التي استطعنا تشكيلها. لأن البريطانيين والسويسريين والألمان وافقوا على إخلاء سبيل الفدائيين المحتجزين في بلدانهم. شريطة الإفراج عن جميع الرهائن. واقترح الفلسطينيون حينذاك مقايضة جميع النساء والأولاد والمسافرين المرضى، مقابل الفدائيين المحتجزين في أوروبا. وكل هؤلاء الناس سيُقاضون مقابل كل الفدائيين المحتجزين في إسرائيل.

وخلال اجتماع فريق العمل الخاص في العاشر من شهر أيلول، أعلن الأميرال موورير ان إجراءات التعبئة التي أتخذت، قلّصت وقت ردود فعل قواتنا في أوروبا إلى النصف تقريباً. ورأى أن ترسل غواصتان إلى البحر الأبيض المتوسط، لمراقبة الأسطول السوفيتي. والمناورة البرمائية التي تجري في سواحل كريت، يجب أن تنتهي في الرابع عشر من شهر أيلول. وبين القوات التي تشكّلها، هناك فرقة ـ مارين ـ يمكن تركيزها على طول الساحل اللبناني، في حال أن يطول أمد الأزمة. وطلبت إلى هيئة الأركان المشتركة القيام بدراسة، متى وكيف تستطيع الولايات المتحدة مساندة العمليات العسكرية في الأردن، في حال إصرار الرئيس على تفضيله أن تكون العملية العسكرية الامريكية أحادية الجانب. كنت أعلم أن الفريق تعرّض لهذا الحل، لكنني

كنت اتحاشى الوقوع في الخطر، في حال أن يأمر الرئيس القيام بهجوم، فأكون في وضع لا أعرف كيفية الخروج منه.... وحسب رأي هلمز، كان حسين يسعى إلى اجتناب مجابهة الفدائيين، خوفاً من تدخل سوري أو عراقي. فلم أوافقه على رأيه. فإن في هذا تكون نهايته، وليس هناك من وسيلة لاستعادة زمام السلطة دون قتال... أن المجابهة بالنسبة لي كانت محتومة.

وفي الحادي عشر من شهر أيلول، كانت إجراءات تعبئة اليومين السابقين تؤتي أكلها. وكثر الكلام عن تحركات أسطولنا في اتجاه عمّان، بإشاعات عامّة عن تدخّل أمريكي وشيك الوقوع، وأعلمنا روشات، ممثّل الصليب الأحمر، أن توتراً غريباً كان مسيطراً على القيادة العامة للفدائيين، ويجب أن نتوقّع إجراء انتقامياً من قبلهم، ليظهروا للناس أنهم غير خائفين. وضعت متفجرات على متن جميع الطائرات، وأجلي الرهائن. فتأكدنا عند نهاية اليوم، أن تهديدنا كان فعّالاً، عندما أخلى الفدائيون - وبصورة مفاجئة - سبيل فريق يقدر بثمانين رهينة، بينهم بعض الامريكان. وما كان يهم روجرز وانا، هو طريقة التفكير في اخماد أزمة ظهرت اليوم واضحة، فكان روجرز يتمنى ان يطمئن الاعداء بأصدار اعلانات مطمئنة. أما أنا فكنت أخالفه الرأي. وعند حدوث المجابهة، يجب أن نظهر أقوياء ، وهذه هي الطريقة الحسنة والأكيدة، وانفراج الجو بالنسبة لروجرز يساعد على حلّ المشكلة، أما أنا. فتملكتني قناعة أن تفاقم الأزمة يؤدي إلى حل سريع. حينئذ وجه روجرز عرضاً للوضع لجميع رؤساء مكاتب الكونغرس، وذكر فيه المبادىء التي عرضها على الرئيس قبل ثلاثة أيام، لقد عالجنا جميع الأمور العسكرية الممكنة الحدوث في سبيل إنقاذ الرهائن، وتوصلنا إلى استنتاج أن جميعها دون جدوى، وعند إعادتنا النظر في جميع تأثيرات الأعمال العسكرية، لأعطاء الانطباع المطلوب. وجدت أيضاً دون نفع. ولحسن الحظ، فإن الفلسطينيين كانوا يعتقدون بأفعالنا ولا يبالون بتصريحاتنا، واتخذوا من العرض المقدّم للكونغرس أنه خديعة.

وبناء على موافقة من الرئيس، انضممت إلى الاميرال موورير للإيعاز إلى الأسطول السادس. وجوب التزام صمت إرسال مطبق، لأن السوفيت سيعرّفون بسرعة على تحرّكات اسطولنا، وسيكون لهذا التوجيه قيمة أكبر بكثير من مذكرة دبلوماسيّة. وفي الثاني عشر من شهر أيلول، فجرّ الفلسطينيون الطائرات الثلاث الخالية من الركاب، الامر الذي كان له تأثيره القوي على الرأي العام، واستمرّوا بالاحتفاظ بالرهائن أسرى في عمان، في اماكن مجهولة.

نيكسون وانا أعدنا النظر بمخططات التدخل الموضوعة سابقاً، واعدت إلى ذاكرة الرئيس ما جرى من تطوّر في الخدمات ضمن فريق العمل الخاص، حول استخدام القوات البرية الأمريكية لاجلاء مواطنينا ولكن في حال مجابهة بين الملك والفدائيين، تساندهم قوات عراقية، يجدر بنا ان نترك اسرائيل تتحمل ثقل الهجوم. ولم تكن رغبة الرئيس ان نتكلم عن تدخل اسرائيلي ابداً. وكان علينا استخدام القوات البرية الامريكية في الحالتين. وهذه الحالة لا تتطلب إتخاذ قرار عاجل. وكانت النتيجة الفعليّة لتوجيهات نيكسون تسيير قوات أمريكية كبرى إلى المنطقة وبسرعة لا نقدم عليها إلاّ في هذا المجال.

وفي الثالث عشر والرابع من شهر أيلول، تبيّن لنا بوضوح ما سوف يسبّب لنا القلق وبصورة أكيدة، هو ان الألمان وطبعاً البريطانيين أيضاً، يوشكون على شقّ جبهة المفاوضات الموّحدة. والبدء بمحادثات فردّية حول إخلاء سبيل مواطنيهم. ودعم هذا الخوف تصريح صدر عن الفلسطينيين يحدّدون فيه اعتبار الرهائن الأمريكان وكأنهم إسرائيليون. وأخذت سفن حربية سوفيتية تلحق بأسطولنا السادس إلى عرض مياه الشاطىء اللبناني، لكن تقرير القوات البحرية في البحر الأبيض المتوسط. كان في مصلحتنا، وكان تقدمنا يزداد يوماً بعد يوم. ولم يحدث أي اصطدام دبلوماسي مع الاتحاد السوفيتي منذ اليوم التاسع من شهر أيلول. وعلى

الأرجح فإن الكرملين كان معتقداً أن ما يحسن عمله هو المراقبة من وراء الكواليس تفكّك المملكة الأردنية، وفشل الولايات المتحدة المتزايد.

فاتّضح خطأ هذه التقديرات، ففي كل أزمة، يجب على أحد المتخبّطين فيها اجراء الدراسات اللازمة للظفر بها أو القبول بالخسارة والرضوخ لها، ونحو العاشر من شهر أيلول، طالب الإتحاد السوفيتي بإخلاء سبيل الرهائن ووقف إطلاق النار، وكان إذ ذاك تقدّم الفدائيين ساحقاً، وموقف الملك آخذ بالانهيار. وجاء عدم الاستقرار في الأردن، ليضاف إلى اضطراب حبل الأمن على طول قناة السويس. فبرز الإعتبار السوفيتي وتعزّز. لكن السوفيت طامعون في إيصال أتباعهم إلى مواقف أفضل، وهذا غير متيسّر لهم، أصبحت لنا امكانية في تقويم الوضع قبل تعديل توازن القوى.

وفي آخر الأسبوع الثاني من أيلول، حطّم الفلسطينيون الطائرات الأربع لكنهم لم يحصلوا على أي تساهل أساسي من قبل الولايات المتحدة أو إسرائيل. وأصبحت لهجتنا جدّية أكثر فأكثر، ولا سيما ان أهمية قواتنا العسكرية الموجودة في المنطقة كانت تزداد ساعة بعد ساعة. وفي هذا الظرف بالذات، سواء كان عن طريق الحسّ البسيكولوجي الذي تبيّن بردّ فعلنا. وسواء بسبب استنفاد جميع الوسائل والوقوع في اليأس، فقد قصد الملك العنيد مجابهة الفدائيين بوجه عام. وأخيراً وقعت تلك المواجهة التي كان البعض يتوقعها ويخشى البعض الآخر وقوعها.



في نهاية اليوم الخامس عشر من أيلول، وعند وصول، دين براون سفيرنا في الأردن، إلى عمّان،أرسل من هناك برقية عاجلة يبيّن فيها: أن حسين عازم على إعادة القانون والنظام إلى عاصمته. وبعد أن أحاط المدينة بجنود موالين للجيش الملكي،

أعلن الملك عن تشكيل حكومة عسكرية في السادس عشر من شهر أيلول، وانه يستعجل الأمور. لكنه تجاه ممانعة الفدائيين، فهو على استعداد للالتجاء إلى أي نوع من استعمال القوة التي يحتاج إليها لاستعادة نفوذه. وطالب حسين الولايات المتحدة بإلحاح استخدام نفوذها، لمنع إسرائيل من تعقيد الوضع، أو زيادة خطورته. وكان الملك يؤكد انه سيكون بحاجة للعون في حال تدخل دول عربية أخرى. وأردف دين براون في تحليله للوضع قائلاً: ان المجابهة الآن هي أقرب ممّا كانت عليه في أيام سابقة،أن الملك قادر على المناورة ويتمكن في الوقت نفسه من الدخول في مفاوضات معقّدة، تكون الغاية منها الوصول إلى تسوية. ويظهر براون أنه لن يكون هناك تدخل من قبل العراق أو سورية. أمّا أنا فكنت أرى عكس ذلك، ان المواجهة محتومة حسب تقديري، وأحداث المستقبل ستكشف لنا ما سوف يكون.

وصلت برقية براون عندما كنت في أيرلي هاوس في فرجينيا، بعدها اتصل بي هيغ ليعلمني بإن السير دنيس غرينهل، المدير الدائم لمكتب الخارجية البريطانية، وحسب المعلومات الواردة لحكومة صاحب الجلالة، يرى انه، لا بد من وقوع معركة بين الجيش الأردني والفدائيين، وأن رئيس الوزراء، أدوارد هيث، يريد معرفة ما نحن عازمون عليه، لا سيما وقوع الملك في مأزق؟ وما هو موقفنا تجاه تدخل إسرائيلي؟ ولدى رئيس الوزراء رغبة في التكلم شخصياً مع الرئيس عند المساء. وكان هذا ينّم عن برهان صادق على أن العلاقات الخاصّة بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، تسمح بتبادل الآراء على أعلى مستوى دون تكلّف أو بروتوكول. أضف إلى أن ذلك كان بمثابة ناقوس خطر، لا يمكن عدم أخذه بالحسبان أو التغاضي عنه.

واجتمع فريق العمل الخاص في الساعة الثانية والعشرين والنصف، بعد منتصف الليل في غرفة العمليات في البيت الأبيض، ومن ثم تابعنا اجتماعنا في مكتبي.

وكان جميعنا بوضع فخم وباللباس الرسمي، فأعدنا النظر في جميع الأمور المحتملة المختلفة: الدخول في حرب بين الملك والفدائيين، تدخل عراقي (والله وحده يعلم الأسباب، وليس هناك أحد في عمان. ولا في واشنطن يتوقع تدخلاً سورياً). تدخل من قبل الولايات المتحدة، أقلة لإجلاء مواطنيها. وأكّد الاجتماع على ما اتّخذ من آراء في الأسبوع السابق، وعلى الأرجح فإن الملك سيبطش بالفدائيين. وكان لديه اعتقاد أن إسرائيل ستتدخل عندما يظهر لها أن الفدائيين هم الغالبون. وسيحدث هذا حقاً إذا تدخل الجيش العراقي. وإذا تدخلت إسرائيل، فإن كل العالم مجمع على أن الولايات المتحدة ستقف على الحياد، لكنها في الوقت نفسه تصدّ عمليات السوفيت الانتقامية ضد إسرائيل. وللتدليل على مساندتنا، يجب علينا تقديم عتاد للملك وبصورة عاجلة، ومهما يحدث،فإن سرعتنا في التّصرف حيال هذا يجب أن تكثّف.

إن دورنا الأكثر جدوى، حسب رأيي، يقوم على سرعة إرسال قواتنا إلى البحر الأبيض المتوسط، وبشكل قوي، لإحباط تدخل الأنظمة العربية المتشددة في الأردن، والقيام بمساندة قوية للملك، ومعارضّة أي إجراء انتقامي سوفيتي، (بما فيها إذا اقتضت الحال، تدخل عسكري). ان تكثيف قوتنا العسكرية في البحر الأبيض المتوسط، وغموض تصريحاتنا، كان عليهما أن يثبّتا موقف حسين، ويثبّطا همّة خصومه، ويجعلا السوفيت يتردّدون.

والخلاصة، ففي اليوم التالي صباحاً، والمصادف السادس عشر من شهر أيلول، وبعد اجتماع جديد قصير لفريق العمل الخاص، لإعادة النظر في الإجراءات، أرسلت توجيهات للوزارات، طالبتها إعداد مخططات عسكرية ودبلوماسيّة مفصّلة، للتمكن من مواجهة الأمور المتوقع حدوثها وهي تزويد القوّات الأردنية بالعتاد، تدخل الولايات المتحدة العسكري لإجلاء مواطنيها، الهجوم الجوي أو البّري الأمريكي

لمساندة حسين في حال تدخل خارجي (الحلّ الذي يفضله الرئيس) الموافقة الأمريكية على هجوم إسرائيلي جوّي أو أرضي (الحل الذي يفضّله فريق العمل الخاص).

وقد أرسلت تقريراً للرئيس، أبيّن له فيه نتائج اجتماع فريق العمل الخاص، المجتمع في الليلة الماضية. فكان ردّ فعله عنيفاً وغير منتظر. كان مهتماً بحملته الانتخابية. ويرجو كذلك عقد اجتماع قمّة في موسكو، وسأل عمّا إذا كان ضرورياً، اجتماع فريق العمل الخاص، واختتم تقريري ببعض حواشي غاضبة سجّلها سريعاً وبخط غير واضح. وكتب أنه يفضل ألاّ تكون هناك مجابهة. وإذا كان هذا أمر لا يمكن تجنبه، فيجب استخدام القوات الأمريكية، وكان معارضاً لكل عمل عسكري إسرائيلي، ما لم يكن مُقرّاً سلفاً، والذي يعني أنه لن يفعله أبداً، ولم أعجب أبداً عندما لمست تفضيل الرئيس لإظهار القدرة الأمريكية بطريقة مباشرة وأحادية الجانب،إذ أن هذا ما كان يفكّر به دائماً. غير أني كنت على اعتقاد بعد دراستي علاقتنا الضمنيّة، والمصادر التي نشترك بالإطلاع عليها ،أنه سيعدل عن قراره. وليس لدينا وقت ومجال للمناقشة، إذ أن نيكسون مضطر للسفر في رحلة انتخابية إلى كانساس سيتي، وشيكاغو.

وكان يوم السادس عشر من شهر أيلول هادئاً، فأخذنا سيسكو وأنا طائرة لعقد مؤتمر صحفي قصير في اجتماع دعينا إليه، مع رؤساء تحرير وصحفيّ صحيفة الغرب الأوسط (Midwest) وحسبما كنا نتوقّع فقد أعلن الملك تشكيل حكومة عسكرية، لكنّه لم يقم بأي عمل عسكري في عمّان. ومع ذلك، فقد تمكن دين بروان أن يستدرك من الملك أنه كان يخشى تدخل سورية، لا العراق. أن برقية براون لم تكن تعطي هذه الناحية أية أهميّة، وليس هناك من يفكر بذلك في الحكومة. انما ما كان يقلقنا هو العراق مع سبعة عشر ألفاً من جنوده الذين لا يزالون معسكرين في الأردن. وفيما يتعلق باختطاف الطائرات، فقد كنا في مشادّة عنيفة للإبقاء على

وحدة بين السلطات الأوروبية، لمنع ما كان ينويه الأوروبيون من معالجة إخلاء سبيل مواطنيهم.

وفي السابع عشر من شهر أيلول أصبحت هذه المناقشات نظرية في القسم الكبير منها، لأن حسين تجرّأ فإصدر أمراً إلى جيشه بدخول عمان. فاستعرت نار معركة كبرى، وامتدت حتى وصلت شمال الأردن، إلى التجّمعات الفلسطينية حول مدينة أربد. فعقدت اجتماعين في اليوم ذاته لفريق العمل الخاص. وتلقىّ بروان تعليمات يبلغ بموجبها حسين أن الولايات المتحدة راضية عن جهوده، وعليه أن يسارع في تقديم طلبات ما يحتاج إليه من عون مادي.

واعلم بروان شخصياً، ان المساندة العسكرية ضد تدخل خارجي هي غير مستثناة. وتلقى كذلك القائم بالأعمال في إسرائيل تعليمات توجب عليه سؤال الحكومة الإسرائيلية عن تحليلها للموقف. بقينا على اتصال مع بريطانيا بمكالمات هاتفية مستّمرة مع غرينهل، وأطلعنا الشاه على وجهة نظرنا في الأمر لأن مساندته في كل أزمة من أزمات الشرق الأوسط كانت حيوية.

وعزمنا على عدم الدخول في اتصالات مع الاتحاد السوفيتي، وقلت في اجتماع فريق العمل الخاص، أننا تكلمنا كثيراً مع موسكو، دون تلقّي جواب مرضٍ "دعهم على كيفهم" وأبديت نفس الملاحظة في محادثة مع نيكسون، أقرْ خلالها توصيات فريق العمل الخاص، يجب علينا أن نظهر أنفسنا غريبي التصرّف ولا نعلن عن شيء. انهم سيدركون من ذاتهم (من تحركات قواتنا).

أما الآن وقد أندلعت الحرب الأهلية في الأردن. فكان من الأمور الرئيسية سرعة انتشار قوات الولايات المتحدة للتمكن من إحباط كل محاولة. أن حاملة الطائرات سارا توغا، التي كانت راسية في سواحل مالطا، تلقت أمراً باللحاق بحاملة الطائرات

اندباندانس، قرب الساحل اللبناني، يرافقها طرّاد واثنتا عشرة نسّافة. وحاملة طائرات ثالثة (جون ف. كينيدي) امرت باللحاق بالأسطول السادس. وكان عليها ان تقضي تسعة أيام لتتمكن من الوصول من بورتو ريكو، لكن تحركها ستكشفه بسرعة المخابرات السوفيتية. والقوات البرمائية، المتضمنة ألفاً ومائتي جندي من المارين، الذين أنهوا مناوراتهم على سواحل كريت، تلقت هذه القوات أمراً بالمرابطة ستاً وثلاثين ساعة في الساحل اللبناني، ويجب أن يلحق بها الطرّاد سبر انغفيلد. أما غوام حاملة الطائرات المروحية وفريق العاملين فيها، كانت تستعد لنقل فريق من جنود المارين إلى كامب لوجين، فتلقّت الحاملة أمراً بمتابعة سيرها نحوالبحر الأبيض المتوسط.

تباحثت طويلاً مع نيكسون حول كل هذه الأمور وكان إذ ذاك في شيكاغو، فأقّر بحماس انتشار القوى، الذي كان يداعب خياله كما قال: لا شيء يوازي في الحقيقة مواجهة صغيرة من وقت إلى آخر، وقليل من الإثارة. ولم نستطع ردعه إلاّ بعد جهد كبير، بالإعلان عن تحركات قواتنا، الأمر الذي كان سيخلق لنا جوّ أزمة كبرى، ونُجبّر حينذاك على إصدار تصاريح مطمئنة، لنقلّل من تأثير انتشار قواتنا. وما كاد النهار ينتهي، حتى غيّر نيكسون رأيه إذ قال: كان الأفضل عدم إصدار أي إعلان، وعلينا متابعة نشر قواتنا، كما علينا أن نعامل السوفيت بكل تجرّد.

كان نيكسون قادراً على هذه التصريحات، لأنه كان قد أعطى جميع العناوين الضخمة لصحيفة شيكاغو سون تايمس، التي نشرت على أثر الاجتماع الصغير، الذي عقد في صباح اليوم نفسه مع رؤساء تحرير الصحيفة. وكنت قد أوصيت هالدمان أن يحرص على أن تبقى المحادثات عامة وغير محددة، لكن مرونة التعريف التي يضيفها البيت الأبيض حول هذا الموضوع كانت غير متوقعه، لا سيما خلال سنة الانتخابات. وفي بدء الاجتماع. اخذ نيكسون علماً أن الحرب الأهلية قد اندلعت

في الأردن، وعلى الرغم من ان عادته السيطرة على أعصابه في مثل هذه الأحوال، فقد كان يحدث له أحياناً، بسبب شدة تأثره من سماع أخبار مزعجة، أن ينحرف مع عاطفته، وبعد أن عاد إلى وضعه من إطلاعه على أخبار وتحركات القوات التي صدق الأوامر الصادرة بشأنها، أخذ يحدث رؤساء التحرير المنذهلين: إذا تدخل العراق أو سورية، فإن إسرائيل وحدها أو الولايات المتحدة تقدر على ردهما، وهو يفضل ان تكون الولايات المتحدة (وكانت هذه طريقته في إسماعي ما كان لا يريد قوله لي) أما وقد أغبطه جو الاجتماع، أكمل نيكسون حديثه قائلاً: أنه سيحمل الروس أن يدفعوا غالياً ثمن إقامة مواقع لصواريخهم، على جوانب قناة السويس. وسنتدخل إذا تطلب الوضع، وإذا كان تدخلنا يعدل كفة الميزان. ويجب علينا توقع سماع أخبار مثيرة كهذه.

أكدت تصريحات نيكسون للدول التي يهمنا امرها كثيراً كالاتحاد السوفيتي والدول العربية المتشددة، بأننا لا نخادع. وبعد ظهر اليوم نفسه، أبلغت الرئيس إن القوات العراقية استّمرت في جاهزيّتها بينما كان الجيش الأردني يهزم قوات الفدائيين التي هي في متناول يده. أن أحداث اليوم بما فيها تصريحات الرئيس، قوّت من عزيمة صديقنا الشجاع، ملك الأردن. ويوم الجمعة المصادف للثامن عشر من شهر أيلول، رأى العالم الإسلامي، أن الجيش الأردني يستعيد تدريجياً السيطرة على عمان، ولو بصورة بطيئة. لكنه اصطدم بمقاومة عنيفة من الفدائيين في الشمال أيضاً، حيث أعلن الفلسطينيون بالفعل عن تشكيل منطقة محررة أما سورية التي كانت على بعد ستة عشر كيلو متراً من هناك، فقد قامت بإشاعة تهديدات كثيرة، ولم يحرك الجيش العراقي ساكناً، حتى أنه حيثما حدث خطر مفاجىء كان يتراجع ليبقى بعيداً عن مرماه. وناصر لم يتحرك.

استقبل نيكسون في اليوم نفسه، غولدا مائير في البيت الأبيض، وانصب القسم

الأكبر من محادثاتهما، على طلبات العون الإسرائيلية، ومخالفات وقف إطلاق النار السوفيتية المصرية، على طول قناة السويس، كان نيكسون ومائير على قناعة تامة ان الملك سيحرز الظفر، وان الأزمة قاربت على نهايتها، وصرح نيكسون أنه يتمنى إلا تتخذ إسرائيل أي قرار عاجل. فأكدت رئيسة الوزراء لنيكسون أن إسرائيل لن تقدم على أيّ إجراء دون إطلاع الولايات المتحدة عليه، غير أنه ليس هناك سبب موجب، يدعو إلى ذلك.

في الثامن عشر من شهر أيلول، اتضح أن موسكو كانت قد فهمت الموقف تماماً، فقد استدعى نائب وزير الشؤون الخارجية المعاون رودجر دافيس، لتسليمه مذكرة من حكومته. لقد انتهينا من عدم المبالاة المتعجرفة التي كانت موسكو تجيب بها على اتهاماتنا حول خرق وقف إطلاق النار على طول قناة السويس، فليست الآن قضية أمور مثيرة حول مخاطرة الامبريالية، التي بسببها وجهت موسكو نداء الالتزام بالهدوء والسكينة، أن الروس هذه المرة، يعبرون عن قلقهم تجاه الوضع الذي يزداد تعقيداً يوماً بعد يوم في الشرق الأوسط، ولم يوجه إلينا أي اتهام. وكانت موسكو تأمل في الوقت نفسه. أن تشاطرها الولايات المتحدة وجهة نظرها، في أن جميع الدول، حتى البعيدة عن المنطقة عليها أن تبدي تعلقها. بالإضافة إلى انها تتمنى أن تستخدم الولايات المتحدة نفوذها لدى إسرائيل بهذا الخصوص، ومن جهته فإن الاتحاد السوفيتي، كان قد طلب إلى حكومات": الأردن، والعراق، وسورية، ومصر، وضع حدّ للحرب الأهلية في الأردن. وأنه يبحث كذلك على وسيلة لإبلاغ قادة الحركة الفلسطينية وجهة نظره هذه. ويبلغنا هكذا (ما كان طبعاً حقيقياً) أن موسكو قد فقدت كل اتصال بالفدائيين، وهي في حلّ مما يقومون به من أعمال، لا سيما بالنسبة للرهائن.

لم تحتوي المذكرة أي تحذير مما اعتدنا عليه نتيجة شؤم الأحداث التي هناك، كما انها لم تتضمن أي تلميح للتواطؤ مع الملك. وكانت لهجتها ضعيفة. مجددة

التأكيد على ان الحكومة السوفيتية كما كانت سابقاً فهي تميل إلى تسوية أزمة الشرق الأوسط، على أساس قرار مجلس الأمن، كما أن لهجة وكالة تاس كانت مماثلة ايضاً، وتحذّر من تدخّل في ظروف عصيبة، لا تخفي عن أنظار أتباع موسكو بل الكرملين في الشرق الأوسط.

أن كل هذا، كان يتطابق مع التحليل الذي قام به، هول سوننفيلدت، أحد معاوني الذي حاول توقّع ماسوف تكون عليه ردود الفعل السوفيتية، تجاه انتشار قواتنا وتجاه موقفنا، فقد كتب ما يلي:

لن يَسرّ الروس من رؤية قوات الولايات المتحدة العسكرية في هذه المنطقة، مهما تكن الحال، أنهم سيستنكرون ذلك، وسيضايقوننا (بما فيه من هجوم مخاتل وإرسال طائرات استطلاع، فوق الجمهورية العربية المتحدة، وفوق الأسطول السادس) والتعرض لنا بصورة عامة. وما سوف يقلقهم أكثر، هو ما قمنا بوضعه سلفاً، والبرهان على تمكننا من استخدام قواتنا الجويّة. أن وجودنا البحري سوف يعتّم على قراراتهم ويرسم لنا الحدّ الذي نتمكن به من إسداء العون لإسرائيل فيما بعد، حال حدوث أزمة جديدة، وموقفنا في المسرح الدولي، على وجه العموم. (كل هذا سيكون في مصلحتنا، إذا توجّت عملياتنا بالنجاح وطبقت كما يلزم).

أصبحنا على يقين أن السوفيت يسعون إلى إيجاد مخرج من هذه الأزمة. في محادثة جرت بين نائب وزير الشؤون الخارجية، فاسيلي كوزنتزوف وسفيرنا بيم، في التاسع عشر من شهر أيلول، اليوم الذي تابع فيه الجيش الأردني إكمال تقدمه البطيء، ضد الفدائيين. اظهر كوزنتزوف أمله مجدداً ألا تكون لدينا نيّة التدخل في أزمة الأردن، لأن هذا ربما يخلق مصاعب لكل الشعوب ذات المصالح في المنطقة. وتساءل عن الغاية التي تعّزز فيها أسطولنا السادس، فأجاب بيم أنه غير مطلع على

انتشار قواتنا المسلحة، الأمر الذي كان واقعياً، ويعطي جواباً مقبولاً يمكّن من معالجة القلق السوفيتي.

الاستراتيجية المفضلة، كما كان يبدو لي، ليست ببعث الطمأنينة إلى نفوس السوفيت، بل الوصول إلى وضع لا يهدأ معه قلقهم،إلاّ بالتوسط لدى أصدقائهم المتشددين لوضع حدّ نهائي للأزمة. لذلك طلبت عدم الردّ عليهم حالياً، وأجبرنا الروس على الانتظار عشرة أيام، قبل إجابتنا على مذكرتنا، بخصوص مخالفات وقف إطلاق النار، ان الصمت كان أجدى وسيلة للتعبير ، بين موقف متساهل وآخر متشائم، وعناد يمكن أن يتحول إلى إثارة.

وعلى وجه العموم، كنت أعتقد أننا نقترب من نهاية الأزمة، وانا قد استعدنا قسماً كبيراً من مصداقيتنا. وفي عشية التاسع عشر من شهر أيلول، كلمت نيكسون هاتفياً في كامب ديفيد لأطلعه على المذكرة السوفيتية، وبيّنت له، أنها كانت حسب تقديري، دليل انسحاب مفاجىء". ونيكسون الذي يأبى دائماً تصديق الأخبار الطيبة ألقى ببعض الشكوك قائلاً: كل مرة يتظاهر فيها السوفيت بالتساهل، فإنها تدل على شؤم. وتتابع الأحداث أظهر أنه كان على حق.

وفي صباح يوم الأحد الموافق العشرين من شهر أيلول، كانت الدبابات السورية تجتاح الأردن.



أن أصحاب المسؤولية يرهقون بالتقارير النظرية، والمعلومات، والآمال والاضطراب، عند تدافع الأحداث. لذا يجب ابتداءً أن نبعد عنهم كل تعصب لآراء مسبقة. ومن النادر بروز صورة واضحة ومترابطة عن واقع الحال، وبمعنى آخر، فإن الذي يلقي الضوء، ويدعو إلى ترابط الوقائع، هو ذاك الذي يتخذ القرارات ويصمد أمام

التحدي. فيجني منه تقدماً، ويقدر بكل تدقيق ظروف حدوثه، والجوانب التي تمكنه من المشاركة فيه. أن قوة التحرك عند حدوث الأزمات، يمتّ بصلة إلى روح رياضية. إذ يجب ان تتخذ القرارات بسرعة وتكون قوة التحمل الطبيعي، رهن الاختبار إذ يقدّر أن تكون المحاكمة العقلية وسرعة البديهة ضروريتين في وقت الأزمات، للاطمئنان على أن المسؤولين، في الداخل والخارج، كلهم يعملون علىأساس المعلومات الموحدة والغاية نفسها، ومهما تكن الأوقات التي تعرفها مكاتب الوزارات في اللهو، في الأوقات العادية وأوقات الأزمات، فقد كنت على ثقة. ان كل وزارة تتلقى المعلومات نفسها، وأن كل مسؤوليها ومساعديهم الرئيسيين يهتمون بالعمل لهدف واحد.

أن تبويب الأحداث العظمى، في حيز محدود كان صعباً جداً، "إبان الأزمة الأردنية، بعد دخول قوات الملك إلى عمان، انقطعت أخبار القصر عن السفارة، فمن حين إلى آخر ، كان الملك والرفاعي يتصلان هاتفياً بسفيرنا وجهاز الاستقبال يعمل فردياً بين السفارة والقصر، لكنه كان واضحاً ويخشى قطعه. فلا يؤمن جانبه، وحظنا وافر لوجود دين براون في منصبه هناك، لأنه أحد دبلوماسيينا الأكفاء وأكثرهم خبرة وإطلاعاً. وكان يذهب من حين إلى آخر، لملاقاة الملك والرفاعي، في سيارة مصفحة، وكان حظ البريطانيين أوفر. إذ كانت سفارتهم قريبة من القصر. ولذا فمن وقت إلى آخر كان الملك يرسل ألينا مذكرات عن طريق لندن. وكانت تصل إلينا متأخرة، لأن الحكومة البريطانية، كانت تلحقها ببعض تعليقاتها الخاصة، ولم نكن نتمكن من فهمها، لأنها كانت تخشى قيامنا بأعمال مفاجئة، أن تقدير لندن كان خاطئاً، لكنها كانت على حق بهذا الانطباع، لأنها لو أعلمت بقية العواصم بخطورة الوضع وصعوبة السيطرة عليه، لأصبح الإقدام على عمل رادع واجباً، وهذا ما كنا نقدره في البيت الأبيض. وامتنعت لندن برقتها العادية عن إبداء شكوكها، وتمنت إيجاد تنسيق أكثر اعتدالاً.

ويوم السبت الموافق للتاسع عشر من شهر أيلول، تلقينا تقارير أولية، تشير إلى ان الدبابات السورية، أخذت مواقع داخل الأردن بما يقارب مائتين وخمسين متراً، ولما كان التقرير صادراً عن موظف بريطاني في القاهرة، وان لندن تعلمنا بذلك مباشرة، فاعتقدنا ان الحكومة البريطانية لا تعلّق عليه أهمية كبرى، ونحن كذلك. وعلى الرغم من صعوبة الاتصالات، كنا نعتقد أن: لو كان حسين قلقاً، فلا يعسر عليه إيجاد وسيلة لإعلامنا بذلك.

ولم يساورنا أدنى شك بما يجري يوم الأحد المصادف العشرين من شهر أيلول، ونحو الساعة السادسة، حسب توقيت واشنطن، قام كل من الملك والرفاعي بمحادثة هاتفية، وكل على انفراد، مع براون، وأبلغاه عن هجومين هامين، قامت بهما المصفحات السورية على الرمثا. فدمّر الأردنيون ثلاثين مصفحة، وصدّوا الهجوم. وطالب حسين بعون أمريكي دون تحديد، لكن الرفاعي أوضح المطلوب في تمام الساعةالثانية عشرة والنصف ظهراً. وطالب أيضاً باسم الملك أن تعلمهم أمريكا، عما إذا كانت سورية تنوي إدخال قوات إضافية. وفي نفس الساعة تقريباً، كانت فرقتان مصفحتان سوريتان تدخلان إلى الأردن وتقومان بهجوم على جبهة عريضة، الأمر الذي لم نستطيع التثبّت منه سوى في ساعات بعد الظهر.

واعتقدت بوجوب الإجابة، وإلاّ فإن أزمة الشرق الأوسط ستتفاقم، وإذا وفقنا في إيقاف زحف الأزمة، فإن هذا سيكون بمثابة أنبوبة أو كسجين للعرب المعتدلين. وكنت متفائلاً بوجه عام. وتوازن القوى كان إلى جانبنا محلياً وعالمياً. وفي مساء اليوم ذاته وفي ساعة متأخرة، بينّت للرئيس: إذا أظهر السوفيت عدم كفاءتهم في هذه المواقف، فسوف يلاقون مجابهة، وإذا كانوا فعلاً كذلك فسوف نربح المعركة فعلاً. ولم أرى حاجة لأن أبين له أيضاً أن في حال عزمهم على المجابهة، فلن يكون أمامنا سوى هذا الخيار.

وبعد تشاور بيني وبين روجرز وسيسكو، اتفقنا على عدة إجراءات سريعة، وصغتُ انا وسيسكو تصريحاً صدر باسم روجرز، طالباً وبعبارات حاسمة الانسحاب العاجل للقوات السورية، ومحذّراً من توسيع النزاع . وبعد الظهر، دعا سيسكو فورونتسوف لمقابلته، وسلّمه مذكرة قاسية، وكأنها جواب للمذكرة السوفيتية المؤرخة في الثامن عشر من شهر أيلول. وكان الجزء الرئيسي من مذكرتنا يتضمنِ ما يلي:

"أصبح الوضع حالياً أكثر خطورة، بسبب دخول القوات المصفحة السورية إلى الأراضي الأردنية، وتكثيف قوات أخرى هجومية في سورية، على طول ضفاف نهر الأردن، ان حكومة الولايات المتحدة تدين التدخل في الأردن، وتطالب بإنسحاب عاجل للقوات السورية. أن هذا العمل غير المقبول نهائياً من قبل سورية، إذا لم يتوقف ويُلغى، فإنه سيؤدي إلى توسيع النزاع الحالي. أن حكومة الولايات المتحدة، تطلب من الحكومة السوفيتية، ان توضح للحكومة السورية، فداحة الخطر الذي يمثله هذا العمل، وضرورة سحب هذه القوات من الأراضي الأردنية دون تأجيل، والعدول عن أي تدّخل لاحق في شؤون الأردن. لا تتمكن الحكومة السوفيتية من تجاهل النتائج الخطرة، التي يؤدي إليها توسيع النزاع. وأن حكومة الولايات المتحدة من جهتها، لا تزال تطالب باستمرار جميع الأطراف ذات العلاقة في المنطقة أن تبرهن على اعتدالها".

وأصدرت أمراً بعد ظهيرة يوم الأحد، ووافقني عليه الرئيس الذي كان أنئذ في كامب ديفيد:" أن تعود الفرقة المحمولة جوّاً من إلمانيا إلى قاعدة إبحارها وأن تتخلّى عن المناورات التي كنا طلبناها في الثامن عشر من شهر أيلول عندما ظهر أن الأزمة آخذة بالهدوء، وأن طول تمرين المناورة يؤجل رد فعل الفرقة إلى الساعة العاشرة،

وتأجيل تدخل الوحدات المستنفرة من قاعدتها في إلمانيا سيحدّد في الساعة الرابعة، كما صدرت الأوامر الى فوج ليكون جاهزاً للقفز بالمظلات، وطلبنا في السابعة عشرة، إلى سفارتنا في بون، إطلاع الحكومة الألمانية على تحركات الفرقة المحمولة جواً. وبيّنا ان وضعها في هذه الحالة من الجاهزية، أصبح ضرورياً لتوقّعنا الاضطرار إلى إجلاء الأمريكان الى الأردن. وصدر أمر إلى الفرقة أن تباشر حالاً التحرّك ودون حذر أو اتخاذ احتياطات أمنية وكانت غايتنا من وراء ذلك أن تعلم مصلحة المعلومات السوفيتية بالأمر. وتظاهرت الحكومة الألمانية بالتشاور مع بقية الحكومات الأوروبية الصديقة حول موضوع تحريك قواتنا. وتلقّي دين براون تعليمات لإطلاع حسين على تصريحاتنا المعلنة، وعلى مذكرتنا للسوفيت، وعدم إغلاق الباب أمام تدخل متوقّع من قبل الولايات المتحدة.

واتضح بعد الظهر، خبر الهجوم السوري، فأكملنا ما كنّا قد بدأنا به، من وضع مخططات عمل، انطلاقاً من مبدأ ردود فعل عسكرية من قبل الولايات المتحدة او إسرائيل، وكنّا جميعنا في الحكومة متفقين، على عدم القيام بذلك وبصورة مفاجئة، وأبلغت في السابع عشر من شهر أيلول، فريق العمل الخاص، أن الرئيس يفضل مواجهة التدخل العراقي أو السوري، بتدخل من قبل القوات الأمريكية فقط. وطلبت دراسة كل حالة انطلاقاً من معايير ثلاثة: القدرة على العمل ـ القدرة على مساندة الوضع ـ القدرة على منع التصعيد، وكنت طلبت كذلك دراسة عاجلة حول العمل الأمريكي وغيره، مقدراً بقاءنا على الحياد، مكتفين بتجميد القوات السوفيتية، بينما تكون إسرائيل قد أخذت في العمل، ووضعت كل هذه التوصيات تحت تصرّف الرئيس خلال نهاية الأسبوع، ولكني لا أعلم إذا كان قد قرأها.

قبل أن أقدم للرئيس المخطط النهائي، طلبت عقد اجتماع لفريق العمل الخاص في تمام الساعة التاسعة عشرة من يوم الأحد الموافق العشرين من شهر أيلول، ومنذ

هذه اللحظة حتى ساعة اجتماع مجلس الأمن القومي في اليوم التالي صباحاً، أصبحت الأزمة بالنسبة لنا في واشنطن سلسلة غير منقطعة من الاجتماعات والمكالمات الهاتفية.

ومن الساعة التاسعة عشرة حتى الساعة التاسعة عشرة وخمسين دقيقة، كان أهم أعضاء فريق العمل الخاص قد اجتمعوا في غرفة عمليات الطابق السفلي في البيت الأبيض،أولاً لإطلاع بعضهم البعض على مجريات أحداث آخر ساعة وإعادة النظر في مخططات التدخّل المتوقّع. أن تقارير المعسكرين، وتقارير أجهزة المخابرات، كانت تساوي بين القوات المتواجهة في كل من المعسكرين تقريباً.

وفي تمام الساعة التاسعة عشرة وخمسين دقيقة، عاد الرئيس من كامب ديفيد ودعاني لملاقاته في مكتبه، وبعد ظهر ذلك اليوم ، لم تنقطع مكالماتنا الهاتفية. وبيّنت له عند إعادة النظر بالمبادىء التي اتخذها فريق العمل الخاص وكيف أن التدخل العسكري الأحادي الجانب من قبلنا، يقلقني. وغيّر رأيه في عشيّة اليوم ذاته، وتماماً قبل الوقت المحدّد لاجتماع فريق العمل الخاص، قال لي: إذا كان هناك لا بدّ من القيام بعمل عسكري، فلا يجب ان نقوم به نحن. فرجوته حينذاك ان يستدعي إلى مكتبه، الاعضاء البارزين في فريق العمل الخاص،لإطلاعهم على وجهة نظره، ووضع اللمسات الأخيرة التي يستطيع أن يقوم بها رئيس يمارس السلطة، وعلى الرغم من انه اتفق بالرأي مع فريق العمل الخاص، رجوته ألاّ يطلب إعادة النظر مجدداً بجميع الاحتمالات التي أقرّت،طالما ان أصحاب العلاقة لم يسيطروا على رغباتهم وارادو اتباع وجهات نظر الرئيس، فوجب في هذه الحال استطلاع جميع الآراء واختيار احسنها، واتخاذ قرار نهائي بعد الاجتماع.

وفي حال اتخاذ هذا القرار، على نيكسون ان يتصرف بشجاعة منقطعة النظير،

ودون اغتباط، تتقاذفه حيويّته، ومعرفة حقيقة الوضع الدولي، وغريزته القدرية، التي توحي إليه أن لا شيء ممّا يقوم به، إلا ويكلّل بالنجاح. وفي هذا الظرف الذي يصعب فيه منع شجاعته ان تنحرف إلى مجازفة وصلابته إلى تحدٍّ. وكانت عادته في مثل هذه الحال، عدم صرف اهتمامه في سبيل جني مغانم سياسيّة ذات أمد قصير، بل كان همّه منصرفاً إلى جعلها في مصلحة الأمّة. ولا يمكن ان يطالب رئيس بأكثر من هذا. وكثيرون غيره عملوا أقلّ منه.

ومن الساعة العشرين إلى العشرين وعشرين دقيقة، تحادث نيكسون مع رؤساء فريق العمل الخاص: أليكي جونسون، توماس موورير، ديل هلمز، دافيد باكارد، وجون سيسكو، وبعد كلمة تشجيع موجزة، أضاف أنه يقّدر جهودهم حقّ قدرها. وبيّن أن مهمتهم هي إنقاذ الملك من كل تدخل خارجي. فكان ينتظر ان يعطي كل منهم رأيه. ودون الاهتمام بما يفكر فيه هو نفسه. وفي نهاية المطاف أعلمهم أني سأتكلم باسمه.

وفي الساعة العشرين وعشرين دقيقة. وبعد أن شجعّهم نشاط جديد، غادر أعضاء الفريق الخاص، مكتب الرئيس للمذاكرة بما لديهم من آراء يتبادلونها، في الأسفل في غرفة العمليات. وبقيت مع الرئيس عشر دقائق، لإعادة النظر في الخيارات المختلفة وتوصلنا إلى اتفاق. شريطة ان نكون ثابتين في مواقفنا دون حدّة، وإذا أقدمنا على عمل برويّة، تساعدنا جميع الفرص على الفوز به.

ونحو الساعة العشرين وعشرين دقيقة تماماً، استدعاني دنيس غرينهيل، بواسطة الهاتف الأمني، ليخبرني أنه استلم من حسين مخابرة هاتفية، أكد فيها بأنه سلم لسفير بريطانيا العظمى، وكررها مرتين قبل انقطاع الخط: ان حسين يطالب تجاه تفاقم الوضع، ان يُبدأ حالاً بهجمات جويّة.

وفي الساعة العشرين وخمس وثلاثين دقيقة، التحقت باجتماع فريق العمل

الخاص، الذي دام حتى الساعة الحادية والعشرين وخمس وثلاثين دقيقة تقريباً. أن المذكرة البريطانية كانت معززة للرأي لعام، بوجوب الانتظار والسماح لإسرائيل بالعمل، وكانت تنقصنا معلومات عن الأهداف الواجب قصفها. ولم نكن على مستوى نتمكن معه من الإجابة السريعة على طلب الملك وإرسال قوات أمريكية. أضف إلى ذلك، إذا كانت الولايات المتحدة ترغب في احتواء تدخل سوفيتي متوقّع، فان عليها استعجال استعداداتها والعمل على تكثيف قدرتها لتستطيع القيام بعمليات جويّة، هذا في حال عدم قيام إسرائيل بهجوم متوقّع. وأخيراً أقرّ فريق العمل الخاص التوصيات التالية ورفعها إلى الرئيس:

- تقليص فترة تعبئة الفرقة المحمولة جوّاً،المتمركزة في ألمانيا.
- وضع الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جوّاً، في حالة تعبئة كاملة.
- إرسال حاملة طائرات، وطائرة استطلاع إلى مطار تل أبيب، للحصول على معلومات عن الأهداف المطلوبة.

وبمقولة اخرى، فأننا نعطي انطباعاً ان هناك تدخلاً أمريكياً أو إسرائيلياً مفاجئاً.

ونحو الساعة الحادية والعشرين وسبع وعشرين دقيقة، طلبت إلى سيسكو مرافقتي، لنقل التوصيات إلى الرئيس، وكنت حريصاً على ان يكون سيسكو الذي تمرّ عليه جميع البرقيات والهواتف، قادراً على استيعاب فكرة البيت الأبيض بكل ملابساتها. وفي المناسبة نفسها، هذا يبقي روجرز على إطلاع، لأنه فضّل البقاء في مكتبه، مع هاتف تحت تصرّفه ليتابع عن كثب تطوّرات الوضع. عند وصولنا، كان علينا أن ننتظر الرئيس الذي صمّم على الذهاب للاشتراك بلعبة (البولينغ). وبمساعدة احد حرّاسه الخاصين، توصّلنا إلى معرفة المكان الذي يلعب فيه وهو كناية

عن ممّر طويل معتم في المركز الإداري. فأصغى بانتباه إلى تقريرنا وبقي محتفظاً بكرة في يده وبصورة غير لائقة. وكانت هذه إحدى المرّات النادرة التي أشاهد فيها نيكسون دون سترة وربطة عنق. وبيّن أنه مهما يكن العمل الذي نقوم به، يجب ان ينجح، وكان مصمّماً على إيقاف الهجوم السوري، ووافق على ضرورة إجراء اتصال بالسفير الإسرائيلي، ووعدته القيام بذلك.

نحو الساعة الثانية والعشرين، عدت إلى مكتبي في البيت الأبيض وطلبت رابين فكان في نيويورك، يحضر حفلة عشاء أقيمت على شرف غولدا مائير وسألته عن المعلومات التي لدى إسرائيل حول تحركات القوات السورية، فأجاب رابين انه بموجب الاعتبارات الإسرائيلية، هناك ما يقرب من مائتي دبّابة سوريّة، ترابط في منطقة أربد. فبيّنت له: أن قد طُلبت مساعدتنا، لكننا لا نمتلك المعلومات اللازمة.فهل يتمكن سلاح الجو الإسرائيلي من تنفيذ بعض طلعات الاستطلاع النهارية وإعلامنا النتيجة؟ ولم يفت الأمر على رابين، فسأل عمّا إذا كنّا نحبّذ أن تقوم إسرائيل بإجراء انتقامي جوّي، حالما تشير المعلومات إلى تقدّم سوري. فأجبت أننا نفضّل تقرير ذلك بعد الإطلاع على نتائج الطلعات الاستطلاعية ووصلنا إلى هنا في محادثتنا،حين أوصلوا إليّ مذكرة جديدة عاجلة من الملك، وكانت هذه المرّة موجهة إلينا مباشرة. فقلت لرابين انني سأطلبه بعد قليل.

أن مذكرة حسين نقلت هاتفياً إلى سفيرنا قبل ساعتين، وكان فيها عرض لازدياد الحالة سوءاً على أثر تدخل سوري جديد وبقوات كبيرة، وتمكن تلك القوات من احتلال أربد. وقوات العاصمة كانت في فوضى، وفي سبيل انقاذ البلد، كان الملك يرى ضرورة تدخّل جوي، بل ربّما تضطرّه الحال إلى استدعاء قوات برية. وتعكس ما كان يعمل سابقاً، فهو يرجونا إبلاغ بريطانيا العظمى عن الوضع.

وفي الساعة الثانية والعشرين وعشر دقائق، كلمنا روجرز هاتفياً أنا وسيسكو

معاً، وكانت المكالمة من مكتبي، لإطلاعه على ما دار بيني وبين رابين من حديث، وطلب العون المؤثّر من قبل الملك حسين. واتفقنا على أسداء النصح للرئيس لقبول قيام إسرائيل بغارات جويّة انتقامية. وأيّد روجرز أن ليس لدينا سوى هذا الخيار.

وفي الساعة الثانية والعشرين وخمس وثلاثين دقيقة، كنت أهاتف رابين بحضور سيسكو الذي كان دائماً على الخط. وفي لحظة إجراء المكالمة، كان نيكسون قد انتهى من لعبة البولينغ، ودخل مكتبي، وهو في لباسه العادي، فأطلعت رابين على الوضع المستجد في الأردن، دون المجيء على ذكر المصدر. واوشكت ان أقول له، بعد الاستئذان من الرئيس ووزير الشؤون الخارجيّة، أن في حال تأكيد طائرات الاستطلاع ما كنّا تحادثنا بصدده، فسوف نغضّ الطرف عن هجوم إسرائيلي، بالإضافة إلى اننا سوف نعوّض الخسائر الماديّة، وسنقوم بما يمكننا من منع التدخل الروسي. وحتى لا يكون هناك سوء فهم كرّر رابين ما حدّثته به كلمة كلمة، ثم أنهى المكالمة وذهب ليأخذ رأي رئيسة الوزراء.

وفي الساعة الثانية والعشرين وخمس وأربعين دقيقة، وترقّباً لهجوم إسرائيلي، خلال الليل استدعيت مجدّداً فريق العمل الخاص لاجتماع في منتصف الليل، وطلبت إلى معاونيّ، لا سيما هول سوندرز. وريشارد كينيدي، لجمع كافة المعلومات الممكنة، ثم طلبت هاتفياً سفير بريطانيا العظمى جون فريمان، لإبلاغه طلب الملك حسين ولأخبره عن اتصالنا بالسفير الإسرائيلي، دون الدخول بالتفاصيل، وخلال المكالمة، كان نيكسون لا يزال في مكتبي، وتحدثنا معاً.

وفي الساعة الثالثة والعشرين وخمس عشرة دقيقة، استدعيت هاتفياً السكرتيرة الخاصّة لرئيس الوزراء هيث، عن طريق خط الهاتف الأمني، لأقرأ لها مذكرة الملك حسين، وأعلمها عن اتصالاتنا بالسفير الإسرائيلي، وأن الإسرائيليين

سيكثّفون طلعات الاستطلاع، التي تتوقف عليها قراراتنا القادمة. وطلب مني نيكسون الكفّ عن استخدام الهاتف الأمني، فربما يسمعني من يمرّ من الناس في شارع بنسلفانيا القريب من مكتبي، او أن يعمد البعض إلى قطع المكالمة عن طريق خطوط هواتفهم العادية.

وفي الساعة الثالثة والعشرين والدقيقة الثلاثين، استدعاني رابين هاتفياً لينقل إلي جواب غولدا مائير المتضمن: ان إسرائيل ستكثّف منذ الفجر طلعات الاستطلاع، وبشأن الوضع حول إربد، فهو خطير، والقادة العسكريون الإسرائيليون غير مقتنعين على أن العمليات الجوية ستكون كافية لاستعادة الوضع ستبلغ إسرائيل رأيها إلى واشنطن بعد تدقيق نتائج طلعات الاستطلاع، ولن تقدم على امر إلاّ بعد إجراء مشاورات جديدة. سمع نيكسون ما دار بيننا من حديث لكنّه لم يعلّق عليه، وغادر مكتبي.

وفي منتصف الليل، اجتمع فريق العمل الخاص من جديد في غرفة العمليات، فأطلعته على الأحداث المستجدّة، وتناقشنا حول ما يحسن عمله، إذا قامت إسرائيل بأي هجوم خلال الساعات الأربع والعشرين القادمة، وطلبت إليهم إجراء دراسة في الليلة نفسها لأربعة مواضيع هامّة:

- الإجراءات الواجب اتخاذها في حالة ردّ فعل سوفيتي.
- منهاج العون العسكري لإسرائيل والأردن لتغطية خسائرهما.
- طريقة إيقاف الكونغرس على حقائق الأحداث الأخيرة.
- وأخيراً مخطّط دبلوماسي نتمكن من خلاله إطلاع حلفائنا على مجريات الأمور، وحضّ الروس على عدم التدخل بالأمر.

واكدت بالنسبة للسوفيت على ما يلي:

استمالتهم لاستعمال نفوذهم لدى السوريين لينسحبوا والتاكيد بعدم الإفلات من ردّ فعل انتقامي من قبل إسرائيل، إذا استمّر الضغط عليها... وحسب تقديري، اننا إذا استسلمنا الآن، فلن يكون أمامنا سوى مشاكل تتلاحق.

وبعد منتصف الليل بخمس وأربعين دقيقة، استدعيت روجرز هاتفياً في بيته لأعلمه بمحادثتي مع رابين واجتماع فريق العمل الخاص، والاستعلام عما إذا كان لديه أمور جديدة؟ فلم يكن لديه شيء! وللمرة الأولى، كان القادة الكبار على اتفاق في الرأي. ونحو الساعة الواحدة صباحاً، اتصلت بنيكسون لأطلعه بإيجاز على نتيجة اجتماع فريق العمل الخاص. فأصغى إلى ما اوجزت من الزاوية التي كانت الوزارات المختلفة ترى منها ردود الفعل السوفيتي. وذهل جداً عندما اعلمته عن خوف وزارة الدفاع من قيام الروس بهجمات جويّة ضد إسرائيل كفعل انتقامي، فأجاب: " أنني لا أصدّق ذلك" فعدت إلى غرفتي لأنام، وكانت الساعة الثانية من صباح يوم الاثنين الحادي والعشرين من شهر أيلول.

وفي الساعة الخامسة والربع من الصباح ذاته، أيقظني هيغ الذي استدعاه رابين هاتفياً، وبيّن قائلاً: على الرغم من عدم الحصول بعد على تقرير بنتيجة الطلعات الاستطلاعية، فإن إسرائيل ترى أن الهجمات الجوية وحدها غير كافية، ولربما تحتاج إلى هجوم برّي أيضاً، سيكون الإسرائيليون ممتنّين لأمريكا، لإطلاعهم على وجهة نظرهم حول الموضوع خلال ساعتين أو ثلاثة من الزمن.

وفي الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والثلاثين، أيقظت الرئيس هاتفياً لأطلعه على جواب رابين الأولي. وأكدت على تأجيل قراره واستدعاء مستشاريه الرئيسيين في تمام الساعة السابعة والنصف. ولما كان هو يعلم حقاً ان طلب تدخل الجيش الإسرائيلي

يزيد من حدّة الوضع. فلم يرغب في استكمال الحديث: وأجابني: نتخذ قرارنا الآن، ثم تذاكرنا حول تأثيرات الهجوم البرّي الإسرائيلي وكلّفني بأخذ رأي سيسكو.

أخذ بالتحدّث إلى هيغ عن ضرورة استدعاء سيسكو دون روجرز، واستخلصت وجوب اطلاع روجرز، ففوجئت بنيكسون يستدعيني لقد عزم على الموافقة على تدخل برّي إسرائيلي وأملى عليّ مذكّرة موجهة إلى رابين. ثم أضاف:لقد اتخذت قراري، لا حاجة إلى الاستعانة برأي أحد، قل لرابين أن يبدأ العمل. ولما كنت لا أرغب أن أترك الرئيس يغامر بمجابهة خطيرة كهذه مع الاتحاد السوفيتي، دون استشارة المقربين من مستشاريه، إذ أن قيام إسرائيل بعملية برّية، يسبّب اندلاع حرب في الشرق الأوسط وواجبي نحو نيكسون يدعوني إلى العودة إلى روجرز وليرد وأخذ رأيهما، ولن تقدم إسرائيل فعلاً على عملية كهذه دون تعبئة. استدعيت سيسكو فكان متفقاً بالراي مع الرئيس. ثم طلبت روجرز، فأبدى تحفظات حقيقية لا سيما وان ليس هناك طلب رسمي بمساندة برّية من قبل الأردن؟ أما ليرد فأجاب بغموض إذ أراد أولاً تدقيق المعلومات التي نملكها. وخلال كل هذه المكالمات الهاتفية، استدعاني الرئيس عدة مرّات لأضيف بعض تنقيحات على نصّ قراره. وفي الساعة السابعة والدقيقة العاشرة طلبت مجدداً وبصورة عاجلة استدعاء أهم مستشاريه، فقبل على مضض. فأعلم هيغ رابين، ان جواب أمريكا لن يصل إليه قبل منتصف النهار.

كانت حكومتنا مجمعة الرأي على قيام إسرائيل بغارات جوية. لكن الآراء اختلفت حول عمليات إسرائيل البّرية. وبالنسبة لي يجب ألاّ يُبَت بالأمر بسرعة زائدة، لأن الجواب الإسرائيلي مع تضمنه التهديد بحرب برّيه، فإنه يثير كذلك مشكلة سياسية تجب معالجتها. وإذا رأت إسرائيل ضرورة القيام بهجوم برّي. يلزمها تعبئة، وتتطلب هذه التعبئة على الأقل ثمان وأربعين ساعة. إن إسرائيل لا يوافقها أن تتخلّى عن التعبئة، لأنها لا تسمح للسوريين بإحراز نصر مهما كانت ردود فعلنا. أننا نمتلك إذا

أنبوبة اوكسجين، شريطة أن يقوم حسين بالضرب في الوقت المطلوب، الوقت الذي نستخدمه للضغط على سورية، وربما نصل إلى نقطة، تبدو فيها الأزمة مشرفة على الانتهاء من ذاتها ودون حرب. عندما نشاهد تعزيز القوات الإسرائيلية على هضبة الجولان. وعلى أطراف الاردن فيأخذ سورية القلق فعلاً، وناصر لا يدري ما يعمل لايقاف عمليات، توشك سرعة إشراكه في معضلة ليس لها حل، ونتجت عنها مآسي عام ١٩٦٧، فهل يتوقف عن مبدأ الضمان العربي إذا بقى دون حراك، أو يجازف بهزيمة أخرى مهينة بتدخّله. أن هذه الاعتبارات والتقديرات نفسها يفكّر بها السوفيت. وعلى العموم فإن التعبئة الإسرائيلية، كانت بالتوازي مع عرض قوّتنا. وستنتهي إلى دعم جناحنا ضدّ عدونا وتتيح لنا وقتاً لايجاد حلّ ولندع الحرب جانباً.

اجتمع مجلس الأمن القومي في الحادي والعشرين من شهر أيلول ودارت المناقشات أولاً حول ما يجب أعداده من ردّ على السؤال الإسرائيلي، حول موضوع موقفنا في حال القيام بعمليات برّية. وفي الحقيقة، لقد تحوّلت إلى جدال فلسفي جديد حول طريقة إيجاد حلول للأزمات، كان روجرز يؤيد تصعيداً بطيئاً منظماً، ما دام ذلك ضرورياً. وكان نيكسون يوافقني الراي، في اننا سنجد أنفسنا امام أزمة معقّدة الحل. ولأسباب عدّة، بما فيها مجابهة الروس. فإن روجرز كان يعارض كلياً تدخل الجيش الإسرائيلي برّاً. وكان نيكسون وانا على اتفاق في الرأي، إذا أردنا اجتناب مجابهة مع الروس، يجب علينا أن نقدّر بسرعة، المخاطر التي لا حول لهم باحتمالها، أفضل من السماح لهم بإجابتنا على كل خطوة نخطوها تجاه التصعيد بإجراءات مماثلة، وكان روجرز يريد أن يتوقف القرار النهائي على نتيجة السؤال التالي:

هل بنيّة السوريين التقدم إلى الجنوب من أربد؟

بالنسبة لي، أن الأزمة لن تنتهي، إلا عند انسحاب السوريين نهائياً من المنطقة

المسمّاة" المنطقة الحرة" التي يحتلّونها في شمال الأردن. وعند الختام، بتّ نيكسون بالأمر قائلاً: سيّعلم سيسكو إسرائيل ، ان الولايات المتحدة موافقة مبدئياً على اشتراك الجيش الإسرائيلي بالمعارك البرّية، شريطة أخذ رأي الملك، وإجراء مشاورات مسبقة قبل اتخاذ القرار الأخير.

لم أكن متحمّساً لموضوع حسين، وحسب تقديري، يجب على إسرائيل ألا تتدخّل إلاّ إذا أشرف الأردنيون على الانهيار، فلم تكن هناك حاجة لتعريض موقف حسين للخطر المبكر، تجاه العالم العربي، لقد بدأت التعبئة الإسرائيلية بكل صمت، وبالإضافة إلى انتشار قواتنا، فإن هذا يشكّل تهديداً فعلياً.

لو نفذ صبر الحكومة الإسرائيلية ورغبت في الهجوم، لكانت إجابتنا المعتدلة ولدت شكوكاً يستغلّها الأعداء. ولحسن الحظ فإن إسرائيل بعد تقدير لاستراتيجيتها الخاصّة أخذت بالتعبئة، دون التأكيد على جواب نهائي. وهكذا فقد تصرّفت ضمن الحدود التي كنا نرغبها، وقصداً من الحكومة الإسرائيلية في الوقوف على جوابنا النهائي، وهذا يدل على حكمة تقدر، فقد وجّهت إلينا سلسلة من الأسئلة حول موقفنا عند تفاقم النزاع. واستغرق وقت إعداد الأجوبة أكبر قدر من النهار، ولم تبق هناك حاجة لاتخاذ قرار نهائي حول موضوع هجوم برّي. وكانت فرقتان إسرائيليتان تتحركان نحو هضبة الجولان مهدّدة جناح القوات السورية المتقدّمة في الأردن.

وتلقّينا صباح اليوم التالي مذكرة من الرئيس بومبيدو، تعبّر عن قلقه العميق، حول تدخل أمريكي متوقّع، ويطلب من نيكسون بإلحاح وزن قراره. لم تكن هذه المذكرة في غاية التشجيع، وسمحت لنا بالتفكير أن فرنسا كانت تحاول أن تنفصل عنّا والأزمة في أوجها. ومع ذلك فقد كان لهذه المذكرة، جانبها الايجابي، بأن أظهرت لنا في أن استعداداتنا كانت معلومة. فإن ما يقلق باريس، يقلق كذلك موسكو ودمشق.

وخصّص الباقي من النهار لاجتماعات فريق العمل الخاص، المتعلّقة بتنظيم جاهزية تعبئتنا، وصياغة الجواب لإسرائيل، الذي لن يسمح لها باستعمال الفيتو حول علاقاتنا مع البلدان الأخرى.

وجرى الحادث الأكثر أهمية، عند نهاية النهار، فقد جاء القائم بالأعمال السوفيتي، يولي فورونتزوف، إلى سيسكو ليسلّمه جواب مذكرتنا،التي أصدرناها الليلة الفائته، التي نطالب بها انسحاباً عاجلاً للقوات السورية. أن سرعة الإجابة تدل على ان الكرملين كان قلقاً جداً. وبالنسبة للوضع التهديدي والتفاخري تقريباً في انتشار قواتنا، فإن لهجة الجواب كانت معتدلة بوضوح تام،كانت الحكومة السوفيتية ترى أننا نشاطرها القلق حول تفاقم الوضع في الأردن، وبالنسبة لها فإن التدخل في شؤون الأردن من قبل دول أخرى، غير مقبول لديها. أمّا وقد أظهروا معاداتهم بصورة غير مباشرة، للتدخل السوري، فإن السوفيت، يعبّرون عن أملهم في حثّ إسرائيل على عدم السير في هذه الطريق ولكي يظهروا أنهم يمارسون ضغطاً على سورية لكي تنسحب، فقد ورد في المذكرة، ان الحكومة السوفيتية تقف الموقف نفسه في اتصالاتها مع الحكومة السورية.

ورغبة من سيسكو في الابقاء على سريان إشاعة تدخل أمريكي، فلقد أهتّم على قلق السوفيت وعندما أراد فورونتزوف معرفة عمّا إذا كان الأردن قد طلب منّا العون، أجابه سيسكو حالاً. أنه غير مسموح له نشر محادثاتنا الدبلوماسيّة مع الملك حسين، وعندما أراد فورونتزوف بعد ذلك استطلاع تحركات الأسطول السادس، اكتفى سيسكو بتسجيل السؤال. وعلى كل الأحول، فقد وجدت سلوكيّة فورونتزوف مشجّعة. إلاّ إذا كان الروس يحاولون خداعنا، فإن تصريحهم كان يعني انهم يمارسون ضغطاً على الحكومة السورية المتشددة لايقاف هجومها، أما بالنسبة لنا،

فماذا تعني خديعتنا، وقواتنا في البحر الأبيض تتزايد كل يوم، وحيث إسرائيل كانت في تعبئة، فهذا بكل تأكيد يُعد طيشاً.

إن الساعات الأربع والعشرين التي خلت، كانت حرجة لكنها كانت حاسمة حقاً. والذي بدأ بمجابهة مداهمة ضد الأردن، أصبح اليوم مغايراً، ويعود هذا التحوّل إلى شجاعة الملك حسين، وشهامة جيشه، ويتعلّق أيضاً بانتشار قواتنا وتأمين مساندتنا بالعتاد الحربي، الأمر الذي ساعد في تقليص أمد الأزمة، وبعث التردد لدى خصوم الملك. وكنت على ثقة تامة من نفسي، أن أشير على الرئيس خلال المحادثتين الهاتفيتين اللتين أقصد إجراءهما معه قبل نومه، ألاّ يلغي سفرته الى منطقة الشرق الأوسط المتوقّع بدؤها يوم الأحد القادم الموافق للسابع والعشرين من شهر أيلول: " وإذا لم يُقدم الإسرائيليون علىأي أمر حتى يوم الخميس، ستعود الأمور إلى نصابها".

وفي اجتماع الفريق الخاص الذي جرى في تمام الساعة الثامنة والنصف صباح اليوم التالي المصادف في الثاني والعشرين من شهر أيلول، تلقينا أخباراً طيبّة. ان الأردنين وقد شجعتهم ردود فعلنا، ولأن سلاح الجو السوري (بقيادة الفريق حافظ الأسد) امتنع عن التدخل فأخذوا (أي الأردنيون) بمهاجمة المصفحات السورية المتمركزة حول أربد، بطائراتهم ويمكن تقدير الخسائر السورية بمائة وعشرين دبابة، منها ستون الى تسعين دبابة قد دمرت والباقي حدثت فيها أعطال منعتها من الاشتراك في المعركة، أما بشأن القوات العراقية، التي شكلت لنا في بداية الأمر قلقاً أساسياً، فلم تتحرّك أبداً وأعلمتنا مصر أن الروس قاموا بجهود تقدّر لدى السوريين لحملهم على إعادة النظر في موقفهم تجاه الأردن، واكملت القوات الإسرائيلية تجمعها على هضبة الجولان وبعد أن استقر الوضع العسكري، طلبت انا وسيسكو مرة أخرى، من رابين، عدم قيام إسرائيل بأي هجوم دون أخذ رأينا مسبقاً، وفي الوقت ذاته، لإكمال ضغوطنا، كنا نكمل استعداداتنا وأرسلنا طائرات إضافية، إلى

أوروبا. ووضعت جميع الوحدات في حالة الاستعداد التام، كما وضع فوجان، من الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً، في حالة استعداد خاص خلال ست ساعات.

وتبيّن مذكرتي أن هناك عدة محادثات جرت مع الرئيس، وعند الظهيرة، فإن اجتماع مجلس الأمن القومي، لم يدم سوى نصف ساعة، وانتهى بقرار من الرئيس بتوجيه مذكرة تشجيع ومساندة إلى حسين، ولقد بيّنت للرئيس، أننا قد توصلنا إلى النقطة، التي وضعنا في سبيلها جميع إمكانياتنا، وعلى وجه العموم، فإننا قمنا باستعدادات تمكننا من صد كل عنف متوقع وكثّفنا معظم رسائلنا، والقرار النهائي يتوقف الآن، على تقديرات المعسكر الآخر، وطريقة تصرّفه حيال الأمور.

وفي ساعات بعد الظهر، تلقينا جوابين : الأول من الأردن، والآخر من إسرائيل. لم يكن الملك حسين متحمساً لموضوع هجوم جوي. ويرفض مساندة بريّة من قبل الجيش الإسرائيلي. ويعلمنا الإسرائيليون أن هجوم وحداتهم في حال القيام به، سيقتصر فقط على الأردن، من دون أن يقوموا بمهاجمة سورية. وكان يرغب الإسرائيليون في توضيح نوايانا، مؤكدين بأنهم ليسوا على استعداد للتدخل من دون إعطاء تأكيدات. أن الجوابين والحق يقال: يلغي أحدهما الآخر. وفي هذا الموقف فإن الخيار النهائي، يتوقف على التقدير الذي تراه كل من موسكو ودمشق. بناء على تزايد قدرتنا على الرد، والجاهزية الإسرائيلية.

وعزّزت تفاؤلي محادثة أجريتها مع القائم بالأعمال السوفيتي،في حين أني كنت لاأشترك أبداً في حفلات الاستقبال التي تجري في السفارات، فقد عزمت على المشاركة في حفلة دعت إليها البعثة المصرية، أمسيّة الثاني والعشرين من شهر أيلول، لأدلل جيداً أن سياستنا غير مناهضة للعرب. وفورونتزوف القلق سدّ عليّ الطريق، بحضور عدة مدعوّين، وسألني عن عدم جوابنا على المذكرة السوفيتية التي

سلمنا أياها الليلة الماضية. فأجبته أن لا شيء جديد نضيفه إلى ما تحدثنا فيه يوم الأحد، وعلى القوات السورية ان تنسحب. فأعاد عليّ فورونتزوف السؤال هل تكتفون بتوقف القوات السورية في المكان الذي هي فيه الآن، فأجبته بالنفي، وقلت يجب ان تعود إلى سورية. وكاد يبدي شكوكه منّا وأردف قائلاً: ان الأردن لا يشكل امراً حيوياً بالنسبة للروس. لكن التدخل الأمريكي سيجلب للولايات المتحدة صعوبات قاسية لدى كل العالم العربي؟، فأجبته في الحال: توسّعوا أنتم فتربحوا كل المجالات.



في سبيل أزمة ، تتوقف القضية على حسن اختيار الضغوط التي يجب تطبيقها لحمل الخصم على إجراء تسوية، دون ان يترك له انطباع، بحتميّة المجابهة ومقابل ذلك، فإن الظرف الدقيق هو ذاك الذي يبدّي فيه المعسكر الآخر رغبة في المفاوضة. فيجب حينذاك التنازل عن بعض الأنانية واظهار حسن نية لاستعجال الأمور. وهنا يقبع الخطأ. ان الفرصة الوحيدة لإجراء تنازلات، هي بعد التغلّب على الأزمة والتوصّل إلى تسوية أو إلى التوفيق بين الطرفين المتخاصمين عندها يصبح الاعتدال شهامة ودلالة النيّة الخيّرة. وإذا تقدمنا بذلك في وقت مبكر، فتوشك ان تفشل القضية موجدة شكوكاً في اللحظة الأخيرة، فيأخذ الخصم بالتساؤل عن حقيقة ضرورة دفع ثمن التسوية. وأني على يقين، مثلاً لو كنّا أوقفنا العمليات العسكرية في كوريا عام ١٩٥١، في حين أننا كنا قد بدأنا في محادثات لوقف إطلاق النار، لكنا قد أسهمنا في إطالة هذه المحادثات، وهكذا مع مرور الزمن، توصلنا إلى النتيجة ذاتها حول موضوع أيقاف القصف في فيتنام عام ١٩٦٨، على الرغم من رؤيتي تغيّر الأمور في الظروف الحاضرة.

ولأجل هذا، ففي يوم الأربعاء الموافق للثالث والعشرين من شهر أيلول، وعلى

الرغم من أن الانسحاب السوري قد خطط له ، دعوت الى تعزيز قواتنا في منطقة البحر الأبيض المتوسط. ان هذا اليوم سيكون عصيباً فإذا لم تنسحب القوات السورية نهائياً، واذا اكتفت بالانكفاء في مكانها، فان اسرائيل ستتدخل ـ مهما تكن النتائج محتملة الوقوع ـ وإلا فيعتبر موقفنا خديعة. فيبقى لدينا والحالة هذه احتمالان: إما العودة الى القتال، أو بقاء احتلال السوريين «للمنطقة المحرّرة» وبهذا يصبح بقاء عرش الملك مهدداً. وانطلاقاً من هذا فإن من الحكمة تعزيز توازن أسباب المفاوضة، حتى الانسحاب النهائي والشامل للقوات السورية. وأي تهاون من قبلنا سيُكشف حالاً، ويترجم الى غير ما نقصد في هذا الظرف الحرج. فأرسلنا على عجل أربع خافرات من الولايات المتحدة الى البحر الأبيض المتوسط. ويجب ان تمّر غوّاصتا هجوم بمضيق جبل طارق في الخامس والعشرين والتاسع والعشرين من شهر أيلول. وأكمل فريق العمل الخاص، في اجتماعه الصباحي، دارسة الاجراءات المستعجلة الواجب اتخاذها، في حال تدخل سوفيتي.

وهنا برز خلاف بيني وبين روجرز، أثناء اجتماع مجلس الأمن القومي، الذي عقد بعد قليل. لقد تبيّن لروجرز بصورة عفوية، أن وعود مساندة تدخل اسرائيلي التي أقرّها الرئيس بحضوره، قبل يومين، لا تُلزم الحكومة، وطالب بإلغائها رسمياً. ان الظرف غير مناسب لنزاع مؤكّد، وسيبعث الشك في نفوس السوفيت والإسرائيليين والسوريين. والفرصة متاحة لنا لتسوية جميع أمورنا بعد التأكد من الانسحاب السوري. أضف إلى ذلك، أننا اعلنا الليلة الماضية، عدم تحبيذنا لتدخل اسرائيلي من جانب واحد. واسرائيل بدافع تعقّل منها لم تُقدم على شيء. وافقني الرئيس على رأيي، وطلب من سيسكو التأكيد على رابين اننا لا نقبل بهجوم اسرائيلي دون أخذ رأينا مسبقاً. وبعد مضي بعض الوقت من اليوم ذاته أذعنت إسرائيل دون تحفظّ.

وحسب الوثائق المتجمعة لدي، تحادثت مع الرئيس ما لا يقل عن خمس مرّات، بدءاً من الساعة التاسعة والنصف وحتى الساعة الرابعة عشر وخمسين دقيقة، الساعة التي تسلّمنا فيها الخبر الحاسم بمغادرة الدبابات السورية الأراضي الأردنية.

فلم يبقَ علينا سوى الإستمتاع بالنجاح الذي احرزناه. واستدعيت أعضاء فريق العمل الخاص، الواحد بعد الآخر، لأقدّم لهم شكري الخاص، على المساعدة العظيمة، التي قدّموها. ولم أنسَ توجيه شكرى الى سيسكو الذي قام بالتعاون التام، الذي لم يهتم فقط بالمساعي الدبلوماسية بهمة وفعالية، وأظهر انه أداة لا غنىعنها بين وزارة الشؤون الخارجية والبيت الأبيض. وفي برقيّة أرسلها الملك حسين، كان يعبّر عن شكره وامتنانه وإكباره. وأعددت تقريراً للكونغرس والمؤتمرات الصحفية.

وللتدليل على أن الأمور عادت إلى طبيعتها، فإن اناتولي دوبرينين عاد الى الظهور ثانية في واشنطن. لقد حضر لمقابلتي في الخامس والعشرين من شهر ايلول، وعبّر لي عن ألمه لعدم اهتمامنا بالإجابة على المذكرة السوفيتية المؤرخة في الحادي والعشرين من شهر أيلول. فأكدت له ان خلال العام الفائت، كانت كل مذكرة سوفيتية تُتبع بعمل غير ودّي، يناقض مضمون المذكرة المقدمة. فلقد انتظرنا أذاً ، لنرى أي اتجاه سوف تسير فيه الأحداث. فأكّد لي ثانية ان الاتحاد السوفيتي، لم يكن علىعلم بالمخطط السوري لدخول الأردن، لكنّه استدرك قائلاً، ان المستشارين السوفيت تركوا الوحدات السورية، قبل إجتيازها الحدود ثم أضاف قائلاً بلهجة مازح إن الكرملين راغب في تناسي الماضي، وراغب في اللقاء لمناقشة مشاكل الشرق الاوسط. تمعنت في الأمر ووجدت موضوعاً أطلع الرئيس عليه، وأبديت استعداداً أثناء المحادثة لأوكد له، ان الولايات المتحدة لن تقوم بأية عملية عسكرية في الأردن. دون تدخل قوّات خارجية. وأرسلنا في اليوم نفسه المذكرة التالية إلى إسرائيل:

حسب آخر المعلومات التي وصلتنا، فان القوات التي دخلت الإردن قد انكفأت إلى سورية. ونعتقد ان الاجراءات التي اتخذتها إسرائيل أسهمت في هذا الانسحاب، ونحن ممتنّون على الطريقة الإيجابية، التي ساعدتنا في مساعينا وسرعة ردود فعلها. وإذا سلمنّا بحدوث جديد في المستقبل، فإن الظروف قد تغيّرت، ونحن نعتقد أن ما أجرينا من محادثات دبلوماسيّة، عندما قامت سورية بدخول الأردن، غير مجدية الآن، كما نحن على ثقة أن إسرائيل توافقنا على رأينا. وفي حيال قيام أية أزمة، يجب أن نتبادل وجهات نظر بطريقة جديدة".

أن القوى المعتدلة في الشرق الأوسط، قد أفلتت من الخطر، وانتصر الملك حسين بشجاعته وصموده، وبفضل الصداقة التي تربطه بالولايات المتحدة أمّا الروس فقد حافظوا على خط الرجعة، خشية حدوث خيبة أمل لدى العرب تجاه موسكو.

لقد انتهت الأزمة الأردنية، واسترحنا كانت قصيرة الأمد. ولم يمضِ على انسحاب المصفحات السورية ثمان وأربعون ساعة حتى نشبت أزمة جديدة وهذه المرة كان موضوعها قاعدة سوفيتية بحرية في كوبا.



الفصل الرابع عشر

أزمة في ميناء سيانفوكوس

يوجد على الساحل الجنوبي لكوبا، ميناء يحمل اسم سيانفوكوس، لا يمكن الوصول إليه سوى بممّر وحيد يطل على خليج تنتشر فيه وبكثرة جزر صغيرة، وتحيط به روابٍ وعرة المسالك. ففي السادس والعشرين من شهر آب كانت طائرة استطلاع، تقوم بمهمتها استطلاعية الاعتيادية، فأخذت صورة لأعمال انشائية تقام على إحدى هذه الجزر الصغيرة، ولم تكتشفها طلعات قامت بها قبل أحد عشر يوماً. وظهر أن هذه الأعمال قد بدىء بها منذ بعض الوقت، لكن هذه الصور أثبتت لنا وبصورة أكيدة، أن رصيفاً كان يُقام هناك وأن العمل يدل على إنشاء ثكنة. لم يكن في هذا الأمر شيء غير عادي، ومعلومات إضافية جديدة أضفت عليه أبعاداً أخرى، وهو أن أسطولاً صغيراً من البواخر السوفيتية كان في طريقه إلى كوبا، وكان الأسطول مؤلفاً من مزوّد غواصات، وطّراد لإطلاق صواريخ موجّهة، ومن سفينة خافرة أيضاً لإطلاق صواريخ موجّهة، وسفينة جرّ

لأعالي البحار، وسفينة إنقاذ من الدرجة الأولى، ومن ناقلة نفط في الأسطول البحري التجاري. ومن سفينة برمائية تنقل طوافتين طولهما أربعة وثمانون متراً. أن مزّود الغوّاصات والطوافتين كانت من النوع الذي يُستعمل عادة لصيانة الغوّاصات النووية ولم يكن تشكيل هذه القوّة العملية طبيعياً، وتلاحقت الأحداث فجأة، وامتّدت تقريباً طوال العام وأخذت تعطي معنى خاصاً.

كان كاسترو يعتبر دائماً مسلك خروتشيف في قضيّة الصواريخ، وكأنه استسلام دنيء. وساءت على أثره العلاقات بين موسكو وهافانا". وفي عام ١٩٦٧، هاجم كاسترو الاتحاد السوفيتي علناً، لأنه لم يوفّر مساندة فعّالة إلى أصدقائه العرب، خلال حرب الأيام الستّة. ولقد ثبت أمام جميع الضغوط السوفيتية، ليُعلن عن فصل الشيوعيين من الحركة الشيوعية الدولية، واكمل طريقه في إدارة سياسته المتطرّفة في تصدير الثورة إلى أمريكا اللاتينية، دون عون سوفيتي. كان كوسيغين قد التقى كاسترو عام ١٩٦٧، ولكن في شهر تشرين الثاني من هذا العام بالذات تاريخ ذكرى مرور خمسين عاماً على الثورة السوفيتية، قاطع الكوبيون الاحتفال الكبير الذي نظّم في موسكو.

وعادت العلاقات بين البلدين فتحسنت إثر موت تشي غيفارا في شهر تشرين الأول من عام ١٩٦٧. وفي ربيع عام ١٩٦٨، عقد اتفاق تجاري جديد بقرض سوفيتي يبلغ ثلاثمائة مليون دولار. وفي شهر آب من عام ١٩٦٨ أقرّت كوبا غزو تشيكوسلوفاكيا. ولو بعد بعض الوقت من التحفظ، وفي بداية عام ١٩٦٩، أخذ الروس يرسلون معونات عسكرية نظامية للكوبيين ولأول مرّة بعد مرور عام، وضمنوا سدّ عجز ميزان الكوبيين التجاري مع الاتحاد السوفيتي. وخلال مؤتمر الأحزاب

الشيوعيّة الذي عقد في شهر حزيران من عام ١٩٦٩، وقف ممثّل كوبا وأعلن بكلام فخم، أن هافانا، ستساند موسكو في حالة تحد، أو عدوان ضد الشعب السوفيتي. من أية جهة كانت.

وفي الشهر التالي، أي تموز من عام ١٩٦٩، توجه سلاح الحرب السوفيتي بزيارة لكوبا ولأول مرة. سبع سفن بينها غواصتا هجوم بمحركات ديزل، وواحدة بتسيير ذاتي، ثم توقفت في خليج المكسيك، حيث قامت بعدئذ ببعض المناورات، ثم قامت بزيارة المارتينيك والبارياد، ثم غادرت المفرزة المنطقة وفي الوقت ذاته، أخذت غوّاصة سوفيتية جديدة قادرة على إطلاق صواريخ موجّهة، وهي من الصنف Y ، طريقها في أول سفرة لها نحو الأطلسي الشمالي.

وفي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٦٩، تقدّمت العلاقات السوفيتية الكوبية خطوة إلى الأمام، في المجال العسكري بعد زيارة وزير الدفاع السوفيتي، المرشال أندريه غريتشكو، ومعاون رئيس هيئة أركان البحرية العامّة، الى كوبا، وفي شهر نيسان من عام ١٩٧٠، قام وزير الدفاع الكوبي،راول كاسترو بردّ الزيارة إلى غريتشكو، وأقام خمسة أسابيع في الاتحاد السوفيتي حيث حظي خلالها بمقابلة ليونيد بريجنيف. وفي الثاني والعشرين من شهر نيسان ألقى فيديل كاسترو خطاباً بمناسبة المهرجانات المقامة إكراماً لذكرى لينين. صرّح فيه أنه على استعداد لتوثيق عرى الصداقة مع الاتحاد السوفيتي في المجال العسكري، ولم تمض فترة وجيزة، حتى أخذت طائرات استطلاع من المدى الطويل، تقوم بطلعات من شمال الاتحاد السوفيتي حتى كوبا، وكانت هذه الطائرات مجهزة بأجهزة إلكترونية تُرى بوضوح.

لم يثر تزايد النشاط البحري والجوي السوفيتي في كوبا، أي قلق من قبل وكالة المخابرات الأمريكية أو من قبل وزارة الدفاع القومي، إلا أن الأمر أقلقني جداً مما دعاني لأن أقدم للرئيس موجزاً عنه في أول شهر حزيران من عام ١٩٧٠: "يمكن أن تدخل زيارات الوحدات البحرية السوفيتية في الإطار العام، الذي نشاهده خلال الأعوام الأخيرة. من حيث تزايد النشاط البحري السوفيتي، بعيداً عن ميناء القيد، ويمكن في الوقت ذاته أن يقصد به مناورات بعيدة المدى في سبيل تعويد واشنطن على استخدام السوفيت لكوبا، الذي يسعى لتكوين ائتلاف من خلال هذه الزيارات، وتموين وحدات الحرب السوفيتية في سلاحي الجو والبحر. ويمكن أن تكون نيّة السوفيت وضع قاعدة للوحدات البحرية الروسيّة في بحر الكاريب، بشكل ربّما كان دائمياً، وتتزوّد بالوقود والتموين من كوبا... ومن صالحنا أن نعير اهتمامنا لهذا الوضع".

وفي التاسع من شهر أيلول، بينما كنّا نراقب الأسطول السوفيتي، الذي وصل إلى ميناء سيانفوكوس ، لحقته ناقلة نفط في اليوم التالي. فصدر أمر إلى طائرات الاستطلاع (U-2) بتكثيف طلعاتها اليومية النهاريّة.

أن رد الفعل الكوبي، على طلعات طائراتنا الاستطلاعية (U-2) أظهر أن في الأفق تهيئة لأمر غير عادي. وقطعت أول طلعة جرت في الرابع عشر من شهر أيلول، لأن طائرات ميغ MIG طاردتها. ومهمة استطلاع أخرى حول الجزيرة، سدّت الطريق أمامها فانقطعت. وفي الخامس عشر من شهر أيلول، مُنعت طائرات أمريكية مضادة للغوّاصات، ولوحقت طوال ستة وتسعين كيلومتراً فيما كانت طائرات الميغ ترشقها عدة رشقات متواترة. كل هذا زاد في قلقي وحملني على توجيه تحذير للاتحاد السوفيتي في السادس عشر من شهر أيلول. وبيّنت فيه أن كل عملية صيانة أو تموين لغواصات تحمل صواريخاً أو أسلحة نووية تتمّ في قاعدة كوبيّة، أو قاعدة في

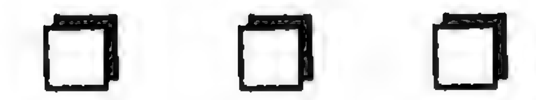
الجزيرة، ستكون لهذه العملية نتائج خطيرة، ووجهت تحذيري هذا خلال مؤتمر صحفي رسمي عقدته في شيكاغو. ولما لم يكن لدينا أي دليل حقيقي. لم أذهب بعيداً إلى تقديم احتجاج رسمي، وكنت أفضّل أن أبقي للروس مخرجاً.

وفي هذا النهار، جمعت لنا إحدى طائرات الاستطلاع (U-2)، البرهان القاطع الذي كنّا نفتقر إليه. وكانت الصور تظهر أن الاتحاد السوفيتي قد أنهى بسرعة وخلال أقل من أسابيع ثلاثة، بناء منشآت ساحلية ذات أهمية. كما أقيمت ثكنتان وبناء للإدارة على أرض جزيرة صغيرة تدعى: كاير ألكاترازا حيث لم يكن يشاهد شيء في الشهر الماضي، كما ظهرت هناك فرق رياضية تتضمن فريق كرة قدم، وفريقاً آخر لكرة السلّة، وهذا كلّه يؤكد حسب تقديري وجود قاعدة روسيّة، ولما كنت هاوياً قديماً لكرة القدم أعرف جيداً أن الكوبيين لا يتعاطونها. وما هو أعظم من هذا، فإن سفينة تزويد الغوّاصات، كانت مثبته بشكل نهائي على ما يبدو، بأربع عوّامات في الخليج. وأنزلا قارباً مساندة من سفينة برمائية، ورستا قرب سفينة التموين، التي كانت قادرة على تموين وصيانة الغواصات. وشبكة مدفعية مضادة للغواصات، كانت مهمتها حراسة مدخل الميناء. وفي البّر، على بعد بضعة كيلومترات من ميناء سيانفوكوس كان يُقام، رصيف جديد، ومستودع وقود، ومركز اتصالات هام. وهذا المركز يشكل فعلاً الصلة التي تصل إذاعة هذه القاعدة بموسكو. وكانت تحرسها صواريخ أرض جو، ورادارات مراقبة، وبالاختصار، أن كل ما كان يشاهد، كانت له طبيعة قاعدة بحرية سوفيتية دائمة.

وفي الثامن عشر من شهر أيلول، أوجزت مجمل هذه المعلومات في مذكرة وجهتها إلى نيكسون، وأرفقتها بخلاصة للمحادثات التي دارت بيني وبين فورونتزوف وختمتها بما يلي:

"أن تفسير صور اليوم، تثبت على أنه بالرغم ممّا دار بيني وبين فورونتزوف من مباحثات، فقد أنشأ السوفيت وبصورة مفاجئة، في خليج سيانفوكوس منشآت خاصّة لاستخدامها كقاعدة ثابته للغوّاصات في بحر الكاريب. ونظراً لأهمية الوضع، فقد طلبت من وكالة المخابرات الأمريكية، أن تقدّم لي في تمام الساعة الثانية عشرة والنصف، تقريراً كاملاً، مقدّرة باعتناء مدى المعلومات، التي جاءت في الصور، لتحديد المكانة الحقيقية للنشاط السوفيتي في كوبا. وطلبت إجراء تحليل عاجل، لعلاقة هذه الأحداث الاستراتيجية.

وردني تحليل المعلومات، بعد بضع ساعات، وكان واضحاً: الروس في طريقهم إلى إقامة منشآت إرتكاز في سيانفوكوس، توقّعاً لعمليات بحرّية في بحر الكاريب، والأطلسي، وأضافت الوكالة: إن هناك وحدات بحرية سوفيتية، تتضمن غواصات نووية، تستطيع العمل بانتظام انطلاقاً من القاعدة الكوبية في سيانفوكوس، كما أكّد خبراؤنا البحريون أن هذه المنشآت ستقلّص بشكل ملموس، الوقت المطلوب للغوّاصات السوفيتية، لتصل إلى مناطق العمليات الأطلسية. ومن هذا ينتج زيادة تقارب ثلث الزمن المطلوب من الغوّاصات حاملة الصواريخ الموجهّة أن تقضيه وهي في متناول يد الولايات المتحدة. وسوف يزداد كذلك عدد الغواصات بما يساوي الثلث. وبعبارة أخرى، أن العملية تمثّل قفزة نوعية، لقوة الاتحاد السوفيتي الاستراتيجية ضد الولايات المتحدة.



لم نكن قادرين على منع الصحف أو الكونغرس من التعليق على القضيّة، وكانت التعليقات التي حددت قد زادت النار اضطراباً، وفاجأتنا الواشنطن بوست في

اليوم التالي بعناوين منها: الولايات المتحدة تنذر الحمر. حول موضوع إقامة قاعدة غواصات في كوبا، لكن الأمر الذي كان يهمّ الصحف بصورة رئيسية، هو قرب سفر الرئيس إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط. أن حكاية القضيّة الكوبية طويلة المدى ولا يمكن وضع حدّ سريع لها، كما انه لم يكن هناك من يفكر بتوجيه انتقاد لنيكسون، حول سفره والأزمة قائمة. وأوردت الواشنطن ستار قولاً لعضو مجلس الشيوخ ـ باريّ غولدووتر: أن كشف البنتاغون عن إمكانية إقامة قاعدة نووية للغواصات في كوبا، هو برهان جديد على الطموح الروسي للسيطرة على العالم، وجاء في قول لعضو مجلس الشيوخ مايك مانسفليد: في الحقيقة أن الوضع مؤلم. يعيدنا إلى ما كان يصرّح به الرئيس جون كينيدي، بعد أزمة صواريخ كوبا في عام ١٩٦٢: "يجب ألاّ نتسامح بوجود أسلحة هجومية في نصف الكرة الغربي إذا أردنا توطيد السلام في بحر الكاريب". وكان عنوان المقال الافتتاحي لجيمس ريستون في السابع والعشرين من شهر أيلول: عودة إلى كوبا وإلى حرب باردة، وبدأه بقوله: (نحن الآن أمام أمر خطير وجدّي يجري بين زعماء كل من الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي. وعلى أيّة حال فإنهم يستعدّون لخداع بعضهم في الجنوب الشرقي من آسيا، وفي الشرق الأوسط وفي كوبا، وهذا يشكل خطراً بالنسبة لهم وبالنسبة للسلم العالمي).

ولقد انتقلنا مباشرة من شؤون فيتنام إلى موجة جديدة من الاحتجاج ضد الحكومة. وفي يوم السابع والعشرين من شهر أيلول. أوضح عضو مجلس الشيوخ، ج وليم فولبرايت، عن شكوكه، أثناء المناقشة المتلفزة: "أسئلة وأجوبة" ازاء الوضع. وانتقد الوضع بشدّة في الوقت الذي كان فيه نيكسون ومرافقوه يغادرون واشنطن، وصرّح قائلاً: في كل عام تقريباً وقبيل التصويت على الميزانية في مجلس الشيوخ، يُروى هذا النوع من الحكايات ، فربما كان هذا صحيحاً وربما كان كذباً، ثم أردف

قائلاً: يمكن طرح سؤال لنعرف حقّ الروس بالوجود في كوبا أم لا. وكان يشك في الوقت ذاته بمخادعة الروس بعيداً عن كوبا، طالما ان الشعبين يمتلكان الآن نفس درجة التكافؤ. وتوضّحت شكوك الإدارة في مقال نشر في الصفحة الأولى من النيويورك تايمس في الثلاثين من شهر أيلول، كتبه تاد زول:

"صرّح موظفون أمريكيون اليوم، أن الولايات المتحدة ترتكز على معلومات مشكوك فيها وباطلة، لتؤكد من خلالها، أن الاتحاد السوفيتي يباشر بإنشاء قاعدة غواصات إستراتيجية في كوبا، ولأجل هذا فإن هؤلاء الموظفين من أجهزة المخابرات. وغيرهم من موظفين آخرين، لا يعرفون لماذا قرّر البيت الأبيض توجيه تحذير لموسكو، ضد إقامة مثل هذه القاعدة".

وأعاد عضو مجلس الشيوخ، فرانك شيرش. بعد الإطلاع على تقرير أجهزة المخابرات: أن الأمور المعروفة حالياً، لا تسمح بإنجاز القضيّة بحال أو بآخر. وجاء نايل شيلان فكتب في النيويورك تايمس في الرابع من شهر تشرين الأول: تعليقات أخرى يشكّك فيها بنوايا الإدارة قائلاً: (إن المحلّلين العسكريين ليسوا متأكدين من حقيقة القاعدة الجديدة في سيانفوكوس ، والتي ربّما هي بناء صغير مُعدّ لإيواء وإبحار نوتيّه الغوّاصات... وبالاختصار فإن هؤلاء الاختصاصيين، لا يعتقدون أبداً أن يكون لدى الروس حاجة أو رغبة في إيجاد قاعدة كبيرة في سيانفوكوس، لسفن من درجة يانكي. أمّا هيئة الأركان العامة المشتركة، فلم تكن مع هذا الراي. اضف، إلى ذلك فقد بات واضحاً، أن تعطيل العمل في إقامة هذه القاعدة، هو الوسيلة المفضّلة لمنع الاتحاد السوفيتي من إشادة ما كان يريد بناءه، وامتداد ما كان يريد من نفوذ).

لم نلاحظ أي ردّ فعل من قبل الاتحاد السوفيتي، فلم يصدر أي تكذيب ولا احتجاج استغراب. ولم نطّلع طيلة هذه الفترة، سوى على تعليق وحيد يشكو من هذه

الدعاية المغرضّة المعادية. لقد واجهنا الروس بخطوات رسمية، فمنذ عودته إلى واشنطن في الخامس من شهر تشرين الأول، طلب دوبرينين. لقاءً عاجلاً، فجاء في اليوم التالي حاملاً مذكرتين: غاية المذكرة الأولى، إنقاذ الظواهر، واطمئنان أتباع الروس من العرب، وتبدي ارتياحاً أمام إلتزامي الذي أعلنت عنه في الخامس والعشرين من شهر أيلول حول عدم التدخل في الأردن، إذا لم تتدخل دول أخرى. وهذه طريقة يفسّر بها الكرملين وضعاً لم نغيره، تجاه أتباعه العرب، وكأنه انتصار للدبلوماسيّة السوفيتية. ولم أر ما يدعو إلى متابعة المباحثات حول مثل هذه الأمور، وكل وعد باعتدال مستقبلي، له تقريره واعتباره في نظر الدبلوماسية.

أما المذكرة الثانية الأهم، فهي تتعلّق بسيانفوكوس. وكانت تؤكد في بدايتها اتفاقية عام ١٩٦٢، وتختم بالتزام جلي بعدم إقامة قواعد في كوبا:

"لم يقدم الروس على عمل شيء، ولن يقدموا في هذه الفترة على عمل شيء في كوبا، (بما فيها منطقة ميناء سيانفوكوس) يناقض الاتفاقية آنفة الذكر".

وبعد أن استنفذ الروس تكرار أغنيتهم الدائمة، حول القواعد الأمريكية عبر البحار، وأوضحوا أن الاتحاد السوفيتي، كان قد اقترح خلال مباحثات سالت، تحديد مناطق عمليات الغواصات حاملة الصواريخ، ويخلصون في مذكرتهم إلى القول:

"على كل حال، نريد أن نؤكد مرّة أخرى، أن الروس من جهتهم. يحافظون وبكل دقّة على تعهداتهم حيال كوبا، وسيكملون المحافظة عليها مستقبلاً، انطلاقاً من مبدأ أكّده الرئيس نيكسون، وأقتدى به الأمريكان، ويحرصون جداً على الإبقاء على التزاماتهم".

ثم أضاف دوبرينين شفهياً، دون التقيّد بالتزام، بعدم استدعاء غواصات سوفيتية إلى الموانىء الكوبية، فهو على استعداد أن يؤكد باسم حكومته: أن الغواصات حاملة الصواريخ الموجّهة، لن تتوقف أبداً في تلك الموانىء خلال العمليات. فأجبت أنه يجب أن تتأكد حكومتانا من تحديد كلمة" قاعدة" في مفهوم واحد. وسأعود إلى الاتصال به. بعد تجهيز جميع الايضاحات الضرورية.

كانت لهجة الجواب الروسي إيجابية تماماً، إذ كانوا يتعهدون بعدم إقامة قواعد بحرية في كوبا، على الرغم من غموض التعبير، وتوافق أعمالهم مع أقوالهم. وبعدما أعطيت تصريحات للصحافة، انقطع العمل في إقامة منشآت مينائية، وأبعدت سفينة التموين، ولم تعد تستخدم، كمنشأة عائمة للإصلاح، وغادرت السفينتان التابعتان للأسطول، في اليوم التالي.

وفي التاسع من شهر تشرين الأول، سلمت دوبرينين تعريفاً مكتوباً لكلمة: "قاعدة" أعددتها مع ضابط الارتباط لدى هيئة الأركان المشتركة، الكابتن رامبرندت س. روبنسون وهي كما يأتي:

" إن الحكومة الأمريكية راغبة، في إلا يقيم الاتحاد السوفيتي، أو يستخدم أو يسمح بإقامة منشآت في كوبا، بأية طريقة يمكن استعمالها نقطة استناد أو مكان إصلاح أعطال السفن الحربية السوفيتية، المجهّزة بأسلحة هجومية، وهذا يعني: غواصات، او سفن سطحيّة، مجهّزة بصواريخ نووية أرض ـ أرض".

ومن ثم أخذت المذكرة تعدّد خمسة أنشطة، لا يجوز الشروع فيها بموجب الاتفاقية، ولأجل توضيح تعريفنا. فقد أطلقنا على مذكرتنا عنوان:

" مذكرة الرئيس".

تقبّل دوبرينين الوثيقة، وقال أن عليه انتظار تعليمات موسكو، غير أنه يتمكن أن

يؤكد لي منذ الآن أن وكالة تاس ستنشر قريباً تصريحاً رسمياً. وفعلاً فقد صدر التصريح الرسمي في الثالث عشر من شهر تشرين الأول. معيدة على الأسماع ما جاء في المذكرة السوفيتية الصادرة بتاريخ السادس من شهر تشرين الأول. ووصف الناطق بلسان وزارة الشؤون الخارجية، المذكرة أنها إيجابية، وكانت كذلك فعلاً. وتضمّنت اتفاقيات عام ١٩٦٢، ولأول مرّة. الغوّاصات، والصواريخ الموجّهة المركّزة على سفن حربية.

وأعطينا برهاناً صادقاً، على حسن نيّة السوفيت بعد أسبوعين. أن وزير الشؤون الخارجية، غروميكو، الذي قدم إلى الولايات المتحدة،لحضور اجتماعات الجمعية العامة الأمم المتحدة، إلتقى الرئيس في الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول. وفي اليوم الثالث والعشرين منه، تحدّثت إلى دوبرينين في السفارة السوفيتية في نيويورك، في حين أن نيكسون لم يعدل بعد عن الحصول على إعلان للقاء قمة قبل الانتخابات وهذا أمل، ولحسن حظّنا متوقّع فشله. فأعاد دوبرينين بحث قضية كوبا، بعد أن ألمح إليه تلميحاً موجزاً. وبصورة طبيعية. كان غروميكو يتساءَل عن السبب. فهل كنّا نعدّ شيئاً جديداً؟ بالنسبة لعقليّة الروس المعقّدة، دائمة التشكيك كانت ترى في إهمال الرئيس للموضوع مفهوماً خطيراً. وفي الواقع، لم يعد نيكسون إلى الموضوع. لأنه لا يريد التدخل بمحادثات دقيقة يتبادلها كيسنجر - دوبرينين بحضور وزيره للشؤون الخارجية. فسألت دوبرينين، عمّا كان يجيب به غروميكو فيما، لو أثار الرئيس قضيّة كوبا. أعلمني دوبرينين، أن غروميكو قد تلقّى تعليمات تمكّنه أن يؤكد لنا:" ليس لنا قواعد غوّاصات في كوبا، كما أنه ليس لدينا استعداد لإقامة منشآت بحريّة حربيّة، وسنحترم بدقة تامة اتفاقياتنا لعام ١٩٦٢، وتضمّن هذه الاتفاقية، كل ما اتفق عليه منذ شهر آب لعام ١٩٦٢. وأضاف دوبرينين: أن لائحة النشاطات التي استثنيناها، لا يمكن تشميلها باتفاقية رسمية، دون مبادلة ويجب أخذ العلم أن

الاتحاد السوفيتي متفهم جيداً ما نرمى إليه بكلمة "قاعدة" وبعبارة أخرى فإن" مذكرة الرئيس" أصبحت جزءاً متّمماً للاتفاقية.

إن معالجة القضايا مع الروس ليست سهلة. أن سفينة تموين الغواصات السوفيتية وسفينة الإنقاذ، ترافقها أربع سفن تجارية، وخمس طوّافات كوبيّة، غادرت في الواقع سيانفوكوس في العاشر من شهر تشرين الأول. وفي الخامس عشر من الشهر نفسه، عادت هذه السفن لميناء مارييل، على ساحل كوبا الشمالي. ولم تغادر مارييل إلاّ في الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول، حيث قامت بدورة حول الجزيرة ووصلت مرّة أخرى إلى سيانفوكوس في السابع من شهر تشرين الثاني.

فتقدّمت باعتراض شديد اللهجة إلى دوبرينين في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني، وفورونتزوف الموجود في كل مكان، صرّح للصحفيين في الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني، سيقتصر عمل سفينة التموين، على تموين الغّواصات وهي في عرض البحر، إلاّ انني حذّرت دوبرينين في الثاني والعشرين من شهر كانون الأول، أن صيانة الغّواصات في الموانيء الكوبية او بعيداً عنها، سيؤدي الى وضع خطير جداً بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. وفي الرابع من شهر كانون الثاني لعام ١٩٧١، اكد الرئيس ما طرحته، أذ قال خلال لقاء متلفز: «أذ صدق وأجريت اعمال صيانة لغواصات نووية في كوبا أو حولها، فإن هذا يشكل خرقاً للاتفاقية". وأعدّ البيت الأبيض نصّاً في الخامس من شهر كانون الثاني، يحدّد ما يلي: يمنع كل عمل صيانة يجري للغواصات في البحر أو مكان آخر من الآن وصاعداً، من قبل سفن التموين المتواجدة في كوبا.

غادرت سفينة التموين بحر الكاريب في الثالث من شهر كانون الثاني لعام ١٩٧١ لتستبدّل بسفينة تموين أخرى، وصلت إلى كوبا في الرابع عشر من شهر شباط. ترافقها قطع أخرى خاصّة من القطع البحرية الحربية السوفيتية، ومن بينها غوّاصة

نووية هجومية. وبعد اجتماع فريق العمل الخاص سلمت دوبرينين مرة أخرى مذكرة بينت فيها أن وجود سفينة تموين في سيانفوكوس مدة مائة وخمسة وعشرين يوماً، بالإضافة إلى المائة وستة وستين السابقة، تشكل خرقاً للاتفاقية، فغادرت سفينة التموين والغواصات مكانها. لكن أسطولاً روسياً آخر عاد فوصل في أيّار، وبينه سفيّنة تموين وغواصة نووية مجهزّة بصواريخ في رحلة تدريب، فرست هناك للتجربة، وعلى كل حال فقد اهتدى الروس إلى منفذ من خلال هذه التوقفات المسموح بها.

فاحتججنا مجدداً بقوة وغادرت أخيراً سفينة التموين.

علينا إلا ننسى، أن كل هذا يجري غالباً بطريقة دبلوماسية سرّية.وطريقة المعالجة كانت بالضرورة سلسلة من المذكرات على لسان الرئيس، بعد تمحيصها من قبل مجموعة من أعضاء منظّمات حكومية ضمن فريق العمل الخاص. وهذا يُفضّل على مجابهة مأساوية، كالتي جرت عام ١٩٦٢. وأننا نقدّر أن دبلوماسية هادئة، كانت أكثر ملاءمة، لتسمح للروس بإمكانية التراجع دون إذلال. وبثباتنا أمام إنشاءاتهم، تحاشينا إثارة أزمة خطيرة، وتوصلنا إلى أهدافنا. لقد توقّفت الإنشاءات العسكرية، ودمّرت المباني المضادة للطيران، وبالنسبة للاتصالات الإذاعية فقد توقّفت أيضاً عن العمل، فاستطاع الأميرال توماس موورير، رئيس هيئة الأركان العامة المشتركة، أن يُدلي بتصريح في النادي الاقتصادي في ديترويت، في التاسع من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٧٠، قال فيه ان ليس للاتحاد للسوفيتي أية قاعدة للغواصات في كوبا.

وفي الحقيقة لقد آلمنا الروس كثيراً. بسبب توقفات أساطيلهم في الموانئ. لكن التوقفات المينائية، غير فعّالة، إذ لم تكن هناك منشآت ساحليّة. ولو منعنا نهائياً هذه التوقفات، كنّا عرّضنا تحرّكات البحرية الحربية الأمريكية ومعها أيضاً مبدأ حرّية الابحار. أن الأمر الذي كان يقلقنا في كوبا عام ١٩٧٠ هو التوسّع في قدرة الغواصات

المجهزة بصواريخ سوفيتية، ضد الولايات المتحدة بفضل إقامة قاعدة في بحر الكاريب. وقد تحاشينا ذلك.

ولن ننسى طبعاً، أن الروس حاولوا تضليلنا، وإذا كانوا لم يكملوا مشاريعهم فسبب ذلك يعود إلى أننا منعناهم عن إكمالها بعناد. لقد أعلمت حكومة نيكسون، حكومة موسكو، أن قلوبنا تهفو إلى فترة اعتدال متبادل وتساهل. وخلال فصل خريف عام ١٩٧٠، رغبت موسكو في معرفة، عما إذا كانت هذه الرغبة، تعكس ما نحن فيه من تردّد وضعف داخلي، نتيجة وضعنا مع فيتنام، أو هي رغبة صادقة، وبعد أن تلقّت موسكو الجواب، تركت سيانفوكوس تتيه في عالم نسيان كامل.

الفصل الخامس عشر

أزمة انتخابات في تشيلي

في الرابع من شهر أيلول لعام ١٩٧٠، حصل سلفادور اللندي غوسّنس على أغلبية الأصوات في الانتخابات الرئاسية. التي كانت تدور بين ثلاثة مرشحين ونال ٣٦.٢٪ من مجموع الأصوات. متفوقاً على المرشح الذي وصل إلى الدرجة الثانية بتسعة وثلاثين ألف صوت. ولدى مقارنة ذلك بالأصوات التي نالها في انتخابات عام ١٩٦٤ نلاحظ انها تقلّ بثمانية وثلاثين وتسعة بالعشرة من مائة عمّا حاز عليه حينذاك. وأدّى إلى هزيمته من قبل ادواردو فراي مونتالفا، ولكن في عام ١٩٧٠ فإن القانون، حرّم على فراي، ذي الشعبيّة، تحديد ولايته، وعدد الأصوات المرتفعة ضد اللندي والذي قدّر باثنين وستين وسبعة بالعشرة من مائة. كان هذا العدد موزعاً بين مرشحين اثنين. وعلى البرلمان التشيلي تنظيم انتخابات أخرى للتمكن من الترجيح بين المرشحين إذا لم يحصل أحد منهم على معدّل الأصوات المطلوبة.

وقد أرسل أدوارد كورّي سفيرنا إلى تشيلي التقرير التالي:

"جرى التصويت بسكينة في تشيلي بغية الحصول على حكومة ماركسية لينينية. وهذا أول شعب في العالم. يُقدم على هذا الخيار تلقائياً وبعد معرفة الوقائع... أن الحياد هو بنسبة واحد بالمائة، لكن هذا يكفي للجمعية التأسيسة في تشيلي لتعلن عن نجاحها النهائي. ولم يكن هناك سبب يدعو إلى التصديق أن الجيش التشيلي يبدأ حرباً أهليّة، أو أن حدوث عجيبة أخرى تأتي على انتصاره. ويؤلمنا التفكير أن تشيلي قد اختارت طريق الشيوعية بأكثرية الثلث فقط (ستة وثلاثين في المائة) أكثر من أي بلد تُقرّ هذا الخيار وتسير فيه.لكن هذا الواقع سيكون له، دون ريب، أثر عميق في أمريكا اللاتينية، وربّما في بلدان أخرى. فقد عانينا هزيمة كبرى ، ستنعكس نتائجها دفعة واحدة على الوضع الداخلي والدولي. ستتأثر بذلك بعض البلدان مباشرة وبلدان أخرى على المدى الطويل.

كانت الانتخابات في تشيلي ووصول اللندي إلى الحكم، تسيء بحق إلى مصالحنا الوطنيّة، لم يكن من السهل علينا أن نفكّر بوجود حكومة أخرى شيوعية في نصف الكرة الغربي. وكنّا على علم مسبق، أنه لن يطول به الوقت للأخذ بسياسة عدائية لأمريكا وإلغاء التضامن الموجود في هذا النصف من الكرة، وأن يقيم مصالح مشتركة مع كوبا، وإقامة علاقات وديّة مع الاتحاد السوفيتي، بصورة آجلة أو عاجلة. ومن المؤلم حقاً أن يقطع اللندي علاقته بتاريخ ديمقراطي طويل سارت تشيلي على هديه وأن وصوله للرئاسة لم يكن نتيجة انتخابات فعليّة حصل فيها على الأغلبية، بل كان إرادة عابرة في تنظيم إنتخابي. أن ستة وثلاثين في المائة من الأصوات المحدّدة، غير كافية، لإعطائه حق تغيير المنظمات السياسية وجعلنا في اتجاه واحد.مع الاقتصاد الذي سيفرضه اللندي على التشيلي. حكومتان أمريكيتان سابقتان

توصلنا إلى نفس الاستنتاج. وأقرنا أن حكومة اللندي في تشيلي ستلحق ضرراً بالمصالح الوطنية الأمريكية الأساسية وأن استنتاجنا في عام ١٩٧٠، كان ذاته فعلاً.

❐ ❐ ❐

كما أسلفنا في القول، هناك حكومتان تتابعتا، واستنتجنا أن سلفادور اللندي، والقوى التي تسانده، يشكلان تهديداً لمصالحنا، نتيجة تعاوننا مع خصمه في انتخابات عام ١٩٦٤. فقد وظّفنا حينذاك قرابة ثلاثة ملايين دولاراً لمساندة حملة فراي الانتخابية. وخصّص أسلافنا حتى عام ١٩٦٨وبصورة سرّية، بعض مئات آلاف الدولارات، لضمان هزيمة اللندي في الانتخابات التشريعية التي جرت في شهر أيّار لعام ١٩٦٩. وارتفع مقدار المعونة الرسميّة الأمريكية لحكومة فراي إلى أكثر من مليار دولار وكان هذا أكبر برنامج معونة يصرف في أمريكا اللاتينية، كان القسم المرتفع منه لمساندة القوى الديمقراطيّة ضد اللندي، تشكّل بحد ذاتها، وفي بداية استلام نيكسون لمهام رئاسته، خطراً على مصالحنا القوميّة.

وممّا يدعو إلى الاستغراب، هو أن حكومة نيكسون، في بداية أمرها، لم تحرك ساكناً ضد اللندي، أكثر مما كان يقوم به أسلافنا الديمقراطيون. فمن جهة كانت تقلقنا أزمات كثيرة. ومن جهة أخرى. بسبب خطأ في تقدير نتيجة مقبولة للانتخابات التشيلية. وقبل هذا التقرير على علاتّه دون مناقشة، لأنه كان يؤدي إلى استنتاج مقبول، ولا يفيد التساؤل عن الخيارات الصعبة التي كدنا نجبر عليها عام ١٩٧٠.

إن حكومة الولايات المتحدة، ساندت فراي طيلة عدة سنوات وبقوّة لأنه كان الرجل الأكثر شعبية، والأكثر جدارة بحكم تشيلي. ولم يتبادر للذهن أي ريب عند اتخاذ هذا القرار بل كان يفسح لنا المجال في آن واحد، بمقاومة الشيوعيين،

ومساعدة القوى المصلحة والتقدميّة، التي تساندها الأغلبية العظمى من التشيليين، ولم تُتَح لذا مثل هذه الفرصة، وكان علينا أن نختار. كان الدستور التشيلي يحرّم إعادة انتخاب رئيس الدولة مرّتين، وبالنتيجة فهذا ممنوع على فراي أيضاً. وحزب فراي، حزب المسيحيين الديمقراطيين، انهزم في الانتخابات البرلمانية لعام ١٩٦٩، وخسر ما يقرب من ١١٪ من الأصوات المقرّرة له. أما الحزب الوطني المحافظ فقد استعاد الأصوات اللازمة له. وتفجّر الحزب المسيحي الديمقراطي، إذ أن أعضاءه الذين من أقصى اليسار تخلّوا عنه، عندما رفض الإذعان لطلبهم في إقامة" اتحاد شعبي" مع الأحزاب الماركسيّة، وأصبح جهازه الحزبي نهباً بين أيدي القوى المعارضة لفراي، وهي فئة مشاغبة جداً، ولا تعترف بتقاليد مجتمع منفتح وديمقراطي، وهي في الوقت ذاته غير مصلحة، وكثيرة المعاداة للولايات المتحدة.

ظهر لنا استقطاب الحياة السياسية بشكله الواضح، عندما أجبر فراي، نتيجة لضغوط اليسار، أن يتخذ قرارين هامين في بداية عام ١٩٦٩ ولم يستطع الصمود أمام مظاهرات الطلاب الثوريين، فألغى زيارة الحاكم نلسون روكلفر، ممثل نيكسون والذي كان يقوم بجولة في أمريكا اللاتينية، ليمهد لتقارب جديد في نصف القارة الغربي، وأكد فراي، في الوقت نفسه، على مناقشة مجددة لإجراء اتفاقية مع شركات النحاس الأمريكية والتي كانت قد وقعت منذ عامين واكتسبت تشيلي بفضل هذه الاتفاقية، مساهمة فعلية في ملكية مناجم النحاس. وتصل هذه الاتفاقية الآن إلى أوج منفعتها المباشرة، واستملاك التشيلي التدريجي لبقية رأس المال الأمريكي. إلا أننا كنا نرغب وبإلحاح، في تقوية ما كنا نحن وأسلافنا نؤمّل إحداثه في محيطنا، وهو ديمقراطية معتدلة في تشيلي. وبناء على ذلك صدرت الأوامر إلى السفير كوري لمحاولة تجديد إقامة اتفاق مقبول لدى الفريقين. واتفاق مقبول من خلال هذه القرائن كان ضرباً من المستحيل، وليس هناك من يجهل أن البلد قادمة على نزع الملكية بصورة مطلقة.

وفي العام ١٩٦٩ بدأت بالتزايد الاتجاهات نحو اليسار من قبل المسيحيين الديمقراطيين التشيليين وتقليل مساندتهم الشعبية كانت تجعل توحيد الأحزاب حول ترشيح وحيد، كما جرى عام ١٩٤٦، أمراً مستحيلاً وحسب التقديرات الأولية، فإن التنافس بين المرشحين أيل إلى إقرار أن يكون هناك ثلاثة مرشحين: محافظ ـ مسيحي، وديمقراطي ضعيف ـ ثوري من أقصى اليسار، والذي يمثله اللندي، وأمل الكونغرس النهائي، أن فريق اللندي ليس بعيداً من الحصول على الأغلبية. وفي عام ١٩٦٩، كان البيت الأبيض يسوده القلق بسبب قضية فيتنام واضطراباتها الداخلية، والعلاقات السوفيتية، وأوروبا الغربية، ومفاوضات اوكيناوا مع اليابان، وبواكير مبادرتنا نحو الصين. وكنت آنذاك على علم قليل بالقضية التشيلية، لأتمكن من التشكك بما يبديه الخبراء من أقوال. لم تلفت انتباهنا إلى خطورة الوضع، أية وزارة أما الذين كانوا راغبين في دور اكثر حيوية، من قبل الولايات المتحدة فإنهم كانوا يترددون في مجابهة الشؤون الخارجية التي كانت تغالط في العمليات السرّية. أن تشيلي وبكل تأكيد هي المثال التقليدي لعدم إطلاع البيت الأبيض على ما يجري فيها من أحداث عظام. وبكل بساطة فإن السبب يعود إلى أن التنظيمات ذات العلاقة، غير متفقة على إيلاء تلك الأحداث الأهمية الجديرة بها، أن" معاهدة عدم الاعتداء" التي كانت تشغل أذهان التنظيمات الحكومية في سبيل اجتناب المنازعات، تجعلها في وضع يسيء إليها. وأن هذه المعاهدة منعت أن تكون قضية تشيلي في عداد القضايا الهامة، التي عرضت على البيت الأبيض عام ١٩٦٩. ومن المؤكد أن وكالة المخابرات الأمريكية، قد نبهت ولعدة مرات، أن إذا أردنا الحصول على نتائج مرضية عام ١٩٧٠، يجب أن نبدأ منذ عام ١٩٦٩. وقدرت وكالة المخابرات الأمريكية في نيسان ١٩٦٩ أن لليسار الثوري، حظّ وافر، في إحراز الغلبة في الانتخابات الرئاسية، لكن هذا حكماً تطبيقياً لعملية يجب البدء بها، إذا أردنا الالتزام كما علمنا عام ١٩٦٤ولم

يكن هذا تحريض للآخذ به. وعلى كل حال، فإن وكالة المخابرات الأمريكية، ستجد نفسها أمام معارضة عنيدة، من مكتب أمريكا اللاتينية في وزارة الشؤون الخارجية، الذي لا يستطيع مواجهة واقع السياسة التشيلية. ولم يبق لدينا عام ١٩٧٠، أي مسيحي ديمقراطي إصلاحي لمساندته، إذ أن الحزب كان منقسماً على نفسه، مرشحه ضعيف، ويميل إلى اليسار الثوري. وإذا قدّر (اللندي) أن ينهزم، فلن يكون ذلك، إلاّ من قبل المحافظ جورج الساندري. وعلى الرغم من مستندات ديمقراطية صحيحة، فإن مكتب أمريكا اللاتينية لم يكن يحبّه. وبصورة خاصّة لأنه كان مسناً. ولانه كان غير تقدّمي. وبعض أعضاء مكتب أمريكا اللاتينية، لم يكونوا يفرّقون بين مصلحين اشتراكيين وجغراسييّن، ولا يقدّرون أن رئاسة اللندي خطرة جداً. تجعله يتغلب على الإيديولوجيين ممّن يناصبونه العداء من اتباع الساندري.

ولقاء ذلك، فإن الاندفاع الأمريكي، إلى عدم التمييز بين السياسة وتقنية التطور الاقتصادي،قد أسهم ودون قصد، خلال السنوات الأخيرة من حكم جونسون، في إضعاف القوى السياسية الإصلاحية، التي كان يفضلها موظفونا، والتي كانت مساندتها أساسية للتمكن من الصمود أمام الأحزاب الثورية، وفي عام ١٩٦٨ (قبل عامين من الانتخابات الرئاسية التي أوصلت اللندي إلى الحكم) وضعت الولايات المتحدة حدّاً لسياستها في معاونة تشيلي مستندة إلى أن واقع الاقتصاد التشيلي غدا عالي المستوى، وربما كان الأمر صحيحاً من وجهة نظر تقنية، لكنه مثال لخطأ فاضح، في اتخاذ قرارات سياسية صرفه بالاستناد إلى أمور اقتصادية، وقابل التشيليون إلغاء العون الأمريكي بإمتعاض، وتوقف الاندفاع المعتدل، الذي يمثله فراي، واستغل ذلك الجناح الثوري والمعادي لأمريكا، الذي كان يطالب ببرنامج اقتصادي، مشابه تقريباً لبرنامج الأحزاب الثورية، وبسبب ذلك. أصبح الموقف الانتخابي أكثر غموضاً.

أن اقتراب النمو التقني، كان يزداد ويخط متواز لعداء عقائدي للتسلّح ففي عام ١٩٦٧، أصبحت سياسة الولايات المتحدة، تعادي أكثر فأكثر العسكريين التشيليين، وكان المقصود من ذلك وبصورة نظرية، تشجيع تغيير اقتصادي، بإنقاص النفقات العسكرية، في سبيل منفعة التطور الاجتماعي والاقتصادي انطلاقاً من مبدأ، ان هذه البلاد ليست بحاجة إلى جيوش. وحدد سقف لمبيعاتنا من السلاح. وانهينا كذلك التعويضات العسكرية. وشجعنا فراي على الوقوف إلى جانب مخططات تسريح الجيش ونزع السلاح في أمريكا اللاتينية. وفي شهر تشرين الأول من عام ١٩٦٩، فإن عدم رضا العسكريين التشيليين، بسبب نقص معاشاتهم، وأسبّاب أخرى مهنية، ترجم كل هذا إلى عصيان مسلح مخفق، فأعلن فراي حالة التأهب. ولم يكتف مثيرو الاضطرابات العسكرية بهذا القدر.

والخلاصة أن حكومة نيكسون ورثت في تشيلي، حزباً مسيحياً ديمقراطياً، مندفعاً أكثر فأكثر نحو اليسار، وامتعاضاً عميقاً من العسكريين، تجاه الولايات المتحدة والمسيحيين الديمقراطيين. وهذا ما أتاح الفرصة لـ (اللندي) لشراء العسكريين" أو تحييدهم خلال السنوات الأولى من ولايته.

ولدفع الرعونة إلى اوجها، فقد اختار مكتب أمريكا اللاتينية ظرفاً، لينطلق منه إلى مبدأ تقديم مساعدة سرّية، للأحزاب الديمقراطيّة الأجنبية، التي كانت في فترة ما محطّ آمالنا في جهودنا التي نبذلها في تشيلي. ان الوسائل المعدّة لإيقاف الاشتراكيين - الشيوعيين من الوصول إلى الحكم، يجب أن تكون من الآن وصاعداً - كما أصبح واضحاً، موجودة بكاملها في تشيلي. ويمكن كتابة أطروحة دكتوارة فخمة حول الموضوع. لكن إثارة القضيّة وبصورة مفاجئة عام ١٩٧٠ تعود إلى اتّقاء مصاعب غير مقبولة، من قبل أناس مأجورين، والتساؤل هنا هو كيف أن سياسة مثل هذه، لا تربك حتى القوى التي كان يراد تشجيعها؟ وكيف أن هؤلاء الذين كنا

نساندهم، لم يلاحظوا تبدّلاً في سياستنا؟ وفي انتخابات حرجة، فإن تبدّلاً بسيطاً في توازن الأصوات يمكن ان يكون حاسماً.

لم أكن مطّلعاً إلاّ بصورة سطحيّة على معطيات عام ١٩٦٩. أن اللجّنة (٤٠) لم تأتِ على ذكر هذا الموضوع في جدول الأعمال، طيلة الواحد والعشرين شهراً. التي سبقت انتصار اللندي الذي كان في الرابع من أيلول. وفي شهر نيسان من عام ١٩٦٩، عزمت هذه اللجنة على تأجيل أي قرار أو نقاش يتعلق بالقضيّة الطارئة. وفي الأشهر الخمسة التي سبقت الانتخابات أي في آذار من عام ١٩٧٠، خصّصت مبلغاً زهيداً لصرفه في سبيل الغاية ومساندة المرشحين الديمقراطيين، وفي أواخر حزيران من عام ١٩٧٠، خصّصت أيضاً مبلغاً أقل أهمية لصرفه في نفس السبيل. لكن المبلغ بكامله لم يصل إلاّ إلى (١٥٪) ممّا كانت صرفته الولايات المتحدة وبصورة سرّية عام ١٩٦٤. ووصلت الأموال متأخرة جداً إلى تشيلي، قبل الانتخابات بأربعة أسابيع تقريباً. وفي عام ١٩٧٠، قرّرت اللجنة (٤٠) أنه لا يمكن عمل شيء ما قبل الانتخابات. وبعبارة أخرى، فإن اجتماعين من أصل أربعة كانا دون جدوى.

كان مجموع الأصوات التي حصل عليها اللندي. في الرابع من شهر أيلول عام ١٩٧٠ ضئيل مقارنة بالنسبة المئوية للأصوات التي حصل عليها عام ١٩٦٤، عند هزيمته أمام فراى. وفارق الأصوات التي نالها خصوم اللندي عام ١٩٧٠، وزّع بطريقة لا تعوّض. وبموجب الدستور التشيلي إذا لم يحصل احد المرشحين على أكثرية الأصوات، يجب على البرلمان البتْ بأمر مرشحين قريبين من الفوز، بعد خمسين يوماً، أي ما يصادف في الرابع والعَشرين من شهر تشرين الأول.

وبدأت في الحال، مناورات معركة الانتخابات الأخيرة، وفي الخامس من شهر أيلول أعلن عن فوز اللندي، في مؤتمر صحفي، وبدأ بتنفيذ برنامج الوحدة الشعبية،

الذي جعله شعار حملته الانتخابية. لكنّه ولتهدئة مخاوف البرلمانيين، فقد بدأ يخفّف حدّة بعض وعوده. وأكدّ انه لن يكون أبداً. تحت رحمة نظام الحزب الواحد في تشيلي، وأنه سيحافظ على المساهمة التشيلية في منظمة الدول الأمريكية (بالرغم من تعهدّه الخطّي في برنامج الوحدة الشعبيّة بإلغاء هذه المنظّمة). كما أعلن أيضاً أنه سيطالب بإعادة قيد مبلغ ثمانمائة مليون دولار للولايات المتحدة. (وشرح مؤخراً لريجيس ديبراي أنه لا يزال باقياً في منظمة الدول الأمريكية لمنع تأثير ردود الفعل الأمريكية في حين أن قناعاته الشخصيّة، كانت تتطابق مع المنظمة اللاتينية الأمريكية للتضامن، التي مركزها في هافانا، والتي ساعد في تنظيمها). وفي اليوم التالي أعلن مناصرو الساندري، أنهم لا يقبلون أبداً بفوز اللندي. ولم يوافقهم الساندري على ذلك، لأنه كان قد حدّد في حملته الانتخابية، أنه سوف يعترف بفوز المرشح الذي ينال أكثر الأصوات، وفي السابع عشر من شهر أيلول التقى اللندي الرئيس فراي، واتفقا على تنفيذ برنامج مشاورة في المجال الاقتصادي. ولو رفض تسوية مماثلة في المجال السياسي، الذي كان يطالب به اللندي، لتوجّب على فراي اتخاذ إجراءات خاصّة، تنذر بعجز اقتصادي في تشيلي.

وعند اجتماع اللجنة (٤٠) في الثامن من شهر أيلول، لدراسة موضوع الشؤون التشيلية، كان من الطبيعي، ان قراراً برلمانياً ضد اللندي كان بعيد الاحتمال. وبعد كل هذا أبلغنا قبل أربعة أسابيع، ان البرلمان سيصّوت إلى جانب اللندي. حتى ولو حصل الساندري على أكثرية نسبية. ومن البديهي أن البرلمان التشيلي، سيمارس انتخابه بكل استقلالية، ويرفض رئاسة مرشح أقلية، يمثل برنامجاً ثورياً، ربما كان معادياً للديمقراطية، في حين أن هناك أغلبية عظمى معتدلة في البلد. لكننا كنا نعرف أن هذا بعيد الاحتمال، وتجاوزاً لخبرة كبيرة، عزمنا على تكليف السفير كوّري

دراسة موضوعية، احتمال وإمكانية انقلاب عسكري، ودراسة الدليل والنفي، في معارضة تشيلية فعالة ضد اللندي في المستقبل.

وبعد الخامس عشر من شهر تشرين الأول، توجه انتباهنا إلى الفترة التي ستعقب انتخاب اللندي. فدعوت فريق الدراسات العليا إلى اجتماع عمل في السابع عشر من شهر تشرين الأول، لتمحيص خياراتنا، بعد استلام اللندي، لمهامه، وفي الثامن عشر من شهر تشرين الأول، قبل محاولة البدء بأي إجراء. وجّهت إلى الرئيس مذكرة، لم تبق شكاً حول الواقع الذي أوجب علينا التخلّي عن أمر الانقلاب، ثم أردفت قائلاً:" يبدو لي حقيقياً أن انتخاب اللندي رئيساً لتشيلي، ستثبته الانتخابات البرلمانية في الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول.

اعتقد اننا كنّا على حق في تقديراتنا، أن ارتقاء اللندي إلى الرئاسة سيلحق الضرر بمصالحنا، وكذلك بمصالح نصف الكرة الغربي. أن الحل الذي نسعى إليه كامن في الترغيب على إجراء استفتاء شعبي صريح، بين القوى الديمقراطية والشمولية. وتشجيع مثل هذه الجهود، كنت ولا أزال أراه محقّاً، كما أني لا أقبل الفكرة التي تحظر على الولايات المتحدة العمل في منطقة مجهولة، لا تفرّق بين الدبلوماسيَة والتدخل العسكري، وفي عالم غامض اتخذ فيه خصومنا حزباً سياسياً أداة يهدّدون بها، ومنظمات خدّاعة دون أعداد، لإخفاء دورهم. ان الجهد كان ضائعاً، اتخذ في الفوضى ونفّذ في الارتباط. ان العمليات السرية لم يكن لها دور ولم تظهر للنور، بعكس ما كانت عليه في عام ١٩٦٤، فلقد كان عملنا ضئيلاً ومتأخراً جداً. واستلم اللندي مهامّه أخيراً، ولم يحدث انقلاب، ولم تجر اتصالات. في سبيل إنجاح آخر بعد شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٠ (على الرغم من بعض التلميحات المخادعة التي وردت في تقرير مجلس الشيوخ) وعندما أطيح به أخيراً، كان ذلك

نتيجة عدم كفاءته وعناده، قاومه القادة العسكريون بمبادرة محضة من قبلهم، ودون أخذ رأينا، إذ أنهم كانوا على ثقة، انه يخطّط للاستيلاء على السلطة وكان قاب قوسين أو أدنى من تنظيم انقلاب في سبيل هذه الغاية. أنهم كانوا على حقّ بما كانوا يفكّرون.

❐ ❐ ❐

أعلن اللندي في الثلاثين من شهر تشرين الأول، عن تشكيل حكومته الجديدة، وكانت تضم خمسة عشر وزيراً. وكل الحقائب الوزارية الهامة، في المجال الاقتصادي والاشتراكي، أسندت إلى الحزب الشيوعي (مالية، اشغال عامّة، عمل) أما وزارة الاقتصاد، فأسندت إلى مستقل، قريب جداً من الشيوعيين. كما أسندت أربع حقائب وزارية إلى الحزب الاشتراكي، حزب اللندي (داخلية، شؤون خارجية، إسكان وتجهيزات، وإدارة مقر الرئاسة) وأسندت سبع حقائب أخرى، إلى أحزاب مختلفة أخرى ثورية ومنشقّة. أن الوزير الجديد للشؤون الخارجية هو كلو دوميرو المايدا ذو اتجاه يساري، وقد عارض في الماضي وجهات النظر السوفيتية، بالنسبة للراديكالية الشيوعية لدى الصينييّن والكوبيين.

أما الرئيس فراي المنتهية ولايته، فقد قال مخاطباً الشعب في الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول: انه باقٍ على نشاطه السياسي، وسيلتزم بمعارضة حكومة اللندي، وحرّض التشيليين على الدفاع عن الديمقراطية، وحذّرهم من خطر قلب الجامعات، إلى ساحات معارك سياسية وبيّن عن قلقه الكبير، حول موضوع الحرّيات السياسية إبّان حكم اللندي.

أقسم اللندي اليمين أمام الكونغرس بكامل أعضائه في الثالث من شهر تشرين

الثاني. وتعهد بالمحافظة على سلامة واستقلال الأمة. وكذلك احترام الدستور وطالب التشيليين بالعمل والتضحية اللازمين لبناء الاشتراكية. واشترك في حفلات التنصيب ممثلوا أكثر من ستّين بلداً، بينها وفود غير رسمية من فيتنام الشمالية، وجمهورية الصين الشعبية. وألمانيا الشرقية وكوبا. وللتدليل على شعور اللندي المسبق بمعاداة امريكا، دُعي أيضاً لحضور الاحتفال رؤساء حزب الاستقلال في بورتوريكو. وفي غمرة الاحتفالات والمهرجانات المقامة في هذا السبيل، تكلّم اللندي موضحاً أنه سيقوم بإستفتاء شعبي عام في حال أن البرلمان يرفض التشكيلات الحكومية الجديدة التي يقترحها. وفي الخامس من شهر تشرين الثاني ألقى اللندي خطاباً في حشد جماهيري، يختتم المهرجانات الاحتفالية طيلة ثلاثة أيام، وتعهد في خطابه بإشادة جمهورية من الطبقة العاملة واتهم النظام الراسمالي، ونسب إليه عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية، وألمح إلى برنامج تأميم هام.

استقبل اللندي شارل ماير، الذي سلّمه رسالة نيكسون، ولم يبد اللندي أية رغبة في المصالحة، لأنه كان قد أوضح طريقة حكمه. وبعد بضعة أيام مثلاً، أقيم تمثال لتشي غيفارا، في حيّ سان ميغل العمالي، وحضر حفل التدشين، المحاربون الثوريون من أمريكا اللاتينية وبينهم الأمين العام لاتحاد العمال الكوبي، وهتف الجميع بالنشيد الوطني الكوبي والتشيلي.

ضمن هذا الجو، اجتمع مجلس الأمن القومي في السادس من شهر تشرين الثاني ليضع خطة للسياسة الواجب انتهاجها إزاء التشيلي. ولقد حسّن الجو تقرير ممكن تصديقه، ورد في اليوم ذاته، أورد حقائق عن اجتماع سرّي جرى بين الليندي وأعضاء جيش التحرير الوطني التشيلي، وهو فريق ثوري أوجد لتخفيف وطأة الثورة في بوليفيا. وجاء في هذا التقرير أن اللندي قد أقسم إذا ما وصل إلى الحكم، بأن

تشيلي ستصبح مركز عون وتدريب عسكري للمنظمات الثورية في أمريكا اللاتينية، الساعية لتحرير بلادها بالكفاح المسلّح.

قبل نيكسون بفكرة الاجماع على تبنّي موقف بارد وصريح، وأبدى قلقه قائلاً: إذا نجح اللندي في تثبيت حكمه، فإن هذا سيشجّع جميع معارضينا في أمريكا اللاتينية، ويحمل المتذبذبين على اتخاذ موقف ضدنا. والعداء المعلن يكون لصالح اللندي، وعزم على إتباع سياسة، أثبتت بتوجيه أذيع في التاسع من شهر تشرين الثاني، أكّد فيه أن الموقف الرسمي للولايات المتحدة سيكون منذ الآن صريحاً وبارداً، لتحاشي إعطاء حكومة اللندي فرصة لاستقطاب المساندة الداخلية والدولية، التي تثبت دعائم نظامه، وطالب أيضاً بتوحيد معظم القوى لمنع حكومة شيوعية في التشيلي، تعادي مصالح الولايات المتحدة والبلدان الغربيّة الأخرى. وأمر الرئيس بعدم إعطاء أي ضمان لاستثمار رؤوس أموال جديدة خاصة. ولوضع حدود للموجودة منها، ضمن الامكانيات ولاستخدام نفوذها لدى المؤسسات المالية الدوليّة، لتحديد الأرصدة أو أي عون مالي آخر لتشيلي. ولن يعقد أي تعهد بعون اقتصادي ثنائي في الآونة الحالية إلا انه استثنى البرامج الخيرية.

أما بشأن معونات الولايات المتحدة على أسس ثنائية، والمساعدات المالية، فنتمكن من القول أنها انتهت عام ١٩٦٨ عندما كان فراي لا يزال بعد رئيساً، أن برامج المعونات قد ارتفعت إلى أربعين مليوناً من الدولارات لعام ١٩٦٩ وإلى سبعين مليوناً من الدولارات أيضاً لعام ١٩٧٠. حتى إبان اللندي فأن استثناء البرامج الخيرية كان موضوع سماح لوضع ستة عشر مليوناً من الدولارات وثمانية في العشرة لبرامج" الغذاء في سبيل السلام"، ومائتين وخمسين الف دولار، رصيداً خاصاً للتعويض عن أضرار الكوارث، مع مساهمة أمريكية بقروض تقدّر بأحد عشر مليوناً ونصف من الدولارات، تخصّص لجامعتين تشيليتين، من البنك الأمريكي

المشترك للتنمية، في شهر كانون الثاني ١٩٧١، وبقيت هيئة متطوعي السلام على ما هي في مكانها. وصرفت الولايات المتحدة أثناء حكم اللندي، أكثر من اثنين وأربعين مليوناً من الدولارات، كمساعدات عسكرية، وقبلت بتأجيل أمر استحقاق قسم من ديونها على تشيلي البالغة قرابة مائتين وخمسين مليوناً من الدولارات وشاركت في قروض صندوق النقد الدولي، I.M.F برصيد يقدّر باثنتين وثمانين مليوناً من الدولارات وثلاثة بالعشرة، ومدّدت التزاماتها السابقة التي وصلت إلى خمسة وعشرين مليون دولار.

وهكذا بقيت تشيلي اللندي بفضل ما تقدّم بيانه، أحد المستفيدين الرئيسيين، من مساعدات الولايات المتحدة الرسمّية في أمريكا اللاتينية. وعلى كل حال. فإن اللندي، قد تلّقى رؤوس أموال جديدة، وصلت إلى ما يقرب من تسعمائة وخمسين مليوناً من الدولارات، من مصادر مختلفة، منها ستمائة مليون دولاراً من مصادر شيوعية، ويصعب علينا أن نستسيغ ذلك، لهؤلاء الذين يفتشون على أسباب تؤهلهم للانخراط في الماركسيّة عند الأزمات الاقتصادية. ولم يكن الضغط الاقتصادي الأمريكي هو الذي أطاح باللندي، إنما سياسته الخاصّة.

لم ينتظر اللندي طويلاً لتنفيذ برنامجه. فقد أعلن في الثاني عشر من شهر تشرين الثاني، إعادة العلاقات الدبلوماسيّة مع كوبا، مخترقاً بذلك قرار عام ١٩٦٤ الذي اتخذه مؤتمر الدول الأمريكية، والتي كانت حسب رأي اللندي، غير ذات اختصاص أن تكون قاعدة معنوية وقضائية، وجرت مفاوضات حول الاتفاق الجديد، مع كارلوس رافائيل رودريغز، لدى استلام اللندي الحكم، وخرجت الشؤون الخارجية، بإعلان في اليوم التالي، قالت فيه أن تشيلي أقدمت على اتخاذ قرار دون العودة إلى المجلس الاستشاري لمنظمة الدول الأمريكية. وأسرعت حكومة اللندي، لتوقيع ميثاق مع وفد كوريا الشمالية. وعلى الرغم من عدم وجود علاقات دبلوماسيّة،

فإن هذا الميثاق لم يشكّل سوى اعتراف بالواقع. وانسحبت تشيلي من لجنة الأمم المتحدة حول شؤون كوريا.

أن أول تحرّك قام به اللندي في العشرين من شهر تشرين الثاني، كان ضد الصلافة الأمريكية، إذ أصدر أوامره بالاستيلاء الإداري، تطبيقياً لقرارات قانون العمل الصادر عام ١٩٤٥، على جمعيتين تشيليين يديرهما نورثرن انديانا براس. ورالستون بيرينا. لقد اتهم اللندي هاتين الجمعيتين بعدم توظيف تشيليين. ثم جاء في خطاب ألقاه في السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني، في اجتماع حاشد للحزب الشيوعي، أن حكومته ستقترح في وقت قريب جداً، قانوناً يهدف إلى تأميم الممتلكات الأمريكية، والمصاريف التشيلية والأجنبية، والممتلكات الصناعية غير النظاميّة، ويتضح من ذلك ان هذا القانون سيرافقه طبعاً اقتراح يحدّد الضمانات المرتبطة بالملكية الخاصّة في الدستور، لتتمكن الحكومة من وضع يدها على المنشآت (كالمعامل والمناجم) وكذلك الأراضي الخاصّة (وكان هذا قد نُفّذ) وألحق هذا الخطاب بإعلان عن سلسلة إجراءات طارئة: تأميم بدرجة كبيرة للمصانع، وإداراتها، مصاريف تجارية وزراعية، وكل ما كان قد أعلن عنه في برنامج حملته الانتخابية لعام ١٩٧٠. وعندما عرض وزير مالية اللندي هذا البرنامج الاقتصادي، على لجنة البرلمان التشيليين عزا مشاكل تشيلي الاقتصادية إلى النظام الرأسمالي، والمستثمرين الأجانب، وطبعاً الأمريكان.

وفي أقل من شهر، عفا عن مئات من الإرهابيين الثوريين من جماعة M.I.R (تشكيل اتجاهه نحو اليسار الشيوعي، أهدافه الاستيلاء على السلطة بالعنف) وفي أقل من عام، أي خلال عام ١٩٧١، وسّع علاقاته في نصف الكرة. وقام فيديل كاسترو بزيارة تشيلي بعد أقل من شهر، وأنهى زيارته بتصريح أكد فيه على" القتال المشترك" ووجهات نظر

الدولتين المتفقة، على معالجة الوضع العالمي، وأدان كل تدخّل إمبريالي في فيتنام، وأبدى سروره بسبب أزمة النظام النقدي الرأسمالي، وحيّا الزيادة المطّردة، الحقيقة ، في القدرة الاقتصادية والسياسية والاشتراكية والتقنيّة في المعسكر الاشتراكي.

وعلى أثر ذلك، فإن حمّا الآند الكوبي: لويس فرنانرز دي أونا، الذي اشترك فعلياً، في إعداد غزوة تشي غيفارا على بوليفيا، وظف في القصر الجمهوري في سانتياغو. وسلّم اللندي أمر حمايته الشخصيّة. إلى أعضاء متطرفين من جماعة M.I.R وفئة مستقلّة من الجيش والشرطة، واستورد بصورة سرّية، كميات كبيرة من الأسلحة الكوبية، لتسليح مؤيديه وإعدادهم لقتال الشوارع (وهذا إجراء شيق من رئيس دستوري) وما يقرب من عشرة إلى خمسة عشر ألفاً من الأجانب، دون سمات دخول، وصلوا ليساعدوا في تنظيم حرب العصابات، الذي كان يتّبع في تشيلي، والنشاطات الإرهابية في البلدان المجاورة. كما جرت محاولات انقلابية في الأنظمة العسكرية، وقامت فئة من الضباط وصف الضبّاط بمحاولة الاستيلاء على البحرية بموافقة ضمنية من الرئيس عام ١٩٧١.

لقد بُحثت أسطورة اللندي الديمقراطية بكثير من الجدّية وثبت خطؤها، وفي الواقع، فإن الإجراءات المختلفة، التي أقدمت حكومة اللندي على اتخاذها اعتبرت غير دستورية، وغير شرعية، من قبل المجلس الأعلى التشيلي، في السادس والعشرين من شهر تموز لعام ١٩٧٣ ومن قبل مراقب الحسابات العامة في الثاني من شهر تموز لعام ١٩٧٣، ومن قبل مجلس النواب في الثاني والعشرين من شهر آب لعام ١٩٧٣. انهت المعارضة، التي أيقضها هو وحرّض عليها نتيجة ما قام به، في داخل تشيلي بانقلاب عسكري في عام ١٩٧٣حكم هذه الحكومة ولم يكن للولايات المتحدة أي تدّخل في تصوّرها، أو إعدادها، أو تنفيذها.

وهكذا فإن تشيلي، احتلّت مكاناً مرموقاً في " خريف الأزمات" وتعرّضنا لمصاعب في الأردن وسيانفوكوس، وكان علينا أن نواجه تحدّياً دائماً في نصف الكرة الغربي، وتروّينا في معالجة الأمور أبعد عنّا الدخول في معارك أزمات قادمة. لقد قاسينا تجارب واختيارات أكثر صعوبة مما كنّا نتوقّع حين فوجئنا بحدوثها، وأتبعت بتجربة كمبوديا العنيفة. ولقد أحاطت بنا تحدّيت فرضت علينا. واستطعنا تخفيف الأحداث في ضوء أهدافنا وأغراضنا الخاصة.